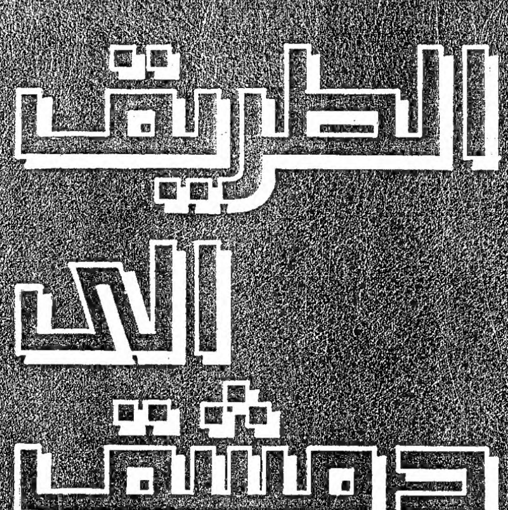
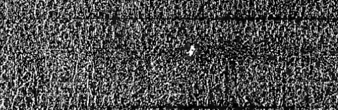


(فتح بلاد الشام)

أحمد عادل كمال

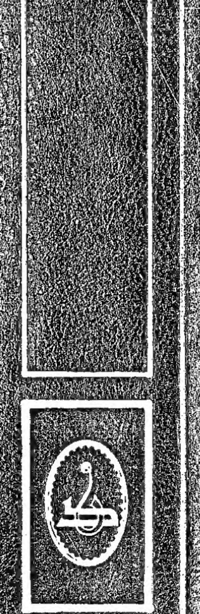
دار النفائس











بسم الله الرحمن الرحيم

استراتيجية الفتوحات الإسلامية



(فتح بلاد الشام)

احمد عادل كمال

دار النفائس

الطبعة الأولى : ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م
الطبعة الثالثة : ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

© دار النفائس
بيروت - ص.ب: ١١/٦٣٤٧ - هاتف: ٨١٠١٩٤ - برقيا: دانفايسكو

بسم الله الرحمن الرحيم

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ
وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى
شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾
وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ
وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

[سورة النور] صدق الله العظيم

مقدمة

قليلة جدا ، بل نادرة معدودة في تاريخ كوكبنا تلك الاجتياحات الحربية التي استطاعت أن تمتد وتستطيل وأن تضع قبضتها على أجزاء لها اعتبارها ونسبتها من العالم .

فالاسكندر المقدوني عبر قرابة خمسين خطا من خطوط الطول في غزوة استغرقت تسع سنوات بلغت مسيرتها اكثر من ١٧٠٠٠ كيلومترا قبل أن يموت بالحمى في عام ٣٢٣ قبل الميلاد . والغزو التتاري المغولي اكتسح ما أمامه من شرقي آسيا إلى غربيها وأسقط في طريقه الخلافة العباسية التي لبثت من قبله قرونا حتى أوقفه جيش مصر الإسلامية بقيادة قطز في عين جالوت قريبا من غزة . ثم لا نكاد نجد أمثلة أخرى في مثل هذين الحجمين . أما ما تسجله صفحات التاريخ قديما من أمثال أعمال تحتمس الثالث أو هانيبال أو يوليوس قيصر ، أو حديثا مثل نابليون بونابرت أو بنيتو موسوليني أو أدولف هتلر أو غيرهم فهي على ضخامتها عمليات أصغر حجما مما سبق ذكره إذا ما قيست بإمكانيات عصرها وبما أنجزت .

فإذا نظرنا إلى تلك الحملات وجدنا امبراطورية الاسكندر قد انحلت وتفككت بمجرد وفاته دون أن تخلف أثرا يذكر ولم تعد أكثر من حديث ، ووجدنا جيش المغول

قد ارتد في هزائم متلاحقة من عين جالوت لا يذكره التاريخ بغير اللعنات على ما ارتكب من جرائم يندى لها جبين البشرية ، ثم ذاب الغزاة المغول في دين من غزوا فدخلوا في دين الاسلام وأخذوا عنه بدلا من أن تظهر لهم حضارة تفرض وجودها ، ووجدنا غزوات نابليون وموسوليني وهتلر قد انتكست وانتهت في حياة أصحابها حتى قضت عليهم (وأصبح الذين تمنوا مكانهم بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا ، ويكأنه لا يفلح الكافرون) .

الفتوح الاسلامية وحدها إذاً ... هي ذلك الحدث الفرد في التاريخ الذي تم إنجازه في سنوات معدودة وتميز بطول المسافة واتساع الرقعة وعلو الصوت وشرف الغاية ونبل المقصد وعمق الأثر ودوامه . ورغم الموجات المضادة المتلاحقة في ترتيبها المتنوعة في نوعيتها العارمة في شدتها ... فمن الجاهلية الأولى واليهودية والردة والمجوسية والصليبية ... إلى الاستعمار والصهيونية والشيوعية والإلحاد والتحلل حتى وصف الحال بجاهلية القرن العشرين ، رغم كل هذا فقد حلت اللغة العربية محل لغات متفرقة ، وقام في قلب الدنيا .. في الشرق الأوسط والشمال الأفريقي شعب عربي واحد جمعته أوثق الروابط من نسب ودين وعادات ولغة وتاريخ ومصالح مشتركة ... وانتشر الاسلام دين الله فدخل القلوب من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي في رسوخ ليس كمثله رسوخ . ولم يحدث قط ـ في غير العربية لغة ـ أن ثبتت لغة أربعة عشر قرنا أو يزيد دون أن تتغير وتتبدل وتندثر ويعلو على أنقاضها غيرها . ولم يحدث قط ـ في غير الإسلام دينا ـ أن صمد فكر أو دين في وجه التغيير والتبديل والمسخ والزيادة والنقصان ، وما ذاك إلا لصدق الرسالة وشمولها وعمومها وصلاحيتها لكل مكان وأوان . ولولا أن كان الفاتحون الأوائل أصحاب عقيدة حقة وذوي إيمان وأمانة يفتحون القلوب بدعوتهم وسيرتهم كما يفتحون الأرضين بسيوفهم لما ارتفعت لهم أعلام أو قامت لهم دولة .

لقد كانت الفتوح حروبا ذات معارك ، والغرض من أي معركة هو تحطيم قوة

العدو بهدف تأمين الحدود أو غزو الأرض أو الاحتفاظ بها أو إسقاط نظام معاد أو فتح باب الدعوة والانتشار لمذهب معين ... وفي حين لا نجد الاجتياحات السابقة أو اللاحقة قد حققت شيئا من تلك الأهداف أو من غيرها إلالفقاعات من الزمن ، فقد انفردت الفتوح الإسلامية بتحقيق هذه الأهداف جميعا ، فهي قد أمّنت حدودها من تدخل الفرس والروم وفرض سلطانها على قبائل تلك الحدود ، ثم تعدى النجاح نطاق تأمين الحدود إلى غزو أراضيها فأسقطت طواغيت فارس التي حكمتها وأشاعت الظلم والبطش فيها ، وأتمت إجلاء النفوذ البيزنطي عن الشام ومصر ، قوى الدولتين كانت تحول دون نشر الدعوة بين الشعوب التي ابتليت بسلطانها ، وبهذه الفتوح انفتحت آفاق الدعوة ورأينا الناس يدخلون في دين الله أفواجا .

فإذا تساءلنا اليوم عن أثر فتوحات الاسكندر أو الهجمة التتارية على عالمنا المعاصر ما وجدنا جوابا ، أما إذا تساءلنا عن أثر الفتوح الإسلامية فبوسع كل منا أن يقول هنا العالم الإسلامي ... المسلمون هنا ! وهذه حضارتنا الزاهرة وهذه آثارها على البشرية .

هذه الفتوح من حيث هي حرب فإنها تستحق الدراسة باعتبارها من الحروب ذات المستوى الرائد الذي ينظر إليه كقمة جديرة أن يسعى القادة أن يحذوا حذوها وينسجوا على منوالها ، فإن الدراسة النظرية للحروب من خلال التاريخ لها أعظم الأهمية ولا يغني عنها الدراسة النظرية للاستراتيجية والتكتيك اعتمادا على أن تأتي الخبرة العملية من خلال المعارك والقتال فقط . كتب مونتجمري[1] « كان أعظم القادة دائما من الدارسين للتاريخ العسكري » . وقال يوما لأحد ضباطه « تذكر أن الذين يحققون النصر بدون دراسة نادرون جداً » . ومن المتيقن أن قادة الفتوح الإسلامية كانوا من أولئك النادرين الذين فتحوا الأرض دون أن يدرسوا حروب من سبقهم من الفراعنة والرومان والاغريق مثلا ، ولكن من المؤكد أيضا أنهم جديرون

(١) الحرب عبر التاريخ ٢٧ .

كل الجدارة أن تكون أعمالهم مجالا لدراسة الأجيال اللاحقة . قال ت . د . لورانس « إن وراءنا نحن أبناء القرن العشرين ألفي سنة من الخبرة [هي أكثر من ذلك] فإذا أجبرنا على القتال فليس لدينا أي عذر إذا لم نحارب جيداً » . وقال فريدريك الأكبر يدلل على أهمية هذه الدراسة « كان عندي زوج من البغال خاضا معي أكثر من أربعين معركة ، وفي النهاية ، وبعد انتهاء كل هذه المعارك فما زالا بغلين ! »

لقد تناولنا بالدراسة والشرح حركة الفتوح الإسلامية صوب الشرق في كتبنا الثلاثة « الطريق إلى المدائن » و« القادسية » و« سقوط المدائن » فشملت فتوح العراق والجزيرة وفارس وأرمينيا وكرمان ومكران وسجستان وخراسان . وفي هذا البحث نستكمل قطاعا آخر من هذه الحركة المباركة عاصر ذلك الذي سبق أن درسنا ، ونعني به عملية فتح الشام . إننا لا نكاد نجد في أي كتاب من الكتب في المكتبة العربية الحديثة ولا في سواها أكثر من صفحات معدودات غير واثقات من نفسها عن فتوح الشام ! هذا بالرغم من حاجة علم التاريخ وعلم الحرب والمكتبة عامة والاسلامية خاصة لاستيفاء هذه الدراسة . ونستطيع أن نقولها دون أدنى مبالغة أن استراتيجية المسلمين الأوائل التي استخدمت في حركة الفتوح الاسلامية ظلت مجهولة[1] حتى عنينا ببحثها وتقديمها إلى القراء .

فإذا كان إخراج هذا البحث لازما وبهذه الضرورة ، فكيف لم يظهر من قبل وقد مضت على أحداثه أربعة عشر قرنا من الزمان ؟ في رأينا أن إعداد هذا البحث يحتاج إلى جوانب متعددة يتحتم توافرها حتى يتسنى إخراجه إلى حيز الوجود ، وفي ذكرها تعريف لا بد منه .. في غير تواضع ولا غرور ..

(١) على سبيل المثال انظر « مدخل إلى التاريخ العسكري » لإيريك موريز ، الفصل السادس والعشرين « من سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية إلى سقوط بيزنطة من ٥٠٠ ـ ١٥٠٠ م » ص ٣١٨ ـ ٣٣٣ . وكذا « الحرب عبر التاريخ » لمونتجمري ، و« تاريخ الجيوش » لجورج كاستلان ، و« الفتوحات العربية الكبرى » لجون باجوت جلوب ، و« تاريخ سورية » لفيليب حتي ، لتبين معلومات هؤلاء الكتاب الكبار عن استراتيجيات الفتوحات الاسلامية .

يحتاج أولا إلى معرفة بعلوم الحرب ، ولقد استغرق ذلك من الشباب زهرته ومن الرجولة نضجها ومن الوقت كثرته .

ويحتاج إلى قدرة على التحقيق التاريخي والبحث المتعمق الملتزم بمنهج علمي صحيح تدفعه المتعة به ويزجيه الشغف إليه ، وهو أمر نترك للقارىء وهو يساير سطور هذا الكتاب من أوله إلى آخره أن يحكم له أو عليه بفكره وبإحساسه .

ويحتاج إلى درايةٍ خاصة بمعالجة شؤون التاريخ الإسلامي خاصة ، لما لهذا التاريخ من سمات متميزة ومصادر وفجاج معينة سوف يحيط بها القارىء ، يكفينا بشأنها أن كل من سبقنا إلى المساس بالموضوع لم يلجها كما ولجناها ، وذلك في تقديرنا لسببين ، أولها خوفا من التيه ، وثانيهما حاجتها إلى البحث المضني الشاق والصبر الجميل . ونحسب أننا في بحثنا هذا وبفضل من الله ما زاغ بصرنا ولا تاهت خطانا ولا عيل صبرنا ولا كلَّ جهدنا ، نحسبه كذلك ولا نزكى على الله ولا عند الناس عملنا ، فمن وجد غير ذلك فليراجعنا مشكورا منا مأجورا عند الله .

ويحتاج رابعا إلى إسلام وإيمان ، ففي رأينا أن التاريخ الإسلامي عامة وما تعلق بحركة الفتوح خاصة لا يفهمه حق فهمه ولا يدركه ويعايشه ولا يستطيع أن يفسره إلا مسلم ! أبدا والله .. ليس تعصبا . ولكن هذا التاريخ مادة لا تنفصل عن الإسلام عقيدة وشريعة وفقها وقرآنا وحديثا وروحا وسلاما . فليس سوى قلب المسلم وفكره يسع هذا . أما غير المسلمين فلا نظنهم أمام هذا التاريخ إلا قارئين حتى وإن نصبوا جهدهم للدراسة وشمروا سواعدهم للكتابة ، فما داموا غير مسلمين فقد انقطعت صلتهم بالجذور التي منها ينبع هذا التاريخ . كتب مونتجمري[1] « ... أما ليبيا وتونس فقد قاومتا العرب ـ يقصد المسلمين ـ خمسا وعشرين عاما ولكنهما في النهاية اعتنقتا الإسلام ، ومن العجيب أن القوة الرئيسية للجيوش الاسلامية في

(١) الحرب عبر التاريخ ١٨٨ .

فتح الأندلس بين عامي ٧١٠ ـ ٧١٣ م كانت مشكلة من الليبيين والتونسيين». هذا التعجب منشؤه أن مونتجمري ليس مسلما ، ولو كان مسلما ما تعجب ! ومع ذلك فقد أدرك مونتجمري ما لم يدركه كثير من كتاب الغرب ومؤرخوهم حيث قال « ومهما يكن من أمر فإننا نجد أن أهم مميزات الجيوش الاسلامية لم يكن في المعدات أو التسليح أو التنظيم ، بل كانت الروح المعنوية العالية النابعة من قوة إيمانهم بالدعوة الإسلامية ، وفي خفة الحركة التي ترجع إلى مهارتهم في سرعة التحرك بالجمال والخيل ، وأيضا في قوة احتمالهم وجَلَدهم نتيجة لحياتهم الصعبة في الصحراء التي تعودوا عليها . وعلى كل فهناك عوامل أخرى شاركت في نجاح زحفهم غير العادي الذي كان عبارة عن نجاح تلو نجاح ، فكان العرب ـ يقصد المسلمين ـ يندفعون نحو القتال يحركهم أقوى دوافع الحرب ألا وهو الإيمان والعقيدة ... فالكثير منهم خاصة في المراحل الأولى للفتوحات الاسلامية كانوا يؤمنون إيمانا راسخا بالدعوة الإسلامية متحمسين لها غيورين عليها . وقد أدى هذا إلى اعتناقهم مبدأ صلبا هو الجهاد في سبيل الله » . ولا شك أن هذا القول من الفيلد مارشال مونتجمري إنما أملاه عليه حرصه أن يكون نزيها صادقا عفيفا ، هذا الحرص ناتج بلا ريب عن تدينه وتمسكه بأهداب الأخلاق وصدق الله العظيم في محكم كتابه « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا ، الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » ولو أنه أخذ أيضا عن بعض المستشرقين المغرضين ، فقد عاد يقول « وقد كان العامل الاقتصادي أحد أسباب الحروب التي قام بها العرب إبان القرن السابع ، وقد تمثل هذا في القصة القديمة للازدحام[1] السكاني في شبه جزيرة العرب » . وإن كنا نأخذ على هذا القائد الانجليزي الشهير هذا الخروج عن هامش الصواب إلا أننا لا نرميه بالتعصب . خلاصة القول ، نصيحتي لغير المسلمين كي يقتربوا أكثر وأكثر من فهم هذا التاريخ ومعايشته ـ بدلا من دراسته

(١) لا ندري من أين جاء بأن شبه الجزيرة قد تعرض لازدحام سكاني !

على أنه تاريخ أعداء ـ أن يتقمصوا شخصية المسلم بعمق فقهه وبساطة عقيدته وسمو روحه وبطيبة قلبه ، وبقدر نجاحهم في هذا يكون توفيقهم في الاقتراب من إدراك هذا التاريخ وتفهمه .

ثم يحتاج هذا البحث **خامسا** إلى إتاحة فرصة زمنية طويلة يستغرق فيها الباحث وينقطع لها ويعتبرها رسالة لو أنجزها فقد خرج من حياته بشيء . قال ﷺ[1] « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » وأرجو أن يكون موضوعنا هذا من ذلك العلم النافع ، ولقد استمتعنا تماما ونحن نبذل جهدنا لنسطر كل حرف فيه .

يحب الإنسان أن تكون له مذكرات يعود إليها من حين إلى آخر .. إنه حب التاريخ ! فكل منا يعشق تاريخه وذكرياته ، ولا يكره تاريخه إلا من فقد أصالته . ما أشد شوق الإنسان الأصيل أن يلتقي بتاريخه . فإذا كان التاريخ مجيدا اشتد شوقه بقدر أمجاده ، وإذا أتى على الانسان حين من الدهر اهتز مجده اشتد أكثر وأكثر شوقه إلى سالف مجده ، فإذا كان الإنسان بالإضافة إلى ذلك مسلما امتزج تاريخه بروحه ... فإذا كان ذلك التاريخ ذا نفع وتجربة وفائدة لم يعد لشوقه حدود ، بل لم يعد الأمر مجرد أشواق .

ونحن إذ نقدم هذا الجهد الرابع في هذا المجال لنرجو إذا أمد الله في الأجل وأعان على الجهد أن نقدم من بعده فتح مصر وما بعد مصر ، فهي كلها خطوات مباركات خطاها أصحاب رسول الله ﷺ وتابعوهم ، أرادوا بها الله فنصرهم الله ولا غرابة ، فقدكانت حياتهم كلها حتى والدنيا تنفتح عليهم لله وحده وكان رائدهم قوله تعالى « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلُوًّا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين . من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون »[2] . صدق الله العظيم .

(١) رواه مسلم .

(٢) سورة القصص ٨٣ ـ ٨٤ .

الباب الأول

تاريخ وجغرافيا الشام

بلاد الشام

طبيعة الأرض جغرافيا ومناخيا وبشريا يكون لها دائما أثرها الفعال على العمليات الحربية التي تحدث فوقها ، ومن هنا نشأ علم الجغرافيا العسكرية . وكما رأينا تأثر العمليات الحربية لفتح العراق ثم سائر فارس بالعوامل الجغرافية لتلك الرقعة ، فإن عملية فتح الشام ـ شأن جميع الحروب قد تخلقت بجغرافيا أرض الشام ، وكانت جيوش المسلمين وهي تخطط وتنفذ وتتحرك وتسير ، كانت تأخذ في اعتبارها دائما طبيعة الأرض وموقعها وما تفرضه على التخطيط استراتيجية وتكتيكا ، وكذا قوات الروم . لذلك فإن شرح هذه الجغرافيا في صفحات قلائل ليس ترفا في البحث أو مقدمة زائدة عن حاجته ، فإنه بقدر استيعاب هذه الصفحات سوف يجد القارىء نفسه في غنى عن معاودة النظر فيها وهو يتابع جيوش المسلمين في تحركاتها وقوات الروم في مساراتها .

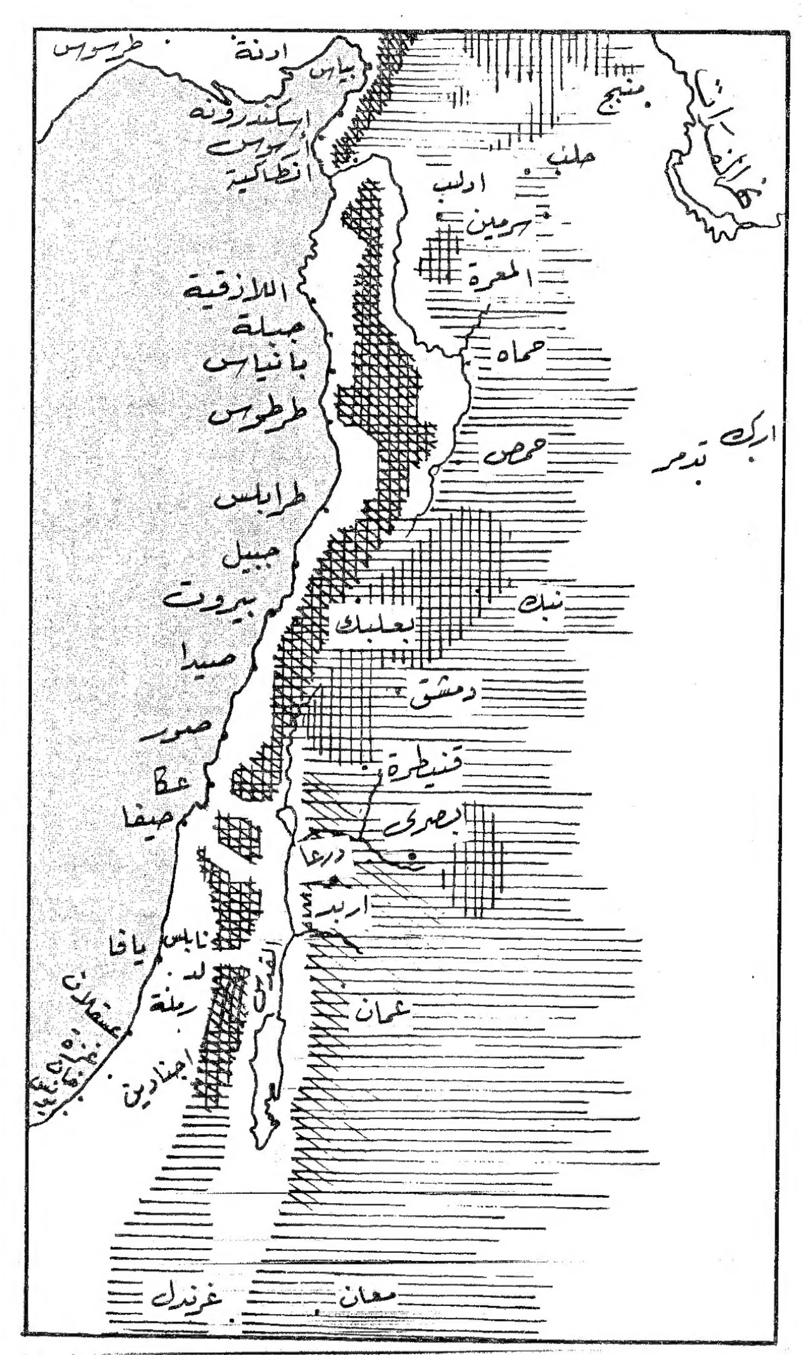
وليست الشام كغيرها من البلدان إذ أن لها عند كل الناس منزلة وشأنا على اختلاف أديانهم وأجناسهم . قال المقدسي[1] :

« إقليم الشام جليل الشان . ديار النبيين ومركز الصالحين ومطلب الفضلا ، به القبلة الأولى وموضع الحشر والمسرى والأرض المقدسة والرباطات الفاضلة والثغور

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ١٥١ .

البحر . وفي جونيه شمالي بيروت مباشرة يبلغ عرض السهل ميلا واحدا يحصره الجبل بارتفاع ٢٥٠٠ قدم على مسافة أربعة أميال فقط من البحر . وعلى ثلاثة أميال إلى الجنوب من ذلك عند مصب نهر الكلب يتصل الجبل بالبحر وتختنق الطريق حتى يشكل دفاعا استراتيجيا ممتازا ومناسبا لمنع أي قوات عابرة . وكذلك عند الكرمل لا يترك النتوء الجبلي من ذلك السهل سوى ٢٠٠ ياردة على الساحل ، ولذلك فإن الطريق الساحلي الذي كان يصل مصر بالشمال في العصور القديمة يتحول إلى الداخل مبتعدا عن البحر .

٢ ـ جبال لبنان ، وتحد السهل الساحلي من الشرق . وهي سلسلة من الجبال والهضاب تمتد من جبال الأمانوس شمالا التي تحيط بخليج الاسكندرونة وترتفع ٥٠٠٠ قدم فوق سطح البحر وتمتد حتى جبال سيناء المرتفعة جنوبا ، بل يجوز القول إنها امتداد لجبال الحجاز. وتشكل هذه السلسلة المرتفعة أول حاجز للمواصلات بين البحر والشرق . وليس هناك مسالك أو ممرات طبيعية تجتاز هذه المرتفعات إلا في الطرف الشمالي عند خليج الاسكندرونة حيث يشق نهر العاصي [الأورنتس ـ الأرند] جبال الأمانوس فيمكن المرور إلى سوريا من الاسكندرونة إلى انطاكية إلى حلب ثم إلى سهول ما بين النهرين ، وأيضا عند جنوب فلسطين . هذان هما الصدعان الأساسيان ، ويوجد بينهما ممران آخران أقل أهمية عند وادي نهر الكبير شمالي طرابلس وعند مرج ابن عامر شرقي عكا وحيفا . وتمتد هذه السلسلة من الجبال جنوبي الأمانوس فتعبر نهر العاصي حيث جبل الأقرع الذي يرتفع ٤٥٠٠ قدما ، وتمر إلى جوار اللاذقية حيث تعرف بجبال النصيرية ، ثم إلى نهر الكبير الجنوبي ، هذا النهر ينبع من جبال النصيرية وهو الحد الفاصل بين هذه الجبال وجبال لبنان وهو حاليا يطابق الحدود السياسية بين سوريا ولبنان . وجبال النصيرية تحتوي على أودية عميقة كثيرة بعضها وعر شديد الانحدار وسط المرتفعات الشاهقة . ثم تمتد هذه الجبال من لبنان إلى شمالي صور .



الخريطة رقم (١) ـ بلاد الشام الطبيعية ـ المقياس ١/٤ مليون

وترتفع أعلى قمة في لبنان إلى اكثر من ١١ ٠٠٠ قدما . هذه الطبيعة جعلت المواصلات صعبة ، ولذلك أيضا كانت جبال لبنان وأوديتها على مدى التاريخ ملاجىء للعناصر التي تطلب الأمان والحماية والاعتصام لاختلاف عقائدها الدينية أو اتجاهاتها السياسية عن ما تعتنقه عناصر السلطة ، كذلك كانت ملاذ النساك والزهاد من الصوفية والرهبان ، كما كانت مأوى لعصابات اللصوص .

وتمتد هذه الجبال إلى فلسطين في هضاب ومرتفعات الجليل الأعلى وهو قسم منعزل نوعا عن جبال لبنان . وأعلى قمة في فلسطين تقع في جبل جرمق شمالي صفد وتبلغ ٥٩٣٥ ، قدما ، أما الجليل الأدنى فإنه يرتفع إلى ١٨٤٣ قدما في جبل طابور قريبا من الناصرة . ثم تنقطع هذه السلسلة بمرج ابن عامر الذي يعبر فلسطين من الغرب إلى الشرق فيفصل ما بين الجليل في الشمال وجبال السامرة [عيبال] واليهودية [جريزيم] في الجنوب ، ثم ينقص هذا الارتفاع بانخفاض تدريجي إلى هضبة اليهودية الوعرة جنوبي حبرون . وتقع القدس على ارتفاع ٢٥٥٠ قدما . ثم تنحدر الهضبة بتموجات عريضة نحو بئر السبع وهي أرض النقب .

٣ ـ والخط الثالث هو حوض طويل ضيق يبدأ شمالا بسهل متسع يسمى العمق عند المنعطف الغربي لنهر العاصي ويرتفع عند حماه إلى نحو ١٠٠٠ قدما ، ثم يسمى البقاع حين يمر بين سلسلتي جبال لبنان وهنا يبلغ اتساعه بين ستة أميال وعشرة ، ويستمر امتداده جنوبا في وادي الأردن حتى البحر الميت فيسلك وادي العربة حتى خليج العقبة ، وكان يسمى الغَوْر . وينخفض سطح الأرض لهذا الأخدود عند بحيرة طبرية إلى ٦٨٥ قدما تحت سطح البحر ويصل إلى ٧ قدم عند بحيرة الحولة [سمخ القديمة] بينا ينخفض عند البحر الميت إلى ١٢٩٢ قدما تحت سطح البحر ، وليس على سطح الكرة الأرضية أرض ينخفض مستواها عن سطح البحر مثل هذا الانخفاض . وفي سهل البقاع تقع أحسن أراضي الرعي والزراعة في سوريا حول نهر العاصي الذي يتجه من الجنوب إلى الشمال ونهر

الليطاني الذي يتجه من الشمال إلى الجنوب . ووادي الأردن يبلغ طوله خمسة وستين ميلا وعرضه يتراوح بين ثلاثة وأربعة عشر ميلا .

٤ ـ سلسلة الجبال الشرقية ، وتبدأ من جنوب حمص وتتجه جنوبا ثم تنحدر انحدارا سريعا إلى هضبة حوران ومنطقة التلال التي تجاورها في الغرب وهي مرتفعات الجولان ، ثم تمتد في شرقي الأردن وتنتهي في جبل سعير جنوبي البحر الميت .

وينبع نهر بردى من هذه المرتفعات ويتجه شرقا فيحيي قسما كبيرا من أراضي سوريا وعليه تقع مدينة دمشق على أبواب البادية فيروي بساتين دمشق المعروفة بالغوطة ويتفرع إلى خمسة جداول .

٥ ـ وأخيرا تتدرج هضاب حوران وشرقي الأردن في انخفاض إلى منطقة السهول والحَرَّات والرمال حتى تصل إلى بادية الشام وهي سهول صحراوية صخرية وجيرية ، وهي الامتداد الطبيعي لشبه الجزيرة العربية ، تلك هي بادية السماوة التي تفصل بين العراق والشام .

المناخ

والمناخ جاف عموما من بداية شهر ابريل [نيسان] إلى منتصف شهر نوفمبر [تشرين الثاني] ولكنه ممطر من منتصف نوفمبر حتى نهاية مارس [آذار] . وتسقط أكبر كمية من الأمطار على السفوح الغربية للجبال الساحلية ، ثم تتناقص كمية المطر كلما اتجهنا شرقا كما تزيد شمالا عنها في الجنوب . وفي الشتاء ينتشر الصقيع والثلج في سلسلة الجبال الشرقية وهو أمر نادر الحدوث على الساحل[١] . وللبحر أثره في اعتدال درجة الحرارة على الساحل . وتقف الجبال حاجزا يمنع وصول الرياح البحرية بتأثيرها الملطف إلى الداخل ، بينا تهب الرياح المحملة بغبار البادية فترتفع الحرارة في المدن الداخلية مثل دمشق وحلب ، هذه الرياح تعرف بالسَّموم وهي شرقية

(١) تاريخ سوريا ١/ ٤٩ .

وجنوبية شرقية وهي جافة لا تصل رطوبتها إلى ١٠٪ أحيانا مما يجعل التنفس صعبا ، وتهب ربيعا وخريفا وكثيرا ما تصل إلى الساحل. يقول فيليب حتي «وقد اختار خالد بن الوليد يوما هبت فيه هذه الرياح فشن معركة اليرموك ضد الجيش الرومي البيزنطي عام ٦٣٦ م[١] » . ولكن الذي نعلمه أن الروم الذين شنوا الهجوم على ما سيأتي في موضعه إن شاء الله .

ومن أقدم ما ينبت في بلاد الشام من أشجار التين والزيتون والكروم كما ينبت في لبنان خاصة شجر الأرز . وكان في بلاد الشام النعام والأسود والفهود ولكنها انقرضت ، وتكثر الأفاعي والسحالى والعقارب ولا سيما في الجنوب كما توجد النسور والبوم .

(١) تاريخ سوريا ١/٥٠ .

الشام قبل الفتح[١]

الروم في الشام

كانت الحضارة الرومانية متمركزة في روما ويتضاءل ظهورها وانتشارها كلما ابتعدنا عنها . ولم يكن في بلاد الشام سوى عدد قليل من المقيمين الإيطاليين كمركز لنشر الثقافة اللاتينية . كانوا موظفين لجباية الضرائب والفصل في القضايا الهامة ويمثلون الدولة في مشاهدة الألعاب والاحتفالات ، ولكنهم كانوا يعاملون كأجانب . وكان الأباطرة الرومان يمنحون السكان الوطنيين في بعض المستعمرات مثل بيروت حق الرعوية الرومانية فتسموا مكانتهم بين سكان سائر الولايات . كما أن بعض المدن الأخرى التي لم تكن مستعمرات قد منحت الرعوية أو بعض الامتيازات مثلما أعفيت مدينة صُور من الضرائب العادية . وسار الرومان في بلاد الشام على سياسة فرق تسد حتى يأمنوا تكتل السكان ضدهم .

هكذا عاملوا اليهود

وكان الرومان يستخدمون سكان المستعمرات كفرق حربية احتياطية ، ولكن الفرق الرومانية صارت بالتدريج تتألف من عدد كبير من المواطنين أهل الشام . وكانت اللاتينية هي لغة الجيش والحكام . وكان اليهود أقل جاليات الشام اندماجا بالحضارة الرومانية ، وقد عوملوا معاملة خاصة فأعفوا من الخدمة في الجيش ومن

(١) تاريخ سورية ٣٧٣ ـ ٣٨٥ .
تاريخ موجات الجنس العربي ٣٢٢ ـ ٣٢٧ .

تقديم القرابين إلى الحاكم الروماني وعاشوا في انطواء وعزلة . وقد عهد فسباسيان إلى ابنه تيطس بمحاصرة أورشليم في حرب بينه وبين اليهود فشدده عليها خمسة أشهر انتهت في سبتمبر [أيلول] ٧٠ م ثم سقطت المدينة في أكثر الهزائم مهانة في التاريخ إذ تعهد اليهود في استسلامهم بإبادة أنفسهم ، فأبادوا نساءهم وأولادهم أولا ثم توقف ذكورهم عن القتال وألقى كل منهم سلاحه إلى جوار أسرته الذبيحة ، وكان كل منهم يقدم رقبته إلى سواه ليضربها له بالسيف عن طريق القرعة بينما الجنود الرومان يتدفقون على المدينة . وهدمت المدينة وأحرق المعبد الذي أقامه هيرودوس ، ويقدر عدد الهلكى في هذه المذبحة بمليون يهودي . أما الأسرى الذين لم تلحقهم الإبادة على النحو المذكور فقد أجبروا على قتال بعضهم بعضا أومواجهة الوحوش المفترسة في المدرجات لتسلية الرومان المشاهدين . وبذلك زالت اليهودية كدولة .

دين الدولة

كانت القسطنطينية هي عاصمة الدولة البيزنطية وقد أقيمت عام ٣٣٠ م في موقع بيزنطة القديم على ذلك الموقع الاستراتيجي الحصين حيث تلتقي أوروبا بآسيا على ضفاف البوسفور ونقلت العاصمة إليها من روما . وقد سميت باسم قسطنطين الذي أقامها واعتنق المسيحية وجعلها دين الدولة فانتقل النفوذ إلى أيدي المسيحيين مع بقاء غالبية السكان على وثنيتهم[١] . وانقسمت الدولة الرومانية نهائيا إلى شرقية وغربية عام ٣٩٥ م ، فكانت الشام ومصر تتبعان الدولة الرومانية الشرقية . وبقيت هذه الامبراطورية المسيحية التي أقامها قسطنطين أكثر من أحد عشر قرنا ، يقول عنها فيليب حِتّي « ... وقد أصبحت اعتبارا من القرن السابع بمثابة حصن ضد الإسلام وسقطت أخيرا في عام ١٤٥٣ م تحت وطأة هجوم المدافعين الجدد عن الاسلام ، نعني الأتراك العثمانيين » .

(١) تاريخ سوريا ٤١٦ .

يقول محمد[١] عزة دَرْوَزة :

« ولقد عمت المسيحية تقريبا بلاد الشام وجزيرة الفرات في هذه الحقبة . غير أن الأقوال المتعارضة في العقيدة المسيحية ظلت مستشرية فيها أيضا تقسم المسيحيين إلى فرق متناحرة .

ولقد ظل المذهب الأريوسي الذي نجم في القرن الرابع وثبت قائما إلى جانب العقيدة الكاثوليكية التي كانت تقوم على أساس المشيئتين والطبيعتين للمسيح والتساوي في الجوهر بين الأب والأبن والروح القدس ، بل وغدا عقيدة الجمهور الأكبر من نصارى الشرق وصار يقوم بطاركة وأساقفة منه أيضا . وقد حظي بتأييد قسطنطين الثاني وبعض خلفائه فكان ذلك مما زاده تمكينا وثباتا .

ولقد ظهر بعد أريوس أكثر من واحد من أصحاب الأقوال المعارضة للعقيدة الكاثوليكية أشهرهم اثنان كان لمذهبيهما أثر عميق ومستمر في العقيدة المسيحية والانقسام المسيحي ، أحدهما نسطور الذي ظهر في أواسط القرن الخامس وكان ينكر تسمية مريم أم الله ويقول انها مخلوقة وأن المخلوقة لا يمكن أن تلد خالقا وأن الذي ولدته هو إنسان صار آلة لله وأن الذي تجسد في حشاها غير كلمة الله وإنما حلت كلمة الله فيه فصار هيكلا لله وبناء على ذلك لم يولد ولم يتألم ولم يمت . وأن في المسيح أقنومان إلهي وبشري . وقد ارتقى نسطور إلى رتبة البطركية وصار له أتباع وثبت مذهبه واستمر رغم ما انعقد من مجامع وجرى من مجادلات . وقد تطور المذهب النسطوري بأقوال تلميذ لنسطور اسمه أوطيخا حيث كان يقول أن المسيح إنسان حل فيه اللاهوت وأن الطبيعتين أو الاقنومين الإلهي والبشري فيه امتزجا فصار فيه طبيعة واحدة ولم يعد إنسانا كاملا ولم يصر إلها كاملا وأنه كان عند التجسد ذا طبيعتين ثم صار بعده ذا طبيعة واحدة . وقد غطى المذهب النسطوري المعدل على المذهب الأريوسي ولا سيا أنه جاء متساوقا معه وتطويرا له أيضا .

(١) تاريخ موجات الجنس العربي ٣٢٣ .

أما الثاني فهو يعقوب البردعي من رهبان الرها ، وقد ظهر في أواسط القرن السادس ، وأقواله متسقة مع أقوال نسطور وأوطيخا أي كون المسيح ذا طبيعة واحدة عند التجسد . ولقد ظهر في مصر بطرك اسمه يعقوب ديسقوروس في أواسط القرن الخامس يقول بمثل هذا القول فالتبس الأمر على بعض المؤرخين وجعلوا الاثنين واحدا مع أن يعقوب البردعي من الرها ويعقوب ديسقوروس من مصر . ولقد عقدت مجامع ومجالس وكانت مناظرات ومجادلات ولكنها لم تسفر عن شيء حيث ثبت المذهب اليعقوبي وانتشر واعتنقه الجمهور الأكبر في مصر والشام وصار يقوم منه بطاركة وأساقفة إلى جانب بطاركة وأساقفة كاثوليك أو بالانفراد حسب تقلب الأحوال .

وهكذا كانت العقيدة في شأن المسيح متعارضة منذ القرن الأول ، وكان دائما مذهبان متوازيان فيه ، أحدهما مذهب المشيئتين والطبيعتين والتساوي في الجوهر مع الأب وروح القدس وهو المذهب الكاثوليكي ، وثانيهما مذهب الطبيعة الواحدة وعدم مساواة المسيح مع الأب ومخلوقيته وهو المذهب الأيبوني ثم السميساطي ثم الأريوسي ثم النسطوري ثم اليعقوبي والذي كان مذهب غالبية أهل البلاد .

ولقد كان اعتناق الرومان للمسيحية مما كان يزيد في التناحر بين أصحاب المذاهب المتعارضة حيث كان ملوكهم يؤيدون مذهبا على آخر ويضطهدون أحيانا أصحاب المذهب الآخر فيبدون كضحايا وشهداء ويشتد استمساكهم بمذهبهم . وكان الملوك أحيانا يقفون مع الاختلافات المذهبية موقف اللامبالاة أو الحياد فيكون ذلك فرصة للتجاذب والتشاد بين أهل المذاهب ويتسنى لكل منهم أن يقيم مع رجاله بطاركة وأساقفة إلى جانب بعضهم ، بل وكان الذين يشعرون بقوتهم يحاولون أن يفرضوا مذهبهم على غيرهم ... وقد صار المذهب الكاثوليكي منذ أواسط القرن السادس هو المذهب الرسمي للرومان .. فصار أصحاب المذهبين اليعقوبي والنسطوري عرضة للاضطهاد والمطاردة . وممن اشتد في الاضطهاد والمطاردة

جوستنيان [٥٢٧ ـ ٥٦٧] .. وظل الأمر على هذا المنوال إلى الفتح الاسلامي فاعتبر اليعاقبة والنساطرة الفاتحين منقذين ورحبوا بهم ودخلوا في ذمتهم ، ولم يلبثوا أن أخذوا يعتنقون الإسلام أفواجا أفواجا حتى كاد يعمهم لأن بين عقيدتهم بالمسيح وبين رأي الإسلام فيه تقاربا وتساوقا قليلا أو كثيرا وكان جمهور النصارى من العرب الصرحاء في بلاد الشام وجزيرة الفرات والعراق من أهل هذين المذهبين فكانت الوحدة الجنسية هي التي جمعت بينهم وبين الفاتحين من الأسباب الميسرة لذلك والحافزة عليه » . أ . هـ .

ولا نتفق في الرأي مع الاستاذ محمد عزة دَرْوَزة من أن بين المذهبين وبين الإسلام تقاربا حول العقيدة في المسيح ، فلسنا نرى ذلك التقارب ورأي الاسلام واضح لا شبهة فيه ولا مداورة ولا مواربة أن المسيح عليه السلام بشر لا هو إله ولا هو ابن الله . وقد يكون من أسباب دخول هؤلاء النصارى في دين الإسلام أفواجا أفواجا ـ ضمن أسباب عديدة ! أن رأي الإسلام في ذلك الموضوع الذي قسم المسيحيين على أنفسهم ، رأي بسيط لا صعوبة في فهمه ولا في مناقشته ، أن ليس للمسيح طبيعة ومشيئة واحدة إلهية ولا طبيعتين إلهية وبشرية وإنما طبيعة واحدة بشرية .

عرب الشام (١)

وقبل ظهور الإسلام قامت في بلاد الشام ثلاث دويلات عربية سقطت الواحدة تلو الأخرى ، وهي دولة النبط [أو الأنباط] في الجنوب ودولة تدمر في الشمال ودولة الغساسنة فيما بينهما .

الأنباط

بدأ الأنباط رعاة من البدو الرحل ثم احترفوا الزراعة وانتقلوا منها إلى

(١) تاريخ سوريا ٤١٦ .

التجارة وكانت عاصمتهم البتراء هي المدينة الوحيدة بين الأردن والحجاز التي بها مياه غزيرة ونقية . ومنذ أواخر القرن الرابع الميلادي صارت البتراء مدينة رئيسية على طريق القوافل بين شبه جزيرة العرب وبين الشمال كما كانت تسيطر على الطرق إلى غزة غربا وإلى بصرى ودمشق شمالا وإلى إيلات على خليج العقبة جنوبا وإلى الخليج الفارسي عبر الصحراء شرقا . وكانت إبل القوافل المجهدة تستبدل بجمال أخرى نشيطة في البتراء .

تدمـــر

ومع سقوط دولة الأنباط بزغت دولة تدمر وهي مدينة في الشمال تقوم على نبع غزير في قلب الصحراء كمحطة للقوافل العابرة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب ، كما أنها كانت تقع بين الامبراطوريتين الكبيرتين في العالم حينذاك ، فكانت تَدْمُر أول أمرها دولة محايدة حاجزة بين الروم والفرس في الجزء الذي تشغله ، غير أنها لم تستطع أن تحتفظ بهذا الاستقلال فضمتها الدولة الرومانية إليها .

الغساسنة

وفي الوقت الذي كانت دولة تدمر تزول نزحت غسان من اليمن نتيجة انهيار سد مأرب ونزلت حوران ثم اعتنقت المسيحية خلال القرن الرابع الميلادي . وكان أعظم ملوك غسان الحارث بن جَبَلَة الذي حارب المنذر الثالث ملك العرب اللخميين الذين كانوا في الحيرة موالين للفرس . كانت هذه الحرب عام ٥٢٨ م وكان الحارث بن جبلة مواليا لبيزنطة ، فاستمر يحارب تحت لواء الجيش البيزنطي ضد الفرس الساسانيين في بلاد ما بين النهرين . وفي عام ٥٤٤ م أسرَ المنذر الثالث ملك الحيرة احد أبناء الحارث وقدمه ضحية على مذبح صنمهم العُزَّى . وقد تمكن الحارث بعد عشر سنوات من الانتقام فقتل المنذر الثالث في معركة قرب قنسرين [خالكيس] . وفي عهد الحارث الثالث بلغت مملكة الغساسنة أقصى اتساعها فشملت من قرب البتراء جنوبا إلى الرصافة شمالا وكانت عاصمتها الدينية في بصرى .

وفي عام ٥٦٩ م خلف المنذر بن الحارث أباه على ملك بني غسان وسار على مذهب أبيه الديني [المونوفيزية](١) الذي كانت بيزنطة تعتبره غير متفق مع الدين الرسمي للدولة فارتابت في ولائه وحدث عن ذلك شيء من الجفاء بين المنذر وبين الامبراطور جوستين ، ثم تم تسوية الأمر وزار المنذر القسطنطينية بصحبة ولديه عام ٥٨٠ م واستقبله الامبراطور الجديد طيبريوس بحفاوة . وفي نفس العام غزا المنذر الحيرة وأحرقها . وفي عام ٥٨١ م كان المنذر يشهد حفلا لافتتاح كنيسة في حوارين استجابة لدعوة تلقاها من حاكم سوريا البيزنطي فقبض عليه مع زوجته وثلاثة من أولاده وأرسلهم إلى القسطنطينية ثم إلى صقلية .

وقاد النعمان أكبر أبناء المنذر بن الحارث عدة غارات من البادية على سوريا غير أنه خدع أخيرا واستدرج كما فعل بأبيه وإخوته من قبل وأرسل إلى القسطنطينية عام ٥٨٤ م وبذلك تمزق ملك بني غسان وتقسمت المملكة على عدة أمراء ، تحالف بعضهم مع الفرس وبقي بعضهم على استقلاله وظل بعضهم في جانب بيزنطة .

---

(١) جاء في الموسوعة الثقافية التي أصدرتها مؤسسة فرانكلين باللغة العربية ـ مونوفيزية : مذهب الطبيعة الواحدة ، بدعة ظهرت في القرنين ٥ و٦ معارضة لما تذهب إليه النسطورية . ترى المونوفيزية أن للمسيح طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية التي تلاشت فيها الطبيعة الإنسانية . وقد مهدت لها آراء أوطيخا التي رفضها مجمع خلقدونية ٥٤٠ ولم تر المونوفيزية بدا من رفض هذا القرار . وفي القرن ٦ أصبحت المونوفيزية العقيدة السائدة في مصر وأرمينيا ، ورسخت عقيدة خلقدونية في حرب وفي الكنائس البيزنطية الموالية لروما . وبعد فترات من اتفاق وانفصال استفحل أخيرا الانفصال واستقر حوالي ٦٠٠ م وكان سببا في وجود الكنائس القبطية واليعقوبية والأرمينية اَ هـ . وجاء في نفس الموسوعة عن النسطورية : بدعة ظهرت في القرن ٥ قال بها نسطوريوس بطريك القسطنطينية حين اعترض على تسمية مريم العذراء بوالدة الاله ، وقد عارضه كيرلس الاسكندري ، وانعقد بسبب هذه المشكلة ثلاثة مجامع دينية متلاحقة ، وقررت كلها أن للمسيح طبيعتين : إلهية وإنسانية ، متحدتين في اقنوم واحد وقوام إلهي واحد . ناصرت كنيسة فارس المذهب وصارت تعرف باسم الكنيسة النسطورية . ولا يزال لها اتباع في العراق وايران وملابار والهند وطقوسها سريانية شرقية ، وتدعى احيانا بالكنيسة الآشورية . ص ٩٦٩ و ٩٩٢ .

وفيما بين ٦١١ و٦١٤م غزت فارس سوريا ولكن هرقل أعاد طرد الفرس من بلاد الشام وعاد الغساسنة موالين للروم حتى أنهم وقفوا إلى جوارهم في حروب الفتح الاسلامي للشام ، وكان جبلة بن الأيهم آخر أمراء الغساسنة يحارب في معركة اليرموك الفاصلة عام ٦٣٦ م مع الروم ضد المسلمين ، وقد دخل في الإسلام بعد ذلك ثم عاد وارتد ولجأ إلى بيزنطة .

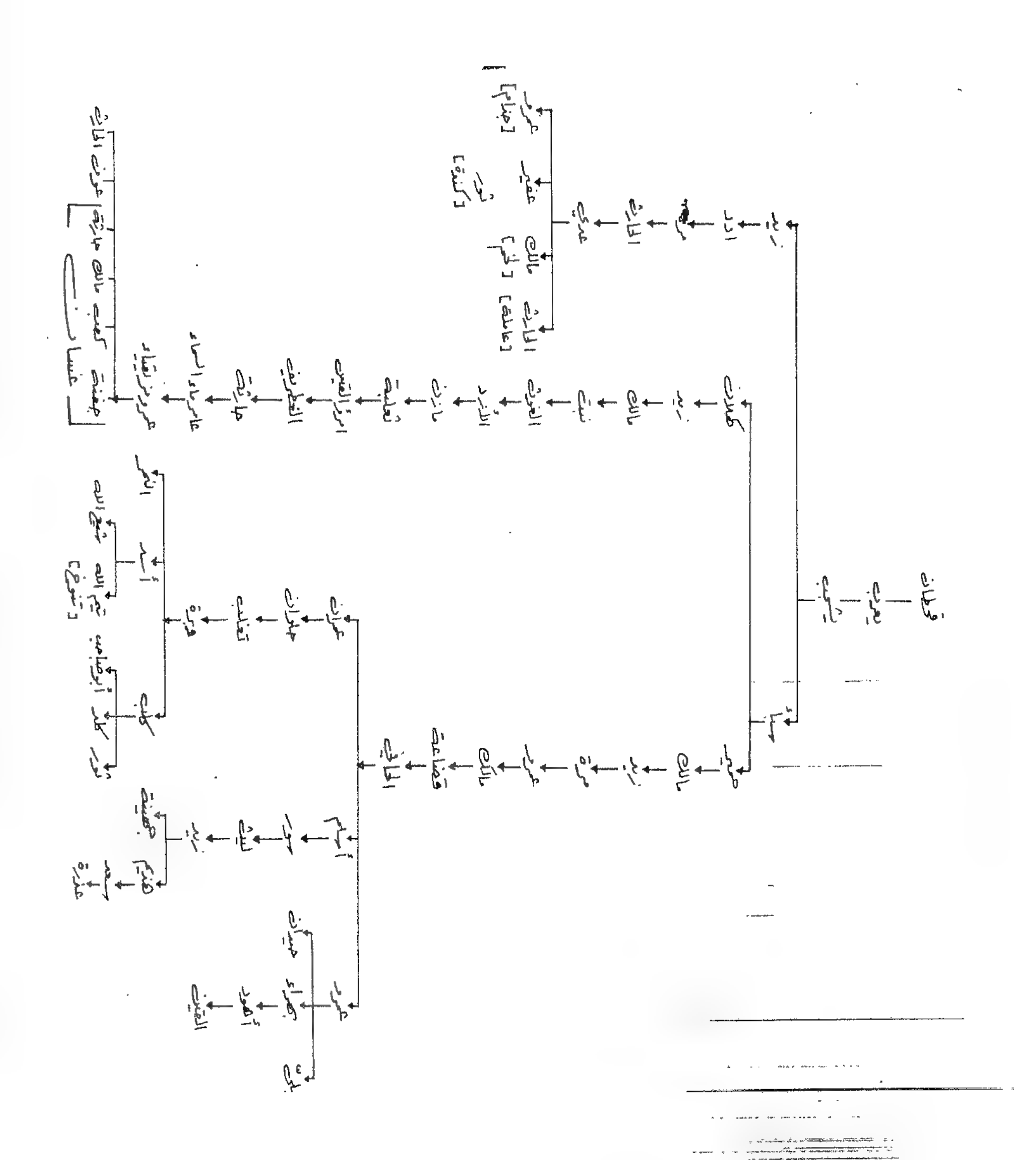
ويذهب فيليب[١] حتي إلى أن حالة الغساسنة كانت مزدهرة اقتصاديا وإلى أنهم اتقنوا الاستفادة من مياه الأمطار والاستفادة من الينابيع الجوفية ويستشهد على ذلك ببقايا ما يقرب من ثلاثمائة مدينة وقرية على المنحدرات الشرقية والجنوبية لحوران .

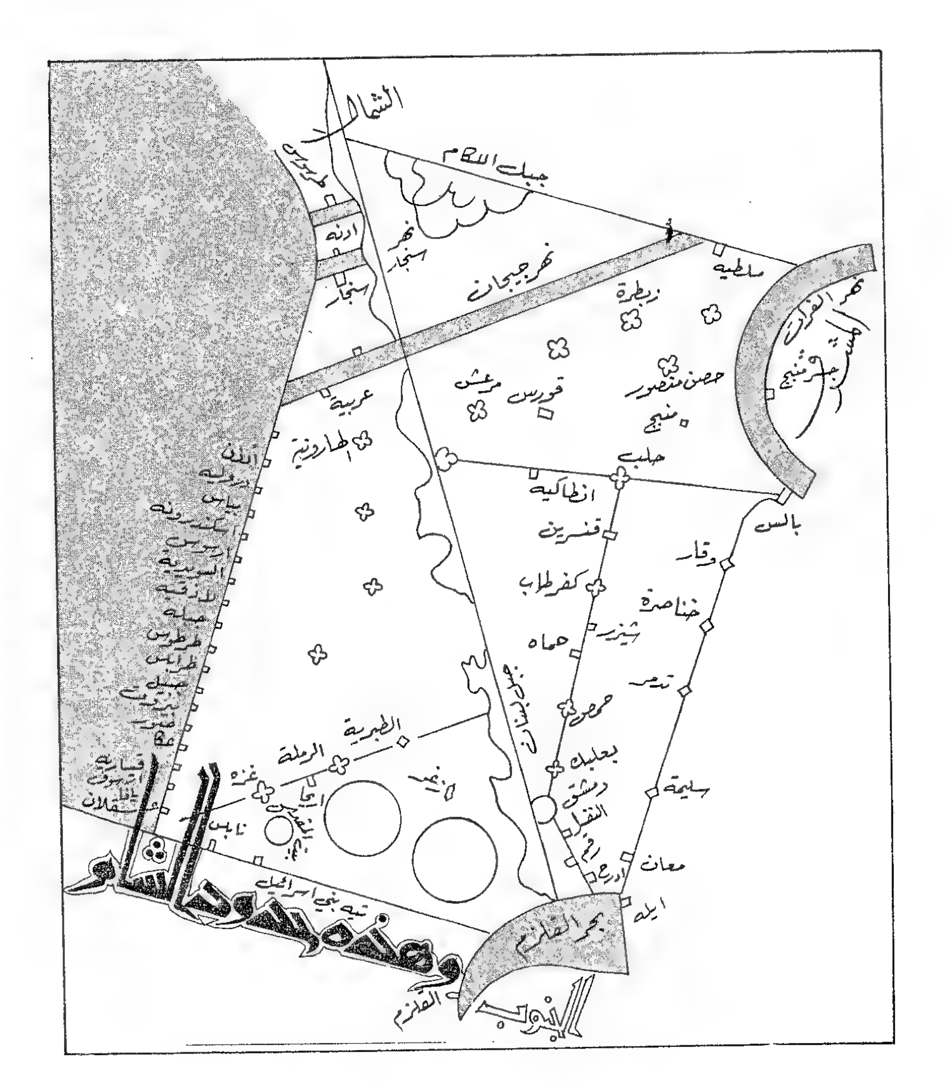
سكان الشام

والظاهر أن بلاد الشام لم يكن يسكنها شعب واحد متجانس أو سلالة واحدة صافية حين زحفت إليها جيوش المسلمين العرب في عهد أبي بكر الصديق . ويبدو أن كل إقليم من أقاليم الشام قد استوطنه جنس من الناس ، ففي السهل الساحلي وما تاخمه من سفوح جبال لبنان كانت بقايا الفينيقيين القدماء وسلالاتهم . والفينيقيون جنس مجهول الأصل يقول ول ديورانت[٢] عنه « ... فلسنا نعرف من أين جاء الفينيقيون أو متى جاؤوا ، ولسنا واثقين من أنهم ساميون . أما تاريخ قدومهم إلى شاطىء البحر المتوسط فليس في وسعنا أن نكذب ما قاله علماء [مدينة] صور لهيرودوت وهو أن أجدادهم قدموا إلى بلدهم هذا من شواطىء الخليج الفارسي وأنهم شيدوا مدينة صور في العهد الذي نسميه نحن الآن القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد ... وكانت بلاد الفينيقيين شريطا ضيقا من الأرض يبلغ مائة ميل طولا ولا يزيد عرضه عن عشرة أميال محصورا بين البحر من غربه وسوريا من شرقه » .

(١) تاريخ سورية

(٢) قصة الحضارة .





الخريطة رقم (٢) ـ بلاد الشام كما رسمها الاصطخري .

ولا يهمنا هنا أن ندرس تاريخ الفينيقيين ولكن يكفي أن نذكر أن مدنيتهم قد ازدهرت وأن دولتهم قد قويت حتى كانت لهم أساطيل للتجارة والقرصنة تجوب البحر الأبيض المتوسط . كانوا وثنيين لم يعرف عنهم شيء من مكارم الأخلاق بل عرف عنهم العكس حتى لقد كانت الدعارة الدينية منتشرة[١] بينهم ، وكان لهم إلهة للتهتك يتقرب إليها بالتضحية ببكارات العذارى في الهياكل ، وكانت النساء يقدمن لها غدائرهن أو يستسلمن لأول غريب يعرض عليهن الجنس في جوار الهيكل ! ولقد كانت مثل تلك العادات منتشرة أيضا في شمال سوريا وفي القبائل السامية الضاربة في جنوبها .

أما في سوريا والأردن وفلسطين فإن ظهور دول الأنباط ثم تدمر ثم الغساسنة يفيد أن العنصر العربي هو الذي ساد تلك البقاع وعمّرها بالعنصر البشري ، وقد انتشرت المسيحية بينهم . كذلك كانت هناك أقلية من اليهود تركزت في فلسطين . تلك البقاع جميعا كانت تحت سيطرة الروم الشرقيين أو ما عرف بالدولة البيزنطية ، ويؤيد انتشار العنصر العربي على أغلب أرجاء الشام الأخبار المتنوعة عن تلك الحقبة ، من ذلك أن رسول الله ﷺ بعث الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الاسلام بعث إلى الحارث بن أبي شمر الغساني الذي وصفه الرواة بأنه صاحب دمشق ولا شك أنه كان عربيا . وكانت جِلّق بغوطة دمشق إلى الجنوب منها إحدى منازل الغساسنة العرب وقد أغار خالد بن الوليد على بني غسان بمرج راهط بغوطة دمشق ، وفي المنجد أن حوران سكنها الغساسنة قبل الاسلام . ولقد كانت قبائل قريش في رحلة الصيف إلى الشام تتاجر مع غزة على ما روى أبو سفيان ، ولا نحسبه كان يتجه إلى غزة إلا للاتجار مع العناصر العربية بها . بل إن الأخبار تذهب إلى ظهور الاسلام في بعض ربوع الشام على عهد رسول الله ﷺ بما بسط له النفوذ على تلك الربوع ، أسلم[٢] أهل تبالة وجُرَش عن غير قتال فأقرهم رسول الله ﷺ على ما

(١) قصة الحضارة ـ ول ديورانت ٣٠٨/٢/١ ـ ٣٢٠

(٢) فتوح البلدان ٧١ عن بكر بن الهيثم عن عبد الرازق عن معمر عن الزهري

أسلموا عليه وجعل على كل حالم ممن بها من أهل الكتاب دينارا واشترط عليهم ضيافة المسلمين وولى أبا سفيان بن حرب جُرَش . وحين توفي[١] رسول الله ﷺ كان له عمال على من أسلم من قبائل قضاعة ببطونها الكبيرة وقد كانت تلك البطون تنتشر من شمالي الحجاز إلى بلاد الشام وقد ارتد بعضهم حين عمت الردة .

بل إن التاريخ الأقدم من ذلك بكثير تمتلىء صفحاته بما يعنى انتشار العنصر العربي على رقعة أرض الشام . ففي عام ٦٤ قبل الميلاد جعل بومبي الحاكم الروماني انطاكية عاصمة لسوريا وسمح للملوك[٢] العرب بالبقاء على ان تقتصر سلطتهم على ممتلكاتهم الأصلية وأن يدفعوا جزية سنوية واحتفظ ملك الأنباط بدمشق مقابل مبلغ ضخم من المال . وفي أخبار الحملة الثانية التي جردها كراسوس[٣] في ربيع عام ٥٣ خانه حليفه العربي أبجر ملك أديسا وتمزق جيشه في الصحراء السورية على بعد ثلاثين ميلا من حرّان . ثم يقول فيليب[٤] حتّي إن العرب عاشوا في غير نظام واحد ، ففي حمص كان الحكم بيد الملوك الكهنة وإلى الجنوب في سوريا كان يحكم حاكم وطني واستمرت هاتان الأسرتان تحكمان حتى أواخر القرن الأول الميلادي ، وعلى حدود الصحراء كان طراز المعيشة بدويا . أما عند اليهود فلم يعد الكاهن الأعظم ملكا بل صار رئيس طائفة وكانت الارستقراطية اليهودية هي التي تعينه ... وبالنسبة للعرب والعرب الآراميين [الذين تكلموا اللغة الآرامية] فقد أقيمت بينهم في شرقي لبنان الشرقي وفي القسم المأهول من شرقي الأردن مستعمرات رومانية وضم تراجان سنة ١٠٦ م شرقي الأردن وحوران اللتين كانتا قبل تحت حكم الأنباط ، وفي ١٠٥ م أخضع تراجان البتراء فألحقت

(١) الطبري ٢٤٣/٣ عن عبيد الله عن عمه عن سيف وعن س ش س عن أبي عمر وعن زيد بن أسلم .

(٢) تاريخ سورية ٣٠٩/١ .

(٣) تاريخ سورية ٣١٠/١ .

(٤) تاريخ سورية ٣١٧/١ ـ ٣١٩ .

بالامبراطورية الرومانية تحت اسم الولاية العربية Provincia Arabia .وأنشأت الادارة الرومانية سلسلة من المراكز على طول حدود الصحراء وكان جنودها في الغالب من القبائل الموالية . ويستشهد محمد عزة[١] دروزة بقائمة احتوت مئات من أسماء القرى والقصبات والمدن في مختلف أنحاء الشام تحمل اللمحة العربية القديمة .

وجملة القول ان العرب سكنوا نواحي الشام مع استيطان سلالات الفينيقيين على الساحل اللبناني ومع وجود أقليات يهودية في فلسطين وجاليات في المدن الكبرى بالشام ، هذا بالإضافة إلى العنصر الذي وفد بدافع الغزو ونعني به الروم البيزنطيين الذين لم يشكلوا نسبة لها اعتبارها من تعداد السكان ، بل لقد كانوا أقلية وإن كانت لهم الغلبة بقوة البطش والسلاح .

(١) تاريخ موجات الجنس العربي ٩ .

هرقل [1]

حروب مع الفرس

وهرقل هو امبراطور بيزنطة الذي حكم الدولة الرومانية الشرقية [البيزنطية] لمدة ثلاثين عاما فيما بين عام ٦١٠ م و ٦٤٠ م وهو الذي قدر عليه أن يواجه الفتح الاسلامي لبلاد الشام . يقول ابن كثير في تفسيره سورة الروم « كان من عقلاء الرجال ومن أحزم الملوك وأدهاهم وأبعدهم غوراً وأقصاهم رأيا ، فتملك عليهم في رياسة عظيمة وأبهة كبيرة ... وكانت النصارى تعظمه تعظيما زائداً » .

كان الروم ينطقون اسمه هيراكليوس [الأول] Héraclius ، وقد وصل إلى حكم دولته بثورة . فقد كان هناك حلف بين كسرى يزويز وبين موريس امبراطور بيزنطة ، غير أن الروم قاموا بانقلاب قتلوا فيه موريس ففر ابنه ولجأ إلى كسرى

---

(١) القرآن الكريم ـ سورة الروم
الجامع لأحكام القرآن ـ تفسير سورة النور ١٤/٢ ـ ٧
تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير ـ تفسير سورة النور ٣٠٤/٦ ـ ٣١٢ .
الطبري ١٨١/٢ ـ ١٨٢ و ٢٣٠
الطريق الى المدائن ١٢٦
تاريخ سورية ١١/٣/٢ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤١ .
المنجد ٧٢٧
قصة الحضارة ٢٩٥/١/٤ ـ ٢٩٦
ابن عساكر ٣٥٤/١ ـ ٣٦٣ .

حليف أبيه ، ونصّب الروم قوفا امبراطورا لهم في حين قرر كسرى غزو بلاد الروم فوجه إليها ثلاثة جيوش بقيادة :

١ ـ شهربراز [ومعناها خنزير الدولة] إلى القسطنطينية فخرب جميع ما مر به من بلاد الروم وقطع زيتونهم وقتل رجالهم حتى ضرب معسكره عند خلقيدون أمام القسطنطينية ٦١٧ م .

٢ ـ رميوزان إلى الشام فانتهى إلى فلسطين ودخل بيت المقدس عام ٦١٤ وساق أسقفها وقسيسيها ومن بها من النصارى وأحرق الكنائس واستولى على صليبهم الأعظم وبعث به إلى المدائن في العام الرابع والعشرين من ملك كسرى برويز .

٣ ـ شاهين إلى مصر والنوبة فاستولى على الاسكندرية ٦١٦ م وبعث بمفاتيحها إلى كسرى عام ٢٨ من ملكه ، ولم يحل عام ٦١٩ حتى دخلت مصر كلها في حوزة فارس .

سورة الروم

هذه الحملات تذرعت بحجة أنها تستهدف تنصيب ابن موريس ، غير أن الروم لم يخضعوا لذلك وقتلوا قوفا لفجوره وجرأته على الله وسوء تدبيره ونصبوا عليهم هرقلا عام ٦١٠ أثناء الزحف الفارسي وقبل أن يحقق كل تلك الانتصارات . ومني الروم بهزيمة منكرة في أذرعات قريبا من بصرى وبدا موقفهم لا أمل فيه .. حينذاك نزل الوحي في مكة بالآيات الأولى من سورة الروم يخبر بما كان ويتنبأ بانتصار الروم بعد هزيمتهم « الم . غُلبت الروم في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن اكثر الناس لا يعلمون ... » وبعض المفسرين يقف بما أنزل أولا عند قوله « ويومئذ يفرح المؤمنون » وكأنما يعنون أن ما بعد ذلك من الآيات قد أنزل فيما بعد .

وحين احتل الفرس انطاكية عام ٦١١ م أرسل كسرى الملقب پرويز [يعني المظفر] رسالة إلى الامبراطور الجديد هرقل يقول فيها .

« من كسرى أعظم الآلهة وسيد الأرض كلها إلى عبده الغبي الذليل هرقل . إنك تقول إنك تعتمد على إلهك فَلِمَ إذاً لم ينقذ أورشليم من يدي ؟! »

وخرج الصدّيق أبو بكر يصيح بالآيات إلى المشركين في نواحي مكة وقال لهم أسَرَّكم أن غُلِبت الروم ؟ أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا ؟ فلا تفرحوا ولا يقرّن الله أعينكم ، فوالله ليظهرن الله الروم على فارس فإن نبينا أخبرنا عن الله تعالى أنهم سيغلبون في بضع سنين » . فشاتمه أُبَيّ بن خلف وأخوه أمية [وقيل أبو سفيان] . أبو بكر ينطلق من منطق الإيمان ، لقد قال الله وصدق الله ، والمشركون ينطلقون من الأمر الواقع في حينه الذي لا يؤمنون بسواه . قال أُبَيّ « يا أبا فصيل فلنتراهن في ذلك » فراهنهم أبو بكر ـ وذلك قبل أن يحرم الرهان بتحريم الميسر ـ وجعلوا الرهان عددا من الإبل والأجل ثلاث سنين [وقيل غير ذلك في روايات أخرى] ثم جاء أبو بكر إلى النبي ﷺ فأخبره فقال ﷺ « فهلا احتطت ؟! فإن البضع ما بين الثلاث والتسع والعشر ، ولكن ارجع فزدهم في الرهان واستزدهم في الأجل » . ففعل أبو بكر فجعلوا الإبل مائة والأجل تسعة أعوام فغلبت الروم في أثناء الأجل ، قال الشعبي في تسع سنين وقال القشري المشهور أنه كان في سبعة . قال الزبير بن عبد الله[1] « رأيت غلبة فارس الروم ، ثم رأيت غلبة الروم فارس ، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس ، كل ذلك في خمس[2] عشرة سنة » .

(١) أسد الغابة ١٧٣٠ ترجمة الزبير بن عبد الله . أخبرنا ابو موسى كتابة ، اخبرنا الحافظ أبو نصر احمد بن عمر المعروف بالغازي بقراءتي عليه ، أخبرنا اسماعيل بن زاهر القاضي بنيسابور ، أخبرنا ابو الحسين القطان ، أخبرنا عبد الله بن جعفر بن درستويه ، أخبرنا يعقوب بن سفيان ، أخبرنا صفوان بن صالح ، أخبرنا الوليد بن مسلم ، أخبرنا أسيد الكلابي ، أنه سمع العلاء بن الزبير يحدث عن أبيه ، قال .

(٢) تاريخ موجات الجنس العربي في بلاد الشام ٣٢٣ .

وقال المفسرون إن المقصود بأدنى الارض في الآيات هو أدنى أرض الشام وقد كان ذلك في أذرعات بينها وبين بصرى فيا بين بلاد العرب والشام وهوما نذهب إليه إذ الأدنى في اللغة هو الأقرب ، وفي رواية أخرى أن تلك المعركة الحاسمة التي نزلت فيها الآيات كانت بالجزيرة ولم تكن بالشام . وفي تفسير ابن كثير أن ملك فارس كان سابور ذا الأكتاف وهو خطأ ، والصواب الثابت في التاريخ أنه كان كسرى پرويز .

ولا ريب أن إيمان المسلمين بقرآنهم ويقينهم في غلبة الروم على الفرس رغم أن موقف الروم كان ميئوسا منه كان اكبر من اقتناع هرقل نفسه أو حتى أمله بأنه سوف يسترد الموقف وينتصر عليهم من جديد ، وما نحسب هرقلا يوم ذاك كان على استعداد أن يراهن على ذلك بمائة من الإبل كما فعل أبو بكر .

وقدر هرقل موقفه فرأى سوء ما آلت إليه أحوال دولته من غزو وخراب ، فلم يكن باقيا لبيزنطة سوى عدد قليل من الثغور الآسيوية وقليل من أرض إيطاليا وسواحل أفريقيا البعيدة وبلاد اليونان وأسطول لم يحارب وعاصمة محاصرة في رعب ويأس . وبكى هرقل وتضرع إلى الله وسأله أن ينقذ دولته من جيوش كسرى .

فرج من الله[1]

وكان مع شهربراز أخوه فرخان يعاونه في قيادة الجيش الفارسي حتى بلغا القسطنطينية ، وجلسا يشربان نخب انتصاراتهما ، فقال فرخان والخمر تدور برأسه « لقد رأيتني في المنام جالسا على سرير كسرى » ، وبلغت كسرى فكتب إلى شهربراز أن يقتل فرخان ويرسل إليه برأسه . ولكن شهربراز راجع كسرى في ذلك ثلاثا ، كتب إليه « أيها الملك ، إنك لن تجد مثل فرخان ، له نكاية وصوت في العدو

(١) فتوح مصر وأخبارها ٣٥
ابن عساكر ١/ ٣٦٠
بإسناديهما عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن ابن عباس ، عن هرمزان .

فلا تفعل » فكتب له كسرى « إن في رجال فارس خلفا منه فعجّل إليّ برأسه » ، لقد كان كسرى يسوس دولته بذلك الشعار « أهل الثقة فوق أهل الخبرة » . وراجعه شهربراز مرة أخرى حتى أغضبه ، ولم يجبه كسرى وإنما بعث بريدا إلى جيشه « إني قد نزعت عنكم شهربراز واستعملت عليكم فرخان » . وأعطى البريد رسالة صغيرة وقال له « إذا ولى فرخان الملك وانقاد له أخوه فأعطه هذه » .

وقرأ شهربراز رسالة عزله فقال « سمعا وطاعة » ونزل عن سريره فاعتلاه فرخان . حينذاك أعطاه البريد رسالة كسرى فقال « إيتوني بشهربراز » وقدمه ليضرب عنقه فأبرز له خطابات كسرى التي أمره فيها بقتل فرخان وقال له لقد راجعته فيك ثلاثا وأنت تقتلني من كتاب واحد ! » فرد فرخان القيادة إلى شهربراز ، وكتب شهربراز إلى هيراكليوس « إن لي إليك حاجة لا تحملها البُرد ولا تحملها الصحف ، فالقني ولا تلقني إلا في خمسين روميا فإني ألقاك في خمسين فارسيا » . وأقبل هرقل في خمسمائة رومي ووضع العيون في الطريق خوفا أن يمكر به شهربراز حتى طمأنوه أن ليس معه إلا خمسون رجلا . وبسطت لهما البسط وضربت لهما قبة ديباج فالتقيا بها ومع كل منهما خنجر ، ودعيا ترجمانا بينهما ، فقال خنزير الدولة [شهربراز] « إن الذين خربوا مدائنك أنا وأخي بكيدنا وشجاعتنا ، وإن كسرى حسَدَنا وأراد أن أقتل أخي فأبيت ثم أمر أخي أن يقتلني ، وقد خلعناه جميعا فنحن نقاتله معك » . قال هرقل « قد أصبتما » . ثم أشار أحدهما إلى صاحبه أن السر بين اثنين فإن جاوزهما فشا . قال « أجل » . فقتلا الترجمان بخنجريهما .

وأعد هرقل عدته لعمل مضاد وأمده البطريرك سرجيوس بالمال فنظم جيشه واستخلف ابنه على القسطنطينية ثم أبحر بأسطوله إلى البحر الأسود حتى هبط بجيشه على سواحل أرمينيا ثم أوغل فيها واستولى على القوقاز وانصب منها إلى نصيبين واستغرق هذا منه عاما . كان تقدمه سريعا إذ كانت جيوش فارس الرئيسية جد بعيدة .

كان كسرى في دستجرد [دسكرة] . ودمر هرقل في تقدمه كلورمية Clorumia مسقط رأس زرادشت منشىء الديانة التي يدين بها الفرس وأطفأ نارها المقدسة الخالدة عام ٦٢٤ م وكان ذلك ردا على استيلاء الفرس المجوس على الصليب الأعظم . وبعث كسرى اثني عشر ألفا يقودهم راهزار ليقيم في نينوى على طريق هرقل ، وعلم هرقل بذلك فعبر دجلة إليهم في سبعين ألفا في أحسن عدة فسحق جيش كسرى وقتل راهزار وستة آلاف من جنده وهام الآخرون على وجوههم منهزمين ، وأرسل كسرى جندا آخرين هزمهم هرقل واعتصم كسرى بأسوار المدائن حتى دخل هرقل دستجرد ٦٢٨ م وخربها وخرب قصر كسرى بها . وكتب كسرى إلى شهربراز يأمره بالرجوع على عجل وهو لا يدري بتحالفه مع هرقل ... وعاد شهربراز إلى المدائن في ستة آلاف .

وانتهى هرقل إلى المدائن وقد فر منها كسرى پرويز [المظفر] حاملا النار المقدسة وقتل هرقل من كان بالمدائن واستولى على جميع ما فيها من أموال ، وسبى نساء كسرى وحريمه وحلق رأس ولده وأركبه على حمار وأذله وساق معه الأساورة من قومه [ضباط الجيش الفارسي] في غاية الهوان وربط الروم خيلهم بالمدائن واستطاع هرقل أن يسترد مدينة الرها بالجزيرة وسوريا عام ٦٢٨ م .

في رواية مرجوحة أن انتصار الروم كان يوم بدر والذي نرجحه رواية أخرى أن ذلك كان يوم الحديبية أو على الأصح أن أخبار الانتصار بلغت المسلمين وهم في الحديبية ففرحوا بها حيث كان الروم أهل كتاب كالمسلمين في حين كان الفرس أهل وثنية ولإنجاز موعود الله الذي رأى الناس فيه دليلا على صدق النبوة فعند ذلك أسلم ناس كثير ، قال تعالى[1] « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم

(١) سورة المائدة ٨٢ ـ ٨٣ .

تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » . فلم يكن للمسلمين غير أن يفرحوا لانتصار الروم كما قال القرآن « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » .

ولم يلبث شيرويه بن كسرى أن انتقض على أبيه وقتله عام ٦٣٣ م وملك بعده ثمانية أشهر باسم قباذ الثاني عقد خلالها صلحا مع هرقل ونزل له عن مصر وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى وغربي الجزيرة وأعاد إليه الأسرى والصليب . وفي عهده بدأ الفتح الإسلامي لامبراطورية الفرس على يدي خالد بن الوليد . ثم مات شيرويه فولى الملك بعده ابنه الطفل في السابعة من عمره أردشير . واحتل خنزير الدولة شهربراز حليف هرقل المدائن وقتل الملك الطفل ورجاله وجلس على العرش أربعين يوما ثم اغتيل وسحلت جثته في شوارع المدائن . وملكت بعده بوران بنت كسرى پرويز ، وفي رواية أنها هي التي أعادت خشبة الصليب إلى ملك الروم مع جاثليق اسمه يشوعهب فأعيدت إلى كنيسة القيامة بالقدس في ١٤ سبتمبر [ايلول] ٦٢٩ م وكان ذلك إيذانا بوضع الحرب بين الدولتين . ونودي بهرقل امبراطور بيزنطة محرراً للمسيحية ومعيدا لوحدة الامبراطورية الشرقية .

كان زعماء الموارنة على صلة طيبة بالامبراطور هرقل فكان ذلك داعيا لأن تتبنى الطائفة برمتها تعليمه في الطبيعة الواحدة . ولقد بذل هرقل مساعيه عام ٦٣٨ م لرتق الفتق الديني باقتراحه بعض التسوية ولكن مسعاه باء بالفشل في جمع المسيحيين على كلمة واحدة .

وحين غزا المسلمون الشام عام ١٣ هـ ٦٣٤ م كانت القبائل العربية هناك قد تنصرت ووقفت إلى جانب بيزنطة في حروبها ضد المسلمين الفاتحين كما وقفت معها من قبل ضد الفرس . وكأنما أراد فيليب حتّي أن يجد مبررا يعلل به نجاح الفتح الاسلامي في انتزاع الشام من امبراطورية الروم البيزنطية فقال إن تلك القبائل لم تكن في حالة من الرضى لأن المعونة الاقتصادية التي كانت تتقاضاها سنويا من

الدولة الرومانية في مقابل حراسة الحدود قد أوقفها هرقل لأسباب اقتصادية ، كما أهمل أمر الحصون الجنوبية وسحبت منها حامياتها لتعزيز الحشد في الشمال في وجه الخطر الفارسي .

ونعجب لهذا الخلط .. أي خطر فارسي ؟ لقد بلغ هرقل دستجرد والمدائن في ٦٢٨ م بعد أن اكتسح أمامه كل الأراضي والحاميات الفارسية وانتهى كل خطر فارسي على دولة الروم وأعيد الصليب إلى مكانه من بيت المقدس واحتفل بذلك في سبتمبر ٦٢٩ في حين لم يبدأ الفتح العربي في عهد أبي بكر إلا عام ٦٣٤ . وحين بعث رسول الله ﷺ أسامة في ثلاثة آلاف مسلم إلى مؤتة عام ٨ هـ . ٦٢٩ تصدى له جيش قيل انه كان من مائتي ألف ! ونرى في العدد مبالغة ، نصفهم من الروم ونصفهم من العرب العملاء .

لقد ذكرنا قبل أن الاسلام ظهر بين العرب في بعض ربوع الشام . ولكن لا شك انه لم يتخذ صفة الانتشار ولا العمق في النفوس ، فما ذكرنا عن اسلام قوم من مختلف بطون قضاعة نجده يهتز بوفاة رسول الله ﷺ فترتد تلك البطون فيمن ارتد من العرب حين تفشت الردة .

ولقد قاد هرقل الدفاع عن بلاد الشام ضد الفتح الاسلامي ، وفقدت الدولة البيزنطية في عهده وتحت قيادته الشام ومصر بعد أن استردهما من الفرس .

الجيش البيزنطي

حين بدأنا بدراسة الفتوح الإسلامية بالميدان الشرقي ـ أو الجبهة الفارسية ـ تناولنا[1] حينذاك دراسة عن العرب وشبه جزيرتهم وبيئتهم وحروبهم وعدة الحرب وأدواتها عندهم ومصادر أسلحتهم بما يغنينا عن إعادته هنا منعا للتكرار . كما تناولنا مثل ذلك من أحوال الفرس . ونذكر فيما يلي ما تناول به مونتجمري الجيش البيزنطي

(١) الطريق إلى المدائن ٣٣ ـ ١٠١ .

استكمالا للصورة وليكون معينا لنا عند دراسة معارك ذلك الجيش مع المسلمين . قال « ... إن هذا الجيش[1] قد أسسه بليزاريوس وموريس وزاد من كفاءته هيراكليوس [هرقل] وانتصر به على السلاف والفرس ٦٢٢ ـ ٦٢٨ ، وكانت فرسان بليزاريوس الثقيلة تشكل القوة الرئيسية للجيش البيزنطي على مر العصور ، وكان الفارس يرتدي قميصا معدنيا من رقبته حتى الفخذين ويحمل درعا مستديرا متوسط الحجم وقلنسوة مزودة بخصلة من الشعر ويرتدي في يديه قفازاً طويلاً يمتد الى ما بعد الرسغ وحذاء من الصلب في قدميه . وكانت جياد الضباط وقوات الخط الأمامي مزودة بمقدمة حديد لحمايتها ، وجميع الجياد مجهزة بسروج مريحة وبها ركاب حديدي .

وكان الجنود يرتدون في الطقس الحار سترات خفيفة من الكتان فوق دروعهم ، وتتغير هذه السترة الكتانية إلى معطف من الصوف في الجو البارد .

وكان الفارس يستخدم أثناء الهجوم سيفا من النوع العريض وخنجرا وقوسا قصيرا وجعبة مملوءة بالسهام وحربة طويلة مزخرفة ومزودة بسير جلدي عند جزئها السفلي الغليظ ، وأحيانا كان يحمل بلطة تثبت في سرج الجواد .

وكان الجيش البيزنطي يرتدي زيا موحدا يشتمل على معطف وعلم مثلث على رأس الرمح وخصلة من الشعر على الخوذة . ولأن هذه المعدات كانت ثقيلة الوزن وكان على الفارس أن يقاتل بها لذا كان لزاما أن يكون لائقا بدنيا . وكان هناك جندي لخدمة كل ضابط أو أربعة أو خمسة فرسان . وكان الجيش يضحي بهذه التكاليف حتى يتفرغ الضباط والفرسان لتركيز كل طاقاتهم للقتال . كما كانوا يمنحون تغذية جيدة للحفاظ على صحتهم ولياقتهم ، وكانت الدولة تسمح بمنحهم بعض الراحة والثراء مع مراعاة ألا يؤدي ذلك إلى الآثار الضارة على المبادىء العسكرية .

(١) الحرب عبر التاريخ ١٩٤ ـ ٢٠٢ ولم يبن عن مصادره .

أما مشاة الجيش البيزنطي فلم تكن هي ملكة الميدان لأن دورها كان محدودا في الدفاع عن الممرات والمناطق الجبلية وكذا حماية القلاع والمدن الهامة ، وكان معظم المشاة الخفيفة من الرماة وخاصة من رماة الرمح ، أما رماة القوس فكانوا أحيانا يرتدون سترات معدنية ولكن في أحيان أخرى يرتدون سترة قصيرة مشدودة بحزام في الوسط وينتعلون أحذية قوية ، ويحملون جعبة بها أربعون سهما وبلطة معلقة في أحزمتهم يستخدمونها في حالة الالتحام مع العدو على مسافات قريبة ويحمل واقيا مستديرا متدلي على ظهره لحمايته .

أما المشاة الثقيلة التي كان يطلق عليها سكوتاتوس فكانت ترتدي رداء معدنيا وقفازات طويلة ودروعا للساق وخوذة حديدية مدببة من الأمام ومزودة بخصلة من الشعر من الخلف ويحملون دروعا مستديرة وكبيرة . وكان سلاحهم الهجومي عبارة عن الرمح والسيف والبلطة .

وأسوة بالفرسان كان للمشاة أيضا مجموعات كبيرة من الخدم ، وكان لكل وحدة مكونة من ستة عشر رجلا عربتان محملتان بالعتاد والمؤمن وأواني الطهي وطاحونة يدوية للحبوب بالإضافة إلى معدات الحفر والحصار مثل المطارق والمجارف والفئوس والمناشير . كما كان هناك جياد مخصصة لحمل الإمدادات للمسيرات الطويلة .

الخدمات في الجيش البيزنطي

كان الجيش البيزنطي يتبع النظام التقليدي الروماني في إقامة معسكراته المحصنة ، وكان هذا يقتضي الأفراد والمعدات اللازمة فكانت مجموعات المهندسين ملحقة دائما بمقدمة الجيش ، وكان لهم نظام ثابت في إقامة معسكراتهم فيخطط المهندسون المعسكر ويحددونه بالحبال وعند وصول القوات الرئيسية للجيش توضع الجياد والعربات في مركز المعسكر مع تنظيمها بحيث تكون مركز الدفاع الداخلي ،

بينما تقوم القوات بحفر دفاعات المعسكر تحت حراسة بعض الجنود .

كذلك كانت قوافل التموين والوحدات الطبية تصحب الجيش ، فكل وحدة من اربعمائة رجل كان يخصص لها ضابط طبيب وستة أو ثمانية من حملة النقالات وجياد تحمل زمازم الماء وسرجا جانبيا له ركابين في جانب واحد حتى يتسنى حمل الجريح بطريقة مريحة . وكان حملة النقالات يمنحون مكافآت إضافية عن كل جريح يعودون به من ميدان المعركة ، ولم تكن تلك المكافآت تمنح بدوافع إنسانية وإنما كان يهم الدولة أن يستعيد الجريح لياقته سريعا ليعود إلى القتال .

العسكرية البيزنطية

كان تنظيم وحدات الجيش البيزنطي يتناسب مع التكتيك الذي يخوضون به القتال في براعة وكفاءة ، وكان الأسلوب غير ثابت وإنما كان يختلف من معركة إلى أخرى ويتوقف على ما يتوقعه القادة البيزنطيون من تكتيكات العدو ، ولذلك كانوا يدرسون بعناية الأساليب التكتيكية لأعدائهم المنتظرين ثم يحددون الأسلوب الذي يتبعونه . وظهرت عندهم بعض الكتب العسكرية قبل عصر الفتوح الاسلامية وبعده ، فقد وضع موريس كتابا عنوانه « الاستراتيجية » عام ٥٨٠ م ، وكتب الامبراطور ليو الحكيم الذي حكم ما بين ٨٨٦ ـ ٩١٢ م كتابا عنوانه « التكتيك » ، كما كتب الامبراطور نقفور فوكاس الذي حكم ما بين ٩٦٣ ـ ٩٦٩ م كتابا مثيرا عن حرب الحدود .

ولقد أعاد موريس تنظيم الهيكل العام للجيش ووضع أسس التجنيد ، فلم يكن بالجيش وحدات مستديمة اكبر من تلك التي كان يطلق عليها « نوميروس » فرفع عدد رجال هذه الوحدة حتى بلغ ٤٠٠ وأسماها « تاجما » وجعلها الوحدة الاساسية للجيش ، ثم قام بتجميع عدد من هذه الوحدات في مجموعة واحدة يتراوح عددها بين ٦٠٠٠ ـ ٨٠٠٠ وأسماها « ميروس » وهي الفرقة .

وكان هناك سلم لرتب الضباط يبدأ من رتبة « ديكورين » مسئول عن ١٦ جنديا ، حتى رتبة « مورارس » مسئول عن الفين من الجنود . وكان تعيين الضباط من رتبة «سنتوريون» يعني نقيب يتم عن طريق الحكومة المركزية ، وكانت المصطلحات الفنية المستخدمة في الجيش البيزنطي خليطا من الكلمات الرومانية واليونانية والتوتونية .

وفي مجال هذا السرد للعسكرية البيزنطية كتب مونتجمري أن العرب كانوا أشد أعداء البيزنطيين بأسا ... وقد تميز العرب بحشد قوات كبيرة من جميع القبائل العربية أتصفت بخفة الحركة والقوة والطاقة الروحانية والهجوم الخاطف الذي يشيع الرعب في صفوف أعدائهم . وقد وصف القائد البيزنطي نقفور فوكاس المقاتلين المسلمين فقال « عندما يتوقعون النصر فهم قوم في غاية الجسارة يصمدون بثبات في صفوفهم ويقاتلون بإصرار باسل في وجه أعنف الهجمات ، وعندما يلاحظون أن وحشية عدوهم بدأت تتراخى يحشدون قواتهم ويهجمون باستماتة » .

منهجنا

روايات فتوح الشام

تناقضات

يشكو الكتاب المحدثون من كثرة الاختلافات والتناقضات في الروايات التي رواها رواة فتوح الشام ، ويتخذونها ذريعة يبررون بها قصور البحث في استراتيجيات الفتوح حتى أننا نلمس إفلاس المكتبة الحديثة من أي مؤلَّف يتناول معارك فتوح الشام بالشرح والتفصيل . ولهم في ذلك من العذر شيء كثير . ولقد مر بنا مثل ذلك ونحن ندرس فتوح العراق وفارس ، إلا أن الخلاف حول فتوح الشام يبدو أكبر بصورة تحير الدارس وتجهد الباحث ... بأي الروايات يأخذ ... وأيها يدع !

غير أنه مهما كانت صعوبة البحث فقد كان لزاما أن نقتحمه ، فما كان اكتساح المسلمين الشام ثم مصر وليبيا والشمال الأفريقي وانتزاعه من أنياب الروم ليمر دون تأريخ حربي بمنهج وأسلوب حديث ، وما كانت تغنينا عن ذلك كتب كتبت منذ ألف عام أو يزيد أو يقل ولو كانت هي مصادرنا ولها فضل التسجيل .

ونظرنا في ذلك نبحث عن ثغرة في ستار الحيرة نستبعد بها بعض المرويات أو نرجح أحداها أو نوفق بينها أو نقارب ما بينها من تباعد ، فوجدنا أن فتوح الشام كانت حربا ، ولكل حرب مستوياها الاستراتيجي والتكتيكي ، وهما الجانبان اللذان نعني ببحثهما وتبيانهما في هذه الدراسة ، فعلى المستوى التكتيكي لم نكد نجد في فتوح الشام خلافا في المرويات يتعذر علاجه ، بل لعله يحق لنا أن نقرر أن العكس

هو الغالب ، فإن تلك الروايات يكمل بعضها بعضا ويتممه أكثر مما يناقضه ، فالشأن في ذلك شأن وكالات الأنباء المتعددة إذا تناولت حدثا من الأحداث ، فلربما وجدنا مراسل كل وكالة مع اتفاقه مع الآخرين في المضمون العام فإنه يتناول من الوقائع والتفاصيل والانطباعات والتعليقات والتخريجات ما لا يتناوله الآخرون دون أن يدعونا هذا إلى وضعه في عداد المتناقضات ما لم تتناقض فعلا . ولا يغرب عن بالنا ما يفصلنا عن تلك الحروب والمواقع من قرون أربعة عشر ضاعت فيها مخطوطات واحترقت كتب ومكتبات .. وعبرت جحافل التتار نهر دجلة الواسع العريض على سد أقاموه من كتب المسلمين ومصنفاتهم في عصر كانت المصنفات مخطوطات نادرة لم تتناولها المطابع بعد .

أما على المستوى الاستراتيجي فلقد كانت هناك بالفعل خلافات في الروايات حول المسارات وأي المعارك كان قبل وأيها كان بعد . وقد يكون ثقيلاً على القارىء أن نفيض في سرد تلك الروايات وإيضاح ما بينها من خلاف ، إلا أنه لا يسعنا أن نعبر على هذه الظاهرة دون أن نذكرها أو نناقشها .

فإذا نظرنا في معارك فتوح الشام لتبينت لنا معارك أساسية وأخرى جانبية يصل بعضها إلى مستوى المناوشات ، بل إن بعضها كان استيلاء على مواقع بدون قتال ، من هذا الصنف معارك العربة والداثنة ومآب وشيزر والزراعة والقسطل والمعرة وفامية وسبسطية وبينى ... الخ . وقد يكون مما يساعدنا على المقارنة بين الروايات أن نضع تلك المناوشات جانبا حتى تقتصر نظرتنا على المعارك الأساسية ولا سيما الأولى منها التي وقعت فيما بين عام ١٣ هـ وعام ١٥ هـ . فإذا بدأنا من نقطة اتفاق الرواة جميعا عن جيوش المسلمين التي وجهها أبو بكر الصديق متفرقة إلى الشام ، وهي التقاؤها في بُصرى ، فإننا نستطيع أن نستخلص أن المعارك الأساسية الكبرى التي تحدد استراتيجية الفتح ومساره هي تلك الخمس التي وقعت على وجه الخصوص في أجنادين وفحل ودمشق وحمص واليرموك .

إذا فحصنا هاتيك الروايات تطبيقا على خريطة الشام ، وعلى ضوء ما ذكرنا عن جغرافية أرض الشام لتبين لنا أن تلك المعارك الأساسية التي انفتحت الشام على أثرها إنما وقعت جميعها ـ فيما عدا أجنادين ـ في النطاق الشرقي أو بتحديد أدق على سفوح إقليم الجبال الشرقية أو في إقليم الغور ، وهما الإقليمان اللذان ميزناهما برقمي ٣ و ٤ في فصل « بلاد الشام » . فلما تم اندحار القوات الأساسية الكبرى لبيزنطة في هذين الإقليمين اجتازت جيوش المسلمين جبال لبنان ـ الإقليم رقم ٢ ـ إلى المدن الساحلية ـ الإقليم رقم ١ ـ في سهولة ويسر ، فكانت لقاءات أخرى بين القوتين انتهت بسقوط تلك المدن في أيدي المسلمين . وقد كان ذلك النفاذ من المسالك الطبيعية التي أوضحناها حينذاك سواء إلى جهة غزة جنوبا أو بحذاء نهر أرند ـ العاصي ـ شمالا إلى اللاذقية وانطاكية وسواهما من مدن الساحل . أما إجنادين فكانت تقع بين الإقليم الأول والإقليم الثاني وهي الوحيدة التي شذت عن النطاق الذي ذكرنا ، ويرجع ذلك إلى وقوعها في مكان يصل إلى الجنوب كما يسهل الوصول إليه منه عند بدء حركة فتح الشام . وبعبارة أخرى فقد تجنبت المعارك الكبرى بين الطرفين أن تقع على شواهق جبال لبنان أو بين شعابها ، أو أن تدور على الشريط السهلي الساحلي الضيق ، على ما سوف نتناوله في موضعه من هذا البحث إن شاء الله .

وعلى ذلك لم يكن يسعنا بادىء الأمر إلا أن نرى أن اختلاف الروايات حول مسار الفتح لم يعد له ذلك الأثر الاستراتيجي ، فسواء كان ترتيب المعارك : أجنادين ثم فحل ثم دمشق أو كان أجنادين ثم دمشق ثم فحل فإننا نجد أنفسنا في نهاية المطاف أمام نفس النتيجة كما لو جمعنا س + ص + ع أو س + ع + ص. ومع ذلك فلم يكن هذا ليمنعنا من تبين حقيقة ما كان ، بل إنه هدف أساسي وهام من أهداف بحثنا هذا لنقطع به حيرة القارىء بين روايات هذا التاريخ الجليل ، فلما تم ذلك استبانت لنا في نهاية المطاف استراتيجية الفتح واستراتيجية الدفاع الذي نتركه لموضعه حتى لا نسبق الأحداث . وطبقا للروايات التي بين أيدينا نضع الجدول

التالي لترتيب معارك الفتوح .

	ابن اسحق[1] ١٥٢ هـ	سيف ١٨٠ هـ	الوليد ١٩٥ هـ	الواقدي ٢٠٧ هـ	المدائني ٢٢٥ هـ	الأزدي ٢٣١ هـ	البلاذري ٢٧٩ هـ
بصرى	١	١	١	١	١	١	١
أجنادين	٢	٦	٢	٢	٢	٢	٢
فحل	٣	٤	٣	٣		٤	٣
دمشق	٤	٣	٤	٤		٣	٤
حمص	٥	٥	٥			٥	٥
اليرموك	٦	٢	٦	٥	٣	٦	٦

بعد هذا التمهيد والتسلسل لعلنا نستطيع بنظرة إلى هذا الجدول أن نتبين اتجاها معينا يشبه الإجماع ، بمعنى أن الخروج عنه في بعض أجزائه يعتبر شذوذا عنه . وبتحديد أكثر نستطيع أن نتبين أن مسار فتح الشام كان على هذا الترتيب :

بصرى ـ أجنادين ـ فحل ـ دمشق ـ حمص ـ اليرموك .

ولا يبدو أنه شذ عن هذا الترتيب سوى روايتان الأولى رواية الأزدي ، فقط فيا يختص بفتح دمشق وبمعركة فحل أيهما كانت قبل الأخرى ، فإذا أخذنا في الاعتبار أن مدينة دمشق قد حوصرت عدة مرات قبل أن يتم فتحها فإننا نلتمس العذر لتداخل الروايات واختلاط الأمر على من شذ من الرواة في هذا الشأن . كذلك شذت رواية سيف بن عمر في ترتيبها عن سائر روايات الرواة وبشكل شامل ظاهر .

هذا الترتيب الذي ذكرنا سابقا هو الذي اعتمدناه في كتابنا هذا . وهو يتطابق

(١) التاريخ المذكور هو تاريخ وفاة الراوي .

أو يكاد مع روايات ابن اسحق والوليد بن مسلم والواقدي والمدائني[1] والأزدي والبلاذري . وعلى ذلك فسوف تقتصر استفادتنا من روايات سيف بن عمر على النطاق التكتيكي فقط حين يصف المعارك ، دون النطاق الاستراتيجي حين يتحدث عن المسارات أو التوقيتات . ولئن تكلم علماء الجرح والتعديل في ابن اسحق أو الواقدي فإن لنا سندا في معاضدة الروايات بعضها لبعض . ومع ذلك فإن أساس ضبط الأخبار عند المسلمين هو التوقيت الدقيق لها بالسنين والشهور والأيام ، وهو ضابط انفردوا به[2] عن نظرائهم عند اليونان والرومان وأوربا الوسيطة . قال المؤرخ الانجليزي Backle إن التوقيت على هذا النحو لم يعرف في أوربا قبل عام ١٥٩٧ م على أن نظام التوقيت ابتدأ ضعيفا عند المسلمين فوقع في تاريخ حوادث الفتوح الأولى تخليط كثير ، ثم كمل ونضج على مر الزمان .

الترجيح بين الرواة

ولقد نظرنا فيا بين أيدينا من مصادر هذا التاريخ فوجدنا مؤلفات في أكثرها مُسْنَدَة ، على طريقة حدثنا فلان قال حدثنا فلان أخبرنا فلان ... الخ . وهي طريقة تمنح الرواية ـ للوهلة الأولى ـ الثقة . فإذا ذهبنا نفتح المصدر تلو المصدر وجدنا الروايات تتضارب بما يستحيل معه الجمع بينها ، تختلف في توقيتات الأحداث وتختلف في تقدير أعداد قوات الفريقين وتختلف في أسماء القادة وغير ذلك ، وهذه مسندة وتلك مسندة والثالثة مسندة وهكذا ! فأي الروايات أولى بالتصديق ؟

هذا الطبري[3] يقول « ... فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجها في الصحة ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنه لم يُؤْت في ذلك من قبلنا وإنما أُتي من قبل

(١) لم نعثر له على رواية كاملة ، فلم نجد عنه ذكر ترتيب فحل ودمشق وحمص .
(٢) أضواء على التاريخ الاسلامي ١٣٧ .
(٣) الطبري ٨/١ .

بعض ناقليه إلينا ، وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أُدِّي إلينا » .

وإذ يحتاط الطبري لنفسه بهذا إنما يضع المسئولية في أعناقنا نحن القراء والباحثين من بعده . وتأسيسا على ذلك يقول الدكتور[1] أحمد محمد الحوفي « ... لهذا دوّن الأخبار على عهدة رواتها وعرضها عرضا موضوعيا محايدا وعزا كل رواية إلى صاحبها ولم يقتصر على ما يوافق فكره أو رأيه ، ولم يعلق بترجيح أو تفنيد أو إبطال ، بل ترك للقارىء أن يميز ويحكم ويختار » . ويقول محب الدين الخطيب[2] بعد أن ذكر الطبري وابن عساكر وابن الأثير وابن كثير « ... وقد أثبت اكثر هؤلاء أسماء رواة الأخبار التي أوردوها ليكون الباحث على بصيرة من كل خبر بالبحث عن حال راويه . وقد وصلت إلينا هذه التركة لا على أنها هي تاريخنا بل على أنها مادة غزيرة للدرس والبحث يستخرج منها تاريخنا ، وهذا ممكن وميسور إذا تولاه من يلاحظ مواطن القوة والضعف في هذه المراجع وله من الألمعية ما يستخلص به حقيقة ما وقع ويجردها عن الذي لم يقع مكتفيا بأصول الأخبار الصحيحة عن الزيادات الطارئة عليها ... » وقال فتحي[3] عثمان « إنما ينتفع بأخبار الطبري من يرجع إلى تراجم رواته في كتب الجرح والتعديل » ثم قال « فشعار الطبري إذن : العهدة على الراوي » .

وبالرغم من هذا فلم يفعل ذلك أحد ـ ولا واحد في حدود علمنا ـ بل درج جميع كتابنا على أخذ الروايات على علاتها منسوبة إلى ذلك الشيخ الجليل الطبري . ولا نكاد نجد مثل هذه الإشارة إلى المصادر التاريخية الأخرى مثل فتوح البلدان للبلاذري وفتوح الشام المنسوب للواقدي وتاريخ فتوح الشام للأزدي وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن هؤلاء لم يذكروا في

(١) الطبري للحوفي ١٩٢ .
(٢) أضواء على التاريخ الاسلامي ٨٥ .
(٣) أضواء على التاريخ الاسلامي ٧٢ و ٧٤ .

مصنفاتهم أن العهدة على الراوي في حين أن منها ما هو أشد حاجة من تاريخ الطبري إلى النظر في رواتها ، وما آفة الأخبار إلا رواتها .

اقتحام العقبة

وكان لا بد مما ليس منه بد ، فإن النظر في الرجال ودراسة الرواة عملية صعبه شاقة ومجهدة ذهنياً وبدنياً لما تقتضيه من وقت طويل ، ومكلفة ماديا وماليا ، فمراجعها من الكتب قليلة الاستعمال كبيرة الحجم غالية الثمن نادرة الوجود . ولكن يتعين أن نتبين الروايات الأَوْلىَ بالأخذ والروايات الأَوْلى بالترك ، فرجعنا إلى ما يقرب من ثلاثين كتابا من هذه المراجع الكبيرة ـ مبينة في قائمة المراجع ـ وإذ وجدنا أنفسنا أمام أعداد كبيرة من الرواة فقد ذهبنا نبحث عن التَّعِلاَّت لإنقاص هذا العدد ، ووجدنا أننا نستطيع استبعاد فئات ست دون تأثير على البحث .

- استبعدنا رواة الأحداث المتأخرة في العهدين الأموي والعباسي التي أوردها البلاذري مختلطة بأحداث الفتح على عهدي أبي بكر وعمر ، فاقتصر بحثنا على رواة فتوح الشام التي تمت في عهد الخليفتين رضي الله عنهما .

- واستبعدنا الحلقات التي تنتهي بمجاهيل يستحيل التعرف عليها وهي كثير في « فتوح البلدان » بالذات ـ نادرة في غيره ـ مثل قوله ... عن مشايخ من أهل عسقلان ـ عن مشايخ من أهل الشام ـ عن مشايخ من أهل العلم ـ عن فلان في إسناد لم أحفظه ... الخ . واعتبرنا تلك في منزلة روايات غير مسندة

- واستبعدنا بحث الحلقات التي روت أمورا رأيناها غير هامة مثل تعليل أسماء بعض المدن ، وتوقع المشركين لظهور دولة المسلمين وروايات عن رؤى وأحلام رآها رجال صالحون من المسلمين أو رجال من الروم ، وهي كثيرة عند ابن عساكر خاصة وبعضها عند الأزدي ، وكذلك تلك المتعلقة بأحداث هامة ولكنها خارج نطاق العمليات الحربية مثل « قدوم عمر إلى الجابية وما سن بها من السنن

الماضية » و« حكم الأرضين وما جاء فيه عن السلف الماضين » ... الخ من كتاب ابن عساكر .

- واستبعدنا من بحثنا كل من انفرد بالرواية عن الواقدي أو انفرد الواقدي بالرواية عنه لأسباب سوف تتبين حين يصل القارىء إلى ما قدمنا به الواقدي .
- واستبعدنا من سلاسل رواة ابن عساكر [وقد تصل إلى ١١ أو ١٢ حلقة في السلسلة الواحدة] بحث تلك التي تتصل بسلاسل رواة الطبري عن سيف بن عمر [التي تصل عادة إلى خمس حلقات أو ست ، منها ثلاث تكاد تكون ثابتة وهي السري عن شعيب عن سيف] اكتفاء بدراسة سلاسل سيف بن عمر عند الطبري .
- واستبعدنا دراسة حلقات الصحابة باعتبار الصحابة كلهم عدول أو كما يقول رجال الحديث « بساطهم مطوى » .

ولقد كان الرواة الذين أحصيناهم منتظمين في سلاسل كالآتي :

عدد الرواة	عدد السلاسل	مصدر الرواية	ملاحظـــات
٥٥	٧	محمد بن اسحق	١٤ يروي عنهم ، ٤١ يروون عنه .
٤٢	٢٠	سيف بن عمر	٤٠ يروي عنهم ، ٢ يرويان عنه .
٥٧	١٤	الوليد بن مسلم	٢٩ يروي عنهم ، ٢٨ يروون عنه .
٦	٥	علي بن محمد المدائني	٥ يروي عنهم ، ١ يروي عنه .
٧٣	٣١	محمد بن عبد الله الأزدي	يروي عنهم .
٤٠	١٥	احمد بن يحيى البلاذري	يروي عنهم .
١٤٣	٢٢	ابن عساكر	يروي عنهم .

وهذه الأعداد تشمل الصحابة المشاهدين كما تشمل الرواة المكررين عند أكثر من مصدر . وقد انحصرت هذه الدراسة في رجال مصادر أربعة هي كتب الأزدي[١] والطبري[٢] والبلاذري[٣] وابن عساكر[٤] ، وقد بلغوا ثلاثمائة وعشرة راو ، فكان منهم الثقات الصدوقين وكان منهم الضعفاء والكذابون وبقي نحو من ستين راو لم نقف على ما يفيد جرحهم أو تعديلهم فاعتبرناهم مجهولين حتى نجدهم ، من وجدناه في المصادر مجهولا قلنا عنه مجهول ، ومن لم نجده إطلاقا قلنا عنه « نجهله » .

بعد ذلك كان علينا أن نلتزم منهجا علميا محكوما بقواعد ثابتة . هذه القواعد وجدناها ... سبقنا إلى وضعها أئمة أجلاء من علماء الحديث ، فاستعرنا من علم الرواية والإسناد القواعد التالية أضفنا إليها القاعدتين الأخيرتين حتى تكون هاديا لنا :

١ - الأخذ بالراجح وترك المرجوح [حتى وإن كان المرجوح أكثر روائية وتشويقا] .
٢ - يكون الترجيح باعتبار النظر في الرواة أو بالنظر في المرويات أو باعتبار أمور خارجة عنهما .
٣ - نرجح ما رواته اكثر على ما رواته أقل .
٤ - نرجح رواية الأوثق بالعدالة والأحفظ بالضبط .
٥ - نرجح رواية الشاهد بنفسه المباشر[٥] لما رواه عن غيره .

(١) تاريخ فتوح الشام .
(٢) تاريخ الأمم والملوك .
(٣) فتوح البلدان .
(٤) تاريخ مدينة دمشق .
(٥) نتفق هنا مع علماء الرواية والإسناد ونخالف ما ذهب إليه مومسين Mommsen حيث قال إنه لا حاجة حتى لغير العلماء إلى اثبات أن روايات الأحداث التاريخية إذا أخذها الراوية عن الأشخاص الذين اشتركوا فيها هي في العادة روايات غير صحيحة [تاريخ الدولة العربية ليوليوس فلهوزن صفحة د] . فهو بذلك يفترض الكذب في الراوي ابتداء ، وقواعد العدالة تقر أن الانسان - حتى المتهم - بريء إلى أن تثبت إدانته ، لا سيا إذا وثقه علماء الرجال .

٦ ـ نرجح الرواية المفصلة على المجملة إذا تعارضت معها .

٧ ـ نرجح ما سانده دليل آخر من الأحوال الجغرافية أو الجوية أو الفصول السنوية أو غير ذلك على ما لم يسانده دليل .

٨ ـ نرجح ما وافق علم الحرب ومنطقه على ما خالفه .

ومن المعلوم أن قوة السلسلة تقاس بأضعف حلقاتها .

بدون تعنت

وننوه هنا أننا لاحظنا عند دراستنا لأحوال الرواة أن علماء الجرح والتعديل حين يجرحون راو أو يعدلون آخر إنما يقيسون الرجال بمقياس جد متشدد ، فإن هذا العلم ـ علم الرواية والإسناد ـ قد وضع أساسا ليقاس بمقتضاه ما روى من حديث نسبة رواته إلى رسول الله ﷺ من قول أو فعل ليجيز ما يثبت نقله عنه ، فالأمر يتعلق بإرساء قواعد الدين وتأصيل أصول الإسلام عباداته ومعاملاته وشريعته ومعتقداته ، وهم في ذلك يقولون إن الخبر إذا لم يحرم حلالا ولم يحل حراما ولم يوجب حكما وكان في ترغيب أو ترهيب أغمض عنه وتسوهل في رواته . قال البيهقي[١] « إذا روينا عن النبي ﷺ في الحلال والحرام والأحكام شددنا في الأسانيد وانتقدنا الرجال ، وإذا روينا في الفضائل والثواب والعقاب سهلنا في الأسانيد وتسامحنا في الرجال » .

ولنسق لذلك مثلا ـ مجرد مثل ـ فقد كانوا يشترطون في نقل الخبر السماع ولا يجيزونه بالكتابة ، ويرون أن رؤية الراوي لشيخه الذي ينقل عنه وسماعه إياه أوثق من أن يصله الخبر مكتوبا منه ، ولقد كان ذلك نهجا أكثر انضباطا عما سواه .

يقول الذهبي[٢] في ترجمته للراوي علي بن احمد بن محمد بن داود الرزاز « صدوق سمع ابن السماك وطبقته ... وشاهدت جزءا من أصوله في بعضها سماعه

(١) قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث ٩٤ .

(٢) ميزان الاعتدال .

بالخط العتيق ، ثم رأيته وقد غُيِّرَ بعدُ وفيه إلحاق بخط جديد ، فيقال ذلك من فعل ولده » (!) . مثال آخر ، جبير بن نضير الحضرمي حدث عن كبار الصحابة وحدث عنه محدثون ثقات ، ولكن البخاري لم يخرّج أحاديثه[١] لأن البخاري لا يقنع إلا بأن يصرح الراوي بلقاء من روى عنه ، وهذا ربما روى عن قدماء الصحابة دون التصريح باللقاء وقد لا يكون التقى بهم ، وكانوا يسمون ذلك تدليسا .

نقول إن هذا وأمثاله من النهج المتشدد إن كان له ما يبرره عند إرساء قواعد الدين فلعله أن يكون تعنتا أن نطبقه بحذافيره على المرويات التاريخية . ففي مجال حديث رسول الله ﷺ إذا اجتمع في الراوي جرح مسبب وتعديل فجمهور العلماء على أن الجرح مقدم،ويرى بعضهم أنه إذا زاد المعدّلون في العدد على المجرّحين قدم التعديل . قال الإمام احمد بن حنبل[٢] « كل رجل ثبتت عدالته لم يُقبل فيه تجريح أحد حتى يتبين ذلك عليه بأمر لا يحتمل غير جرحه » . وقال جمال الدين القاسمي[٣] « ... وما أحسن مذهب النسائي في هذا الباب وهو أن لا يترك حديث الرجل حتى يجتمع الجميع على تركه » . يقول ابن تيمية[٤] « إن المنقولات التي يحتاج إليها في الدين قد نصب الله الأدلة على بيان ما فيها من صحيح وغيره . ومعلوم أن المنقول في التفسير أكثره كالمنقول في المغازي والملاحم . قال الإمام أحمد : « ثلاثة أمور ليس لها إسناد ، التفسير والملاحم والمغازي . ويروى ليس لها أصل أي إسناد لأن الغالب عليها المراسيل مثل ما يذكره عروة بن الزبير والشعبي والزهري وموسى بن عقبة وابن اسحق ومن بعدهم كيحيى بن سعيد الأموي والوليد بن مسلم والواقدي ونحوهم من كتّاب المغازي » .

وقال السخاوي[٥] « أبو داود يخرج الضعيف إذا لم يجد في الباب غيره ، وهو

(١) تذكرة الحفاظ ٥٢/١ ـ ٣٢ .

(٢) تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر ٢٧٣/٧ .

(٣) قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث ١٧١ .

(٤) مقدمة في أصول التفسير ٥٨ .

(٥) قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث ٩٨ .

أقوى عنده من رأي الرجال وهو تابع في ذلك شيخه الإمام أحمد ... » وزاد ابن تيمية الأمر شرحا فقال « وأما نحن فقولنا إن الحديث الضعيف خير من الرأي ليس المراد به الضعيف المتروك ، لكن المراد به الحسن كحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ... »

ونحن حين نبحث اليوم عن رواة هذه الأخبار في مصادر وضعت في جملتها أصلا لرواة الحديث إنما نسلك ـ أردنا أو لم نرد ـ ذلك النهج المتشدد وكأننا بأولئك الأساتذة العظام كانوا يقرون بتشددهم ذاك ، ففيما روي أن عبد الرحمن بن أبي[1] حاتم الرازي كان يقرأ كتابه في الجرح والتعديل على الناس ، فقال له يحيى بن معين « إنا لنطعن على أقوام لعلهم حطوا رحالهم في الجنة منذ أكثر من مائتي سنة ! » فبكى عبد الرحمن وارتعدت يداه حتى سقط الكتاب من يده . لذلك نميل قدر الاستطاعة إلى التساهل في قبول الرواة ما وجدنا إلى ذلك سبيلا ، وإنما تظهر المشكلة حين تتعارض الروايات على ألسنة رواة من مستوى واحد قوة أو ضعفا . وكما سبق أن ذكرنا لقد افتقدنا بعضا من هؤلاء الرجال في المصادر فلم نعثر لهم على جرح أو تعديل وربما كان ذلك راجعا إلى أن رواياتهم قد اقتصرت على الأخبار دون الحديث ، فكانوا يقولون عن أحدهم « إخباري » ولعل في التعبير حط من شأنه عن مرتبة المحدّث ، وقد نشأ علم الرجال أصلا لخدمة علم الحديث . يقول عبد الوهاب[2] بن علي السبكي « الجهل في المؤرخين أكثر منه في أهل الجرح والتعديل » .

لقد كان التزامنا هذا النهج المنضبط كفيلا بإخراج هذا التاريخ بالصورة التي يجدها القارىء بين يديه ، وعدم التعنت في نظرنا لا يعني التسيب والأخذ عن كل وجه، بل إن غيرنا أكثر منا تساهلاً في النقل التاريخي،فعند المؤرخ رشيد الدين فضل

(١) قاعدة في الجرح والتعديل ٥٣ ـ الهامش .
(٢) قاعدة في الجرح والتعديل ٦٩ .

الله الهمذاني أنه لو ذهب المؤرخ إلى وجوب ان يكون كل ما يكتبه مقطوعا بصحته فإنه قد لا يستطيع أن يكتب تاريخ أمة ، لأن أكثر ما ينقل إليه إنما يكون لغير المتواتر من الأخبار . ويحذر رشيد الدين في اشتراط يقينية روايات التاريخ ، فإن هذا يؤدي إلى حرمان الناس من مزايا معرفة التاريخ[1] .

فإذا ما تراءى لبعض الناس أن هذا يؤدي بالبحث في هذا التاريخ إلى فجوات وثغرات كان عليه أن يتذكر بالضرورة أن هذا المنهج غير متبع في دراسة أي تاريخ ـ أو شريعة ـ عند غير المسلمين ، وليس هناك مثل هذه الدراسات عن مدى الثقة في أي راو ولا عن تسلسل الرواة في أي عصر . يقول الإمام ابن حزم[2] الأندلسي « نقل الثقة عن الثقة يبلغ النبي ﷺ مع الاتّصال خص الله به المسلمين دون سائر الملل ، وأما مع الإرسال[3] والإعضال فيوجد في كثير من اليهود ولكن لا يقربون فيه من موسى قربنا من محمد ﷺ بل يقفون بحيث يكون بينهم وبين موسى اكثر من ثلاثين عصرا (!) وإنما يبلغون شمعون ونحوه . وأما النصارى فليس عندهم من صفة هذا النقل إلا تحريم الطلاق فقط ، وأما الطريق المشتملة على كذاب أو مجهول العين فكثير في نقل اليهود والنصارى . وأما أقوال الصحابة والتابعين فلا يمكن اليهود أن يبلغوا صاحب نبي أصلا ولا إلى تابع له ، ولا يمكن النصارى أن يصلوا إلى أعلى من شمعون وبولص » . أ . هـ .

يقول الاستاذ بارنز[4] «في عهد الامبراطورية الرومانية المتأخر أبدى بعض أبناء الكنيسة الذين يميلون اكثر من غيرهم إلى التشكك ، أبدوا شكوكهم في صحة أفكار تقليدية معينة عن تأليف الكتاب المقدس ، ولكن أول دارس أثار مسائل على

(١) جامع التواريخ ـ المجلد الثاني ، الجزء الاول (ل) . وقد عاش رشيد الدين ٦٤٥ ـ ٧١٨ هـ ١٢٤٧ ـ ١٣١٨ م .
(٢) نفس المصدر
(٣) المرسل هو ما سقط من سنده الصحابي . والمعضل ما سقط من إسناده اثنان فأكثر بشرط التوالي .
(٤) تاريخ التاريخ ١٩ نقلا عن A History of Historical Writing By Harret Elmer Barners. P. 19 .

جانب كبير من الأهمية من ناحية الآراء التقليدية كان عالم العهد الوسيط ابن عزرا الذي تحدى في سنة ١١٥٠ م فكرة تأليف موسى للأسفار الخمسة . وفي القرن السابع عشر أبدى الفيلسوف الناقد الشهير توماس هوبز شكه في تأليف موسى للأسفار على أساس اعتبارات منطقية ومفاهيم الإدراك العام لا على أساس الدراسة التاريخية للنصوص . وأشار إلى أنه [ليس][1] من المألوف أن يشير مؤلف وهو يكتب سيرته الذاتية إلى موته ويفخر بأنه قد أحسن دفنه إلى حد أنه لم يستطع أحد لمدة سنوات عدة أن يعرف موضع قبره ، وبرغم ذلك فإن الأسفار الخمسة تروى بالتفصيل الحزن الذي ألم باليهود بعد موت موسى . وقد بدأ العالم اليهودي باروخ اسبنوزا الدراسة الصحيحة الناقدة لأصول سِفْر التكوين وأظهر أن هذا السِّفْر لا يمكن أن يكون كاتبه مؤلفا واحدا في أي وقت واحد ، وقدم الدليل الذي ينقض نظرية تأليف موسى للأسفار الخمسة » . أ . هـ .

وإذا كان مفهوم « كتاب مقدس » أنه من عند الله وليس من وضع بشر ، فإن هؤلاء الاساتذة من آباء الكنيسة ومن علماء اليهود لم يذهبوا فقط إلى نفي أن الكتاب المقدس وحيا من عند الله بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك ... أن الأسفار الخمسة المفروض أنها وصلتنا عن طريق موسى ليست من تأليف موسى ! فإذا كان من عند غير الله ومن عند غير موسى فكأنما أفضوا إلى أنه من عند مجهول . هذا هو المنهج الذي يلتزمه المسلمون عند دراسة مصادرهم . ولسنا هنا نتناول الكتاب المقدس بشيء ، فما إلى هذا قصدنا وليس هذا من مواضيع دراستنا ، فقط أردنا المقارنة بمدى الثقة ـ أو مقدار مبررات الثقة ـ في هذه المصادر لمن أراد المقارنة ، وهدفنا توثيق تاريخنا الذي حفظه لنا شيوخ اجلاء لهم كل الفضل في التسجيل وفي أن أتاحوا لنا فرصة المفاضلة بين رواتهم .

أخرج الإمام مسلم[2] عن ابن المبارك قوله « الإسناد من الدين ، لولا

(١) ساقطة من النص ويقتضيها السياق .

(٢) قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث ١٨٥ .

الإسناد لقال من شاء ما شاء » . ويقول المستشرق الألماني[1] سبرنجر « لم تكن فيما مضى أمة من الأمم السالفة ، كما أنه لا توجد الآن أمة من الأمم المعاصرة أتت في علم أسماء الرجال بمثل ما جاء به المسلمون في هذا العلم العظيم الخطر الذي يتناول أحوال خمسمائة ألف رجل وشؤونهم » .

وبعد . فمن أراد أن يتسلل خلال بعض الثقوب ليطعن هذا التاريخ فليطعن قبل هذا جميع أخبار الدنيا منذ نشأتها إلى يومنا هذا ، وليطعن كل تراث الإنسانية بما في ذلك الكتب المقدسة السابقة على القرآن الكريم ، فإن هذا التاريخ الإسلامي الذي بين أيدينا هو أوثق من كل هذا . ومع ما ذكرنا ، إنما هو في جملته محكم مترابط كثير وجوه الإسناد ولا يعيبه ضعف بعض أسانيده ، وضعف الراوي لا يعني أنه كذاب ، بل إن الراوي الذي عرف عنه الكذب قد يصدق أحيانا . ومن القواعد[2] المعمول بها أن الرواية الضعيفة ترتفع إلى مرتبة الحسن وأن الحسن يرتفع إلى الصحيح إذا ساندته روايات أخرى ولو كانت ضعيفة في حالتها المنفردة وهو ما يعرف بـ « الصحيح لغيره » تمييزا له عن « الصحيح لذاته » . ومن أراد أن يطعن هذا التاريخ التليد وهذا الجهد المشكور في التسجيل فليطعن قبل ذلك أولئك الذين كان عليهم أن يسجلوا كما سجل أسلافنا فلم يفعلوا ، ونعني بهم الفرس والروم . فمع هذا البحر الزاخر من المرويات العربية لا نكاد نجد شيئا يرويه الطرف الآخر . بل أبعد من ذلك .. كان الرواة المسلمون هم الذين حفظوا لنا أخبار الأكاسرة الفرس قبل الاسلام ! ولنذكر دائما أننا إذا قسنا أخبارنا المعاصرة على قواعد الجرح والتعديل عند علماء الحديث لربما كان علينا ألا نثق في الشرق الأوسط وفي الغرب أن حربا قامت في فيتنام بين شمالية وجنوبية في قرننا العشرين !

(١) أضواء على التاريخ الاسلامي ١٣٦ عن تصدير طبعة كلكتا ١٨٥٣ لكتاب الإصابة لابن حجر العسقلاني .

(٢) في عون الباري نقلا عن النووي أنه قال : الحديث الضعيف عند تعدد الطرق يرتقي عن الضعف إلى الحُسْن ويصير مقبولا معمولا به . [قواعد التحديث . ٩]

لقد امتزج في بحثنا هذا التاريخ بتحقيقه . المادة التاريخية هي الهدف والأساس الذي نسعى إليه ، وتحقيقها مجرد وسيلة . ولكثرة ما لزمنا التحقيق خشينا الملل على القارىء الذي يبتغي المادة التاريخية وحدها ، وما كنا لنستطيع تخليص المادة وتقديمها غير مقرونة بتحقيقها وإلا اعترضتها علامات الاستفهام وفقدت عنصر الإقناع وهو ضروري في خضم هذه المرويات ، لذلك عمدنا ـ ما دام ذلك لازما ـ إلى تبيان حال الراوي في الهامش وتركناه إن لم يلزم . فمن شاء التحقق أمعن في الهامش ومن أراد المادة المجردة اكتفى بالأصل . وعذرنا عند القارىء أن هذا النهج في التحقيق التاريخي والجغرافي والحربي ربما اقتضى منا بذل الجهد أسابيع لنكتب سطرا أو عبارة ، وأحيانا كان يقتضي بذل الجهد أكثر من ذلك ثم لا نكتب بعده شيئا ! وما دمت مسلما ألتزم منهج المسلمين في البحث فلا مناص من ذلك ، كذلك كان المسلمون في تقديم مادتهم الشرعية ومادتهم التاريخية الإخبارية وإنا على آثارهم مقتدون .

مصادرنا

ابن إسحق

محمد بن اسحق بن يسار بن خيار [أو ابن كوثان] المدني القرشي المطلبي . ولا يعني هذا أنه كان من بني عبد المطلب أو حتى من قريش ، ولكنه كان مولى قيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف . وابن اسحق من أصل فارسي ، كان جده يسار من سبي كنيسة عين التمر الذين سباهم[١] خالد بن الوليد عام ١٢ هـ وبعث بهم إلى المدينة . وقد ولد ابن اسحق عام ٨٥ هـ على الأرجح وقضى شبابه بالمدينة ثم رحل إلى الاسكندرية عام ١١٥ هـ فحدث عن جماعة من أهل مصر ، ثم رحل إلى الكوفة والجزيرة والري والحيرة وبغداد وأخذ عن شيوخها ، كما أخذ عنه رواتها

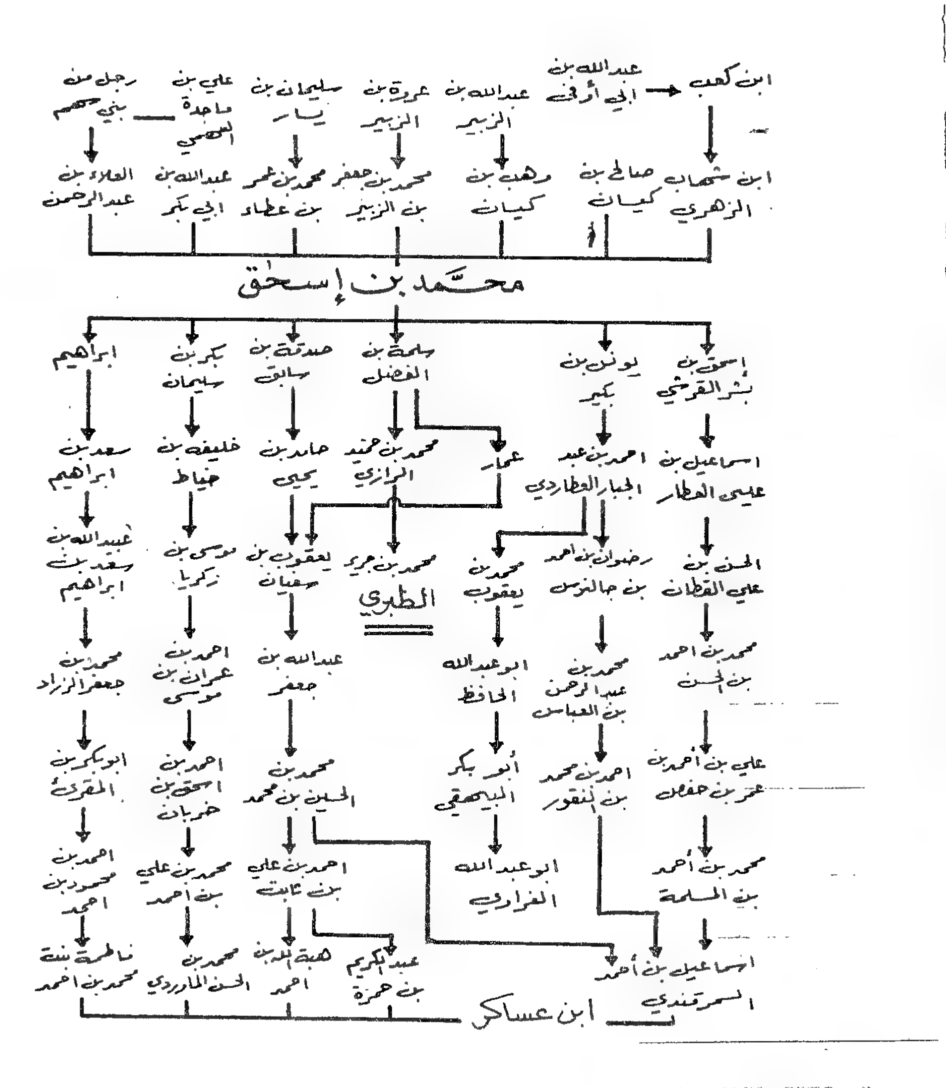
(١) الطريق إلى المدائن ٢٩٠ .

وعاش بعد رحلته في بغداد وتوفي بها عام[١] ١٥١ هـ .

وهو صاحب المغازي والسير ، المعتدلون شهدوا له بسعة علمه وبصدقه لكنهم قالوا إنه كان قدريا وإنه كان يتشيع ولا يتقيد بالقيود الكثيرة التي يتقيد بها ثقات المحدثين مثل أن يكون ما ينقله عن رواته قد سمعه في حين كان ابن اسحق يروى ما بلغه بالكتابة لا بالسماع . يقول أحمد عرموش[٢] « ... والمحدثون لا يتهمون ابن اسحق بالكذب إنما يتهمونه بالتدليس والإرسال وذلك بأن يسقط من بعض الأخبار رجالا متهمين بالكذب والوضع » . ويقول آخرون[٣] ، بل اتهمه الإمام مالك بن أنس وهشام بن عروة بالكذب والدجل والنقل عن غير الثقات . وقال ياقوت الحموي « أخطأ في كثير من النسب الذي أورده في كتابه ، وكان يحمل عن اليهود والنصارى ويسميهم في كتبه أهل العلم الأول ، وأصحاب الحديث يضعفونه ويتهمونه » .

هذا في حين نجد أئمة أجلاء يكيلون له المديح كيلا مثلا ابن شهاب الزهري وشعبة بن الحجاج وسفيان الثوري وزياد البكائي . وقد دافع عن اتهام ابن اسحق بالتدليس الخطيب في كتابه « تاريخ بغداد » وابن سيد الناس في كتابه « عيون الأثر » . وقال ابن عدى « ... وقد فتشت أحاديثه الكثيرة فلم أجد ما تهيأ أن يُقطع عليه بالضعف ، وربما أخطأ واتهم في الشيء بعد الشيء كما يخطىء غيره » . ولم يتخلف الأئمة والثقات في الأخذ عنه فقد أخرج له الإمام مسلم في المبايعات واستشهد به الإمام البخاري في مواضع وروى له أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه . وقال[٤] ابن خِلّكان « كان محمد [ابن اسحق] ثبتا في الحديث عند اكثر

(١) خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال .
(٢) الفتنة ووقعة الجمل ـ المقدمة ص ٧ .
(٣) تقديم الناشرين للسيرة النبوية لابن هشام ص ١٣ ـ ١٧ .
(٤) وفيات الأعيان .



(رواة فتوح الشام عند ابن اسحق)

العلماء وأما في المغازي والسِّيرَ فلا تجهل إمامته». وقال ابن شهاب الزهري «من أراد المغازي فعليه بابن اسحق » ، وذكره البخاري في تاريخه . وروى الشافعي أنه قال « من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على ابن اسحق » . وقال سفيان بن عيينة « ما أدركت أحدا يتهم ابن اسحق في حديثه » . وقال شعبة بن الحجاج « محمد بن اسحق أمير المؤمنين [يعني في الحديث] » . وحكى عن يحيى بن معين واحمد بن حنبل ويحيى بن سعيد القطان أنهم وثّقوا محمد بن اسحق واحتجوا بحديثه . ولم يخرج البخاري عنه وقد وثّقه وكذلك مسلم وقد أخرج عنه حديثا واحدا في الرجم من أجل طعن مالك بن أنس فيه فقد قال ابن اسحق « هاتوا حديث مالك فأنا طبيب بعلله » فقال مالك « وما ابن اسحق ؟ إنما هو دجال من الدّجاجلة » .

وقد أخذنا روايات ابن اسحق في كتابنا هذا عن السيرة النبوية لابن هشام وعن الطبري وعن ابن عساكر .

سيف بن عمر

سيف بن عمر الضبى ويقال التميمي البرجمي ويقال السعدي الكوفي ، مصنف « الفتوح الكبير » و« الردة » و« الجمل وسير عائشة » . وهو من أبرز رواة الفتوح وأغزرهم مادة ، توفي في بغداد في خلافة هارون الرشيد سنة ٢٠٠ هـ وقيل سنة ١٨٠ هـ ، وقال ابن حجر العسقلاني توفي بعد ١٧٠ هـ .

وليس بين أيدينا كثير عن الرجل بل لعله أقل من القليل رغم وفرة ما رواه . لم يذكره ابن سعد في الطبقات الكبرى ولا ابن خلكان في وفيات الأعيان ولا الكتبي في فوات الوفيات ولا الخطيب في تاريخ بغداد ولا ياقوت في معجم الأدباء ولا الذهبي في الثقات الذين ضمنهم كتابه تذكرة الحفاظ ، ولم يذكره البخاري في كتابه عن الضعفاء ولا النسائي في كتابه « الضعفاء والمتروكين » ولم يذكره ابن حجر العسقلاني في الضعفاء الذين ضمنهم كتابه « لسان الميزان » ، ولكن ذكر عنه في تقريب التهذيب أنه ضعيف في الحديث عمدة في التاريخ .

ويروي سيف عن هشام بن عروة ورجاء بن حياة وعمرو بن ميمون الأودي وأبي اسحق سليمان الشيباني وعبيد الله بن عمرو وجابر الجعفي كما يروي عن كثير من المجهولين . قال الذهبي[1] « كان إخباريا عارفا ، روى عنه جبارة بن المغلس وأبو معمر القطيعي والنضر بن حماد العتكي وجماعة . قال يحيى بن معين : ضعيف ، فَلْسٌ خير منه [ولم نقف على أي تقييم لفلس هذا] . وقال أبو داود : ليس بشيء . وقال أبو حاتم : متروك . وقال ابن حبان : اتهم بالزندقة . وقال ابن عدي : عامة حديثه منكر ... وكان يضع الحديث » .

ويذهب المستشرقان[2] ولهوسن وكايتاني إلى أنه أقل دقة من غيره من ثقات المحدثين وإن كان أكثر تفصيلا . ونحن قد لاحظنا أن رواياته أكثر تفصيلا ولكننا لا نستطيع مشاركة المستشرقَيْن في أنه كان أقل دقة ولا ندري الأساس الذي استندا إليه في حكمهما . ولقد ذكر بعضهم أنه تميمي الرواية . ولم يبق من كتبه جميعا شيء ، ولكننا نجد رواياته في كتب الذين جاءوا من بعده ، فعليه اكثر اعتماد الطبري فيما يروى عن الردة وعن الفتوح ، كما ينقل عنه الحافظ ابن عساكر كثيرا من رواياته ، ولكنهما يأخذان عنه بالرواية والإسناد وليس نقلا عن كتبه رغم أن الطبري توفي بعد سيف بما يزيد عن قرن ويفصل ابن عساكر عن سيف أكثر من ثلاثة قرون من الزمان ، فيقول الطبري : حدثني السرى قال حدثني شعيب عن سيف ... الخ ، أو كتب إليّ السرى [بن يحيى] عن شعيب [بن ابراهيم] عن سيف ... الخ . ولقد استطاع أحمد راتب عرموش أن يجمع له من المصادر المختلفة « الفتنة ووقعة الجمل »[3] في نحو من مائة وخمسين صفحة ، ولو جمعنا رواياته عن الفتوح لكانت أضعاف ذلك . وقد أخذنا في كتابنا هذا روايات سيف عن « تاريخ الأمم والملوك » للطبري ، كما وجدناها عند ابن عساكر في « تاريخ مدينة دمشق »

---

(١) ميزان الاعتدال ٢/٢٥٥ ـ ٣٦٢٧ .

(٢) أضواء على التاريخ الاسلامي ٦٥ .

(٣) نشر دار النفائس ـ بيروت .

بسلاسل من الرواة طويلة تتصل بالسلاسل ذاتها التي أخذ عنها الطبري دون ان يأخذ ابن عساكر عن الطبري فاكتفينا عند دراسة رواة سيف بما ذكر الطبري .

ولقد ذكر الخزرجي ابنه عمار بن سيف الضبى فقال : أبو عبد الرحمن الكوفي روى عنه هشام بن عروة والأعمش وروى عنه اسحق السلولي ومالك بن اسماعيل . قال العجلي : ثقة ثبت متعبد صاحب سنة . وقال ابو حاتم : شيخ صالح ضعيف الحديث . وقال ابن معين[1] : ليس حديثه بشيء .

لقد درسنا فتوح العراق والجزيرة وإيران وضمناها ثلاثة كتب « الطريق إلى المدائن » و« القادسية » و« سقوط المدائن » تقع في أكثر من ١١٥٠ صفحة ، كان جل اعتمادنا فيها على روايات الطبري عن السرى بن يحيى عن شعيب بن ابراهيم عن سيف بن عمر ، ورأينا فيها من روائع الفن الحربي على أيدي أكابر القادة المسلمين أبي بكر وعمر وخالد والمثنى وسعد والنعمان ومن وراءهم حتى أصغر جندي في تلك الجيوش وفقا لما طابقته آراء المحللين العسكريين والمعقبين الحربيين ما يستحيل على سيف بن عمر أو غيره من أبناء عصره ومن بعدهم بقرون كثيرة أن يضعه أو يؤلفه من عندياته ما لم يكن قد حدث فعلا في جملته وفي اكثر تفاصيله بحيث نستطيع أن نطمئن إلى صحة ما لا يقل عن ٩٥٪ من روايات سيف . تلك التجربة وما أبانت عنه في دراسة فتوح المشرق لا شك تمنح روايات سيف بن عمر من الثقة أكثر بكثير مما جاء في تجريحه أو إغفال ذكره أو ما قيل عن بعض شيوخه أنه كان يروي عن مجهولين .

في دراستنا لحركة الفتوح الاسلامية درجنا على أن ندقق ونحقق ونمحص للخروج من كل كلمة أو حرف بمعلومة تلقي الضوء على ما لا يظهر جليا في سطور المصادر ، وفي ثنايا ذلك لاحظنا أن روايات سيف في فتوح العراق وفارس قد

---

(٤) خلاصة تذهيب تهذيب الكمال .

(١) نفس المصدر .

ساعدتنا كثيرا بتقديم أسماء الرجال والقبائل بما أعاننا كثيرا على تصوير المعارك تصويرا دقيقا واستخراج التفاصيل التكتيكية لكل منها . أما هنا في عملية فتح الشام فقد جاءت مرويات سيف بن عمر أقل في تفاصيلها والبيانات اللازمة حتى أننا لم نتمكن من وضع قوائم بعناصر جيش اليرموك كما سبق أن فعلنا عند النظر في جيش[1] القادسية . ولولا استناد الموضوع هنا بصفة أساسية على مصادر أخرى غير سيف بن عمر ما ظهر هذا البحث على هذه الصورة . نخرج من هذا أنه لو كان سيف بن عمر يضع الروايات لجاءت أخباره عن فتوح الشام مماثلة لتلك الخاصة بفتوح العراق والشرق ، ولكن الفارق بين الاثنتين لم يكن في سيف وإنما في شيوخه وشيوخ شيوخه ، فقد اهتم الذين نقل عنهم فتوح العراق والشرق بما لم يهتم به الذين نقل عنهم فتوح الشام فظهر هذا التباين بين هؤلاء وهؤلاء وسيف بينهم بريء هنا وبريء هناك ، إنما كان ينقل ولم يكن يضع .

كتب إيريك[2] موريز « تعتبر الوصفات المذهبية عملا خاصا بالكتاب العسكريين وهم على أربعة أشكال :

- الأساتذة المرتبطون بالضرورة بالمذهب ومطابقته ولا يساهمون في تطوير الفكر العسكري إلا مساهمة ثانوية ولن يكون لهم أي تأثير في المستقبل .
- على حين يدفع التطوير كل من القادة العمليين في الحرب وهم الذين يصممون ويطبقون مذهبا من المذاهب .
- والمؤرخون التحليليون الذين يلاحظون آثار التطبيق .
- والمؤرخون الذين يقيمون ميزان هذه الآثار .

فأي صنف من هؤلاء كان سيف بن عمر ؟

أبدا ... ولا واحد ! لقد كان كما وصفوه إخباريا .. جامع أخبار ليس إلا .

(١) القادسية ٣٤ ـ ٤٢ .
(٢) مدخل إلى التاريخ العسكري

فإذا لم يكن صادقا في رواياته أمينا على أخباره فماذا كان ؟ هل كان مؤلف روايات ليزهو بتاريخ أبناء دينه ؟ هذا هو المحال ! لماذا ؟ لأن سيف بن عمر لم يكن من قادة الجيوش ولا من كتاب الفكر الحربي ، فهو أعجز من أن يضع هذا التاريخ بكل خططه من عنده ، أما إن كانت وقائعه قد حدثت فعلا فإنه يرويها ... إنه مجرد راوية ، فإن جرحه أساتذة الحديث وعلماء الرجال فإنما كان ذلك عن الحديث ، ولم يكن عن التاريخ . فضلا عن ذلك فإن حركة الفتح الاسلامي التي ساهم سيف في نقل أخبارها إلينا إنما جاءت عن غيره أيضا فهم يؤيدونه وهو يؤيدهم بشكل عام حتى لو اختلفوا في بعض الجزئيات فزاد عنهم أو زادوا عنه في بعض التفاصيل . فإذا قيل إنه كان يروي عن مجهولين فلم يكن ذلك ذنب سيف ، كان يروي عن رواة يعرفهم فإذا جهلهم آخرون جاءوا بعد عصره فلا سبيل إلى اعتبار الرجل مذنبا . ولا شك أنه لو لم يرو سيف بن عمر ما روى لأصيبت المادة التاريخية بخسارة جسيمة . وعلينا ألا ننسى أن كتب سيف قد ضاعت كلها لم يصلنا منها قصاصة وكل ما وصلنا إنما كان من نقل الآخرين عنه بالرواية ولا ريب أنهم نقلوا أشياء وأغفلوا أشياء .

حين يجهل علماء الرجال حال راوٍ نظروا فإذا روى عنه اثنان من الثقات اعتبروها شهادة له فوثقوه ، وعلى هذه القاعدة وجدنا أن سيف بن عمر قد روى عنه السري بن يحيى ثقة ثقة ، وثقه النسائي ، وروى عنه محمد بن عيسى الطباع قال أبو حاتم ثقة مأمون ، أخرج له البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي ، كما خرّج روايات سيف محمد بن جرير الطبري الثقة والحافظ ابن عساكر الثقة . ويكفينا من أمر سيف قول ابن حجر أنه كان عمدة في التاريخ وقول الذهبي إنه كان إخبارياً عارفا . أما من ضعفه في مجال رواية الحديث فلسنا هنا في هذا المجال . وعليه فإن رواية سيف عندنا معتمدة ما لم تصطدم بما هو أوثق وأرجح منها .

(رواة فتوح الشام عند سيف بن عمر)

الوليد بن مسلم[1]

من مؤرخي الشام خاصة . ذكره الذهبي في الطبقة السادسة من الحفاظ كما ذكره ابن سعد في الطبقة السادسة من أهل الشام بعد النبي ﷺ . وهو أبو العباس الدمشقي مولى بني أمية . كان أبوه رقيقا من الأخماس [من رقيق الإمارة] فصار لآل مَسْلمة بن عبد الملك . قال سعيد بن مسلمة بن عبد الملك « جاءني الوليد بن مسلم فأقر لي بالرق فأعتقته » . وفي قول آخر أن الوليد اشترى نفسه من آل مسلمة .

والوليد عالم أهل الشام ، ثقة كثير الحديث ، والعلم ، صاحب تصانيف حسنة وخاصة في التواريخ وعنى بهذا الشأن أتم عناية . روى عن كثيرين وروى عنه كثير من الثقات مثل احمد بن حنبل ودُحَيْم وموسى بن عامر واسحق بن المديني وهشام بن عمار ومحمود بن غيلان وزهير بن حرب وداود بن رشيد .

قال ابن حنبل : ما رأيت في الشاميين أعقل منه .

وقال علي بن المديني : هو رجل أهل الشام وعنده علم كثير . وكتب ابن المديني عن ابراهيم بن المنذر عنه .

وقال ابن جوصاء : ما زلنا نسمع أنه مَنْ كَتَب مصنفات الوليد صلح للقضاء وهي سبعون كتابا .

وقال الفَسَوي : سألت هشام بن عمار عن الوليد فأقبل يصف علمه وورعه وتواضعه .

وقال أبو اليمان : ما رأيت مثل الوليد بن مسلم .

وقال صدقة بن الفضل المروزي : ما رأيت أحدا أحفظ للحديث الطويل

---

(١) تذكرة الحفاظ ٣٠٢/١ ـ ٢٨٢
ميزان الاعتدال ٣٤٧/٤ ـ ٩٤٠٥
الطبقات الكبرى ١٧٣/٢/٧ ـ ٨٨/٢/٧ و ٩٢ .

وأحاديث الملاحم من الوليد ، وكان يحفظ الأبواب .

وقال ابو حاتم : صالح الحديث .

وقال ابن عدي : ثقة .

وقال محمد بن سعد : الوليد ثقة كثير الحديث والعلم .

ومع ذلك ...

قال أبو عبيد الآجري : سألت أبا داود عن صدقة بن خالد فقال هو أثبت من الوليد بن مسلم ، الوليد روى عن مالك عشرة أحاديث ليس لها أصل ، منها عن نافع أربعة . قال الذهبي : ومن أنكر[1] ما أتى حديث حفظ القرآن ، رواه الترمذي . ومع ذلك فقد ذكره الذهبي في الحفاظ كما أسلفنا .

وقال أبو مسهر : الوليد مُدَلِّس[2] وربما دلّس عن الكذابين ، كان يأخذ من أبي السَّفَر حديث الأوزاعي وكان ابن ابي السفر كذابا وهو يقول فيها « قال الأوزاعي » . قال صالح جزرة : سمعت الهيثم بن خارجة يقول قلت للوليد بن مسلم : قد أفسدت حديث الأوزاعي . قال : وكيف ؟ قلت تروى عنه عن نافع ، وعنه عن الزهري ، وعنه عن يحيى ، وغيرك يدخل بين الأوزاعي وبين نافع عبد الله بن عامر الأسلمي ، وبينه وبين الزهري قرة ، فما يحملك على هذا ؟ قال : أُنبِل الأوزاعي أن يروى عن مثل هؤلاء ! قلت : فإذا رُوى عن الأوزاعي عن هؤلاء وهم ضعفاء مناكير فأسقطتهم أنت وصيرتها من رواية الأوزاعي عن الأثبات ضعف

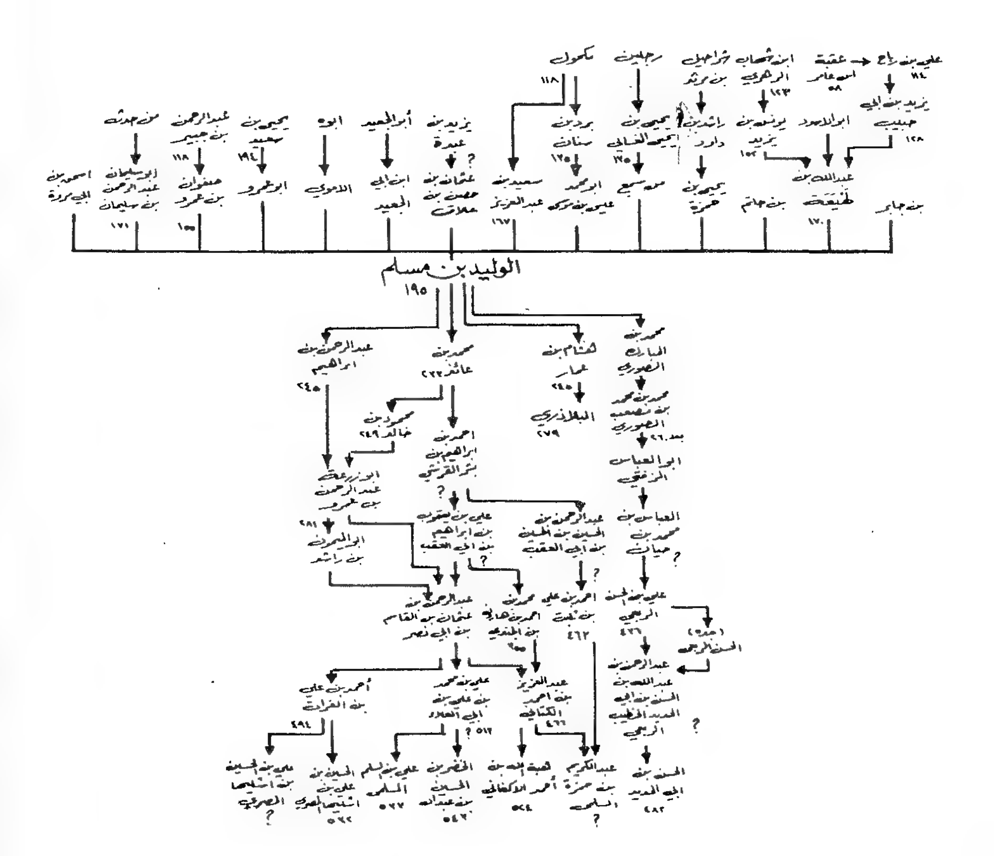
(١) الحديث المنكر هو الذي لا يُعرف متنه عن غير راويه وكان راويه بعيدا عن درجة الضبط . ورواية المناكير لا تضعف صاحبها حتى تكثر في روايته . قال احمد بن حنبل في محمد بن ابراهيم التيمي : يروي أحاديث منكرة . وهو ممن اتفق عليه الشيخان البخاري ومسلم [قواعد التحديث ١٨١] .

(٢) الحديث المدلَّس ما أسقط منه راو لم يسمعه من حدث عنه موهما سماعه للحديث ممن لم يحدثه بشرط معاصرته له ، فإن لم يكن معاصرا لم يكن تدليسا لظهور أن في الحديث راوياً ساقطاً . ومن التدليس أن يسقط الراوي شيخ شيخه إذا كان ضعيفاً وشيخه ثقة . [مفتاح كنوز السنة ـ الخولي] .

الأوزاعي . فلم يلتفت إلى قولي .

قال شمس الدين الذهبي : لا نزاع في حفظه وعلمه وإنما الرجل مدلس فلا يحتج به إلا إذا صرح بالسماع ، إذا قال الوليد عن ابن جريج أو عن الأوزاعي فليس بمعتمد لأنه يدلس عن كذابين ، فإذا قال حدثنا فهو حجة .

ولد الوليد في ١١٩ هـ وحج عام ١٩٤ وفي عودته إلى الشام نزل على حرملة بن عبد العزيز الجهني بذي المروة فمات عنده في المحرم ١٩٥ هـ . ورواياتنا عن الوليد بن مسلم أخذناها في الأغلب الأعم عن تاريخ دمشق لابن عساكر وقليل منها وجدناه في فتوح البلدان للبلاذري .



(رواة فتوح الشام عند الوليد بن مسلم)

الواقدي

محمد بن عمر بن واقد الأسلمي الواقدي ، أحد الأعلام وقاضي العراق وبغداد . روى عن ابن عجلان وابن جريج ومالك وكثير غيرهم ، كما سمع من مالك بن أنس وسفيان الثوري ومَعْمَر بن راشد وغيرهم . وروى عنه كاتبه محمد بن سعد الزهري صاحب الطبقات الكبرى وجماعة من أعيان الرواة وكان عارفا برأي مالك والثوري .

ولد الواقدي سنة ١٣٠ هـ وتوفي عام ٢٠٧ هـ ، وقال البخاري[(١)] مات سنة ٢٠٩ أو بعدها بقليل . وثق[(٢)] به مالك ومحمد بن الحسن وأبو عبيد القاسم بن سلام الثقة المشهور . وقال ياقوت[(٣)] الحموي الرومي : الواقدي المدني مولى الأسلميين أحد أوعية العلم وصاحب التصانيف الكثيرة » . ونقل ياقوت عن الإمام الثقة ابراهيم بن اسحق الحربي قوله « الواقدي أمين الناس على الإسلام » وقول محمد بن اسحق[(٤)] « والله لولا إنه عندي ثقة ما حدثت عنه » وقول مصعب بن الزبير « والله ما رأينا مثل الواقدي .. الواقدي ثقة مأمون » وقال الحافظ الدراوردي « الواقدي أمير المؤمنين في الحديث » وقال محمد بن سلام الجمحي « الواقدي عالم دهره » وقال يزيد بن هارون « الواقدي ثقة » . يقول ياقوت « أما في أخبار الناس والسِّيَر والفقه وسائر الفنون فهو ثقة بإجماع » وقال الخطيب[(٥)] « قدم الواقدي بغداد

---

(١) الضعفاء الصغير ص ١٠٤ برقم ٣٣٤ .

(٢) أضواء على التاريخ الإسلامي ٥٠ .

(٣) معجم الأدباء ١٨/٢٧٧ ـ ٢٨٢ .

(٤) الذي عناه ياقوت هنا هو محمد بن اسحق بن محمد بن اسحق النديم صاحب الفهرست وليس محمد بن اسحق بن يسار . يقول ابن حجر عن الفهرست لابن النديم : فمما في كتابه من الافتراء ومن عجائبه أنه وثق عبد المنعم بن ادريس والواقدي واسحق بن بشير وغيرهم من الكذابين ، وتكلم في محمد بن اسحق الفزاري وغيرهم من الثقات » . وقد كتب الفهرست عام ٣٧٧ هـ [لسان الميزان ٥/٧٢] .

(٥) تاريخ بغداد .

وولي قضاء الجانب الشرقي منها ، وهو ممن طبق الأرض شرقها وغربها ذكره ، ولم يَخْفَ على أحد عرف الأخبار أمره وسارت الركبان بكتبه في فنون العلم من المغازي والسِّيَر والطبقات وأخبار النبي ﷺ والأحداث الكائنة في وقته وبعد وفاته وكتب الفقه واختلاف الناس في الحديث وغير ذلك . وكان جوادا مشهوراً بالسخاء » . وبعد قضاء شرقي بغداد ولاه المأمون القضاء بعسكر المهدي . ويقال إنه حمل كتبه على مائة وعشرين وقر وكان له ستمائة قمطر كتب. ولقد لاحظ المستشرق[١] فِلْهَوْزن أن روايات الواقدي يغلب عليها معرفة التواريخ ، وقد لاحظنا ذلك أيضا .

ومع ذلك فقد طعن عليه علي المديني وقال « كان الواقدي يروى ثلاثين ألف حديث غريب » . وطعن عليه يحيى بن معين وأحمد بن حنبل وابن عدي والدارقطني . وقال البخاري « سكتوا عنه » وقال « متروك الحديث » . كما وجدنا من يطعنه طعنا شديدا . قال الحافظ ابن حجر العسقلاني « الواقدي متروك مع سعة علمه » وقال زكريا بن يحيى[٢] الساجي « الواقدي متهم » وقال معمر « ليس بثقة » وقال النسائي « والكذابون[٣] المعروفون بوضع الحديث على رسول الله ﷺ أربعة : ابن أبي يحيى بالمدينة ، والواقدي ببغداد ، ومقاتل بن سليمان بخراسان ، ومحمد بن السعيد بالشام يعرف بالمصلوب » . وقال ابن راهويه « هو عندي ممن يضع » وقال الشافعي « كان بالمدينة سبعة رجال يضعون الأسانيد ، أحدهم الواقدي » .

أئمة أجلاء كثيرون يجرّحون الواقدي وأئمة أجلاء كثيرون يعدّلونه ! وقد لاحظنا ملاحظات عديدة تضع الباحث من أمر الواقدي في أشد الحيرة ، فإن بعض

(١) تاريخ الدولة العربية ـ المقدمة صفحة خ
(٢) لسان الميزان ٧/٥٢١ ـ ٥٨٦٩ .
الفتنة ووقعة الجمل ـ المقدمة ص ٧ .
(٣) كتاب الضعفاء والمتروكين ١٢٣ .

أولئك الذين يجرحونه أو يعدلونه وإن كانوا قد عاصروه فقد كانوا يسبقونه زمنيا في عصره ومنهم من مات قبله ، فقد توفي الشافعي عام ٢٠٤ هـ قبل الواقدي بسنوات ثلاث أو خمس ، وتوفي الإمام مالك عام ١٧٩ هـ قبل الواقدي بثمان وعشرين عاما . أما مصعب بن الزبير فقد توفي عام ٧٢ هـ قبل مولد الواقدي بثمان وخمسين عاما ، إلا أن يكون المقصود خلاف مصعب بن الزبير بن العوام . الحق نقول إن في النفس شيء مما نقل عن الواقدي جرحا وتعديلا .

لقد رجعنا ننظر في كتاب « فتوح الشام » المنسوب إلى الواقدي ،وهو الذي يهمنا في بحثنا هذا ، فوجدناه مليئا بالمبالغات الظاهرة والعبارات المسجوعة على ألسنة أبطال الفتوح خلافا لأسلوب عصرهم . ولكن الواقدي[١] فيما نسب إليه يدافع عن كتابه بقوله « والله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ، ما اعتمدت في خبر هذه الفتوح إلا الصدق وما أخذته إلا عن قاعدة الصدق لأثبت فضايل أصحاب رسول الله ﷺ لأرغم بذلك أهل الرفض والخارجية عن السنة والفرض ، إذ لولاهم بمشيئة الله عز وجل لم تكن البلاد للمسلمين ولا انتشر علم هذا الدين . فلله درهم ، لقد جاهدوا وصابروا وثبتوا للقاء العدو وبذلوا جهدهم وما قصروا حتى زحزحوا الكفر عن سريره وتهيأ لمسيره وأزالوا كسرى وقيصر والجلند بن كركي ، حتى علا الإسلام وظهر ، وذل الكفر وتقهقر ، لا جرم قال الله فيهم : فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر » .

لقد اطلعنا على ثلاث طبعات من الكتاب ، الأولى لدار الجيل ببيروت غير مثبت عليها سنة نشرها ، والثانية للحلبي بمصر وبهامشه كتاب تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين نشر سنة ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٦ م . وبمضاهاة الطبعتين وجدناهما متطابقتين تماما فهما من أصل واحد لم يبن عنه أي من الناشرين ولم يقدم أحد منهما ما نشر بأي تقديم ولا ذكر شيئا عن مصدره أو تحقيقه . ثم

(١) فتوح الشام طبعة كلكتا ، تقديم المستشرق وليم ناسوليس ص ١٨ .

اطلعنا على نسخة من طبع كلكتا عام ١٨٥٤ م تحقيق المستشرق الايرلندي وليم ناسوليس W. Nassaulees وقد جاء في تقديمه أنه اعتمد على نسختين تختلف إحداهما عن الأخرى فروقا كبيرة جدا وتمنى لو كانتا أكثر صحة مما هما عليه ولو أنهما كانتا قد كتبتا بعناية أكبر . وذكر أن النسخ الخطية لفتوح الشام قليلة وأن في المكتبات الشرقية في أوروبا عشر نسخ حررت خمس منها في السنوات ٧٧٣ و ٨٢٧ و ٨٦٣ و ٩٩٤ و ١٠٠٩هـ . وقد اعتمد ناسوليس على نسخة تخص العقيد Raw linson حررت عام ٨١٥ هـ ، ووصفها بأنها نسخة دمشق وعلى نسخة ثانية تخص مولوي محمد حسن وهو مواطن من كانپور Kanpoor حررت عام ٩٥٢ هـ ، ولم تكتب أيا منهما بعناية وبهما أخطاء عديدة هجائية ونحوية وصرفية وخلط بين التذكير والتأنيث وبهما من التناقضات ما جعله يفترض أنه كان هناك إصدارين للكتاب . وأضاف أنه أحيانا لا يجد قطاعات بأكملها من صفحة أواكثر في إحداهما ، وأن نسخة كنبور اكثر امتلاء من نسخة دمشق في جزئها الأول بينا تزيد نسخة دمشق في جزئها الأخير ، وأن محرر نسخة العقيد رولنسون عمد إلى إجراء بعض التصحيحات حتى تبدو أنها أصلية غير مقلدة ولكنه لم يوفق في دقة النقل .

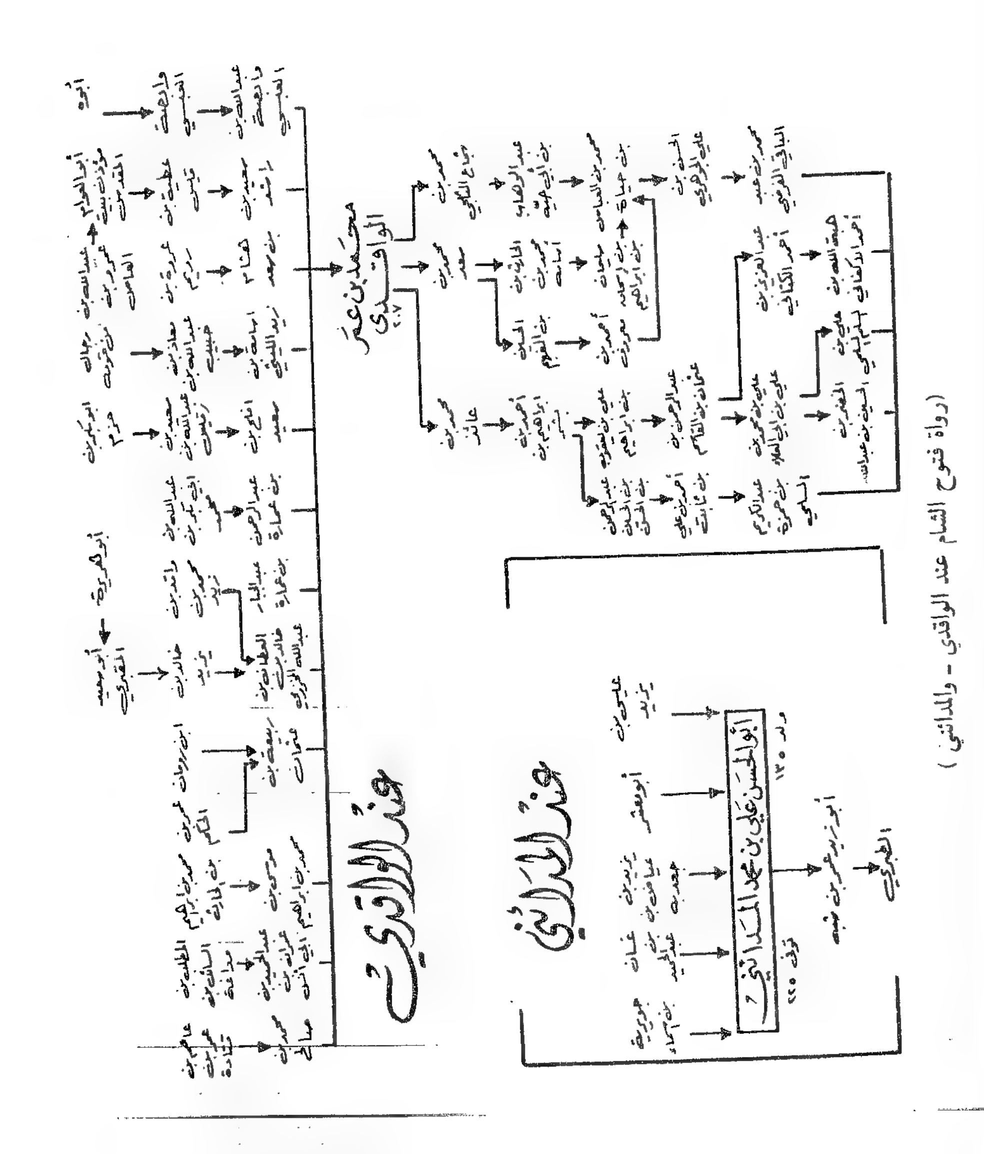
ويضيف المستشرق ناسوليس انه لم يستطع الترجيح بين اختلافات مؤرخي الفتوح وأنه ما لم يقم أحد بهذا العمل فسوف يكون من المحال الوصول إلى أي نتيجة تستحق التصديق . كما ذكر أن ما يعلمه الأوربيون بصفة عامة عن حروب المسلمين في الشام إنما تعتمد على هذا الكتاب . وإن صح هذا فإننا نأسف أشد الأسف إذ أن كتاب فتوح الشام يقوم على أسلوب تعصبي استفزازي للمسيحيين خاصة ، فهو مثلا يكثر من ذكر استنصار الروم بالصلبان ثم تقع هذه الصلبان على الأرض ويحطمها المسلمون كما يكثر من ذكر استعاذة القساوسة الروم بالمسيح وبأمه ويحرص على بيان أن ذلك لم يغنهم شيئا أمام المسلمين المؤمنين بالله ، ويفيض الكتاب في مثل تلك التحديات بين المسلمين والروم بصورة لا نجدها في أي مصدر آخر . ولقد وجدنا في طبعة كلكتا فقرات بأكملها لم نجدها في طبعة دار الجيل

ببيروت أو طبعة الحلبي بمصر .

كنا بصدد دراسة عن الصحابي البطل ضرار بن الأزور فقادتنا هذه الدراسة إلى شيء خطير جدير بالتسجيل فيما يتعلق بتحديد تاريخ وفاة هذا الصحابي الجليل ، وليس هذا التاريخ هو ما يعنينا هنا ولكن الذي لفت نظرنا هو ما يقرره الواقدي في هذا الشأن . ولعل أقرب الرواة إلى الواقدي هو كاتبه محمد بن سعد صاحب كتاب « الطبقات الكبرى » قال في ترجمته[1] عن ضرار « قال عبد الله بن جعفر مكث ضرار بن الأزور باليمامة مجروحا قبل أن يرحل خالد بيوم فمات ... قال محمد بن عمر [يعني الواقدي] وهذا أثبت عندنا من غيره » . وذكر البلاذري[2] عن الواقدي قوله « المجمع عليه عند أصحابنا ان ضراراً قتل باليمامة » . وقال الفقيه الحافظ[3] المحدث أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي وذكر الواقدي قال ، قاتل ضرار بن الأزور يوم اليمامة قتالا شديدا حتى قطعت ساقاه جميعا فجعل يحبو على ركبتيه ويقاتل وتطؤه الخيل حتى غلبه الموت ، وقيل مكث ضرار باليمامة مجروحاً ثم مات قبل أن يرتحل خالد بيوم ، قال وهذا أثبت عندي من غيره » . وقال عز الدين بن[4] الأثير « ... وشهد قتال مسيلمة باليمامة وأبلى فيه بلاء عظيما حتى قطعت ساقاه جميعا ، فجعل يحبو على ركبتيه ويقاتل وتطؤه الخيل حتى غلبه الموت ، قاله الواقدي » . وقال ابن حجر[5] عن ضرار « ... واختلف في وفاته فقال الواقدي استشهد باليمامة ... »

ابن سعد المتوفى ٢٣٠ هـ والبلاذري المتوفي ٢٧٩ هـ وأبو عمر المتوفى ٤٦٣ هـ وابن الاثير المتوفى ٦٣٥ هـ وابن حجر المتوفى ٥٨٢ هـ ... خمسة مصادر

(١) الطبقات الكبرى ٢٥/٦
(٢) فتوح البلدان ٣٠٠ ـ ٦١٢
(٣) الاستيعاب في أسماء الأصحاب ٢٠٤/٢
(٤) أسد الغابة .
(٥) الإصابة .



(رواة فتوح الشام عند الواقدي – والمدائني)

موثوقة تنسب إلى الواقدي تأكيده أن ضرارا استشهد باليمامة وقد كانت معركة اليمامة ضد مسيلمة الكذاب عام ١١ هـ ... في حين امتلأت صفحات هذا الكتاب « فتوح الشام » المنسوب إلى الواقدي ببطولات اسطورية لضرار بن الأزور الأسدي في كل معركة من معارك فتح الشام ، بل وذهب إلى أبعد من هذا فجعل له ذكرا في معركة القادسية وفي فتح الجزيرة وفي فتح مصر ، وقد كانت هذه جميعا بعد حروب الردة بسنوات ولم ينسب أحد من هؤلاء الخمسة ولا من غيرهم إلى الواقدي ما نجده الآن في هذا الكتاب .

أفلا يسوقنا هذا إلى الشك في صحة نسبة النسخ المطبوعة بين أيدينا اليوم من كتاب فتوح الشام إلى الواقدي ، بل إلى القطع بانعدام هذه الصحة ؟ إن الأمر يحتاج إلى بحث شامل ـ ليس هذا مكانه ـ وراء النسخ الخطية لذلك المصدر حيث وجدت للتحري عن تاريخها وعن الفروق فيما بينها وعما اشتملت من تناقضات أو اتفاقات مع مرويات الواقدي المنقولة عنه في المصادر الأخرى ... إنه جهد ندعو باحثينا وجامعاتنا إلى القيام به ، ويقول فتحي عثمان في كتابه « أضواء على التاريخ الإسلامي » حين عرض للواقدي « له كتاب التاريخ الكبير وكتاب الطبقات ، ولم يبق لنا مما يصح من كتبه إلا كتاب المغازي ... » وأغفل ذكر كتاب فتوح الشام .

لقد بحثنا فيما رجعنا إليه من مصادر عن ذكر لكتاب فتوح الشام للواقدي ، فوجدنا أن محمد بن سعد في الطبقات الكبرى وابن حجر في لسان الميزان وابن قتيبة الدينوري في المعارف كل قد ترجم للواقدي ترجمة مختصرة دون الاشارة إلى الكتاب ولا إلى أي من مصنفاته . ولم نعثر في الإصابة على إشارة إلى الكتاب . كما ذكر ابن الأثير في مقدمة أسد الغابة المصادر التي أخذ عنها ولم يذكر كتاب فتوح الشام ولا أي كتاب للواقدي .. لقد ذكر في كتابه أشياء نسبها إلى الواقدي ولكنه لم يبين عن مصدرها . وذكر صاحب الاستيعاب أن تاريخ الواقدي أخبره به خلف بن القاسم عن علي بن العباس عن ... الخ ولم يذكر كتاب فتوح الشام . أما أول ذكر عثرنا عليه للكتاب فهو ما ذكره ياقوت في معجم الأدباء في معرض تعداده لمصنفات

الواقدي . ثم ذكر شمس الدين الذهبي في كتابه « دول الاسلام » من مات عام ٢٠٧ هـ فقال « ... وقاضي بغداد محمد بن عمر الواقدي صاحب المغازي » ولم يذكر فتوح الشام .

ما معنى أن نعثر على الذكر الوحيد لهذا الكتاب لدى الأولين على لسان ياقوت المتوفى ٦٢٦ هـ ثم يختفي هذا الذكر من لسان ابن الأثير المتوفى ٦٣٠ والذهبي المتوفى ٧٤٨ هـ ؟ نذهب إلى ان الكتاب قد ظهر قبيل ياقوت ، ونستبعد أنه كان مجهولا لدى ابن الأثير ولدى الذهبي ولو أن علمهما به لم يثبت ، وأغلب ظننا أنهما لم يذكراه رأيا منهما في عدم صحة نسبته إلى الواقدي .

نخلص مما سبق أن « فتوح الشام » كتاب لقيط مجهول النسب ينتسب ادعاء إلى غير كاتبه ، بصرف النظر عن توثيق الواقدي أو تكذيبه .

وفي كتاب « فتوح الشام » روايات وفيرة عن هذه الفتوح ، أوفر مما رواه كل مصدر من المصادر الأخرى بل لعلها أوفر مما روته مجتمعة . وقد أسقطنا هذا الكتاب كلية كمرجع ، فلم نأخذ عنه شيئا على الإطلاق لسقوطه عندنا أمام البحث والفحص .

وقد لاحظنا أن الأزدي لم يأخذ شيئا على الإطلاق عن الواقدي . أما الطبري فقد اقتصر ما أخذه عنه في مادة فتوح الشام على أربعة أسطر[1] ، قال « ... وأما الواقدي فإنه زعم أن فتح دمشق كان في سنة أربع عشرة كما قال ابن اسحق ، وزعم أن حصار المسلمين لها كان ستة أشهر ، وزعم أن وقعة اليرموك كانت في سنة خمس عشرة ، وزعم أن هرقلا جلا في هذه السنة بعد وقعة اليرموك في شعبان من أنطاكية إلى قسطنطينية وأنه لم يكن بعد اليرموك وقعة » . وأخذ البلاذري عن الواقدي روايات معدودة ومقتضبة عن توزيع فتح الشام على أمراء جيوش المسلمين

(١) الطبري ٤٤١/٣ دون إسناد .

وعن عبور خالد بن الوليد صحراء السماوة من العراق إلى الشام وعن فتح دمشق وحمص وقيسارية والثغور الشامية ، وبعضها عن أحداث وقعت في فترات تلت ما نبحث . أما الحافظ ابن عساكر ـ وهو شافعي المذهب ـ فبالرغم مما قال الشافعي في الواقدي ، إن صح عنه ، وهو مثل ما قال مالك في الخمر ، فإننا نجده يأخذ بعض مرويات الواقدي في كتابه الكبير « تاريخ مدينة دمشق » ، إلا أن ما يأخذ قد اقتصر على البعوث الأولى إلى تخوم الشام في عصر النبوة مثل ذات أطلاح ومؤتة وتبوك وبعث أسامة ، ثم عن بعث أبي بكر الأمراء إلى الشام ، وهي جميعا أخبار تتأيد من مصادر أخرى ـ فالواقدي منفردا ليس مصدرا معتمدا لها بل بانضمامه إلى غيره فيما رووا ـ كما ذكر له بعض توقيتات الفتح ، ولم يأخذ عنه شيئا من القصص الخيالية الكثيرة التي ازدحم بها كتاب « فتوح الشام » ، وهو إذ يأخذ عنه ما يأخذ إنما يورده عن طريق الرواية والاسناد المسلسل وليس نقلاً عن كتبه .

بناء على ما سبق لم نضمّن دراستنا عن الرواة أولئك الذين انفرد الواقدي بالرواية عنهم أو انفردوا بالرواية عنه . ومع ذلك فقد درجنا على أننا حين نسوق رواياته فإننا نذكرها بأسانيدها وغالبا ما يكون ذلك تأييدا لروايات أخرى تدعمها ، وقد تكون مناقضة لغيرها فنسوقها لبيانها وتبيان رأينا فيها ، وعلى كل حال فهي قليلة العدد قليلة المادة .

المدائني

أبو الحسن علي بن محمد المدائني مولى عبد الرحمن بن سمرة القرشي ، ولد ١٣٥ هـ وتوفي[1] ٢٢٥ هـ عن تسعين عاما . كان بصريا ثم سكن المدائن ومنها اكتسب صفته التي اشتهر بها ، ثم انتقل عنها إلى بغداد فلم يزل بها إلى حين وفاته . وقد عد ابن النديم في الفهرست ٢٣٩ كتابا له ضاعت كلها إلا ما نقله عنه الطبري في تاريخه والمسعودي في مروج الذهب وابن عبد ربه في العقد الفريد وأبو

(١) معجم الأدباء ١٢٥/١٤ .

الفرج الأصفهاني في الأغاني ونهج البلاغة والمبرد في الكامل والبلاذري في فتوح البلدان وفي أنساب الأشراف .

قال عنه الخطيب البغدادي إنه « كان عالما بأيام الناس وأخبار العرب وأنسابهم عالما بالفتوح والمغازي ورواية الشعر، صدوقا في ذلك » . لا يطعنه المحدثون وهو ثقة[1] عند يحيى بن معين . وقال ياقوت الحموي في معجم الأدباء « كان ثقة إذا حدث عن الثقات » . وقال عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني[2] « هو الإخباري صاحب التصانيف ، ذكره ابن عدى في الكامل فقال علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف المدائني ، ليس بالقوي في الحديث وهو صاحب الأخبار، قلَّ ماله من الروايات المسندة . قال أحمد بن أبي خيثمة كان أبي ويحيى بن معين ومصعب الزبيري يجلسون على باب مصعب فمر رجل على حمار فاره وبزة حسنة فسلّم وخص بسلامه يحيى،فقال له يا أبا الحسن إلى أين؟ قال إلى دار هذا الكريم الذي يملأ كمي دنانير ودراهم اسحق الموصلي . فلما ولى قال يحيى « ثقة ثقة ثقة » فسألت أبي من هذا ؟ فقال هذا المدائني . وقد مات المدائني عن ٩٣ سنة . لم يذكره ابن حبان في ثقاته وهو على شرطه . وقال أبو قلابة حدثت أبا عاصم النبيل بحديث فقال عمن هذا ؟ قلت ليس له إسناد ولكن حدثنيه أبو الحسن المدائني . فقال لي سبحان الله ، أبو الحسن أستاذ ! وقال أبو جعفر الطبري : كان عالما بأيام الناس صدوقا في ذلك . وقال يحيى بن معين لابن أبي خيثمة : اكتب عن المدائني كتبا .

لم يخرّج له الأزدي ولا البلاذري ولا ابن عساكر شيئا عن فتوح الشام ، وقد خرج له الطبري عن أبي زيد عمر بن شبه عن خمسة من أشياخه ذكرهم ،عن

(١) أضواء على التاريخ الاسلامي ٦٥ .

(٢) لسان الميزان ٢٥٣/٤ ـ ٦٨٩ .

أشياخهم دون ذكر لأسمائهم . الطبري توفي عام ٣١٠هـ، وأبو زيد عمر بن شبه[1] توفي عام ٢٦٢ هـ قبل الطبري بثمان وأربعين سنة ، والمدائني توفي قبل أبي زيد بسبع وثلاثين سنة ، ومن شيوخ المدائني من توفي قبل وفاته بخمس وخمسين سنة ، فيهم عيسى[2] بن يزيد كان إخباريا علامة لكن حديثه واهٍ ، ويزيد بن[3] عياض قال البخاري عنه : منكر الحديث ، وقال مالك ويحيى بن معين : كان يكذب ، وفيهم غسان[4] بن عبد الحميد مجهول ، وفيهم جويرية[5] بن أسماء صاحب علم كثير وتقوى ، وفيهم أبو معشر[6] من أوعية العلم على نقص في حفظه ، كان بصيرا بالمغازي صدوقا ولكنه لا يقيم الإسناد .

الأزدي

صاحب تاريخ فتوح الشام ، فيه من التفاصيل ما ليس في غيره ، وهو من أمهات الكتب المعتبرة في موضوعه لسبقه وسلامة سنده . وقد توفى محمد بن عبد الله

(١) مات عن ٩٠ عاما ، بصري مولى بني نمير . كان راوية للأخبار عالما بالآثار أديبا فقيها صدوقا روى عنه الحافظ ابن ماجه صاحب السنن وغيره . له تصانيف كثيرة ، قدم بغداد وحدث بها وتوفي بسر من رأى . [معجم الأدباء ٦٢/١٦ ـ وفيات الأعيان ـ تاريخ بغداد ٢٠٨/١١]

(٢) كان يضع الحديث بالمدينة وقال عنه البخاري وغيره : منكر الحديث . مات ١٧١ هـ . [لسان الميزان ٤٠٨/٤ ـ ١٢٥٠ . معجم الأدباء]

(٣) وهو حجازي حدث بالبصرة ومات بها زمن المهدي [ميزان الاعتدال ٤٣٦/٤ ـ ٩٧٤٠ . تهذيب التهذيب ٣٥٢/١١ ـ ٦٧٨]

(٤) لسان الميزان ٤١٨/٤ ـ ١٢٨١ . ميزان الاعتدال ٣٣٤/٣ .

(٥) توفي ١٧٣ هـ . وثقه احمد بن حنبل وخرج له مسلم في صحيحه في باب الجهاد والسير . [الطبقات الكبرى ٣٨/٢/٧ ـ خلاصة التذهيب ٦٥ ـ صحيح مسلم ١٦٢/٥]

(٦) مات ببغداد ١٧٠ هـ وكان كثير الحديث ضعيفا اسمه نجيح بن عبد الرحمن يظن أنه من أصل هندي . اشتهر بكتابه « المغازي » الذي حفظ الواقدي وابن سعد فقرات منه . مات قبل المدائني بخمس وخمسين سنة . [تذكرة الحفاظ ٢٣٥/١ ـ ٢٢١ . الطبقات الكبرى ٣٠٩/٥ ، ١/١/٣ . دائرة المعارف الاسلامية ٦١٢/١] .

الأزدي عام ٢٣١ هـ فكتابه من أوائل الكتب التي بين أيدينا عن فتوح الشام . وقد درج على إسناد رواياته ، واعتمد الأزدي في كتابه هذا على نقل أخباره بسندها متصلا إلى من شاهد أوسمع ممن شاهد ، ويقول ناشره إن سلاسله كلها من الرواة الثقات الصالحين المعتبرين في الكتب المعتمدة مثل البخاري ومسلم ، وبمراجعة رواته على مراجع علم الرجال وجدنا ذلك صحيحا إلى حد كبير . وليس بين رواة الأزدي راو يجاوز الطبقة [١] الرابعة .

أما الأزدي نفسه فقد كان شيخا صدوقا . قال صالح بن محمد الأسدي إنه ثقة ، وذكره ابن حبان في كتاب الثقات . ومع تقديرنا وشكرنا الجزيل لمن قام بتحقيق هذا المصدر الهام الفريد وبنشره وتيسيره للقارىء العربي [٢] ، إلا أنه يؤسفنا أن نسجل أن الشروح التي أضافها بالهامش قد اشتملت على أخطاء متعددة ما كان أغناه عنها ، أردنا أن نحذر منها ، وهذا لا يعيب الكتاب ذاتـه . كذلك نود أن نسجل أننا لاحظنا أن روايات الأزدي كانت أزدية بمعنى أنه عنى كثيرا بإبراز دور قومه من الأزد في فتوح الشام . ومرة أخرى نقول إن هذا لا يعيب الرجل ولا مؤلِّفه ، فلقد كان للأزد دور كبير وعدد غفير في فتوح الشام ، ومثل هذا قيل عن سيف بن عمر إنه كان تميمياً في روايته . ومن الأمور الطبيعية أن يعنى كل راو أو مؤرخ بتاريخ قومه ، بل ويعلمها اكثر مما يعلم سواها واكثر مما يعلمها سواه . وتتميز سلاسل رواة الأزدي بأنها كثيرة وقصيرة قليلة الحلقات وهي ميزة تضاف إلى سلامة اكثر رواته ، وجميعها أخذناها عن كتابه تاريخ فتوح الشام .

---

(١) الأزدي ـ مقدمة الناشر صفحة ك .

(١) ظل هذا الكتاب ـ كما ذكر ناشره ـ دفين خزانات الكتب زمانا طويلا ، وان ما سبق نشره منه في الهند عام ١٨٥٤ لم يكن يمثل سوى جزءا يسيرا من المخطوط اعتمد فيه المستشرق وليم ناسوليس على نسخة سقيمة مليئة بالأخطاء والبتر الكثير . أما النسخة التي اعتمدنا عليها فهي نشر مؤسسة سجل العرب بالقاهرة ١٩٧٠ عن مخطوطة عثر عليها في دمشق ، فهو بكل ما انفرد به من تفاصيل وما هو جدير به من الثقة نعتبره مصدرا حديث الاكتشاف .

رواة فتوح الشام عند الأزدي

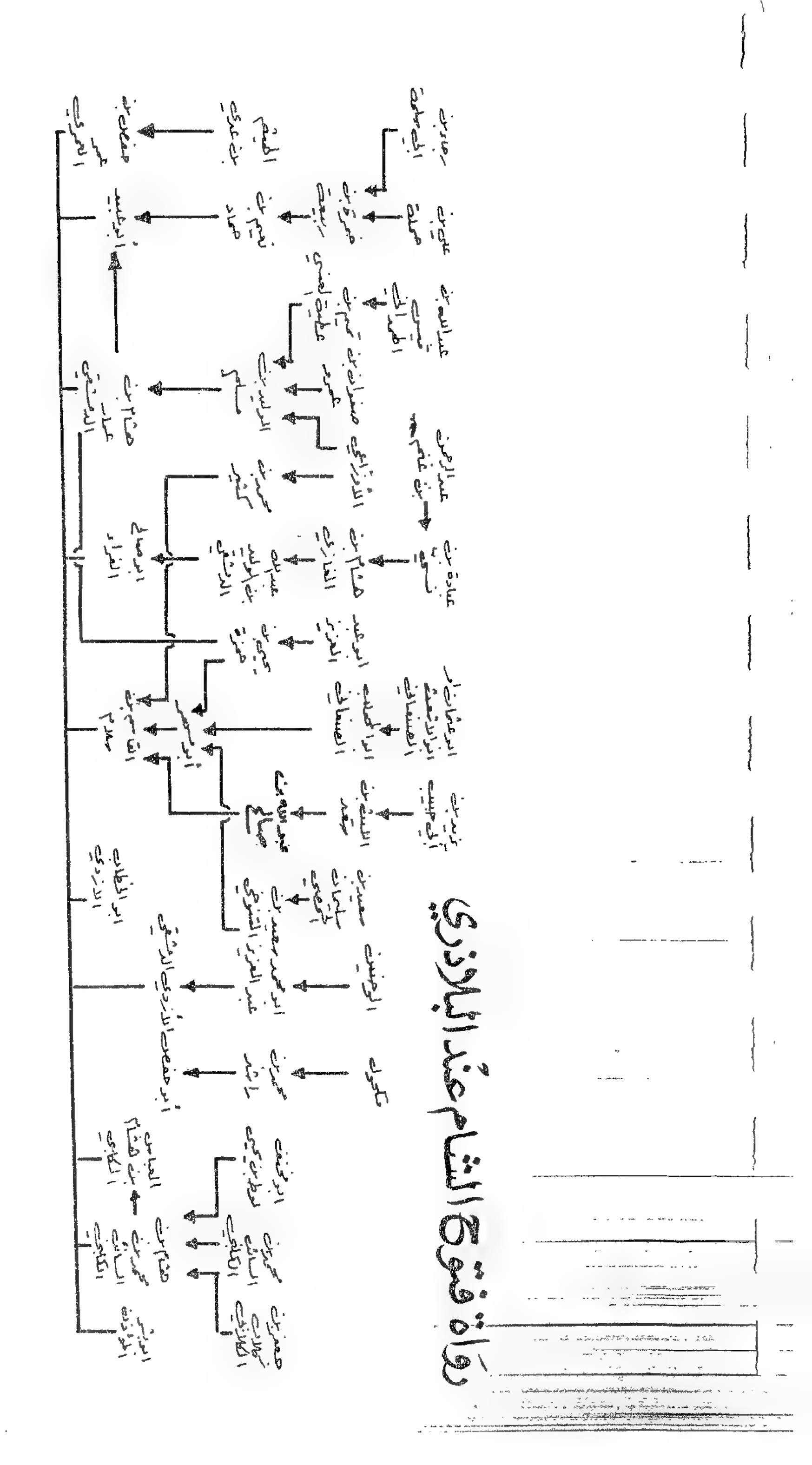
البلاذري

هو احمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري[٢] أحد النقلة من الفارسية إلى العربية وذهب بعضهم إلى أنه من أصل فارسي. نشأ مع القرن الثالث من الهجرة وكان من أهل بغداد نديما للخلفاء العباسيين الذين عاصرهم مؤدبا لأبنائهم ، ولكن بعضهم جفاه في أواخر أيامه ومات البلاذري على الأرجح في ٢٧٩ هـ وقد جاوز الثمانين من عمره .

نشأ احمد بن يحيى في بغداد ودرس الفارسية وحضر حلقات الحديث والأدب والسير وأخذ عن علي بن محمد المدائني ومحمد بن سعد كاتب الواقدي ثم رحل إلى الشام فأخذ عن علمائها . ذكره ابن عساكر في تاريخ[٢] دمشق فقال سمع بدمشق هشام بن عمار وأبا حفص عمر بن سعيد ، وبحمص محمد بن مصفى ، وبأنطاكية محمد بن عبد الرحمن بن سهم وأحمد بن مُرد الأنطاكي ، وبالعراق عفان بن مسلم وعبد الأعلى بن حماد وعلي بن المديني وعبد الله بن صالح العجلي ومصعبا الزبيري وأبا عبيد القاسم بن سلام وعثمان بن أبي شيبة ومن ذكرنا . وقد كتب فتوح البلدان بمنهج موضوعي كأن يذكر فتوح الشام ، فتوح الجزيرة ، فتوح مصر والمغرب .. الخ ولم يلتزم منهج الحوليات . وكثيرا ما كان يرجح بين الروايات التي يرويها فيقول بعد سرد أخباره « والثبت كذا » . وهو مع هذا موجز في أسلوبه ولكننا قد نجد فيه ما ليس في غيره . وقيل عن رواياته إنها ازدية أيضا .

قال عنه الحافظ[٣] ابن حجر « صاحب التصانيف ، سمع من ابن سعد والدولابي وعفان وشيبان بن فروخ وابن المديني . قال ابن عساكر : بلغني انه كان

(١) فتوح البلدان ـ تقديم بقلم صلاح المنجد .
(٢) معجم الادباء ٥/ ٩٠ .
(٣) لسان الميزان ١/ ٣٢٢ ـ ٩٨٢ .
معجم الأدباء .



أديبا راوية وأنه مدح المأمون وجالس المتوكل وتوفي أيام المعتمد وشوش في آخر أيامه فشد في المارستان ومات فيه ، وكان سبب ذلك أنه شرب البلاذر[1] على غير معرفة فلحقه ما لحقه ولهذا قيل له البلاذري . وكان شاعرا وله أهاج كثيرة وكان ينقل من الفارسي إلى العربي . وقال ياقوت في معجم الأدباء أن الصواف ذكره في ندماء المتوكل وكان جده جابر يخدم الخصيب أمير مصر وكان أحمد بن يحيى عالماً فاضلا نسابة متقنا . وكان مع ذلك كثير الهجاء بذيء اللسان » .

وبالرغم من هذه الشهادة نقرر أننا بالبحث في حلقات سلاسل رواته وجدنا كثيرا من الضعفاء بل وبعض الكذابين فضلا عن أنها لا تتصل بالذين شاهدوا الأحداث والوقائع بل تنقطع قبل ذلك . وجميع الروايات التي أخذنا عن البلاذري أخذناها عن كتابه « فتوح البلدان » ولم نقف له على روايات سواها .

ابن عساكر

كان متأخرا زمنيا عن أصحاب المصادر السابقة ، ولد بدمشق[2] عام ٤٩٩ هـ وتوفي ٥٧١ . تفقه ودرس الحديث واشتهر بالتقوى والتصدي لنفع الناس في دينهم ، ورحل في طلب العلم حتى بلغ شيوخه ألفا وثلاثمائة واكثر من ثمانين امرأة وغدا محدث الشام ومن أعيان فقهاء الشافعية وإمام أهل الحديث في زمانه . وقد اتصل الحافظ ابن عساكر بالملكين العادلين نور الدين محمود بن زنكي وصلاح الدين الأيوبي اتصال الاستاذ بتلاميذه ، فلما توفي ابن عساكر شيع صلاح الدين جنازته وحضر الصلاة عليه .

وقد بلغت تآليف ابن عساكر أربعين مصنفا أجلها « تاريخ مدينة دمشق »

---

(١) في معجم الأدباء ، ثمر البلاذُر وفي هامشه ملخصا من محيط المحيط أنه نبات ثمره شبيه بنوى التمر ولبه مثل لب الجوز وقشره متخلخل قيل يقوي الحفظ ولكن الإكثار منه يؤدي إلى الجنون .

(٢) تاريخ دمشق ـ تقديم بقلم محمد كرد علي .

معجم الادباء .

وكانت من أبرز صفاته امانة المؤرخ وصدق المحدث ، كان كثير غزير الفضل حافظا متقنا ديّنا خيّرا حسن السمت جمع بين معرفة المتون والأسانيد متثبتا محتاطا ، كما كان شاعرا . وقد يؤخذ على ابن عساكر أنه جمع في أخبار الفضائل سردها في مفتتح تاريخه كثيرا من الضعيف ومن الأساطير مع أنه كان من أعلم الناس بالأحاديث الضعيفة والموضوعة .

هذا ما ذكره محمد كرد علي في تقديمه لطبعة المجمع العلمي بدمشق لبعض أجزاء كتاب تاريخ مدينة دمشق للحافظ ابن عساكر . وبدراسة رواة ابن عساكر وجدنا ذلك صحيحا بصفة عامة مع وجود بعض الضعفاء والمجهولين بينهم ، ولعل هؤلاء المجهولين لنا اليوم كانوا معروفين لابن عساكر .

وقد أخذ ابن عساكر عن روايات ابن اسحق وسيف والوليد بن مسلم وغيرهم . وابن عساكر هو أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الملقب ثقة الدين والمعروف بابن عساكر . وجميع رواياته التي أخذناها عنه أخذناها من كتابه « تاريخ مدينة دمشق » .

وقد نسبنا كل رواية أوردناها إلى رواتها وأرجعناها إلى مصدرها وأثبتنا ذلك كله قرين كل واقعة في الهامش وقد التزمنا في ذلك الإسناد[1] بنصه . وإذا روى

---

(١) فإذا قال حدثنا أو أخبرنا أو أنبأنا أو كتب إلينا أوثنا أونا أوأنا أو عن فلان ، فقد التزمنا في ذلك كله النص الوارد لما قد يحمله من اختلاف في مدلولاتها طبقا لما اصطلح عليه علماء الرواية والاسناد . قال الترمذي في نوادر الأصول من أراد أن يؤدي حديثا قد سمعه جازله أن يقول : أخبرني وحدثني ، وكذلك إذا كُتب إليه من بلدة أخرى أو إذا ناوله كتابه فقال هذا حديثي لك وهذا خبري إياك فحدث عني . وروى البخاري في صحيحه عن الحميدي قال كان عند ابن عيينة حدثنا وأخبرنا وأنبأنا وسمعت واحدا . وهو المختار عند البخاري وهو رأي الزهري ومالك ويحيى القطان وأكثر الحجازيين والكوفيين والمغاربة ، وعن الحاكم أنه مذهب الأئمة الأربعة . ومنهم من يخصون التحديث بما يلفظ به الشيخ والإخبار بما يقرأ عليه وهو مذهب ابن جريج والاوزاعي والشافعي وابن وهب وجمهور أهل المشرق ثم أضلف أتبلعهم تفصيلا آخر فمن سمع وحده قال حدثني ومن سمع مع غيره قال حدثنا و هكذا .

الرواة رواية واتفقوا في لفظها أومعناها ووجد عند كل منهم ما انفرد به عن الباقين ، فإننا نخرجه عنهم عادة بسياق واحد ونشير إلى ذلك فنقول « دخل حديث بعضهم في بعض » إشارة إلى أن اللفظ لمجموعهم وأن عند بعضهم ما انفرد به عن غيره . وفي كتابنا بعض من هذا ، وهو منهج لم نكن التزمناه فيما صدر من طبعات كتبنا السابقة « الطريق إلى المدائن » و « القادسية » و « سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية » .

وآخرون

ولقد اعتمدنا إلى حد ما عند دراستنا لفتوح العراق وفارس على الشعر العربي كمصدر يمدنا بأشياء ، وحاولنا ذلك هنا أيضا غير أن الشعر في فتوح الشام جاء قليلا ليس في غزارة ما وصلنا عن فتوح العراق والشرق ، ويعزى ذلك إلى أن جيوش فتح الشام غلب عليها عنصر بني قحطان من عرب اليمن وكان الشعر أكثر وأسخى عند عرب الحجاز ونجد من بني عدنان .

وإذ كان لا بد لاستيفاء النواحي التاريخية من توقيعها على المواقع الجغرافية وضبطها من هذه الزاوية فقد استزدنا ذلك من المصادر الجغرافية التاريخية والبلدانية مثل المسالك والممالك لابن خرداذبه الذي عاش في النصف الأول من القرن الثالث الهجري وتوفي ٣٠٠ هـ ، والخراج وصنعة الكتابة لقدامة بن جعفر المتوفى عام ٣٢٠ هـ ، ومروج الذهب للمسعودي المتوفى ٣٤٦ هـ ، والمسالك والممالك للاصطخري الذي عاش في القرن الرابع ، وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للبشاري المقدسي المتوفى ٣٨٧ هـ وتذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار المعروف بالرحلة لابن جبير المتوفى ٦١٤ هـ ، ومعجم البلدان لياقوت الحموي المتوفى

= وشرح النووي بعض الاختصارات التي جرت بها العادة في الكتابة فقال إنهم يكتبون (ثنا) رمزا إلى حدثنا وربما حذفوا الثاء ، ويكتبون عن أخبرنا أنا) ، وأنه جرت عادة أهل الحديث بحذف (قال) فيما بين رجال الإسناد في الكتابة وعلى القارىء أن يلفظ بها ـ قواعد التحديث ١٩١ ـ ١٩٤ .

(رواة فتوح الشام) عند ابن عساكر

٦٢٦ هـ ، وتحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لابن بطوطة المتوفى ٧٧٩ هـ . أخذنا عنهم صفة الأرض التي ندرس ما جرى عليها وطرقها ومسالكها ومسافاتها في زمن أقرب إلى ما ندرسه ويقربنا إلى ما كانت عليه حينذاك ويفسر لنا مبهمات أحداثها . وفيما يلي عجالة مختصرة عن بعضهم .

أما روايات عز الدين علي بن الأثير في كتابه « الكامل في التاريخ » فمن الواضح أنه ـ فيما يتعلق بفتوح الشام ـ قد نقلها عن تاريخ الطبري بعد سلخها عن أسانيدها فجميع رواياته في هذا الشأن غير مسندة ، وما انفرد به زيادة عما رواه الطبري هو أسطر قليلة بحيث لا يتأتى أن نعتبره مصدرا قائما بذاته .

الاصطخري[1]

ابو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي نسب إلى بلده اصطخر من فارس ، لا يوجد ذكر لسيرته في أي كتاب . غير معروف سنة مولده ومن المؤكد أنه كان في النصف الثاني من القرن الثالث،وغير معروف سنةوفاته وإن كان معلوما انها كانت في القرن الرابع الهجري في حوالي منتصفه.وقد التقى بابن حوقل في بغداد ٣٢٥هـ. وكان في تأليفه يبحث عن الحقيقة وفق ما يهديه إليه عقله ويرفض الخرافة والظاهر أنه ظل يكتب « المسالك والممالك » من أوائل القرن الرابع حتى منتصفه وهو كتاب قيم أخذ عنه ياقوت معجم البلدان . ونناقض ما ذكرته دائرة المعارف الاسلامية من أنه كان عربيا .

قدامة[2] **بن جعفر**

أبو الفرج ، كان نصرانيا وأسلم على يد المكتفي بالله وكان أحد البلغاء

(١) تقديم الدكتور محمد جابر الحيني على كتاب المسالك والممالك للاصطخري .
دائرة المعارف الاسلامية ٤٦٩/٣
(٢) معجم الأدباء ١٢/١٧

الفصحاء والفلاسفة الفضلاء . توفى ٣٢٠ هـ . ولاه الوزير أبو الحسن بن الفرات مجلس الزمام في ديوان المشرق فأثار من جهة العمال أموالا جليلة .

ياقوت الرومي[1] **الحموي**

ياقوت بن عبد الله ، لا يعلم شيء عن مولده ولكنه أخذ أسيرا من بلاد الروم وهو حدث وحُمل إلى بغداد مع غيره من الأسرى وبيع فيها فاشتراه تاجر اسمه عسكر الحموي فنسب إليه . كان ياقوت ذكيا حسن الفهم وكان الذي اشتراه جاهلا بالخط فأرسله إلى الكتّاب ليتعلم فينتفع به في ضبط أعمال تجارته ودرس شيئا من النحو واللغة . واستخدمه مولاه في الأسفار لتجارته ثم أعتقه وأقصاه ، فكان ياقوت يكسب رزقه من نسخ الكتب فازداد علمه . وأعاده عسكر إلى خدمته وعهد إليه بالسفر في تجارة فلما عاد وجده قد مات . وسافر ياقوت إلى حلب وتنقل من بلد إلى بلد حتى مكث في خوارزم إلى أن أغار عليها جنكيز خان سلطان المغول ٦١٦ هـ ١٢١٩ م ففر ياقوت إلى الموصل لا يحمل شيئا من ماله ثم سار إلى حلب وأقام في ظاهرها إلى أن مات عام ٦٢٦ هـ ١٢٢٨ م ولم يبلغ الستين . وقد سمع الحديث وصنف معجم البلدان بعد ثلاث رحلات ولم تنقطع أسفاره إلا قبل وفاته بسنتين فقط . كما صنف معجم الأدباء وأسماء الجبال والأنهار والأماكن وكان غزير الفضل حسن الصحبة طيب الأخلاق حريصا على طلب العلم .

ابن بطوطة[2]

ولد في طنجة عام ٧٠٣ هـ وعاش بها حتى بلغ الثانية والعشرين بين أهله في بسطة من العيش ثم خرج إلى الحج ولكنه قام بثلاث رحلات استغرقت الأولى ٢٤ عاما مر بها على بلدان الشرق الاوسط حتى بلغ الهند والصين ، وكانت رحلته الثانية

(١) تقديم معجم البلدان لياقوت ٦/١ .
لسان الميزان ٢٣٩/٦ و٨٤٣ .
(٢) تقديم تحفة النظار .

إلى الأندلس والثالثة إلى السودان وأواسط أفريقيا فكان أول سائح يكتب عن مجاهل أفريقيا . وقد أمر سلطان فاس كاتبه محمد بن الجزي أن يكتب ما يمليه عليه ابن بطوطة عن رحلته ففرغ منها عام ١٣٥٦ م وأسماها « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » . كان رقيق العاطفة معظما الأتقياء شديد الورع صادقا أمينا في روايته عني بذكر مشاهداته من الحيوان والنبات وأخلاق الأمم وعاداتها مع ملاحظات دقيقة وأخرى ساذجة .

٣١٠ رواة

نعرض فيما يلي بيانا بهؤلاء الرجال ـ الرواة ـ تجعل القارىء على بينة مختصرة جدا عن كل منهم تعديلا أو تجريحا أو تجهيلا ، حتى لا ينفرد المؤلف بنتيجة هذا الجهد في هذه التجربة .

وسوف نميز رواة الأزدي بالرمز [أ] ورواة المدائني بالرمز [م] ورواة سيف بن عمر لدى الطبري ولدى ابن عساكر بالرمز [سف] ورواة البلاذري بالرمز [ب] ورواة الوليد بن مسلم بالرمز [و] ورواة ابن اسحق حيثما كانت رواياته بالرمز [سح] ورواة ابن عساكر ـ بعد استخلاص رواة سيف والوليد وابن اسحق ـ بالرمز [ع] ، سواء رووا عمن ذكرنا أو روى من ذكرنا عنهم .

ابراهيم بن عبد الصمد بن موسى ـ أبو اسحق [ع] لا بأس به ، روى عنه الدارقطني وطائفة ، سكن بغداد وسر من رأى ومات بها ٣٢٥ هـ . **ابراهيم بن المنذر بن عبد الله ـ أبو اسحق الأسدي الحزامي** [ع] حافظ من شيوخ الأئمة ، وثّقه ابن معين وهو من أقرانه وروى عنه البخاري وابن ماجه والثقات ، من أهل المدينة ومات بها ٢٣٦ هـ . **ابراهيم بن منصور السلمي ـ أبو القاسم** [ع]« نجهله »**الأجلح بن عبد الله الكندي ـ أبو حجية** [أ] ذكره ابن سعد في الطبقة الرابعة من الكوفيين وقال كان ضعيفا جدا ، وذكره ابن عدي في الشيعة وقال مستقيم الحديث صدوق توفى ١٤٥ هـ . **أحمد بن ابراهيم بن بشر القرشي** [و] «نجهله» **أحمد بن اسحق بن خربان أو حرمان ـ أبو عبد الله البصري القاضي** [سح] أصله من نهاوند ثقة ، قدم

بغداد ٣٩٤ وحدّث بها ومات بالبصرة حدود سنة ٤١٠ هـ . **احمد بن الحسن بن البنا ـ أبو غالب** [ع] مسند بغداد من الطبقة الخامسة عشر ، مات ٥٢٧ هـ . **أحمد بن الحسن بن زنبيل النهاوندي القاضي** [ع] اتهم بوضع قصة . **احمد بن الحسين بن طلاب التليهي المشغراني ـ أبو الجهم** [ع] ذكره الذهبي في الطبقة ١١ ، مُسْنِد الشام ، مات ٣١٩ هـ . **احمد بن الحسين بن علي بن عبد الله ـ أبو بكر البيهقي** [ع] الحافظ الكبير المشهور ، ولد ٣٨٤ ومات ٤٥٨ بنيسابور . **أحمد بن حنبل** [ع] ، الإمام المشهور . **أحمد بن سليمان بن داود بن محمد الطوسي ـ أبو عبد الله** [ع] ولد ٢٤٠هـ وكان فاضلا صدوقا، توفي ٣٢٢ . **أحمد بن عبد الجبار بن محمد بن عمر العطاردي** [سح] ضعفه كثيرون ورد عنه الطعن بعضهم ، مات بالكوفة ٢٧١ أو ٢٧٢ هـ . **أحمد بن عبد الله بن الفرج ـ ابو بكر القرشي** [ع]« نجهله». **احمد بن علي بن ثابت ـ الخطيب البغدادي** [و ، سح] الفقيه الحافظ أحد الأئمة المشهورين . ولد ٣٩٢ هـ ومات في أعقاب ٤٦٢ هـ . **احمد بن علي بن الفضل بن طاهر بن الفرات** ـ أبو الفضل الدمشقي [و] ، رافضي مقيت ليس بثقة وقيل رافضي ثقة في روايته ، ولد ٤١١ هـ وتوفى ٤٩٤ . **احمد بن علي بن محمد بن يحيى بن الرويج** ـ ابو المعالي بن الحاجب [ع]«نجهله». **احمد بن عمران بن موسى الجرجاني** [سح] روى مناكير عن شيوخ مجاهيل لم يتابع عليها فكذبوه ، وقالوا إنه كان يضع الحديث ويركب الأسانيد على المتون . **أحمد بن محمد الصفار الأزدي** ، أبو حفص الدمشقي [أ ، ب]«نجهله». **أحمد بن محمد بن النقور** ، أبو الحسين البزاز [سح ، ع] محدث بغداد ، صدوق ولد ٣٨١ ومات ٤٧٠ هـ . احمد بن محمود بن احمد بن محمود الثقفي ـ أبو طاهر «نجهله» . **أدهم بن محرز بن أسيد الباهلي الحمصي** [أ] شهد صفين مع معاوية وكان من قواد الحجاج بن يوسف وهو أحد أمراء الجيش الذين وجهوا مع عبيد الله بن زياد لقتال التوابين الذين قتلوا عند عين الوردة . **أرطاة بن جهيش** [سف] «نجهله» **اسحق بن ابراهيم** [سف]«نجهله»**اسحق بن بكر بن محمد بن عبد الله بن سالم القرشي البخاري** [سح] ـ أبو حذيفة ، كذاب متروك الحديث مات

ببخاري ٢٠٦ . اسحق بن عيسى ابو هاشم [ع] أقام بمكة وروى عنه أهل البصرة ، صدوق في الثقات وربما أخطأ ، مات ٢١٥ هـ . اسحق بن أبي مروة [و] «نجهله» .اسلم ـ أبو زيد [ع] مولى عمر ثقة مات ٨٠ هـ وقد زاد على المائة . اسماعيل بن ابراهيم بن عقبة ـ ابو اسحق [ع] . كان يحدث بالمغازي عن عمه موسى بن عقبة ، وثقه النسائي وقال الازدي متروك الحديث ، مات بالمدينة بعد ١٦٠ هـ . اسماعيل بن احمد ـ ابو القاسم السمرقندي [سح ، ع] محدث بغداد كان مكثراً ثقة ، ولد ٤٥٤ وتوفى ببغداد ٥٣٦ . اسماعيل بن أبي أويس المدني [ع] ، محدث مكثر لا بأس به ، صدوق ضعيف العقل وضعفه النسائي ، توفى ٢٢٦ أو٢٢٧ هـ . اسماعيل بن عيسى العطار البغدادي ـ ابو اسحق [سح ، ع] ضعفه الازدي ووثقه الخطيب وابن حبان . مات ٢٣٢ . الأسود بن شيبان ـ أبو شيبان [ع] . ثقة مات ١٦٠ هـ . أسيد الغساني [سف]«نجهلـه» أنس بن مالك [أ] الامام ، غني عن التعريف . برد بن سنان ـ أبو العلاء [و] دمشقي نزل البصرة وثقه ابن معين والنسائي وغيرهما وضعفه ابن المديني ، توفى ١٣٥ هـ . أبو بشر مؤذن مسجد دمشق [ب] ثقة مات ١٣٠ هـ . أبو بشير التنوخي [أ] «نجهله» بكر بن سليمان البصري [سح] لا بأس به . أبو بكر بن الطبري [ع]«نجهله»أبو بكر بن المقرىء = محمد بن ابراهيم بن علي [سح] محدث أصبهان ، إمام رحال حافظ ثقة مأمون عاش ٩٦ عاما ومات ٣٨١ هـ . تمام بن محمد بن عبد الله بن جعفر [ع] ، ابو القاسم الرازي الدمشقي ، الامام الحافظ محدث الشام ، ثقة ، ولد ٣٣٠ وتوفى ٤١٤ هـ . تميم بن عطية العنسي الشامي [ب] ، في الثقات ومحله الصدق . ثابت بن أسلم البناني البصري [أ] ثقة مأمون كبير القدر توفى ١٢٧ . ثابت بن سهل بن سعد الأنصاري [أ] ، من أعلام الفتح . جبير بن صخر [سف] (أو جبار بن صخر) صحابي مات ٣٠ هـ . جعفر بن كلاب الكلابي [ب]«نجهله» .

ابو جعفر [أ]«نجهلـه» أبو جهم الازدي [أ]«نجهلـه» جويرية بن أسماء بن عبيد الضبعي البصري [م] ، صاحب علم كثير وثقه احمد وخرج له مسلم في

صحيحه وتوفي ١٧٣هـ . ابو قتادة الأنصاري الحارث بن عبد الله الأزدي [أ] من أعلام الفتح . الحارث بن كعب الازدي [أ] الكوفي شهد المواقع وكان شيعيا ، عاش ٦٠ عاما . حامد بن يحيى [سح ، ع] صدوق مات ٢٤٢ هـ . حبان بن زيد الشرعبي [أ] أبو خداش ثقة من الطبقة الثالثة . حبيب بن مسلمة [أ] صحابي من أعلام الفتح . حسان بن عبد الله [ع] ثقة مات ٢٢٢ هـ . الحسن بن أبي الحديد [و] من شيوخ ابن عساكر وثقه الذهبي . الحسن بن علي القطان ـ [سح] ابو محمد ، صدوق مات ٢٧٠ هـ . ابو الحسين بن بشران [ع]«نجهلـه» الحسين بن زياد [أ] الرملي أحد الحفاظ كان يلازم البخاري ويهوى هواه. الحسين بن عبد الملك الاديب ـ ابو عبد الله الخلال ، [ع] مسند أصبهان وثقه الذهبي ، مات ٥٣٢ وله ٩٠ سنة . الحسين بن علي بن أشليها المصري [سح] ثقة ولينه بعضهم ، ولد ٤٥٠ وتوفى ٥٣٢ هـ . حفص بن عمر العمري [ب] بن عبد العزيز بن صهبان ، ثقة ثبت كبير ضابط توفى ٢٤٦ هـ . الحكم بن جراس بن الحكم بن المغفل [أ]«نجهله»

الحكم بن نافع ـ ابو اليمان الحمصي [ع] ، أحد الثقات الأئمة حدث عنه البخاري وغيره . حمزة بن مالك الهمداني [أ] من اعلام الفتح . حنبل بن اسحق [ع] بن حنبل بن هلال بن أسد،حافظ ثقة ثبت صدوق صنف تاريخا حسنا توفى ٢٧٣ هـ . حنظلة بن جويرية البجلي [أ] من أعلام الفتح.خالد بن شمير [ع] وثقه النسائي . خالد بن معدان الكلاعي [سف] ، ابو عبد الله الحمصي ، ثقة روى عن جماعة من الصحابة وكان من فقهاء التابعين ، توفى ١٠٣ هـ . الخضر بن الحسين بن عبدان [و] مسند دمشق وثقه الذهبي ، مات ٥٤٣ هـ . ابو الخطاب الدمشقي الازدي [ب] حماد ، غير معروف . خليفة بن خياط [سح] ، كان حافظا عارفا بالتواريخ وأيام الناس غزير الفضل ، روى عنه البخاري في صحيحه وتاريخه ، توفى ٢٣٠ أو ٢٤٠ أو٢٤٦ ، هـ . الخليل بن هبة الله بن الخليل [ع] ابو بكر ،«نجهله». راشد بن داود الصنعاني [و] اختلفوا فيه . راشد بن عبد الرحمن الأزدي [أ] من

اعلام الفتوح وشهد اليرموك . **رجاء بن حياة بن جرول الكندي** [سف] من خاصة عمر بن عبد العزيز ، أحد الأعلام كان ثقة فاضلا كثير العلم . **رجاء بن أبي سلمة** [ب] ثقة مات ١٦١ هـ . **رضوان بن احمد بن جالنوس** [سح] ثقة مات ٣٢٤ هـ . **روح بن قاسم التميمي العنبري** [ع] ، حافظ ثقة . **زاهر بن احمد الفقيه** [ع] عالم سرخس وثقه الذهبي، مات ٣٨٩هـ . **زاهر بن طاهر، ابو القاسم الشحامى** [ع] صدوق صحيح السماع مات ٥٣٣ هـ . **الزبير بن بكار** ، [ع ، م] ابو عبد الله القرشي الأسدي ، كان علامة نسابة إخبارياً ثقة من أوعية العلم ، مات ٢٥٦ هـ . **أبو الزهراء القشيري** [سف] من اعلام الفتح . **زهير بن حرب ابو خيثمة البغدادي** [ب] كان ثقة ثبتا متقناً مأموناً روى عنه البخاري ومسلم اكثر من ألف حديث وغيرهما . ولد ١٦٠ ومات ٢٣٤ هـ . **زيد بن أسلم ، أبو أسامة العدوى** [ع] ادرك جماعة من الصحابة ، من كبار علماء المدينة وعبادها كان ثقة وهو أحد الأعلام وكان في حلقته اربعون فقيها ، مات ١٣٦ هـ . **زيد بن مالك الشامي** [ع] « نجهله » ، **سالم بن ربيعة** [أ] أدرك عصر النبوة وشهد موقعة فحل . **سالم بن عبد الله بن عمر** [سف] فتيه متخشع له احاديث في صحيحي البخاري ومسلم توفي ١٠٦ هـ . **سراقة بن عبد الأعلى بن سراقة الازدي** [أ] ـ **السرى بن يحيى الشيباني** [سف] ثقة ثقة ، توفى ١٦٧ هـ . **سعد بن ابراهيم ، ابو اسحق** [سح] ثقة صدوق خرج له مسلم في صحيحه توفي ٢٠١ هـ عن ٦٣ عاماً . **أبو سعيد الخدري** [أ] صحابي . **سعيد بن زيد بن عمر وبن نفيل** [أ] صحابي من اعلام الفتح . **سعيد بن سليمان الحمصي** [ب] « نجهله » .

سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية [أ] صحابي صغير كان شريفا سخيا فصيحا ولي الكوفة لعلي وافتتح طبرستان مات ٥٧ أو ٥٨ أو ٥٩ . **سعيد بن عبد العزيز التنوخي الدمشقي** [ع،ب] ثقةثبت حجةمفتي دمشق وأحد الأئمة العباد القانتين . توفى ١٦٧ وهو ابن بضع وسبعين . **سعيد** [أو سعد] **أبو مجاهد** [أ] الطائي الكوفي مولى عائشة وثقة ابن حبان . **سعيد بن محمد ، أبو عثمان**

البحيري [ع] ، خرج له مسلم ، وتوفى ٤٥٩ هـ . **سفيان بن سليم الأزدي** [أ] «نجهله». **سفيان بن عوف بن معقل** [أ] من اعلام الفتح . **سلمه** [ع]«نجهله» . **سلمة بن الفضل** [سح] الأبرش ، ضعفه بعضهم وقال البخاري في حديثه بعض المناكير وقال ابن عدي لم أجد لسلمة ما جاوز الحد في الانكار ، كان قاضي الري وهو راوي المغازي عن ابن اسحق وكان يتشيع وكان حافظا يحفظ من مرة وكان صاحب صلاة وخشوع ، كتب عنه ابن معين ، وقال ليس به بأس . مات ١٩١ . .
سليمان بن أبي سليمان الشيباني ابو اسحق [سف] ، حافظ صدوق متفق على ثقته مات بين ١٣٨ و ١٤٢ . **سليمان بن يسار** [سح] فقيه كان يفتي بالمدينة ، كان عالما ثقة عابدا ورعا حجة كثير الحديث مات ١٠٧ أو ١٠٣ هـ . **سهل بن بشر الاسفراييني ابو الفرج** [ع] محدث دمشق وثقة الذهبي وتوفى ٤٩١ هـ عن ٨٢ سنة . **سهل بن سعد الساعدي** [أ] صحابي كثرت روايته وعلمه ، مات ٩١ هـ عن مائة سنة وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة . **سهل بن يوسف السلمي** [سف] «نجهله» ، سويد بن عبد العزيز [ع] الدمشقي ليس بثقة . **شراحيل بن ادّه ، ابو الأشعث الصنعاني** [ع] ثقة شهد فتح دمشق . **شراحيل بن مرثد ، ابو عثمان الصنعاني أو أبو الاشعث** [ع ، و ، ب] مخضرم شهد اليمامة وفتح دمشق . **شعيب بن ابراهيم الكوفي** [سف] وثقه ابن حبان . **صالح** [ع]«نجهله» . **صالح بن كيسان** [سح] الغفاري أو الدوسي ، أحد الثقات من علماء المدينة خرج له البخاري ، مات بعد ١٤٠ هـ وهو ابن ١٦٢ سنة . **صخر بن أمية بن خنساء** [سف] صحابي شهد بدرا . **صدقة بن سابق** [سح]«نجهله». الصدي بن عجلان ، أبو أمامه الباهلي [أ ، سف] صحابي من أعلام الفتوح . **الصعب بن زهير بن عبد الله الازدي الكوفي** [أ] وثقوه وضعفه بعضهم . **صفوان بن عمرو السكسكي** [ع ، و ، ب] ثقة ثبت مأمون ، محدث حمص خرج له مسلم أحاديث في صحيحه عن الوليد بن مسلم مات ١٥٥ هـ . **ابو صفية التيمي الشيباني** [سف]«نجهله». ضمرة بن ربيعة

[ب] مشهور ثقة مات ٢٠٢ . **طلحة بن الأعلم الحنفي** [سف]«نجهله» . **أبو طيبة** [أ] الحمصي لا يعرف اسمه ، ثقة شهد خطبة عمر بالجابية . **عاصم بن علي بن عاصم بن صهيب** [ع] ، أبو الحسين الواسطي شيخ البخاري صدوق عالم صاحب حديث من أئمة السنة قوال بالحق مات ٢٢١ هـ . **عامر بن شراحيل الشعبي** [سف] ، إمام غني عن البحث حافظ فقيه ولد ١٧ هـ وتوفى بالكوفة بين ١٠٣ و ١٠٥ هـ . **عبادة بن نسّي الكندي** [سف ، ب] ثقة مات ١١٨ . **العباس بن محمد بن حبان** [و] **العباس بن هشام الكلبي** [ب]«نجهله» . **العباس بن الوليد** [ع] ثقة حافظ صدوق روى عنه الشيخان مات ٢٧١ . عبد الأعلى بن سراقة الأزدي [أ] «نجهله» **وترجح أن صوابه عبد الله بن سراقة الأزدي ، شهد بدرا ومات في خلافة عثمان** . **عبد الأعلى بن مسهر** [و ، ب] ابو مسهر الدمشقي الغساني ثقة روى عنه غير واحد من الأئمة . مات ٢١٨ في الحبس ببغداد . **عبد الرحمن بن ابراهيم** [و] ثقة مأمون حافظ حجة روى عنه البخاري في صحيحه وأبو داود والنسائي وابن ماجه في سننهم ، ولد ١٧٠ وتوفى ٢٤٥ هـ . **عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمي** [و] ثقة مشهور وبعضهم يستنكر حديثه ، مات ١١٨ هـ . **عبد الرحمن بن أبي الحسن** بن ابراهيم الداراني أبو محمد [ع]«نجهله». **عبد الرحمن بن الحسين بن الحسن بن أبي العقب ، ابو القاسم** [و]«نجهله»**عبد الرحمن بن السليك الفزاري** [أ]«نجهله» .

عبد الرحمن بن سليمان ، أبو سليمان ، [و] بن الغسيل المدني ، وثقوه وهو ممن يعتبر بحديثه ويكتب ، مات ١٧١ هـ . **عبد الرحمن بن سياه الأحمري** [سف] نجهله . **عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسن بن أبي الحديد الخطيب الربعي** [و] «نجهله» **عبد الرحمن بن عثمان بن القاسم بن أبي نصر ، ابو محمد** [و ، ع] اختلفوا فيه . **عبد الرحمن بن عمرو الدمشقي أبو زرعه** ، [ع] صدوق حافظ مشهور ثقة مات ٢٨١ . **عبد الرحمن بن غنم** [ب] ثقة بعثه عمر بن الخطاب إلى

الشام يفقه الناس وهو من التابعين وكان أفقه أهل الشام توفى ٧٨ هـ . **عبد الرحمن بن محمد بن المغيرة ، أبو الحسن الصيرفي** [ع] كان صدوقا . **عبد الرحمن بن يزيد بن جابر** [أ] ابو عتبة الأزدي ، أحد العلماء الثقات كان صدوقا مأمونا مات ١٥٣ هـ . **عبد العزيز بن احمد الكتاني** [و] إمام محدث صوفي مكثر ثقة متقن سمع الكثير وجمع فأوعى ولد ٣٨٩ وتوفى ٤٦٦ هـ .

عبد الكريم بن حمزة السلمي [و ، سح] بن الخضر ابو محمد ، نجهله . **عبد الله بن أبي أوفى الخزاعي** [أ] صحابي من أعلام الفتح . **عبد الله بن أبي بكر** [سح] ثقة ثبت رجل صدق عالم كثير الحديث محدث مأمون من أهل العلم توفى ١٣٠ أو ١٣٥ . **عبد الله بن جعفر** [سح] عالم فاضل متقن خرج البخاري له ، ولد ٢٥٨ وتوفى ٣٤٧ هـ . **ابو عبد الله بن الحسين** [أ]«نجهله» . **عبد الله بن الزبير** [سح] غني عن البحث ، شهد اليرموك وقتل بمكة ٧٣ هـ . **عبد الله بن سعد بن ابراهيم** [سح] ثقةمن شيوخ البخاري مات ٣٣٨ هـ . **عبد الله بن سعيد بن العاص** [سف]، كوفي نزل بغداد، ثقة مات بعد ٢٠٣ هـ. عبد الله بن قرط الثمالي الازدي [أ] صحابي من اعلام الفتح ولي حمص ، قتل ٥٦ هـ بالروم . **عبد الله بن قيس الهمداني** [ب] الكندي السكوني أبو بحرية الحمصي ، تابعي ثقة ناسك فقيه يحمل عنه الحديث شهد غزوة حنين مسلما وشهد خطبة عمر بالجابية ، مات ٧٧ هـ . **عبد الله بن لهيعة** [و] قاضي مصر وعالمها ومسندها كان ضعيفا وروى له بعض الأئمة ، مات ١٧٤ هـ . **عبد الله بن محمد بن اسحق بن حبابة** ، ابو القاسم [ع]«نجهله» عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن القاضي، ابو القاسم [ع]، يدل حديثه على الصدق . **عبد الله بن الوليد الدمشقي** [ب] صدوق حديثه صحيح وربما أخطأ في الأسماء . **عبد الملك بن السليك الفزاري** [أ]«نجهله» . **عبد الملك بن محمد** [ع] اختلفوا فيه والأكثر على تضعيفه . **عبد الملك بن نوفل بن مساحق** [أ] ثقة .

عبد الوهاب بن عطاء الخفاف [ع] ، صدوق ليس بالقوي توفى ٢٠٤ هـ . **عبد الوهاب بن الحسن الكلابي** [ع] أحاديثه مناكير ووثقه ابن حبان .**عبيد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن خلف السكري** ، [ع] ثقة مات ٣٢٣ هـ . **عتبة بن عبد الله المسعودي الهذلي** ، أبو عميس [سف] ثقة خرج له البخاري في صحيحه . **عثمان بن احمد بن عبد الله السماك** [ع] صدوق ثقة زاهد صالح توفى ٣٤٤ . **عثمان بن حصن بن علاق** [و] وثقه أبو داود . **عروة بن الزبير** [سح] فقيه محدث عالم ثبت مأمون توفى ٩٢ ـ ٩٤ هـ . **عطاء بن عجلان** [أ] منكر الحديث .

عقبة بن عامر بن عيسى الجهني [و] من اعلام الفتح خرج البخاري ومسلم أحاديثه ، مات ٥٨ هـ . **العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب** [سح] صدوق مشهور ثقة أنكر من حديثه أشياء . **علي بن احمد بن عمر بن حفص ،ابو الحسن الحمامي** [سح] مقرىء العراق كان صادقا دينا فاضلا حسن الاعتقاد ، ولد ٣٢٨ وتوفى ٤١٧ هـ . **علي بن احمد بن محمد البسري أبو القاسم** [ع] صدوق مكثر ولد ٣٨٦ وتوفى ٤١٩ هـ . **علي بن الحسن الربعي** [و] حافظ مقرىء إمام ثقة مأمون توفى ٤٣٦ . **علي بن الحسين بن أشليها المصري** [ع ، و]«نجهله». علي بن أبي حملة [او جملة] [ب] ثقة مات ٢١٦ هـ . **علي بن رباح بن قيصر** [و] عالم أهل مصر وثقه النسائي مات ١١٤ هـ . **علي (أبو الحسن) بن عبد الله** [أ] ثقة توفى ١١٨ هـ .

علي بن ماجد السهمي [سح] ابو ماجدة ، ذكره البخاري في الضعفاء . **علي بن محمد بن احمد الخطيب المشكاني** ابو الحسن [ع]«نجهله». **علي بن محمد بن علي بن ابي العلاء** [و] ثقة . **علي بن المسلم بن الفتح السلمي** ، ابو الحسن [و] شيخ الشافعية بدمشق مات ساجدا في صلاة الصبح ٥٣٣ هـ . **علي بن يعقوب بن ابراهيم بن أبي العقب** ، ابو القاسم [سح ، ع]«نجهله». **عمار** [سح] (بن خالد بن يزيد التمار ، ابو الفضل الواسطي) صدوق مات ٢٦٠ هـ . **عمر بن شبه النميري البصري** ابو زيد [م] ، راوية أخبار عالم بالآثار فقيه صدوق له تصانيف

كثيرة ، ولد ١٧٣ وتوفى ٢٦٢ هـ بسر من رأى . **عمر بن عبيد الله بن عمر** [ع] **ثقة لا جرح فيه**. **عمرو بن شعيب** [أ] أحد علماء زمانه وثقوه ، وقال ابو داود ليس حجة ولا نصف حجة ، وقيل إذا روى عن الثقات فهو ثقة يحتج به . مات ١١٨ هـ . **عمرو بن عبد الرحمن** [أ] **مجهول** . **عمرو بن محصن** [أ]«نجهله». **عمرو بن محمد** [سف] العنقزي القرشي ثقة مات ١٩٩ هـ . **عمرو بن ميمون** بن مهران الأودي [سف] ، فقيه يقتدى به ثقة خرج له مسلم والبخاري شهد مصرع عمر بن الخطاب وتوفى ٧٤ هـ . **ابو عبادة** [أ] **الزرقي** ، عيسى بن عبد الرحمن شبه متروك .

عيسى بن موسى ، **أبو محمد** [و] ثقة . **عيسى بن يزيد** [م] الكناني الليثي ، كان إخباريا علامة نسابة لكنه كان يضع الشعر وأحاديث السمر فسقط علمه ، مات ١٧١ هـ . **غسان بن عبد الحميد** [م]«نجهله». **فاطمة بنت محمد بن احمد** [سح] ام البهاء البغدادي«**نجهله**». **القاسم بن سلام** [ب ، ع] أبو عبيد إمام أهل عصره في كل فن كان ثقة مشهورا ورعا ديّنا جوادا لا بأس به و بعلمه . **القاسم بن عبد الرحمن** [سف] كان خيرا فاضلا وثقه ابن معين والترمذي وغيرهما ، ومنهم من يضعف روايته ، توفى ١١٢ هـ . **القاسم بن عبد الله بن المغيرة** الجوهري ، ابو محمد [ع] ثقة مأمون ولد ١٩٥ وتوفى ٢٧٥ . **القاسم بن محمد** [سف] كان واحدا من عشرة من فقهاء المدينة يستشيرهم عمر بن عبد العزيز وكان ثقة رفيعا عاليا إماما كثير الحديث ورعا مات ١٠٨ هـ . **قباث بن أشيم الكناني** [سف] صحابي من أعلام الفتح . **قدامة بن جابر** [أ]«نجهله». **قرة بن لقيط** [أ]«نجهله». **قيس بن أبي حازم الأحمسي** البجلي الكوفي [أ] محدث الكوفة ، سمع عدة من كبار الصحابة وكان عثمانيا . شهد مع خالد بن الوليد اول حضوره العراق وشهد القادسية ، وثقة يحيى وغيره وتوفى ٩٧ أو ٩٨ هـ . **كبكبة بن حنظلة بن جويرية البجلي** [أ]«**نجهله**» .

كعب الحبر بن ماتع ، ابو اسحق [أ] كان يهوديا فأسلم في خلافة عمر ومات بحمص ٣٢ هـ ، خرج له مسلم وأبو داود والترمزي والنسائي . **كوثر بن حكيم** [ع]

ضعيف متروك الحديث ليس بشيء وذكره ابن حبان في الثقات . **كيسان بن سعد المدني ابو سعيد المقبري** [أ ، سف] كان ثقة كثير الحديث توفى ١٠٠ هـ . **لوط بن يحيى ، ابو مخنف**[ب]ضعيف لا يوثق به ، شيعي ، مات ١٥٧ هـ . **الليث بن سعد** [ب] إمام غني عن البحث . **مالك بن قسامة بن زهير** [أ] من اعلام الفتوح . **مالك بن القين** [أ]«نجهله». **مبشر بن فضيل** [سف] كوني مجهول في الضعفاء . **محرز بن أسيد الباهلي** [أ] من أعلام الفتح . **محرز العبشمي القيني** [سف] أبو حارثة«نجهله». **المحل بُن خليفة الطائي الكوفي** [أ] حفيد عدي بن حاتم ثقة .

محمد بن احمد بن الحسن الصواف [سح ، ع] ابو علي ، ثقة مأمون من أهل التحرز تكلم فيه ابو القاسم البغوي وكان سيء الرأي فيه ، ولد ٢٧٠ وتوفى ٣٥٩ هـ . **محمد بن احمد بن هارون بن الجندي** ابو نصر [و] متهم بالوضع مات ٣٥٥ هـ . **محمد بن جعفر بن الزبير** [سح] من فقهاء المدينة كان عالما وله أحاديث ، ثقة مات بين ١١٠ و ١٢٠ هـ . **محمد بن جعفر الزراد المنيحي** [سح] خرج له مسلم في صحيحه . **محمد بن الحسن الماوردي** أبو غالب [سح ، ع]«نجهله». **محمد بن الحسن بن محمد القاضي النهاوندي** أبو منصور [ع]«نجهله». **محمد بن الحسين بن محمد بن الفضل القطان** [سح] كان ثقة ولد ٣٥٥ وتوفى ٤١٥ هـ . **محمد بن حميد بن حيان الرازي** [سح] اختلفوا فيه كثيرا وتوفى ٢٤٨ هـ . **محمد بن خريم بن مروان بن عبد الملك** ، ابو بكر [ع] وثقه الذهبي ومات ٣١٦ . **محمد بن راشد المكحولي الشامي** [ب] صدوق ثقة مات قبل ١٧٠ هـ .

محمد بن السائب الكلبي ، بن بشر بن عمرو ابو النضر الكوفي[ب] نسابة مفسر رضوه في التفسير وكان عالما بأنساب العرب وأيامهم ثم انصرف إلى الدراسات اللغوية والتاريخية ولكن روايته في الحديث ضعيفة جدا . توفى بالكوفة ١٤٦ هـ . **محمد بن عائذ الدمشقي** [ع ، و] صاحب كتاب الفتوح والمغازي وكان يفتي بدمشق ، وثقوه وتوفي ٢٣٣ . **محمد بن عبد الرحمن بن العباس** ، أبو طاهر

المخلص [سح] ، محدث بغداد وكان صالحا ثقة ، ولد ٣٠٥ وتوفى ٣٩٣ . **محمد بن عبد الله بن احمد بن حبيب العامري** [ع] ، ابو بكر الجوهري كان شيخا ثقة صالحا ولد ٢٦٢ وتوفى ٣٤٤ . **محمد بن عبد الله بن الحسين** ، أبو الحسين [ع] كان ثقة مأمونا دينا فاضلا ولد ٣٠٤ وتوفى ٣٩٠ . **محمد بن عبد الله بن سواد بن نويرة** [سف]«نجهله». **محمد بن عثمان الصنعاني الدمشقي** ابو الجماهر التنوخي [ع] الحافظ محدث دمشق ثقة مات ٢٢٤ . **محمد بن علي بن احمد بن ابراهيم السيرافي** [سح] ابو الحسن «نجهله» . **محمد بن عمر بن علي بن عطاء** [سح] ثقة . **محمد بن فليح** [ع] بن سليمان المدني . وثقه بعضهم وضعفه آخرون ، مات ١٩٧ . **محمد بن كثير بن مروان** [ب] اختلفوا فيه والظاهر أنه كان صدوقا كثير الخطأ متروك الحديث توفى ٢١٦ . **محمد بن المبارك الصوري** [و] كان شيخ الاسلام بدمشق وأثنى عليه يحيى . **محمد بن محمد بن احمد بن المسلمة** ، ابو علي [ع]«نجهله». **محمد بن محمد بن مصعب الصوري** [و] ، ثقة وكان حيا حتى عام ٢٦٠ . **محمد بن مسلم بن شهاب الزهري** ابو بكر [سح ، ع] امام غني عن البحث ولد ٥٠ هـ وتوفى ١٢٤ هـ . **محمد بن المغيرة الصيرفي** ، **ابو عبد الرحمن** [ع]

محمد بن يزيد الرحبي[ع] ثقة ثبت صالح الحديث مات ١٨٨ . **محمد بن يعقوب** ، ابو العباس [سح] الإمام الثقة محدث المشرق ولد ٢٤٧ وتوفي ٣٤٦ . **محمد بن يوسف الفاريابي** [أ ، ب] **محمود بن خالد** ، أبو علي الدمشقي [و] ثقة أمين مات ٢٤٩ **محمود بن غيلان** ، **ابو المهلب الصنعاني**[ب]حافظ ثقة روى عنه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي ، مات ٢٣٩ هـ . **مخنف بن عبد الله بن يزيد بن المغفل** [أ]«نجهله». **مروان بن محمد** ، ابو بكر[ع] الدمشقي الطاطري ، إمام ثقة ضعفه ابن حزم مات ٢١٠ أو ٢٢٠ هـ . **المستنير بن يزيد النخعي** [سف] «نجهله».**مسروق بن عبد الرحمن بن الاجدع** [ع] فقيه عابد من اعلام التابعين ، خرج له الستة وتوفى ٦٢ أو بعدها.**المسلم بن يحيى** [ع]«نجهله». **مصعب بن عبد الله بن مصعب** بن ثابت الزبيري [ع] كان صدوقا عاليا إخباريا كبير المحل ثقة

مستثبت توفى ٢٣٣ . **مطَّرح بن يزيد** [سف] مجمع على ضعفه . **مطرف بن مازن اليماني** [ع] ضعفوه وكذبوه وقيل كان رجلا صالحا توفى ١٩١ . **معاذ بن جبل** [أ] صحابي من أعلام الفتح . **عبد الرحمن** أبو معشر المسندي المدني [أ ، م] الفقيه صاحب المغازي البصير بها كان صدوقا لا يقيم الإسناد ، ضعفوه ومات ١٧٠ هـ . **أبو مغفل** [أ] نجهله . **المغيرة بن عتيبة بن النهاس العجلي** [سف]«نجهله» وأبوه من اعلام فتح العراق . **مكحول الدمشقي** [و] من فقهاء الشام توفى ١١٣ هـ . **المهاجر بن صيفي العذري** [أ]«نجهله» . **المهلب بن عقبة الاسدي** [سف] «نجهله». **موسى بن زكريا التستري** [سح] متروك. **موسى بن سالم، أبو جهضم** [أ] ثقة صدوق صالح الحديث . **موسى بن عقبة** [ع] ثقة حجة خرج له مسلم في صحيحه وابن حزم في المحلي توفى ١٤١ أو ١٤٢ هـ . **ميمون بن مهران الأودي** [سف] مفتي أهل الجزيرة وكان من خاصة عمر بن عبد العزيز، ثقة مات ١١٧ هـ . **نجيح بن عبد الرحمن النضر بن صالح** [أ]«نجهله». **نعيم بن حماد الخزاعي** [ب] أحد الأئمة الأعلام على لين في حديثه ، وثقه بعضهم وخرج له البخاري مقرونا بغيره وقيل كان يضع الحديث ، توفى بسجن سامراء ٢٢٨ بسبب فتنة القرآن . **نوفل بن مساحق** [أ] وثقه النسائي ، مات ٧٤ . **هاشم بن عتبة بن أبي وقاص** [أ] صحابي من أعلام الفتح وقادته . **هبة الله بن احمد الأكفاني** [و، سح] أمين ثقة حافظ شديد العناية بالحديث والتاريخ عاش ٨٠ سنة وتوفى ٥٢٤ . **هشام بن سعد ، ابو عباد المدني** [ع] ليس بالقوي ولا بالمتروك أخرج له مسلم في الشواهد ، توفى في حدود ١٦٠ هـ . **هشام بن عروة بن الزبير** [سف] من أكابر العلماء وجلة التابعين المشهورين ولد ٦١ وتوفى ١٤٦ هـ . **هشام بن عمار الدمشقي** [ب، ع] أبو الوليد ، محدث دمشق وعالمها صدوق مكثر ثقة تغير لما كبر، خرج له البخاري في صحيحه وأصحاب السنن ، ولد ١٥٣ وتوفى ٢٤٥ هـ . **هشام بن الغازي** [ب] ثقة صالح الحديث كان عابدا فاضلا مات ١٥٦ هـ . **هشام بن محمد بن السائب الكلبي** [ب] كان واسع الحفظ جدا ولكنه متروك غير ثقة ، رافضي في

الضعفاء . **هلال بن العلاء الباهلي الرقي** [ع] حافظ صدوق توفى ٢٨٠ . **الهيثم بن حميد الدمشقي الغساني** [ع] قدري اختلفوا فيه بين التوثيق والتضعيف . **الهيثم بن حميد الطائي الكوفي** [ب] كذاب متروك الحديث مات ٢٠٧ هـ . وقيل كان يتعرض لمعايب الناس ويظهرها فكرهوه ولبسوا عليه ما لم يقله . **الوضين بن عطاء** [ب] قدري وثقه قوم وضعفه آخرون توفى ١٤٧ أو ١٤٩ . **الوليد بن هشام** [ع] ثقة . **وهب بن جرير بن حازم** [ع] ، ثقة ثبت حديثه في البخاري ومسلم توفى ٢٠٦ هـ . **وهب بن كيسان** [سح] مدني تابعي ثقة توفى ١٢٩ . **يحيى بن الحسن بن البنا** [ع]«نجهله». **يحيى بن حمزة** [ب، ع] ثقة كثير الحديث صدوق عالم توفي ١٨٣ . **يحيى بن سعيد** [و] صالح الحديث خرج له مسلم في صحيحه مات ١٩٤ . **يحيى بن عبد العزيز ، أبو عبد العزيز** [ب] خيرٌ فاضل لا بأس به . **يحيى بن عبد الله بن بكير** [ع] ثقة مات ١٣٥ . **يزيد بن أسيد الغساني ، أبو عثمان** [سف] «نجهله». **يزيد بن أبي حبيب** [ب، و] ثقة كثير الحديث توفى ١٢٨ . **يزيد بن سنان الرهاوي ، أبو فروة** [سف] ضعفوه ، توفى ١٥٥ . **يزيد بن عبدة** [**أبو عبيدة**] **بن أبي المهاجر** ، من الحفاظ. **يزيد بن عياض بن جعدبة** [م] كذاب متروك . **يزيد بن مرثد أبو عثمان الصنعاني** [ع] خرج له أبو داود في مراسيله . **يزيد بن يزيد بن جابر الأزدي** [أ] حافظ ثقة توفى ١٣٤ . **يعقوب بن سفيان** [سح] ثقة ورع مات ٢٨٠ . **يونس بن بكير** [سح] أكثرهم وثقوه مات ١٩٩ . **يونس بن يزيد** [و] اختلفوا فيه وخرج له مسلم في صحيحه ، وخرج له البخاري في صحيحه ، مات ١٥٢ هـ .

ابو اسحق	ابراهيم بن عبد الصمد بن موسى	
ابو اسحق	ابراهيم بن عبد المنذر بن عبد الله	الاسدي الحزامي
ابو القاسم	ابراهيم بن منصور	السلمي
ابو حجية	الأجلح بن عبد الله	
	احمد بن ابراهيم بن بشر	القرشي
ابو عبد الله	احمد بن اسحق بن خربان	النهاوندي القاضي
ابو غالب	احمد بن الحسن بن البنا	البناء
	احمد بن الحسين بن زنبيل	النهاوندي
ابو الجهم	احمد بن الحسين بن طلاب	التبلهي المشغراني
ابو بكر	احمد بن الحسين بن علي بن عبد الله	البيهقي
ابو عبد الله	احمد بن سليمان بن داود بن محمد	الطوسي
	احمد بن عبد الجبار بن محمد بن عمر	العطاردي التميمي
ابو بكر	احمد بن عبد الله بن الفرج	القرشي
ابو بكر	احمد بن علي بن ثابت بن احمد الخطيب البغدادي	
ابو الفضل	احمد بن علي بن الفضل بن طاهر بن الفرات	الدمشقي
ابو المعالي	احمد بن علي بن محمد بن يحيى بن الرويج بن الحاجب	
	احمد بن عمران بن موسى	
ابو حفص	احمد بن محمد الصفار الازدي	الدمشقي
ابو الحسين	احمد بن محمد بن النقور	
ابو طاهر	احمد بن محمود بن احمد بن محمود	الثقفي

	ادهم بن محرز بن أسيد (أو أسد)	الباهلي
	أرطاه بن جهيش	
	اسحق بن ابراهيم	
أبو حذيفة	اسحق بن بشر بن محمد بن عبد الله	القرشي
ابو هاشم	اسحق بن عيسى	البغدادي
	اسحق بن أبي مروة	
أبو زيد	أسلم	
ابو اسحق	اسماعيل بن ابراهيم بن عقبة	
ابو القاسم	اسماعيل بن احمد	السمرقندي
ابو عبد الله	اسماعيل بن أبي أويس	المدني
ابو اسحق	اسماعيل بن عيسى	العطار البغدادي
ابو شيبان	الأسود بن شيبان	السدوسي البصري
	أسيد الغساني	
	أنس بن مالك	
ابو العلاء	برد بن سنان	
ابو بشر	مؤذن مسجد دمشق	المؤذن
ابو بشير		التنوخي
	بكر بن سليمان	البصري
ابو بكر	محمد بن هبة الله بن الحسن بن منصور	الطبري
ابو بكر	محمد بن ابراهيم بن علي بن عاصم	المقرىء الاصبهاني
ابو القاسم	تمام بن محمد بن عبد الله بن جعفر	الرازي ثم الدمشقي
	تميم بن عطية	العنسي الشامي
ابو محمد	ثابت بن أسلم	البناني البصري
	ثابت بن سهل بن سعد	الانصاري

الكنية	الاسم	النسبة
	جبير بن صخر بن أمية بن خنساء	حارس النبي
	جعفر بن كلاب	الكلابي
ابو جعفر		
ابو جهم		الأزدي
	جويرية بن أسماء بن عبيد	الضبعي البصري
ابو قتادة	الحارث بن ربعي	الانصاري
	الحارث بن عبد الله	الازدي
	الحارث بن كعب	الازدي
	حامد بن يحيى	
ابو خداش	حبان بن زيد الشرعي	الحمصي
	حبيب بن مسلمة	
	حسان بن عبد الله	
	الحسن بن أبي الحديد	
ابو محمد	الحسن بن علي	القطان
ابو الحسين	علي بن محمد بن عبد الله بن بشران	
	الحسين بن زياد	
ابو عبد الله	الحسين بن عبد الملك الاديب	الخلال
ابو علي	الحسين بن علي بن الحسين بن احمد	بن شليها المصري
	حفص بن عمر	العمري
	الحكم بن جراس بن الحكم بن المغفل	
ابو اليان	الحكم بن نافع	الحمصي
أبو علي	حنبل بن اسحق بن حنبل بن هلال	الشيباني
	حنظلة بن جويرية	البجلي
	خالد بن شمير [أو بن سمير]	

الكنية	الاسم	النسبة
ابو عبد الله	خالد بن معدان	الكلاعي
	الخضر بن الحسين بن عبدان	
ابو الخطاب	حماد	الدمشقي الازدي
	حمزة بن مالك	الهمداني
أبو عمرو	خليفة بن خياط بن ابي هبيرة	شباب البصري
		الشيباني
ابو بكر	الخليل بن هبة الله بن الخليل	
ابو داود	راشد بن داود	الصنعاني
	راشد بن عبد الرحمن	الأزدي
	رجاء بن حياة بن جرول	الكندي
ابو المقدام	رجاء بن أبي سلمة مهران البصري	الفلسطيني
ابو الحسين	رضوان بن احمد بن جالنوس	التميمي
	روح بن قاسم	التميمي العنبري
أبو علي	زاهر بن احمد	الفقيه
ابو القاسم	زاهر بن طاهر	الشحامي
ابو عبد الله	الزبير بن بكار بن غبد الله	القرشي الاسدي
ابو الزهراء		القشيري
أبو خيثمة	زهير بن حرب بن شداد الحرشي	البغدادي النسائي
أبو أسامة	زيد بن أسلم	العدوي
	زيد بن مالك	الشامي
	سالم بن ربيعة	
	سالم بن عبد الله بن عمر	
	سراقة بن عبد الأعلى بن سراقة	الازدي
ابو الهيثم	السري بن يحيى بن إياس	الشيباني

ابو اسحق	سعد بن ابراهيم	
ابو سعيد	ابو سعيد	الخدري
	سعيد بن زيد بن عمرو	
	سعيد بن سليمان	الحمصي
	سعيد بن العاص	
ابو محمد/أبو يحيى	سعيد بن عبد العزيز	التنوخي الدمشقي
ابو مجاهد	سعيد [أو سعد الطائي]	كوفي
أبو عثمان	سعيد بن محمد	البحيري
	سفيان بن سليم	الازدي
	سفيان بن عوف بن معقل	
	سلمة	
ابو عبد الله	سلمة بن الفضل بن الابرش	
ابو اسحق	سليمان بن أبي سليمان	الشيباني
ابو ايوب	سليمان بن يسار	الفقيه
ابو عبد الرحمن		
ابو عبد الله		
ابو الفرج	سهل بن بشر	الاسفراييني
	سهل بن سعد بن سعد	الساعدي
	سهل بن يوسف	السلمي
	سويد بن عبد العزيز	الدمشقي
أبو الأشعث	شراحيل بن أدّه	الصنعاني
ابو عثمان	شراحيل بن مرثد	الصنعاني
	شعيب بن ابراهيم	
	صالح	

ابو محمد	صالح بن كيسان	
	صخر بن أمية بن خنساء	الانصاري السلمي
	صدقة بن سابق	
ابو أمامة	الصدى بن عجلان	الباهلي
	الصعب بن زهير بن عبد الله	الازدي الكوفي
ابو عمرو	صفوان بن عمرو	السكسكي الحمصي
أبو صفية		التميمي الشيباني
	ضمرة بن ربيعة	
	طلحة بن الأعلم	الحنفي
أبو طيبة	عمرو بن مالك القيني	السلفي الكلاعي الحمصي
أبو الحسين	عاصم بن علي بن عاصم بن صهيب	الواسطي
	عامر بن شراحيل	الشعبي
	عبادة بن نُسّي	الكندي
	العباس بن محمد بن حبان	
	العباس بن هشام	الكلبي
	العباس بن الوليد	النرسي
	عبد الأعلى بن سراقة	الازدي
أبو مسهر	عبد الأعلى بن مسهر	الدمشقي الغساني
	عبد الرحمن بن ابراهيم	
	عبد الرحمن بن جبير بن نضير	الحضرمي
ابو محمد	عبد الرحمن بن أبي الحسن بن ابراهيم	الداراني
	عبد الرحمن بن الحسين بن أبي العقب	
	عبد الرحمن بن السليك	

ابو سليمان عبد الرحمن بن سليمان

عبد الرحمن بن سياه الاحمري

عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسن الخطيب الربعي
بن ابي الحديد

ابو محمد عبد الرحمن بن عثمان بن القاسم بن أبي
نصر

ابو زرعة عبد الرحمن بن عمرو الدمشقي

عبد الرحمن بن غنم بن سعد الأشعري

أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المغيرة الصيرفي

أبو عتبة عبد الرحمن بن يزيد بن جابر الازدي الداراني

أبو محمد عبد العزيز بن احمد الكتاني التميمي

أبو محمد عبد الكريم بن حمزة بن الخضر السلمي

عبد الله بن أبي أوفى الخزاعي

عبد الله بن أبي بكر

ابو محمد عبد الله بن جعفر بن ارستويه الرقي

ابو عبد الله بن الحسين

عبد الله بن الزبير

عبد الله بن سعد بن ابراهيم

عبد الله بن سعيد بن العاص

عبد الله بن قرط الثمالي الازدي

عبد الله بن قيس الهمداني

ابو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة بن عقبة بن لهيعة الحضرمي الغافقي
المصري

ابو القاسم عبد الله بن محمد بن اسحق بن حبابة

أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن القاضي

عبد الله بن الوليد الدمشقي

عبد الملك بن السليك الفزاري

عبد الملك بن محمد

عبد الملك بن نوفل بن مساحق

أبو نصر عبد الوهاب بن عطاء الخفاف البصري

عبد الوهاب بن الحسن الكلابي

ابو عبيد

أبو محمد عبيد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عيسى
بن خلف السكري

عثمان بن احمد بن عبد الله السماك

عثمان بن حصن بن علاق

عروة بن الزبير

عطاء بن عجلان

أبو عمرو عقبة بن عامر بن عبس الجهني

العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب الحُرَقي

أبو الحسن علي بن احمد بن عمر بن حفص بن
الحمامي ذكوان

ابو القاسم علي بن احمد بن محمد البسري

ابو الحسن (أوالحسين علي بن الحسن الربعي

علي بن الحسين بن علي بن أشليها المصري

علي بن أبي حملة [أو جملة]

علي بن رباح بن قصير اللخمي

ابو الحسن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي

ابو ماجدة	علي بن ماجد	السهمي
أبو الحسن	علي بن محمد بن احمد	الخطيب المشكاني
	علي بن محمد بن علي بن أبي العلاء	
ابو الحسن	علي بن المسلم بن الفتح	السلمي
ابو القاسم	علي بن يعقوب بن ابراهيم بن أبي العقب	
	عمار	
ابو زيد	عمر بن شبه	النميري البصري
	عمر بن عبيد الله بن عمر	
	عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن	
	عمرو بن العاص	
	عمرو بن عبد الرحمن	
	عمرو بن محصن	
	عمرو بن محمد	
	عمرو بن ميمون بن مهران	الأودي
ابو عميس	عتبة بن عبد الله	المسعودي الهزلي
أبو عبادة		
ابو محمد	عيسى بن موسى	
	عيسى بن يزيد	
	غسان بن عبد الحميد	
أم البهاء	فاطمة بنت محمد بن احمد	البغدادي
ابو نعيم	الفضل بن دكين عمرو بن حماد بن زهير	الملائي الكوفي
ابو عبيد	القاسم بن سلام	
ابو عبد الرحمن	القاسم بن عبد الرحمن	الدمشقي
ابو محمد	القاسم بن عبد الله بن المغيرة	الجوهري

	القاسم بن محمد	
	قبات بن أشيم	الكناني
	قدامة بن جابر	
	قرة بن لقيط	
	قيس بن أبي حازم	الاحمس الكوفي
	كبكبة بن حنظلة بن جويرية	البجلي
ابو اسحق	كعب بن ماتع	الحبر الحميري
	كوثر بن حكيم بن ابان بن عبد الله	الهمداني الحلبي
[او مخلد]	ابو خالد	
ابو سعيد	كيسان بن سعيد	المدني المقبري
ابو مخنف	لوط بن يحيى بن سعد بن مخنف	
	الليث بن سعد	
	مالك بن قسامة بن زهير	
	مالك بن القين	
	مبشر بن فضيل	
	محرز بن أسيد	الباهلي
ابو حارثة	محرز	العيشمي القيني
	المحل [او المحلي] بن خليفة	الطائي الكوفي
ابو علي	محمد بن احمد بن الحسن	الصواف
أبو جعفر	محمد بن احمد بن المسلمة	
أبو نصر	محمد بن احمد بن هارون بن الجندي	
	محمد بن جعفر بن الزبير	
ابو الطيب	محمد بن جعفر	الزراد المنيحي

ابو غالب	محمد بن الحسن	الماوردي
ابو منصور	محمد بن الحسن بن محمد	القاضي النهاوندي
ابو الحسين	محمد بن الحسين بن محمد بن الفضل	القطان
	محمد بن حميد	الرازي
ابو بكر	محمد بن خريم بن مروان بن عبد الملك	
	محمد بن راشد	المكحولي الشامي
ابو النضر	محمد بن السائب بن بشر بن عمرو	الكلبي اللوقي
ابو عبد الله	محمد بن عائذ	القرشي الدمشقي
ابو احمد		
ابو طاهر	محمد بن عبد الرحمن بن العباس	المخلص الذهبي
ابو بكر	محمد بن عبد الله بن احمد بن عتاب العبدى	
ابو الحسين	محمد بن عبد الله بن الحسين	
	محمد بن عبد الله بن سواد بن نويرة	
ابو الجماهر	محمد بن عثمان	التنوخي الصنعاني الدمشقي
ابو الحسن	محمد بن علي بن احمد بن ابراهيم	السيرافي
ابو عبد الله	محمد بن عمر بن علي بن عطاء بن مقدم البصري المقدمي	
	محمد بن فليح بن سليمان	المدني
	محمد بن كثير بن مروان	
ابو عبد الله	محمد بن المبارك	القرشي القلانسي الصوري
ابو علي	محمد بن محمد بن احمد بن المسلمة	
	محمد بن محمد بن مصعب	الصوري
ابو بكر	محمد بن مسلم بن شهاب	الزهري

ابو عبد الرحمن	محمد بن المغيرة	الصيرفي
	محمد بن يزيد	الرَّحَبي
ابو العباس	محمد بن يعقوب	
	محمد بن يوسف	الفاريابي
ابو علي	محمود بن خالد بن ابي خالد بن يزيد	السلمي الدمشقي
أبو المهلب	محمود بن غيلان	الصنعاني
	مخنف بن عبد الله بن يزيد بن المغفل	
ابو بكر	مروان بن محمد	الدمشقي الطاطري
	المستنير بن يزيد	النخعي
	مسروق بن عبد الرحمن بن الأجدع	
	المسلم بن يحيى	
أبو مسهر	عبد الأعلى بن مسهر	الغساني
أبو عبد الله	مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت	الزبيري
ابو المهلب	مطَّرح بن يزيد	الكناني الكوفي
أبو أيوب	مطرف بن مازن	الصنعاني اليماني
	معاذ بن جبل	
ابو مغفل	المغيرة بن عتيبة بن النهاس	العجلي
	مكحول	الدمشقي
	المهاجر بن صيفى	العذري
	المهلب بن عقبة	الأسدي
	موسى بن زكريا	التستري
أبو جهضم	موسى بن سالم	
	موسى بن عقبة بن أبي عياش	الأسدي
ابو ايوب	ميمون بن مهران	الأودي

النضر بن صالح

ابو معشر نجيح بن عبد الرحمن المدني السندي

أبو مغفل أبو جهضم أبو أيوب

ابو عبد الله نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث بن سلمة الفرضي الخزاعي

نوفل بن مساحق بن عبد الله بن مخرمة

هاشم بن عتبة بن أبي وقاص

ابو محمد هبة الله بن احمد الأكفاني

ابو عباد هشام بن سعد المدني

هشام بن عروة بن الزبير

هشام بن عمار السلمي الدمشقي

ابو العباس هشام بن الغازي بن ربيعة بن عمرو الجرشي

هشام بن محمد بن السائب الكلبي

ابو عمر هلال بن العلاء بن هلال بن عمر الرقي الباهلي

الهيثم بن حميد الدمشقي الغساني

ابو عبد الرحمن الهيثم بن عدي المنبجي ، الكوفي الطائي

ابو كنانة الوضين بن عطاء الكفرسوسي

الوليد بن هشام بن معاوية بن هشام الأموي

ابو العباس وهب بن جرير بن حازم الازدي الجهضمي البصري

ابو نعيم وهب بن كيسان المعلم المدني المكي

ابو عبد الله يحيى بن الحسن بن البنا

ابو عبد الرحمن يحيى بن حمزة بن ابي اسيد الانصاري

يحيى بن سعيد القطان

ابو عبد العزيز يحيى بن عبد العزيز الاردني

ابو زكريا يحيى بن عبد الله بن بكير المخزومي المصري

يحيى بن هانىء بن عروة المرادي

يحيى بن يحيى بن قيس الغساني

ابو عثمان يزيد بن أسيد الغساني

يزيد بن أبي حبيب

يزيد بن سنان الرهاوي

يزيد بن عبدة

يزيد بن عياض بن جعدبة

ابو عثمان يزيد بن مرثد الصنعاني

يزيد بن يزيد بن جابر الأزدي

أبو يوسف يعقوب بن سفيان بن جوان الفسوي

يونس بن بكير بن واصل الكوفي الجمال الشيباني

يونس بن يزيد القرشي الأيلي

لماذا فتح الشام

مقدمات

لماذا فتح المسلمون الشام ؟

لقد أجبنا على مثل هذا السؤال حين درسنا[1] فتوح العراق والجزيرة وفارس بما يغنينا عن الإفاضة مرة أخرى هنا ولقد انتهينا إلى أن الفتوح استهدفت « الدعوة إلى الله » . فإن دعوة الناس كافة إلى دين الاسلام كانت فريضة يحتمها دين الاسلام على المسلمين ، ومن حيث قامت في ديار الفرس والروم سلطات تمنع تبليغ الرسالة وتصد عن سبيل الله فلم يكن من سبيل إلى حمل الأمانة وإبلاغ الرسالة إلا بفتح تلك الديار... فتحها ولو بالسيف حتى يمكن بعد ذلك أن تترك الحرية للعباد لاختيار الدين الذي يدينون به . فتح البلاد مشروع لتبليغ الدعوة إذا ما صدت سلطات تلك البلاد عن السماح بتبليغها على ما سوف يتبين لنا في هذه الصفحات .

وإذاً ... فمتى بدأت فكرة فتح الشام عند المسلمين ؟

تأسيسا على ما تقدم نذهب إلى أن فكرة الفتح كانت مستبينة في أذهان المسلمين منذ اليوم الأول الذي أدركوا فيه عموم رسالتهم وشمول دعوتهم البشر جميعا ، ولنا في العهد المكي ثم في العهد المدني ما يؤيد ذلك .

---

(١) في كتبنا « الطريق إلى المدائن » و« القادسية » و« سقوط المدائن » . وقد عقدنا فصلا في هذا الأخير عن الباعث على الفتوح ومشروعيتها وعوامل نجاحها ص ٣٢٧ - ٣٧٥ .

لقد كان حادث الإسراء من أبرز تلك الدلائل . يقول الاستاذ[١] الغزالي « لماذا كانت الرحلة إلى بيت المقدس ولم تبدأ من المسجد الحرام إلى سدرة المنتهى مباشرة ؟ إن هذا يرجع بنا إلى تاريخ قديم . فقد ظلت النبوات دهورا طوالا وهي وقف على بني إسرائيل . وظلت بيت المقدس مهبط الوحي ومشرق أنـواره على الأرض ، وقصبة الوطن المحبب إلى شعب الله المختار . فلما أهدر اليهود كرامة الوحي وأسقطوا أحكام السماء حلت بهم لعنة الله وتقرر تحويل النبوة عنهم إلى الأبد ! ومن ثم كان مجيء الرسالة إلى محمد انتقالا بالقيادة الروحية في العالم من أمة ومن بلد إلى بلد ، ومن ذرية إسرائيل إلى ذرية اسماعيل ...

« لكن إرادة الله مضت . وحملت الأمة الجـديدة رسالتهـا . وورث النبـي العربي تعاليم إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب . وقام يكافح لنشرها وجمع الناس عليها . فكان من وصل الحاضر بالماضي وإدماج الكل في حقيقة واحدة أن يعتبر المسجد الأقصى ثالث الحرمين في الإسلام ، وأن ينتقل إليه الرسول في إسرائه ، فيكون هذا الانتقال احتراما للإيمان الذي درج قديما في رحابه ...

« إن رؤية طرف من آيات الله الكبرى في ملكوت السماوات والأرض له أثره الحاسم في توهين كيد الكافرين وتصغير جموعهم ومعرفة عقباهم . وقد عرف محمد في هذه الرحلة أن رسالته ستنساح في الأرض وتتوطن الأودية الخصبة في النيل والفرات وتنتزع هذه البقاع من مجوسية الفرس وتثليث الروم . بل إن أهـل هذه الأودية سيكونون حملة الإسلام جيلا في أعقاب جيل . وهذا معنى رؤية النيل والفرات في الجنة ، وليس معناه أن مياه النهرين تنبع من الجنة كما يظن السذج والبلهاء » ... أ هـ .

(١) فقه السيرة ١٠٣ .

وإذا كنا في واقعة الإسراء قد ذهبنا نحلل ونستنتج ، فقد أعطانا رسول الله ﷺ نبوءة صريحة صحيحة كررها المرة تلو المرة . ففي هجرته مع صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه رصدت قريش جائزة كبيرة لمن يأتي بهما حيين أو ميتين . وأغرت الجائزة فرسان قريش فتلاحقت في مطاردة المهاجرين الأعزلين حتى أدركهما واحد منهم هو سراقة بن جعشم . وفي حوار قصير رده رسول الله ﷺ بوعد أن يكون له سوارا كسرى بن هرمز حين يفتح الله على المسلمين ! كذلك أعاد النبوءة وهو يحفر الخندق مع أصحابه حين زحفت الأحزاب إلى المدينـة عام ٤ أو ٥ هـ للقضاء المبرم على أصحابه ودعوته . تنبأ يومها بفتح قصور الحيرة وقصور المدائن وقصور صنعاء وقصور[١] الروم .

وقد ساق صاحب تاريخ دمشق بضعا وعشرين حديثا تحت عنوان « باب تبشير المصطفى عليه أفضل السلام أمته المنصورة بافتتاح الشام » وكلها بنفس المضمون نكتفي بواحد منها عن سفيان[٢] بن أبي زهير الأزدي قال « سمعت رسول الله ﷺ يقول : يفتح اليمن فيأتي قوم يبسّون[٣] فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون . ثم تفتح الشام فيأتي قوم يبسـون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » .

ثم ذكر نحوا من ثلاثين حديثا أخرى تتنبأ بفتح الشام نكتفي بواحد منها عن[٤] عوف بن مالك ان النبي عليه السلام قال لأصحابه « الفقر تخافون أو العوز

(١) ابن عساكر ٣٧٧/١ بسنده .

(٢) ابن عساكر ٣٦٦/١ أخبرناه أبو القاسم بن الحصين ، أنا أبو علي بن المذهب ، أنا أبو بكر بن مالك ، نا عبد الله بن احمد بن حنبل ، حدثني أبي ، ثنا عبد الرزاق ، انبا بن جريج ، أخبرني هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عبد الله بن الزبير ، عن سفيان بن أبي زهير الأزدي .

(٣) يبسون يزجرون الإبل من قولهم بُسْ بُسْ ـ مختار الصحاح .

(٤) ابن عساكر ٣٨٠/١ بسنده .

أو تهمكم الدنيا ؟ إن الله عز وجل فاء لكم أرض فارس والروم ، ويصب عليكم الدنيا صبا حتى لا تزيغكم إلا هي » .

والقبلة الأولى

ومن المعلوم أنه حين شرعت الصلاة في مكة كان الرسول والمسلمون يتجهون في صلاتهم إلى بيت المقدس والكعبة [١] بين أيديهم ، فلما قدموا المدينة توجهوا إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا « ولله المشرق [٢] والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن الله واسع عليم » . ثم نزل قوله تعالى « ومن حيث خرجت فوَلِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » فتحولوا إلى الكعبة . وما نحسب المسلمين قدّ استقبلوا المسجد الأقصى في صلاتهم تلك المدة الطويلة وهم لا يظنون أن قبلتهم تلك من أهدافهم ومقدساتهم . فما أن وجد رسول الله ﷺ الفرصة مواتية بمهادنة قريش وعقد صلح الحديبية معها حتى راح ينظر إلى الآفاق الأبعد لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة .

رسل الى الملوك

خرج [٣] رسول الله ﷺ يوما على أصحابه فقال لهم

« إن الله بعثني رحمة وكافّة فأدّوا عني يرحمكم الله ، ولا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم .

قالوا وكيف يا رسول الله كان اختلافهم ؟

قال دعاهم لمثل ما دعوتكم له ، فأما من قرب به فأحب وسلم ، وأما من بعد

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٢٦/١ .

(٢) سورة البقرة ١١٥ .

(٣) ابن هشام ٦٠٧/٢ عن ابن اسحق عن يزيد بن أبي حبيب المصري . وابن هشام عن من يثق به عن أبي بكر الهذلي .

الطبري ٦٤٥/٢ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق عن يزيد بن حبيب المصري .

به فَكَرِه وأبى ، فشكا ذلك عيسى منهم إلى الله ، فأصبحوا وكل رجل منهم يتكلم بلغة القوم الذين وُجِّه إليهم ، فقال عيسى هذا أمر قد عزم الله لكم عليه فامضوا » .

وبعث رسول الله ﷺ الرسل إلى الملوك يدعونهم إلى الإسلام ، فلما أراد أن يكتب [١] إلى الروم قيل له إنهم لا يقرأون كتابا إلا أن يكون مختوما ، فاتخذ خاتما من فضة بيضاء ونقش فيه « محمد رسول الله » .

فكان حاطب بن أبي بلتعة مبعوثه إلى المقوقس عظيم القبط [٢] بمصر ، بالاسكندرية . وكان شجاع بن وهب الأسدي مبعوثه إلى الحارث بن أبي شَمِر الغساني ، وفي رواية [٣] إلى المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق .

وبعث دِحْيَة بن خليفة الكلبي الخزرجي إلى قيصر ملك الروم ، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصري ليسلمه إلى قيصر [والمقصود به هرقل] .

وبعث عبد الله بن حذافة السَّهمي إلى كسرى پرويز ملك فارس .

وبعث عمرو بن أمية الضَّمْري إلى النجاش ملك الحبشة .

وبعث عمرو بن العاص السهمي إلى جيفر وعبادا بني الجُلُنْدي الأزديين ملكي عُمان .

---

(١) اتخاذ الخاتم ذكره البخاري في صحيحه ١٨٥/١٢ عن علي بن الجعد عن شعبة عن قتادة عن أنس .

(٢) أمر المقوقس بوضع كتاب النبي في صندوق من عاج . وفي عام ١٨٥٠ م اكتشف العالم بارتليمي أصل الكتاب بين أوراق نسخة قديمة من الانجيل في دير بمدينة أخميم بصعيد مصر وحمله إلى السلطان عبد المجيد فاشتراه بثمن كبير وأمر بحفظه ، ونقله إلى عاصمة الخلافة بالآستانة ولا يزال الكتاب محفوظا في صندوق من الذهب في « طوب كابي سراي » . ويميل المستشرقون إلى القبول بصحة هذا الكتاب ـ عن الدكتور عز الدين ابراهيم ، روز اليوسف ٢٤٠١ ـ ١٩٧٤/٦/١٧ .

(٣) الطبري ٦٥٢/٢ عن ابن اسحق .

وبعث سليط بن عمرو إلى ثُمَامة بن أُثَال وهوذة بن علي الحنفيين ملكي اليمامة .

وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوي العبدي [عبد قيس] ملك البحرين .

وخرج الثلاثة الأول من المدينة مصطحبين معا ، وكان خروجهم دعاة إلى الله . وتذكر رواية أن تلك الرسالات بعث بها في ذي الحجة سنة ست ، بينما تذهب رواية أخرى[1] إلى أن رسالة النبي ﷺ إلى هرقل كانت مصاحبة لغزوة تبوك [شهر رجب سنة ٩ هـ] . وفي رواية ثالثة أنها كانت فيما بين صلح الحديبية ووفاة رسول الله ﷺ وهو ما نأخذ به إذ أن عام ٦ هـ قد وافق عام ٦٢٨ م وهو ما لا نراه مناسبا لبعث رسائل إلى هرقل ولا إلى كسرى حيث كانا - كما مر بنا - في حرب ضروس بأرض فارس . والثابت أن دحية حمل الرسالة إلى هرقل في الشام ، والثابت أيضا أن هرقل كان يطارد كسرى بين دستجرد والمدائن ويسبي نساءه في ذلك الوقت من عام ٦ هـ .

هرقل ورسالة النبي[2]

كانت غزوة مؤتة بأرض الشام في شهر جمادى الأولى ٨ هـ سبتمبر ٦٢٩ . ويقضي المنطق أن تكون محاولة التفاهم السياسي سابقة للعمليات الحربية ، وبذلك

(١) ابن عساكر ٤١٧/١ أخبرنا أبو القاسم بن الحصين،أنبا ابو على بن المذهب،أنبا أبو بكر بن مالك، نا عبد الله بن احمد [بن حنبل] ، نا أبي ، نا سريج بن يونس من كتابه ، نا عباد بن عباد المهلبي ، عن عبد الله بن عثمان بن حيثم ، عن سعيد بن أبي راشد مولى لآل معاوية .

(٢) صحيح البخاري ٥١/١ عن أبي اليمان الحكم بن نافع ، عن شعيب [بن أبي حمزة القرشي الأموي مولاهم الحمصي] عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عبد الله بن عباس عن أبي سفيان بن حرب . كما رواه صالح بن كيسان ويونس بن يزيد ومعمر عن الزهري .

و ١٨٦/١٢ عن ابراهيم بن حمزة عن ابراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عبد الله بن عباس .

الطبري ٦٤٦/٢ عن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن اسحق عن ابن شهاب الزهري عن عبيد.

أيضا تقضي الشريعة .. أن تسبق الدعوة إلى الإسلام بعث الجيوش . ومعنى هذا أن تكون وفادة دحية على هرقل قد سبقت غزوة مؤتة . ونذهب إلى أن دحية قد حمل رسالة النبي إلى هرقل عام ٧ هـ في فصل الصيف حيث كان أبو سفيان بن حرب في تجارة قريش في غزة على ما سيأتي ذكره . ويمكن قبول شهر ذي الحجة [ولكن من عام ٧ هـ وليس من عام ٦ هـ] توقيتا لذلك ، وقد صادف شهر ابريل [نيسان] ٦٢٩ م . يدعم هذا أنه في شهر ذي القعدة وشهر ذي الحجة ٦ هـ كان أبو سفيان في مكة إبان صلح الحديبية في حين لا نعثر له على ذكر في عمرة القضاء ٧ هـ بعد عام من الحديبية .

وجود أبي سفيان بالشام للتجارة في ركب من قريش في رحلة الصيف أتاح فرصة مواتية وفريدة لوصف شاهد عيان لما كان من أمر تلك الرسالة . فعن عبد الله بن عباس قال حدثني أبو سفيان بن حرب قال :

« كنا قوما تجارا وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى نهكت

الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عبد الله بن عباس قال حدثني أبو سفيان بن حرب .

الطبري ٦٤٩/٢ عن سفيان بن وكيع عن يحيى بن آدم عن عبد الله بن أدريس عن محمد بن اسحق عن الزهري ابن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس قال أخبرني أبو سفيان بن حرب .

ابن عساكر ٤٧١/١ عن الحسن بن احمد الحداد وعبد الرحيم بن أبي الوفاء المعدل عن أبي نعيم احمد بن عبد الله عن سليمان بن احمد الطبراني عن أبي زرعة عن أبي اليمان عن شعيب عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عبد الله بن عباس عن أبي سفيان بن حرب .

ابن عساكر ٣٩٣/١ عن هبة الله بن احمد ، نا احمد بن علي بن ثابت ، نا محمد بن الحسين بن محمد ،انبا محمد بن عبد الله بن احمد ، نا القاسم بن عبد الله بن المغيرة ، ثنا اسماعيل بن أبي أويس ، ثنا اسماعيل بن ابراهيم بن عقبة عن عمه موسى بن عقبة .

و ٤٧١ أخبرنا أبو علي الحسن بن احمد الحداد ، في كتابه ، وحدثني ابو مسعود عبد الرحيم بن ابي الوفاء المعدل عنه ، انا بو نعيم احمد بن عبد الله الحافظ ، نا سليمان بن احمد الطبراني ، ثنا ابو زرعة ، نا ابو اليمان ، انا شعيب ، عن الزهري ، أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، ان عبد الله بن عباس أخبره أن ابا سفيان بن حرب أخبره .

أموالنا . فلما كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله لم نأمن ألا نجد أمْناً ، فخرجت في نفر من قريش تجار إلى الشام ، وكان وجه متجرنا منها غزَّة فقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من فارس وأخرجهم منها وانتزع له منهم صليبه الأعظم وكانوا قد استلبوه إياه . فلما بلغ ذلك منهم وبلغه أن صليبه قد استنقذ له وكانت حمص منزله ، خرج منها يمشي على قدميه متشكرا لله حين رد عليه ما ردّ ليصلي في بيت المقدس ، تبسط له البُسُط وتلقي عليه الرياحين . فلما انتهى إلى إيلياء وقضى فيها صلاته ومعه بطارقته [قُواد جيشه] وأشراف الروم ، أصبح ذات غداة مهموما يقلب طرفه إلى السماء . فقال له(١) ابن ناظور أسقف إيلياء وهي بيت المقدس . وكان هرقل سقَّفَه على نصارى الشام

– والله لقد أصبحت أيها الملك الغداة مهموما .

قال – أجل أريت في هذه الليلة ، حين نظرت في النجوم ، أن مُلْك الخِتَان ظاهر .

قالوا – أيها الملك ما نعلم أمة تختتن إلا يهود وهم في سلطانك وتحت يدك ، فابعث إلى كل من لك عليه سلطان في بلادك فمره فليضرب أعناق كل من تحت يديه من يهود واسترح من هذا الهم .

فوالله إنهم لفي ذلك من رأيهم يديرونه إذ أتاه رسول صاحب بصري برجل من العرب يقوده ، وكانت الملوك تَهادى الأخبار بينها ، فقال « أيها الملك إن هذا الرجل من العرب من أهل الشاء والإبل يحدث عن أمر حدث ببلاده عجب فسله عنه . فلما انتهى به إلى هرقل رسول صاحب بصري قال هرقل لترجمانه

– سله ما كان هذا الحدث الذي كان ببلاده ؟

(١) في رواية ان الاسقف هو الذي حكى الحكاية وأن بعض بطارقة الروم هم الذين حدثوا هرقل – ابن عساكر ٤٧٣/١

فسأله فقال – خرج من بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبي قد اتبعه ناس وصدقوه وخالفه ناس ، وقد كانت بينهم ملاحم في مواطن كثيرة فتركتهم على ذلك .

فلما أخبره الخبَر قال « جرِّدوه » . فجردوه فإذا هو مختون ، فسأله عن العرب أيختتنون ؟ فقال نعم هم يختتنون .

فقال هرقل – هذا والله الذي أريت لا ما تقولون ، أعطوه ثوبه .. انطلق عنا .

ثم دعا صاحب شرطته فقال له – قلِّب لي الشام ظهرا وبطنا حتى تأتيني برجل من قوم هذا الرجل ، يعني النبي ﷺ .

يقول أبو سفيان « فوالله إنا لبغزه إذ هجم علينا صاحب شرطته ، فقال أنتم من قوم هذا الرجل الذي بالحجاز ؟

قلنا نعم .

قال انطلقوا بنا إلى الملك !

فانطلقنا ، فلما انتهينا إليه [وهو في بيت المقدس] فدعاهم في مجلس ملكه وعلى رأسه التاج وحوله عظماء الروم . ثم دعا ترجمانه فقال :

– أنتم من رهط هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟

قلنا – نعم .

فأقعدني بين يديه وأقعد أصحابي خلفي ثم قال « إني سأسأله فإن كذب فردوا عليه » .

فوالله لو كذبت ما ردّوا عليّ ، ولكني كنت امرأ سيداً أتكرم عن الكذب وعرفت أن أيسر ما في ذلك إن أنا كذبته أن يحفظوا ذلك عليّ ثم يحدثوا به عني ، فلم أكذبه .

فقال ـ أخبرني عن ذلك الرجل الذي خرج بين أظهركم يدعي ما يدعي .

فجعلت أزهّد له شأنه وأصغّر له أمره وأقول له ، أيها الملك ما يهمك من أمره؟ إن شأنه دون ما يبلغك . فجعل لا يلتفت إلى ذلك .

ثم قال ـ أنبئني عما أسألك عنه من شأنه .

قلت ـ سل عما بدا لك .

قال ـ كيف نسبه فيكم ؟

قلت ـ محض [خالص] أوسطنا نسبا ، هو فينا ذو نسب .

قال ـ فأخبرني ، هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل ما يقول فهو يتشبه به ؟

قلت ـ لا .

قال ـ فهل كان له فيكم مُلْك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه ؟

قلت ـ لا .

قال ـ فأخبرني عن أتباعه منكم ، من هم ؟

قلت ـ الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء ، وأما ذوو الأسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منهم أحد .

قال ـ أيزيدون أم ينقصون ؟

قلت ـ بل يزيدون .

قال ـ فأخبرني عمن تبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه ؟

قلت ـ ما تبعه رجل ففارقه .

قال ـ فأخبرني كيف الحرب بينكم وبينه ؟ أكل مرة يظهر عليكم ؟

قلت ـ سجال ، يدال علينا وندال عليه . وماظهرعلينا قط إلا وأنا غائب ، ثم قد غزوتهم مرتين في بيوتهم فبقرنا البطون وجدعنا الأنوف وقطعنا الذكور .

قال فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول الذي قال ؟

قلت لا

قال فأخبرني هل يغدر

فلم أجد شيئا مما سألني عنه أغمزه فيه غيرها .

قلت لا ونحن منه في هدنة ولا نأمن غدره .

فوالله ما التفت إليها مني .

قال فماذا يأمركم ؟

قلت يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة وبالصدق والعفاف والصلة .

قال أتراه كاذبا أو صادقا ؟

قلت بل هو كاذب .

قال قيصر : لا تقولون ذلك فإن الكذب لا يظهر به أحد ، فإن كان فيكم نبيا لا تقتلوه فإن أفعل الناس لذلك اليهود .

ثم كر على الحديث فقال للترجمان : قل له أني سألته كيف نسبه فيكم فزعمت أنه محض من أوسطكم نسبا ، وكذلك يأخذ الله النبي ، إذا أخذه لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسبا . وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول بقوله فهو يتشبه به فزعمت أن لا . وسألتك هل كان له فيكم مُلْك فاستلبتموه أياه فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه ، فزعمت أن لا . وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء ، وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان . وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم . وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه ، فزعمت أنه لا يتبعه أحد فيفارقه ، وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلبا فتخرج منه . وسألتك هل يغدر فزعمت أن لا ، وكذلك الرسل لا يغدرون . وسألتك بما يأمركم فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به وينهاكم عن عبادة الأوثان

ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والصلة . فلئن كنت صدقتني عنه لَيَغْلِبَنّي على ما تحت قدمَيّ هاتين ، وهو نبي ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أكن أظن أنه منكم . ولو أني أعلم أخلص إليه لتجشمتُ لقاءه ولوددت أنـي عنـده فأغسـل قدميه[1] . انطلق لشأنك .

فلما قال ما قال كثر عنده الصخب وارتفعت أصوات الذين حوله من عظماء الروم وكثر لغطهم فلا أدري ماذا قالوا . وأمر بنا فأخرجنا فقمت من عنده وأنا أضرب إحدى يديّ بالأخرى وأقول « أيْ عباد الله ، لقد أُمِر أَمْرُ ابن أبي كبشة [يعني قوي واشتد] ، أصبح ملوك بني الأصفر يهابونه في سلطانهم بالشام ! فما زلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله عليّ الإسلام .

وقدم على هرقل كتاب رسول الله ﷺ مع دحية بن خليفة الكلبي

« بسم الله الرحمن الرحيم »

من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد . أَسْلِمَ تسلم ، وأسلـم يؤتـك الله أجـرك مرتـين . وإن تَتَـوَلَّ فإن إثـم الأكارين[2] عليك . ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة[3] سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

(صورة رسالة الرسول (ص) الى هرقل)

---

(١) في إنجيل برنابا فصل ٤٢ صفحة ٩٢ أن الكهنة أرسلوا اللاويين وبعض الكتبة يسألون المسيح « قالوا : من أنت ، قل لنشهد للذين أرسلونا ؟ فقال حينئذ يسوع : أنا صوت صارخ في اليهودية كلها يصرخ أعدوا طريق رسول الرب كما هو مكتوب في أشعيا [أ ش ٤٠ : ٣ ، يوا : ١٩ ـ ٢٧] قالوا إذا لم تكن المسيح ولا إيليا أو نبيا فلماذا تبشر بتعليم جديد وتجعل نفسك أعظم شأنا من مسيا ؟ أجاب يسوع : إن الآيات التي يفعلها الله على يديّ تظهر أني أتكلم بما يريد الله ولست أحسب نفسي نظير الذي تقولون عنه لأني لست أهلا أن أحل رباطات جرموق أو سيور حذاء رسول الله الذي تسمونه مسيا ، الذي خلق قبلي وسيأتي بعدي وسيأتي بكلام الحق ولا يكون لدينه نهاية » .

(٢) الأكارين الزراع والحراث . وفي رواية ابن عساكر والبخاري « فإن عليك إثم الأريسيين »

(٣) إضافة في رواية البخاري .

فأخذ الكتاب فجعله بين فخذيه وخاصرته .

انتهت رواية أبي سفيان .

لقد سكتت جميع المراجع عن مصير الرسالة حتى أعلنت أميرة عربية تقيم في لندن ـ لم يعلن اسمها ـ أنها تمتلك أصل هذه الرسالة وتحتفظ بها وأن عائلتها توارثتها جيلا بعد جيل حتى آلت إليها وأنها ورثت معها وصية بألا تتصرف فيها إلا إلى حاكم مسلم . وقد انتقل إليها الدكتور عز الدين ابراهيم المستشار الثقافي لدولة الإمارات ـ وهو عالم مصري ـ وأجرى على الرسالة كافة الاختبارات العلمية ثم عاد يؤكد أنها صحيحة استنادا إلى الآتي :

١ ـ نص الرسالة هو الذي ورد في معظم كتب الحديث والتاريخ .

٢ ـ الفحص المختبري أثبت أن الخطاب مكتوب على جلد دباغته بدائية وأقل إتقانا من دباغة القرن الثاني للهجرة كما يتضح من المقارنة بالوثائق المحفوظة بالمتحف البريطاني .

٣ ـ أثبتت الأشعة فوق البنفسجية تغلغل الحبر وقدمه ، كما أثبتت عذرية الجلد بمعنى أنه لم يكتب عليه سوى ما كتب .

٤ ـ أثبت التحليل الكيماوي أن الحبر معروف بشدة ترسيبه وهو ما يفسر وضوح الكتابة حتى الآن ، وهو من نفس نوع الحبر المستخدم في كتابة رسائل مسيحية معاصرة للرسالة .

قام[1] بهذه الأبحاث دكتور ريد أشهر متخصص في الجلود وقد قرر أن الجلد عمره ألف سنة على الأقل .

ولابن شهاب[2] الزهري رواية تتمم ما لم يشهده أبو سفيان قال « حدثني

(١) مجلة روز اليوسف ٢٤٠١ ـ ١٩٧٤/٦/١٧ ـ ٢٦ جمادى الأولى ١٣٩٤

(٢) الطبري ٦٤٩/٢ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق عن [محمد بن مسلم] بن شهاب الزهري .

أسقف للنصارى أدركته في زمان عبد[1] الملك بن مروان أنه أدرك ذلك من أمر رسول الله ﷺ وأمْر هرقل وعَقْله ، قال فلما قدم عليه كتاب رسول الله ﷺ مع دحية بن خليفة أخذه هرقل فجعله بين فخذيه وخاصرته . ثم كتب إلى رجل برومية [روما] كان يقرأ من العبرانية ما يقرأونه يذكر له أمره ويصف له شأنه ويخبره بما جاء منه . ثم سار هرقل من بيت المقدس فلم يبلغ حمص حتى جاءه جواب صاحب رومية .

« إنه للنبي[2] الذي كنا ننتظره لا شك فيه فاتَّبِعْه وصَدِّقْه » .

فأمر هرقل ببطارقة الروم [قادة الجيش] فجُمِعوا له في دسكرة [بناء بالقصر حوله بيوت] بحمص وأمر بها فأُشرِجَت أبوابها عليهم [أغلقت] ثم اطلع عليهم من عُلِّيَّة له وخافهم على نفسه ، وقال : يا معشر الروم إني قد جمعتكم لخير ، إنه قد أتاني كتاب هذا الرجل يدعوني إلى دينه وإنه والله للنبي الذي كنا ننتظره ونجده في

(١) عهد عبد الملك بن مروان ٦٨٥ ـ ٧٠٥ م .

(٢) جاء عن برنابا على لسان المسيح « ... أما من خصوصي فإني قد أتيت لأهيىء الطريق لرسول الله الذي سيأتي بخلاص العالم ، ولكن احذروا أن تُغَشُّوا لأنه سيأتي أنبياء كذبة كثيرون يأخذون كلامي وينجسون إنجيلي . حينئذ قال اندراوس : يا معلم اذكر لنا علامة لنعرفه . أجاب يسوع : إنه لا يأتي في زمنكم بل يأتي بعدكم بعدة سنين حينما يبطل إنجيلي ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمنا ، في ذلك الوقت يرحم الله العالم فيرسل رسوله الذي تستقر على رأسه غمامة بيضاء يعرفه أحد مختاري الله وهو سيظهره للعالم ، وسيأتي بقوة عظيمة على الفجار ويبيد عبادة الأصنام من العالم ، وإني أسر بذلك لأنه بواسطته سيعلن ويمجد الله ويظهر صدقي وسينتقم من الذين سيقولون أني أكبر من إنسان . الحق أقول لكم أن القمر سيعطيه رقادا في صباه ومتى كبر هو أخذه كفّيه ، فليحذر العالم أن ينبذه لأنه سيفتك بعبدة الأصنام ، فإن موسى عبد الله قتل اكثر من ذلك كثيرا ولم يبق يشوع على المدن التي أحرقوها وقتلوا الأطفال لأن القرحة المزمنة يستعمل لها الكي ، وسيجيء بحق أجلي من سائر الأنبياء وسيوبخ من لا يحسن السلوك في العالم وستحيِّي طربا أبراج مدينة آبائنا بعضها بعضا . فمتى شوهد سقوط عبادة الأصنام إلى الأرض واعترف بأني بشر كسائر البشر فالحق أقول لكم أن نبي الله حينئذ يأتي . [انجيل برنابا الفصل ٧٢ ص . ١٣٠] .

كما قال « .. حينئذ يرحم الله العالم ويرسل رسوله الذي خلق كل الأشياء لأجله الذي سيأتي من الجنوب بقوة وسيبيد الأصنام وعبدة الأصنام وسينتزع من الشيطان سلطته على البشر وسيأتي برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به وسيكون من يؤمن بكلامه مباركاً » . [انجيل برنابا الفصل ٩٦] .

كتبنا . يا معشر الروم ، هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم ؟ فهلموا نتبعه ونصدقه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا .

فنخروا نخرة رجل واحد ثم ابتدروا أبواب الدسكرة ليخرجوا منها فوجدوها قد أغلقت . فقال « كروهم عليّ » وخافهم على نفسه [إن هم خرجوا على ذلك] فقال « يا معشر الروم ، إني قد قلت لكم المقالة التي قلت لأنظر كيف صلابتكم على دينكم لهذا الأمر الذي قد حدث ، وقد رأيت منكم الذي أُسرّ به » . فوقعوا له سُجّداً ، وأمر بأبواب الدسكرة ففتحت لهم فانطلقوا . (أ هـ)

هذا ما كان من أمر هركليوس مع قواد جيشه ، فماذا كان جوابه على دحية ؟ يقول الرواة[1] إن هرقل قال لدحية بن خليفة حين قدم عليه بكتاب رسول الله ﷺ « ويحك . والله إني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل وأنه الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا ، ولكني أخاف الروم على نفسي ولولا ذلك لاتبعته ، فاذهب إلى صغاطر الأسقف فاذكر له أمر صاحبكم ، فهو والله أعظم في الروم مني وأجْوَز قولاعندهم مني ،فانظرما يقول لك » .

فجاءه دحية فأخبره بما جاء به رسول الله ﷺ إلى هرقل وبما يدعوه إليه ، فقال صغاطر « صاحبك والله نبي مرسل نعرفه بصفته ونجده في كتبنا باسمه » . ثم دخل فألقى ثيابا كانت عليه سودا ولبس ثيابا بيضا ثم أخذ عصاه [عصا الأسقفية] فخرج على الروم وهم في الكنيسة فقال :

« يا معشر الروم ، إنه قد جاءنا كتاب من أحمد يدعونا فيه إلى الله عز وجل وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن أحمد عبده ورسوله » .

فوثبوا عليه وثبة رجل واحد فضربوه حتى قتلوه . فلما رجع دحية إلى هرقل فأخبره الخبر قال « قد قلت لك إنا نخافهم على أنفسنا ، فصغاطر والله كان أعظم عندهم وأجوز قولا مني » .

(١) الطبري ٢/٦٥٠ عن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن اسحق عن بعض أهل العلم .

كان هذا هو جواب هراكليوس الأول ملك الروم على دحية بن خليفة الكلبي .

وفي روايات[1] أن هرقل كتب جوابه إلى النبي ﷺ فأتاه رسول هرقل وهو في تبوك ، ولكن هذه الروايات لم تفصح عن نص الرسالة ولا عن فحواها . ولكن الذي لا نرتاب فيه أن ذلك الملك لم يكف عن متابعة أخبار النبي ﷺ وانتشار دعوته وقيام دولته واتساع رقعتها واشتداد شوكتها ، ولا بد أيضا أنه كان يتابع أخبار حروب الردة ثم خروج المسلمين لغزو العراق مع مطلع العام الثاني عشر ، ولعل ذلك الغزو قد بث في نفسه مشاعر متناقضة ، فإن غزو المسلمين لدولة الفرس كان من شأنه أن يمنحه شيئا من الاطمئنان حيث لم يكن يتصور أن يغزو المسلمون القوتين العظيمتين معا في آن واحد ، ولكن اكتساح المسلمين العراق في تلك السهولة التي تمت بها لا بد قد أثار قلقه إلى أبعد مدى .

وفي تاريخ دمشق « وكان هرقل قد بعث رجلا من غسان إلى النبي ﷺ ينظر إلى[2] صفته وإلى علاماته ، إلى حمرة في عينيه وإلى خاتم النبوة بين كتفيه ، وسأله فإذا هو لا يقبل الصدقة . فوعى أشياء من حال النبي ﷺ ثم انصرف إلى هرقل يذكر ذلك له ، فدعا قومه إلى التصديق به فأبوا حتى خافهم على ملكه » . ذلك الذي ذكرت الروايات المشار إليها أنه حمل رسالة هراكليوس إلى النبي ﷺ .

(١) ابن عساكر ٤١٧/١ أخبرنا أبو القاسم بن الحصين، أنبا أبو علي بن المذهب،أنبا أبو بكر بن مالك،نا عبد الله بن احمد ، نا سريج بن يونس عن كتابه نا عباد بن عباد المهلبي عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن أبي راشد مولي لآل معاوية .
و ٤١٩/١ أخبرتنا أم المجتبي فاطمة بنت ناصر
قالت قرىء على ابراهيم بن منصور أخبركم أبو بكر بن المقرىء قالا أنا ابو يعلي الموصلي ثنا حوثرة بن أشرس ، نا حماد بن سلمة عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن أبي راشد .
٤٢٠/١ أخبرنا أبو القاسم بن الحصين ، أنا ابو علي بن المذهب ، أبنا أبو بكر بن مالك ، نا عبد الله بن أحمد ، نا أبو عامر بن حوثرة بن الأشرس ، أملاه عليّ قال أخبرني حماد بن سلمة عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن ابي راشد .

(٢) ابن عساكر ٤١٦/١ في سند إلى الواقدي عن ١٤ من شيوخ سماهم بأسمائهم ثم قال وغيرهم من الثقات .

وفي نفس الحين الذي كان هراكليوس يقابل أبا سفيان ويستقبل دحية ، كان شجاع بن وهب الأسدي يسلم رسالة النبي ﷺ إلى المنذر بن الحارث الغساني في دمشق « سلام[1] على من اتبع الهدى وآمن به . إني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبق لك ملكك » .

فقرأه شجاع عليهم فقال المنذر« من ينزع عني ملكي ؟ أنا سائر إليه ! »
فلما بلغ ذلك النبي ﷺ قال « باد ملكه »

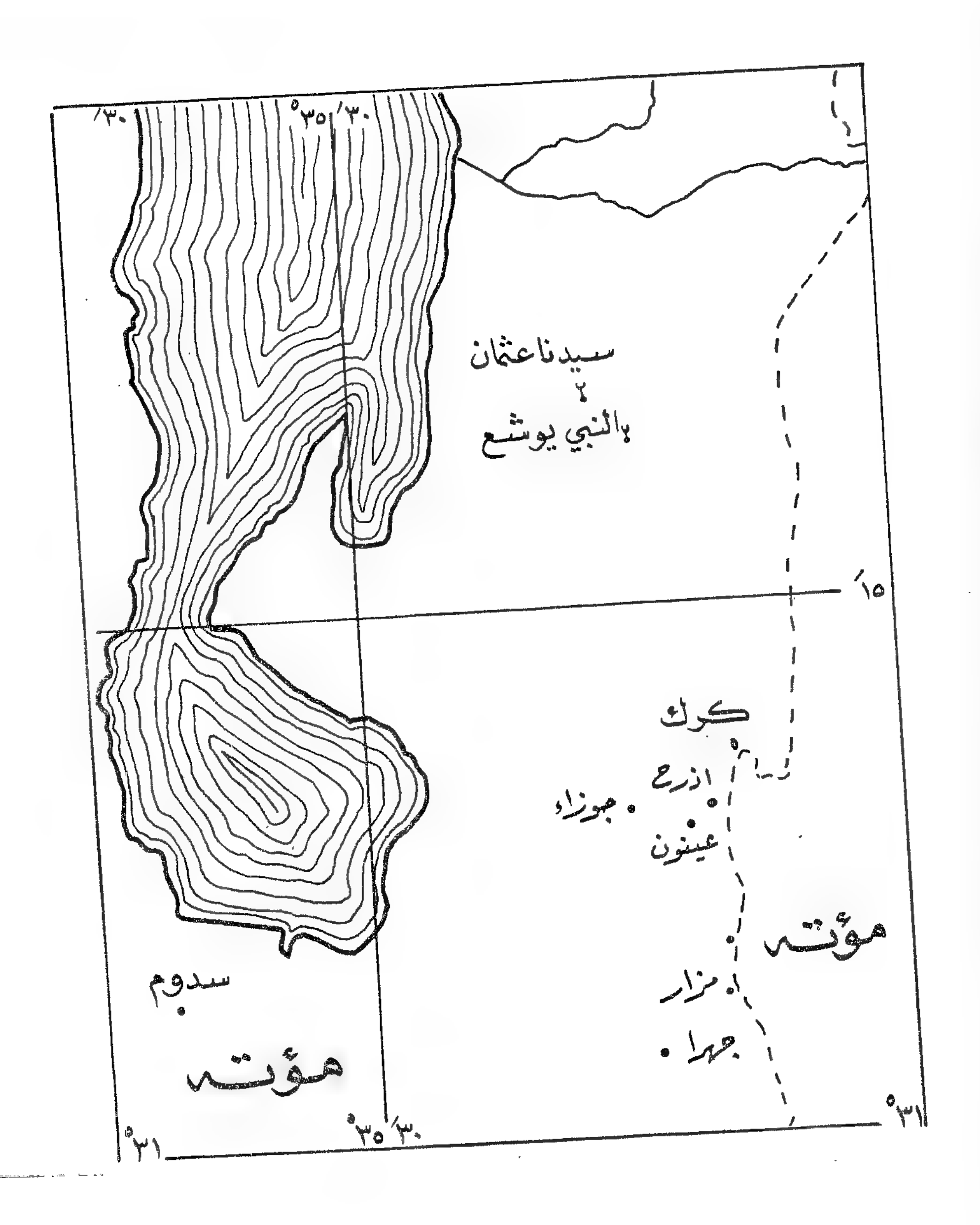
ولا نجد في الأخبار بعد ذلك أن الحارث سار إلى النبي أو أنه قام بأي عمل هجومي اللهم إلا وقوف عرب الشام إلى جوار الروم إبان الفتح .

خيبر وفدك

وفي بقية شهر المحرم[2] من العام السابع للهجرة خرج رسول الله ﷺ إلى خيبر ـ شمالي المدينة وتم تطهيرها من النفوذ اليهودي وانتزاع حصونها من قبضتهم . لم تكن معركة خيبر مع مشركي العرب ولا كانت مع الروم بالشام ولكن كان اليهود أعداء للمسلمين يغدرون بهم كلما سنحت لهم بادرة ولم يكن من المتصور أن يغزوا المسلمون الشام وهذه القلاع لليهود قائمة شمالي المدينة تعج بمقاتليهم . لقد كان فتح خيبر خطوة جادة وهامة نحو الشام .

وبسقوط خيبر قذف الله الرعب في قلوب يهود فدك فبعثوا إلى رسول الله ﷺ

(١) الطبري ٦٥٢/٢ عن محمد بن عمر الواقدي .
(٢) وضع الطبري فتح خيبر ضمن الأحداث الكائنة سنة سبع وقال خرج إليها رسول الله ﷺ في بقية المحرم [٩/٣] وذكر ابن هشام عن ابن اسحق أن الخروج إلى خيبر كان في بقية شهر محرم سنة سبع [السيرة النبوية ٣٢٨/٣] وذهب المقريزي إلى أن غزوة خيبر كانت في شهر صفر سنة سبع ـ يصادف يونية ٦٢٨ ـ وقال إن الجمهور على أنها كانت سنة سبع وأنه نُقل عن الإمام مالك انها كانت سنة ست وأخذ به ابن حزم [امتاع الأسماع ٣٠٩ ـ ٣١٠] وقال ابن سعد أنها كانت في جمادي الأولى سنة سبع [الطبقات ١/٢ ـ ٧٧]



خريطة رقم (٣) ـ مؤتة ـ المقياس ١ / ٣٥٠,٠٠٠

دون أن يزحف عليهم يصالحونه على أداء جزية له مقدارها نصف ثمار فدك ، فقبلها[1] منهم .

ذات أطلاح

ذات أطلاح موقع بأطراف الشام من وراء وادي القرى لم نستطع تحديد مكانه بدقة على الخريطة ، غير أنه بلا ريب كان في نواحي مؤته كما يفهم من الأحداث التالية . وقد ذكر الرواة أخبارها مقتضبة . وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة ثمان .

بعث[2] رسول الله ﷺ كعب بن عمير الغفاري[3] من كبار الصحابة في خمسة عشر رجلا حتى انتهوا إلى ذات أطلاح من أرض الشام فوجدوا جمعا كبيرا من قضاعة على رأسهم رجل اسمه سدوس فدعوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم

(١) ابن هشام ٣٥٣/٣ عن ابن اسحق .

(٢) السيرة النبوية ٦٢١/٤ ابن هشام عن ابن اسحق .

الطبري ٢٩/٣ عن الواقدي و١٥٧/٣ عن ابن اسحق .

ابن عساكر ٣٨٧/١ قال أخبرنا ابو بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري ، أنا ابو محمد الحسن بن علي الجوهري ، انا أبو عمر محمد بن العباس ، أنا عبد الوهاب بن أبي حية أنا محمد بن شجاع نا محمد بن عمر [يعني الواقدي] حدثني محمد بن عبد الله عن الزهري قال ...

وأخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي انا ابو الحسين بن النقور أنا أبو طاهر المخلّص ابنا رضوان بن أحمد نا احمد بن عبد الجبار نا يونس بن بكير عن ابن اسحق .

المقريزي ٣٤٣

الطبقات الكبرى ١/٢ ـ ٩٢ قال أخبرنا محمد بن عمر [الواقدي] حدثني محمد بن عبد الله عن الزهري .

الإصابة ٢٨٤/٣ ـ ٧٤٢٩ عن موسى بن عقبة عن ابن شهاب وأبو الأسود عن عروة . وذكره ابن اسحق عن عبد الله بن أبي بكر .

الاستيعاب ٢٧٦/٣

أسد الغابة ٤٨٥/٤ ـ ٤٤٧٢ .

(٣) نسبة إلى غفار بن مُلَيْل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ليسوا من قريش [جمهرة انساب العرب ١٨٦ و ٤٦٥] وكانوا من أعراب ما حول المدينة .

ورشقوهم بالنبل . فلما رأى ذلك أصحاب النبي ﷺ قاتلوهم أشد القتال حتى قتلوا ، فأفلت منهم رجل كان جريحا في القتلى ، وفي بعض الروايات أن الذي أفلت كان كعبا نفسه . فلما برد عليه الليل تحامل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره . وشق ذلك على رسول الله وهمّ بأن يبعث إليهم حملة تأديبية ولكن بلغه أنهم قد ساروا إلى موضع آخر . لم يكن بعث كعب وأصحابه للغزو وإنما كان للدعوة وقوبل الدعاة بالسيف والنبل حتى استشهدوا .

مـؤتة [1]

بسبب ما وقع لكعب بن عمير وصحبه وبسبب حادث آخر مشابه به أرسل النبي ﷺ هذا البعث إلى مؤتة . فقد أرسل النبي ﷺ الحارث بن عمير الأزدي أحد بني لِهْب إلى هرقل ، ولعله كان يحمل إليه رسالة أخرى بعد أن أبلغه دحية بن خليفة بما كان أمره معه ، وتذكر بعض الروايات أن الرسالة كانت إلى ملك بُصرى ، ونذهب إلى أنه لا خلاف ولعلنا نذكر أن رسالته السابقة إلى هرقل التي بعثها مع دحية إنما سلمها إليه عن طريق ملك بصرى أيضا . ولما نزل الحارث مؤتة تعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني وسأله « أين تريد ؟ » قال « الشام » . قال « لعلك من رسل محمد ؟ » قال « نعم ، أنا رسول رسول الله » . فأمر به فأوثق رباطا ثم قدمه فضرب[2] عنقه صبرا . ولم يقتل لرسول الله ﷺ مبعوث قط سواه فاشتد ذلك

(١) الطبري ٣٦/٣ عن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن اسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير .

السيرة النبوية ٣٧٣/٤ عن ابن اسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير .

امتاع الاسماع ٣٤٤

زاد المعاد ١٥٥/٢

ابن عساكر ٣٨٨/١ ـ ٤٠١ بأسانيد كثيرة .

(٢) ابن عساكر ٣٨٩/١ أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الباقي الفرضي ، ابنا ابو محمد الجوهري ، ابنا ابو عمر بن حيوة انا عبد الوهاب بن أبي حية ثنا محمد بن شجاع الثلجي نا محمد بن عمر [الواقدي] حدثني ربيعة بن عثمان عن عمر بن الحكم

عليه . ومعنى هذا مع حادث كعب بن عمير أن باب الدعوة إلى شمال شبه الجزيرة يُصفق بالسيف ، فلم يكن بد من فتحه ولو بالسيف .

ولكن كعادتهم يقول الكاتب فيليب[1] حِتّي « .. وكان الغرض من هذه الغارة على ما يبدو الانتقام لرسول قتله أحد الغساسنة وكان النبي قد بعث به إلى بصرى من أجل أن يعود منها إلى الذين اعتنقوا الإسلام مجددا بغنائم ذات بال بينها السيوف المشرفية المفضلة التي كانت تصنع في تلك النواحي » وجاء في الهامش [راجع ياقوت ..] ، فرجعنا إلى ياقوت في كتابه معجم البلدان ، وهو الذي يعنيه فيليب حتى فإذا به « وقيل مؤته من مشارف الشام وبها كانت تطبع السيوف وإليها تنسب المشرفية من السيوف » . ولم يذكر قط أن الرسول الذي قتل كانت مهمته الحصول على غنائم من هذه السيوف فلزم التنويه .

في شهر جمادي الأولى ٨ هـ سبتمبر ٦٢٩ م بعث النبي ﷺ هذا الجيش إلى الشام الذي اشتبك مع الروم في مؤتة من أرض البلقاء بالشام وهو موقع متقدم كثيرا إلى الشمال ويقع قريبا من البحر الميت إلى الشرق من قسمه الجنوبي على اثني عشر ميلا من أذرح . كان جيش المسلمين ثلاثة آلاف يقوده زيد بن حارثة فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب فإن أصيب فعبد الله بن رواحة . فلما نزلوا مُعان من أطراف الشام بلغهم أن هرقل قد نزل مآب أمامهم من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم وقد انضمت إليه العناصر العربية التي تداهنه من قبائل لخم وجُذام وبلقَيْن وبهراء وبليّ من قضاعة في مائة ألف أخرى يقودهم مالك بن رافلة أحد بني إراشة من بليّ . وأقام المسلمون في معان ليلتين يتداولون أمرهم ثم اختاروا أن يمضوا إلى المعركة ولو كانت غير متكافئة ، فإن الرجوع دون معركة كان من شأنه الإبقاء على مسالك الشمال مغلقة أمام المسلمين ، أما خوض المعركة ـ مهما كانت نتائجها ـ فمن شأنه أن يغير الموقف ، حين تعلم هذه القبائل أن المسلمين لن يسكتوا على قتل

(٢) تاريخ سورية ٤/٢

دعاتهم ومبعوثيهم وأنهم على استعداد أن يقاتلوا من أجل ذلك وأن يبعثوا إليهم جيوشهم فإن الأمر يختلف ولن يكون هرقل معهم بجيشه في كل مرة . لقد كان المسلمون ينشدون الشهادة فمضوا إليها .

فلما كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم ومن والاهم من العرب في مشارف من قرى البلقاء . ثم دنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية مؤتة وبها كانت المعركة ، واستشهد القادة[1] الثلاثة الذين عينهم رسول الله ﷺ حتى آلت القيادة إلى خالد بن الوليد فانسحب بالجيش انسحابا ناجحا موفقا ، وقتل في المعركة مالك بن[2] رافلة قائد العرب العملاء الموالين للروم ولم يرد أي ذكر يفيد تواجد هرقل بها بما يعني أنه لم يشهدها .

وكان أمر النبي ﷺ إلى المسلمين أن يذهبوا إلى حيث قتل رسوله إلى هرقل الحارث بن عمير وأن يدعوا القوم إلى الإسلام فإن أجابوا كان بها وإلا فالقتال . وأوصاهم « لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا ولا فانيا ولا متعزلا بصومعة ، ولا تقربوا نخلا ولا تقطعوا شجرة ولا تهدموا بناء » .

من رأي الكاتب « فيليب حِتّي »[3] أن تيماء وكذا غزوة تبوك بعدها لم تكن إلا محاولات تجريبية لما قدر أن يتم فيما بعد على يد خلفائه ، ولقد سبَقَنا الأستاذ العقاد إلى الرأي بأن هذه الحملة إلى مؤتة لم يكن يراد بها تحطيم قوة الدولة الرومانية أو فتح بلاد الشام الواقعة تحت سلطانها ، ويقول العقاد[4] بعد ذلك :

« قد يقع في الخاطر أن الروم علموا بسير جيش المسلمين فأعدوا هذه الجحافل الجرارة ثم سيروها إلى تخوم الدولة في مدى الأيام التي مضت من خروج المسلمين

(١) ما زال قبر جعفر بن أبي طالب بمؤتة حتى اليوم .
(٢) السيرة النبوية ٣٨١/٢ عن ابن اسحق .
(٣) تاريخ سورية ٥/٢
(٤) عبقرية خالد .

إلى بلوغهم أرض معان . وهو خاطر بعيد جد البعد لما هو معلوم من صعوبة جمع الجيوش وتسييرها في مثل هذه السرعة ولما يبدو من ضخامة هذه الجحافل بالقياس إلى القوة الإسلامية التي مهدوا للقائها ولم يكن ليفوتهم أن يعلموا بحقيقتها لو أنهم تلقوا الخبر بخروجها ممن رآها .

والأرجح أن هرقل إنما كان في جموعه هنالك في زيارة الشكر التي نذر لله أن يؤديها إذا هو ظفر بالفرس ورد منهم صليب الكنيسة الكبرى الذي حملوه معهم يوم فتحوا بيت المقدس . وربما كان هرقل قد بارح بيت المقدس في ذلك الحين وتخلفت جيوش ركابه لأداء هذه الفريضة معه أو للقيام بمراسم الحفاوة في تلك الزيارة التاريخية » .أ هـ .

ونحن إذا تأملنا هذا الرأي وجدنا أن هرقل كان في بيت المقدس ـ كما سبق أن بيّنا ـ في شهر ذي الحجة عام ٧ هـ حين وفد عليه دحية بن خليفة الكلبي في حين كانت موقعة مؤتة في شهر جمادي الأولى عام ٨ هـ ، بمعنى أنه كان بين الحدثين خمسة أشهر ، فهل مكث هرقل في بيت المقدس كل تلك الفترة في أدائه لصلاته ؟ لا نستطيع أن نقطع بنعم أو لا ، ولكن هذا وذاك يحتمل .

حين انهزم الروم أمام الفرس شمت كفار مكة بالمسلمين فنزل مطلع سورة الروم يتنبأ بانتصار الروم في بضع سنين ويتحدى المشركين بذلك فراهن أبو بكر إيمانا منه بما أنزل على محمد ﷺ . فلما حدث هذا وتم للروم النصر وكسب أبو بكر الرهان وطالت أعناق المسلمين ... يبعث المسلمون جيشهم ليلتحم بجيش الروم المنتصر في أوج قوته يحتفل بمجده وانتصاره ؟! كيف ولماذا ؟!

الذي نراه أن جيش المسلمين لم يخرج من المدينة إلى وجهته ليقاتل الروم ، وإنما كان هدفهم الدعوة أيضا وإبلاغ الرسالة . ولسائل أن يسأل « أيكون تبليغ الرسالة بجيش قوامه ثلاثة آلاف ؟ » ولكن جواب السؤال يكمن فيما وقع لكعب بن عمير الغفاري وصحبه وللحارث بن عمير الأزدي ولعل في أوامر الرسول ﷺ ما

يلقى هذا الضوء ويزيل شبهة الغموض ... أن يدعوا القوم إلى الإسلام فإن أجابوا فبها وإلا فالقتال . فتح الطريق المغلق كان هو الهدف وكان الذين أغلقوه قوم من قضاعة . ومن غسان وكان على هرقل والروم معه أن يعتبروا تعرض شرحبيل بن عمرو الغساني لحامل رسالة النبي إلى هرقل عدوانا على سلطانهم هم ولكن مرة أخرى يغمض هرقل عينيه عن الحق ويؤثر المجاملة ، وما دام عرب الشام يداهنونه على حساب الحق الذي يراه فليجاملهم أيضا على حساب الحق الذي تبين له وليكسبهم إلى جانبه من الآن للمعارك اللاحقة التي لا شك كان يتوقعها ويتنبأ بها ، وما ذكرناه عن الشام وماذا كانت تعني عند المسلمين لم يكن هرقل يجهله .

هذه واحدة .. والثانية أن المسلمين كانوا يؤمنون بالنصرانية وبنبوة عيسى بن مريم عليه السلام فإذا ما انهزم النصارى أمام المجوس فلا شك أن ذلك كان يسوء إخوانهم المسلمين ، وحين يرفضون رسالة النبي التي بعثها إليهم مع دحية ومع شجاع بن وهب فهذا شأنهم ولا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ، أما حين لا يقفون عند الرفض بل يتعدون ذلك إلى التهديد بغزو المدينة ثم لا يقفون عند حدود التهديد فيعدون على وفد النبي بذات أطلاح ويقتلون مبعوثه إلى هرقل ويكون الروم في ذلك وعملاؤهم من عرب الشام بعضهم لبعض ظهيرا في صدهم عن سبيل الله ، هنا وطبقا لشريعة الإسلام يجب الجهاد في سبيل الله وتطيب الشهادة . إن الإسلام دين الدعوة إلى الله وقد قوبل الدعاة بالقتل ، وفي منطق الإسلام ـ خلافا لمنطق المسيحية ـ أن السيف يقابله السيف ولهذا كان بعث مؤتة .

ذات السلاسل

بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص ـ وكان حديث عهد بالإسلام ـ على سرية إلى ماء يقال له السلسل بجذام من أرض بني عذرة وراء وادي القرى بينها وبين المدينة عشرة أيام [حوالي ٤٥٠ كيلومترا] وكان ذلك في شهر جمادي[1] الآخرة

(١) اجماع الرواة وخالف ابن اسحق فقال كانت قبل مؤتة .

عام ٨ هـ ـ اكتوبر ٦٢٩ ـ فقد علم[1] رسول الله ﷺ أن جمعا من قضاعة قد تجمعوا يريدون أن يدنوا من أطراف المدينة ، وكان ذلك تهديدا آثر رسول الله ﷺ أن يبادره ، فعقد لواء أبيض لعمرو بن العاص وجعل معه راية سوداء وبعثه في ثلاثمائة من وجوه المهاجرين والانصار فيهم عامر بن ربيعة وصهيب بن سنان وأبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وسعد بن أبي وقاص وأسيد بن حضير وعباد بن بشر وسلمة بن سلامة وسعيد بن عبادة وكان معهم ثلاثون فرساً ، وأمره أن يستعين بمن يمر به من قبائل بليّ وعذرة وبَلْقَين وكانت أم العاص بن وائل جدة عمرو امرأة من بليّ فأراد رسول الله أن يستألفهم بعمرو . فكان عمرو يسير الليل ويكمن النهار فلما اقترب من القوم علم أن جمعهم كثير فنزل قريبا منهم عشاء وهم شاتون في ليلة باردة ، فجمع أصحابه الحطب يريدون أن يصطلوا فمنعهم حتى لا يرى عدوهم قلتهم ، وشق ذلك عليهم حتى كلمه بعض المهاجرين فغالظه عمرو وقال له « قد أُمرتَ أن تسمع لي وتطيع ؟ » قال نعم . قال « فافعل » .

وبعث عمرو إلى رسول الله رافع بن مكيث يستمده فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في مائتين وعقد له لواء وبعث معه وجوه المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر ورافع بن عميرة الطائي وعوف بن مالك الأشجعي وأمره أن يلحق بعمرو وأن يكونا جميعا ولا يختلفا . فلما هم أبو عبيدة أن يؤم المسلمين قال عمرو « إنما قدمتَ عليّ مددا وليس لك أن تؤمني وأنا الأمير » . قال أبو عبيدة « لا ولكني على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه » وكان رجلا لينا سهلا حسن الخلق هينا عليه أمر الدنيا ، فقال عمرو « بل أنت مددلى » فقال أبو عبيدة « يا عمرو إن رسول الله

(١) الطبقات الكبرى ٢/١ ـ ٩٥

زاد المعاد ١٥٧/٢ قال الإمام احمد حدثنا محمد بن عدي عن داود عن عامر .

السيرة النبوية ٦٢٤/٢ .

الطبري ٣١/٣ .

ابن عساكر ٤٠٢/١ ـ ٤٠٧ بأحد عشر إسنادا .

امتاع الاسماع ٣٥٢ .

ﷺ قال لي لا تختلفا وإنك إن عصيتني أطعتك » قال « فإني الأمير عليك » قال « فدونك » . فصلى عمرو بالناس وقادهم .

وسار عمرو بالجملة حتى نزل بلاد بليّ ودوخها إلى أقصى أرضها وبلاد عذرة وبلقين وكان كلما انتهى إلى موضع بلغه أنه قد كان به جمع فلما سمعوا به تفرقوا ، ثم رجع عمرو وبعث عوف بن مالك الأشجعي بريدا إلى رسول الله بأخبارهم وعودتهم سالمين .

وبمناسبة هذه الغزاة ذكر الحافظ ابن عساكر حديثا عن رسول الله ﷺ قال : « إني لأؤمر الرجل على القوم وفيهم من هو خير منه لأنه أيقظ عينا وأبصر بالحرب » .

تبوك

كانت في أول رجب[1] ٩ هـ ١٥ اكتوبر ٦٣٠ م في حر[2] شديد بعد أربعة عشر شهرا من عملية مؤتة . فقد جاءت الأخبار من الشام أن الروم قد جمعوا جموعا كثيرة وأن هرقل قد دفع إلى جنده أرزاق عام مقدما وأن العناصر العربية الموالية له من قبائل لخم وجُذام وغسان وعاملة قد انضمت إليه وأن هذه الجموع قد تحركت فنزلت مقدماتها البلقاء وعسكروا بها في حين أقام هرقل بحمص . جاءت هذه الأخبار مع قوم من الأنباط كانوا يقدمون من الشام إلى المدينة بالدقيق الأبيض

(١) امتاع الأسماع ٤٤٦ و ٤٦٢

ابن عساكر ٤١٣/١ أخبرنا ابو بكر محمد بن عبد الباقي ، أنا أبو محمد الجوهري ، انبا ابو عمر بن حيويه نا عبد الوهاب بن أبي حية ، نا محمد بن شجاع ، نا محمد بن عمر [الواقدي] عن أربعة عشر راو ذكرهم بأسمائهم ثم قال وغير هؤلاء قد حدثني ممن لم أسم ثقات وقد كتبت كل ما حدثوني .

فتوح البلدان ٧١ .

(٢) بالرغم من أن تبوك كانت في شهر اكتوبر ٦٣٠ وذات السلاسل كانت في اكتوبر ٦٢٩ فإن الرواة يذكرون أن تبوك كانت في جو شديد الحرارة وذات السلاسل كانت في شتاء بارد ولعلها كانت من مفارقات الأحوال الجوية .

والزيت للاتجار . ويذكر المقريزي أن ذلك الخبر كان مدسوسا على المسلمين حيث قال « ... ولم يكن ذلك ، إنما ذلك شيء قيل لهم فقالوه » .. وكان [هرقل] في موضعه لم يتحرك ولم يوجف وكان الذي خُبِّر النبي ﷺ عن تعبئة أصحابه ودنوه ألى أدنى الشام باطلا ، لم يرد ذلك هرقل ولا همّ به » . ولعل المقريزي أن يكون قد أخذ ذلك عن رواية للواقدي[1] ، وقد أوردها ابن عساكر تكاد تكون بنصها .

وقد عرفت هذه العملية بغزوة العسرة لأن المسلمين كانوا في شدة من الحال وكان الجو حارا بالغ الحرارة . سار النبي بالمسلمين وكانوا ثلاثين ألفا فيهم عشرة آلاف فارس واثني عشر ألف بعير . واستبان حين بلغ تبوك أن ليس للروم جموع بها فأقام بضع عشرة ليلة وقيل عشرين ، بعث أثناءها خالد بن الوليد في أربعمائة وعشرين فارسا إلى دومة الجندل ففتحها ، وصالحه أهل أيلة [على خليج العقبة] وتيماء وجرباء وأذرُح على أداء الجزية ، وكذلك أهل مَقْنا وكانوا يهـودا . ثم رجع بأصحابه إلى المدينة فبلغها في رمضان ٩ هـ .

بعث أسامة

وبعث رسول الله ﷺ أسامة بن زيد بن حارثة على جيش المسلمين إلى حيث قتل أبوه وأصحابه في غزوة مؤته وأمره أن يغير على أُبْنَى[2] بالسراة ناحية البلقاء وقيل إلى آبل الزيت بنفس الجهة وعقد له لواء في آخر يوم من صفر ١١ هـ ٢٨ مايو ٦٣٢ م ، ولكن مرض الرسول ﷺ الذي قبضه الله إليه فيه فتأخر خروج الجيش حتى هلال ربيع الآخر ١١ هـ ٢٧ يونيه ٦٣٢ .

(١) ابن عساكر ٤١٦/١ .

(٢) امتاع الأسماع ٥٣٥ . ولم نستطع تحديد موقع أبنى ولا الحمقتين على الخريطة ، ولكنهما كما يبدو من تخوم مؤتة وقد حددنا موقع مؤتة .

ابن عساكر ٤٣١/١ قال اخبرنا ابو القاسم بن السمرقندي ، انا ابو الحسين بن النقدر ، انا ابو طاهر المخلص ، انا ابو بكر احمد بن عبد الله بن سيف بن سعيد ، نا السري بن يحيى بن السري ، نا شعيب بن ابراهيم التيمي ، نا سيف بن عمر التميمي ، نا هشام بن عروة عن أبيه عروة .

تلك البعوث للدعوة أو لفتح أبو ابها لم تكن خبطا في الهواء ، فقد كان الاسلام قد خطا خطا على طريق الشمال ـ كما كان يسلك كل فج في شبه الجزيرة ـ فدخل قلوب البدو فيما بين المدينة حتى ما نعرف اليوم باسم شرقي الأردن . أسلمت بطون من قبائل تلك البقاع ،هذا مع غزو خيبر ومؤتة وتبوك نشر راية الإسلام هناك حتى أقام للمسلمين سلطانا سياسيا رغم تبعية قطاع كبير من تلك الجهات رسميا للدولة البيزنطية .

ذكرنا أن أهل تبالة وجَرَش قد أسلموا من غير قتال فأقرهم رسول الله ﷺ ولكن كان ما زال بها من غير المسلمين فجعل على كل حالم بتبالة وجرش دينارا وولى أبا سفيان بن حرب على جُرَش . وأسلمت بطون من قضاعة ، وكانت قضاعة شعبا[1] عظيما لهم ملك ما بين الشام والحجاز إلى العراق كما كانوا في أيلة وجبال الكرك إلى مشارف الشام ، وكان الروم قد استعملوهم على بادية العرب هناك . وقد عرف عنهم أنهم كلبيين في الحروب أشداء ، وانتشرت النصرانية في بعضهم كما أسلمت بطون منهم فولى عليهم رسول الله ﷺ :

١ ـ امرؤ القيس بن الأصبغ الكلبي من بني عبد الله ، على بني كلب من قضاعة ،

٢ ـ وعمرو بن الحكم على القَيْن من بهراء من قضاعة وقد كانت منازل بهراء شمالي منازل بلى من ينبع إلى عقبة أيلة مجاورين للبحر الأحمر . وقد انحازت بهراء في غزوة مؤتة إلى هرقل ٨ هـ ثم قدم وفد منهم عام ٩ هـ من ثلاثة عشر رجلا إلى النبي .

٣ ـ ومعاوية بن فلان الوائلي على سعد هذيم من بني أسلم من قضاعة أيضا .

فلما كانت الردة :

(١) معجم القبائل العربية القديمة والحديثة .

ارتد وديعة[1] الكلبي فيمن آزره من بنيْ كلب، وثبت امرؤ القيس على إسلامه. وارتد زُمَيْل بن قطبة القيني فيمن انضم إليه من بني القين وبني عمرو، وثبت عمرو بن الحكم على إسلامه.

وارتد معاوية بن فلان فيمن آزره من سعد هذيم.

والأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله.

فكتب أبو بكر إلى امرىء القيس بن فلان وهو جد السيدة سكينة ابنة الحسين بن علي، فسار إلى وديعة ليتولى أمره.

وكتب إلى عمرو بن الحكم فتصّدى لزميل.

كما كتب إلى معاوية العذري [أو العدوي] في شأن ردة معاوية بن فلان فأقام له.

وسار أسامة بن زيد بجيشه ثلاثة آلاف يسرع السير على طريق ذي المروة ووادي القرى في اتجاه أُبنى وآبل الزيت من نواحي مؤته، حتى إذا توسط مواطن قضاعة توقف يسيرا وبعث فرسانه لينهضوا الثابتين منهم على إسلامهم ويعينوهم على من ارتد. وهرب المرتدون إلى مكان بعيد .. إلى دومة الجندل فاجتمعوا بها حول وديعة الكلبي. لم تكن دومة الجندل من أهداف جيش أسامة ولا على طريقه، فما أن عادت إليه خيوله حتى مضى بجيشه إلى الحمقتين فأغار عليها وكان بها بنو الضُّبَيْب من جذام وبنو خيليل [أو حيليل أو حليل] من لخم فهزم مَنْ هناك حتى آبل في إغارة شديدة سريعة وسبى وحرق بالنار منازلهم وحرثهم[2] ونخلهم حتى صارت أعاصير من الدخان وأجال الخيل في نواحيهم وقضى يومه في تعبئة ما أصابوا من غنائم ثم لم يقم وإنما كر راجعاً من مساء يومه حتى قدم وادي القرى في تسع ليال

(١) الطبري ٢٤٣/٣ عن عبيد عن عمه عن سيف بن عمر.
ومن ش س عن أبي عمرو عن زيد بن أسلم.
ابن عساكر ٤٣٢/١ عن سيف بن عمر بنفس إسناد الطبري.
(٢) الطبقات الكبرى ١٣٧/١/٢

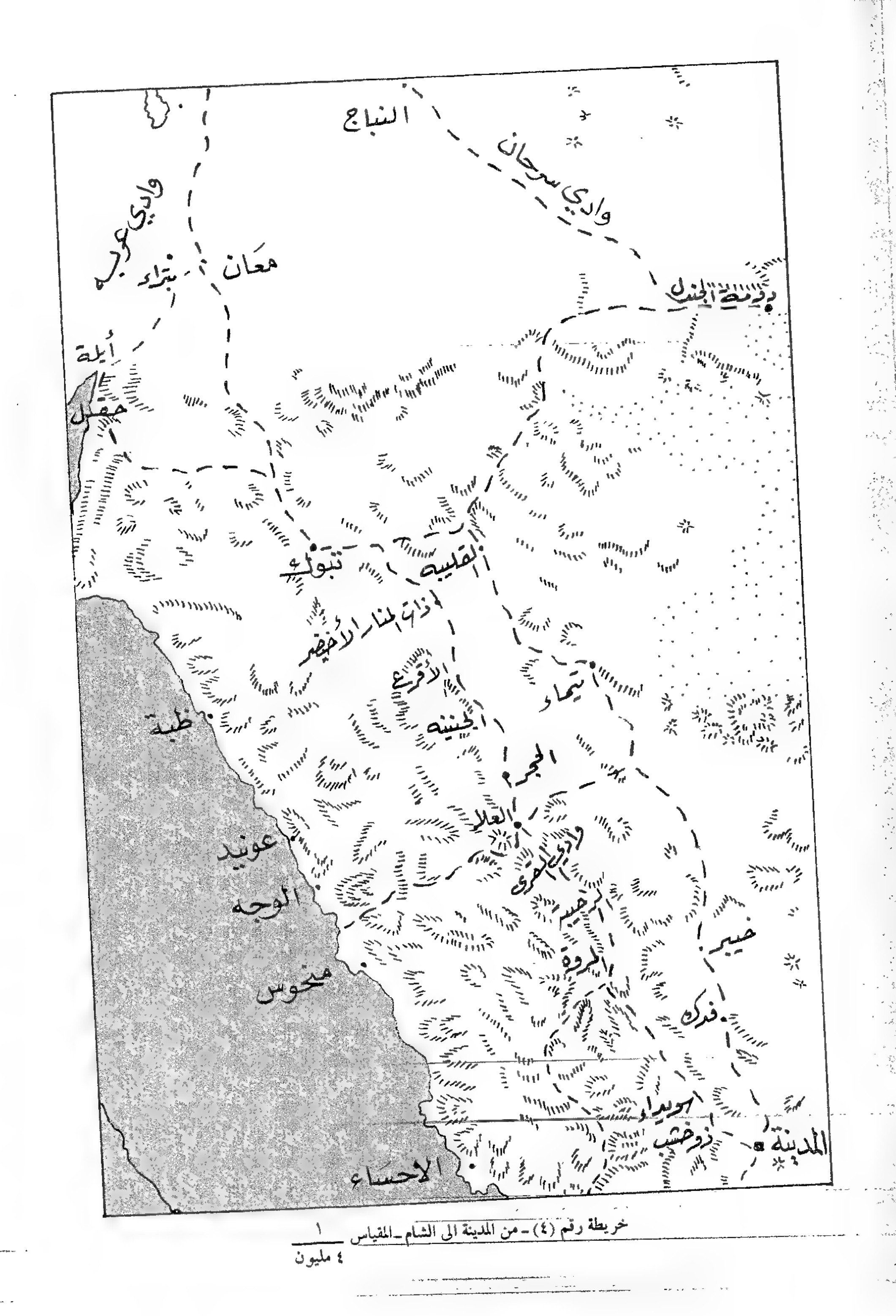
ثم قدم المدينة سالما غانما وقد غاب عنها خمسة وثلاثين يوماً وقيل غاب شهرين وأياما. ونظرا للظروف التي سادت حينذاك بانتشار الردة وتهديد المدينة فإننا نميل الى أن أسامة كان ولا بد حريصاً علىْ سرعة العودة بحيث نرجح القول الأول.

وكان هرقل بحمص حين بلغه ما صنع أسامة بعملائه من العرب النازلين بأطراف امبراطوريته، فدعا بطارقته وقال لهم « هذا الذي حذرتكم فأبيتم أن تقبلوه مني، قد صارت العرب تأتي من مسيرة شهر فتغير عليكم ثم تخرج من ساعتها ولم تتكلم [تجرح] » وأشار أخوه ثيودورس [والمصادر العربية تدعوه تذاق] بأن يبعث حامية ترابط[1] بالبلقاء. وأخذ هركليوس بمشورة ثيوذورس فدعم قواته على الحدود وبعث قوة ترابط بالبلقاء فلم تزل هناك حتى قدمت جيوش الفتح. ولسنا نشك في أن هرقل قد أيقن حينذاك أن المسلمين لن يكفوا حتى ينتزعوا الشام من يده.

واضح مما سبق أن جيش أسامة لم يقض على ردة بطون قضاعة ولم يكن ذلك من أهدافه وواجباته، ولكنه حقق هدفا ثانويا جليل الأثر ولعله قد كلف به حين خرج من المدينة حيث كان ضرورة حربية يلزمه القيام بها، ذلك هو إجلاء مرتدي قضاعة عن طريق الشام، فلو أنهم بقوا في مواطنهم لازداد الخطر على المدينة بصورة مخيفة، وقد اجتمع مرتدو عبس وذبيان وكانت منازلهم إلى الشمال من المدينة - حين ابتعد أسامة بجيشه وزحفوا يريدون غزوها وكانت قضاعة من ورائهما هي العمق الاستراتيجي لهما، فلو أن قضاعة قد آزرت عبسا وذبيان في زحفهما لساء مركز المدينة أيما سوء.

لم يذكر الرواة ذلك من الأسباب التي دعت أبا بكر أن يصر على إنفاذ بعث أسامة حين نصحه أصحابه أن يبقيه بالمدينة خوفا من تهديد المرتدين. ولكنه احتمال

(١) ابن عساكر ٤٣٩/١ أخبرنا أبو بكر الفرضي، أنا أبو محمد الجوهري، أنا ابو عمر بن حيوية، ثنا عبد الوهاب بن أبي حية، نا محمد بن شجاع نا الواقدي، قال فحدثني هشام بن عاصم غن المنذر بن جهم.



خريطة رقم (٤) ـ من المدينة الى الشام ـ المقياس ١ / ٤ مليون

لا نراه بعيدا على فكر لماح في الحرب مثل فكر أبي بكر ، فكان جوابه « أنا أحبس جيشا بعثهم رسول الله ﷺ ؟! لقد اجترأت على أمر عظيم ! والذي نفسي بيده لأن تميل عليّ العرب أحب إليّ من أن أحبس جيشا بعثهم رسول الله ﷺ . امض يا أسامة في جيشك الذي أمرت به ثم اغز حيث أمرك رسول الله ﷺ من ناحية فلسطين وعلى أهل مؤتة فإن الله سيكفي ما تركت[1] ... » وكأن أبا بكر لم يكن مجرد متأدب مع رسول الله ﷺ بإنفاذ أمره بعد وفاته ، ولكنه أراد أن يثبت للصحابة أن الصواب كان فيما رأى رسول الله والخير فيما أمر به . إن مضى أسامة نحو البلقاء من حدود الشام لا بد كان له أثره في تخويف بطون قضاعة التي ارتدت من أن تفكر في الزحف جنوبا ، فإنهم لو فعلوا لكان جيش أسامة خطرا داهما خلف ظهورهم يعود إليهم في أي وقت ، ولذلك كان رد فعلهم أنهم اختاروا الفرار إلى بعيد ... إلى دومة الجندل .

لقد كان بعث أسامة حلقة تربط بين العمليات الحربية في عصر النبوة وبين عمليات القضاء على الردة في عهد أبي بكر ، بل وأبعد من ذلك كان حلقة يربط هذا وذاك بما تلى من عمليات استهدفت فتح الشام .

---

(١) ابن عساكر ٤٣٣/١ حدثنا أبو الحسن علي بن المسلم الفقيه لفظا ، أنا ابو القاسم علي بن محمد بن أبي العلاء أنا ابو محمد عبد الله بن عثمان بن القاسم ، أنا ابو القاسم علي بن يعقوب بن أبي العقب ، انا ابو عبد الملك احمد بن إبراهيم القرشي ، نا محمد بن عائذ ، نا الوليد بن مسلم عن عبد الله بن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة .

خمسة جيوش

التجهيز لفتح الشام

كانت وفاة رسول الله ﷺ في شهر ربيع الأول ١١ هـ ، واستغرقت عمليات القضاء على الردة ذلك العام حتى منتهاه . ومع الخيوط الأولى للعام الثاني عشر من الهجرة كان خالد بن الوليد يزحف في ثمانية عشر ألفا إلى العراق . أما أحداث فتح الشام فقد بدأت بعد ذلك بقليل . كانت جيوش المسلمين بالعراق تسير من نصر إلى نصر تقتطع أجزاءه من أيدي أكاسرة فارس من بني ساسان . وجاءت رسل خالد بن الوليد تترى من العراق إلى أبي بكر بالمدينة بانتصارات المسلمين هناك .. جاء زر بن كليب بانتصارهم في ذات السلاسل [محرم ١٢ هـ] ثم جاء سعيد بن النعمان بانتصارهم في المذار [أول صفر ١٢ هـ] ثم جاء جندل العجلي في انتصارهم بالولجة [٢٢ صفر ١٢] وبانتصارهم في أليس [٢٥ صفر ١٢ هـ] ثم جاء شرحبيل بن حسنة[1] بانتصارهم في أمغيشيا [٢٨ صفر ١٢] وبانتصار آخر فاق كل

(١) لم يذكر الرواة أن شرحبيل بن حسنة جاء بفتح أمغيشيا والحيرة . ولكن روى سيف عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد [الطبري ٣٩١/٣] أن شرحبيل قدم وافدا من عند خالد بن الوليد فندب أبو بكر معه الناس . وباستعراض يوميات حملة خالد بالعراق [الطريق إلى المدائن] نجد الرسل الذين بعثهم خالد في المناسبات السابقة ولا بد أن شرحبيل قد وفد في مناسبة تالية وأولها فتح الحيرة وهي التي نرى توقيتها مناسبا لتوقيت عمليات الشام ، وما بعد ذلك من انتصارات خالد بالعراق متأخرة زمنيا عن أن تدرك بشرحبيل عمليات الشام في وقت يتلاءم مع أحداثها إذ أن أولها بعد الحيرة هو فتح عين التمر في ١١ رجب بعد أربعة أشهر من فتح الحيرة .

ما سبق وهو فتح الحيرة في شهر ربيع الأول ١٢ هـ . وفي تقديرنا أن شرحبيل قدم المدينة في ٢٧ ربيع الأول ١٢ هـ ١١ يونية ٦٣٣ . ولم تقنع همة أبي بكر والمسلمين معه بذلك وإنما اتجهت أنظارهم إلى القوة العظمى الثانية التي كانت تقتسم السيطرة على العالم المعروف حينذاك مع الفرس ... إلى الروم .

رؤيا شرحبيل (١)

وكان أبو بكر يفكر في فتح الشام قبل أن يطلع على ذلك أحدا ، وجاءه شرحبيل بن حسنة فجلس إليه فقال « يا خليفة رسول الله ﷺ ، أتحدث نفسك أنك تبعث إلى الشام جندا ؟ »

فقال « نعم ، قد حدثت نفسي بذلك وما أطلعت عليه أحدا ، وما سألتني عنه إلا لشيء » . قال « أجل . إني رأيت يا خليفة رسول الله فيما يرى النائم كأنك تمشي في الناس فوق خَرْشَفَة من الجبل [الأرض الغليظة لا يستطاع أن يُمشى فيها] ، ثم أقبلتَ تمشي حتى صعدت قُنَّة من القنان العالية فأشرفت على الناس ومعك أصحابك . ثم إنك هبطت من تلك القنان إلى أرض سهلة دمثة فيها الزرع والقرى والحصون . فقلت للمسلمين : شنوا الغارة على أعداء الله وأنا ضامن لكم بالفتح والغنيمة . فشد المسلمون وأنا فيهم معي راية . فتوجهتُ بها إلى أهل قرية فسألوني الأمان فأمّنتهم ، ثم جئت فأجدك قد انتهيت إلى حصن عظيم ففتح الله لك وألقوا إليك السلم ، ووضع الله لك مجلسا فجلستَ عليه . ثم قيل لك يفتح الله عليك وتُنصر فاشكر ربك واعمل بطاعته . ثم قرأ « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » . ثم انتبهت » .

(١) ابن عساكر ٤٤١/١ أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، انا ابو علي محمد بن محمد بن احمد بن المسلمة ، أنا أبو الحسن علي بن احمد بن عمر بن حفص الحمّامي ، انا ابو علي محمد بن علي بن احمد بن الحسن بن الصواف ، نا ابو محمد الحسن بن علي القطان ، نا اسماعيل بن عيسى العطار حدثني ابو حذيفة اسحق بن بشر القرشي ، نا محمد بن اسحق .

فقال له أبو بكر « نامت عيناك . خيرا رأيت وخيرا يكون إن شاء الله . ثم قال : بشّرت بالفتح ونَعَيْت إليّ نفسي » . ثم دمعت عينا أبو بكر وقال « أما الخرشفة التي رأيتنا نمشي عليها حتى صعدنا إلى القنة العالية فأشرفنا على الناس ، فإنا نكابد من أمر هذا الجند والعدو مشقة ويكابدونه . ثم نعلو بعدُ ويعلو أمرنا . وأما نزولنا من القنّة العالية إلى الأرض السهلة الدمثة والزرع والعيون والقرى والحصون فإنا ننزل إلى أمر أسهل مما كنا فيه من الخصب والمعاش . وأما قولي إلى المسلمين شنوا على أعداء الله الغارة فإني ضامن لكم الفتح والغنيمة فإن ذلك دُنُوّ المسلمين إلى بلاد المشركين وترغيبي إياهم على الجهاد والأجر والغنيمة التي تقسم لهم وقبولهم . وأما الراية التي كانت معك فتوجهت بها إلى قرية من قراهم ودخلتها فاستأمنوا فأمنتهم فإنك تكون أحد أمراء المسلمين ويفتح الله على يديك . وأما الحصن الذي فتح الله لي فهو ذلك الوجه الذي يفتح الله لي . وأما العرش الذي رأيتني عليه جالسا فإن الله يرفعني ويضع المشركين ، وقال الله تبارك وتعالى « ورفع أبويه على العرش » ، وأما الذي أمرني بطاعة الله وقرأ عليّ السورة فإنه نعى إليّ نفسي ، وذلك أن النبي ﷺ نعى الله إليه نفسه حين نزلت هذه السورة وعلم أن نفسه قد نعيت إليه » . ثم سالت عيناه فقال « لآمرن بالمعروف ولأنهين عن المنكر ولأجهدن فيمن ترك أمر الله ولأجهزن الجنود إلى العادِلِين [المشركين] بالله في مشارق الأرض ومغاربها حتى يقولوا الله أحد أحد لا شريك له ، أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون . هذا أمر الله وسنة رسول الله ﷺ ، فإذا توفاني الله عز وجل لا يجدني الله عاجزا ولا وانيا ولا في ثواب المجاهدين زاهدا » .

يقول أصحاب هذه الرواية : فعند ذلك أمّر الأمراء وبعث إلى الشام البعوث .

وللأزدي (١) رواية عن هذه الرؤيا ، قال : قبل أن ينطلق يزيد من المدينة جاء شرحبيل بن حسنة إلى أبي بكر فجلس إليه ثم قال « يا خليفة رسول الله ، رأيت

(١) الأزدي ١٤ حدثني محمد بن يوسف عن ثابت البناني عن أنس بن مالك .

فيما يرى النائم كأنك في جماعة من المسلمين كثيرة وكأنك بالشام ونحن معك ، إذ استقبلنا النصارى بصُلُبها والبطارقة بكتائبها وانحطوا عليك من كل حدب وشرف كأنهم السيل ، فاعتصمنا بلا إله إلا الله وقلنا حسبنا الله ونعم الوكيل ، ثم نظرنا فإذا نحن بالقرى والحصون من ورائهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم . وإذا نحن برجل قد أتانا حتى نزل على شاهقة في الجبل ، ثم أخرج كفه وأصابعه فإذا هي نار ، ثم إنها خَبَت فصارت رمادا ، ثم نظرنا إلى ما استقبلنا من نصاراهم وبطارقهم وجموعهم فإذا الأرض قد ساخت بهم ، فرفع الناس رؤوسهم وأيديهم إلى الله ربهم يحمدونه ويمجدونه ويشكرونه . ثم انتبهت » . فقال له أبو بكر « نامت عينك . هذا بشرى من الله عز وجل وهو الفتح إن شاء الله لا شك فيه وأنت أحد أمرائي ، فإذا سار يزيد بن أبي سفيان فأقم ثلاثا ثم تيسر للمسير » .

في مجلس الشورى

٣٠ ربيع الأول ١٢ ـ ١٤ يونيه ٦٣٣

دعا أبو بكر[1] مستشاريه عمر وعثمان وعليا وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبا عبيدة بن الجراح وعبد الله بن أبي أوفى الخزاعي ووجوه المهاجرين والأنصار الذين شهدوا بدرا ومن غيرهم فاجتمعوا لديه ، فقال لهم :

« إن الله تبارك وتعالى لا تحصى نعمه ولا تبلغ الأعمال جزاءها ، فله الحمد كثيرا على ما اصطنع عندكم من جمع كلمتكم ، وأصلح ذات بينكم وهداكم إلى

(١) الأزدي ١ حدثني الحارث بن كعب عن عبد الله بن أبي اوفى الخزاعي [وكانت له صحبة ، وكان شاهدا] .

ابن عساكر ٤٤٣/١ قال أخبرنا ابو القاسم بن السمرقندي ، أنا ابو علي بن المسلمة ، انا ابو الحسن الحمامي ، انا ابو علي بن الصواف ، نا أبو محمد القطان ، نا اسماعيل العطار ، حدثني اسحق بن بشر ، نا ابن اسحق عن الزهري ، حدثني ابن كعب ، عن عبد الله بن أبي أوفى الخزاعي قال .
دخل حديث بعضهم في بعض .

الإسلام ونفى عنكم الشيطان ، فليس يطمع في أن تشركوا بالله ولا أن تتخذوا إلها غيره . فالعرب اليوم أمة واحدة بنو أب وأم .

وقد أردت أن استنفركم إلى الروم بالشام ليؤيد الله المسلمين ويجعل الله كلمته العليا مع أن للمسلمين في ذلك الحظ الوافر ، فمن هلك هلك شهيدا وما عند الله خير للأبرار ، ومن عاش عاش مدافعا عن الدين مستوجبا على الله عز وجل ثواب المجاهدين .

هذا رأيي الذي رأيت فَلْيُشِرِ عليّ كل امرىء بمبلغ رأيه » .

فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي ﷺ ثم قال :

« الحمد لله الذي يخص بالخير من يشاء من خلقه . والله ما استبقنا إلى شيء من الخير إلا سبقتنا إليه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . قد والله أردت لقاءك لهذا الرأي الذي ذكرت فما قضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرتَه الآن ، فقد أصبت أصاب الله بك سبل الرشاد . سرِّب إليهم الخيل في إثر الخيل وابعث الرجال تتبعها الرجال والجنود تتلوها الجنود ، فإن الله عز وجل ناصر دينه ومعز الإسلام وأهله ومنجز ما وعد رسوله » .

وقام عبد الرحمن بن عوف فقال :

« يا خليفة رسول الله ، إنها الروم وبنو الأصفر ، حد حديد وركن شديد ، والله ما أرى أن تقحم الخيل عليهم إقحاما ولكن تبعث الخيل فتغير في أدنى أرضهم ، ثم تبعثها فتغير ثم ترجع إليك ، فإذا فعلوا ذلك مرارا أضرّوا بعدوِّهم وغنموا من أرضهم فقووا بذلك على قتالهم . ثم تبعث إلى أقاصي أهل اليمن وإلى ربيعة ومضر فتجمعهم إليك ، فإن شئت عند ذلك غزوتهم بنفسك ، وإن شئت بعثت على غزوهم غيرك »

ثم جلس وسكت المجتمعون يقلبون الأمر ، فهذان رأيان أحدهما لعمر بن الخطاب بأن يبعث وحدات من الفرسان ومن المشاة في حشد متلاحق ، لقد كان هذا هو أسلوب عمر الذي اتبعه بعد ذلك في فتوح العراق حين آل الأمر إليه ، أما عبد الرحمن بن عوف فله رأي آخر لعله قاسه على ما كان في العراق أيضا ، فإن الحملات التي اتجهت إلى العراق لفتحه قد سبقتها إغارات على أطرافه[1] قام بها المثنى بن حارثة الشيباني وسويد بن قطبة الذهلي أكسبت المسلمين معرفة بالأرض ومرانا على أساليب قتال الفرس واجتراءا نفسيا عليهم ، فهو يريد أن يبدأ في فتح الشام بخطوات مماثلة قبل الاقتحام على امبراطوريتها من بأسها الشديد مالها ، أن يبدأ بإغارات على أطراف الشام قبل أن يدفع بحشده الكبير إلى أعماقها .

وعاد أبو بكر يفتح باب المناقشة

« ماذا[2] ترون ، رحمكم الله ؟ »

وقام عثمان بن عفان رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ثم قال « رأيي أنك ناصح [مخلص] لأهل هذا الدين ، عليهم شفيق ، فإذا رأيت رأيا علّمتهم رشدا وصلاحا وخيرا فاعزم على إمضائه غير ظنين [تتناوله الظنون] ولامتهم » .

فقال طلحة والزبير وسعد وأبو عبيدة وسعيد بن زيد والحاضرون

« صدق عثمان فيما قال : ما رأيت من رأي فأمضه فإنا سامعون لك مطيعون لا نخالف أمرك ولا نتهم رأيك ولا نتخلف عن دعوتك » .

ونظر أبو بكر فرأى عليا صامتا فصاح به

« ما ترى يا أبا الحسن ؟

(١) الطريق الى المدائن ٢٠٥ و ٢١٩ .

(٢) الأزدي بالإسناد السابق .

ابن عساكر ١/٤٤٤ باسناده السابق .

قال « أرى أنك مبارك الأمر ميمون النقيبة ، وأنك إن سرت إليهم بنفسك أو بعثت إليهم نُصرت إن شاء الله »

فقال أبو بكر « بشرك الله بخير ، فمن أين علمت هذا ؟ »

قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا يزال هذا الدين ظاهرا على كل من ناوأه حتى يقوم الدين وأهله ظاهرين » .

قال أبو بكر : سبحان الله ، ما أحسن هذا الحديث . لقد سررتني سرك الله في الدنيا والآخرة » .

وبصرف النظر عن وجهات النظر التي عرضت للتخطيط لفتح الشام ـ ولعل أبا بكر لم يكن يسأل عن ذلك ـ فقد خرج بالنتيجة التي كان يريدها وهي موافقة مستشاريه على مبدأ فتح الشام في حين كانوا قد بدأوا بالفعل فتح العراق .

دعوة الى التطوع

وانفض الاجتماع فخرج أبو بكر إلى الناس وقام فيهم فحمد الله وأثنى عليه وذكره بما هو أهله وصلى على النبي ﷺ ثم قال

« أيها الناس ، إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام وأعزكم بالجهاد ، وفضلكم بهذا الدين على أهل كل دين . فتجهزوا عباد الله إلى غزو الروم بالشام ، فإني مؤمر عليكم أمراء وعاقد لهم عليكم ، فأطيعوا ربكم ولا تخالفوا أمراءكم . ولتحسن نيتكم وسيرتكم وأطعمتكم ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » لقد كان أبو بكر في الاجتماع الأول متبعا لقوله تعالى « وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله » وكان في خطابه إلى الناس يأمرهم بقوله تعالى « وأطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم » .

وسكت الناس . يقول الرواة « فوالله ما أجابه أحد هيبة لغزو الروم لما يعلمون من كثرة عددهم وشدة شوكتهم » . فقام عمر بن الخطاب رحمه الله ورضوانه

عليه فقال « يا معشر المسلمين ، ما لكم لا تجيبون خليفة رسول الله إذا دعاكم لما يحييكم ؟ .. أما إنه لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لابتدرتموه ! »

فقام عمرو بن سعيد فقال « يا ابن الخطاب أولنا تضرب الأمثال أمثال المنافقين ؟ فما منعك مما عبت علينا فيه أن تبتدىء به ؟ »

فقال عمر « إنه يعلم أني أجيبه لو يدعوني وأغزو لو يُغْزيني » .
قال عمرو بن سعيد « ولكن نحن لا نغزو لكم ، إن غزونا إنما نغزو لله » .
فقال عمر « وفقك الله فقد أحسنت » .

فقال أبو بكر لعمرو « اجلس رحمك الله فإن عمر لم يرد بما سمعت أذى مسلم ولا تأنيبه ، إنما أراد بما سمعت أن ينبعث المتثاقلون إلى الأرض إلى الجهاد » .

فقام خالد بن سعيد فقال «صدق خليفة رسول الله ﷺ ، اجلس ابن أخي فجلس عمرو واستمر خالد يقول « الحمد لله الذي لا إله إلا هو الذي بعث محمدا ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، فإن الله منجز وعده ومعز دينه ومهلك عدوه » . ثم أقبل على أبي بكر فقال « نحن غير مخالفين لك ولا متخلفين عنك وأنت الوالي الناصح الشفيق ، ننفر إذا استنفرتنا ، ونعطيك إذا أمرتنا ونجيبك إذا دعوتنا » ..

فسر أبو بكر وقال له « جزاك الله من أخ وخليل خيرا ، فقد أسلمتَ مرتغبا وهاجرتَ محتسبا وهربتَ بدينك من الكفار لكي يطاع الله ورسوله وتكون كلمة الله هي العليا .. وأنت أمير الناس فتيسرّه رحمك الله » . [أي تيسر للخروج وتجهز له] .

التجمع في معسكر

وتجهز خالد بن سعيد بأفضل العدة ثم رجع إلى أبي بكر وعنده المهاجرون والأنصار في اكبر جمع ، فسلم على أبي بكر ثم قال لـه « والله لئن أخرُّ من خالق [الجبل المرتفع] أو تخطفني الطير في الهواء بين السماء والأرض أحب إليّ من أن

أبطىء عن دعوتك أو أخالف أمرك ، فوالله ما أنا في الدنيا راغب ولا على البقاء فيها بحريص . وإني أشهدكم أني وإخوتي وفتياني ومن أطاعني من أهلي حبيس في سبيل الله ، نقاتل المشركين أبدا حتى يهلكهم الله أو نموت عن آخرنا » .

فقال له أبو بكر خيرا ودعا المسلمون له بالخير وقال له أبو بكر « إن ما نرجو أن تكون من نصحاء الله في عباده بإقامة كتابه واتباع سنة نبيه ﷺ » .

قد يتبادر إلى بعض الأذهان أن تفاصيل ذلك الحوار بين الخليفة وبين أصحابه زائد عن حاجة البحث ، ولكن عمدنا إلى إيراده حتى نحس تلك الروح التي كانت تسود بينهم وحتى نواكبهم في خطواتهم ومسيرتهم ومساراتهم من أول الموضوع إلى آخره ، لنحس نفس أحاسيسهم ونشعر ذات مشاعرهم ونعيش معهم أيام مجدهم .

لواء خالد بن سعيد[1] ٢ ربيع الآخر ١٢ هـ ١٦ يونيه ٦٣٣

خرج خالد بن سعيد وإخوته وغلمانه ومن تبعه من أهل بيته ، فكان[2] ومن

(١) كان خالد بن سعيد أمويا بالنسب فهو خالد بن سعيد بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي . وأمه كانت أم خالد بنت حباب بن عبد ياليل بن ناشب بن غيرة من بني ثقيف [أسد الغابة ١٣٦٥] وهو الذي نميل إليه ، وقد ذهب ابن سعد إلى أنه غيرة بن سعد بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة [الطبقات الكبرى ٦٧/١/٤] .

وكان خالد من أوائل المسلمين إسلاما قيل إنه كان ثالث أو رابع أو خامس من أسلم [الطبقات الكبرى ٦٩/١/٤] قال خالد أسلمت قبل عليّ لكن كنت أفْرَق أبا أحيحة [يعني والده] ولا يفرق أبا طالب » [الإصابة ٢١٦٧] فحين عرف بإسلامه كان أبوه يسبه ويضربه بالعصا حتى يكسرها على رأسه وحبسه ومنعه القوت وأعطشه . وهاجر الهجرة الثانية إلى الحبشة ومعه امرأته أميمة بنت خالد بن أسعد الخزاعية فولدت له بالحبشة ابنه سعيد وابنته أمة واشتهرت بأم خالد ومشت وتكلمت وهي بالحبشة وصاحب خالد في هجرته هذه أخوه عمرو وكانت معه امرأته فاطمة بنت صفوان بن أمية فماتت بالحبشة . [السيرة النبوية ٣٦٠/٣] . وأقام المهاجرون عند نجاشي الحبشة في أحسن جوار [الطبقات الكبرى ١٣٩/١/١] فلما كتب إليه النبي ﷺ أن يزوجه أم حبيبة كان خالد بن سعيد هو وكيلها وقبض عنها مهرها من النجاشي [الطبقات الكبرى ٦٩/٨ عن الواقدي] .

أقام خالد بالحبشة بضع عشرة سنة ثم عاد مع إخوانه فقدموا على النبي ﷺ سنة سبع وهو بخيبر فأسهم لهم من غنائم خيبر ثم رجعوا إلى المدينة، وخرج معه في عمرة القضاء وغزا معه فتح مكة وتبوك . وكان له في غزوة الطائف دور فريد في التاريخ الحربي لعهد النبوة ، ذلك أن النبي ﷺ أرسله إلى جرش من أرض الأردن بالشام فعاد منها بمنجنيق ودبابتين لتساعد في فتح حصون الطائف . وبعد فتح مكة بعث رسول الله ﷺ سراياه وأمرهم أن يغيروا على من لم يسلم فخرج خالد بن سعيد في ثلاثمائة إلى عرنة [امتاع الاسماع ٤١٦ و٤١٨] .

وكان خالد من كتاب النبي ﷺ الذين يكتبون له الرسائل وقد أحصينا من روايات ابن سعد عشر رسائل كتبها خالد للنبي إلى القبائل وكلها مذكورة بنصوصها [الطبقات الكبرى ٢٣/٢/١ ، ٢٥، ٢٦، ٣٠، ٣٣، ٣٤، ٢٠ـ٦/١٨ ـ ٦٩/١/٤ وامتاع الاسماع ٤٩١] . وقد رأى رسول الله ﷺ في يد خالد خاتما من حديد منقوش بالفضة « محمد رسول الله » فأخذه لنفسه فهو الخاتم الذي كان في يده [الطبقات الكبرى ١٦٣/٢/١ عن الفضل بن دكين عن اسحق عن سعيد] ثم بعث النبي ﷺ خالد بن سعيد عاملا على صدقات اليمن ، كما استعمل أخاه عمرو بن سعيد على تيماء وخيبر وقرى عرينة وأخاه أبان على البحرين . فتوفى رسول الله ﷺ وهم عماله على ما ذكرنا .

(٢) الأزدي ٦ قال حدثني الحارث بن كعب عن عبد الله بن أبي أوفى الخزاعي ، وكانت له صحبة .

معه أول من عسكر استجابة لدعوة أبي بكر . وأمر أبو بكر بلالا فنادى في الناس « انفروا إلى جهاد الروم بالشام » والناس لا يشكون أن خالد بن[1] سعيد أميرهم .

وعقد أبو بكر لواء[2] لخالد بن سعيد فكان أول لواء عقده لحرب الشام . فأخذ عمر بن الخطاب يقول لأبي بكر « أتؤمره وقد صنع ما صنع وقال ما قال ؟ يقصد مكثه شهرين لا يبايع أبا بكر وتحريضه عليا وعثمان وبني عبد مناف على أبي بكر في شأن الخلافة وذلك بعد قدومه من عمالته للنبي ﷺ على صدقات اليمن وقد كره أن يلي لأحد عملا بعد رسول الله فاستعفى[3] أبا بكر فأعفاه . وظل عمر ينهى أبا بكر عن تولية خالد بن سعيد ويقول « إنه لمخذول ، وإنه لضعيف التَّروِئَة[4] ، ولقد كذب كذبة لا يفارق الأرض مُدْلٍ بها وخائضٌ فيها فلا تستنصر به .. إنه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصب » . كذلك كان عمر يطلب من أبي بكر عزل خالد بن الوليد عن قيادة جيش فتح العراق ، فأطاع أبو بكر عمرا في بعض أمر خالد بن سعيد وعصاه في بعض إذ عزله عن قيادة الجيش ولكنه جعله

(١) ابن عساكر ٤٤٥/١ أخبرنا أبو القاسم السمرقندي ، انا ابو علي بن المسلمة ، انا ابو الحسن الحمامي ، انا ابو علي بن الصواف ، انا ابو محمد القطان ، انا اسماعيل العطار ، حدثني اسحق بن بشر ، نا ابن اسحق عن الزهري ، حدثني ابن كعب عن عبد الله بن أبي أوفى الخزاعي قال .

(٢) الطبري ٣٨٧/٣ حدثني عمر بن شبة قال حدثنا علي بن محمد [المدائني] عن أبي معشر ، ويزيد بن عياض بن جعدبة ، وغسان بن عبد الحميد ، وجويرية بن أسماء عن مشيختهم .

الطبري ٣٨٧/٣ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق عن عبد الله بن أبي بكر [بن محمد بن عمرو بن حزم] .

الطبري ٣٨٨/٣ س ش س عن مبشر بن فضيل عن جبير بن صخر حارس النبي ﷺ .

البلاذري ١٢٨ عن أبي مخنف .

الازدي قال حدثني الحارث بن كعب عن عبد الله بن أبي أوفى الخزاعي .

متفقون في الرواية ويكمل بعضهم بعضا .

(٣) الأزدي ٧ بإسناده السابق .

(٤) روّأ في الأمر تَرْوِئَةً نظر فيه ولم يعجل [مختار الصحاح] يعني أنه لا يتروى في الأمور.

على رأس قوة وأمره أن ينزل تيماء[1] كقوة احتياطية ، وفي تقديرنا أن ذلك كان حوالي ٤ ربيع الثاني ١٢ هـ ١٨ يونية ٦٣٣ ، في حين عصاه في عزل خالد بن الوليد .

لم يكن عزل خالد بن سعيد عن قيادة جيش فتح الشام عن ضعف من ابي بكر أمام عمر ولكنه بلا ريب كان قد اقتنع بما قال عمر ـ وقد كان ذلك رأي علي بن أبي طالب أيضا ـ بدليل أن أبا بكر قد عزل خالد بن سعيد ولم يعزل خالد بن الوليد ، لقد اقتنع بعزل الأول ولم يقتنع بعزل الثاني .

عزل ابو بكر خالد بن سعيد وفي رواية أنه بعث إليه أبا أروى[2] الدوسي لأخذ اللواء الذي عقد له فلقيه بذي المروة فاسترده منه وورد به إلى أبي بكر ، ولكن رواية أوثق[3] تذهب إلى أن استرداد اللواء وتولية يزيد بدلا من خالد كان بالمدينة وليس بذي المروة .

وأرسل أبو بكر إلى كل من[4] :
يزيد بن أبي سفيان ،
وأبي عبيدة عامر بن الجراح ،

(١) الطبري ٣٨٨/٣ س ش س عن مبشر بن فضيل عن جبير بن صخر .
وهذا الإسناد فيه مبشر بن فضيل شيخ لسيف بن عمر لا يدري من هو [ميزان الاعتدال ٤٣٤/٣ ـ ٧٠٥٣] ذكره العقيلي في الضعفاء وقال كوفي مجهول بالنقل لا يصح إسناده [لسان الميزان ٤٤/١٣/٥] .
الطبري ٣٨٨/٣ س ش س عن أبي اسحق الشيباني عن أبي صفية التيمي تيم شيبان ، وطلحة عن المغيرة ، ومحمد بن أبي عثمان .
ابن عساكر ٤٥١/١ أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، أنبا أبو الحسين بن النقور ، أنا أبو طاهر المخلص ، أنا ابو بكر بن سيف ، س ش س ، عن الاسناد السابق للطبري .
(٢) البلاذري ١٢٨ عن أبي مخنف [لوط بن يحيى]
(٣) ابن عساكر ٤٥٣/١ في إسناد إلى الوليد بن مسلم ، انا صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير .
(٤) الأزدي ٧ قال حدثني الحارث بن كعب عن عبد الله بن أبي اوفى الخزاعي .

ومعاذ بن جبل ،
وشرحبيل بن حسنة .

فجاءوا إليه ، فقال لهم « إني باعثكم في هذا الوجه ومؤمركم على هذه الجنود ، وأنا موجه مع كل رجل منكم من الرجال ما قدرت عليه ، فإذا قدمتم البلد ولقيتم الجنود واجتمعتم على قتالهم فأميركم أبو عبيدة بن الجراح ، وإن لم يلقكم أبو عبيدة وجمعتكم حرب فأميركم يزيد بن أبي سفيان » .

فانطلق الأمراء فتجهزوا لهذه المهمة . غير أننا لا نجد معاذ بن جبل بعد ذلك من قواد جيوش فتح الشام ولكن نجده قائد قطعات أصغر في جيش أبي عبيدة . وراح المسلمون يسعون إلى المعسكر فينضمون إليه العشرة والعشرين والثلاثين والأربعين والخمسين إلى المائة في كل يوم حتى اجتمع منهم جمع .

لقد كان تصرف أبي بكر أبدع ما كان ، وإن دل فإنما يدل على فطنة ونظر في الحرب نافذ من هذا الخليفة الذي انعدم في الحكام له نظير .

كان خالد بن سعيد أمويا ، فلما عزله أبو بكر وولي مكانه يزيد بن أبي سفيان وهو أموي أيضا ، ونذهب إلى أن ذلك الاعتبار كان مقصودا لحفظ التوازن في توزيع المسئوليات . كذلك حقق أبو بكر من الزاوية الاستراتيجية أهدافا ثلاثة .

١ ـ لقد كان خالد بن سعيد فيمن معه بتيماء قوة مقيمة في عقر دار الردة التي تم القضاء عليها قريبا من المدينة عاصمة الدولة ، تأمينا لأي انتقاض من هذا النوع في تلك البقعة الحساسة .

٢ ـ وهي قوة متقدمة تجاه الشام تؤمن الطريق إليه لما عسى أن يأتي من امبراطورية الروم كرد فعل محتمل لغزو المسلمين لامبراطورية الفرس وما قد يتبع ذلك من استشعار الروم لخطر الدولة الجديدة الناشئة في شبه جزيرة العرب ، أو نتيجة للمعلومات التي قد تصل إلى الروم عن استعداد أبي بكر الصديق لغزو

مستعمرتهم في الشام . وسواء كان رد الفعل ذاك في صورة تحرك الجيش الرومي أو في صورة تحريض الروم وبعثها القبائل العربية الموالية لهم من بني غسان . وجدير بالذكر أن هذا وذاك قد حدث بالفعل .

٣ ـ تعتبر تلك القوة قاعدة في العمق الاستراتيجي لجزيرة العرب سواء من جهة انتقاض الردة في أي مكان فيها أو بالنسبة لجيش خالد بن الوليد الذي تقدم نحو العراق .

وخرج ابو بكر ذات يوم[١] ومعه كثيرون من أصحابه حتى جاءوا المعسكر فرأى عدة حسنة من الخيل وعدة الحرب ولكنه لم يطمئن إلى عددهم أن يواجهوا الروم ، فقال لأصحابه : ماذا ترون في هؤلاء ؟ أترون أن نشخصهم إلى الشام في هذه العدة ؟

فقال عمر : ما أرضى هذه العدة لجموع بني الأصفر .

فأقبل أبو بكر على أصحابه فقال لهم : ماذا ترون ؟

قالوا : نحن نرى أيضا ما رأى عمر .

كان جيش المسلمين حينذاك ثمانية[٢] عشر ألفا مع خالد بن الوليد بالعراق ، كلهم من بني عدنان من ربيعة ومضر فيما عدا ألفا من طيىء من قحطان جاءوا من نجد ، فلم تكن اليمن ممثلة حتى ذلك الحين في جيوش المسلمين، واليمن كان يسكنها بنو قحطان وهم شطر العرب إن لم يكونوا اكثر الشطرين عددا . ولذلك اتجه ابو بكر إلى أن يبعث إلى أهل اليمن ليدعم بهم جيش فتح الشام .

(١) الازدي بنفس اسناده السابق .
(٢) الطريق إلى المدائن ٢١٠ .

رسالة الى أهل اليمن

« بسم الله الرحمن[١] الرحيم .

من خليفة رسول الله ﷺ إلى من قرىء عليه كتابي من المؤمنين والمسلمين من أهل اليمن .

سلام عليكم . فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد .

فإن الله كتب على المؤمنين الجهاد وأمرهم أن ينفرو اخفافا وثقالا وقال جاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله . فالجهاد فريضة مفروضة وثوابه عند الله عظيم . وقد استنفرنا من قبلنا من المسلمين إلى جهاد الروم بالشام ، وقد سارعوا إلى ذلك وعسكروا وخرجوا ، وحسنت في ذلك نيتهم ، وعظمت في الخير حسبتهم . فسارعوا عباد الله إلى فريضة ربكم وإلى إحدى الحسنيين ، إما الشهادة وإما الفتح والغنيمة ، فإن الله لم يرض من عباده بالقول دون العمل ، ولا يترك أهل عداوته حتى يدينوا بالحق ويقروا بحكم الكتاب أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

حفظ الله لكم دينكم وهدى قلوبكم وزكى أعمالكم ، ورزقكم أجر المجاهدين الصابرين . والسلام عليكم » .

وبعث الكتاب مع أنس بن مالك . وفي تقديرنا أن خروج أنس من المدينة كان في حوالي ٦ ربيع الثاني ١٢ هـ ـ ٢٠ يونية ٦٣٣ .

حشود اليمن

يروي أنس[٢] بن مالك ما كان من أمر رسالة أبي بكر إلى شعب اليمن

(١) ابن عساكر ٤٤٥/١ بإسناده السابق .
الازدي بإسناده السابق .
(٢) الأزدي ٩ عن محمد بن يوسف عن ثابت البناني عن أنس بن مالك .

قال: «أتيت أهل اليمن جناحا جناحا وقبيلة قبيلة أقرأ عليهم كتاب أبي بكر. وإذا فرغت من قراءته قلت:

الحمد لله وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله.

بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد،

فإني رسول خليفة رسول الله ﷺ ورسول المسلمين إليكم. ألا وإني قد تركتهم معسكرين ليس يمنعهم من الشخوص إلى عدوهم إلا انتظاركم، فعجلوا إلى إخوانكم، رحمة الله عليكم أيها المسلمون.

فكان كل من أقرأ عليه ذلك الكتاب ويسمع مني هذا القول يحسن الرد عليّ ويقول نحن سائرون وكأنا قد فعلنا، حتى انتهيت إلى ذي[1] الكلاع، فلما قرأت عليه الكتاب وقلت هذا المقال دعا بفرسه وسلاحه ونهض في قومه من ساعته ولم يؤخر ذلك وأمر بالمعسكر، فما برحنا حتى عسكر وعسكر معه جموع كثيرة من أهل اليمن وسارعوا. فلما اجتمعوا إليه قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ثم قال:

«أيها الناس. إن من رحمة الله إياكم ونعمته عليكم أن بعث فيكم رسولا وأنزل عليه كتابا فأحسن عنه البلاغ فعلمكم ما يرشدكم ونهاكم عما يفسدكم حتى علمكم ما لم تكونوا تعلمون، ورغبكم في الخير فيما لم تكونوا ترغبون، ثم دعاكم إخوانكم الصالحون إلى جهاد المشركين واكتساب الأجر العظيم، فلينفر من أراد النفير معي الساعة».

وربما كان أنس على رأس وفد ولم يكن وحده في سفارته تلك إلى اليمن، فما كان لفرد أن يبلغ جميع زوايا اليمن جناحا جناحا وقبيلة قبيلة في مهمة عاجلة، ولقد كان أنس يتحدث في بعض أجزاء روايته بصيغة الجمع. وفي تقديرنا أن أنس بن

(١) واسمه ايفع [الازدي ١٦]

مالك بدأ رحلة العودة من اليمن في حوالي النصف من جمادي الآخرة ١٢ هـ، وأنه بلغ المدينة في ١١ رجب ١٢ هـ.

قال أنس عن ذي الكلاع: فنفر بعدد من أهل اليمن كثيرون وقدموا على أبي بكر، فرجعنا نحن فسبقناه بأيام فوجدنا أبا بكر بالمدينة، ووجدنا ذلك العسكر قبله على حاله ووجدنا أبا عبيدة يصلي بأهل ذلك العسكر.

وفي حوالي ١٦ رجب ١٢ هـ قدمت حِمْيَرَ على أبي بكر ومعها نساؤها وأولادها، ففرح أبو بكر بمقدمهم فلما رآهم أبو بكر قال «عباد الله، ألم نكن نتحدث فنقول إذا أقبلت حمير تحمل أولادها ومعها نساؤها نصر الله المسلم وخان المشرك؟ فأبشروا أيها المسلمون قد جاءكم النصر».

وفي حوالي ٢١ رجب ١٢ هـ جاء قيس بن هبيرة بن مكشوح المرادي وكان من فرسان العرب في الجاهلية ومن أشرافهم وأشدائهم ومعه جمع كثير من مذحج[1] فيهم الحجاج بن عبد يغوث حتى أتى أبا بكر، فسلم عليه ثم جلس إليه فقال لأبي بكر «ما تنتظر بعثة هذه الجنود؟» قال ابو بكر: ما كنا ننظر الا قدومكم.

قال فقد قدمنا. فابعث الناس الأول فالأول فإن هذه البلدة ليست ببلدة خف ولا كراع». [الخف الإبل والكراع الخيل]

وبالرغم من أن أنس بن مالك ـ على الأرجح ـ قد بدأ بأدنى اليمن ثم سار إلى أقصاها فقد لاحظنا أن قبائل اليمن قد أقبلت إلى المدينة الأبعد موطنا ثم الأقرب فالأقرب، فكان أولها وصولا بطون حمير وكانت منازلهم على الساحل الجنوبي من عدن إلى حضرموت إلى ذمار ويحصب وظفار وعمان وفي الداخل إلى صنعاء ونجران، ثم جاءت مراد ومذحج من نواحي خيوان ثم الأزد إلى الشمال من ذلك، ثم بنو خثعم وكانوا أقرب إلى الحجاز من سابقيهم.

(١) الأزدي ١٦

البعوث الى الشام

خروج يزيد

٢٣ رجب ١٢ هـ ـ ٣ اكتوبر ٦٣٣

عند ذلك خرج ابو بكر يمشي فدعا يزيد بن أبي سفيان فعقد له لواء. ودعا ربيعة [أو زمعة] بن الأسود بن عامر من بني عامر بن لؤي فعقد له ثم قال « انت مع يزيد بن أبي سفيان ، لا تعصه ولا تخالف أمره » . وقال ليزيد « إن رأيت أن توليه مقدمك فافعل فإنه من فرسان العرب وصلحاء قومك وأرجو أن يكون من عباد الله الصالحين » . فقال يزيد « لقد زاده إليَّ حبا حسن ظنك به ورجاؤك فيه » .

وداع ووصية (١)

خرج يزيد راكبا في جنده وخرج أبو بكر يمشي معه فقال يزيد « يا خليفة

(١) نفس المصدر + ابن عساكر . قرأت على ابي محمد عبد الكريم بن حمزة السلمي ، عن عبد العزيز بن أحمد التميمي ، انا ابو نصر محمد بن احمد بن هارون الجندي ، وأبو القاسم بن عبد الرحمن بن الحسين بن الحسن بن أبي العقب ، قالا أنا أبو القاسم علي بن يعقوب بن ابي العقب ، انا احمد بن ابراهيم القرشي ، نا محمد بن عائذ القرشي . وقال الوليد وأخبرني ابو عمرو عن يحيى بن سعيد .
وأخبرنا ابو القاسم بن السمرقندي ، وأبو المعالي احمد بن علي بن محمد بن يحيى بن الرويج المعروف بابن الحاجب قالا ابنا ابو الحسين بن النقور ، انا ابو الحسين محمد بن عبد الله بن الحسين قالا نا عبد الله بن محمد ، نا ابو النصر ، نا كوثر بن حكيم عن نافع عن ابن عمر . [٤٥٤/١]
أخبرنا ابو القاسم الشحامي ، انا ابو بكر البيهقي ، انا ابو نصر عمر بن عبد العزيز بن عمر بن

رسول الله ، إما أن تركب وإما أن تأذن لي فأمشي معك ، فإني أكره أن أركب وأنت تمشي » .

قال أبو بكر « ما أنا براكب وما أنت بنازل ، إني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله ... فمشى معهم نحوا من ميلين [وفي رواية حتى بلغ ثنية الوداع] ، فقيل له يا خليفة رسول الله « لو انصرفت » . قال « لا ، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول من اغبرت قدماه في سبيل الله عز وجل حرمها على النار .

« يا يزيد إني أوصيك بتقوى الله وطاعته والإيثار له والخوف منه ، وإذا لقيت العدو فأظفركم الله بهم فلا تغْلُل ولا تمثل ولا تغدر ولا تجبن ، ولا تقتلوا وليدا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تحرقوا نخلا ولا تعرفوه [تقشروه وتفسدوه] ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تعقروا بهيمة إلا لمأكلة . وستمرون بقوم في الصوامع [من بيوت العبادة للنصارى] يزعمون أنهم حبسوا أنفسهم لله ، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له ، وستجدون آخرين قد فحص الشيطان عن أوساط رؤوسهم حتى كأن أوساط رؤوسهم أفاحيص القطا ، فاضربوا ما فحصوا من رؤوسهم بالسيوف حتى ينيبوا إلى الإسلام .

قتادة ، أنا أبو الفضل محمد بن عبد الله بن خمرويه الكرابيسي الهروي بها انبا احمد بن نجدة ، نا الحسن بن الربيع ، نا عبد الله بن المبارك ، عن يونس بن يزيد عن ابن شهاب [الزهري] عن سعيد بن المسيب [٤٥٥/١] .
أخبرنا ابو محمد هبة الله بن سهل الفقيه ، انا ابو عثمان سعيد بن محمد البحيري ، انبا زاهر بن احمد الفقيه ، انا ابراهيم بن عبد الصمد الهاشمي ، نا ابو مصعب الزهري ، نا مالك عن يحيى بن سعيد [٤٥٦/١] .
أخبرنا ابو القاسم الشحامي ، أنا ابو بكر البيهقي ، أنا عبد الوهاب بن عطاء ، انا روح بن القاسم عن زيد بن مالك الشامي ، ذكر الحديث بمعناه .
وأخبرنا ابو القاسم الشحامي انا ابو بكر البيهقي ، وأنا عبد الله الحافظ ، نا ابو العباس ، نا أحمد بن عبد الجبار ، نا يونس بن بكير عن ابن اسحق ، حدثني صالح بن كيسان [٤٥٧/١] .
كما رواها احمد بن حنبل في مسنده عن يحيى بن سعيد .

فإذا لقيتم العدو من المشركين إن شاء الله فادعوهم إلى ثلاث خصال ، فإن أجابوكم فاقبلوا منهم وكفوا عنهم . ادعوهم إلى الإسلام فإن هم أجابوكم فاقبلوا منهم وكفوا عنهم ثم ادعوهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، فإن هم فعلوا فأخبروهم أن لهم مثل ما للمهاجرين [المجاهدين] وعليهم ما على المهاجرين ، وإن هم دخلوا في الاسلام واختاروا دارهم على دار المهاجرين فأخبروهم أنهم كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي فرض على المؤمنين وليس لهم في الفيء والغنائم شيء حتى يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا أن يدخلوا في الاسلام فادعوهم إلى الجزية فإن هم فعلوا فاقبلوا منهم وكفوا عنهم ، فإن هم أبوا فاستعينوا الله عليهم فقاتلوهم إن شاء الله . ولينصرن الله من ينصره ورسله بالغيب » .

وذكر المسعودي[1] من هذه الوصية « إذا قدمت على أهل عملك فعدهم الخير وما بعده وإذا وعدت فأنجز ، ولا تكثرن عليهم الكلام فإن بعضه ينسى بعضا ، وأصلح نفسك يصلح الناس لك .

وإذا قَدِمت عليك رسل عدوك فأكرم منزلتهم فإنه أول خيرك إليهم ، وأقلل حبسهم حتى يخرجوا وهم جاهلون بما عندك ، وامنع من قِبَلك من محادثتهم وكن أنت الذي تلي كلامهم .

ولا تجعل سرك مع علانيتك فيمزج عملك ، وإذا استشرت فأصدق الخبر تُصْدَق لك المشورة ، ولا تكتم المستشار فتُؤْتَى من قبل نفسك .

وإذا بلغك عن العدو عورة فاكتمها حتى تعاينها . واستر في عسكرك الأخبار ، وأذكِ حرسك وأكثر مفاجأتهم في ليلك ونهارك . وأصْدِق اللقاء إذا لقيت ولا تجبن فيجبن من سواك » . أ . هـ .

ثم أخذ أبو بكر بيده وقال « إني استودعك الله وعليك سلام الله ورحمته » ثم

(١) مروج الذهب ٢/٣٠٢ دون إسناد وجميع كتاب مروج الذهب غير مستند .

ودعه وقال « إنك أول أمرائي وقد وليتك على رجال من المسلمين أشراف غير أوزاع[1] في الناس ، فأحسن صحبتهم ولتكن معهم كَنَفاً واخفض لهم جناحك وشاورهم في الأمر . أحسن الله لك الصحابة وعلينا الخلافة » .

وقد أورد ابن الأثير[2] هذه الوصية على النحو الآتي ، قال أبو بكر « إني قد وليتك لأبلوك وأجربك وأخَرِّجُك ، فإن أحسنتَ رددتك إلى عملك وزدتُك ، وإن أسأت عزلتك ، فعليك بتقوى الله فإنه يرى من باطنك مثل الذي من ظاهرك ، وإن أولى الناس بالله أشدهم توليا له ، وأقرب الناس من الله أشدهم تقربا إليه بعمله ، وقد وليتك عمل خالد [ابن سعيد] فإياك وعُبِّيَّة الجاهلية فإن الله يبغضها ويبغض أهلها . وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعِدْهم إياه ، وإذا وعظت فأوجز فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضا . وأصلح نفسك يصلح لك الناس ، وصلِّ الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها . وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به ولا ترينّهم فيروا خللك ويعلموا علمك ، وأنزلهم في ثروة عسكرك ، وامنع من قبلك من محادثتهم وكن أنت المتولي لكلامهم ، ولا تجعل سرك لعلانيتك فيخلط أمرك ، وإذا استشرت فأصدق الحديث تُصْدَق المشورة ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك . واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار وتنكشف عنكَ الأستار . وأكثر حرسك وبددهم في عسكرك وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك ، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه وعاقبه في غير إفراط ، وأعقب بينهم بالليل ، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فإنها أيسرها لقربها من النهار ، ولا تخف من عقوبة المستحق ولا تلجَّنَّ فيها ولا تسرع إليها ولا تخذها مدفعا ، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده ، ولا تجسس عليهم فتفضحهم ، ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلانيتهم ، ولا تجالس العباثين ، وجالس أهل الصدق والوفاء . واصدق

(١) أي ليسوا أذناب ولا ضعفاء ولا جفاة في الدنيا
(٢) الكامل في التاريخ ٢/٤٠٤ .

اللقاء ، ولا تجبن فيجبن الناس ، واجتنب الغلول فإنه يقرِّب الفقر ويدفع النصر . وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له » . أ . هـ .

ثم بدا لأبي بكر في الانصراف إلى المدينة فقام في الجيش[1] فحمد الله وأثنى عليه ثم أمرهم بالمسير إلى الشام وبشرهم بفتح الله إياها وقال

« ... حتى تبنوا فيها المساجد فلا يعلم أنكم إنما تأتونها تلهيا ، والشام أرض شبيعة يكثر لكم فيها من الطعام فإياي والأشر ، أما ورب الكعبة لتأشرن ولتبطرنّ . أوصيكم بتقوى الله عز وجل ، وإني موصيكم بعشر كلمات فاحفظوهن : لا تقتلوا شيخا فانيا ولا صبيا صغيرا ولا امرأة . ولا تهدموا بيتا ولا بيعة . ولا تقطعوا شجرا مثمرا . ولا تعقروا بهيمة إلا لأكل . ولا تحرقوا نخلا ولا تعزقوه . ولا تعص . ولا تجبن . ولا تغلل . وستجدون قوما قد حبسوا أنفسهم فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له ، وستجدون آخرين محلّقة رؤوسهم[2] فاضربوا مقاعد للشيطان منها بالسيوف ، والله لأن أقتل منهم رجلا أحب إليّ من أن أقتل سبعين من غيرهم ذلك بأن الله قال فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم . وستردون بلدا يغدو ويروح عليكم فيه ألوان

(١) ابن عساكر ٤٥٤/١ أخبرنا ابو بكر محمد بن الحسين بن علي المزرفي ، أنا ابو الغنائم عبد الصمد بن علي بن المأمون ، انا أبو القاسم عبيد الله بن محمد بن اسحق بن حبابة ح .
وأخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي وأبو المعالي احمد بن علي بن محمد بن يحيى بن الرويج المعروف بابن الحاجب ، قالا أنبا ابو الحسن بن النقور ، انا ابو الحسين محمد بن عبد الله بن الحسين ، قالا نا عبد الله بن محمد ، نا أبو نصر ، نا كوثر بن حكيم عن نافع عن ابن عمر .
أخبرنا أبو محمد بن الأكفاني ، نا ابو محمد عبد العزيز الكتاني ، أنا ابو محمد بن ابي نصر ، أنبا ابو القاسم بن أبي العقب ، أنا أبو عبد الملك احمد بن ابراهيم بن بشر القرشي ، نا محمد بن عائذ ، نا الوليد بن مسلم ، أخبرني صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير .
دخل بعضهم في بعض واتفقوا في أكثره .

(٢) هم الشمامسة كان الناس يصدرون عن رأيهم في القتال ويحثونهم عليه ـ شرح السير الكبير ٤١/١ .

الطعام ، فلا يأتيكم لون إلا ذكرتم اسم الله عليه ، ولا يرفع لون إلا حمدتم الله عز وجل » .

عن ابن اسحق قال حدثني محمد بن جعفر بن[1] الزبير وقال لي هل تدري لم فرق أبو بكر وأمر بقتل الشمامسة ونهى عن قتل الرهبان ؟ فقلت لا أراه إلا لحبس هؤلاء أنفسهم . فقال أجل ولكن الشمامسة يلقون القتال فيقاتلون وأن الرهبان رأيهم أن لا يقاتلوا وقد قال الله تعالى «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم» [سورة البقرة ١٩٠] .

ثم قال لهم أبو بكر : «إذا أنا انصرفت من مقامي هذا فاركبوا ظهوركم [ركائبكم] ثم صفوا إليّ صفا واحداً حتى آتيكم » . فمر على أولهم[2] حتى أتى على آخرهم يسلم عليهم . وقد خرج ذو الكلاع بحمير في جيش[3] يزيد .

دعاء

سار يزيد بجنده إلى الشام فكان أبو بكر يدعو في كل يوم غدوة وعشيا بعد صلاة الفجر وبعد صلاة العصر فيقول « اللهم إنك خلقتنا ولم نك شيئا ثم بعثت إلينا رسولا رحمة منك لنا وفضلاً منك علينا فهديتنا وكنا ضلالا ، وحببت إلينا الإيمان وكنا كفارا ، وكثرتنا وكنا قليلا ، وجمعتنا وكنا أشتاتا ، وقويتنا وكنا ضعافا ، ثم فرضت علينا الجهاد وأمرتنا بقتال المشركين حتى يقولوا لا إله إلا الله أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

« اللهم إنا نطلب رضاك ونجاهد أعداك ، من عدل بك وعبد معك إلها

(١) ابن عساكر ٤٥٧/١ أخبرنا أبو القاسم الشحامي ، أنا أبو بكر البيهقي ، وأنا عبد الله الحافظ ، نا أبو العباس ، نا احمد بن عبد الجبار ، نا يونس بن بكير ، عن ابن اسحق ، حدثني محمد بن جعفر بن الزبير .

(٢) شرح كتاب السير الكبير ٤٦/١ .

(٣) إعمالا لمشورة قيس بن هبيرة المرادي التي أخذ بها أبو بكر أن يبعث الجند الأول فالأول ، وقد كانت حمير أولى قبائل اليمن وصولا ، ولم يخرج قيس في بني مراد إلا مع أبي عبيدة .

غيرك . تعاليت عما يقولون علوا كبيرا . اللهم فانصر عبادك المسلمين على عدوك من المشركين . اللهم افتح لهم فتحا يسيرا وانصرهم نصرا عزيزا واجعل لهم من لدنك سلطانا نصيرا . اللهم أشجع جبنهم وثبت أقدامهم ، وزلزل بعدوهم ، وأدخل الرعب في قلوبهم واستأصل شأفتهم واقطع دابرهم ، وأبد خضراءهم وأورثنا أرضهم وديارهم وأموالهم وكن لنا وليا وبنا حفيا وأصلح لنا شأننا كله ونياتنا وقضاءنا وتبعاتنا ، واجعلنا لأنعمك من الشاكرين واغفر لنا ، المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات . ثبتنا الله وإياكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة إنه بالمؤمنين رؤوف رحيم » . أ . هـ .

كان خروج يزيد من المدينة في ٢٣ رجب ١٢ هـ ٣ أكتوبر ٦٣٣ تقريبا ، في حين كان خالد بن الوليد وعياض بن غنم يحاصران دومة الجندل ضمن عمليات فتح العراق ، وما لبثت دومة الجندل أن سقطت في يد خالد في ٢٤ رجب ١٢ هـ ولا شك أنه كان لذلك السقوط أثره في تأمين الطريق من المدينة إلى الشام ، وقد كانت دومة الجندل محاصرة منذ أوائل ذلك العام الهجري .

مسار يزيد

سار يزيد بجيشه من ذي مروة[١] وهي من أعراض المدينة . وكان الجيش حين سار ثلاثة[٢] آلاف ثم أمده أبو بكر بعد ذلك حتى بلغ جيشه سبعة آلاف وخمسمائة . ويذكر المدائني[٣] أنه كان أول أمراء الشام خروجا وأنه خرج في سبعة آلاف . ويذكر ابن عساكر أنهم كانوا ٦٠٠٠ .

---

(١) من أعراض المدينة ـ قدامة بن جعفر ٢٤٨
قرية بوادي القرى وقيل بين خشب ووادي القرى ـ معجم البلدان ٥/١١٦ .
(٢) البلاذري ١٢٨
(٣) الطبري ٣/٣٨٧ عن ابي معشر ويزيد بن عياض بن جعدبة وغسان بن عبد الحميد وجويرية بن أسماء عن علي بن محمد [المدائني] .

وسلك يزيد في مسيره إلى الشام طريق تبوك[١] كأمر أبي بكر . ولقد كانت[٢] تبوك على نشز مرتفع في سهل رملي بين جبل حِسْمى إلى الغرب منها وجبل شَرَوْرَى في شرقيها ، على الحدود الشمالية لبلاد العرب ومن بعدها تبدأ حدود الدولة الرومية البيزنطية . وبها عين ماء يقال إنها بئر صالح كما كان بها بستان ينسب إلى النبي ﷺ . ويقال إن أصحاب الأيكة الذين بعث إليهم شعيب كانوا فيها ولم يكن شعيب منهم وإنما كان من مدين على البحر الأحمر على ست مراحل من تبوك . ويمتد الطريق من المدينة إلى ذي خشب إلى السويداء إلى المر إلى ذي المروة إلى الرحيبة إلى وادي القرى إلى الحجر إلى الجنينة إلى الأقرع إلى المحدثة إلى تبوك ، ثم من تبوك إلى سَرْغ إلى ذات المنازل إلى منزل إلى منزل آخر إلى دمشق . وهو طريق شاق وصفه ابن بطوطة حين سلكه في الاتجاه المضاد من دمشق إلى المدينة ، قال « .. أقام الركب بخارج الكرك أربعة أيام بموضع يقال له الثنية وتجهزوا لدخول البرية . ثم ارتحلنا إلى معان وهو آخر بلاد الشام [في عصره] ونزلنا من عقبة الصوان إلى الصحراء التي يقال فيها داخلها مفقود وخارجها مولود . وبعد مسيرة يومين نزلنا ذات حج وهي حِسْيان [جمع حِسّي وهو سهل يستنقع فيه الماء] لا عمارة بها ثم إلى بَلْدَح ولا ماء به ثم إلى تبوك ... وفيها عين ماء كانت تبض بشيء من الماء فلما نزلها رسول الله ﷺ وتوضأ منها جادت بالماء المعين ولم يزل إلى هذا العهد [عهده] ... وينزل الركب العظيم على هذه العين فيروي منها جميعهم ويقيمون أربعة أيام للراحة وإرواء الجمال واستعداد الماء للبرية المخوفة التي بين العُلا وتبوك ... ثم يرحل الركب من تبوك ويجدّون السير ليلا ونهاراً خوفا من هذه البرية وفي وسطها وادي الأخيضر كأنه وادي جهنم أعاذنا الله منه ، وأصاب الحجاج به في بعض السنين مشقة بسبب ريح السموم التي تهب فانتشفت المياه وانتهت شربة الماء إلى ألف دينار ومات

---

(١) الطبري ٣/٣٩١ س ش س عن هشام بن عروة عن أبيه .
(٢) ابن خرداذبه ١٥٠ ـ قدامة بن جعفر ١٩١ ـ معجم البلدان ٢/١٤ ـ ابن بطوطة ٨٨ ـ ٨٩ ـ دائرة المعارف الاسلامية .

مشتريها وبائعها وكتب ذلك في بعض صخر الوادي . ومن هناك ينزلون بركة المعظَّم وهي ضخمة نسبة إلى الملك[١] المعظم من أولاد أيوب ويجتمع بها ماء المطر في بعض السنين وربما جف في بعضها . وفي الخامس من أيام رحيلهم عن تبوك يصلون إلى بئر الحِجْر ، حجر ثمود وهي كثيرة الماء ولكن لا يردها أحد من الناس مع شدة عطشهم اقتداء بفعل رسول الله ﷺ حين مر بها في غزوة تبوك فأسرع براحلته وأمر ألا يسقى منها أحد . وهناك ديار ثمود في جبال من الصخر الأحمر منحوتة لها عتب منقوشة يظن رائيها أنها حديثة الصنعة وعظامهم نخرة في داخل تلك البيوت ، إن في ذلك لعبرة . ومبرك ناقة صالح عليه السلام بين جبلين هنالك وبينهما أثر مسجد يصلي الناس فيه . وبين الحجر والعلا نصف يوم أو دونه . والعلا قرية كبيرة حسنة لها بساتين النخل والمياه المعينة ... الخ »

سار يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنه وأصحابه في ذلك الطريق من المدينة إلى تبوك إلى البلقاء من علياء الشام[٢] فنزلها وهي اليوم في المملكة الاردنية ومن أشهر مدنها السلط ومعان وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة .

لقد رأينا في فتح العراق أن تخطيط أبي بكر قام على الإطباق على جميع غربي الفرات بجيشين ، خالد بن الوليد من الجنوب وعياض بن غنم من الشمال ومقصدهما الحيرة ، فإذا ما تم ذلك تكون الخطوة الثانية هي عبور الفرات وشبكة العوائق المائية إلى المدائن . ولم تكن كفة خالد ولا عياض راجحة في السلم القيادي من أول الأمر ولكن أيهما سبق فهو أمير على صاحبه . ولقد كانت خطة أبي بكر لفتح الشام قريبة جدا من هذا ، فقد أرسل اكثر من جيش تحيط بالشام من شرقيه ومن جنوبه لتدور المعارك الحاسمة كلها على تخوم الصحراء وقريبا منها . وهذا جيش يزيد يتجه إلى البلقاء عن طريق تبوك .

---

(١) يدلنا هذا على أنها استحدثت أيام الأيوبيين ولم تكن موجودة في عصر الفتح .

(٢) الطبري ٤٠٦/٣ حدثني ابو زيد عن علي بن محمد [المدائني] بإسناده السابق .

خروج شرحبيل

٢٧ رجب ١٢ هـ ٧ اكتوبر ٦٣٣ م .

حين ناقش شرحبيل فتح الشام مع أبي بكر وقص عليه رؤياه، ذكرنا أن أبا بكر قال له «إذا سار يزيد بن أبي سفيان فأقم ثلاثا ثم تيسر للمسير». لماذا ينتظر ثلاثة أيام بعد يزيد قبل أن يسير ؟ نرى أنها ضرورات الطريق ، فقد كان على شرحبيل أن يسلك طريق التبوكية ... نفس الطريق الذي سلكه يزيد ، وتقارب القطعات الحربية يزحم الطريق ويستهلك ما في آباره من مياه ، في حين أن ذلك الفاصل الزمني يرفه عن الطريق ويسمح للآبار بالإدرار . وفعل شرحبيل ما أمره به أبو بكر ، فلما انقضى اليوم الثالث أتاه أبو بكر من غده فودعه وقال له « يا شرحبيل ألم تسمع وصيتي ليزيد بن أبي سفيان » ؟

قال : بلى .

قال أبو بكر : فإني أوصيك بمثلها ، وأوصيك لخصال أغفلت ذكرهن ليزيد . أوصيك بالصلاة في وقتها ، وبالصبر يوم البأس حتى تظفر أو تُقْتَل ،وبعيادة المرضى وبحضور الجنائز ،وذكر الله كثيرا على كل حال .

وكان أبو سفيان شاهدا فقال « رحمك الله يا أبا بكر ، قد كان يزيد بهذه الخصال مستوصيا وعليهن مواظبا قبل أن يسير إلى الشام ، وهو الآن لهن ألزم إن شاء الله مع وصيتك إياه » .

فقال شرحبيل « الله المستعان وما شاء الله أن يكون كان » .

وودع شرحبيل أبا بكر وسار في جيشه في إثر يزيد إلى الشام ، وبقي معظم الجند مع أبي عبيدة بن الجراح بالمعسكر ، يؤمهم أبو عبيدة في الصلاة ، وينتظرون في كل يوم أمر أبي بكر بالمسير ، وأبو بكر ينتظر قدوم من استنفر من المسلمين حتى يشحن بهم أرض الشام ، حتى إذ زاحفهم الروم قابلتهم جموع المسلمين .

٧ شعبان ١٢ هـ ١٧ اكتوبر ٦٣٣

كانت وفود المتطوعين المسلمين تتوافد تباعا إلى المدينة أكثريتهم العظمى من اليمن . ولقد رأينا أن أبا بكر لم يبعث يزيد بن أبي سفيان إلا بعد أن قدم إليه قيس بن هبيرة بن مكشوح المرادي في بني مراد [ولم يخرج قيس مع يزيد] ، ثم خرج بعده شرحبيل بن حسنة في جيش آخر، فإن المدينة بمواردها لم تكن لتحتمل استضافة جيوش كبيرة ، وقد كانوا معسكرين بالجرف من ضواحي المدينة . وبقي أبو عبيدة بن الجراح في جنود آخرين بالمعسكر استمر عددهم يتزايد بقدوم متطوعين آخرين، فجاء خلاف من ذكرنا :

حابس[1] بن سعد الطائي في عدد كثير من طيء

وجاءت الأزد في عدد كثير وجمع عظيم فيهم جندب بن عمرو بن ضممة الدوسي وفيهم أبو هريرة الدوسي صحابي رسول الله ﷺ وراوية أحاديثه .

وجاء قيس ، فعقد ابو بكر لميسرة بن مسروق العبسي عليهم .

وجاء قَبَّاث بن أشْيَم في بني كنانة .

وقد لاحظنا ونحن ندرس « الطريق إلى المدائن » و« القادسية »و« سقوط المدائن » أن ربيعة وتميما وأسدا قد اتجهت جموعها إلى غزو الشرق .. العراق وفارس ، ولذلك قل أبناء تلك القبائل في فتوح الشام ، إنما كانت جيوش الشام يمنية في جملتها .

وكان أبو بكر يعرف لقيس بن هبيرة بن مكشوح المرادي قدره فأوصى به أبا عبيدة[2] وقال له « إنه قد صحبك رجل عظيم الشرف ، فارس من فرسان العرب ليس بالمسلمين غناء عن رأيه ومشورته وبأسه في الحرب ، فأدنِهِ وألْطِفْهُ وأره أنك غير

(١) الأزدي ١٦ بنفس الإسناد .

(٢) الأزدي ٢٦ حدثني يحيى بن هانيء بن عروة .

مستغن عنه ولا مستهين بأمره ، فإنك تستخرج بذلك نصيحته لك وجهده وجدّه على عدوّك » .

ودعا أبو بكر قيس بن هبيرة وقال له

« إني بعثتك مع أبي عبيدة الأمين الذي إذا ظُلِمَ لم يظلم وإذا أسيء إليه غفر وإذا قُطِعَ وصل ، رحيم بالمؤمنين شديد على الكافرين ، فلا تعصين له أمرا ولا تخالفن له رأيا فإنه لن يأمرك إلا بخير . وقد أمرته أن يسمع منك فلا تأمره إلا بتقوى الله ، فقد كنا نسمع أنك شريف ذو بأس ، سيد مجرب في زمان الجاهلية الجهلاء إذ ليس فيهم إلا الإثم ، فإجعل بأسك وشدتك ونجدتك في الإسلام على المشركين وعلى من كفر بالله وعبد معه غيره ، فقد جعل الله في ذلك الأجر العظيم والثواب الجزيل والعز للمسلمين » .

فقال قيس « إن بقيت وأبقاك الله فسيبلغك عني من حيطتي على المسلم وجهدي على الكافر ما تحب ويسرّك ويرضيك » .

قال أبو بكر: إفعل ذلك رحمك الله .

فلما بلغ أبا بكر بعد ذلك مبارزة قيس بن هبيرة البطريقين بالجابية وقتله إياهما قال « صدق قيس وبرّ ووفى » .

ثم أراد أبو بكر أن يبعث أبا عبيدة بن الجراح فودعه ثم[1] قال له :

« اسمع سماع من يريد أن يفهم ما قيل له ثم يعمل بما أمر به . إنك تخرج في أشراف الناس وبيوتات العرب وصلحاء المسلمين وفرسان الجاهلية ، كانوا يقاتلون إذ ذاك على الحمية وهم اليوم يقاتلون على الحِسْبَة والنية الحسنة . أحسن صحبة من صحبك وليكن الناس عندك في الحق سواء واستعن بالله وكفى بالله معينا ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا . أخرج من غد إن شاء الله » . وخرج أبو عبيدة من عند

(١) الازدي ١٦ حدثني محمد بن يوسف عن ثابت البناني عن سهل بن سعد .

أبي بكر ، فلما مضى قال « يا أبا عبيدة » فرجع ابو عبيدة ، قال ابو بكر « يا أبا عبيدة إني قد رأيت منزلتك من رسول الله ﷺ وتفضيله إياك ما أحب أن تعلم كرامتك عليّ ومنزلتك مني . والذي نفسي بيده ما على الأرض رجل من المهاجرين ولا من غيرهم أعدله بل ولا بهذا [مشيرا إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه] ولا له من منزلة مني إلا دون ما لَك » .

ثم انصرف أبو عبيدة . فلما كان الغد جاءه أبو بكر يمشي في رجال من المسلمين في معسكرهم ثم سار معه حتى بلغ ثنية الوداع فأراد أن يفارقه فقال له « يا أباعبيدة اعمل صالحا وعش مجاهدا وتوفّ شهيداً يعطك الله كتابك بيمينك،ولتقر عينك في دنياك وآخرتك ، فوالله إني لأرجو أن تكون من التوابين الأوابين المخشعين الزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة . إن الله قد صنع بك خيرا وساقه إليك إذ جعلك تسير في جيش من المسلمين إلى عدوه من المشركين ، فقاتل من كفر بالله وأشرك به وعبد معه غيره » .

فأجابه أبو عبيدة :

« رحمك الله يا خليفة رسول الله. فلَأشْهَد بفضلك في إسلامك ومناصحتك لله ولرسوله ومجاهدتك بعد رسول الله ﷺ من تولى عن دين الله حتى ردهم الله بك إلى الدين صاغرين . ونشهد أنك رحيم بالمؤمنين ذو غلظة على الكافرين ، فبارك الله لك فيما علّمك وسددك فيما حملك ، فإني إن أكُ صالحا فلربي المنة عليّ بصلاحي ، وإن أكُ فاسداًفهو وليُّ صلاحي ، وأما أنت فإنا نرى لك من الحق علينا أن نجيبك إذا دعوتنا وأن نطيعك إذا أمرتنا » .

حديث مع معاذ

وكان معاذ بن جبل في جيش أبي عبيدة وكان في نفسه ما يريد أن يتحدث به إلى أبي بكر رضي الله عنه ، فتقدم معاذ وقال

« يا خليفة رسول الله إني قد كنت أردت أن يكون ما أريد أن أكلمك به بالمدينة قبل شخوصنا عنها ثم بدا لي أن أؤخر ما أريد من ذلك حتى يكون عند وداعي فيكون آخر ما أفارقك عليه كلامي إياك » .

قال أبو بكر « فهات يا معاذ ، فوالله ما علمتك إلا سديد القول موفق الرأي رشيد الأمر » .

فأدنى معاذ راحلته منه ومقود فرسه في يده وهو متنكبُ القوس متقلد السيف ، ثم قال « إن الله بعث محمداً ﷺ برسالته إلى خلقه فبلغ ما أحب الله أن يبلغ ، وكان كما أحب ربه أن يكون ، فقبضه الله إليه وهو محمود مبرور صلوات الله عليه وبركاته ورضوانه إنه حميد مجيد وجزاه عن أمته كأحسن ما جوزي النبيون .

ثم إن الله استخلفك أيها الصديق على ملأ من المسلمين ورضي منهم بك ، فارتد مرتدون وأرجف مرجفون ورجعت راجعة عن هذا الدين ، فأدهش بعضنا وحار جُلّنا وأحب المداهنة والموادعة طائفة منا ، واجتمع رأي الملأ الأكبر منا أن يتمسكوا بدينهم وأن يعبدوا الله حتى يأتيهم اليقين ويدعوا الناس وما ذهبوا فيه ، فلم ترض منهم بشيء كان رسول الله ﷺ يرده عليهم ، فنهضت بالمسلمين وشمّرت للمجرمين وشددت بالمطيع المقبل على العاصي المدبر حتى أجاب إلى الحق من كان عائدا عنه ورحل عن الباطل من كان مرتكزا فيه .

فلما تمت نعمة الله عليك وعلى المسلمين بك في ذلك ندبت المسلمين إلى جهاد المشركين وإلى الوجه الذي يضاعف الله لهم فيه الأجر ويعظم لهم في الفتح والغنم ، فأمرك مبارك ورأيك محمود رشيد ونحن وصالحو المؤمنين نسأل الله لك المغفرة والرحمة الواسعة والقوة على العمل بطاعة الله في عافية ، فإن هذا الذي تسمع من دعائي وثنائي ومقالتي لتزداد في فعل الخير رغبة ولتحمد الله على النعمة وأنا معيد القول على المؤمنين ليحمدوا الله على ما أبلاهم واصطنع عندهم بولايتك عليهم » . ثم أخذ كل واحد منهما بيد صاحبه فودعه ودعا له . ثم تفرقا الفراق الذي لم يلتقيا بعده

أبدا واستدار أبو بكر عائدا إلى المدينة في حين مضى الجيش لوجهه . ونظر أبو بكر إلى أبي قتادة الأنصاري وهو على جواده وقال له « يا أبا قتادة ، إلحق أبا عبيدة بن الجراح فأبلغه مني السلام وقل له أوصيك بأخيك معاذ خيرا ، لا تقطعن أمرا دونه فإنه لن يألوك نصحا ورشدا . وانظر خالد بن سعيد بن العاص فاعرف له من الحق إذ وَليتَ عليه مثل ما كنت تحب أن يعرفه لك لو خرج واليا عليك ، وقد آختار الخروج معك على ابن عمه يزيد بن أبي سفيان وعلى غير ابن عمه ، وإذا حزبك أمر مهم تحتاج فيه إلى مشورة ذي الرأي النقي الناصح فاستشره واسمع منه فإني لا أعلمه إلا سيد[1] من معك من المسلمين » .

وانطلق أبو قتادة في أثر الجيش حتى لحق أبا عبيدة وأبلغه مقالة أبي بكر ثم عاد يقول له « أصلحك الله ، قد أبلغته رسالتك ، وحفظت رسالتك إليه ورسالته إليك » .

قال أبو بكر « أما رسالتي إليه فما قد سمعت ، وأما رسالته إليّ فهاتها » . قال أبو قتادة الأنصاري « قال أبلغه عني السلام وقل له إن الرجلين اللذين أوصيتني بهما كما ذكرت في فضلهما ونصحهما للمسلمين وأنا منزلهما مني بالمنزلة التي أمرتني . وليتك ورحمك الله أوصيتهما بي كما أوصيتني بهما فإني إليهما أحوج منهما إليّ » .

قال أبو بكر « أما هذا فلم أغفله ، قد أوصيتهما بمؤازرته ومناصحته والمشورة عليه فيما يزيان له فيه ، وللمسلمين صلاحا ، ولو أني لم أوصهما لرجوت ألا يدعا النصيحة للمسلمين والنظر لهم والشفقة عليهم في موطن من مواطنهم ولا في شيء حضراه من أمورهم ، ولكن علينا من الحق الوُصاة لهم بما يصلحهم ويجمع الله به أمرهم » .

(١) لعله قصد أنه الذي استعمله رسول الله ﷺ على اليمن وكان عظم جيش أبي عبيدة من أهل اليمن .

مسار أبي عبيده

سار أبو عبيدة من المدينة حتى[1] مر بوادي القرى ثم طلع إلى الحجر (وهي مدائن صالح) ثم إلى ذات المنار ثم إلى زيزا ومنها سار إلى مآب بعمّان فتصدّت له قوة من الروم التحم بهم المسلمون حتى أدخلوهم مدينتهم وحاصروهم فيها فطلب أهل مآب الصلح فكانت أول مدن الشام يصالح أهلها المسلمين . ثم سار أبو عبيدة إلى الجابية ودنا منها .

ملحان بن زياد في طيء

١٧ شعبان ١٢ هـ - ٢٧ اكتوبر ٦٣٣

وبعد مسير الأمراء إلى الشام جاء إلى أبي بكر نحو من ألف رجل من طيء[2] عليهم ملحان بن زياد الطائي أخ عدي بن حاتم لأمه فقال له

« إنا أتيناك رغبة في الجهاد وحرصا على الخير ، ونحن القوم الذين تعرف ، الذين قاتلنا معك من ارتد منا حتى أقرّوا بمعرفة ما كانوا ينكرون ، وقاتلنا معك من ارتد منّا حتى أسلموا طوعا وكرها ، فسرّحنا رحمك الله في آثار الناس واختر لنا واليا صالحا نكن معه » .

فقال له أبو بكر

« قد اخترت لكم أفضل أمرائنا أميرا وأقدم المهاجرين هجرة . إلحق بأبي عبيدة فقد رضيت لكم صحبته وحمدت لكم إليه ، فنعم الرفيق هو في السفر ونعم الصاحب في الحضر » .

والذي نذهب إليه أن أبا بكر قد اختار لهم أبا عبيدة بن الجراح حتى ينضموا إلى إخوانهم من طيء الذين سبقوهم مع أبي عبيدة بقيادة حابس بن سعد الطائي .

(١) الازدى ٢٩ حدثني عبد الملك بن نوفل عن أبي سعيد المنبري وعن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص .

(٢) الأزدي ٢٤ عن الوليد بن حماد عن الحسين بن زياد عن أبي اسماعيل محمد بن عبد الله قال سعيد أبو مجاهد عن المحل بن خليفة .

ولقد بينا في الجزء الاول[1] من « الطريق إلى المدائن » أن القبائل كانت وحدات حربية في جيوش المسلمين .

يقول ملحان[2] : قلت لأبي بكر رضي الله عنه « قد رضيت بخيرتك التي اخترت لي . قال أبو بكر « فاتبعه حتى تلحق به » .

فاتبعته حتى لحقته بالشام فشهدت معه مواطنه التي شهدها كلها لم أغب عن يوم منها » .

إلحاق خالد بجيش أبي عبيدة

وكان خالد بن سعيد قد اختار أن ينضم إلى جيش أبي عبيدة وأن يلتحق به وقد تهيأ لذلك ، قال له رجل[3] من المسلمين « لو خرجت مع ابن عمك يزيد بن أبي سفيان كان أمثل من خروجك مع غيره » .

فقال « ابن عمي أحب إليّ من هذا في قرابته ، وهذا أحب إليّ من ابن عمي في دينه . هذا كان أخي في ديني على عهد رسول الله ﷺ وولِيّ وناصري على ابن عمي قبل اليوم ، وأنا أشد استئناسا إليه وأشد طمأنينة مني بغيره » .

فلما أراد خالد أن يغدو إلى الشام لبس سلاحه وأمر إخوته فلبسوا أسلحتهم ،

---

(١) الطريق إلى المدائن ص ٢٣ ـ ٢٧ .

(٢) الأزدي ٢٥ حدثني سعيد أبو المجاهد عن المحل بن خليفة عن ملحان بن زياد .

(٣) الأزدي ٢١ عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن عمرو بن محض عن سعيد بن العاص . وفي رواية للبلاذري عن أبي مخنف أن خالد بن سعيد خرج محتسبا في جيش شرحبيل . ورواية الأزدي أرجح عندنا بالنظر في الرواة ، فعبد الرحمن بن يزيد كان ثقة [الطبقات الكبرى ١٧٠/٢/٧] وقال ابن معين : ابن جابر ثقة ، وقال ابن حنبل : ليس به بأس ، وقال ابو حاتم : صدوق [ميزان الاعتدال ٥٩٨/٢ ـ ٥٠٠٦] وقال ابو داود : ثقة مأمون [خلاصة التذهيب] . أما البلاذري فقد توفي ٢٧٩ هـ وتوفي ابو مخنف لوط بن يحيى ١٥٧ هـ وبينهما هشام بن السائب الكلبي المتوفي ٢٠٤ هـ . ابو مخنف ضعفوه جميعا ولم نقف على من يوثقه . وهشام متروك رافضي ليس بثقة ، قال ابن حنبل : ما ظننت أن أحدا يحدث عنه وهو في الضعفاء [لسان الميزان ١٩٦/٦ ـ ٧٠٠]

فكانوا عَمْراً والحكم وإبّان وغلمانه ومواليه ، ثم أقبل على أبي بكر بعد صلاة الغداة فصلى معه ، فلما قضيت الصلاة قام إليه هو وإخوته فجلسوا إليه ، وحمد خالد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ثم قال

« يا أبا بكر إن الله أكرمنا وإياك والمسلمين طرا بهذا الدين ، فأحق من أقام السُّنَّة وأمات البدعة وعدل في السيرة الوالي على الرعية ، وكل أمرىء من أهل هذا الدين محقوق بالإحسان،ومَعْدَلَةُ الوالي أعم نفعا،فاتق الله يا أبا بكر فيمن ولاك الله أمره ، وارحم الأرملة واليتيم وأعن الضعيف المظلوم ، ولا يكن رجل من المسلمين إذا رضيت عنه آثر عندك في الحق منه إذا[1] سخطت عليه . ولا تغضب ما قدرت على ذلك فإن الغضب يجر الجور . ولا تحقد على مسلم وأنت تستطيع فإن حقدك على المسلم يجعلك له عدوا ، وإن اطلع على ذلك منك عاداك . فإذا عادى الوالي الرعية وعادت الرعية الوالي كان ذلك قَمِنا أن يكون إلى هلاكهم داعيا . وكن لينا للمحسن واشدد على المريب ولا تأخذك في الله لومة لائم ... هات يدك فإني لا أدري هل نلتقي في الدنيا بعد هذا اليوم أم لا ، فإن قضى الله لنا التقاء فنسأل الله عفوه وغفرانه ، وإن كانت هي الفرقة التي ليس بعدها التقاء فأشهدنا الله وإياك وجه النبي ﷺ في جنات النعيم » .

فأخذ أبو بكر بيده وبكى خالد والمسلمون وعلموا أنه يريد الشهادة وطال بكاؤهم حتى قال له أبو بكر « انتظر نمشِ معك » .

قال « ما أريد أن تفعل » .

قال « لكني أريد ذلك ومن أراده من المسلمين » .

فقام وقام الناس معه يمشون حتى خرجوا من بيوت المدينة . قال سعيد بن العاص « فما رأيت مُشَيَّعاً من المسلمين كان أكثر ممن شيع خالد بن سعيد وإخوته » . قال له أبو بكر « إنك قد أوصيتني برشدي وقد وعيته ، وأنا موصيك

---

(١) لعله كان يشير إلى وجهة نظره في شأن عزله بعد توليته .

فاستمع وصيتي وعِهَا . إنك امرؤ قد جعل الله لك سابقة في الاسلام وفضيلة عظيمة ، والناس ناظرون إليك ومستمعون منك ، وقد خرجت في هذا الوجه العظيم الأجر ، وأنا أرجو أن يكون خروجك فيه لحسبة ونية صادقة إن شاء الله ، فَثبِّت العالم وعلّم الجاهل وعاتب السفيه المترف وانصح لعامة المسلمين واخصص الوالي على الجند مّن نصيحتك ومشورتك ما يحق لله وللمسلمين عليك ، واعمل لله كأنك تراه ، واعدد نفسك في الموتى واعلم انّا عما قليل ميتون ، ثم مبعوثون ، ثم مساءلون ومحاسبون . جعلنا الله وإياك لأنعمه من الشاكرين ولنقمه من الخائفين » .

كانوا جميعا يمشون على أقدامهم ، وأخذ أبو بكر بيده فودعه وأخذ بأيدي إخوته فودعهم رجلا رجلا وودعهم المسلمون . ثم دعوا بإبلهم فركبوها وقادوا خيولهم وخرجوا بهيئة حسنة . فلما أدبروا عاد أبو بكر ومن معه من المسلمين إلى المدينة وهو يقول « اللهم احفظهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم واحطط أوزارهم وأعظم أجورهم » .

وفي تقديرنا أن خروج خالد بن سعيد من المدينة إلى تيماء كان في حوالي ١٤ شعبان ١٢ هـ ٢٤ اكتوبر ٦٣٣ .

ابن ذي السهم الخثعمي (١)

وقدم من اليمن جماعة من خثعم دون الألف وفوق(٢) التسعمائة عليهم ابن ذي السهم الخثعمي فقال لأبي بكر ،

« إنا قد تركنا الديار والأموال والأصول وأقبلنا بنسائنا وأبنائنا ، ونحن نريد جهاد المشركين فماذا ترى لنا في أولادنا ونسائنا ، أنخلفهم عندك ونمضي فإذا جاء الله

(١) كان في جيش العراق عبد الله بن ذي السهمين الخثعمي على ٢٠٠ مع المثنى وكان على الركبان في جيش القادسية مع سعد بن أبي وقاص وله ذكر في معركة القادسية وهو غير ابن ذي السهم المذكور هنا حيث استشهد هذا في اليرموك .

(٢) الأزدي ٢٥ حدثني قدامة بن جابر عن سفيان .

بالفتح بعثنا إليهم فأقدمتهم علينا ، أم ترى لنا أن نخرجهم معنا ونتوكل على ربنا ؟ »

قال أبو بكر « سبحان الله . يا معشر المسلمين هل سمعتم ممن سار من المسلمين إلى أرض الروم وأرض الشام ذكر عن الأولاد والنساء مثل ذكر أخي خثعم ؟ أما إني أقسم لك يا أخا خثعم أني لو سمعت هذا القول منك والناس مجتمعون عندي قبل أن يشخصوا لأحببت أن احتبس عيالاتهم عندي ، وأسرحهم وليس معهم من النساء والأولاد ما يشغلهم ويهمهم حتى يفتح الله عليهم ، ولكنه قد مضى عظم الناس وذراريهم ولك بجماعة المسلمين أسوة وأنا أرجو أن يدفع الله بعزته عن حرمة الإسلام وأهله ، فسر في حفظ الله وكنفه فإن بالشام أمراء وجهناهم إليها ، فأيهم أحببت أن تصحب فاصحب » .

فسار ابن ذي السهم بمن معه حتى لحق بيزيد بن أبي سفيان فانضم إلى جيشه .

رد هرقل

وبلغت أخبار هذه التحركات(١) إلى هرقل ملك الروم وهو بفلسطين ، ولا تذكر المصادر في أي مدن فلسطين كان ومن المحتمل أنه كان في بيت المقدس ، فلما مضت جيوش أبي بكر إلى الشام حتى علم بها هرقل وقال له أصحابه « قد أتتك العرب وجمعت لك جموعا عظيمة ، وهم يزعمون أن نبيهم الذي بُعث إليهم قد أخبرهم أنهم يظهرون على أهل هذه البلاد . وقد جاءوك وهم لا يشكون أن هذا سيكون ، وجاءوك مع ذلك بنسائهم وأولادهم تصديقا لمقالة نبيهم ، يقولون لو دخلناها فتحناها ونزلنا بنسائنا وأولادنا » ! قال هرقل « فذلك أشد لشوكتهم إذا قاتل القوم عن تصديق ويقين ، وأشد على من يكابدهم أن يزيلهم عن رأيهم أو يصدهم عن أمرهم » .

(١) الأزدي ٢٧ حدثني عبد الملك بن نوفل عن ابي سعيد المقبري وعن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص .

ثم جمع هرقل أهل البلاد وأشراف الروم ومن كان على دينه من العرب ، وخطبهم فقال « يا أهل هذا الدين إن الله عز وجل قد كان إليكم محسنا وكان لدينكم هذا معزًّا وله ناصرا على الأمم الخالية وعلى كسرى والمجوس وعلى الترك الذين لا يعلمون وعلى من سواهم من الأمم كلها . وذلك أنكم كنتم تعملون بكتاب ربكم وسنة نبيكم الذي كان أمره رشدا وفعله هدى . فلما بدلتم وغيرتم أطمع ذلك فيكم قوما والله ما كنا نعتدهم ولا نخاف أن نبتلى بهم ، وقد ساروا إلينا حفاة عراة جياعا أخرجهم إلى بلادكم قحط المطر وجدوبة الأرض وسوء الحال ، فسيروا إليهم فقاتلوهم عن دينكم وعن بلادكم وعن نسائكم وأولادكم . وأنا شاخص [خارج] عنكم ومدكم بالخيول والرجال حاجتكم . وقد أمّرت عليكم امراء فاسمعوا لهم وأطيعوا »

نزوح هرقل الى انطاكية

ثم خرج هرقل من فلسطين في حوالي ٢٣ شعبان ١٢ هـ ٢ نوفمبر ٦٣٣ إلى دمشق ، فقال فيها مثل هذا المقال ثم خرج منها في حوالي ٢٨ شعبان ١٢ هـ ٧ نوفمبر ٦٣٣ حتى أتى حمص ، فأعاد القول ، ثم خرج منها في حوالي ٣ رمضان ١٢ هـ ١٣ نوفمبر ٦٣٣ إلى أنطاكية بأقصى بلاد الشام فبلغها في حوالي ٩ رمضان ١٢ هـ ١٨ نوفمبر ٦٣٣ فأقام بها واتخذها مقرا له وبعث إلى الروم يطلب حشودهم وجيوشهم ، فجاءته منهم أعداد غفيرة ، يقول الرواة : لا يحصى عددهم إلا الله . ونفر إليه مقاتلوهم ورجالهم وشبانهم وأتباعهم ، وأعظموا دخول المسلمين العرب عليهم وخافوا أن يسلبوهم ملكهم وبلادهم . ولا شك أن أهل الشام وحكامها كانت تبلغهم أخبار ما يفعل المسلمون بالعراق منذ عام أو أقل ، فماذا لو فعل المسلمون بالشام مثل أفاعيلهم بالعراق !!

من أبي عبيدة الى أبي بكر [١]

١٦ رمضان ١٢ هـ ٢٥ نوفمبر ٦٣٣ تقريبا

« بسم الله الرحمن الرحيم .

لعبد الله أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ من أبي عبيدة بن الجراح .

سلام عليك . فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد . فإنا نسأل الله أن يعز الإسلام وأهله عزا متينا وأن يفتح لهم فتحا يسيرا ، فإنه بلغني أن هرقل ملك الروم نزل قرية من قرى الشام تدعى أنطاكية وأنه بعث إلى أهل مملكته فحشرهم إليه ، وأنهم نفروا إليه على الصعب والذلول . وقد رأيت أن أعلمك ذلك فترى فيه رأيك .

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

من أبي بكر الى أبي عبيدة

٢ شوال ١٢ هـ ١٠ ديسمبر ٦٣٣ تقريبا

« بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت فيه من أمر هرقل ملك الروم . فأما منزله بأنطاكية فهزيمة له ولأصحابه وفتح من الله عليك وعلى المسلمين . وأما ما ذكرت من حشره لكم أهل مملكته وجمعه لكم الجموع فإن ذلك ما قد كنا وكنتم تعلمون أنه سيكون منهم وما كان قوم ليدعوا سلطانهم ويخرجوا من ملكهم بغير قتال .

وقد علمت والحمد لله قد غزاهم رجال كثير من المسلمين يحبون الموت حب عدوهم للحياة ويرجون من الله في قتالهم الأجر العظيم ويحبون الجهاد في سبيل الله

(١) الأزدي ٣٠ عن أبي حفص الأزدي

أشد من حبهم أبكار نسائهم وعقائل أموالهم ، الرجل منهم عند الفتح خير من ألف رجل من المشركين ، فالقهم بجندك ولا تستوحش لمن غاب عنك من المسلمين ، فإن الله معك وأنا مع ذلك مُمِدُّك بالرجال حتى تكتفي ولا تريد أن تزداد إن شاء الله .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وبعث أبو بكر بالكتاب مع دارم العبسي إلى أبي عبيدة

وقدم عبد الله بن قرط الثمالي برسالة من يزيد بن أبي سفيان إلى أبي بكر .

من يزيد الى أبي بكر

١٦ رمضان ١٢ هـ ـ ٢٥ نوفمبر ٦٣٣

« بسم الله الرحمن الرحيم .

أما بعد . فإن ملك الروم هرقل لما بلغه مسيرنا إليه ألقى الله الرعب في قلبه فتحمل فنزل أنطاكية ، وخلّف أمراء من جنده على مدائن الشام وأمرهم بقتالنا . وقد تيسروا لنا واستعدوا .

وقد أخبرنا مسالمة الشام أن هرقل استنفر أهل مملكته ، وأنهم قد جاءوا يجرّون الشوك والشجر ، فمُرْنا بأمرك وعجّل في ذلك برأيك نتبعه إن شاء الله ، ونسأل الله النصر والصبر والفتح وعافية المسلمين .

والسلام عليك ورحمة الله » .

قال أبو بكر لعبد الله بن قرط « أخبرني خبر الناس » .

قال عبد الله « المسلمون بخير ، قد دخلوا أدنى الشام وقد رعب أهلها منهم .

وقد ذكر لنا أن الروم قد جمعت لنا جموعا كثيرة جَمَّة ولم يلقنا عدونا بعد ونحن في كل يوم نتوقع لقاء العدو ونَتَوَكَّفه [ننتظره] وإن نحن لم تأتنا جيوش من قبل هرقل فليست الشام بشيء »

قال أبو بكر « أصدقني الخبر »

قال « وما لي لا أصدقك الخبر ؟ ويحلّ لك الكذب ! أو يصلح لمثلي أن يَكْذب مثلك ! ولو كَذَبْتُكَ في هذا ألم أخن أمانتي وأخن ربي وأخنك وأخن المسلمين »

فقال ابو بكر « معاذ الله ، لست من أولئك » .

وكتب أبو بكر إلى يزيد ، وقال لعبد الله « أخبره وأخبر المسلمين بأني مُمِدُّ المسلمين مع هاشم بن عتبة وسعيدبن عامر بن حذيم » .

من أبي بكر الى يزيد

٣ شوال ١٢ هـ ١١ ديسمبر ٦٣٣

« بسم الله الرحمن الرحيم .

أما بعد ، فقد بلغني كتابك تذكر فيه تحويل ملك الروم إلى أنطاكية ، وألقى الله الرعب في قلبه من جموع المسلمين . فإن الله وله الحمد قد نصرنا ونحن مع رسول الله ﷺ بالرعب وأمدنا بملائكته الكرام . وأن ذلك الدين الذي نصرنا الله به بالرعب هو الدين الذي ندعو الناس إليه اليوم . فوربك لا يجعل الله المسلمين كالمجرمين ، ولا من يشهد أن لا إله إلا الله كمن يعبد معه آلهة آخرين ويدين بعبادة آلهة شتى . فإذا لقيتموهم فانهد إليهم بمن معك وقاتلهم فإن الله لن يخذلك . وقد نبأنا الله تبارك أن الفئة القليلة مما تغلب الفئة الكثيرة بإذن الله . وأنا مع ذلك مُمِدُّك بالرجال في إثر الرجال حتى تكتفوا ولا تحتاجوا إلى زيادة إنسان إن شاء الله . والسلام عليك ورحمة الله » .

فقرأ يزيد الكتاب على المسلمين ففرحوا به واستبشروا .

من أبي عبيدة الى ابي[١] بكر
٦ شوال ١٢ هـ ١٤ ديسمبر ٦٣٣

« بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد . فالحمد لله الذي أعزنا بالاسلام وأكرمنا بالايمان وهدانا لما اختلف المختلفون فيه بإذنه ، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

وإن عيوني من أنباط الشام أخبروني أن أوائل أمداد ملك الروم قد وقعوا عليه [وصلوا إليه] وأن أهل مدائن الشام بعثوا رسلهم إليه يستمدونه ، وأنه كتب إليهم أن أهل مدينة من مدائنكم اكثر ممن قدم عليكم من العرب فانهضوا إليهم فقاتلوهم فإن مددي يأتيكم من ورائكم .

فهذا ما بلغني عنهم ، وأنفس المسلمين ليِّنة [راضية] بقتالهم . وقد أخبرونا أنهم قد تهيأوا لقتالنا ، فأنزل الله على المؤمنين نصره وعلى المشركين رجزه إنه بما يعملون عليم . والسلام » .

هاشم بن عتبة يلحق بأبي عبيدة
٢٨ شوال ١٢ هـ ٥ يناير ٦٣٤

ودعا أبو بكر[٢] هاشم بن عتبة بن أبي وقاص فقال له

« يا هاشم إن من سعادة جدّك ووفاء حظك أنك أصبحت ممن تستعين به الأمة على جهاد عدوها من المشركين وممن يثق الوالي بنصيحته ووفائه وعفافه وبأسه . وقد بعث إليّ المسلمون يستنصرون على عدوهم من الكفار ، فسر إليهم فيمن تبعك ، فإني نادب الناس معك ، فاخرج حتى تقدم على أبي عبيدة أو يزيد » .

قال هاشم « لا بل على أبي عبيدة » .

(١) الأزدي ٤٤ حدثني عبد الملك بن نوفل عن ابيه عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل

(٢) الأزدي ٣٣ حدثني أبو عبادة عن جده .

قال « فأقدم على أبي عبيدة » .

وقام أبو بكر في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد . فإن إخوانكم من المسلمين معافون مدفوع عنهم مصنوع لهم ، وقد ألقى الله الرعب في قلوب عدوهم منهم وقد اعتصموا بحصونهم وأغلقوا أبوابها دونهم عليهم . وقد جاءتني رسلهم يخبرونني بهرب هرقل ملك الروم من بين أيديهم حتى نزل قرية من قرى الشام في أقصى الشام . وقد بعثوا إليّ يخبرونني أنه قد وجه إليهم هرقل جندا من مكانه ذلك ، فرأيت أن أمد إخوانكم المسلمين بجند منكم يشدد الله بكم ظهورهم ويكبت به عدوهم ويلقي بهم الرعب في قلوبهم . فانتدبوا رحمكم الله مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص واحتسبوا في ذلك الأجر والخير ، فإنكم ان نصرتم فهو الفتح والغنيمة وإن تهلكوا فهي الشهادة والكرامة » .

ثم انصرف أبو بكر إلى منزله ومال الناس إلى هاشم حتى كثروا ، فلما أتموا ألفا أمره أبو بكر أن يسير ، فجاءه هاشم فسلم عليه وودعه ، فقال له أبو بكر

« يا هاشم إنا إنما كنا ننتفع من الشيخ الكبير برأيه ومشورته وحسن تدبيره ، وكنا ننتفع من الشاب بصبره وبأسه ونجدته . وإن الله عز وجل قد جمع لك تلك الخصال كلها وأنت حديث السن مستقبل الخير ، فإذا لقيت عدوك فاصبر وصابر واعلم أنك لا تخطو خطوة ولا تنفق نفقة ولا يصيبك ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله إلا كتب الله لك به عملا صالحا . إن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

فقال هاشم « إن يرد الله بي خيرا يجعلني كذلك وأنا أفعل ولا قوة إلا بالله . وأنا أرجو إن أنا لم أُقتَل أن أَقتُل ثم أُقتَل إن شاء الله » .

وكان عمه سعد بن أبي وقاص حاضرا فقال

« يا ابن أخي لا تطعن طعنة ولا تضرب ضربة إلا وأنت تريد بها وجه الله ، واعلم أنك خارج من الدنيا رشيدا وراجع إلى الله قريبا ولن يصحبك من الدنيا إلى الآخرة إلا قَدَمَ صدق قدَّمْتَه أو عملُ صالح أسلفته »

فقال « أي عم ، لا تخافن مني غير هذا . إني إذا لمن الخاسرين إن جعلت رحلي وارتحالي وغدوي ورواحي وطعني برمحي وضربي بسيفي رياء للناس » .

وخرج هاشم بن عتبة من عند أبي بكر في حوالي ٢٨ شوال ١٢هـ فسلك الطريق الذي سلكه أبو عبيدة حتى قدم عليه بمن معه في حوالي ٢١ ذو القعدة ١٢ هـ ٢٧ يناير ٦٣٤ فتباشر المسلمون بمقدمه وسروا به .

خروج سعيد بن عامر
٧ ذو القعدة ١٢ هـ ١٣ يناير ٦٣٤

وبلغ سعيد بن عامر بن حذيم أن أبا بكر يريد أن يبعثه ، فلما أبطأ عليه ومكث أياما لا يذكر له أبو بكر شيئا قال له

« يا أبا بكر قد بلغني أنك أردت أن تبعثني في هذا الوجه ثم رأيتك قد سكتّ فما أدري ما بدا لك . فإن كنت تريد أن تبعث غيري فابعثني معه ، فما أرضاني بذلك ، وإن كنت لا تريد أن تبعث أحداً فإن لي رغبة في الجهاد فأذن لي رحمك الله كيا ألحق بالمسلمين ، فقد ذكر لي أن الروم قد جمعت لإخواننا جمعا عظيماً . »

قال أبو بكر « رحمك الله ارحم الراحمين يا سعيد بن عامر بن حذْيم . فإنك ما علمت من المتواضعين المتواصلين المجتنبين المجتهدين بالأسحاء الذاكرين الله كثيرا »

فقال سعيد « رحمك الله ، إن نعم الله عليّ أفضل مما عسيت أن تذكر فله المن والطول والفضل علينا وأنت والله ما علمت ، صَدُوعٌ بالحق قوَّام بالقسط رحيم بالمؤمنين شديد على الكافرين تحكم بالعدل والحق لا تستأثر في القسْم ... »

فال أبو بكر يقاطعه

حسبك يا سعيد حسبكَ .. اخرج رحمك الله فتجهز فإني مسرّح إلى المسلمين جندا مددا لهم ومؤمرك عليهم » .

ثم أمر أبو بكر بلالا فنادى في الناس « ألا انتدبوا أيها المسلمون مع سعيد بن

عامر بن حذيم إلى الشام »

فاجتمع له سبعمائة رجل في أيام معدودة . فلما أراد سعيد المسير جاء بلال بن أبي رباح مؤذن الرسول ﷺ إلى أبي بكر فقال

« يا خليفة رسول الله إن كنت إنما اعتقتني لأقيم معك وتمنعني مما أرجو لنفسي فيه الخير أقمت معك . وإن كنت إنما اعتقتني لله لأملك نفسي واضطرب فيما ينفعني فخلّ سبيلي حتى أجاهد في سبيل ربي ، فإن الجهاد أحب إليّ من المقام » . فقال له أبو بكر « وإن الله يشهد أني لم أعتقك إلا له وإني لا أريد لك جزاء ولا شكورا وإني لأحب أن تدع هواك لهواي ما دعاك هواك إلى طاعة ربي » .

قال بلال « إن شئتَ أقمتُ »

فقال أبو بكر « أما إذا كان هواك في الجهاد فلم أكن لآمرك بالمقام ، إنما كنت أريدك للأذان وإني لأجد لفراقك وحشة يا بلال فما بد من التفرق فرقة لا لقاء بعدها أبدا حتى يوم البعث . فاعمل صالحا يا بلال يكن زادك من الدنيا ويذكرك الله به ما حييت ، ويحسن لك به الثواب إذا توفيت » .

قال بلال « جزاك الله من ولي نعمة وأخ في الإسلام خيرا . فوالله ما أمرك لنا بالصبر على طاعة الله والمداومة على الحق والعمل الصالح ببدْع . وما أريد أن أؤذن لأحد بعد رسول الله ﷺ » .

وانضم بلال إلى المسلمين الذين اجتمعوا للخروج مع سعيد بن عامر . وجاء سعيد على راحلته حتى وقف امام أبي بكر وعنده جمع خمسون رجلا من المسلمين فقال « إنا نؤمر هذا الوجه فجعله الله وجه بركة . اللهم فإن قضيت لنا التقاء فاجمعنا على طاعتك ، وإن قضيت علينا فرقة فإلى رحمتك والسلام » .

ثم تولى وسار . فقال أبو بكر لمن معه

« عباد الله ادعو الله لأخيكم كيا يصحبه ويسلمه وارفعوا أيديكم رحمكم الله » .

فرفعوا أيديهم ، فقال أبو بكر

« ما رفع عدد من المسلمين أيديهم إلى ربهم يسألونه شيئا إلا استجاب لهم ما لم يدعوا بمعصية أو قطيعة رحم » .

وقد بلغ هذا إلى سعيد بعد أن بلغ الشام وقاتل الروم بها فقال

« رحم الله إخواني . ليتهم لم يكونوا دعوا لي . قد كنت خرجت وأنا على الشهادة حريص وأنا أرجوها ، فما هو إلا أن لقيت العدو فعصمني الله من الهزيمة والفرار ، وتعرضت للشهادة ، فذهب من نفسي ما كنت أعرف من حب الشهادة . فلما بلغني أن إخواني دعوا لي بالسلامة علمت أنه قد استجيب لهم وأني سالم » .

وكان أبو بكر قد أمره أن يسير حتى يلحق بيزيد بن أبي سفيان ، فسار حتى لحقه فشهد معه موقعة العَربة والداثِنة

حمزة بن مالك الهمداني

روى حمزة بن مالك الهمداني العذري أنه قدم على أبي بكر في جمع عظيم من همذان يزيد على ألفي رجل وفي تقديرنا أن ذلك كان حوالي ٨ من ذي القعدة ١٢ هـ ١٤ يناير ٦٣٤ ، فلما رأى أبو بكر عددهم وجلدهم سُرّ بهم وقال

« الحمد لله على صنيعه للمسلمين . ما يزال الله يتيح لهم مددا من أنفسهم ما يشد به ظهورهم ويقصم به عدوهم » .

قال : ثم إن أبا بكر أمرنا أن نعسكر بالمدينة . وكنت اختلف [أتردد] إلى أبي بكر غدوة وعشيا وعنده رجال من المهاجرين والأنصار وكان يلطفني ويدني مجلسي منه ويقول لي « تعلم القرآن وأسبغ الوضوء وأحسن الركوع والسجود وصلِّ الصلاة لوقتها وأدِّ الزكاة المفروضة لحينها ، وانصح المسلم وفارق المشرك واحضر الناس يوم البأس » .

فقلت « والله لأجهدن نفسي ألا أدع شيئا مما أمرتني به الا عملته ، وإني

لأعلم أنك قد اجتهدت لي في النصيحة وأبلغتَ في الموعظة »

ثم إنه خرج إلى عسكرنا فأمرنا أن نَتَيسرَّ ونتجهز ونشتري حوائجنا ثم نعجّل على أصحابنا . فتحششنا [أسرعنا] لذلك وعجلنا الجهاز فلما فرغنا بعث إليّ فقال « يا أخا همذان إنك شريف رئيس بئيس ذو عشيرة فأحضرهم البأس ولا تُؤْذِ بهم الناس » .

وكان معي رجال من أهل القرى من همذان فيهم جهل وجفاء فكان أهل المدينة قد تأذوا بأناس منهم فشكوا ذلك إلى أبي بكر فقال أبو بكر

« نشدتك الله امرءاً مسلما سمع نشدي وإنشادي ونشيدي لما كف عن هؤلاء القوم ، ومن رأى لي عليه حقا فليحتمل ذرب ألسنتهم [شدة ألسنتهم] وعجلة يكرهها منهم ما لم يبلغ ذلك الحد . فإن الله مهلكٌ بهؤلاء أعداءنا وبأشباههم جموع هرقل والروم ، وإنما هم إخوانكم فإن كانت منهم عجلة على أحد منكم فليحتمل ذلك ، ألم يكن ذلك أصوب في الرأي وخيرا في المعاد من أن ينتصر منهم ؟! »

قال المسلمون « بلى »

قال « فإنهم إخوانكم في الدين وأنصاركم على الأعداء ولهم عليكم حق فاحتملوا ذلك لهم »

ثم نزل [من على المنبر] ثم نظر إليّ فقال « ما تنتظر ؟ ارتحل على بركة الله » .

فارتحلت – ونقدر أن رحيله من المدينة كان في حوالي ١٥ من ذي القعدة ١٢ هـ ٢١ يناير ٦٣٤ – وقد قلت له قبل أن ارتحل « أعليَّ أمير دونك ؟ »

قال « نعم ، هناك ثلاثة قد أمَّرناهم فأيهم شئت فكن معه »

فسرت حتى دخلت أداني الشام ، فلما لحقت بالمسلمين سألتهم « أي الأمراء كان أفضل وأيهم كان أفضل عند رسول الله ﷺ »

فقالوا « أبو عبيدة بن الجراح »

فقلت في نفسي « لا والله لا أعدل بهذا الرجل أحدا » .

فجئت حتى أتيت أبا عبيدة فدخلت عليه ثم قصصت عليه قصة مخرجي ومقدمي على أبي بكر وما كان من أمري وأمر أصحابي بالمدينة وبمقدمي عليه واختياري إياه على غيره . فقال « بارك الله في مقدمك وجهادك ومجيئك إلينا ، وبارك الله لنا فيك وفيمن قدمت به علينا من المسلمين » . أ . هـ .

الأعراب حول المدينة

وقال[1] عمرو بن محصن إن أبا بكر لم يكن يسأم من توجيه الجنود إلى الشام وإمداد الأمراء الذين بعث إليها بالرجال بعد الرجال إرادة إعزاز أهل الاسلام وإذلال أهل الشرك . وقال أبو[2] سعيد المقبري « لما بلغ أبا بكر جمع الروم للمسلمين لم يكن شيء أعجب إليه من قدوم المهاجرين [المجاهدين] عليه من أرض العرب ، وكانوا كلما قدموا عليه سرحهم الأول فالأول . فقدم عليه فيمن قدم أبو الأعور السلميّ وهو عمرو بن سفيان فدخل عليه وقال

« إنا قد جئناك من غير قحمة [جوع] ولا عدم [ذهاب العير] فإن شئت أقمنا معك مرابطين وإن شئت وجهتنا إلى عدوك من المشركين » .

فقال أبو بكر « لا بل تجاهدون الكافرين وتواسون المسلمين » .

فبعثه فسار حتى قدم على أبي عبيدة .

ثم قدم معن بن يزيد بن الأخنس السلمي في رجال من بني سليم نحو من مائة رجل فقال ابو بكر « لو كان هؤلاء اكثر مما هم فيه لأمضيناهم إلى إخوانهم »

فقال له عمر بن الخطاب « والله لو كانوا عشرة لرأيت لك أن تمد بهم

(١) الأزديّ ٤١ حدثني أبو المغفل عن عمرو بن محصن .

(٢) الأزدي ٤١ حدثني عن عبد الملك بن نوفل بن مساحق [ثقة] عن أبي سعيد المقبري [كيسان بن سعيد]

إخوانهم . والله أرى لك أن تمدهم بالرجل الواحد إذا كان ذا جزاء وغناء » .

فقال حبيب بن مسلمة الفهري « عندي نحو من مثل عدتهم رجال من أفناء القبائل ولهم رغبة في الجهاد فاجمعنا وهؤلاء جميعا يا خليفة رسول الله ﷺ ثم ابعثنا .

فقال له أبو بكر « فاخرج بهم جميعا فأنت أمير القوم حتى تقدم على إخوانك »

فخرج فعسكر معهم ثم جمع أصحابه إليهم فساروا حتى قدم بهم على يزيد بن أبي سفيان .

ثم اجتمع رجال من بني كعب وأسلم وغفار ومزينة نحو من مائتي رجل فأتوا أبا بكر فقالوا « ابعث علينا رجلا وسرّحنا إلى إخواننا » . فبعث عليهم الضحاك بن قيس فسار بهم حتى أتى يزيد بن أبي سفيان فنزل معه .

وكان أهل الشام يرقبون ما يحدث ، فلما رأوا أن جيوش المسلمين وأمدادهم تجيش عليهم من كل وجه وأن جموعهم تكثر وتتزايد بعثوا رسلهم إلى ملكهم هرقل يعلمونه بما يحدث ويسألونه المدد . كان هرقل في بيت المقدس يحج فجمع مجلسه[1] وقال لهم « أرى من الرأي ألا تقاتلوا هؤلاء القوم وأن تصالحوهم ، فوالله لأن تعطوهم نصف ما أخرجت الشام وتأخذوا نصفا وتقرّ لكم جبال الروم خير لكم من أن يغلبوكم على الشام ويشاركوكم في جبال الروم . فنخر أخوه ونخر ختنه وتصدع عنه من كان حوله . فلما رآهم يعصونه ويردون عليه ، بعث أخاه وأمّر الأمراء ووجه إلى كل جند جندا . وكتب لمن أرسل إليه .

« إني قد عجبت لكم حين تستمدونني وحين تكثرون عليّ عدد من جاءكم من العرب وأنا أعلم بهم وبمن جاء منهم . ولأهل مدينة واحدة من مدائنكم اكثر ممن جاءكم أضعافا مضاعفة ، فالقوهم فقاتلوهم . ولا تظنوا أني كتبت إليكم بهذا وأنا

(١) الطبري ٤٠٢/٣ س ش س عن محمد وطلحة وعمرو بن ميمون .

أريد ألا أمدكم ... لأبعثن إليكم من الجند ما تضيق به الأرض الفضاء ! »

ولا شك أن الروم قد أصابهم الذعر وهم يرون تدفق المسلمين صوب الشام ، ولا ريب أن ما كان يحدث في العراق كان يصل إلى علمهم . وإن هرقل الذي يبدي لهم تعجبه من هلعهم وطلبهم المدد هو ذاته كان أكثرهم تقديرا لخطر المسلمين على ملكه ودولته ، وكان أكثرهم ذعرا وخوفا حتى أنه رحل عن فلسطين لا إلى دمشق ولا إلى حمص ولكن إلى أنطاكية .

وتكاتبت الحاميات الرومية بالشام وأرسلوا إلى من كان على دينهم من نصارى العرب يدعونهم إلى قتال المسلمين ، فأجابوهم بأنهم معهم ينصرونهم على المسلمين ، ولو أنه كان منهم من كان ظهور المسلمين أحب إليه من غلبة الروم ، أولئك الذين لم يكونوا راسخين [1] على دينهم .

وفي رواية أن ضرار بن الخطاب الفهري ، وكان شاعرا ذا بأس شديد في القتال ، وكان ممن خرج غازيا مع أبي عبيدة ، أنه قال [2]

أبلـغ أبـا بكر إذا لقيته	بأن هرقـلا عنـكم غـير نائم
فجيشُك لا يخُذل وأمرك لا يَهُن	ألا رب مولى نصره غير عاتم

العربة وداثن

٢٤ ذو الحجة ١٢ هـ ١ مارس ٦٣٤

تضافرت الروايات [3] على أن أول المواقع على أرض الشام بعد سرية أسامة

(١) الأزدي ٤٣ عن عبد الملك بن نوفل بن مساحق عن أبيه عن سعيد بن زيد عن عمرو بن نفيل .

(٢) الأزدي ٥١ عن عبد الملك بن نوفل عن أبيه .

(٣) الأزدي ٥٢ حدثني أبو جهضم [موسى بن سالم ، صالح الحديث] عن أبي امامة الباهلي .
الطبري ٤٠٦/٣ حدثني أبو زيد عن علي بن محمد [المدائني] بالاسناد الذي ذكرت قبل .
البلاذري ١٣٠ عن الواقدي وعن أبي مخنف . كما قال حدثني أبو حفص الشامي عن مشايخ من أهل الشام .

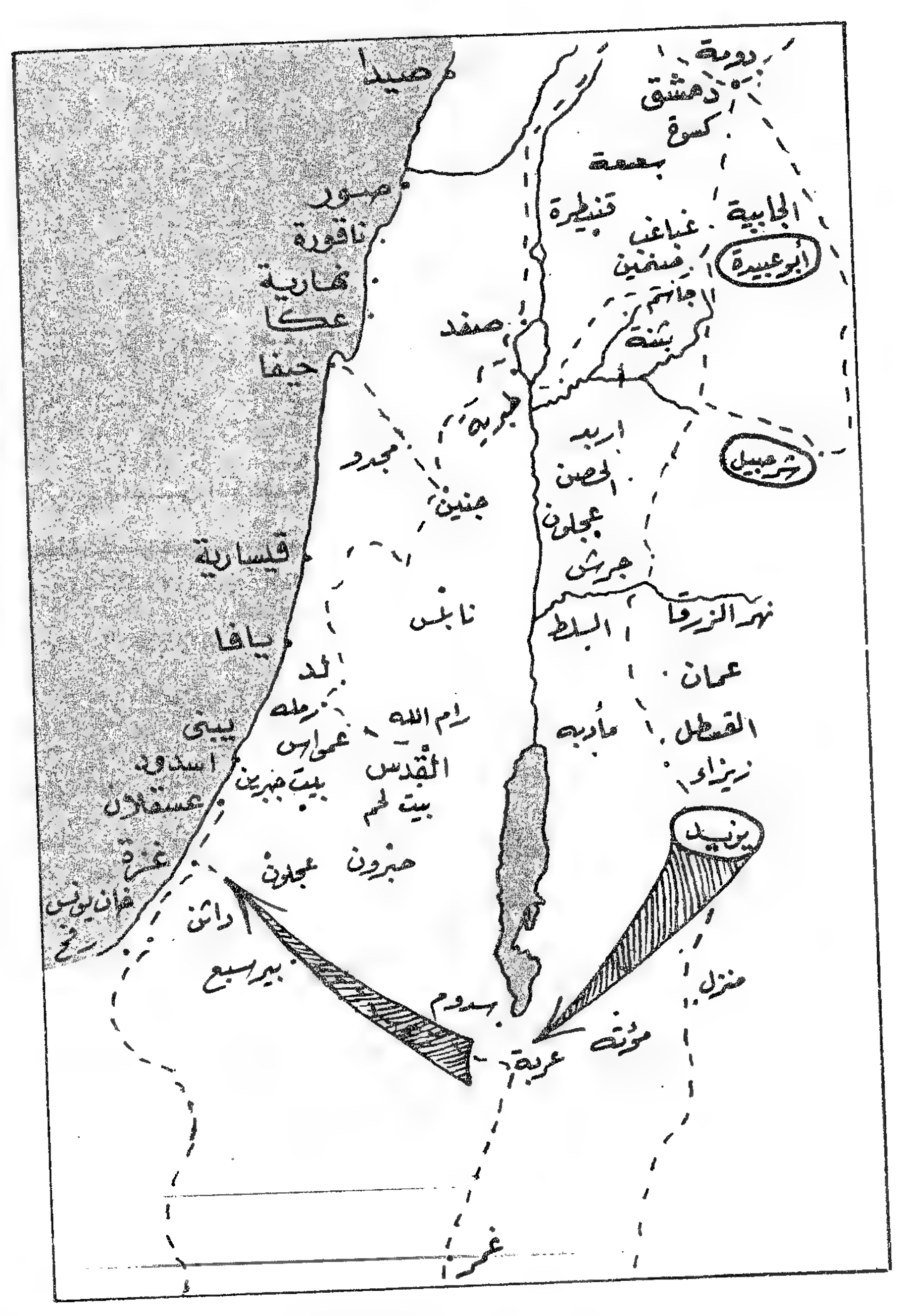
بن زيد كانت موقعة العربة وداثن [أو داثنة Dathina] ، وذكروا أنها كانت قبل قدوم خالد بن الوليد إلى الشام ، والذي نذهب إليه أنها كانت قبل قدوم عمرو بن العاص أيضا إلى فلسطين حيث دارت الموقعة على أرض فلسطين ولم يرد لعمرو ذكر فيها سوى رواية واحدة مرجوحة سوف نعرض لها فيما بعد .

فبعد أن نزل يزيد البلقاء ونزل شرحبيل نواحي بصرى ونزل أبو عبيدة الجابية كل في جيشه ، دفع الروم قوة قوامها ثلاثة آلاف مقاتل يقودها سرجيوس [1] البطريق الرومي لمدينة غزة ، وقد تكون هذه القوة خرجت من غزة إلى وادي عربة من غور فلسطين جنوبي البحر الميت . ومن شأن قوة كهذه أن تشكل خطرا على جيوش المسلمين التي تقدمت على الطريق الشرقي ـ امتداد التبوكية ـ والتي رابطت على امتداده حتى جنوبي دمشق بنحو من خمسين كيلومترا ، ونعني الجابية . إنها جيش يأتيهم من خلفهم وفي استطاعته مهاجمتهم من خلف وقطع مادة المدينة وشبه الجزيرة عنهم ، فضلا عن وجود قوة أخرى لهم في بصرى تجاه شرحبيل .

طبقا لتخطيط أبي بكر المرسوم كان المفروض أن يتصدى لهذه القوة خالد بن سعيد الذي أمره أبو بكر بلزوم تيماء ليكون احتياطيا للمسلمين ، ثم أمره أن يتقدم دون أن يقتحم حتى لا يؤتى من خلفه ، غير أن خالدا قد تقدم أكثر مما سمح له حتى أنه سبق جيش أبي عبيدة المرابط في الجابية فبلغ مرج الصُفّر من ضواحي دمشق . وبلغت أخبار سرجيوس إلى يزيد بن أبي سفيان وهو بالبلقاء ونقدر أنه كان في مكان ما شرقي البحر الميت . ولنستمع إلى القصة الموجزة لهذه الموقعة على لسان أبي أمامة الصدي بن عجلان الباهلي ، قال :

« كنت ممن سرَّح أبو بكر رضي الله عنه مع أبي عبيدة في نفر من قومي ... فكانت أول وقعة يوم العربة والداثنة وليسا من الأيام العظام ، فخرجت إلينا ستة قواد من الروم مع كل قائد خمسمائة رجل فكانوا ثلاثة آلاف رجل . فأقبلوا حتى

(١) المنجد ٢٧٧ مادة داثنة .



خريطة رقم (٥) ـ عربة وداثنة

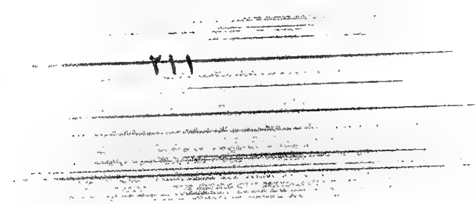
انتهوا إلى العربة ، فبعث يزيد بن أبي سفيان إلى أبي عبيدة يعلمه ذلك ، فبعثني إليه في خمسمائة رجل ، فلما أتيته بعث معي رجلا[1] في خمسمائة رجل وأقبل يزيد في آثارنا في الصف . فلما رأينا الروم حملنا عليهم فهزمناهم وقتلنا قائدا من قوادهم ثم مضوا واتبعناهم ، فجمعوا لنا بالداثنة[2] [من قرى غزة] فسرنا إليهم ، فقدمني يزيد وصاحبي في عدتنا فهزمناهم . فعند ذلك فزعوا واجتمعوا وأمدهم ملكهم » .

أما الرواية التي نرفضها فتقول « سار المسلمون وعليهم الأمراء يزيد وعمرو وأبو عبيدة وشرحبيل كل على عسكر . ومن كانت الوقعة مما يلي عسكره فهو على أصحابه . وساروا ومعهم النساء والذرية بالخيل والسلاح ، ليس معهم حمار ولا شاة . فأخذوا على طريق فلسطين حتى نزلوا بقرية يقال لها داثن من قرى غزة ومما يلي الحجاز ، فلقيهم بها بطريق من بطارقة الروم فأرسل إليهم أن يخرجوا إليه أحد القواد ليكلمه ، فتواكلوا ذلك وقالوا لعمرو بن العاص أنت لذلك . فخرج إليه عمرو فرحب به البطريق ، ومَتَّ إليه بقرابة العيص بن اسحق بن ابراهيم من اسماعيل بن ابراهيم ، وقال ما الذي جاء بكم ؟ فقد كانت الآباء اقتسمت الأرض فصار لكم ما يليكم وصار لنا ما يلينا ، وقد عرفنا أنكم إنما أخرجكم من بلادكم الجهد، وسنأمر لكم بمعروف وتنصرفون . فقال عمرو : أما القرابة فهي على ما ذكرت ، وأما القسمة فإنها كانت قسمة شططا علينا . فنحن نريد أن نتراد حتى تكون قسمة معتدلة لنأخذ نصف ما في أيديكم من الأنهار والعمارة ونعطيكم نصف ما في أيدينا من الشوك والحجارة . وأما ما ذكرت من الجهد الذي أخرجنا فإنا قدمنا فوجدنا في هذه البلاد شجرة يقال لها الحنطة فذقنا منها طعاما لا نفارقكم حتى نصيركم عبيدا أو تقتلونا تحت أصول هذه الشجرة . قال فالتفت إلى أصحابه فقال صدقوا . وافترقا فاقتتلوا فكانت بينهم معركة انصرف القوم على حامية . ومضى المسلمون في آثارهم حتى

---

(١) لم يذكر اسمه ، والذي نرجحه أنه كان زمعة بن الأسود قائد مقدمة يزيد .

(٢) الداثنة لم نجدها على أي خريطة مما تحت أيدينا ولم يرد لها ذكر عند الاصطخري وابن خرداذبة وقدامة والقزويني وابن بطوطة . ويبدو أنها من الناحية الجغرافية كانت أهون من أن يكون لها ذكر .



طووهم عن فلسطين والأردن إلا ما كان من إيلياء وقيسارية تحصن فيهما أناس فتركوهم ومضوا إلى ناحية البثنية ودمشق » .

أما رفضنا لها فلأسباب أربعة :

١ ـ مناقضتها لشريعة الإسلام ، فمن المسلم به أن قواعد الإسلام تقضي بشرح الدعوة قبل القتال وهذه الرواية على النقيض من ذلك ، فتذكر أن البطريق يرحب بعمرو ثم تنسب إلى عمرو ذلك العرض الذي لم يمس به عرض دين الإسلام لا من قريب ولا من بعيد وإنما تحدث عن الطمع في الأرض والحنطة وما إلى ذلك . ومثل هذا الحوار بين دعاة المسلمين وبين أعدائهم كثير مدسوس على التاريخ الإسلامي ، أردنا من إيراد هذه الرواية تبيان ذلك والتحذير منها ومن مثيلاتها سواء في فتوح الشام أو العراق وفارس .

٢ ـ مناقضتها لعلم الحرب فما كان لأبي بكر أن يوزع الشام قطاعات على قواد جيوشه بحيث يكون الذي تقع المعركة في منطقته هو القائد العام ! ومحال أن يكون وراء ذلك أي حكمة سياسية أو حربية تدعو أبا بكر أن ينتهجها .

٣ ـ مناقضتها للروايات الكثيرة الأوثق منها التي جعلت لجيوش الشام قائدا عاما واحدا هو أبا عبيدة بن الجراح ، قبل قدوم خالد بن الوليد، وللروايات التي لم تذكر أن أبا عبيدة وشرحبيل وعمرو بن العاص قدموا مع يزيد إلى العربة والداثنة وللروايات التي ذهبت إلى إصرار الروم على قتال المسلمين ورفضهم رأى هرقل في الصلح معهم على شيء يجعلونه لهم وتذهب هذه الرواية أن البطريق عرض على عمرو أن يأمرهم بمعروف وينصرفون .

٤ ـ تهافت رواة هذه الرواية ونترك ذلك لما جاء بالهامش[1] .

(١) ابن عساكر ٤٦١/١ قرأت على أبي محمد بن عبد الكريم بن حمزة السلمي ، انا ابو نصر محمد بن احمد بن هارون بن الجندي وأبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الحسن بن أبي العقب قالا ، أنبا ابو القاسم علي بن يعقوب بن أبي العقب ، أنا أبو عبد الملك احمد بن ابراهيم القرشي ، نا ابن عائذ

رواية أبي أمامة الباهلي تنتهي عند هزيمته للروم ويزيد يسير في أثرهم ، ثم لا يذكر ما كان بعد ذلك ، والظاهر أنهم لم يتوغلوا في فلسطين وإنما عادت قواتهم إلى مراكزها الأولى .

وذكر عن عقبة[1] بن عامر الجهني أنه قدم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه برأس يناق أحد بطارقة الروم ، فانكر ذلك أبو بكر . قال قائل : يا خليفة رسول الله إنهم يفعلون ذلك بنا . قال أبو بكر في إصرار على استنكار ذلك :

قال الوليد فحدثني يحيى عن عبد الحميد بن جعفر عن أبيه .

عبد الكريم بن حمزة السلمي من شيوخ ابن عساكر نجهله ولم نجد له ذكرا فيما رجعنا إليه من مراجع . أبو نصر محمد بن احمد بن هارون بن الجندي ، متهم بالوضع وله مناكير كثيرة ـ هذه الرواية مثال منها ـ وروايته عن قوم لا يعرفون ـ مثل من يروى عنهم هنا ـ ، مات ٣٥٥ [لسان الميزان ٤٢/٤] . عبد الرحمن بن الحسين بن الحسن بن أبي العقب نجهله . علي بن يعقوب بن ابراهيم بن أبي العقب نجهله . أحمد بن ابراهيم بن بشر القرشي نجهله ، فهذه ثلاث حلقات متصلة من المجهولين يواكبهم متهم بالوضع منكر الحديث . وقد يكون في هذا كفاية . وربما يجد القارىء هذا الإسناد أو حلقات منه في غير هذه الرواية ، فلسنا نتجاهله حيثما وقع ولكننا حين نقبله تكون الرواية مدعمة بأسانيد أخرى ، في حين أنها هنا تتناقض مع روايات عديدة أوثق منها .

(١) شرح كتاب السير الكبير ١١٠/١ .

ولم يسند السرخسي هذه الرواية ، ولم يضع الواقعة في مكانها من معركتي عربة والداثنة ، ولكننا وجدنا أن عقبة بن عامر الجهني ينتسب إلى جهينة وهم من أعراب ما حول المدينة مثل غفار ومزينة وسليم وقد كانوا في جيش يزيد بن أبي سفيان ، فالواقعة إذاً كانت من أعمال يزيد في عهد أبي بكر ، ولم يكن ذلك إلا في عربة والداثنة . لقد اشترك يزيد بجيشه في أجنادين ، ولكن أجنادين كان بشيرها إلى أبي بكر هو عبد الرحمن بن حنبل الجمحي ، وكان عقبة بن عامر من الرسل الذين يرسلهم أبو عبيدة إلى المدينة وقد ورد أنه كان رسوله إلى عمر بفتح دمشق ، ولم نقف على أي رواية عن رسول المسلمين إلى أبي بكر بعد عملية عربة والداثنة فلا يمنع أن يكون عقبه .

هذا ولا نوافق السرخسي فيما ذهب إليه بعد أن سرد الواقعة أن ينتهي إلى جواز حمل الرؤوس إلى الولاة استنادا الى أشياء فيها نظر ، فلقد كان أبو بكر أفقه بشرع الله وسنة نبيه ، ولقد استنكر أبو بكر حمل الرأس إليه وكتب إلى الأمراء ينهى عنه ، ونهى النبي ﷺ عن التمثيل بالقتلى فقضي الأمر .

فاستنان[1] بفارس والروم !؟ لقد بغيتم ، إنما يكفي الكتاب والخبر . وكتب إلى أمرائه على جيوش الشام : لا تبعثوا إليّ برأس ، ولكن يكفيني الكتاب والخبر .

إن في حمل الرؤوس إلى الولاة مثلة ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن التمثيل بالقتلى ولو بالكلب العقور ، وقال « لا أُمَثِّل فيمثل الله بي وإن كنت نبيا » .

البطريق

وُصف سرجيوس بأنه البطريق الرومي وسوف يتكرر ذكر بطارقة الروم كثيراً. وكلمة بطريق تعريب للكلمة اللاتينية[2] باتريكيوس Patricuis وهي رتبة في الجيش الروماني أنشأها الامبراطور قسطنطين ٣٠٦ ـ ٣٣٧ م . وتذكر دائرة المعارف الاسلامية أنها كانت رتبة شرفية لا تتصل بأي وظيفة وكانت تمنح لمن يؤدي للدولة خدمات جليلة ، وأنها منحت لعربي لأول مرة للحارث بن جبلة الغساني ٥٤٠ م ثم خلعت على ابنه المنذر بن الحارث ٥٧٠ م وليس هناك شواهد على أن الروم قد منحوا هذه الرتبة لعرب آخرين . وتردد ذكر الكلمة عند المؤرخين والجغرافيين المسلمين فصارت المصطلح المطرد الدال على القائد البيزنطي . وهي ليست مرتبة كنسية حتى لا يختلط الأمر بين البطريق والبطرق أو البطريرك .

من أبي بكر الى أبي عبيدة

٢٨ ذو الحجة ١٢ هـ ٥ مارس ٦٣٤ تقريباً

« بسم الله الرحمن الرحيم .

أما بعد . فقد جاءني كتابك تذكر فيه تيسر عدوكم لمواقعتكم وما كتب به ملكهم اليهم من عِدتِه إياهم أن يمدهم من الجنود ما تضيق به الأرض الفضاء .

ولعمرو الله لقد أصبحت الأرض ضيقة عليه، وعليهم بُرحها بمكانكم فيهم .

(١) يعني : أتريدون أن تعملوا بسُنَّتهم وطريقتهم ؟

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ٣١٣/٧ .

وأيم الله ما أنا بآيس أن تزيلوه من مكانه الذي هو به عاجلا إن شاء الله . فبث خيلك في القرى والسواد ، وضيق عليهم بقطع الميرة والمادة . ولا تحاصرن المدائن حتى يأتيك أمري . فإن ناهضوك فانهد إليهم واستعن بالله عليهم فإنه ليس يأتيهم مدد إلا أمددناك بمثليهم أو ضعفهم . وليس بكم والحمد لله قلة ولا ذلة ، فلا أعرفن ما جبنتم عنهم ولا ما خفتم منهم فإن الله فاتح لكم ومظهركم على عدوكم بالنصر وملتمس منكم الشكر لينظر كيف تعملون .

وعمرو فأوصيك به خيرا . وقد أوصيته ألا يضيع حقا يراه ويعرفه ، فإنه ذو رأي وتجربة . والسلام عليكم ورحمة الله » .

أمر أبو بكر عمرو بن العاص أن يسلك طريق المعرقة إلى أيلة عامدا[1] إلى فلسطين ، وكان وحده الذي أمر بذلك الطريق أما يزيد وشرحبيل وأبو عبيدة فقد سلكوا جميعا طريق تبوك إلى البلقاء عامدين علياء الشام .

وكان[2] عمرو في طريقه من المدينة إلى الشام يدعو الأعراب الذين يمر بهم إلى الانضمام إليه فانضم إليه عدد كبير منهم فبلغ الشام في جيش من ألفين ، وسر بهم أبو عبيدة وقال لعمرو

« يا عمرو لرب يوم لك قد شهدته فبورك فيه للمسلمين برأيك ومحضرك ، وإنما أنا رجل منكم . ولست وإن كنت الوالي عليكم بقاطع أمرا دونكم ، فأحضرني رأيك في كل يوم بما ترى ، فإنه ليس بي عنك غني » .

قال عمرو « أفعل والله يوفقك لما يصلح المسلمين » .

(١) البلاذري ١٢٩ .
الطبري ٣٩٠/٣ س ش س عن هشام بن عروة ، عن أبيه .
تاريخ خليفة بن خياط ١٠٣/١ حدثنا بكر عن ابن اسحق .

(٢) الأزدي ٥١ حدثني الصعب بن زهير [ثقة] عن عمرو بن شعيب [وثقه بعضهم وضعفه أبو داود] .
وفي رواية لابن عساكر ٤٤٦/١ عن الواقدي أن عمرو بن العاص خرج من المدينة في ٣٠٠٠ .

وما زال أبو بكر يبعث بالأمراء إلى الشام أميرا[1] أميرا ، ويبعث بالقبائل قبيلة قبيلة حتى ظن أنهم قد اكتفوا وأنهم لا يبالون الا يزدادوا رجلاً .

سادات قريش

جاء كتاب أبي عبيدة[2] إلى أبي بكر في حوالي ٢١ شوال ١٢ هـ ٢٩ ديسمبر ٦٣٣ فاجتمع إليه أشراف المهاجرين والأنصار وأهل السابقة منهم ، فدعا أبو بكر بأشراف أهل مكة ، فقال له عمر بن الخطاب « لأي شيء دعوت بأهل مكة[3] مع المهاجرين والأنصار ؟ »

قال أبو بكر « لأستشيرهم في هذا الأمر الذي كتب إلينا فيه » .

فقال عمر « أما المهاجرون والأنصار فأهل المشورة والاستنصاح ، وأما رجال أهل مكة الذين كنا نقاتلهم لتكون كلمة الله هي العليا ويقاتلوننا ليطفئوا نور الله بأفواههم جاهدين على قتلنا وذلنا أن قلنا ليس مع الله آلهة أخرى وقالوا مع الله آلهة أخرى ، فلما أعز الله دعوتنا وصدق أحدوثتنا ونصرنا عليهم تريد أن تقدمهم في الأمور وتستشيرهم فيها وتستنصحهم وتدنيهم دون من هو خير منهم ؟ فما نصحنا [أخلصنا] إذاً بصلحائنا الذين كانوا يقاتلونهم في الله حين تقدمهم دونهم فلا نراهم ! إذاً وضعهم عندنا جهادهم إيانا وجهدهم علينا ، والله لا تفعل ذلك أبداً . فقال له أبو بكر « إنه قد حسن إسلامهم ، ولقد كنت أريد أن أدنيهم أنزلهم بالمنازل التي

(١) الأزدي ٥٢ حدثني محمد بن يوسف ، عن ثابت بن سهل بن سعد .

(٢) الأزدي ٤٥ حدثني عبد الملك بن نوفل عن أبيه عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل.
وتذكر الرواية أن هذا الاجتماع كان على أثر وصول رسالة أبي عبيدة ، ولعل الذي تستقيم به الأحداث أن يكون هذا الاجتماع قد تم في مكة أثناء تواجد أبي بكر بها حاجا فيما بين ٧ من ذي الحجة ١٢ هـ ٦٣٤/٢/١٢ م إلى ١٤ من ذي الحجة ١٢ هـ ٦٣٤/٢/١٩ م. ولعل سادات قريش أن يكونوا قدموا مع أبي بكر المدينة ثم خرجوا منها إلى الشام في جيش عمرو.

(٣) في الأصل [من] ونذهب إلى أن الصواب [مع] .

كانوا بها في قومهم من الشرف ، فأما إذ ذكرتَ ما ذكرتَ فقد رأيت أن الرأي في هذا رأيك » .

وبلغ هذا الحوار أشراف قريش المعنيين فشق الأمر عليهم . قال الحارث بن هشام « إن عمر بن الخطاب كان في شدته علينا قبل أن يهدينا الله إلى الإسلام مصيبا ، أما الآن حين هدانا الله إلى الإسلام فلا نراه في شدته علينا إلا قاطعا » .

ثم خرج مع سهيل بن عمرو في رجالات من قريش حتى أتوا أبا بكر وعنده عمر ، فقال الحارث « إنك يا عمر قد كنت في شدتك علينا قبل الإسلام مصيبا ، فأما الآن فقد هدانا الله إلى الإسلام فلا نراك في شدتك علينا إلا قاطعا » .

وجثا سهيل بن عمرو على ركبتيه وقال « إيـاك يا عمر نخاطب وعليك نعتب ، فأما خليفة رسول الله فبريء عندنا من الضغن والحقد والقطيعة . ألسنا إخوانكم في الإسلام وبني أبيكم في النسب ؟ فإنكم إن كان الله قدم لكم في هذا الأمر قدماً صالحاً لم نؤت مثله لقاطعوا أرحامنا مستهينون بحقنا ! »

وقال عكرمة بن أبي جهل « إنكم وإن كنتم تجدون في عداوتنا قبل اليوم مقالا فلستم اليوم بأشد على من ترك هذا الدين وعادى المسلمين منا »

فقال لهم عمر « إني والله ما قلت ما بلغكم إلا نصيحة [إخلاصا] لمن سبقكم بالإسلام وتحريا للعدل فيما بينكم وبين من هو أفضل منكم من المسلمين » .

قال سهيل « فإن كنتم إنما فضلتمونا بالجهاد في سبيل الله فوالله لنستكثرن منه ، وأشهدكم أني حبيس في سبيل الله . والله لأقفن مكان كل موقف وقفته على حرب رسول الله ﷺ موقفين على أعداء الله ، ولأنفقن مكان كل نفقة أنفقتها على حرب رسول الله ﷺ نفقتين في سبيل الله » .

قال عكرمة « أنا أشهدكم أني حبيس في سبيل الله » .

فقال أبو بكر « اللهم بلغ بهم أفضل ما يأملون واجزهم بما كانوا يعملون . قد

أصبتم فيم صنعتم فأرشدكم الله » .

فلما خرجوا من عند أبي بكر قال لهم سهيل بن عمرو وكان شريفا عاقلا « لا تجزعوا مما ترون. فإنهم دُعوا ودُعينا فأجابوا وأبطأنا. ولو ترون فضائل من سبقكم إلى الاسلام عند الله عليكم ما نفعكم عيش . وما من أعمال عند الله عمل أفضل من الجهاد في سبيل الله ، فانطلقوا حتى تكونوا بين المسلمين وبين عدوهم فتجاهدوهم دونهم حتى تموتوا ، فلعلنا أن نبلغ بذلك فضل المجاهدين » .

فخرجوا إلى جهاد الروم بالشام .

وفكر أبو بكر فيمن يقود هؤلاء الذين كانوا أشراف قومهم وأسيادهم من قريش قبل أن يسلموا ، فاختار لهم سيدا شريفا من قريش ، هو عمرو بن العاص السهمي .

كان رسول الله ﷺ قد ولىّ عمرو بن العاص على صدقات سعد[1] هذيم وعذرة من قضاعة ومن حولها من جذام[2] وحدس[3] [يعني جمع الزكاة منها] ، ثم استعمله أبو بكر على جيش لمعالجة أمر الردة في عُمَان بالجنوب الشرقي من شبه الجزيرة وقد وعده آن يعيده إلى عمله الذي ولاه رسول الله ﷺ بعد إنجاز مهمته في

(١) سعد بن هذيم بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحافي بن قضاعة . وعذرة بن سعد بن هذيم .

(٢) جذام بن عدي بن الحارث بن مرة بن أُدَد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان . منهم بنو حرام وبنو حِشْم ومنهما تفرعت جذام . وكانت جذام تنزل بجبال حِسْمى ومساكنها بين مدين إلى تبوك إلى أذْرح ، ومنها فخذ بجهة طبرية من أرض الأردن إلى اللّجُون واليامون إلى ناحية عكا . وقد غزا زيد بن حارثة جذام . وحاربت جذام ٨ هـ جيش عبد الله بن رواحة ، وسارت مع هرقل ١٤ هـ إلى انطاكية وكانوا يعبدون المشترى وصنما لهم في مشارف الشام يقال له الأقيصر ، كانوا وقضاعة يحجون إليه ويحلقون عنده رؤوسهم . ومنهم من أسلم فكان عمرو يجمع زكاتهم وقد ساروا معه إلى الشام وانحدروا معه منها إلى مصر فكانوا أول من سكن مصر من العرب حين جاءوا إليها مع عمرو في فتح مصر ـ معجم القبائل العربية .

(٣) حدس بن أريس بطن عظيم من لخم بن عدي ، انضمت إلى الروم في غزوة مؤتة وسارت طائفة منهم مع هرقل إلى انطاكية ١٤ هـ

قمع ردة عمان. فلما عاد عمرو أنجز له أبو بكر ما وعد[1] وأعاده على صدقات البطون التي ذكرنا من قضاعة ومن جاورها .

فكتب أبو بكر إلى عمرو « إني كنت قد رددتك على العمل الذي كان رسول الله ﷺ ولاّكه مرة وسمّاه لك أخرى مبعثك إلى عُمان إنجازاً لمواعيد رسول الله ﷺ، فقد وَليته ثم وليته. وقد أحببتُ أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه إلا أن يكون الذى أنت فيه أحب إليك » .

فكتب إليه عمرو « إني سهم من سهام الإسلام ، وأنت بعد الله الرامي بها والجامع لها، فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارِم به شيئا إن جاءك من ناحية من النواحي » .

وكان الوليد بن عقبة على صدقات من بقي من قضاعة ممن كان بجهة دومة الجندل فكتب إليه أبو بكر كما كتب إلى عمرو وأجابه الوليد بإيثار الجهاد .

فكتب أبو بكر إلى عمرو[2] وإلى الوليد « استخلفا على أعمالكما واندبا من يليكما » . فولىّ عمرو على عمله من عُليا قضاعة عمرو بن فلان العذري، وولىّ الوليد على ضاحية قضاعة مما يلي دومة الجندل ودعيا الناس إلى التطوع للجهاد فجاء إليهما بشر كثير وانتظرا أمر أبي بكر. ولا تذكر أي رواية أن أبا بكر قد استدعى

(١) الطبري ٣٨٩/٣ كتب إليّ السري ، عن شعيب عن سيف ، عن أبي اسحق الشيباني ، عن أبي صفية التيمي تيم بن شيبان ، وطلحة عن المغيرة ، ومحمد عن أبي عثمان .
ابن عساكر ٤٥١/١ أخبرنا ابو القاسم بن السمرقندي ، انبا ابو الحسين بن النقور ، أنا أبو طاهر المخلص ، نا أبو بكر بن سيف ، نا السري بن يحيى ، نا شعيب بن ابراهيم ، نا سيف بن عمر عن أبي اسحق الشيباني ، عن أبي صفية التيمي تيم شيبان ، وطلحة عن المغيرة ومحمد ، عن أبي عثمان .

(٢) الطبري ٣٩٠/٣ س ش س عن سهل بن يوسف ، عن القاسم بن محمد .
ابن عساكر ٤٥٢/١ أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، أنا أبو الحسين ، أنا أبو طاهر ، نا أبو بكر بن سيف ، س ش س ، عن سهل بن يوسف ، عن القاسم بن محمد .

عمرو بن العاص إلى المدينة ، ولكن لدينا روايات تروي حوارا بين الخليفة أبي بكر وبين القائد عمرو بن العاص تعني أنه ذهب إلى المدينة ، بل وتعني أن خروجه على رأس جيشه إنما كان من المدينة . قال أبو بكر :

« يا عمرو ، هؤلاء أشراف قومك يخرجون مجاهدين فاخرج فعسكر حتى أندب الناس معك » .

قال عمرو « يا خليفة رسول الله ألست أنا الوالي على الناس ؟ »

قال « نعم أنت الوالي على من أبعثه معك من ها هنا » .

قال « لا بل والٍ على من أقدم عليه من المسلمين » .

قال ابو بكر « لا . ولكنك أحد أمرائنا هناك ، فإن جمعتكم حرب فأميركم أبو عبيدة بن الجراح » .

فخرج عمرو فعسكر واجتمع إليه ناس كثير ، وانضم إليه كبراء قريش هؤلاء . وتأخر بعث عمرو فجاء إلى عمر بن الخطاب وقال له

« يا أبا حفص ، إنك قد عرفت بصرى بالحرب وتيمّن نقيبتي في الغزو ، وقد رأيت منزلتي عند رسول الله ﷺ وتوجهه إياي إلى جهاد المشركين ، فأشرْ على أبي بكر أن يوليني أمر هذه الجنود التي بالشام فإني أرجو أن يفتح الله على يديَّ البلاد ، وأن يريكم الله والمسلمين من ذلك ما تسرون به » .

كان عمرو يرى أنه أكفأ في قيادة الحرب من يزيد بن أبي سفيان ومن شرحبيل بن حسنة ومن أبي عبيدة بن الجراح ، وما دام لجيوش فتح العراق قائد عام واحد هو خالد بن الوليد فلماذا لا يكون لجيوش فتح الشام قائد عام واحد ؟ فإذا كان كذلك فهو أبصر في الحرب من وجهة نظره من القادة الذين سبقوه إلى هناك . ولكنه نسي أن أبا بكر لم يعين خالد بن الوليد قائدا لجيش العراق إلا بعد أن عقد مسابقة بينه وبين عياض بن غنم فأيهما فاز كان هو القائد ، وفاز خالد ! فكان تأمير خالد بعد اختبار ثبت فيه وامتحان اجتازه ونجح فيه ، وهو حتى الآن يبعث إلى

الشام جيوشاً، الجيش تلو الجيش دون أن يجعل عليها جميعا قائدا عاما . ولعل أبا بكر قد انتظر أن يرى منهم ما ترجح به كفة أحدهم على الآخرين .

قال عمر في صراحة ما بعدها صراحة « لا أكذبك .. ما كنت لأكلمه في ذلك أبدا ، وما يوافق أن يبعثك على أبي عبيدة وأبو عبيدة أفضل منزلة عندنا منك » . قال عمرو « فإنه لا ينقص أبا عبيدة شيئا من فضله أن أليَ عليه » .

فقال له عمر « ويحك يا عمرو . إنك لتحب الإمارة .. والله ما تطلب بهذه الرياسة إلا شرف الدنيا فاتق الله يا عمرو ، ولا تطلب بشيء من سعيك إلا وجه الله . فاخرج إلى هذا الجيش فإنك إن لم تكن أميرا هذه المرة فما أسرع ما تكون أميرا إن شاء الله ليس فوقك أحد » .

قال عمرو « فقد رضيت » .

فلما أتم عمرو استعداده للمسير وأراد الخروج خرج معه أبو بكر - كعادته يشيعه - ونفترض أن ذلك كان في ٣ محرم ١٣ هـ ١٠ مارس ٦٣٤ - وقال له « يا عمرو إنك ذو رأي وتجربة بالأمور وبصر بالحرب ، وقد خرجت مع أشراف قومك ورجال من صلحاء المسلمين وأنت قادم على إخوانك فلا تَألُهم نصيحة ولا تدخر عنهم صالح مشورة ، فرب رأى لك محمود في الحرب مبارك في عواقب الأمور » .

ونحن حين نتأمل حديث أبي بكر هذا يراودنا الظن أن قد بلغه حوار عمرو مع عمر . قال عمرو « ماأخلقني أن أصدّق ظنك وأن لا أقيل رأيك[1] » .

ثم ودعه وسار عمرو في جيشه حتى بلغ الشام والتقى بأبي عبيدة .

وفي بعض حوارها[2] قال أبو بكر لعمرو بن العاص « إني قد استعملتك

(١) الأزدي ٥٠ قال حدثني عبد الملك بن نوفل [ابن مساحق] - ثقة - عن أبيه (ثقة) عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل (صحابي من اعلام الفتح) .

(٢) ابن عساكر ٤٤٦/١ أخبرنا ابو بكر الفرضي (هو محمد بن عبد الباقي بن محمد الفرضي) ، أنا ابو محمد الجوهري ، أنا ابو عمر ، أنا أحمد بن معروف ، نا الحسين بن الفهم ، نا محمد بن سعد ، نا عبد الحميد بن جعفر عن أبيه .

خريطة رقم (٦) ـ مسارات الجيوش الى الشام ـ المقياس ١/٤ مليون

على من مررت به من بَلِيّ وعذرة وسائر قضاعة ومن سقط هناك من العرب ، فاندبهم إلى الجهاد في سبيل الله ورغبهم فيه ، فمن تبعك فاحمله وزوده ، ورافق بينهم ، واجعل كل قبيلة على حدتها ومنزلتها » .

الولاية للأصلح ... قاعدة لا يختلف عليها اثنان ، ولكن الاختلاف على التطبيق . فمن جملة ما مر بنا نرى أنه لم يكن خلاف على أن عمرو بن العاص أبصر بالحرب وصاحب تجربة أكبر من أصحابه الذين سبقوه إلى الشام ، فأي سبب كان وراء تقديم أبي عبيدة عليه وإخضاع عمرو لولايته إذا اجتمعت جيوش المسلمين ؟ الذي نراه أن جيوش المسلمين ليست كغيرها من الجيوش وذلك من حيث أنها جيوش عقيدة ودعوة إلى الله . فلم يكن البصر بالحرب وسخاء الذهن بالحيل هو الاعتبار الأوحد لاختيار قائده . لقد حمل أبو عبيدة بن الجراح صفة أمين هذه الأمة خلعها عليه رسول الله ﷺ ، لم يكن ذلك لعمرو. ولقد مر بنا قول أبي بكر لأبي عبيدة « والذي نفسي بيده ما على الأرض رجل من المهاجرين ولا من غيرهم أعدله بل ولا بهذا ـ مشيرا إلى عمر بن الخطاب ـ ولا له من منزلة مني إلا دون ما لك » . ولم يكن الأمر أمر منزلة أو خواطر أو محسوبيات عند أبي بكر ولكن لأن تلك المنزلة كان لها أسبابها ودواعيها دون شك التي جعلت لأبي عبيدة قدره ، ولقد رأينا حشود المسلمين تؤثر الانضمام إلى أبي عبيدة بالذات ـ حتى خالد بن سعيد ـ حين ترك الخيار لها . وما دام عمرو يحب الإمارة ، فقد يعني هذا عدم إفادته ممن معه ، وما دام أبو عبيدة ليس كذلك فسوف يكون للمسلمين رأي عمرو وتجربته وحيلته وبصره بالحرب . ولقد مر بنا حين ذكرنا « ذات السلاسل » ما كان بين عمرو وأبي عبيدة إذ كان عمرو أميرا .

لقد صار لعمرو بن العاص بعد ذلك حجمه ووزنه في التاريخ ، ولكن حتى ذلك الوقت لم يكن قد اكتسب ذينك الحجم والوزن . ولقد رأى أبو بكر وعمر أن حجم عمرو هو قائد جيش من خمسة وأن وزن أبي عبيدة هو قائد جيش ثم قائدا عاما لخمسة جيوش مهمتها فتح الشام .

سار عمرو على المعرقة وهو طريق الساحل الذي وصفه الجغرافيون القدماء[1] من المدينة مسيرة يومين الى الجار ثم إلى مسئولان ، ثم الى ينبع ، ثم إلى الاحساء ، ثم الى البحرة ، ثم الى منحوس ، ثم إلى الوجه ، الى عونيد ، إلى ظبة الى النبك الى الصــلا فمن صار إليها صار إلى شرف البعل وهو منزل أيلة .

عملية خالد بن سعيد

ولسيف بن عمر[2] رواية عما كان من أمر خالد بن سعيد انفرد بتفاصيل لها ، قال :

« أمر أبو بكر خالداً بأن ينزل تيماء ، ففصل ردءا حتى ينزل تيماء ، وقد أمره أبو بكر أن لا يبرحها وان يدعو من حوله بالانضمام إليه ، وأن لا يقبل إلا ممن لم يرتد ، ولا يقاتل إلا من قاتله حتى يأتيه أمره ، فأقام . فاجتمع إليه جموع كثيرة . وبلغ الروم عظم ذلك العسكر فضربوا على العرب الضاحية البعوث بالشام إليهم . فكتب خالد بن سعيد إلى أبي بكر بذلك وبنزول من استنفرت الروم ونفر إليهم من بهراء وكلب وسليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان من دون زيزاء بثلاث . فكتب إليه أبو بكر أن أقدم ولا تحجم واستنصر الله. فسار إليهم خالد . فلما دنا منهم تفرقوا وأعروا

(١) الخراج وصنعة الكتابة ١٩١ .

(٢) الطبري ٣٨٨/٣ س ش س عن أبي اسحق الشيباني ، عن أبي صفية التيمي تيم شيبان . وطلحة عن المغيرة ومحمد عن أبي عثمان .

ابن عساكر ٤٥١/١ اخبرنا ابو القاسم بن السمرقندي ، أنا أبو الحسين بن النقور ، أنا أبو طاهر المخلص ، نا ابو بكر بن سيف ، نا س ش س عن ابي اسحق سليمان الشيباني ، عن أبي صفية التيمي تيم شيبان ، وطلحة عن المغيرة ، ومحمد عن ابي عثمان [يزيد بن أسيد الغساني] . وهو نفس السند الذي ساقه الطبري .

وفي هذا الاسناد أبو صفية التيمي وطلحة [بن الأعلم الحنفي] والمغيرة [بن عتيبة بن النهاس العجلي] ومحمد [بن عبد الله بن سواد بن نويرة] وأبو عثمان [يزيد بن أسيد الغساني ، وهو يروى عن أبيه] جميعهم من شيوخ سيف بن عمر المجهولين الذين انتقد بسببهم بروايته عن مجاهيل ، المغيرة بن عتيبة بن النهاس أبوه من أبطال فتح العراق ولكن الراوي ذاته مجهول الحال .

منزلهم فنزله خالد . ودخل عليه من كان تجمع له في الاسلام . وكتب خالد إلى أبي بكر ذلك ، فكتب إليه أبو بكر : أقدم ولا تقتحمن حتى لا تؤتى من خلفك . فسار فيمن كان خرج معه من تيماء وفيمن لحق به في طرف الرمل حتى نزلوا فيما بين آبل وزيزاء والقسطل ، فسار إليه بِطْريق من بطارقة الروم يدعى باهان Baanes فهزمه وقتل جنده ، وكتب بذلك إلى أبي بكر واستنفره . وقدم على أبي بكر أوائل مستنفري اليمن ومن بين مكة وبين اليمن وفيهم ذو الكلاع . وقدم عليه عكرمة قافلا وغازيا فيمن كان معه من تهامة وعُمان والبحرين والسرو . فكتب لهم أبو بكر إلى أمراء الصدقات أن يبدلوا من استبدل ، فكلهم استبدل ، فسمى ذلك الجيش جيش البدال ، فقدموا على خالد بن سعيد ، وعند ذلك اهتاج ابو بكر للشام وعناه أمره » .

غير أن سيف يدعم روايته هذه بإضافات وأسانيد أخر ، فيروي[1] ان الوليد بن عقبة قدم على خالد بن سعيد فسانده ، وقدمت جنود المسلمين الذين كان أبو بكر أمده بهم وسموا جيش البدال ، وبلغه عن الأمراء وتوجههم إليه ، اقتحم على الروم طلب الحظوة وأعرى ظهره ، وبادر الأمراء بقتال الروم [يعني سبقهم إلى قتال الروم وهذا يفيد أنه فعل ذلك في وجود الأمراء بأرض الشام] واستطرد له باهان ، فأرز هو ومن معه إلى دمشق ، واقتحم خالد في الجيش ومعه ذو الكلاع وعكرمة والوليد حتى ينزل مرج الصُّفَّر من بين الواقوصة ودمشق ، فانطوت مسالح باهان عليه وأخذوا عليه الطرق ولا يشعر ، وزحف له باهان فوجد ابنه سعيد بن خالد[2]

(١) الطبري ٣٩١/٣ كتب إليّ س ش س عن سهل عن القاسم ومبشر عن سالم ، ويزيد بن أسيد الغساني عن خالد وعبادة

سهل بن يوسف السلمي نجهله ، القاسم بن عبد الرحمن ثقة خيرّ فاضل وضعفه بعضهم مبشر بن فضيل كوفي مجهول في الضعفاء ، سالم بن عبد الله بن عمر فقيه متخشع ثقة توفى ١٠٦ ، يزيد بن أسيد نجهله ، خالد بن معدان الكلاعي ثقة توفى ١٠٣ ، عبادة بن نسي ثقة مات ١١٨] .

(٢) الاستمطار هو الاستسقاء [مختار الصحاح] وصلاة الاستسقاء سنة مؤكدة وتكون بالدعاء في أعقاب الصلوات وفي الخلوات أو بدعاء الإمام على المنبر يوم الجمعة أو بأن يخرج الناس في المصلي وهو

يستمطر في الناس فقتلوهم . وأتى الخبر خالدا فخرج هاربـا في جريدة [خيل] فأفلت من أفلت من أصحابه على ظهور الخيل والإبل وقد أجهضوا عن عسكرهم ، ولم تنته بخالد بن سعيد الهزيمة عن ذي المروة ، وأقام عكرمة في الناس ردءا لهم فرد عنهم باهان وجنوده أن يطلبوه ، وأقام من الشام على قريب ، وقد قدم شرحبيل بن حسنة وافدا من عند خالد بن الوليد فندب معه الناس ثم استعمله أبو بكر على عمل الوليد ، وخرج معه يوصيه ، فأتى شرحبيل على خالد ففصل بأصحابه إلا القليل ، واجتمع إلى أبي بكر أناس فأمّر عليهم معاوية ، وأمره باللحاق بيزيد ، فخرج معاوية حتى لحق بيزيد ، فلما مر بخالد فصل ببقية أصحابه » .

كما ذكر أن عمر[1] بن الخطاب لم يزل يكلم أبا بكر في خالد بن الوليد وفي خالد بن سعيد ، فأبى أن يطيعه في خالد بن الوليد وقال : لا أشيم سيفا سله الله على الكفار ، وأطاعه في خالد بن سعيد بعد ما فعل فعلته . فكأن الرواية تضع عزل خالد بن سعيد بعد أن فعل فعلته لا قبلها ، ولكنها على أى حال تؤيد أنه فعلها .

وأضاف[2] سيف « كان أبو بكر قد وجه خالد بن سعيد بن العاص إلى

أكملها . وليس لصلاة الاستسقاء وقت معين إلا أنها لا تكون في أوقات النهي والأولى أن تكون في وقت صلاة العيد [يعني بعد الشروق] ، وتكون إذا أجدبت الأرض واحتبس القَطْر، كذلك إذا كثر المطر بحيث يضر أو كثرت مياه العيون فأضرت دعوا الله أن يخففه ويصرف عنهم مضرته بمثل قولهم « اللهم حوالينا ولا علينا » [معجم الفقه الحنبلي ٥٥٧/٢ و ٩٠٢/٢ ـ المحلي ٩٩/٥] . ومرج الصفر من إقليم دمشق وهو ممطر من منتصف نوفمبر حتى نهاية مارس [توافق من ٦ رمضان ١٢ هـ إلى ٢٤ محرم ١٣ هـ]

(١) الطبري ٣٩١/٣ كتب إليّ س ش س ، عن هشام بن عروة عن أبيه . [هشام بن عروة ، تابعي جليل توفي ١٤٦ هـ ، عروة بن الزبير فقيه محدث ثبت توفي ٩٢ هـ .

(٢) ابن عساكر ٤٦٣/١ أخبرنا أبو القاسم السمرقندي ، انا ابو الحسين بن النقور ، انا ابو طاهر المخلص ، انا ابو بكر بن سيف ، س ش س عن عمرو بن محمد ، عن اسحق بن ابراهيم ، عن ظفر بن دهي ، ومحمد بن عبد الله عن ابي عثمان ، وطلحة عن المغيرة والمهلب بن عقبة .

الطبري ٤٠٧/٣ كتب إليّ س ش س عن عمرو بن محمد، عن اسحق بن ابراهيم ، عن ظفر بن دهي . ومحمد بن عبد الله ، عن أبي عثمان . وطلحة ، عن المغيرة . والمهلب بن عقبة عن عبد الرحمن بن سياه الأحمري .

الشام حيث وجه خالد بن الوليد إلى العراق ، وأوصاه بمثل الذي أوصى به خالدا ، وإن خالد بن سعيد سار حتى نزل على الشام ولم يقتحم واستجلب الناس فهابته الروم وأحجموا عنه ، فلم يصبر على أمر أبي بكر ولكنه توردها ، فاستطردت له الروم حتى أوردته الصُّفَّر ، ثم تعطفوا عليه بعدما أمِن ، فوافقوا ابنه سعيد بن خالـد مستمطراً فقتلوه هو ومن معه ، وأتى الخبر خالدا فخرج هاربا حتى يأتي البر فينزل منزلا ... »

ويستمر[1] سيف في حكايته « لما قدم خالد بن سعيد ذا المروة [هاربا من الشام] وأتى أبا بكر الخبر ، كتب إلى خالد [بن سعيد] : أقم مكانك ، فلعمري إنك مقدام محجام ، نجَّاء من الغمرات ، لا تخوضها إلا إلى حق ولا تصبر عليه . ولما كان بعد وأذن له في دخوله المدينة ، قال خالد : اعذرني . قال : أخَطَلٌ ! أنت امرؤ جُبُنٌ لدى الحرب . فلما خرج من عنده قال : كان عمر وعليّ أعلم بخالد ، ولو أطعتهما فيه اختشيته واتقيته » .

إن عملية خالد بن سعيد من الموضوعات التي تضع المؤرخ في حيرة لا سيما وأنها تقع في أول الدخول إلى فتح الشام فهي تربك ما بعدها من فجاج البحث. لقد اتفق جميع الرواة على أن خالد بن سعيد كان أول قائد عقد له أبو بكر لواء فتح الشام ، ثم اختلفوا بعد ذلك ، فروايات ذهبت إلى أن أبا بكر عزل خالدا قبل خروجه فالتحق بجيش أبي عبيدة بن الجراح [وبعضهم قال بجيش يزيد أو بجيش شرحبيل] وتتجاهل هذه الروايات تماما ذكر اقتحام خالد حتى مرج الصفر وهزيمته بضواحي دمشق وكأن هذه الحكاية لم تكن ، وكل ذكر عندهم لخالد بن سعيد لا يحوطه إلا التبجيل والتكريم في تطوعه وفي توليته وفي عزله وفي وداعه ، وهو ما ذهب إليه من مصادرنا ابن عساكر عن موسى بن عقبة عن رواة ثقات في بعضهم نظر ، والوليد بن مسلم عن رواة ثقات بينهم ابن لهيعة وثقـة بعضهـم وتـركه بعض ،

(١) الطبري ٣٩٢/٣ كتب إليّ س ش س عن عمرو عن الشعبي .

والبلاذري عن أبي مخنف لوط بن يحيى شيعي ضعيف متروك ، والأزدي وكأن روايته لا تذكر تكليف خالد بن سعيد بقيادة جيش من بادىء الأمر . مجموعة متعددة من الروايات يعضد بعضها بعضا بحيث يستحيل إسقاطها جملة .

وقال باقتحام خالد حتى حاقت به الهزيمة سيف بن عمر من عشرة أوجه أو يزيد ثلاث منها رواتها ثقات ، وابن اسحق عن سلسلة من الرواة الثقات ، والبلاذري في رواية نسبها إلى الواقدي ، والمدائني بإسناده

ورواية ابن اسحق[1] تذهب إلى أن خالد بن سعيد فعل فعلته والجيوش الأربعة للمسلمين بالشام ، وبعد مسير يزيد ثم شرحبيل ثم أبي عبيدة ثم عمرو بن العاص ، وأن عمرو بن العاص نزل بغمر العربات ونزلت الروم بأعلى فلسطين فخرج خالد بن سعيد وهو بمرج الصفر يستمطر في يوم مطير فانقض عليه الروم فقتلوه .

كما قال المدائني[2] « فأول حرب كانت بالشام بعد سرية اسامة ، بالعربة . ثم أتوا الداثنة فهزمهم أبو أمامة الباهلي وقتل بطريقا منهم . ثم كانت مرج الصُّفَّر ، استشهد فيها خالد بن سعيد بن العاص ، أتاهم أدرنجار في أربعة آلاف وهم غارُّون فاستشهد خالد وعدة من المسلمين » . وعقّب الطبري على ذلك فقال « وقيل إن المقتول في هذه الغزوة كان ابنا لخالد بن سعيد ، وأن خالدا انحاز حين قتل ابنه » .

وعلى ذلك نرى أن جميع هذه الروايات صحيحة في جملتها ويتعين أن نجد الصيغة المناسبة للجمع بينها والأخذ بها . والصيغة التي نذهب إليها ونرتاح لها أن

(١) الطبري ٣/٤٠٥ حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن محمد بن اسحق عن صالح بن كيسان .

(٢) الطبري ٣/٤٠٦ وأما ابو زيد فحدثني عن علي بن محمد [المدائني] بالإسناد الذي قد ذكرت قبل [هو: حدثني عمر بن شبه (أبو زيد) قال حدثني علي بن محمد ـ المدائني ـ عن أبي معشر ، ويزيد بن عياض بن جعدبة ، وغسان بن عبد الحميد ، وجويرية بن اسماء ، عن أشياخهم .

أبا بكر ولّى خالد بن سعيد إمارة أول جيش لفتح الشام وذلك مع مطلع العام الثاني عشر للهجرة حين بعث خالد بن الوليد إلى العراق ، ثم عاد وعزله عن القيادة العامة لهذا الجيش قبل أن يسير وجعله بدلا من ذلك على قوات احتياطية تتخذ تيماء قاعدة لها ، وجعله مع هذه القوات قطعة من جيش أبي عبيدة على ما جاء في رواية صحيحة أوردها الازدي ، وذلك قبل أن يسير أبو عبيدة الى الشام ، ولذلك قال الرواة « أطاع عمر في بعض أمره وعصاه في بعض » . ثم اقتحم خالد بن سعيد بهذه القوات الاحتياطيةوهو قائدها وليس قائد جيش من جيوش فتح الشام حتى هُزم في مرج الصفر وفر إلى ذي مروة ، ثم عاد إلى الشام منضما إلى جيوش الفتح حتى استشهد رضي الله عنه في أجنادين . هذا مع ورود رواية بأن استشهاده كان في مرج الصفر ورواية أخرى أن الذي استشهد بمرج الصفر كان ابنه سعيد ولم يكن خالد نفسه ـ وهو ما نرجحه ـ هذه الرواية أو تلك لا تصرفنا عن التصور العام الذي أوردناه .

وفي تقديرنا أن موقعة مرج الصفر التي هزم فيها الروم خالد بن سعيد وقعت في ٤ محرم ١٣ هـ ـ ١١ مارس ٦٣٤ م .

صار الآن للمسلمين أربعة جيوش في الشام ، جيش أبي عبيدة بن الجراح وجيش يزيد بن أبي سفيان وجيش شرحبيل بن حسنة وجيش عمرو بن العاص كلٌّ قائد على جنده . ولكن من الواضح أن قيادتهم العامة كانت لأمين الأمة أبي عبيدة عامر بن الجراح . وقد اعتمدنا في ذلك روايات الأزدي وروايات ابن عساكر عن محمد بن سعد والوليد بن مسلم ومحمد بن عائذ وسيف وغيرهم . ويساند ابن اسحق[1] أيضا هذه الروايات فيذهب إلى أن أبا بكر حج بالناس عام ١٢ هـ ثم

(١) ابن عساكر ١/٤٤٩ أخبرتنا أم البهاء فاطمة بنت محمد بن احمد قالت : أنا ابو طاهر احمد بن محمود الثقفي ، أنا أبو بكر بن المقرىء ، أنا ابو الطيب محمد بن جعفر الزراد المنيحي ، نا عبيد الله بن سعد بن ابراهيم ، ناعمي ، نا أبي عن ابن اسحق .
اخبرنا ابو محمد عبد الكريم بن حمزة السلمي ، أنا ابو بكر احمد بن علي بن ثابت ح .

بعث عمرو بن العاص تجاه فلسطين فأخذ طريق المعرقة على أيلة ، وبعث يزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة وشرحبيل وأمرهم أن يسلكوا التبوكية على البلقاء إلى علياء الشام .

روايات أخرى

ما تقدم هو ما أخذنا به منسوبا إلى رواته مسندا بأسانيدهم التي ذكرنا في مكانها . غير أن بعض « وكالات الأنباء » مع اتفاقها في المضمون أو في بعض أجزائه كانت لها حكايات أخرى .

فوكالة أنباء الواقدي ذكرت أن أول من[1] سار من أمراء أبي بكر على جيوش فتح الشام إنما كان عمرو بن العاص وأنه خرج من المدينة في ثلاثة آلاف، ثم اتفق مع سائر الرواة في أنه أمره أن يسلك على أيلة عامدا إلى فلسطين .

كما ذكرت هذه الوكالة أن أمراء أبي بكر إلى الشام كانوا ثلاثة ، عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وأن عمرا هو الذي كان يصلي بهم

اخبرنا ابو القاسم ، أنا ابو بكر بن الطبري ، قال أنا ابو الحسين بن الفضل، انا عبد الله بن جعفر ، نا يعقوب ، نا عمار ، نا سلمة عن محمد بن اسحق ح .

قال وأنا حامد ، نا صدقة قال قرأت على محمد بن اسحق قال وحدثني العلاء بن عبد الرحمن عن رجل من بني سهم عن ابن ماجدة السهمي .

اخبرنا ابو القاسم بن السمرقندي ، انا ابو علي محمد بن محمد بن المسلمة ، أنا أبو الحسن علي بن احمد الحمامي ، أنا أبو علي بن الصواف ، انا الحسن بن علي القطان ، انا اسماعيل بن عيسى العطار ، نا اسحق بن بشر ، حدثني محمد بن اسحق ، عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب عن رجل من بني سهم عن علي بن ماجدة .

(١) ابن عساكر ٤٤٦/١ أخبرنا ابو بكر الفرضي ، أنا ابو محمد الجوهري ، انا ابو عمر بن حيوية ، انا ابو الحسن احمد بن معروف الخشاب ، نا الحسين بن الفهم ، نا محمد بن سعد ، انا محمد بن عمر [الواقدي] حدثني عبد الجبار بن عمارة عن عبد الله بن ابي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم .

و ٤٥٠/١ في ذات السند الى الواقدي قال حدثني بن عبد الله بن وابصة العبسي عن ابيه عن جده .

إذا اجتمعوا [يعني أنه كانت له القيادة العامة] وأن أبا بكر كتب إلى خالد بن الوليد ليكون مددا لعمرو بن العاص فكانت لعمرو[1] القيادة في معركة أجنادين ويوم فحل وفي حصار دمشق حتى فتحت .

أما موسى[2] بن عقبة فتذهب روايته إلى أن أبا بكر بعث ثلاثة أمراء إلى الشام [وليس أربعة] ، خالد بن سعيد وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ، ثم نزع خالداً وأمَّر على جنده يزيد بن أبي سفيان فأدركه بذي مروة ، ولم يذكر أبا عبيدة بن الجراح .

وذكر البلاذري[3] دون إسناد أنه بعد أن فرغ أبو بكر من أمر الردة رأى توجيه الجيوش إلى الشام فكتب إلى أهل مكة والطائف واليمن ونجد والحجاز فأتوا المدينة من كل أوب ، فكانت ألويته لخالد بن سعيد وشرحبيل وعمرو بن العاص ، وأنه عقد هذه الألوية يوم الخميس لمستهل صفر ١٣ هـ بعد مقام الجيوش معسكرين بالجرف [من ضواحي المدينة] المحرم كله وأبو عبيدة يصلي بهم ، فلما أراد أبو بكر أن يعقد له استعفاه ، ولكن عمر ولاه الشام كله حين استخلف . ثم أورد البلاذري رواية أخرى فنسب إلى أبي مخنف أن أبا بكر قال للأمراء « إذا اجتمعتم على قتال

---

(١) ابن عساكر بالاسناد السابق الأول .

ابن عساكر ٤٤٧/١ قال وأنا محمد بن عمر ، نا أسامة بن زيد الليثي ، عن معاذ بن عبد الله بن حبيب عن رجال من قومه .

ابن عساكر ٤٤٨/١ اخبرنا ابو بكر الفرضي ، أنا ابو محمد الجوهري ، انا ابو عمر ، نا احمد بن معروف ، نا الحسين بن الفهم ، نا محمد بن سعد ، انا محمد بن عمر ، حدثني عبد الحميد بن عمران بن أبي أنس ، عن المطلب بن السائب بن وداعة .

(٢) ابن عساكر ٤٤٨/١ اخبرنا ابو محمد الأكفاني ، نا أبو بكر احمد بن علي بن ثابت ، انا ابو الحسين بن الحسين القطان ، انا ابو بكر محمد بن عبد الله بن عتاب العبدي ، نا القاسم بن عبد الله بن المغيرة ، نا اسماعيل بن أبي أويس ، نا اسماعيل بن ابراهيم بن عقبة عن عمه موسى بن عقبة .

(٣) فتوح البلدان ١٢٨

فأميركم أبو عبيدة وإلا فيزيد بن أبي سفيان » ، وأن عمرو بن العاص كان مددا للمسلمين .

وذكر الوليد بن مسلم أنه اجتمع لأبي بكر أربعة[1] وعشرون ألفا من المهاجرين والأنصار ومهاجرة الفتح وأمداد أهل العالية واليمن ، فولى عليهم الأمراء وعقد لهم الألوية وجهزهم بما قدر عليه من الأموال والظهر [الإبل والغنم] . فولى أبا عبيدة على ربع وعمرو بن العاص على ربع وشرحبيل بن حسنة على ربع ويزيد بن أبي سفيان على ربع[2] وولاه على جماعتهم بالمدينة قبل أن يسيروا .

سمات واحدة

خص أبو بكر كل جيش من جيوش المسلمين حين بعثه بقطاع معين من ارض الشام . فأبو عبيدة لحمص[3] ويزيد لدمشق وشرحبيل للأردن وعمرو لفلسطين . تلك التقسيمات لا تنطبق على التقسيم السياسي الحديث الذي ساد البلاد في أعقاب الحرب العالمية الأولى . ولقد ذكر البلدانيون القدماء أقساما لبلاد الشام تلقى الضوء على ما كان في تلك الأيام من أقسام عرف بها في حينه شأن تقسيم أي قطر الآن إلى محافظات أو مقاطعات . ذكروا كور[4] قنسرين وكور حمص وكور دمشق وكور الأردن وكور فلسطين بما يعيننا على أيضاح تلك الأقسام على خريطة الشام . هناك أقل من ثلاثة قرون بين عصر الفتح وبين أولئك البلدانيين ، وهي فترة وإن بدت

(١) ابن عساكر ١/٤٥٠ أخبرنا ابو محمد بن الأكفاني ، نا عبد العزيز بن احمد الكتاني ، انا ابو محمد بن ابي نصر ، أنا ابو القاسم بن أبي العقب ، انا ابو عبد الملك احمد بن ابراهيم القرشي ، نا أبو عبد الله محمد بن عائذ ، نا الوليد بن مسلم سمعت أبا عمرو وغيره من اشياخنا ... يقولون .

(٢) ابن عساكر ١/٤٥٣ قرأت على أبي محمد بن عبد الكريم بن حمزة السلمي [بنفس السند السابق إلى الوليد بن مسلم] أنا صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير .

(٣) ابن عساكر ١/٥٤٥ أخبرنا ابو القاسم بن السمرقندي ، انا ابو الحسين بن النقور ، انا ابو طاهر المخلّص ، نا ابو بكر بن سيف ، ناس ش أخبرنا سيف بن عمر .

(٤) ابن خرداذبه ٧٥ ـ ٧٨ .

طويلة إلا أنها على أية حال كانت أقرب إلى عصر الفتح من عصرنا ، ونذهب إلى أن القطاعات التي كلف بها كل جيش كانت كما أوضحنا على الخريطة التي استندنا فيها إلى ما ذكر البلدانيون[1] . والملاحظ أن جميع تلك الأقسام كانت عرضية بمعنى أنها كانت تبدأ من الصحراء وتصل إلى بحر الروم [المتوسط] .

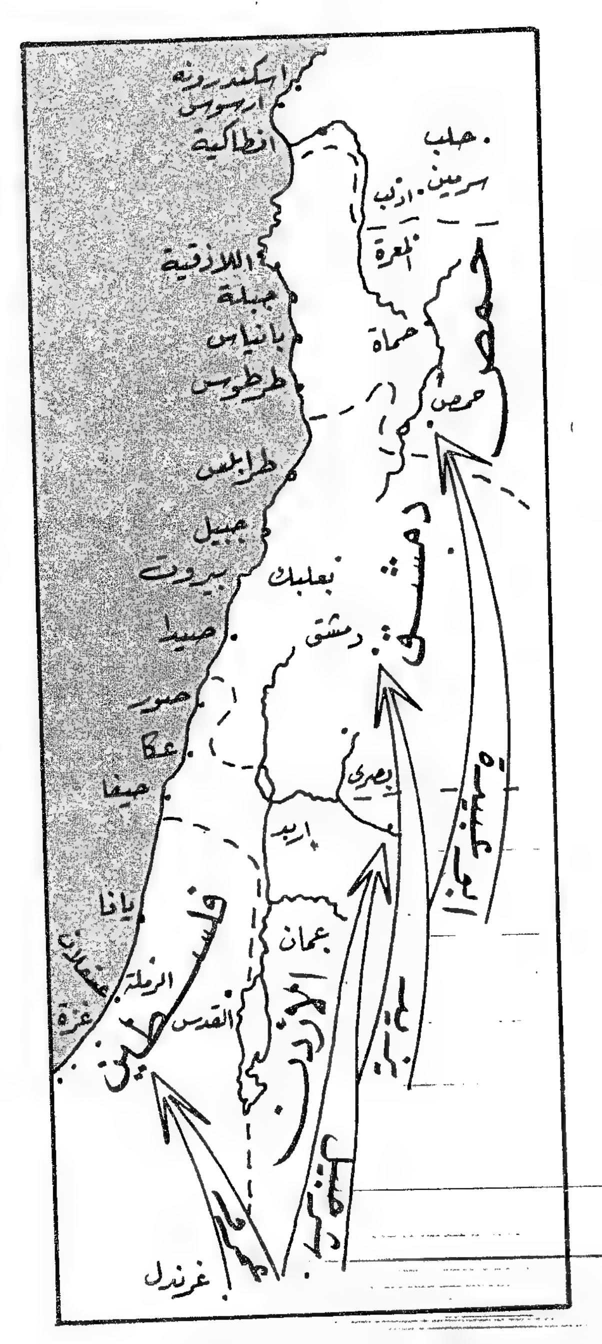
ولسوف نلحظ وجه الشبه بين التخطيط لفتح الشام والتخطيط لفتح العراق في سِمَتين على وجه التحديد:

١ ـ لقد بعث أبو بكر قواته إلى العراق جيشين مستقلين ولم يبعثهما جيشا موحدا وكذلك فعل في الشام ، بعث قواته اربعة جيوش ولم يبعثها جيشا واحدا . وهنا وهناك نعتقد أن أبا بكر كان يهدف من بادىء الأمر وهو يبعث جيوشا متعددة أن تلتقي بعد ذلك في الميدان أثناء العمليات ، يدلنا على ذلك أنه في فتح العراق بعث خالد بن الوليد وعياض بن غنم وحدد لكلٍّ مساره ثم جعل الأمر سباقا بينهما فأيهما سبق إلى الحيرة فهو أمير على صاحبه وجعل المسبوق مؤخرة للسابق في عبور ارض العراق نحو المدائن ، وهذا يعني توحيد الجيشين . وكذلك في فتح الشام وبالرغم من تعيين أربعة أمراء على أربعة جيوش فقد اتخذ لها جميعا قائدا عاما واحدا هو أبو عبيدة . وهو بتعدد الجيوش يربك عدوه من حيث تجهيل مقصد كل جيش عليه ، ويشتت تخطيطه من حيث توزيع قواته لملاقاة كل جيش منها ، ومن حيث اختيار أماكن المرابطة ومواقع الدفاع ، في حين يستطيع أي جيش منها أن يجد العون من الآخرين سواء بالانضمام إليه أو بقيامه بعمليات منفردة تضطر الخصم إلى تثبيت قواته أو توجيهها وجهة معينة .. الخ .

كتب مونتجمري[2] « المفاجأة من العوامل الرئيسية لنجاح المعركة ، ولكن

(١) ذكر ابن خرداذبه بصرى وعمان من كور دمشق ، وضممناهما بالخريطة إلى الأردن استنادا إلى أن شرحبيل بن حسنة كان مكلفا بالاردن فاتجه مباشرة إلى بصرى حتى نزلها ، الأمر الذي يعني أنها في ذلك الحين كانت تدخل في مضمون الأردن خلافا لما كانت عليه في عصر ابن خرداذبه .

(٢) الحرب عبر التاريخ ٢٩ .



خريطة رقم (٧) - توزيع الجيوش على القطاعات .

نجد دائما أن من الصعب تحقيق المفاجأة الاستراتيجية بينما يمكن تحقيق المفاجأة التكتيكية التي تتبوأ دائما الصدارة أثناء وضع الخطة ، لأن القائد يجب أن يجبر عدوه على الرقص على ما يصنعه من أنغام طول الوقت » . نقول إن أبا بكر بتوجيه جيوشه متفرقة قد استطاع ذلك الصعب وهو المفاجأة الاستراتيجية . فالمفاجأة الاستراتيجية تعني إخفاء نية وقوة وموعد واتجاه الضربة الرئيسية ، أما المفاجأة التكتيكية فتنقص عن ذلك عنصر إخفاء النية .

فإرسال جيوش فتح الشام بالصورة التي تمت كان من شأنه أن يبذر الشك لدى قادة الروم عن نواياها وعن مقصد كل منها . ويشرح الجنرال اندريه بوفر[١] أحد أعلام الاستراتيجية في القرن العشرين في كتابه « مدخل إلى الاستراتيجية العسكرية » أهمية الشك عندما يقوم القائد وأركانه بتقدير احتمالات ردود فعل الخصم حتى يتم الوصول إلى تخمينات ، فيقول : « لا يبرز من خلال هذه التخمينات إلا عامل وحيد ذو قيمة مؤكدة هو الشك ... لذا لا بد لكل جيش من الجيوش من بذر الشك في صفوف خصمه حتى لا يسمح له بتقدير نواياه الحقيقية .

كذلك كتب كلا[٢] وزفيتز في القرن التاسع عشر : إن الشك الدائم بالمعلومات وبكل قاعدة متينة ، وتدخل الصدفة المستمر يدفعان كل من يعمل إلى مجابهة حقائق تختلف عما كان ينتظر ، ويؤثر ذلك بوضوح على خططه أو على الأقل على الأفكار التي تشكل جزءاً من المخطط . فإذا جعل هذا الانعكاس القرارات غير صالحة للاستخدام بتاتا كان لزاما عليه استبدالها بغيرها . ولكن المعلومات اللازمة لهذا التبديل تكون في هذه اللحظة ناقصة وتتطلب الظروف خلال العمل قرارا مباشرا سريعا لا يسمح بعمل جولة جديدة في الأفق وقد لا

(١) في الحرب ١١٨/١ .

(٢) في الحرب ١١٩/١ .

يكون هناك وقت كاف للتفكير بإمعان . وغالبا ما تتعرض المخططات إلى تعديل كبير بعد تدقيق الأفكار ومعرفة الأحداث الطارئة ، ولكن هذا التعديل لا يصل إلى درجة إلغائها . وتزيد معرفة الحقائق مع الوقت ولكن الشك يتزايد بدلا من أن يتناقص .

٢ ـ كانت جيوش المسلمين من العرب الخلّص أهل الإبل وأصحاب الصحراء ، وهي التي كانت ملاذهم إذا سارت الأمور على غير ما يشتهون ، لذلك أراد أبو بكر في العراق وفي الشام أن تسير جيوشه على حافة الصحراء بينها وبين الحواضر حتى إذا اقتربت من مقصدها هبطت عليه . وكما كان فتح العراق كذلك كان فتح الشام هو الأول في التاريخ ولعله الأخير الذي يأتيه من الصحراء الواقعة إلى جنوبه . لقد سبقت حملات جاءته من الجنوب وعلى وجه التحديد من مصر ولذلك كان الطريق الساحلي هو الطريق المنطقي للتحرك ، أما طريق الفتح الإسلامي فكان فريدا على غير مثال سبق أو لحق .

عود الى الأحداث

أزدادت الصورة وضوحا عن تجهيزات الروم وحشدهم الجيوش من جندهم ومن عرب الشام الموالين لهم . وكان أبو عبيدة ـ كما رأينا ـ يكتب إلى أبي بكر بالمدينة أولا بأول يعلمه بكل جديد يجري على أرض الشام . كان حينذاك في الجابية فكتب

« بسم الله الرحمن الرحيم[1]

أما بعد ، فإن الروم وأهل البلد ومن كان على دينهم من العرب قد اجتمعوا على حرب المسلمين ، ونحن نرجو النصر وإنجاز موعود الرب ، وعادته الحسنى . أحببت إعلامك ذلك لترى رأيك إن شاء الله والسلام » .

هذا ما تسعفنا به النصوص . غير أنه لا بد أن أبا بكر قد بلغته عن جيوش

(١) الأزدي ٦٧ حدثني أبو زياد عن عبد الملك بن الأعور.

الروم وحلفائهم من العرب وعن أعدادها ما جعله يطور تفكيره بشأن إمداده لجيوش المسلمين بالعراق وبالشام . وهو قد وازن بين الميدانين وقاس قدراته على الحشد لكل ميدان مع تقدير أهمية كل منهما .

حتى الآن لم تقع معركة حاسمة بالشام ... إنهما معركتان في العربة وفي داثنة بين ثلاثة آلاف من الروم وقوة من المسلمين قوامها جيش يزيد بن أبي سفيان ـ الذي كان ثلاثة آلاف حين خرج من المدينة ـ ومدد مقداره ألف من جيش أبي عبيدة . إذاً فقد بلغت قوات المسلمين في هاتين المعركتين أربعة آلاف . لا نستطيع أن نصفهما بأنهما كانتا من المعارك الصغيرة ولكنهما أيضا لم تكونا من المعارك الكبيرة ، وقد انتصر فيهما المسلمون . كذلك حدث ذلك الالتحام بين الروم وقوة خالد بن سعيد بمرج الصُفَّر جنوبي دمشق . تلك الثلاث كانت أولى معارك المسلمين مع الروم في فتوح الشام وقد كانت بمثابة انذار بالغ العنف مع ما كانت تأتيهم به الأنباء عن سير الفتح في العراق . ماذا كان بالعراق ؟

مع الخيوط الأولى[1] لفجر العام الثاني عشر من الهجرة اقتحم سيف الله خالد بن الوليد الحدود الجنوبية للعراق وتقدم إليه من اليمامة عبر أراضي الكويت ، وهزم هرمز حاكم الأُبُلّة ثغر العراق لتجارتها مع الهند ثم اندفع سريعاً إلى الحيرة يطأ في طريقه كل محاولة للدفاع أو المقاومة حتى سقطت الحيرة بين يديه في أقل من أربعين يوما منذ بدأ التحرك . وراح بعدها يطهر جميع غرب الفرات من أدناه إلى شماله ويفض حصون الفرس المجوس في تلك البقاع ومن آزرهم من العرب من دومة الجندل جنوبا إلى الفراض شمالا . وجاءته وفود الأقاليم من وراء الفرات مستسلمة تطلب الأمان .

ولقد مر بنا كيف كان هرقل يرى الإسلام دينا حقا كتب له النصر وكيف مع ذلك اختار مقاومته والوقوف في وجهه خوفا من معاونيه وإيثارا لمجده الشخصي

(١) كافة التفاصيل في « الطريق إلى المدائن » .

بينهم . لقد انهى الحرب بينه وبين فارس بصورة جد مشرفة لدولة الروم ولا شك أنه كان يتمنى لو ختم عهده في حكم الدولة البيزنطية على ذلك الوجه ، ولكن ماذا يفعل وقد جاء هؤلاء يعرضون عليه الإسلام ويطلبون حرية الدعوة بين شعبه ... وإذ اعترض بطارقته وقواته المسلحة آثر الوقوف معهم على الوقوف مع ما علمه حقا ... والآن جاءوا ينازعونه ملكه و« مستعمراته » فماذا يفعل ؟

لا نحسبه إلا أنه رأى ـ مبكرا ـ أنه لن يكون بالشام إلا كما كان الفرس بالعراق ، ولذلك خرج عن بيت المقدس وعن حمص واستقر في أقاصي الشام ... في انطاكية .. يبعث الجنود والجيوش إلى بعيد ... إلى أقصى جنوب الشام لتلتحم بهؤلاء الجبابرة هناك . وجاءت هذه الأخبار إلى أبي عبيدة بن الجراح وإلى يزيد بن أبي سفيان فبعثا بها إلى أبي بكر بالمدينة . فماذا كان انفعال أبي بكر بها ؟

كان ما مر بنا وما سطره في كتبه إلى جيوشه بالشام ... هذا هو الأمر الطبيعي الذي كان ينتظره .. وما كان له ولا لهم أن يتوقعوا غير ذلك . ما كان لهم أن يظنوا أن الروم سوف يسلمون الشام دون بذل كل ما يمكن من مقاومة . غاية ما هناك أن الأعداد والإعداد الذي جاءته أخباره تستدعي إجراء الحسابات اللازمة لمقابلتها ولكنه لا يشك في إنجاز موعود الله ولا يرتاب في إحرازه النصر النهائي ما دام يأخذ بالأسباب والله ناصره .

خالد يقود فتح الشام

كان جيش خالد بن الوليد بالعراق ثمانية عشر ألفا ، وجيوش المسلمين بالشام ٢٤٠٠٠ . وقرر أبو بكر أن يركز الآن على الشام ولو وقف مدافعا بالعراق، فإن الوضع بالشام يحتاج إلى مدد كبير جاهز فورا ، كما يحتاج إلى عقلية قيادية فذة .. هذا وذاك وجده في سيف الله خالد بن الوليد وفي جيشه بالعراق فكتب .

من أبي بكر الى خالد بن الوليد (١)

٢١ محرم ١٣ هـ ٢٨ مارس ٦٣٤

« ... أما بعد . فإذا جاءك كتابي هذا فدع العراق ، وخلف فيه أهله الذين قدمت عليهم وهم فيه . وأمض متخففا في أهل القوة من أصحابك الذين قدموا العراق معك من اليمامة ، وصحبوك من الطريق ، وقدموا عليك من الحجاز، حتى تأتي الشام فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين . فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة . والسلام عليك » .

وبعث أبو بكر بكتابه هذا إلى خالد بن الوليد مع عبد الرحمن بن حنبل الجمحي . فلما قدم عبد الرحمن على خالد قال له خالد « ما وراءك ؟ »

قال عبد الرحمن : « خير ، وقد أُمِرتَ أن تسير إلى الشام » .

فغضب خالد وشق ذلك عليه وقال « هذا عمل عمر ، نَفِس عليَّ ان يفتح الله على يديّ العراق » . فلما قرأ كتاب أبي بكر ورأى أنه قد ولاه على أبي عبيدة وعلى الشام كله كأن ذلك سخا بنفسه فقال « أما إذ ولاّني فإن في الشام خلفا من العراق » .

فقال بشير بن ثور العجلي ـ وكان من أشراف بني عجل وفرسان بكر بن وائل ومن أصحاب المثنى بن حارثة ـ « أصلحك الله ، والله ما جعل الله الشام من العراق خلفا والعراق اكثر من الشام حنطة وشعيرا ، وديباجا وحريرا ، وفضة وذهبا ، وأوسع سعة وأعرض عرضا . والله ما الشام كله إلا كجانب يسير من العراق » .

فقال خالد « إن بالشام أهل الإسلام ، وقد زحفت إليهم الروم ، وتهيأوا لهم ، وإنما أنا مغيث لهم ثم راجع إليكم ، فكونوا أنتم ها هنا على حالكم التي أنتم عليها ، فإذا فرغت مما أشخص له فأنا منصرف إليكم عاجلا ، وإن أبطأت رجوت

---

(١) الأزدي ٦٨ قال وحدثني أبو زياد عن عبد الملك بن الأعور .

ألا تعجزوا ولا تهنوا ، فإن خليفة رسول الله ﷺ ليس بغافل عنكم ، ولا بتارك أن يمدُّكم بالرجال والجنود حتى يفتح الله عليكم هذه البلاد إن شاء الله » .

وخرج خالد من الحيرة بالعراق في ٨ صفر ١٣ هـ ١٤ ابريل ٦٣٤ تقريبا فسار شمالا ثم عرج حتى اجتاز صحراء السماوة إلى الشام . ورغم أن الروايات واضحة عن الطريق الذي سلكه خالد فقد كثر اللغط حوله ، وقد ناقشنا ذلك تفصيلا [1] وانتهينا إلى رأي أكيد قاطع فيه بما يغنينا عن إعادته هنا .

من خالد بن الوليد الى المسلمين بالشام

ومر خالد بعين التمر ، ومع خروجه منها متوجها إلى الشام بعث عمرو بن الطفيل [1] بن عمرو الأزدي (وهو ابن ذي النور) بكتاب سبقه به إلى المسلمين بالشام

« بسم الله الرحمن الرحيم »

من خالد بن الوليد إلى من بأرض العرب من المؤمنين والمسلمين .
سلام عليكم . فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد .
فإني أسأل الله الذي أعزنا بالإسلام وشرفنا بدينه وأكرمنا بنبيه محمد ﷺ ، وفضّلنا بالإيمان ، رحمة من ربنا لنا واسعة ، ونعمة منه علينا سابغة ، أن يتم ما بنا وبكم من نعمته ، واحمدوا الله عباد الله يزدكم ، وارغبوا إليه في تمام العافية يُدِمْها لكم ، وكونوا له على نعمه من الشاكرين .
وإن كتاب خليفة رسول الله ﷺ أتاني يأمرني بالمسير إليكم ، وقد شمّرت وانكمشت [أسرعت] وكأن خيلي قد أطلّت عليكم في رجال ، فأبشروا بإنجاز موعود الله وحسن ثوابه.
عصمنا الله وإياكم بالإيمان وثبتنا وإياكم على الإسلام ورزقنا وإياكم حسن

(١) الطريق إلى المدائن ٣٢٤ ـ ٣٣٣ .
(١) الأزدي ٧١ قال وحدثني يزيد بن يزيد بن جابر عن عمرو بن محصن عن عبد الله بن قُرْط الثمالي .

ثواب المجاهدين والسلام عليكم »

وكتب معه كتابا آخر إلى أبي عبيدة

« بسم الله الرحمن الرحيم » .
« لأبي عبيدة بن الجراح من خالد بن الوليد .
سلام عليك ، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد .
فإني أسأل الله لنا ولك الأمن يوم الخوف والعصمة في دار الدنيا .

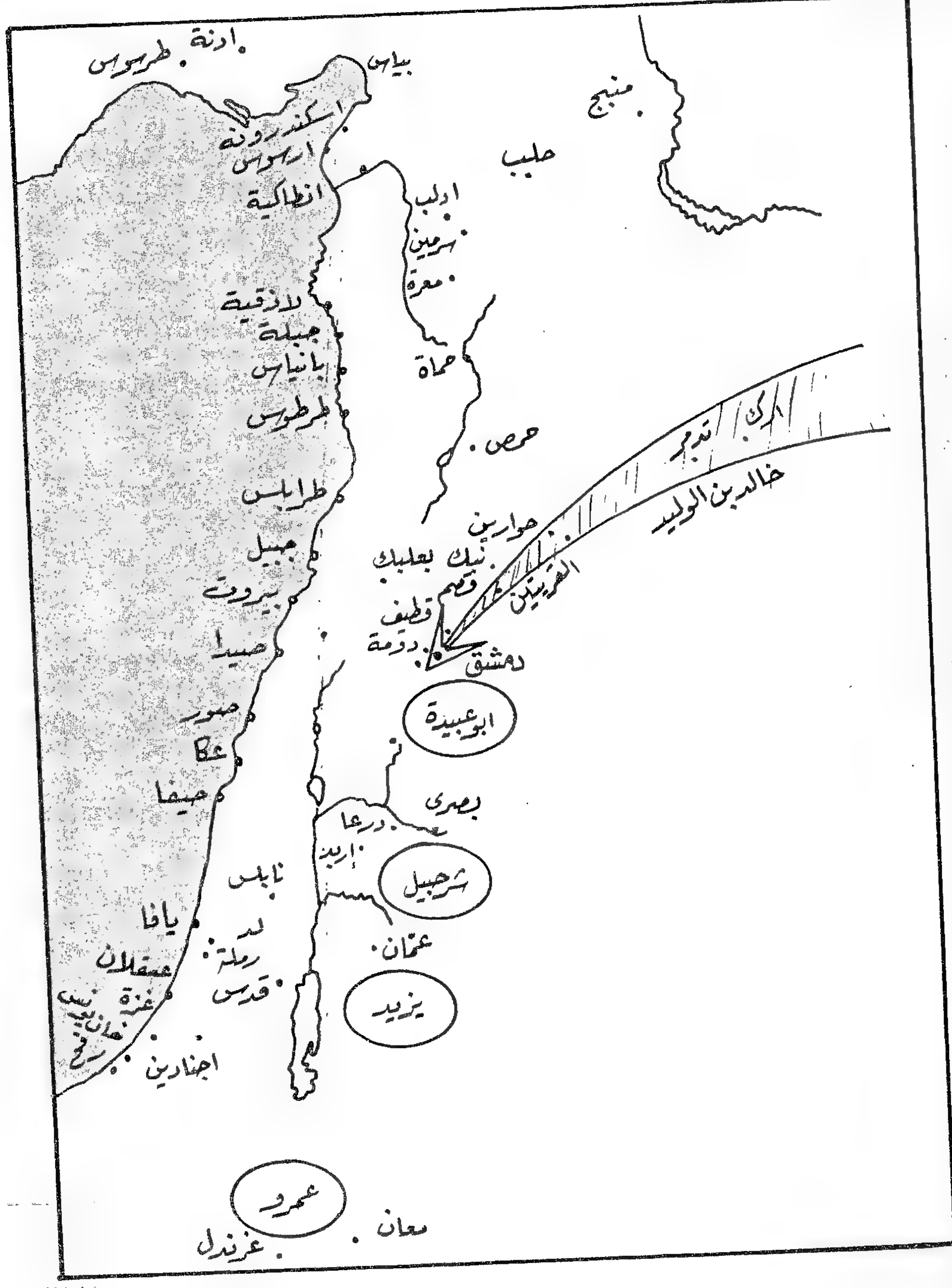
لقد أتاني كتاب خليفة رسول الله ﷺ يأمرني بالمسير إلى الشام وبالمقام على جندها والتولي لأمرها . ووالله ما طلبت ذلك ولا أردته ولا كتبت إليه فيه . وأنت رحمك الله على حالك التي كنت بها ، لا يُعصى أمرك ولا يُخالف رأيك، ولا يُقطع أمر دونك ، فأنت سيد من سادات المسلمين ، لا يُنكر فضلك ولا يُستغنى عن رأيك .

تم الله ما بنا وبك من نعمة الإحسان ورحمنا وإياك من عذاب النار . والسلام عليك ورحمة الله » .

كان أبو عبيدة بن الجراح وجيشه بالجابية فأتاهم عمرو بن الطفيل بها بالرسالتين ، وقرأ على المسلمين كتاب خالد بن الوليد ودفع إلى أبي عبيدة كتابه ، فلما قرأه قال « بارك الله خليفة رسول الله ﷺ فيما رأى ، وحيا خالدا بالسلام » .

كان جنود أبي عبيدة شديدي الحب له وأكثرهم انضوى تحت قيادته باختيارهم لا تجنيدا ولا بتكليف أبي بكر فشق عليهم عزل أبي عبيدة وكان أشدهم في ذلك بني سعيد بن العاص ، ولقد مر بنا كيف أنهم اختاروا العمل تحت إمرة أبي عبيدة وفضلوه على العمل مع ابن عمهم يزيد بن أبي سفيان ، أما الرجل العملاق أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح الذي كان تولية خالد بمثابة عزل له هو فلم يتبين في وجهه ولا في شيء من منطقه الكراهية لتولية خالد .

وتم لخالد عبور صحراء السماوة وانحدر بجيشه إلى الشام ، فلما بلغ قُصَم



خريطة رقم (٨) - معسكرات المسلمين بالشام .

صالحه بنو مشجعة بن التيم بن النمر بن وبرة من قضاعة . قال عمرو[١] بن ضُرَيْس المُشْجَعي : أقبل نحونا خالد بن الوليد من العراق حتى أخذ على قراقر ثم شوا[٢] ، ثم اللِّوَى ثم قُصَم وكتب لنا ـ الحي من مشجعة ـ كتابا فهوعندنا إلى اليوم

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« هذا كتاب خالد بن الوليد لبني مشجعة ، أن لهم ساقية قصم عذبها وسقيها ، وَجَلدها ـ أي عامرها ـ عامر الأرض من شرقيها ، وأن لأهل الغوطة من غربيها».

ونفر معه يعقوب بن عمرو بن ضريس المشجعي فسار إلى الغدير ثم إلى ذات الصنمين ثم خرج على الغوطة حتى أغار عليهم فقتل ما شاء وغنم . ثم إن العدو دخلوا دمشق وتحصنوا . فأقبل أبو عبيدة ـ وكان بالجابية مقيما ـ حتى لقيه ونزل معه الغوطة فحاصر أهل دمشق . أ . هـ .

لقد تحاشى خالد حين حاذى بلاد الجزيرة أن يلتحم بالروم الذين كانوا يحتلونها أو حتى أن يقترب منها ، لكنه حين انصب إلى الشام حرص جهده على ألا يترك خلفه مواقع قائمة للروم أو لعملائهم من العرب والأعراب فإن الشام غير الجزيرة ، الشام الآن هي الميدان .

في رواية لقيس[٣] بن أبي حازم البجلي وكان من جند خالد الذين جاءوا معه من العراق قال « فأقبل بنا حتى مر على أركة [أرك] فحاصر أهلها وأغار عليهم فأخذ الأموال وتحصن أهلها فلم يبارحهم حتى صالحوه » .

فتح تدمر

ثم مر بتدمر فتحصنوا منه فأحاط بهم من كل جانب وأخذهم بكل مأخذ فلم

---

(١) الازدي ٧٦ قال وحدثني المسيب بن زبير بن أفلح بن يعقوب [ابن عمرو بن ضريس] عن عمرو بن ضريس المشجعي وهم حي من قضاعة .

(٢) في روايات أخرى سوى .

(٣) الازدي ٧٦ حدثني الحارث بن كعب عن قيس بن أبي حازم .

يقدر عليهم ، فقال لهم « والله لو كنتم في السحاب لاستنزلناكم ولظهرنا عليكم ، وما جئناكم إلا ونحن نعلم أنكم ستفتحونها لنا [في الأصل علينـا] ، وإن أنتـم لم تصالحوني هذه المرة لأرجعن إليكم لو قد انصرفت من وجهي هذا ثم لا أرتحل عنكم حتى أقتل مقاتلتكم وأسبي ذراريكم » . ثم ارتحل عنهم فمضى ، واجتمع عظماؤهم فقال بعضهم لبعض « لا نرى إلا أن هؤلاء القوم الذين نزلوا بكم هم الذين كنا نتحدث أنهم يظهرون علينا فافتحوا لهم وصالحوهم » .

فبعثوا في أثر خالد فرجع إليهم ففتحوا له مدينتهم[1] وصالحوه .

والقريتين وحوارين

وأتى القريتين فقاتله أهلها فظفر بهم[2] وغنم منهـم . ثم مر على حوارين فخافه أهلها وهابوه وتحرز أكثرهم منه وتحصنوا ، فأغار عليهم واستاق مواشيهم وقتل رجالهم وأقام عليهم أياما ، فبعثوا إلى من حولهم ليعينوهم فجاءهم مددان ، أحدهما من بعلبك والآخر من بصرى وكل منهما اكثر من ألفين . فلما رآهم خالد صف صفوفه ثم خرج في مائتين من الفرسان فحمل على مدد أهل بعلبك فقصف بعضهم على بعض [دفعهم] وأثخن فيهم قتلا فما صمدوا ساعة حتى انهزموا ودخل من بقي منهم مدينة حوارين يحتمون بها . ثم انطلق في اصحابه يركض الوجيف[3] حتى إذا حاذى أهل بصرى استعرضهم ثم حمل عليهم فما ثبتوا له إلا قليلا حتى انهزموا إلى المدينة ، وخرج أهل حوارين فرموا المسلمين بالنشاب فحمل عليهم خالد وأعادهم إلى حوارين مهزومين ورجع عنهم ذلك اليوم .

فلما كان اليوم التالي خرج أهل حوارين ليقاتلوا المسلمين فهاجمهم خالـد

(١) الازدي ٧٧ حدثني ابو جهضم عن عبد الرحمن بن السليك عن عبد الله بن قرط .
البلاذري ١٣٢عن الواقدي .

(٢) البلاذري ١٣٢ عن الواقدي .

(٣) الوجيف نوع من سير الإبل ـ مختار الصحاح . وَجَفَ عدا وسار سريعا ـ المنجد.

فهزمهم ، فلما رأوا أنهم لا طاقة لهم[1] به صالحوه .

يروي شاهد عيان[2] ما كان من أمر اليوم الثاني لحوارين وهو واحد من كفار أهلها من غير العرب ، وكان من شجعانهم وأشدائهم ، قال « والله لخرجنا إلى خالد بعد ما جاءنا مدد بعلبك وأهل بصرى بيوم ؛ فخرجنا إليه ، وإنا لأكثر من خالد وأصحابه بعشرة أضعافهم [نراها مبالغة] فما هو إلا أن دنونا منهم ، فثاروا في وجوهنا بالسيوف كأنهم الأسد فهزمونا أقبح هزيمة وقتلونا أشد القتل ، فما عدنا نخرج إليهم حتى صالحناهم . وقد رأيت منا رجلا كنا نعده بألف رجل ، وكان يقول لئن رأيت أميرهم لأقتلنه ، فلما رأى خالدا قال له أصحابه ، هذا خالد أمير القوم ، فحمل عليه العِلْج وإنا لنرجو لبأسه وشدته أن يقتله ، فما هو إلا أن دنا منه فضرب خالد فرسه فقدمه عليه . وكان خالدُ رضي الله عنه إذا كان عند الحرب فكأنه يربو ويعظم ويهول من ينظر إليه ، فاستقبل العلج فاستعرض وجهه بالسيف فضربه فأطـار نصف وجهه وقحف رأسه فقتله . وانهزمنا أقبح هزيمةحتىدخلنا مدينتنا ، فما كان لنا همّ إلا الصلح حتى صالحناهم » .

وبلغت أخبار خالد أعراب غسان فاجتمعوا بمرج راهط وعليهم الحارث بن الأيهم [أخ جبلة بن الأيهم] فانقض عليهم خالد فانتسف عسكرهم وعيالاتهم وسبى منهم يوم فصحهم[3] ١٩ صفر ١٣ هـ ٢٤ ابريل ٦٣٤ وهم نصارى ، ونزل

(١) الأزدي ٧٨ حدثني يزيد بن يزيد بن جابر عن عمرو بن محصن عن سراقة بن عبد الاعلى بن سراقة الأزدي .

(٢) الازدي ٧٩ قال عمرو بن محصن حدثني علج من أهل حوارين .

(٣) الطبري ٤١٠/٣ س ش س عن عمرو بن محمد بإسناده الذي تقدم .
٤١٧ حدثنا ابن حميد عن سلمة بن محمد بن اسحق عن صالح بن كيسان .
ابن عساكر ٤٥٨/١ أخبرنا أبو غالب محمد بن الحسن الماوردي ، أنا ابو الحسن محمد بن علي السيرافي ، انا ابو عبد الله احمد بن اسحق بن خَرْبان النهاوندي، نا أحمد بّن عمران بن موسى ، ناموسى بن زكريا التستري ، نا أبو عمرو خليفة بن خياط العصفري ، نا بكر يعني بن سليان عن ابن اسحق
[البلاذري ١٣٢ عن الواقدي .

بالمرج أياما وبعث بالأخماس مع بلال بن الحارث المزني ثم خرج من المرج نحو قناة بصرى .

ووجه[1] خالد بسر بن أبي أرطاه العامري من قريش وحبيب بن مسلمة الفهري إلى غوطة دمشق فأغارا على بعض قراها وسار خالد إلى الثنية فوقف عليها ساعة ناشرا رايته العقاب السوداء التي كانت لرسول الله ﷺ ، فسميت ثنية العقاب يومئذ وفي رواية أوثق أن الراية كانت[2] بيضاء . ونزل خالد بجيشه أمام الباب الشرقي لدمشق ونزل ديرا عرف به فيقال له دير خالد تجاه الباب[3] الشرقي ـ وقيل بل أمام باب الجابية الغربي ـ فأخرج له أسقف دمشق نُزُلاً وخدمة تحية له ، وقال له احفظ ليَ هذا العهد ، فوعده خالد بذلك . ثم سار خالد حتى أتى أبا عبيدة بالجابية فالتقيا ومضيا معاً بجنديهما إلى بصري .

حكاية

تحدث أبو الخزرج الغساني عن سبي غسان[4] قال « كانت أمي من ذلك السبي ، فلما رأت دين المسلمين وهديهم وصلاحهم وعفافهم وقع الاسلام في قلبها فأسلمت . فطلبها أبي في السبي فعرفها فأتى المسلمين فقال يا أهل الاسلام إني أخوكم وأنا رجل مسلم وقد جئتكم مسلما ، وهذه امرأتي قد أصبتموها ، فإن رأيتم أن تصلوني وترعوا حقي وتحفظوني وتردوا عليّ أهلي فعلتم. وقد كانت امرأته أسلمت وحسن إسلامها . فقال لها المسلمون : ما تقولين في زوجك قد جاء يطلبك وهو مسلم ؟ قالت : إن كان مسلما رجعت إليه وإن لم يكن مسلما فلا حاجة لي فيه ولست براجعة إليه أبدا . فدفعوها إليه .

(١) البلاذري ١٣٢ عن الواقدي .

(٢) الازدي ٨٣ حدثني يزيد بن يزيد بن جابر [حافظ تقة توفي ١٣٤ هـ] وهذا السند أوثق من سابقه .

(٣) نفس المصدر ونفس السند .

(٤) الازدي ٨٣ حدثني المسيب بن الزبير بن أفلح بن يعبوب غن عمرو بن ضريس المشجعي ، وحدثني ابو الخزرج الغسائي .

خلاصة وتقدير موقف

أربعة وعشرون ألف مقاتل مسلم توزعوا على أربعة معسكرات أحاطت بالشام من شرقيه ومن جنوبه في حين انقض خالد بن الوليد في تسعة آلاف كالعقاب السريع الكاسر أو كزوبعة خرجت من الصحراء لينضم إلى إخوانه ويقودهم .

وكانت للروم حاميات متعددة في قلاع أو حصون .. ليس في وسعنا حصرها أو تعدادها ولكننا نتبين منها حامية في قلعة دمشق وفي بصرى وفي انطاكية وفي بعلبك وفي حلب وفي قنسرين وفي حمص . وحين نزل عمرو بن العاص في غمر العربات حشد الروم ٧٠ ٠٠٠ نزلوا ثنية[1] جلق بأعلى فلسطين .

مآب تم فتحها ، كما تم تصفية قوة للروم قوامها ٣٠٠٠ في التحامين متعاقبين في وادي عربة ثم في داثنة بمنطقة غزة ، وتقدم خالد بن سعيد حتى هزم بمرج الصفر من ضواحي دمشق .

عدد هذه الجيوش

والآن ... ماذا صار للمسلمين في الشام من جيوش ؟

أكثر الرواة على أن جيوش المسلمين تحت إمرة الأمراء الأربعة بلغت ٢٤ ٠٠٠[2] فإذا أضيف إليها جيش خالد بن الوليد القادم من العراق والبالغ

(١) الطبري ٤٠٥/٣ حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن محمد بن اسحق عن صالح بن كيسان .

(٢) ابن عساكر ٤٥٠/١ أخبرنا ابو محمد الأكفاني ، نا عبد العزيز بن احمد الكتاني ، أنا أبو محمد بن أبي نصر ، أنا ابو القاسم بن أبي العقب ، أنا أبو عبد الملك احمد بن ابراهيم القرشي ، نا ابو عبد الله محمد بن عائذ ، نا الوليد بن مسلم ، سمعت أبا عمرو وغيره من أشياخنا .

و ٤٥٣/١ قرأت على أبي محمد عبد الكريم بن حمزة السلمي ، عن عبد العزيز بن احمد التميمي ، أنا أبو نصر محمد بن احمد بن هارون الجندي ، وابو القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الحسن بن أبي العقب ، قالا انا ابو القاسم علي بن يعقوب بن أبي العقب ، انا احمد بن ابراهيم القرشي ، نا محمد بن عائذ القرشي ، وقال الوليد ، انا صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير .

عدده ٩٠٠٠ يصير عددها جميعا ٣٣ ٠٠٠ في خمسة جيوش . ولقد بدأ مسير كل جيش من المدينة في عدد قليل نسبيا ـ حوالي[1] ٣٠٠٠ ـ ثم زيد بالأمداد التي كانت تصل تباعا . ونذهب من مجموع الروايات إلى أن جيوش المسلمين في وضعها

و ٥٢٩/١ أخبرنا أبو علي الحسين بن علي المصري وابنه أبو الحسن قالا ، انا ابو الفضل بن الفرات ، أنا أبو محمد بن أبي نصر ، أنا أبو القاسم بن أبي العقب ، أنا أبو عبد الملك احمد بن ابراهيم ، نا ابن عائذ ، قال وحدثني عبد الأعلى علي بن مسهر عن سعيد بن عبد العزيز .

و ٥٥٧/١ أخبرنا أبو علي بن أشليها وابنه ابو الحسن علي قالا : انا ابو الفضل بن الفرات ، أنا أبو محمد بن أبي نصر ، أنا ابو القاسم بن أبي العقب ، نا احمد بن ابراهيم ، نا محمد بن عائذ ، نا مدرك بن أبي سعد عن يونس بن ميسرة بن جلبس .

والبلاذري ١٢٩ عن أبي مخنف .

(١) رواية البلاذري ص ١٢٩ عن أبي مخنف وهو الظاهر الذي نذهب إليه . وبعض الرواة على بعض الاختلاف ، فيذكر الطبري ٤٠٦/٣ عن المدائني بإسناده أن يزيد وشرحبيل وأبا عبيدة كل قد خرج في ٧ ٠٠٠ ثم أمدهم بعمرو ولم يذكر عدد من خرج معه ، ثم رغب الناس في الجهاد فكانوا يأتون المدينة فيوجههم ابو بكر إلى الشام فمنهم من يصير مع أبي عبيدة ومنهم من يصير مع يزيد ، يصير كل قوم مع من أحبوا . ويذكر الأزدي ٥١ عن الصعب بن زهير عن عمرو بن شعيب ان عمرو بن العاص بلغ الشام في ٢٠٠٠ بمن حشد في الطريق من الاعراب في حين يذكر ابن عساكر انه خرج من المدينة في ٣٠٠٠ فيهم كثير من المهاجرين والأنصار ـ ابن عساكر ٤٤٦/١ اخبرنا ابو بكر الفرضي ، انا ابو محمد الجوهري ، أنا ابو عمر بن حيويه ، انا ابو الحسن احمد بن معروف الخشاب ، انا الحسين بن الفهم ، انا محمد بن سعد ، انا محمد بن عمر [الواقدي] ، حدثني عبد الجبار بن عمارة عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم .

كذلك اورد ابن عساكر رواية بأن الجنود في اليرموك مع الأمراء الأربعة كانوا ٢٧ ٠٠٠ بالإضافة إلى ٣٠٠٠ من فلول خالد بن سعيد و ٦٠٠٠ مع عكرمة بن أبي جهل كانوا ردءا لخالد بن سعيد ثم ١٠ ٠٠٠ مع خالد بن الوليد ، فجميعهم ٤٦ ٠٠٠ [٥٤٦/١ اخبرنا ابو القاسم بن السمرقندي ، انا ابو الحسين بن النقور ، انا ابو طاهر المخلّص ، نا ابو بكر بن سيف ، نا س ش س عن أبي عثمان يزيد بن أسيد الغساني عن خالد وعبادة] وفي رواية اخرى أن المسلمين باليرموك كانوا ٢٧٠٠٠ بالإضافة إلى خالد بن الوليد في جيش [٩ ٠٠٠] فجميعهم كانوا ٣٦ ٠٠٠ رواه الطبري عن س ش س عن محمد وطلحة وعمرو والمهلب ٣٩٤/٣] وفي رواية أخرى أن فرق المسلمين كانوا ٢١ ٠٠٠ سوى عكرمة في ٦ ٠٠٠ فجميعهم ٢٧ ٠٠٠ [الطبري ٣٩٢/٣ كتب إليّ س ش س عن مبشر وسهل وأبي عثمان عن خالد وعبادة وأبي حارثة] ولعله في هذا يقصد قبل وصول خالد بن الوليد

النهائي وهي مقسمة كانت كالآتي :

٧ ٠٠٠ جيش يزيد بن أبي سفيان.

٧ ٠٠٠ جيش شرحبيل بن حسنة

٧ ٠٠٠ جيش أبي عبيدة بن الجراح .

٣ ٠٠٠ جيش عمرو بن العاص .

٩ ٠٠٠ جيش خالد بن الوليد .

يزيد[1] بن أبي سفيان ولاه أبو بكر دمشق ، فسار على طريق التبوكية حتى نزل البلقاء . وشرحبيل بن حسنة ولاه أبو بكر الاردن ، فسار على التبوكية حتى نزل بصرى على منابع نهر اليرموك بالاردن . وأبو عبيدة بن الجراح ولاه أبو بكر على حمص فسار على التبوكية حتى نزل الجابية جنوبي دمشق بحوالي ٥٠ كيلومترا . وعمرو بن العاص ولاه أبو بكر فلسطين ، وأمره أن يأخذ طريق المعرقة إلى أيلة [إيلات اليوم أو العقبة] عامدا إلى فلسطين فنزل غمر العربات .

هذه المواقيت

في أحداث المرحلة الأولى التي مرت بنا من عملية فتح الشام يجد القارىء قرين كل حدث تاريخه . هذه التواريخ لم يذكرها الرواة وإنما قدرناها استخراجا من تسلسل الوقائع ومسافات ما بينها مكانيا وزمنيا وذلك حتى يكون لنا تصور شامل

(١) ابن عساكر ٥٤٥/١ اخبرنا ابو القاسم بن السمرقندي ، انا ابو الحسين بن النقور ، أنا أبو طاهر المخلّص ، انا ابو بكر بن سيف ، س ش س عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد.

الطبري ٣٩٠/٣ كتب إليّ س ش س عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد.

الطبري ٣٩١/٣ كتب إليّ س ش س عن هشام بن عروة عن أبيه .

الطبري ٤٠٥/٣ حدثنا ابن حميد حدثنا سلمة عن محمد بن اسحق عن صالح بن كيسان .

الطبري ٤٠٦/٣ قال ابو جعفر [الطبري] وأما أبو زيد فحدثني عن علي بن محمد [المدائني] بالاسناد [الوحيد] الذي ذكرت قبل .

البلاذري ١٢٩ عن أبي مخنف ، كما روى عن الواقدي .

ومنضبط للعمليات ، وحتى تعيننا على الترجيح بين ما تناقض من روايات باستبعاد غير المعقول منها ، مستعينين بقليل من الروايات مثل تحديد تاريخ إغارة خالد بن الوليد على غسان بمرج راهط يوم فصحهم ، ويوم أجنادين الذي اجتمعت على تاريخه كلمة الرواة أو كادت ، وببعض الظواهر مثل مطابقة توقيت موسم الأمطار على منطقة دمشق حيث فاجأ الروم خالد بن سعيد بمرج الصفر في يوم مطير .

ففي رواية مسندة لابن اسحق[1] أن أبا بكر أدى فريضة الحج في العام الثاني عشر ، ثم رتب على ذلك أنه عاد[2] من الحج إلى المدينة ليبدأ عملية فتح الشام . كما ذكر دون إسناد أن بعض الناس يقولون إن ابا بكر لم يحج في خلافته وإنه بعث سنة اثنتي عشرة على الموسم عمر بن الخطاب أو عبد الرحمن بن عوف ،

(١) الطبري ٣٨٦/٣ حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن محمد بن اسحق عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقب مولى الحرمة عن رجل من بني سهم عن ابن ماجدة السهمي .
تاريخ خليفة بن خياط ١٠٣/١ حدثنا بكر عن ابن اسحق

(٢) الطبري ٣٨٧/٣ حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن محمد بن اسحق
محمد بن حميد بن حيان الرازي من بحور العلم ولكنه ضعيف ، قال البخاري فيه نظر ، ولم يوثقه النسائي . قال صالح جزره ما رأيت أحذق بالكذب من ابن حميد ومن ابن الشاذكوني وكان يركب الأسانيد على المتون . وقد وثّقه يحيى بن معين وقال ثقة لا بأس به رازي كيّس . مات ٢٤٨ هـ [الطبقات الكبرى ١٧٥/٢/٧ ـ ميزان الاعتدال ٥٣٠/٣ ـ ٧٤٥٣ ـ تهذيب التهذيب ١٢٧/٩ ـ ١٨٠] . **سلمة بن الفضل بن الأبرش** ضعفه ابن راهوية والنسائي ، وقال ابن معين كتبنا عنه وليس في المغازي أتم من كتابه ... وليس به بأس . كان حافظا يحفظ من مرة وكان صاحب صلاة وخشوع وكان معلما ثم تولى قضاء الري . توفي ١٩١ [ميزان الاعتدال ١٩٢/٢ ـ ٣٤١٠ . الضعفاء الصغير ٥٥] . **العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب** صدوق مشهور يروى عن أنس وغيره ويروى عنه مالك وغيره . وثّقه أحمد والنسائي وقال غيرهما ليس بالقوي [ميزان الاعتدال ١٠٢/٣ ـ ٥٧٣٥] **علي بن ماجدة السهمي** روى عن أبي بكر وعمر وروى عنه العلاء بن عبد الرحمن والقاسم بن محمد ، ذكره ابن سعد في الطبقة الأولى من التابعين من أهل مكة . وذكر الذهبي أن البخاري ذكره في الضعفاء ولم نجده في كتاب الضعفاء الصغير للبخاري ولا في كتاب الضعفاء والمتروكين للنسائي ولا في لسان الميزان عن الضعفاء لابن حجر [الطبقات الكبرى ٣٤١/٥ ـ ميزان الاعتدال ١٥١/٣ ـ ٥٩١٤ ـ خلاصة تذهيب تهذيب الكمال] .

وأيّد الواقدي[1] أن أبا بكر حج في سنة اثنتي عشرة .

ولقد ذكر البلاذري[2] أن أبا بكر عقد الألوية لخالد بن سعيد وشرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص يوم الخميس لمستهل صفر ١٣ هـ بعد مقام الجيوش معسكرين بالجرف المحرم كله . كما ذكر المدائني[3] أن أبا بكر وجّه الجنود إلى الشام أول سنة ثلاث عشرة .

عرض أبو بكر موضوع فتح الشام على مستشاريه ... ثم بعث أنس بن مالك إلى اليمن لاستنفار المسلمين للجهاد .. وجاءت قبائل اليمن إلى المدينة فسيرها جيوشا مع سائر المتطوعين إلى الشام حتى دخلت أطرافه ، ومن هناك تبادل ابو عبيدة بن الجراح (ويزيد بن أبي سفيان) المراسلات مع ابي بكر ـ ثلاث رسالات من أبي عبيدة إلى أبي بكر وثلاث ردود عليها من أبي بكر إلى أبي عبيدة ، ثم وقعت معركتا العربة والداثنة ومعركة مرج الصفر فأمر أبو بكر خالد بن الوليد أن يسير من العراق إلى الشام لأن المسلمين قد أشجوا بالعربة والداثنة وشجوا بمرج الصفر ، فسار خالد حتى أوقع بغسان في مرج راهط ثم انضم إلى جيوش المسلمين بالشام . هذه جميعا أحداث تستغرق زمنا حسبناه تفصيلا آخذين في اعتبارنا ما يفصل بين اليمن والمدينة والشام والعراق من مسافات فوجدناه يبلغ حوالي عشرة أشهر .

فإذا علمنا أن إغارة خالد بن الوليد على غسان كانت يوم فصحهم وأن ذلك الفصح كان[4] يوم ١٩ صفر ١٣ هـ لتبين لنا استحالة أن تكون تلك الأخبار التي حجمها عشرة شهور لاتقل قد وقعت في شهرين فيما بين انتهاء أداء الحج في شهر

(١) الطبري ٣٨٦/٣ الواقدي عن عثمان بن محمد بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر عن أبي وَجْزَة يزيد بن عبيد الله عن أبيه .
(٢) فتوح البلدان ١٢٨ .
(٣) الطبري ٣٨٧/٣ حدثني عمر بن شبه عن علي بن محمد [المدائني] عن أبي معشر ويزيد بن عياض بن جعدبة وغسان بن عبد الحميد وجويرية بن اسماء .
(٤) الطريق إلى المدائن ٣٢٣ .

ذي الحجة ١٢ هـ وبين شهر صفر ١٣ هـ .

على ذلك فليس أمامنا إلا احتمال من اثنين :

الأول إعمال القاعدة الثانية من قواعد الترجيح بين ما تعارض من روايات التي اوردناها في فصل « روايات فتوح الشام » فنأخذ بالرواية غير المسندة لابن اسحق أن أبا بكر لم يحج في خلافته حتى نجد انفساح الوقت اللازم لاستيعاب تلك الأحداث خاصة وأن الرواية المسندة تشتمل في سندها على ضعيف وعلى مجهول وعلى كذاب على ما فصلنا بالهامش .

والثاني عدم الربط زمنيا بين أداء أبي بكر الحج عام ١٢ هـ وبين بدء عملية فتح الشام ، بمعنى أن نذهب إلى أن أبا بكر قد بدأ عملية الشام قبل موسم الحج بزمن كاف لاستيعاب الأحداث ثم أدى الحج في اثناء ذلك .

هذا الاحتمال الثاني هو الذي نختاره لمساندة رواية الواقدي له ، فهو تضافر روايتين ضعيفتين ـ يؤمن تواطؤهما ـ يقويهما ، فضلا عما تمليه ضرورة اعتماد الوقت الكافي للأحداث .

هذه التوقيتات المعقولة طبقا لحساباتنا وجدناها لا تتفق وما رواه البلاذري[1] أن أبا بكر عقد الألوية لخالد بن سعيد وشرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص يوم الخميس لمستهل صفر ١٣ هـ بعد مقام الجيوش معسكرين بالجرف المحرم كله . هذه الرواية لا تستقيم حتى لو أخذنا بأن أبا بكر بدأ عملية الشام بعد عودته من الحج عام ١٢ هـ ، فإن الوقت لم يكن ليتسع أن يرسل أبو بكر إلى اليمن أنس بن مالك ثم تفد وفودهم إلى المدينة .

وجدير بالذكر أن أجدر الروايات بالثقة وهي التي رواها الأزدي لم تتعرض

(١) فتوح البلدان ١٢٨ .

(٢) الطبري ٤٠٨/٣ س ش س عن عمرو بن محمد عن اسحق بن ابراهيم عن ظفر بن دهى ، ومحمد بن عبد الله عن أبي عثمان ، وطلحة عن المغيرة ، والمهلب بن عقبة عن عبد الرحمن بن سياه الأحمري .

لمواقيت بدء عملية الشام رغم ثرائها بالتفاصيل الدقيقة الصحيحة . وفي رواية سيف أن أبا بكر وجه خالد بن سعيد إلى الشام حين وجه خالد بن الوليد إلى العراق يعني في أوائل شهر محرم ١٢ هـ . وفي حين نجد أن الأخذ بهذه الرواية يسلمنا إلى ثلاثة أشهر ساقطة من التاريخ هي ما بين مستهل المحرم حتى أواخر شهر ربيع الأول ١٢ هـ تخلو من أي حدث ، فليس هناك أي قرائن تساندها . ومثل ذلك تماما رواية الوليد بن مسلم التي تقول إن أبا بكر بعث خالد بن الوليد على جيشه إلى العراق وبعث إلى الشام ثلاثة أمراء ، خالد بن سعيد على جند وعمرو بن العاص على جند وشرحبيل بن[1] حسنة على جند . وهذه الرواية لم تقرن الحدثين زمنيا .

لقد انتهينا إلى التوقيتات التي أثبتناها قرين كل حدث ، وهي توقيتات تقريبية مستنتجة من قرائن الأحوال وما يفصل بين المواقع والبلدان من مسافات ، فإذا لم تكن قد أصابت عين الصواب فإنها لا تعدوه إلا قليلا ولا تبعدها عن الحقيقة أو تخرجها عن موسمها .

قادتنا هذه الحسابات إلى أن أبا بكر قد بدأ عملية فتح الشام باجتماعه بمستشاريه في حوالي الثلاثين من شهر ربيع الأول ١٢ هـ ـ ١٤/٦/٦٣٣ م. وهنا يمكننا أن نجد الرابطة ـ التي لم يذكرها الرواة ـ بين توقيتات عمليات فتح العراق وبين توقيت بدء عملية فتح الشام . بعبارة أخرى لماذا لم تبدأ عملية فتح الشام قبل شهر ربيع الأول ١٢ هـ في حين بدأ فتح العراق قبل ذلك بثلاثة أشهر في شهر المحرم من نفس العام ؟ بالمقارنة بما كان يجري في الميدان الشرقي بالعراق نرى أن

ابن عساكر ٤٦٣/١ بسند يتصل بنفس السند المذكور عن الطبري .

(١) ابن عساكر ٤٥٣/١ عن ابن عائذ عن الوليد بن مسلم عن ابن لهيعة عن يونس بن زيد عن ابن شهاب الزهري .

أبا بكر رضي الله عنه لم يشرع في فتح الشام إلا بعد أن جاءته الأخبار بسقوط الحيرة في يد خالد بن الوليد في منتصف شهر ربيع الأول . وقد يفسر هذا توارد الأفكار حول فتح الشام في ذات الوقت ولقد مر بنا قول عمر بن الخطاب لأبي بكر « قد والله أردت لقاءك لهذا الرأي الذي ذكرت فما قضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرتَه الآن » ، وقد تكون رؤيا شرحبيل نتاج حديث عقله الباطن في تيار توارد الفكر .

وقد سبق أن[1] بيّنا أن اليوم كان وحدة لقياس المسافات ، وهو المسافة التي تقطعها قوافل الإبل المحملة بالأثقال في يوم واحد ، وكان متوسط هذه المسافة ٤٤,٣٥٢ كيلومترا . وقد ذكر الاصطخري[2] أن المسافة من أقصى حضرموت إلى عدن نحو من شهر ، ومن عدن إلى جدة نحو من شهر . وذكر المقدّسي[3] أن الطريق من المدينة إلى دمشق خمس وعشرون مرحلة مرورا بتيماء ، وهو خلاف التبوكية الذي يمر بتبوك والذي سلكته جيوش يزيد وشرحبيل وأبي عبيدة ولكنه يوازيه . في حين ذكر ابن خرداذبه[4] الطريق من دمشق إلى المدينة مرورا بتبوك ستة عشر منزلا [محطة] بينما ذكرها قدامة[5] بن جعفر تسع مسافات . وقد اجتاز ابن بطوطة في رحلته ما بين تبوك إلى المدينة في نحو تسعة أيام .

تلك كانت مسافات القوافل ، أما إذا كان التنقل لحمل الرسائل باستخدام الخيل فلعل السرعة أن تتزايد إلى الضعف ويتناقص الزمن إلى النصف ، وقد قطع المثنى بن حارثة المسافة بين الحيرة والمدينة في عشرة أيام .

أما في حالة الإسراع بالحملات العسكرية لجيوش بأعداد كبيرة فيمكننا

(١) الطريق إلى المدائن ١٣٤ .
(٢) المسالك والممالك ٢٧ .
(٣) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ١٠٦ ـ ١٠٧ .
(٤) المسالك والممالك ١١٩ .
(٥) الخراج وصنعة الكتابة ١٩١ .

الأخذ بتقديرات وسط بين هذا وذاك . هذه المادة الخام استعنا بها في تقديرنا وتأسيسا عليه قدرنا ما ذكرنا من توقيتات نفرغها في هذه القائمة التقريبية التي لا تبعد كثيرا عن الحقيقة ، وقد ضمناها أحداث فتح العراق المعاصرة لها للربط بين الأحداث ، وهي ما كان يمكن أن يجده القارىء في صحافة ذلك العهد لوأنه كان به صحافة .

٢٧ ربيع الأول ١٢	١١ يونية ٦٣٣	قدوم شرحبيل من عند خالد إلى المدينة بفتح الحيرة .
٣٠ ربيع الأول ١٢	١٤ يونية ٦٣٣	مفاتحة أبي بكر لمستشاريه .
٢ ربيع الثاني ١٢	١٦ يونية ٦٣٣	عقد اللواء لخالد بن سعيد .
٤ ربيع الثاني ١٢	١٨ يونية ٦٣٣	عزل خالد بن سعيد وتعيين الأمراء .
٦ ربيع الثاني ١٢	٢٠ يونية ٦٣٣	خروج أنس بن مالك الى قبائل اليمن
٢ جمادي الأولى ١٢	١٥ يولية ٦٣٣	وصول أنس بن مالك إلى اليمن .
١٥ جمادي الآخرة ١٢	٢٧ أغسطس ٦٣٣	بدء رحلة العودة لأنس إلى المدينة .
٤ رجب ١٢ هـ	١٤ سبتمبر ٦٣٣	سقوط الانبار بالعراق .
١١ رجب ١٢	٢١ سبتمبر ٦٣٣	وصول أنس إلى المدينة .
١٦ رجب ١٢	٢٦ سبتمبر ٦٣٣	قدوم قبائل حمير إلى المدينة .
٢١ رجب ١٢	١ أكتوبر ٦٣٣	قدوم قيس بن هبيرة في مذحج إلى المدينة .
٢٣ رجب ١٢	٣ أكتوبر ٦٣٣	خروج يزيد من المدينة إلى الشام .

٢٤ رجب ١٢	٤ أكتوبر ٦٣٣	سقوط دومة الجندل في يد خالد بن الوليد .
٢٧ رجب ١٢	٧ أكتوبر ٦٣٣	خروج شرحبيل من المدينة الى الشام .
٧ شعبان ١٢	١٧ اكتوبر ٦٣٣	خروج أبي عبيدة من المدينة إلى الشام .
١٠ شعبان ١٢	٢٠ اكتوبر ٦٣٣	معركة الحصيد بالعراق .
١١ شعبان ١٢	٢١ اكتوبر ٦٣٣	معركة الخنافس بالعراق .
١٤ شعبان ١٢	٢٤ اكتوبر ٦٣٣	خروج خالد بن سعيد إلى تيماء .
١٧ شعبان ١٢	٢٧ اكتوبر ٦٣٣	قدوم ملحان بن زياد في طيء
١٨ شعبان ١٢	٢٨ اكتوبر ٦٣٣	بلوغ يزيد إلى البلقاء
١٨ شعبان ١٢	٢٨ اكتوبر ٦٣٣	بلوغ شرحبيل إلى نواحي بصرى .
١٩ شعبان ١٢	٢٩ اكتوبر ٦٣٣	معركة المصيخ بالعراق
٢٣ شعبان ١٢	٢ نوفمبر ٦٣٣	خطبة هرقل بفلسطين ورحيله إلى دمشق .
٢٣ شعبان ١٢	٢ نوفمبر ٦٣٣	معركة الثنى بالعراق
٢٨ شعبان ١٢	٧ نوفمبر ٦٣٣	خطبة هرقل بدمشق ورحيله الى حمص .
٢٩ شعبان ١٢	٨ نوفمبر ٦٣٣	اقتراب أبي عبيدة من الجابية وعلمه بتحركات هرقل .
٤ رمضان ١٢	١٣ نوفمبر ٦٣٣	خطبة هرقل بحمص ورحيله إلى انطاكية .

٩ رمضان ١٢	١٨ نوفمبر ٦٣٣	نزول هرقل انطاكية وبعثه يطلب الحشود .
١٦ رمضان ١٢	٢٥ نوفمبر ٦٣٣	كتب أبو عبيدة إلى أبي بكر بأخبار هرقل .
١٦ رمضان ١٢	٢٥ نوفمبر ٦٣٣	كتب يزيد إلى أبي بكر بأخبار هرقل .
٢ شوال ١٢	١٠ ديسمبر ٦٣٣	كتب أبو بكر جوابه إلى أبي عبيدة .
٣ شوال ١٢	١١ ديسمبر ٦٣٣	كتب أبو بكر جوابه إلى يزيد .
٦ شوال ١٢	١٤ ديسمبر ٦٣٣	كتب أبو عبيدة إلى أبي بكر بقدوم أمداد الروم .
٢٨ شوال ١٢	٥ يناير ٦٣٤	خروج هاشم بن عتبة من المدينة إلى أبي عبيدة .
٧ ذو القعدة ١٢	١٣ يناير ٦٣٤	خروج سعيد بن عامر من المدينة إلى يزيد .
٨ ذو القعدة ١٢	١٤ يناير ٦٣٤	قدوم حمزة بن مالك الهمداني المدينة .
١٥ ذو القعدة ١٢	٢١ يناير ٦٣٤	معركة الفراض بالعراق .
١٥ ذو القعدة ١٢	٢١ يناير ٦٣٤	خروج حمزة بن مالك من المدينة .
١٧ ذو القعدة ١٢	٢٣ يناير ٦٣٤	قدوم أبي الأعور السلمي .
٢٠ ذو القعدة ١٢	٢٦ يناير ٦٣٤	قدوم معن بن يزيد السلمي .
٢١ ذو القعدة ١٢	٢٨ يناير ٦٣٤	وصول هاشم إلى أبي عبيدة بالجابية .

٢٥ ذو القعدة ١٢	٣١ يناير ٦٣٤	خروج أبي بكر من المدينة حاجا إلى مكة .
٢٥ ذو القعدة ١٢	٣١ يناير ٦٣٤	خروج خالد بن الوليد من العراق حاجا
٣ ذو الحجة ١٢	٨ فبراير ٦٣٤	بلوغ سعيد بن عامر إلى البلقاء .
٧ ذو الحجة ١٢	١٢ فبراير ٦٣٤	وصول أبي بكر إلى مكة حاجا .
٧ ذو الحجة ١٢	١٢ فبراير ٦٣٤	وصول حمزة بن مالك إلى أبي عبيدة .
١٤ ذو الحجة ١٢	١٩ فبراير ٦٣٤	خروج أبي بكر من مكة عائدا إلى المدينة .
٢٤ ذو الحجة ١٢	١ مارس ٦٣٤	العربة والداثنة
٢٦ ذو الحجة ١٢	٣ مارس ٦٣٤	وصول أبي بكر الى المدينة
٢٧ ذو الحجة ١٢	٤ مارس ٦٣٤	تعيين عمرو بن العاص قائدا على جيشه .
٢٨ ذو الحجة ١٢	٥ فبراير ٦٣٤	من أبي بكر إلى أبي عبيدة .
٣ محرم ١٣	١٠ مارس ٦٣٤	خروج عمرو بن العاص إلى فلسطين .
٤ محرم ١٣	١١ مارس ٦٣٤	خالد بن سعيد يستمطر في يوم مطير .
٧ محرم ١٣	١٤ مارس ٦٣٤	وصول أخبار العربة والداثنة إلى المدينة .

٢٠ محرم ١٣	٢٧ مارس ٦٣٤	وصول أخبار خالد بن سعيد إلى المدينة .
٢١ محرم ١٣	٢٨ مارس ٦٣٤	كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد ليسير الى الشام
٨ صفر ١٢	١٤ ابريل ٦٣٤	خروج خالد بن الوليد من الحيرة إلى الشام .
١٨ صفر ١٢	٢٤ ابريل ٦٣٤	إغارة خالد على غسان بمرج الصفر يوم فصحهم .
٢٥ ربيع الأول ١٣	٣٠ مايو ٦٣٤	فتح بصرى .
أواخر ربيع الأول ١٣	أواخر مايو ٦٣٤	معركة بابل بالعراق
٢٧ جمادي الأولى ١٣	٣٠ يوليو ٦٣٤	معركة أجنادين
١١ جمادي الآخرة ١٣	١٣ أغسطس ٦٣٤	رحلة المثنى إلى المدينة .
١٦ جمادي الآخرة ١٣	١٨ أغسطس ٦٣٤	معركة مرج الصفر
٢١ جمادي الآخرة ١٣	٢٣ أغسطس ٦٣٤	وفاة أبي بكر .
٢٨ ذو القعدة ١٣	٢٣ يناير ٦٣٥	معركة فحل ـ بيسان .

كان فتح بصرى[1] في ٢٥ من شهر ربيع الأول ١٣ هـ . ٣٠ مايو ٦٣٤ م . فقد مضى خالد من منطقة دمشق واتجه جنوبا حتى نزل على قناة بصرى وانضم إليه أبو عبيدة بن الجراح جاء معه من الجابية، كما كان شرحبيل مرابطا هناك تجاه بصرى وسار إليهم يزيد بن أبي سفيان فاجتمعوا[2] جميعا . يقول الرواة أن خالدا وجد الأمراء مقيمين لم يفتحوا شيئا فقال[3] لهم « ما مقامكم بهذا الموضع ؟انهضوا» فكأنما حملهم مسئولية جمود الوضع ، فنهضوا بأهل بصرى فما أمسوا ذلك اليوم حتى دعوا إلى الصلح فصالحوهم وكتبوا بينهم كتابا ، فكانت أول مدينة فتحت من الشام صلحا على أن يؤمنوا[4] على دمائهم وأموالهم وأولادهم على أن يؤدوا الجزية . وذكر بعض الرواة أن أهل بصرى صالحوا على أن يؤدوا عن كل حالم دينارا وجريب حنطة . وافتتح المسلمون جميع أرض كورة حوران وغلبوا عليها وظهروها من الروم وعملائهم من الاعراب . فكانت جزية بصرى أول جزية وقعت بالشام في عهد أبي بكر .

(١) ابن عساكر ٤٨٥/١ عن أبي الحسن محمد بن احمد القواس الوراق في تاريخه . والتاريخ طبقا لهذه الرواية يطابق حساباتنا .

(٢) ابن عساكر ٤٦٩/١ أخبرنا أبو القاسم السمرقندي ، أنا أبو الحسين بن النقور، أنا ابو طاهر المخلص ، انا رضوان بن احمد الصيدلاني – إجازة – نا احمد بن عبد الجبار العطاردي ، نايونس بن بكير عن ابن اسحق قال فحدثني صالح بن كيسان ورجل من طي عن من حدثهما عن رافع بن عميرة .
وابن عساكر ٤٥٧/١ أخبرنا أبو القاسم ، انا ابن النقور انا ابو طاهر ، وأنا أبو بكر ، نا س ش س عن محمد وطلحة وعمرو بن ميمون قالوا .

(٣) ابن عساكر ٤٨٤/١ أخبرنا أبو علي الحسين علي وابنه ابو الحسن علي قالا : انبا الفضل بن الفرات ، انبا ابو محمد بن ابي نصر ، انا ابو القاسم بن ابي العقب ، أنا أبو عبد الملك القرشي ، نا محمد بن عائذ ، نا الواقدي عن هشام بن سعد عن عروة بن رديم .

(٤) البلاذري ١٣٤
الطبري ٤١٧/٣ حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن محمد بن اسحق عن صالح بن كيسان .

وفي فتح بصرى يحكي أحد شهود العيان ، قال قيس[1] بن أبي حازم « كنت مع خالد بن الوليد حين مر بالشام ، فأقبل حتى نزل ببصرى من أرض حوران وهي مدينتها . فلما اطمأننا خرج إلينا الدرنجار[2] في خمسة آلاف من الروم ، فأقبل إلينا وما يظن هو وأصحابه إلا أنا في أكفّهم . فخرج خالد فصفنا ، ثم جعل على ميمنتنا رافع بن عمرو [عميرة] الطائي ، وعلى ميسرتنا ضرار بن الأزور وعلى الرجال عبد الرحمن بن حنبل الجمحي، وقسّم خيله ، فجعل على شطرها المسيب بن نجبة وعلى الشطر الآخر رجلا من بكر بن وائل – ولم يسمّه – فظننت أنه مذعور[3] بن عدي العجلي ، وكان قد توجه من العراق إلى الشام مع خالد بن الوليد ، ثم صار بعد ذلك إلى مصر ، فداره بها اليوم [على عهدهم] معروفة .

« فأمرهما خالد حين قسّم الخيل بينهما أن يرتفعا من فوق القوم عن يمين وشمال ثم ينصبان على القوم ، فانطلقا ففعلا ذلك . ثم أمر خالد من معه أن يرجعوا إلى القلب ، فرجعنا إليهم ، والله ما نحن إلا ثمانمائة رجل وخمسون[4] رجلا ، وأربعمائة رجلَ من مشجعة من قضاعة فكنا ألف رجل ومائتي رجل ونيفا وكنا نظن أن الكثير من المشركين والقليل عند خالد سواء لأنه لا يملأ صدره منهم شيء ، ولا يبالي من لقي منهم لجرأته عليهم وشدته ونجدته .

« ثم دنونا منهم فبدأونا بالحملة علينا ، فشدوا علينا شدتين فلم نبرح مواقفنا . ثم إن خالدا نادى بصوت جهوري شديد عال فقال « يا أهل الإسلام الشدّة الشدّة ، احملوا رحمكم الله عليهم ، فإنكم إن قاتلتموهم محتسبين تريدون

(١) الازدي ٨١ حدثني الحارث بن كعب عن قيس بن أبي حازم .

(٢) وفي رواية ان اسمه كان أدرنجا. الطبري ٤١٨/٣ عن حديث أبي زيد عن علي بن محمد [المدائني] بإسناده الذي قد مضى .

(٣) ونحن نذهب إلى تأييد ذلك الظن .

(٤) ذهبنا – خلافا لهذه الرواية أن خالدا كان في تسعة الاف .

بذلك وجه الله فليس لهم أن يواقفوكم ساعة » . ثم إن خالدا شد عليهم وشددنا معه ، فوالله الذي لا إله إلا هو ما ثبتوا لنا فواقا حتى انهزموا ، فقتلنا منهم في المعركة مقتلة عظيمة ، ثم اتبعناهم نكردهم [نطردهم] ونقتلهم ونصيب الطرف منهم ونقطعهم عن أصحابهم ثم نقتلهم ، فلم نزل كذلك حتى انتهينا إلى مدينة بصرى وهي مدينة حوران فأغلقوا أبوابها وتحصنوا منا ، ثم أخرجوا إلينا الأسواق وصالحونا ، أهل بصرى ، واستقبلوا المسلمين بكل ما يحبون وسألونا الصلح فصالحناهم . وخرج خالد من فوره فأغار على ناس من غسان في جانب مرج راهط فقتل منهم وسبى ، وصالحنا عامتهم وأسلموا » .

ونلاحظ أن خالد بن الوليد قد كرر في بصرى تكتيك الكمين الذي سبق أن طبقه بنجاح في معركة[1] الولجة بالعراق في ٢٢ صفر ١٢ هـ ٣ مايو آيار ٦٣٣ م . وجدير بالذكر أن حامية بصرى التي انهزمت هنا سبق أن فقدت اكثر من ألفين من جنودها في معركة القريتين .

قال هرقل لجلسائه « ألم أقل لكم لا تقاتلوهم فإنه لا قوام لكم مع هؤلاء القوم ؟ إن دينهم دين جديد يجدد لهم ثبارهم [مواظبتهم عليه] فلا يقوم لهم أحد حتى يُبْلَىَ » فقالوا « قاتل عن دينك ولا تُجَبِّن الناس واقض الذي عليك » . قال « وأي شيء أطلب إلا توفير دينكم »

---

(١) انظر الطريق إلى المدائن ٢٢٨ .

(٢) الطبري ٣/٤٠٣ س ش س عن محمد وطلحة وعمرو بن ميمون .

موقعة أجنادين

أجنادين

السبت ٢٧ جمادي الأولى ١٣ هـ ٣٠ يولية تموز ٦٣٤ م .

رد فعل

لم يكن الروم بلا حراك .. كانوا يحشدون قواتهم ويعينون قادتهم ويسيرون جيوشهم ويجمعون عملاءهم من الأعراب لينضموا إلى جيش احتلالهم بالشام . وأقبل أبو عبيدة من جهة الجابية حتى نزل بباب الجابية على أسوار دمشق ، وراح يفعل كما يفعل خالد ، يشن الغارات على أنحاء الغوطة وغير الغوطة . إنه الأسلوب المناسب إذا اعتصم العدو بالحصون وبدا أن الحصار يطول ... أن يغيروا على ما هو كائن خارج الحصون ويدعو المتحصنين ـ إلى حين ـ محبوسين في حصونهم . كان خالد مرابطا تجاه الباب الشرقي في حين كان باب الجابية بالجهة الجنوبية من غرب دمشق

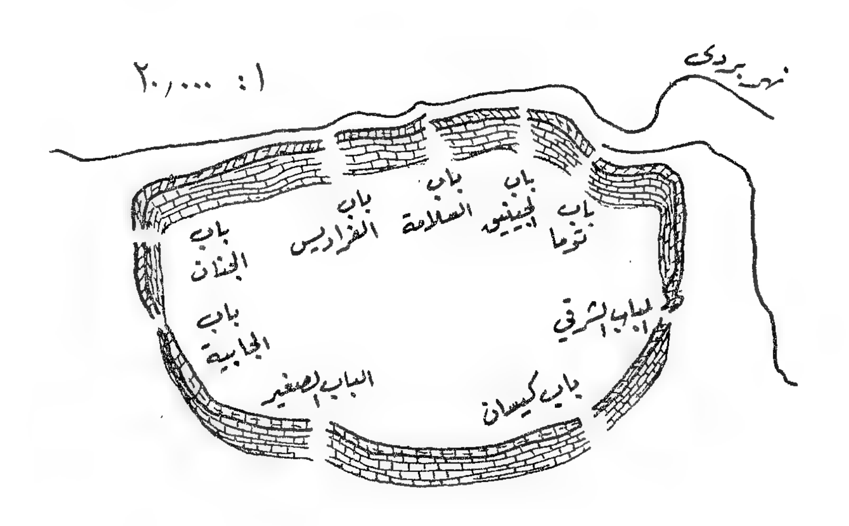
وفيما كان خالد وأبو عبيدة يقاتلان من بجهة دمشق جاءتهما الأخبار ... خرج وردان الأمير الرومي[1] على حمص ، خرج منها في جيش رومي كبير يريد أن يقطع شرحبيل بن حسنة وهو ببصرى عن سائر المسلمين . لقد أراد الروم أن يستفيدوا من تفرق جيوش المسلمين في معسكرات متعددة فحشدوا قوة كبيرة لم يوجهوها إلى خالد بن الوليد وأبي عبيدة بنواحي دمشق وإنما وجهوها نحو المعسكر المنفرد في

---

(١) الأزدي ٨٤ حدثني يزيد بن يزيد بن جابر .

بصرى ، فهو نحو من سبعة آلاف مقاتل مسلم والقضاء عليه أيسر مؤونة وأسهل مطلبا من القضاء على جيشين مجموعهما ستة عشر ألفا في قطاع واحد . فضلا عن ذلك فإن ذينك الجيشين كانا في الفضاء أمام دمشق التي تعتصم وراء أسوارها وتحصيناتها وتستطيع الصمود بعض الوقت ، أما شرحبيل فقد كان في بصرى التي فتحها ، وإيقاع الهزيمة به يعني استردادها من المسلمين ، ولو استطاعوا ذلك لفعلوا بشرحبيل ما سبق أن كان مع خالد بن سعيد ، ولو نجحوا في ذلك لأمكن تكرارها مع خالد وأبي عبيدة .. أ قطعهم عن سائر المسلمين وتصفيتهم بقوة متفوقة عدديا

وبصرى في عصرنا هذا قرية صغيرة فقيرة من قرى حوران ، ولكن آثارها



الرائعة تدل على مجدها الغابر . ولقد جاء ذكر[1] بصرى بالجملة ١٦ من الإصحاح الخامس في المكابي الأول مما يدل على قدمها . ثم اتسعت رقعتها بعد ذلك وحصنها

(١) دائرة المعارف الاسلامية ٣٠٦/٧ .

الروم وكان اسمها حينذاك نوفاترايانا بوسترا Nova Tragana Bostra . وفي عهد دقلديانوس كانت حاضرة الولاية العربية ـ وتذهب دائرة المعارف الاسلامية إلى أن الظاهر أنها لم تكن تابعة للغساسنة بل كان البيزنطيون يحكمونها مباشرة . وفي عام ٦١٣ م دمرها الفرس في تقدمهم في الشام كما دمروا أذرعات . وتذهب روايات السيرة إلى أن النبي ﷺ زار بصرى في صباه بصحبة عمه أبي طالب في إحدى رحلات الصيف للتجارة وهناك التقى ببحيرا الراهب . وببصرى آثار كثيرة من العهد الروماني كما كان بها دير مشهور ، وكانت مركزاً للقوافل وفي العهد المسيحي صارت كرسيا[1] أسقفيا ذا شأن واشتهرت بكنائسها الرائعة في القرن السادس الميلادي .

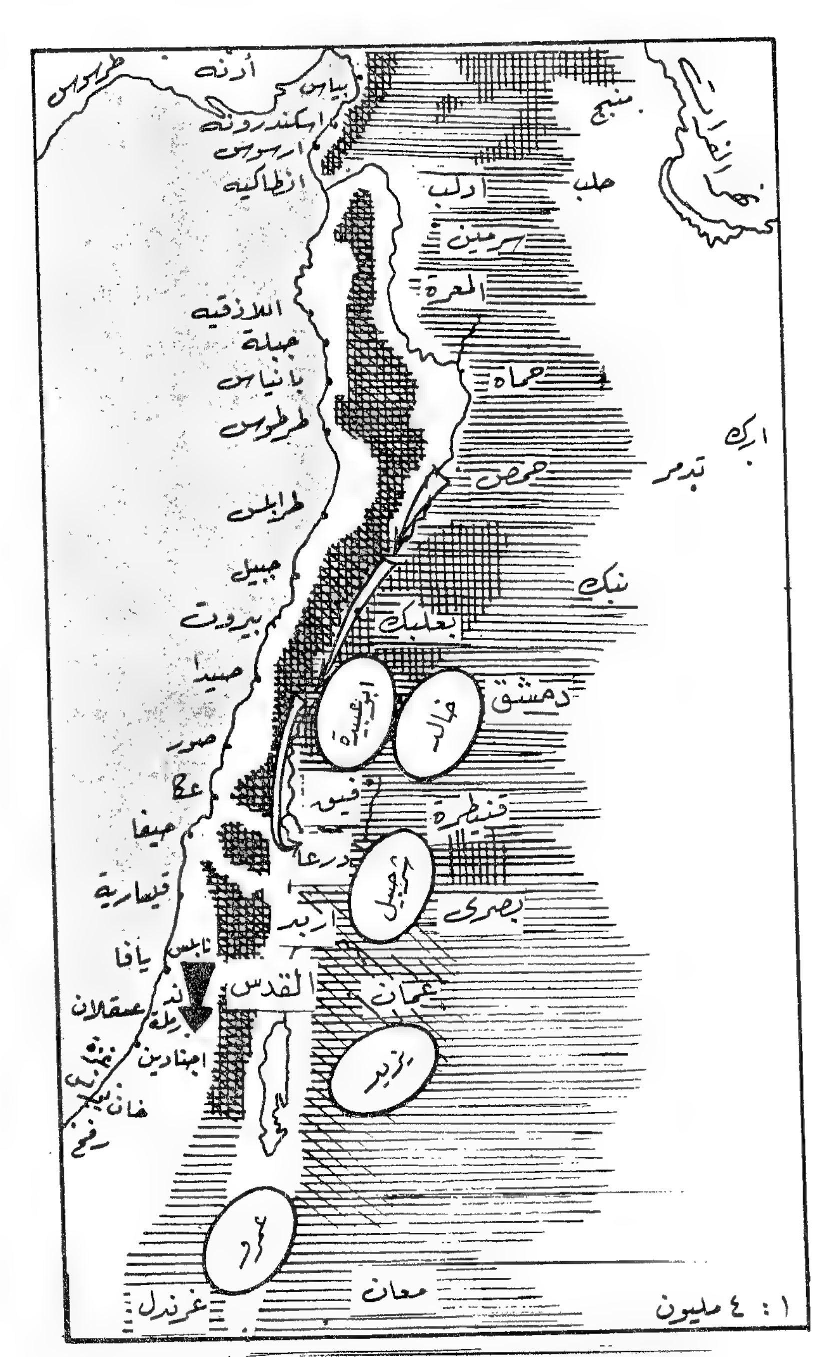
لهذا وذاك اختار الروم أن يستردوا بصرى فوجهوا إليها وردان . ولو أن بصرى سقطت بالصورة التي ارادها الروم لعزلوا جيش خالد وجيش أبي عبيدة . وإن نظرة إلى الخريطة تعني أن الجيش الذي يتحرك من حمص إلى بصرى دون أن يمر بدمشق لا بد قد سلك طريق بعلبك إلى صفد وطبرية حيث يتسنى له أن يدور حول بحيرتها إلى فيق ثم ينصب شرقا إلى بصرى .

وكما جاء إلى خالد وأبي عبيدة خبر تحرك وردان من حمص نحو بصرى ، كذلك جاءهما خبر آخر أن جيشا كبيرا آخر للروم قد نزل بأجنادين من جنوب فلسطين وأن نصارى العرب وأهل الشام قد سارعوا[2] بالانضمام إليه. ذلك الجيش الذي رابط في جلّق بأعلى فلسطين حين نزل عمرو بن العاص بالغربات من غور فلسطين[3] ساروا إلى أجنادين وعليهم قائد اسمه تذارق . يقول الأزدي .. وجاءهما خبر أفظعهما وهما مقيمان على قوم وهما يقاتلانهم . فالتقيا فتشاورا في ذلك . فقال أبو عبيدة لخالد : أرى أن نسير حتى نقدم على شرحبيل بن حسنة قبل أن ينتهي إليه

(١) المنجد ١٣٤ .

(٢) الازدي ٨٤ من حديث يزيد بن يزيد بن جابر الذي سبق .

(٣) الطبري ٤١٧/٣ حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن محمد بن اسحق عد صالح بن كيسان . ولم يذكر المدائني اسمه واكتفى حين عرض لنتيجة المعركة ان قال « وهزم الله المشركين . وقتل خليفة هرقل » [الطبري ٤١٩/٣ عن علي بن محمد ـ المدائني ـ بإسناده الذي قد مضى ذكره .



خريطة رقم (٩) – أجنادين ١ – المقياس ١ / ٤ مليون

العدو الذين قد صمدوا صمدة ، فإذا اجتمعنا سرنا جميعا حتى نلقاه [يعني وردان] .
فقال له خالد : إن جَمْع الروم ها هنا بأجنادين ، وإن نحن سرنا إلى شرحبيل بن حسنة تَبِعَنَا عدوُّنا هؤلاء من قريب ، ولكني أرى أن نصمد صمد [نتجه إلى جهة] عُظْمِهم ، وان نبعث إلى شرحبيل حسنة فنحذره مسير العدو إليه ونأمره أن يوافينا بأجنادين ونبعث إلى عمرو بن العاص فيوافينا بأجنادين ثم نناهض عدونا بأجمعنا .

فقال أبو عبيدة : هذا رأى حسن فامضه على بركة الله ، ونسأل الله بركته ، أ . هـ .

عندئذ جمع خالد المسلمين ثم قام فيهم خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ، ثم قال[1]

« أما بعد. فإنه بلغني أن طائفة من الروم نزلوا بأجنادين وأنهم استعانوا بأناس وهم قليل من أهل البلد فسألوهم النصر علينا استقلالا لمن معهم من الكثرة ذُلاً ولوما ، والله إن شاء الله جاعل الدبرة عليهم وقاتلهم كل مقتلة ، فاقصدوا بنا قصدهم ، فإني كاتب إلى يزيد بن أبي سفيان حتى يوافيني بمن معه من المسلمين مُن البلقاء ، وإلى عمرو بن العاص حتى يوافيني هنالك من أرض فلسطين » .

وكتب إلى شرحبيل بمثل ذلك وهو ما زال ببصرى وكتب إلى سائر الأمراء بذات الصيغة .

« بسم الله الرحمن الرحيم .

أما بعد . فإنه نزل بأجنادين جموع من جموع الروم غير ذي عدد ولا قوة ، والله قاصمهم وقاطع دابرهم ، وجاعل دائرة السوء عليهم .

وقد شخصت إليهم يوم سرّحت رسولي إليكم ، فإذا قدم عليكم فانهضوا إلى

(١) الأزدي ٨٥ حدثني محمد بن يوسف عن ثابت بن سهل بن سعد .

عدوكم رحمكم الله في أحسن عدتكم وأصح نيتكم ، ضاعف الله لكم أجوركم وحط أوزاركم . والسلام عليكم ورحمة الله » .

وبعث خالد بهذه النسخ مع أدلاء من أنباط الشام ، وكانوا مع المسلمين عيونا لهم وفيوجا [الفيوج هو الحارس أو العدَّاء سريع الجري] وكان المسلمون يكافئونهم ويجزلون لهم العطاء .

ودعا خالد الرسول الذي كلفه بحمل الرسالة إلى شرحبيل فقال « كيف علمك بالطريق ؟ » قال « أنا أدل الناس بالطريق » قال « فادفع هذا الكتاب اليه وحذره الجيش الذي ذُكر لنا أنه يريده ، وخذ به وبأصحابه طريقاً تعدل به عن طريق العدو الذي قد شخص اليه ، وتعجل إليه حتى يقدم علينا بأجنادين » . قال « نعم » .

وخرج الرسول إلى شرحبيل ، وخرج آخر إلى عمرو وثالث إلى يزيد .

وتحرك خالد وأبو عبيدة بجيشيهما نحو أجنادين ، والمسلمون يومئذ سراع إليهم جرءاء عليهم . فلما ساروا ومضوا راعهم أن حامية دمشق خرجت في آثارهم تتبعهم ، فلحقت أبا عبيدة وهو في أخريات المسلمين وأحاطوا به وهو في نحو من مائتي رجل والروم في عدد كثير ، فقاتلهم أبو عبيدة قتالا شديدا .

وكان خالد في مقدمة المسلمين وهو لا يشعر بما لقي أبو عبيدة حتى أخبروه وكان في الفرسان والخيل ، فاستدار راجعا ورجع المسلمون معه ، وانطلق خالد في عجلة ومعه فرسانه وأهل القوة يسابقون الريح حتى انتهوا إلى أبي عبيدة ومن معه وقد أحاط بهم الروم وهم يقاتلونهم قتالا خشنا . وحمل خالد على الروم فدق بعضهم على بعض ، وبطبيعة الحال قد صار بينه وبين أبي عبيدة وظل يقاتلهم مسافة ثلاثة أميال ، فانهزموا هزيمة شديدة حتى دخلوا دمشق يعتصمون بأسوارها ، فانصرف بالمسلمين نحو الجابية وانتظر قدوم أصحابه عليه وتجمعهم وهو يتلفت إلى الطريق .

أما الرسول الذي أرسل إلى شرحبيل فقد أتاه وليس بينه وبين وردان وجيشه

الذي سار إليه به من حمص إلا مسيرة يوم واحد [حوالي ٤٥ كيلومترا] وكان شرحبيل ما زال لا يشعر بهم ولا يعلم بخبرهم ، وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الروم ساروا على الطرق الداخلية عن طريق بعلبك ـ طبرية . ودفع الرسول الكتاب إلى شرحبيل وأخبره الخبر واستحثه بالخروج . فقام في جيشه فقال

« أيها الناس اشخصوا إلى أميركم فإنه قد توجه إلى عدو المسلمين بأجنادين ، وقد كتب إليّ يأمرني بموافاته هناك » .

وقام المسلمون فخرج بهم شرحبيل ومضى بهم الدليل . وعلم وردان بخروج شرحبيل فأقبل يشتد في آثارهم رجاء أن يستأصلهم أو على الأقل أن يصيب منهم طرفا فيكون قد نكب طائفة من المسلمين ، غير أنه لم يدركهم . وجاء إلى وردان كتاب من الروم بأجنادين يقولون له « أقدم علينا فإنا مؤمروك علينا ومقاتلون معك العرب حتى نخرجهم من بلادنا » .

وفي تقديرنا أنه لا بد أن يكون وردان قد عاد فعبر نهر الأردن إلى ضفته الغربية[1] ثم اجتاز مرج ابن عامر الممتد بين بيسان وحيفا حتى اللجون ثم قلنسوة ثم الرملة ومنها إلى أجنادين ، فإن ذلك الطريق هو الذي يمليه عليه أمن جيشه . وإلا تعرض أن يدهمه خالد وأبو عبيدة إذا هو سار شرق نهر الاردن . كما أننا نقدر أن خالدا وأبا عبيدة وشرحبيل ويزيد قد ساروا شرقي النهر على الطرق الخارجية ، وأن دخولهم إلى فلسطين كان من جنوب البحر الميت ، فإن ذلك هو الذي كان يمليه عليهم أمن جيوشهم أيضا .

(١) وهذا ما يتطابق مع الطريق الذي ذكره ابن خرداذبه وقدامة بن جعفر ، قال ابن خرداذبه: من طبرية إلى اللجون عشرون ميلا ثم إلى قلنسوة عشرون ميلا ثم إلى الرملة مدينة فلسطين اربعة وعشرون ميلا [ص ٧٨] . وقال قدامة : من أفيق إلى طبرية ستة أميال ثم من طبرية يفترق الطريق إلى الرملة فرقتين ، فمن طبرية إلى اللجون على الطريق المستقيم عشرون ميلا ، والطريق الآخر إلى بيسان ستة عشر ميلا ثم إلى اللجون ثمانية عشر ميلا ثم من اللجون إلى قلنسوة على وادي عارا وفيه سباع عشرون ميلا ، ومن قلنسوة إلى الرملة اربعة وعشرون ميلا [ص ٢١٩] .

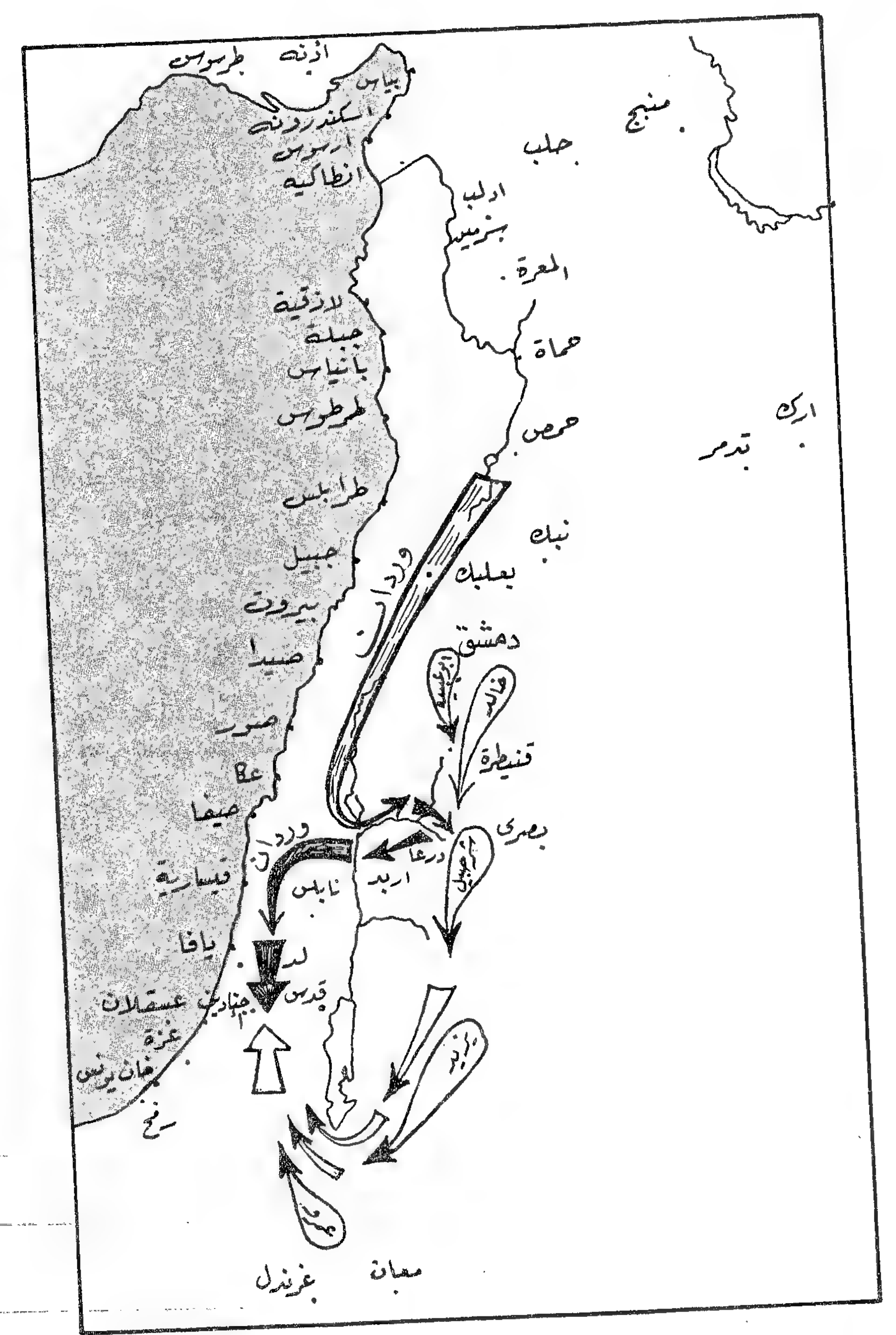
وصلت جيوش المسلمين إلى أجنادين . وفي الرواية ما يفيد أن يزيد بن أبي سفيان وافى خالدا وأبا عبيدة قبل بلوغهم أجنادين ثم ساروا جميعا حتى نزلوها ، وأن شرحبيل قدم بمن معه على خالد كما جاء وردان بمن معه حتى وافى جموع الروم بأجنادين فتولى قيادتهم[١] واشتد أمرهم . وجاء عمرو بن العاص بجيشه فانضم إلى المسلمين بأجنادين .

أن ينضم يزيد إلى خالد وأبي عبيدة في الطريق فهذا أمر طبيعي إذ أنهما مرا على القطاع الذي كان يُرابط فيه . أما أن لا يحدث هذا من شرحبيل ثم يصل إلى أجنادين بعد وصول خالد وأبي عبيدة ويزيد فهو أمر يحتاج إلى تعليل لا سيا وقد كان أيضا في قطاع مر به خالد وأبو عبيدة .

والذي نخمنه أن شرحبيل وقد كان هدفا مستهدفا بتعقب وردان له لعله ذهب بعيدا عن الطريق الذي كان وردان يتعقبه ويبحث عنه فيه ، ولعله أن يكون قد ابتعد شرقا نحو الصحراء يعتصم بها ويعجز وردان أن يخاطر بجيشه أن يتتبعه فيها . ولعل وردان قد أسرع بالعودة عن تعقبه واتجه إلى أجنادين تحت ذلك التأثير . ولعل مما ضاعف من ذلك الأثر اجتيازخالد وأبي عبيدة المنطقة فاضطر إلى التعجيل بالعودة إلى عبور نهر الاردن إلى ضفته الغربية .

(١) في رواية ابن اسحق أنه « كان على الروم رجل منهم يقال له القُبُقْلار وكان هرقل استخلفه على أمراء الشام حين سار إلى القسطنطينية وإليه انصرف تذارق بمن معه من الروم - فأما علماء الشام فيزعمون أنما كان على الروم تذارق والله أعلم » . الطبري ٤١٧/٣ حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن محمد بن اسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير .

ورواية ابن اسحق تناقض رواية الأزدي عمن تولى قيادة الروم . وإذا كان الأزدي بصفة عامة رواياته أوثق من روايات ابن اسحق ، إلا أن الأزدي ساق روايته بإسناد قال : حدثني محمد بن يوسف عن ثابت بن سهل بن سعد . ثابت صحابي أنصاري من أعلام الفتح ، ومحمد بن يوسف نجهله ، فإذا علمنا أن الأزدي توفى عام ٢٣١ هـ فإنه يستحيل أن يكون محمد بن يوسف الذي حدثه قد اتصلت حياته من حيث سمع ثابت بن سهل إلى حين سمع منه الأزدي ، وهذا يعني أن هنا حلقة على الأقل ساقطة من السند .



الخريطة رقم (١٠) - اجنادين ٢ - المقياس ١/٤ مليون .

ومن حيث أن كلا الطرفين كان يتجمع في أجنادين فإننا نذهب إلى أنه في تلك الحالة من تحرك الجميع كان كل فريق عبارة عن قطعة تتجنب الاشتباك بالعدو قبل وصولها إلى أجنادين واجتماعها بسائر الوحدات المنضمة إليها .

وفي تقديرنا أن خالدا قد بعث رسائله إلى الأمراء ورحل عن دمشق في توقيت أقصاه ١٢ جمادي الآخرة ١٣ هـ ١٣ أغسطس ٦٣٤ ، وأن رسائله سلمت إلى شرحبيل بعد يوم أو يومين وإلى يزيد بعد ٤ أيام وإلى عمرو بعد ٨ أيام ، وأن سير عمرو إلى أجنادين استغرق حوالي خمسة أو ستة أيام .

وفي رواية لابن اسحق[١] انه « لما تدانى العسكران بعث القُبُقْلار رجلا عربياً .. من قضاعة ، من تزيد بن حيدان يقال له ابن هزارف ، فقال : ادخل في هؤلاء القوم فأقم فيهم يوماً وليلة ثم ائتنى بخبرهم فدخل في الناس .. رجل عربي لا يُنْكر فأقام فيهم يوماً وليلة ثم أتاه فقال له : ما وراءك ؟ قال : بالليل رهبان وبالنهار فرسان ، ولو سرق ابن ملكهم قطعوا يده ولو زنى رُجِم لإقامة الحق فيهم

فقال لـه القبقلار : لئن كنت صدقتني لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها ، ولوددت أن حظي من الله أن يخليَ بيني وبينهم فلا ينصرني عليهم ولا ينصرهم عليّ .

ولم نجد في المصادر ما يلقي الضوء ـ صراحة أو ضمنا ـ على طبوغـرافية ميدان المعركة . هل كان على سفح جبل ؟ .. على قمة جبل ؟ في واد بين جبلين ؟ .. بين اكثر ؟ في صحراء منبسطة أو في أرض مزروعة أو على ضفاف نهر ؟ لا شيء على الإطلاق .

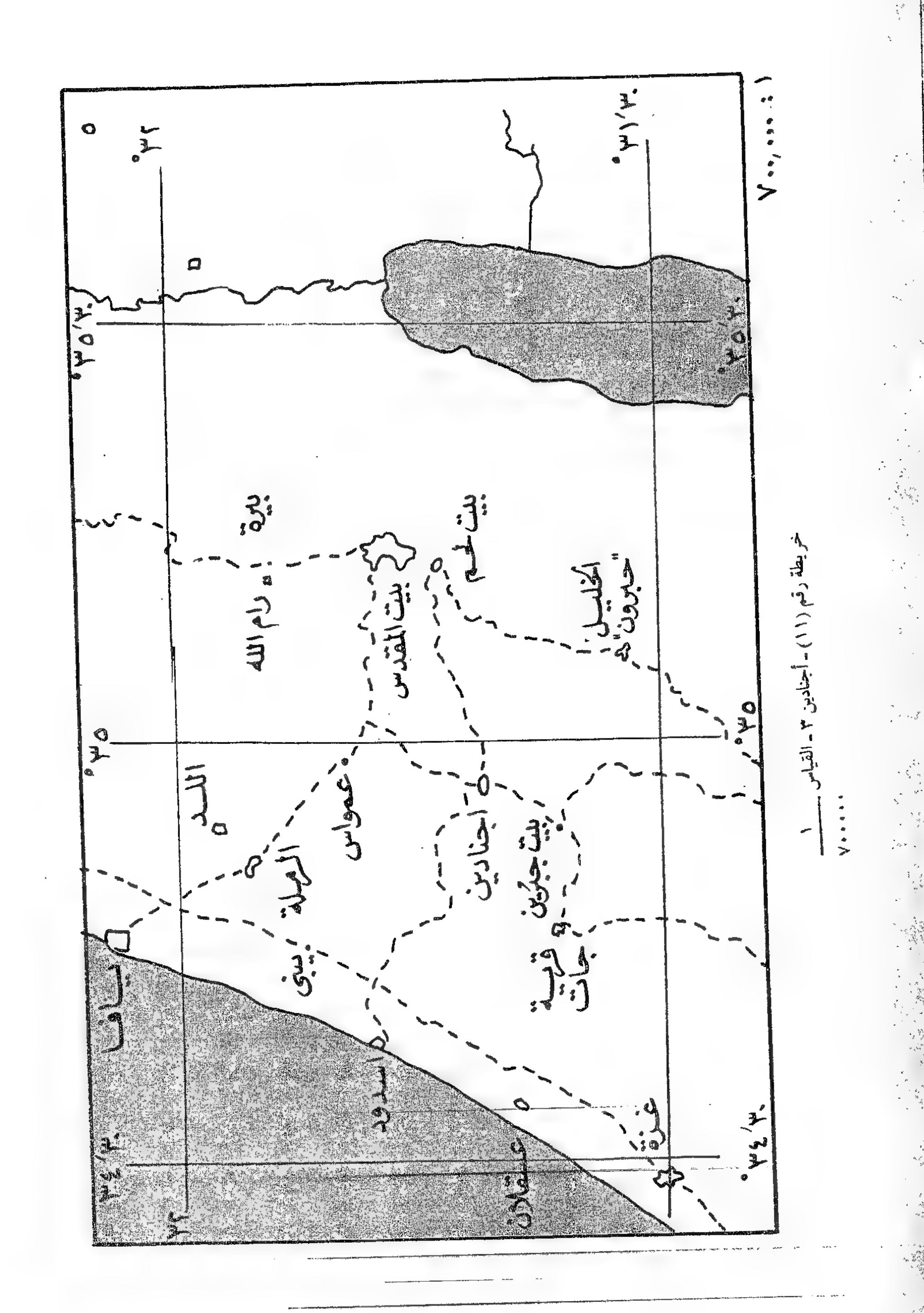
الموقع

أجنادين اسم مشهور يقترن بفتوح الشام ، فهو الموقع الذي وقعت به أولى المعارك الكبرى بين المسلمين وبين الروم وعملائهم من الأعراب على أرض فلسطين ... تلك الأرض المقدسة التي تهفو إليها نفس كل مؤمن . والتعرف على هذا المكان اليوم مشكلة ، فهو ليس على خرائط فلسطين ، بل وليس على أرض فلسطين اليوم مكان يحمل هذا الإسم ، وليس معلوما على وجه القطع واليقين أين كان ، فهو وإن كان مشهورا في التاريخ فإنه غير معروف في الجغرافيا .

وذهبنا نقلب صفحات المصادر وكتب البلدانيين بحثا عما يرشد عن المكان فما وجدنا شيئا يبل الصدى . لم يذكره ابن خرداذبه ولا الاصطخري ولا قدامة بن جعفر ولا ابن جبير ولا ابن بطوطة ولا المقدّسي ولا القزويني ... لم يذكرها أحد منهم في كتابه . فقط جاء برواية ابن اسحق[١] أن الروم انكشفوا عن جلق إلى أجنادين وهي بين الرملة وبيت جبرين . الرملة وبيت جبرين موقعان معروفان اليوم ، الطريق بينهما نحو من ٥٠ كيلومتراً ، والخط المستقيم بينهما حوالي ٣٥ كيلومترا ، فاجنادين إذاً في ذلك النطاق وفي مكان ما على الطريق بينهما . كما قال ياقوت « أجنادين من الرملة من كورة بيت جبرين » وقد نستدل من ذلك على أنها كانت إلى بيت جبرين أقرب . وفي وصف الأرضين[٢] حدد ميدنيكوف Miednikoff مكان المعركة في وادي الصمت إلى جوار قريتي الجنّابة الغربية والشرقية [لم نجدها على ما بين أيدينا من خرائط وأكبرها بمقياس ١ : ٣٥٠٠٠٠] ثم ذكر أنها على وجه التحديد على خط طول ٥٧َ ٣٤° شرقا وخط عرض ٤٦َ ٣١° شمالا وهو في النطاق الذي ذكرته رواية ابن اسحق ، ومن هذا التحديد وضعنا أجنادين على موقعها من الخريطة في بقعة تبعد عن بيت جبرين حوالي أحد عشر كيلومترا وعن الرملة حوالي تسع وثلاثين كيلومترا وتبعد عن البريج حوالي خمسة كيلومترات .

(١) الطبري ٤١٧/٣ حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن محمد بن اسحق عن صالح بن كيسان .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ٢٤٢/٢ .



خريطة رقم (١١) ـ أجنادين ٣ ـ القياس ١ / ٧٠٠٠٠٠

وقد جاء اسم المكان أَجْنادَيْن بصيغة المثنى كما جاء أجنادين بصيغة الجمع . ويذهب بعضهم إلى أنه مثنى أو جمع أجناد بمعنى جند ولكن لا دليل على ذلك ولا نذهب ذلك المذهب . ربما لم تكن أجنادين مدينة كبيرة أو حتى صغيرة في زمن المعركة ولعلها لم تعدُ أن كانت قرية صغيرة أو لعلها لم تبلغ ذلك ، فإننا نبحث في بطون الكتب فلا نجد لها ذكرا سابقا أو لاحقا ، غير أننا بعد أن حددنا موقعها على الخريطة نلحظ أنها كانت ملتقى هاما للطرق ، فهي بين الرملة وبيت جبرين أو بعبارة أخرى بين شمال فلسطين وجنوبها في قطاعها الأوسط بين بحر الروم [الابيض] وبحر الملح [الميت] وهي على الطريق بين بيت المقدس وبحر الروم [اسدود أو عسقلان وغزة] .

وهنا سؤال يفرض نفسه ... ما أهمية التقاء الطرق في هذه المعركة ؟ ... إن هذه الجيوش والقوات من الطرفين لم تذهب إلى أجنادين لاحتلال موقع وإنما لتوقيع الصدام فيما بين الطرفين ، الروم يهدفون إلى دحر جيوش المسلمين لإبادتها وإجبار فلولها على الانسحاب من حيث أتت ، والمسلمون يهدفون إلى دحر جيوش الروم لتنفتح لهم الأرض يبلغون فيها رسالة ربهم ، فلم يكن موقع أجنادين مستهدفا لذاته بقصد احتلاله والاستمساك به وإنما كانت قيمته ـ في تقديرنا ـ أنه المكان الذي تستطيع قوات الروم التي يتم حشدها من مختلف الجهات أن تلتقي فيه وأن تتجه منه بعد ذلك إلى حيث تشاء ، فهو مكان مفتوح الطرق إلى مختلف الجهات ، يدلنا على ذلك أنه على أثر هزيمة الروم فرت فلولهم هاربة إلى القدس وإلى قيسارية وإلى دمشق وإلى حمص . ونعتقد أن الروم لم يختاروا أجنادين أرضاً للمعركة وإنما موقعاً للتجمع فبادر خالد بالتوجه إليه ليصادمهم فيها .

ويقتضي المنطق أن وردان خرج من حمص يستهدف معسكر شرحبيل ببصرى ، وأن هذا التجمع في أجنادين كان يستهدف جيش عمرو بن العاص في الجنوب وربما جيش يزيد بن أبي سفيان من بعده ، ولو تم هذا الحصر جيش خالد

وأبي عبيدة أمام دمشق من جنوب ومن شمال ، ولكن كما يقول جون باجوت[1] جلوب « ... وزحف الجيش البيزنطي باتجاه الجنوب إلى فلسطين . ولكن العرب وكانوا أكثر قدرة على سرعة الحركة من الروم نقلوا على الفور جيشهم الرئيسي من درعا إلى فلسطين في الوقت المناسب لإنقاذ رتلهم المعزول وتخليصه من التدمير » .

المعركة

خرج خالد بن الوليد فصف قواته ، فجعل أبا عبيدة بن الجراح على المشاة في القلب وجعل معاذ بن جبل على الميمنة[2] ، وجعل سعيد بن[3] عامر بن حذيم القرشي على الميسرة ، وبعث سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل على الخيل . وأقبل خالد يسير خلال صفوف المسلمين لا يستقر في مكان واحد ، يحرض جنده ويحمسهم. وأقام نساء المسلمين خلف الجيش يبتهلن إلى الله ويدعونه ويستغثنه ، فما كان أحوجهم في موقفهم ذاك إلى استنزال نصر الله واللجوء إليه ، إنهم ٣٣٠٠٠ هم جميع جيوش المسلمين في الشام تجتمع لأول مرة في معركة كبرى هي الأولى في حجمها في حرب الشام وقد وجه لهم الروم جيشا كبيرا . وكان هذا الجيش ٧٠٠٠٠ نزل ثَنِيَّة جلَّق بأعلى فلسطين ، وضعه الروم هناك حين نزل عمرو بن العاص غمر العربات ، وأعلى فلسطين إنما هو مكان متوسط بأرض الشام فهو يستطيع الحركة جنوبا لمواجهة عمرو ويستطيع الاجتياز شرقا نحو يزيد وشرحبيل ويستطيع التحرك شمالا نحو أبي عبيدة بالجابية ... فأي ذلك كان الهدف ؟ نذهب إلى أن جيش عمرو البالغ عدده ٣٠٠٠ ما كان الروم ليرصدوا له سبعين ألفا ، وأن اتجاه الشمال [الجابية ودمشق] كانت هناك قوات أخرى تتولى الدفاع عنه كما لا نراه كان يهدف إلى الاجتياز شرقا إلى شرحبيل وإلى يزيد فقد طال وقوفهما ووقوف الروم حتى جاء

(١) امبراطورية العرب ـ تعريب خيري حماد ص ٤٤ .

(٢) الأزدي ٨٩ حدثني محمد بن يوسف عن ثابت بن سهل بن سعد .

(٣) الأزدي ٩٦ لنفس الرواة ، أنه كان على الميسرة هاشم بن عتبة يوم مرج الصفر كتعبئة يوم أجنادين ، وربما اختلفت التعبئة في قائد الميسرة فقط .

خالد بن الوليد دون أن يتحركوا . لذلك لا نستبعد أن ذلك الحشد كان تحركا إلى غير هدف مدروس أو محسوب !

هل هذا افتراض مقبول ؟! هل يمكن أن يحدث هذا ؟ ... لقد حدث أكثر من هذا بعد أربعة عشر قرنا .. في سيناء ... وكان ثمنها هزيمة ٥ يونيو لصاحبها جمال عبد الناصر لقد كان تحريك الجيش المصري بذلك الحجم الضخم وبغير هدف محدد معلوم لأي إنسان ـ ولا حتى لمن حركه ـ حدثا شهده العالم أجمع ، فليس لنا أن نفترض دائما أن قادة الدول لا بد وأن تتوفر لديهم الكياسة والدراسة والتخطيط وحسن السياسة ... الخ ، وليس لنا أن نستبعد أن نفس الشيء قد حدث قبل ٥ يونية بـ ١٣٣٣ عاما ميلاديا . التخبط افتراض وارد ويحدث في التاريخ ، وإنه هنا في أجنادين كان إحدى ثمرات بعث جيوش إسلامية متعددة لفتح الشام بدلا من تجميعها من بادىء الأمر في جيش مجمع واحد ، فقد أدى هذا بالتالي إلى تشتيت قوات الروم وتشتيت فكر قادتهم وارتباكهم في مواجهة هذه القطعات الاسلامية .

حرك الروم ذلك الجيش الـ ٧٠٠٠٠ من أعلى فلسطين إلى أجنادين في ذات الوقت الذي خرج وردان بجيشه من حمص إلى بعلبك إلى طبرية في اتجاه بصرى . وعاد وردان ينضم إلى ذلك الحشد كما انضمت إليه جموع من أهل فلسطين ومن الأعراب الموالين للروم حتى صار جيش الروم يزيد[1] عن مائة ألف .

والآن يقف هذا الجيش اللجب أمام جيش خالد ، وقد وضع خالد خلف جيشه النساء يستغثن الله ، وكلما مر بهن رجل من المسلمين دفعن إليه أولادهن وقلن له « قاتلوا دون أولادكم ونسائكم » كما أمرهن خالد أن يَحْتَرِمْن أي يحرمن على الرجال ما كان مباحا لهم معهن فهم الآن في معركة وعدوهم قد صف لهم صفوفه ! إنه سلاح معنوي له وزنه .. فبالإضافة إلى جميع الأبعاد التي يقاتل من أجلها المسلمون زاد عليها خالد بعدا جديدا هو الدفاع عن العرض والشرف ، الدفاع عن

(١) البلاذري ١٣٦ .

الأمهات والأخوات والزوجات والبنات ، وصار على كل منهم أن يضع في اعتباره ذلك التساؤل « ماذا لو انهزموا ؟ » لم يكن هناك غير جواب واحد ... أن تسبى أمه وزوجته وبناته يبعن في الأسواق ويخدمن جواري في بيوت الروم . إنه موقف شبيه بتلك الرواية الأسطورة عن طارق بن زياد حين عبر إلى أرض الأندلس ثم أحرق السفن وقال لجنده « أين المفر ؟ العدو من أمامكم والبحر من ورائكم ! »

وأقبل خالد يقف على كل قبيلة وكل جماعة ويقول « اتقوا الله عباد الله قاتلوا في الله من كفر بالله ولا تنكصوا على أعقابكم ، ولا تهنوا من عدوكم ، ولكن أقدموا كإقدام الأُسْد وأنتم أحرار كرام ، فقد أبيتم الدنيا واستوجبتم على الله ثواب الآخرة . ولا يهولكم ما ترون من كثرتهم فإن الله منزل عليهم رجزه وعقابه » . ثم قال « أيها الناس إذا أنا حملت فاحملوا » .

وهذا[1] يعني أن خالد بن الوليد بذاته وشخصه كان أول من حمل على صفوف الروم ، فكان قدوة لجنده في الإقدام .

وقام الصحابي الجليل معاذ[2] بن جبل قائد الميمنة .. قام في أصحابه فقال « يا معشر المسلمين أشروا أنفسكم اليوم لله ، فإنكم إن هزمتموهم اليوم كانت لكم هذه البلاد دار الإسلام أبدا مع رضوان الله والثواب العظيم من الله » .

هذه الكلمة على إيجازها لم تكن مجرد خطاب حماسي ، وإنما كانت تقديرا صائبا للموقف . لم يكن للروم في فلسطين قوات أخرى تذكر ، ومن هنا كان ذلك التقدير منطقيا ، إن هزم جيش الروم في أجنادين فقد سقط على الأقل نصف فلسطين في أيدي المسلمين .

وكان جيش الروم مصطفا في مواجهة المسلمين ، وكان من رأي خالد أن يؤخر

(١) الأزدي ٨٥ حدثني محمد بن يوسف عن ثابت بن سهل بن سعد .

(٢) الأزدي ٩٠ وحدثني عبد الملك بن نوفل عن أبي سعيد المقبري عن معاذ بن جبل أنه قال

القتال حتى يصلوا الظهر وتهب الرياح وهي[1] الساعة التي كان رسول الله ﷺ يستحب القتال فيها ، ولو وقف موقف الدفاع حتى تحين هذه الساعة ، وأعجبت الروم كثرتهم فبدأوا الهجوم على الميمنة حيث كان معاذ بن جبل فصمد المسلمون ولم يتزحزح أحد ، فعادوا ثم شنوا هجوما آخر على الميسرة حيث كان سعيد بن عامر فصمد لهم المسلمون أيضا .. فرمى الروم المسلمين بالنشاب وخالد لا يريد أن يهاجمهم حتى ناداه سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وهو ابن عم عمر بن الخطاب وكان من أشد الناس ومن المهاجرين الأولين وأحد العشرة المبشرين بالجنة وكان قائد فرسان المسلمين يومئذ ، فصاح بخالد قائلا « عَلاَمَ نستهدف لهؤلاء الأعلاج وقد رشقونا بالنشاب حتى شمست[2] الخيل ؟ »

فأقبل خالد إلى خيل المسلمين وقال لهم « احملوا ـ رحمكم الله ـ على اسم الله » . وحمل خالد على الروم وحمل المسلمون معه بأجمعهم على طول الصف ، فقد سئموا الوقوف وكانت معنوياتهم مرتفعة وصبروا مختارين لهجوم الروم عليهم مرتين ... على ميمنتهم مرة ثم على ميسرتهم ، ثم صبروا لرشق نبالهم ، والآن صدر الأمر فانطلق الجيش المتحمس المكبوت فما صبر الروم لهم فَوَاقا[3] على حد تعبير الرواة ، وانهزموا هزيمة شديدة وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا وأصابوا معسكرهم وما حوى . وفي رواية الطبري عن ابن اسحق « ... فلما رأى القبقلار [والمقصود هنا قائد الروم] ما رأى من قتال المسلمين قال للروم : لفوا رأسي بثوب . قالوا : لم ؟ قال : يوم البئيس لا أحب أن أراه ! ما رأيت في الدنيا يوما أشد من هذا . فاحتز المسلمون

(١) في رواية عن أبي داود والترمذي أن رسول الله ﷺ كان يبدأ الجهاد عند شروق الشمس إلى قبيل وقت الظهر ، فإذا لم يبدأ حينذاك انتظر إلى بعد الزوال عند هبوب الريح وكان يقول تهب نسائم النصر في هذه الأوقات . انظر معركة نهاوند أيضا في « سقوط المدائن » ص ٢٠٦ .

(٢) شمستْ الخيل امتنعت ظهورها عن الركوب .

(٣) الفَوَاق ما بين الحلبتين من الوقت ، وقيل ما بين فتح يد الحالب وقبضها على الضرع ، والمراد الزمن القصير .

رأسه وإنه لملفف » . وانتهى خبر هذه الهزيمة إلى هرقل فنُخِب قلبه وأسقط في يده وملىء رعبا .

هذا الوصف المبسط لواحدة من كبرى معارك فتح الشام تعني أنه لم يكن بالمعركة حيلة ولا دهاء ولا خطة من خطط الحرب إلا الهجوم بطول المواجهة دفعة واحدة ، وفي حالة ما يكون الفريق الذي يشن الهجوم هو الفئة القليلة التي تبلغ ثلث الفريق الآخر ثم يكتسح الفريق القليل الفئة الكثيرة بهذه السهولة فإن ذلك يعني تفوق الجندي المسلم على الجندي الرومي ، تفوقه في معنويته وتفوقه في لياقته البدنية وتفوقه في تدريبه ومهارته في استعمال السلاح الذي بيده . لقد كانوا ثلاثة وثلاثين ألفا ... منهم ثلاثة آلاف خاضوا معركة العربة وداثن ، ومنهم تسعة آلاف خاضوا مع خالد بن الوليد معارك العراق الأولى ، وغير هؤلاء وهؤلاء خاضوا حروب الردة ، ومنهم المهاجرون والانصار الذين خاضوا من قبل غزوات الرسول ﷺ وسراياه . ولقد كانت معركة أجنادين معركة الجندي الفرد وقد كسبها الجندي المسلم .

قتلى وشهداء

ولقد بلغ قتلى الروم في المعركة ثلاثة آلاف وفرت فلولهم المنهزمة متفرقة نحو إيلياء وقيسارية ودمشق وحمص فمن أدرك مقصده تحصن واعتصم به ، وتبعهم المسلمون يطاردونهم فيقتلون منهم ويأسرون .

وارتفع من المسلمين شهداء . كان أبان بن سعيد بن العاص قد خطب أم أبان ابنة عتبة ، فتزوجها ودخل عليها بأجنادين ليلة الجمعة وبات عندها ليلة السبت وكانت المعركة غداة السبت . وأصابت أبان بن سعيد نُشابة وكان قد أبلى بلاء مشهودا وقاتل قتالا شديدا عظم فيه غناؤه وعرف فيه مكانه ، فنزع النشابة وعصب جرحه بعمامته ، وحمله إخوته فقال لهم « لا تنزعوا عمامتي عن جرحي ، فلو قد نزعتموها تبعتها نفسي » . فاستشهد من إصابته تلك ، فقالت أم أبان « ما كان أغناني عن ليلتيْ أبان ! »

وقد قتل اليعبوب [وقيل يعقوب] بن عمرو بن ضريس المشجعي سبعة من المشركين وكان شديدا جلدا ، وقد أصابته طعنة كانوا يرجون أن يبرأ منها فمكث بأجنادين أربعة أو خمسة أيام ثم انتقضت به فاستأذن أبا عبيدة أن يرجع إلى أهله فإن شفي رجع إلى القتال ، فأذن له أبو عبيدة فرجع إليهم فتوفى عند أهله ودفن هناك .

واستشهد مسلمة [وقيل سلمة] بن هشام بن المغيرة المخزومي ، ونعيم بن صخر بن عدي العدوى ، وهشام بن العاص أخ عمرو بن العاص [وقيل قتل يوم اليرموك] ، وهبّار بن سفيان [أو ابن الاسود] بن عبد الأسد المخزومي [وقيل قتل يوم مؤتة] ، وعبد الله بن عمرو بن الطفيل ذي النور الأزدي الدوسي [وقيل قتل يوم اليرموك] ، وكانوا من فرسان المسلمين ومن أهل النجدة والشِّدة.

وفي رواية ابن اسحق[١] قال « وقتل يومئذ من المسلمين ممن سُمِّي لنا من قريش أربعة عشر رجلاً ، ولم يُسَمَّ لنا من الأنصار أحد أصيب بها. كما استشهد نعيم بن عبد الله النحام العدوي [وقيل قتل يوم اليرموك] . وأضاف البلاذري[٢] إلى هؤلاء عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب بن هاشم ، وعمرو بن سعيد بن العاص بن أمية ، وطليب بن عمير بن وهب بن عبد بن قصي ، بارزه علج [رومي] فضربه ضربة قطعت يده اليمنى فسقط سيفه مع كفه ثم غشيه الروم وتكالبوا عليه فقتلوه وهو ابن أروى بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ وكان يكنى أبا عدي ، وعكرمة بن أبي جهل بن هشام المخزومي ، وجندب بن عمرو الدوسي ، وسعيد بن الحارث [وقيل قتل يوم اليرموك] والحارث بن الحارث والحجاج بن الحارث بن قيس بن عدي السهمي ، وتميم بن الحارث ، والحارث بن هشام بن المغيرة .

(١) الطبري ٤١٨/٣ حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن محمد بن اسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة .

(٢) البلاذري ١٣٦ دون إسناد .

من خالد الى أبي بكر [1]

« بسم الله الرحمن الرحيم .

لعبد الله أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ من خالد بن الـوليد سيف الله المصبوب على المشركين . أما بعد ، سلام عليك . فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو .

أما بعد، فإني أخبرك أيها الصديق أنا التقينا نحن والمشركون وقد جمعوا لنا جموعا جمّة كثيرة بأجنادين ، وقد رفعوا صُلُبَهم ونشروا كتبهم وتقاسموا بالله لا يفرون حتى يفنون أو يخرجونا من بلادهم . فخرجنا إليهم واثقين بالله متوكلين على الله ، فطاعناهم بالرماح ثم صرنا إلى السيوف ، فقارعناهم في كل فج وشِعْب وغائط . فأحمد الله على إعزاز دينه وإذلال عدوه وحسن الصنع لأوليائه . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وبعث خالد بهذه الرسالة مع عبد الرحمن [2] بن حنبل الجمحي ، فلما قرأه أبو بكر فرح به وأعجبه وقال « الحمد لله الذي نصر المسلمين وأقر عيني بذلك » .

وكانت أجنادين نصف النهار ليوم السبت [3] ٢٧ جمادي الأولى ١٣ هـ ـ ٣٠ يولية تموز ٦٣٤ م .

---

(١) الأزدى ٩٣ بإسناده السابق

(٢) الأزدى ٩٣ حدثني محمد بن يوسف عن ثابت بن سهل بن سعد .

(٣) الأزدي ٩٣ بنفس الإسناد .

ابن عساكر ٤٧٩/١ أخبرنا ابو القاسم بن السمرقندي ، انا ابو علي بن المسلمة ، أنا ابو علي بن الصواف ، نا ابو محمد الحسن بن علي القطان ، نا اسماعيل بن عيسى العطار ، نا أبو حذيفة اسحق بن بشر القرشي .

ابن عساكر ٤٨١/١ أخبرتنا أم البهاء فاطمة بنت محمد بن احمد البغدادي ، انا أبو طاهر أحمد بن محمود الثقفي ، انا ابو بكر بن المقرىء ، نا محمد بن جعفر الزراد المنيحي ، نا عبيد الله بن سعد ، نا عمي ، نا أبي ، عن ابن اسحق .

من الواضح أن خالد بن الوليد قد كتب رسالته إلى أبي بكر بعد فراغه من

=الطبري ٤١٨/٣ حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة ، عن محمد بن اسحق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة .

الطبري ٤١٩/٣ وأما ابو زيد فحدثني عن علي بن محمد [المدائني] باسناده [الوحيد] الذي قد مضى ذكره تاريخ خليفة بن خياط ١٠٣/١ قال ابن اسحق .

وذكر كثير من الرواة أن أجنادين كانت في شهر جمادي الأولى ١٣ هـ دون تحديد يومها :

ابن عساكر ٤٧٨/١ أخبرنا ابو محمد عبد الكريم بن حمزة السلمي ، ان ابو بكر احمد بن علي بن ثابت الحافظ ح .

وأخبرنا ابو القاسم بن السمرقندي ، أنا ابو بكر بن اللالكائي قالا : أنا أبو الحسين بن الفضل ، انا عبد الله بن جعفر ، نا يعقوب ، نا ابراهيم بن المنذر ، نا ابن فليح ، عن موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب ..

ابن عساكر ٤٧٩/١ أخبرنا ابو القاسم بن السمرقندي، انا عمر بن عبيد الله بن عمر ، انا ابو الحسين بن بشران ، انا عثمان بن أحمد بن السماك ، أنا حنبل بن اسحق ، نا ابراهيم بن المنذر ، نا محمد بن فليح ، عن موسى بن عقبة عن الزهري .

قال ونا حنبل ، نا هلال بن العلاء ، نا عبد الله بن جعفر الرقي ، نا مطّرف بن مازن اليماني عن معمر ابن عساكر ٤٧٩/١ أخبرنا أبو محمد الأكفاني ، نا عبد العزيز الكتاني ، أنا أبو محمد بن أبي نصر ، أنا أبو القاسم بن أبي العقب ، أنا أبو عبد الملك أحمد بن ابراهيم بن بشر القرشي ، نا محمد بن عائذ ، نا الوليد [ابن مسلم] ، حدثني شيخ من بني أمية ، عن أبيه ... قال وكذلك حدثني زيد بن دعكنة .

ابن عساكر ٤٨١/١ اخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي، أنا أبو بكر الطبري ، أنا ابو الحسين بن الفضل ، أنا عبد الله بن جعفر ، أخبرنا يعقوب .

ابن عساكر ٤٨٤/١ وحدثنا ابن عائذ ، أنبا الوليد بن مسلم ، عن عبد الله بن لهيعة عن أبي الأسود ، عن عروة .

تلك روايات كلها متضافرة . وخالفت رواية فذهبت إلى أن أجنادين كانت يوم الاثنين لاثنتي عشرة بقيت من جمادي الأولى ـ يعني ١٧ جمادي الاولى بدلا من ٢٧ منه ، وهي :

ابن عساكر ٤٨٣/١ أخبرنا أبو علي الحسين بن علي بن الحسن بن أشليها المصري وابنه أبو الحسين بن بشران، انا عثمان بن احمد بن السماك، انا حنبل بن اسحق، انا ابراهيم بن المنذر، نا محمد يعقوب بن ابراهيم بن أبي العقب ، أنا أبو عبد الملك أحمد بن أبراهيم القرشي ، أنا محمد بن عائذ ، قال ونا الواقدي .

البلاذرى ١٣٦ دون إسناد ، وزاد : ويقال لليلتين خلتا من جمادي الآخرة ويقال لليلتين بقيتا منه .

مطاردة فلول الروم . وتقديرنا أن عبد الرحمن بن حنبل قد غادر أجنادين في حوالي اليوم الرابع للمعركة ، يوم الأربعاء ٢ جمادي الآخرة ١٣ هـ ٣ أغسطس آب ٦٣٤ م ، فانطلق جنوبا نحو المدينة يحمل الرسالة والبشرى إلى أبي بكر والمسلمين .

بعد أجنادين

هنا نصطدم بواحدة من أكبر النقاط الخلافية بين الرواة والمؤرخين ، وهي ماذا كان بعد الانتصار الكبير للمسلمين في أجنادين ؟ في ذلك يقول الطبري[1] في أسى « ومن الأمور التي تُستنكر وقوع مثل الاختلاف الذي ذكرته في وقته لقرب بعض ذلك من بعض » .

ذهب الأزدي[2] الذي رجحت رواياته – في الأغلب – ما خالفها أن خالدا سار بالمسلمين بعد أجنادين إلى دمشق ، وذهب المدائني وسيف[3] إلى أنه بعد أجنادين كانت اليرموك ، ثم دمشق وفحل معا ، في حين نصت روايات كثيرة[4] أنه بعد أجنادين بفلسطين كانت فحل بالأردن وأنها كانت سنة ثلاث عشرة ، أجنادين

(١) الطبري ٣/٤٤٢

(٢) الأزدي ٩٤ حدثني محمد بن يوسف عن ثابت بن سهل بن سعد .

(٣) الطبري ٣/٤٣٤ حدثني عمر [ابن شبة] عن علي بن محمد [المدائني] بإسناده [المعتاد] .

الطبري ٣/٤٣٥ و٤٤٢ عن أبي عثمان [يزيد بن أسيد الغساني] عن خالد وعبادة عن أبي حارثة العبشمي .

ابن عساكر ١/٤٨٥ أخبرنا أبو القاسم السمرقندي ، أنبا ابو الحسين احمد بن محمد بن النقور ، أنبا ابو طاهر محمد بن عبد الرحمن بن العباس المخلص . أنا ابو بكر بن سيف ، ثنا السري بن يحيى ، نا شعيب بن ابراهيم ، نا سيف بن عمر ، عن أبي عثمان يزيد بن أسيد الغساني وأبي حارثة العتبي [هو العبشمي المذكور في رواية الطبري السابقة] .

(٤) الطبري ٣/٤٣٤ حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن ابن اسحق .

ابن عساكر ١/٤٨٠ أخبرتنا أم البهاء فاطمة بنت محمد بن أحمد البغدادي ، قالت أنا أبو طاهر أحمد بن محمود ، أنا ابو بكر [محمد بن ابراهيم بن علي] المقرىء ، نا محمد بن جعفر الزراد ، نا عبيد الله بن سعد ، نا أبي ، عن ابن اسحق .

ابن عساكر ١/٤٨٠ أخبرنا أبو محمد عبد الكريم بن حمزة السلمي ، نا أبو بكر الخطيب ح .

وأخبرنا ابو القاسم السمرقندي ، انا ابو بكربن الطبري، قالا: أنا ابو الحسين [محمد بن الحسين بن محمد] بن الفضل القطان ، انا عبد الله بن جعفر ، نا يعقوب [بن سفيان الفسوي] ، نا حامد بن يحيى ، نا صدقة بن سابق ، عن محمد بن اسحق .

قال ونا يعقوب [بن سفيان] ، حدثني سلمة ، عن احمد بن حنبل ، عن اسحق بن عيسى ، عن أبي معشر .

قال ونا يعقوب ، نا ابراهيم ، نا محمد بن فليح ، عن موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب .

وقال حسان بن عبد الله عن ابن لهيعة ، عن أبي الأسود ، عن عروة .

ابن عساكر ١/٤٧٨ أخبرنا أبو محمد عبد الكريم بن حمزة السلمي ، نا أبو بكر احمد بن علي بن ثابت الحافظ ح .

وأخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، انا ابو بكر بن اللالكائي ، قالا : أنا ابو الحسين بن الفضل ، انا عبد الله بن جعفر ، نا يعقوب [بن سفيان الفسوي] نا ابراهيم بن المنذر ، نا [محمد] بن فليح ، عن موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب [الزهري] .

أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، أنا عمر بن عبيد الله بن عمر ، أنا أبو الحسين بن بشران ، انا عثمان بن احمد بن السماك ، نا حنبل بن اسحق ، نا ابراهيم بن المنذر ، نا محمد بن فليح ، عن موسى بن عقبة عن الزهري .

ابن عساكر ١/٤٧٩ قال ونا حنبل ، نا هلال بن العلاء ، نا عبد الله بن جعفر الرقي ، نا مطرف بن مازن اليماني ، عن معمر .

اخبرنا ابو محمد [هبة الله بن احمد] الأكفاني ، نا عبد العزيز [بن احمد] الكتاني ، أنا ابو محمد [عبد الرحمن بن عثمان بن القاسم] بن أبي نصر ، انا ابو القاسم [علي بن يعقوب بن ابراهيم] بن أبي العقب ، انا ابو عبد الملك احمد بن ابراهيم بن بشر القرشي ، نا محمد بن عائذ [القرشي] ، نا الوليد [بن مسلم] ، حدثني شيخ من بني أمية عن أبيه .

قال وكذلك حدثني زيد بن دعكنة . وبذلك حدثني عبد الله بن لهيعة عن أبي الأسود .

ابن عساكر ١/٤٨٢ أخبرنا ابو بكر محمد بن عبد الباقي الفرضي ، انا ابو محمد [القاسم بن عبد الله بن المغيرة] الجوهري ، انبا ابو عمر بن حيويه ، انا ابو الحسن بن معروف الخشاب ، نا الحسين بن الفهم ، نا محمد بن سعد ، أنا محمد بن عمر [الواقدي] ، حدثني سعيد بن راشد ، عن عطية بن قيس ، عن أبي العوام مؤذن بيت المقدس ، قال سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يحدث في بيت المقدس . [وجعلت هذه الرواية القيادة في أجنادين وفي فحل لعمرو بن العاص ، وكذا الرواية التالية] .

في جمادي وفحل في ذي القعدة على رأس ستة أشهر من خلافة عمر . قال البلاذري « لليلتين بقيتا من ذي القعدة » [= الاثنين ٦٣٥/١/٢٣ م]

وإذ نتحمل من بادىء الأمر مسئولية استدراج القارىء إلى تتبع الأسانيد وسلاسل الرواة ، وهو أمر ثقيل على غير المتخصص لا سيما ونحن بصدد دراسة استراتيجيات وتكتيكات حربية ، فقد أفرغنا هذه الروايات الأخيرة في جدول مرسوم بعد أن سقناها مسرَدة تيسيرا على القارىء حتى يتضح له مقدار الاشتهار الذي شذت عنه رواية المدائني المقتضبة وروايتا الأزدي وسيف بن عمر ، الأمر الذي جعلنا لا نتردد في الأخذ بأن موقعة فحل كانت هي التالية لأجنادين وأنها جاءت بعدها بأشهر ستة ، في شهر ذي القعدة ١٣ هـ ، وذلك إعمالا للقاعدة « نرجح[1] ما رواته أكثر على ما رواته أقل » . ويدعم ما ذهبنا إليه روايات أخرى كثيرة تضع فتح دمشق من أحداث عام ١٤ هـ [وليس ١٣ هـ] يأتي ذكرها إن شاء الله عندما نصل إلى فتح دمشق .

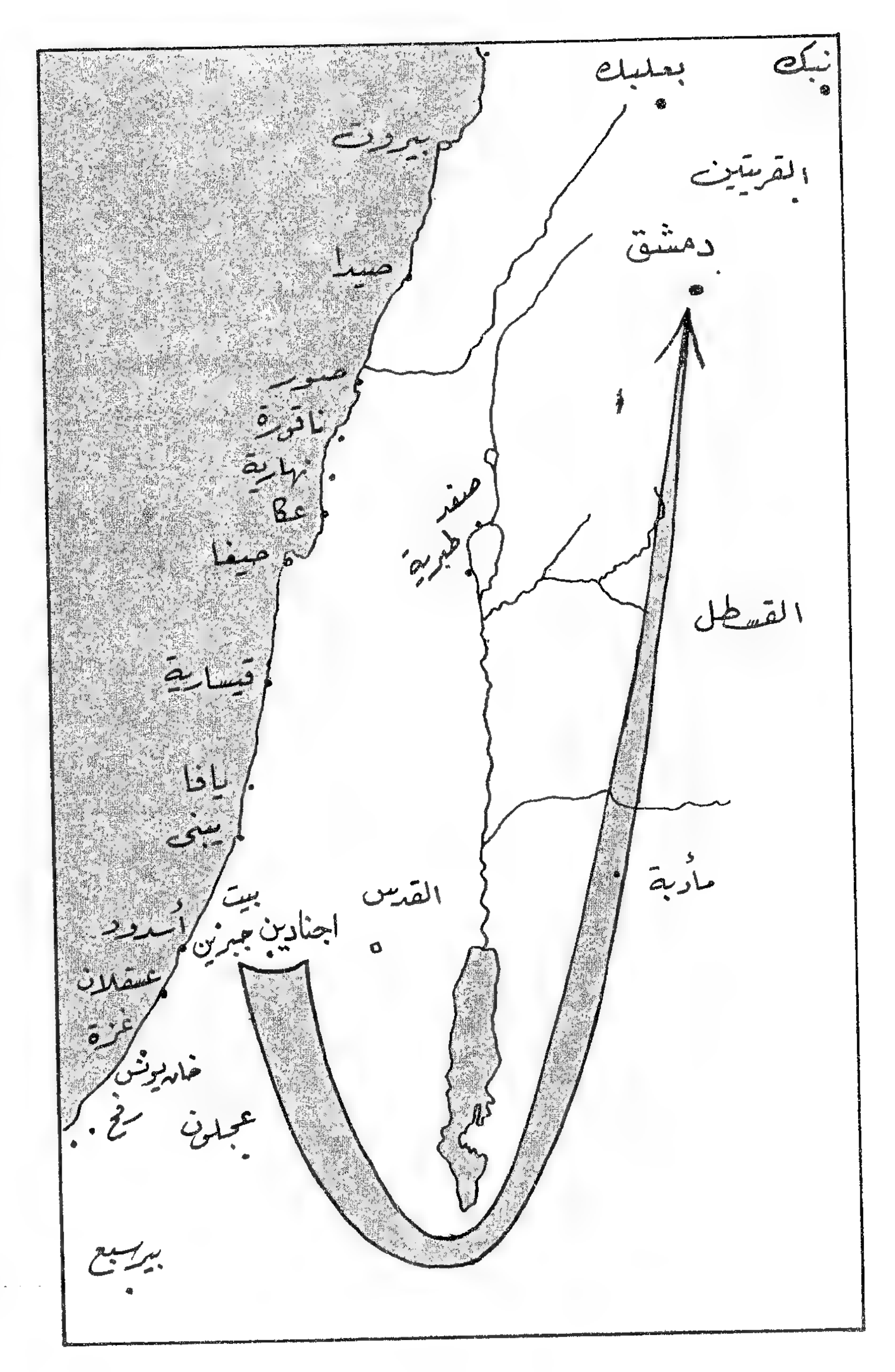
ماذا كان في تلك الأشهر الستة بين أجنادين وفحل ؟ إن روايات الأزدي تملأ فراغ هذه الفترة بما ذكرته عن سير المسلمين إلى دمشق بعد أجنادين ، ونراها في هذا

أخبرنا أبو علي الحسين بن علي بن الحسين بن احمد بن أشليها المصري ، وابنه ابو الحسن علي ، قالا : انا ابو الفضل احمد بن علي بن الفرات ، انباابو محمد [عبد الرحمن بن عثمان بن القاسم] بن أبي نصر ، أنا ابو القاسم [علي بن يعقوب بن ابراهيم] بن أبي العقب ، أنا ابو عبد الملك احمد بن ابراهيم [القرشي] ، نا [محمد] بن عائذ ، نا محمد بن عمر [الواقدي] ، عن سعد بن راشد ، عن عطية بن قيس ، عن أبي العوام مؤذن بيت المقدس ، قال سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يحدث في بيت المقدس .

قال وحدثنا ابن عائذ ، أنبا الوليد بن مسلم عن عبد الله بن لهيعة عن الأسود عن عروة [٤٨٤/١] .

قال محمد بن عمر [الواقدي]فأهل الشام قاطبة وعامة رواتنا يقولون ... (هذا] البلاذري ١٣٧ . قالوا وكانت وقعة فحل من الأردن لليلتين بقيتا من ذي القعدة بعد خلافة عمر بخمسة أشهر [دون إسناد] .

(١) القاعدة رقم ٣ مما ذكرنا في الباب الثاني عن الترجيح بين الرواة .



خريطة رقم (١٢) ـ اجنادين ٤ ـ المقياس ١/٢ مليون

روايات مقبولة . غير أن دمشق لم تفتح إلا في عام ١٤ هـ في رأي جمهور الرواة [في رجب على ما أخذنا به ، أو شوال أو ذي القعدة] في حين كانت فحل في ذي القعدة ١٣ هـ . وهنا يمكن الجمع بين هذه الروايات بأنه بعد الفراغ من أجنادين سار المسلمون إلى دمشق فحاصروها واشتبكوا بالروم في مرج الصفر[١] على ما ذكرت عدة روايات ، ولكن هرقل وجه قوات رومية من حمص لنجدة دمشق وفي ذات الوقت ساق جيوشه إلى بيسان .

لماذا بيسان ؟

هل كان ذلك بهدف الالتفاف والوصول إلى دمشق من الجنوب مع القوات التي بعث بها هرقل من حمص في الشمال ؟ نستبعد ذلك لأن بيسان تبعد كثيرا نحو الجنوب ، ولو أراد الروم وضع جيوش المسلمين حول دمشق بين فكي كماشة لجاءوا إلى دمشق من شمال موقع بيسان جنوبي دمشق بقليل . والذي نرجحه أن الهدف كان تشتيت جيوش المسلمين واضطرارها إلى الانسحاب نحو الجنوب بعيدا عن دمشق .

ولذلك فقد تحقق أن فك المسلمون الحصار عن دمشق وساروا عنها إلى فحل فدارت المعركة هناك ثم عادوا بعد ذلك إلى دمشق مرة أخرى ليفتحوها .

كما يدلنا موقع بيسان على سبب آخر ، فإنها تقع عند مخرج ذلك الممر

(١) ابن عساكر ٤٨١/١ أخبرنا أبو غالب محمد بن الحسن الماوردي ، أنا أبو الحسن محمد بن علي بن أحمد بن ابراهيم السيرافي ، أنا أبو عبد الله احمد بن اسحق النهاوندي القاضي ، نا أحمد بن عمران بن موسى ، نا موسى بن زكريا التستري ، نا أبو عمرو خليفة بن خياط العصفري ، نا بكر بن سليمان ، قال : وقال ابن اسحق وقعة مرج الصفر يوم الخميس لاثنتي عشرة بقيت من جمادي الأولى والأمير خالد بن الوليد [يعني ١٨ جمادي الأولى ١٣ هـ ٢١ يوليو ٦٣٤ الأزدي ٩٧ حدثني يزيد بن يزيد بن جابر عن أبي أمامة . قال الخميس لاثنتي عشرة بقيت من جمادي الآخرة ١٣ هـ .
ابن عساكر ٤٨٢/١ في رواية عن الوليد بن مسلم أنه بعد أجنادين كانت مرج الصفر . البلاذري ١٤١ عن أبي مخنف أن المرج كانت بعد أجنادين بعشرين ليلة .
هذه الروايات نرجحها على روايات أخرى أقل عددا تضع مرج الصفر من أحداث عام ١٤ هـ .

الطبيعي - مرج ابن عامر - ويدلنا تجمع جيش الروم هناك على أن ذلك الجيش قد جاء من مناطق السواحل . بعبارة أخرى ما تم حشده من داخل الشام تم تجميعه في حمص لتوجيهه إلى دمشق ، وما تم حشده من السواحل أو جيء به من بيزنطة تم توجيهه إلى بيسان لا سيا وأن مرج ابن عامر يفضي إلى حيفا وعكا حيث يمكن إنزال الجنود . ولعل جيش الروم في بيسان قد ضم أيضا فلولا من أجنادين .

على هذا التسلسل سوف نسير مع الأحداث فنتجاهل روايات الأزدي التي ترتب فتح دمشق قبل معركة فحل .

مرج الصفر

الخميس ١٧ جمادي الآخرة ١٣ هـ ١٨ أغسطس ٦٣٤ .

بعد أن فرغ خالد من عمليات مطاردة فلول أجنادين ، وبعد أن خرج عبد الرحمن بن حنبل الجمحي برسالته إلى أبي بكر أمر خالد المسلمين أن يسيروا[١] إلى دمشق فسار بهم حتى نزل حولها .

أي الطرق سلك خالد بجيوش المسلمين من أجنادين إلى دمشق ؟ هذا ما لا تشير إليه المصادر أي إشارة ، إلا أننا نذهب مرة أخرى إلى أن جيوش المسلمين كانت تتحرك على الطريق الخارجية ، بمعنى أننا نرى إلى أنها بعد أجنادين لم تمخر وسط فلسطين شمالا نحو الأردن ، وإنما عادت جنوباً حيث دارت حول البحر الميت من جهته الجنوبية لتسير على الطرق التي تقع إلى شرقه نحو الشمال ، إذ أنها لو لم تفعل لكان عليها أن تطلع من أجنادين إلى بيت المقدس ثم إلى وادي نهر الأردن الى الجولان فدمشق ، أو أن تسلك طريق الرملة واللد الى قلنسوة ثم الى جنين ثم الى بيسان فشمالا عبر الجولان إلى دمشق . ولا خلاف أن المسلمين لم يكونوا فتحوا بيت المقدس حتى حينذاك ، كما انهم لم يكونوا ليمروا بالرملة التي كانت حاضرة فلسطين ولم يكونوا غزوها حتى ذلك الوقت . وما كان لهم ايضا ان يمروا على أي طريق تقع القدس عن يمينه والرملة عن يساره وكلتاهما في أيدي الروم ليس بينهما سوى ٤٠ كيلومترا فضلا عن وعورة تلك الطرق التي تصعد جبال الجليل ، أو التي تجتاز ساحلا في يد العدو .

وعلى ذلك فإننا نناقض ما ذكره فيليب[٢] حتى إذ يعقب على معركة أجنادين بقوله « فغدت أبواب فلسطين مفتوحة على مصاريعها في وجه الفاتحين ، وشنّت من ثم غزوات شتى في كل اتجاه لمدة ستة أشهر » . هذا قول لم يسنده إلى أي مصدر

(١) الأزدي ٩٤ وحدثني محمد بن يوسف عن ثابت بن سهل بن سعد .

(٢) تاريخ سورية ٢/١٠

ولا دليل عليه بل إنه من النصوص ما يذكر صراحة أن اشتباك مرج الصفر بضواحي دمشق كان بعد[1] عشرين يوما من أجنادين .

نزل خالد بالقوات التي تتبعه مباشرة وهي جيش العراق الذي جاء به من هناك ، نزل تجاه الدير الذي كان ينزله ـ نزله سابقا بعد أن عبر السماوة قبل أن يصل إلى الجابية ـ وعرف لذلك بدير خالد وقد كان على مسافة[2] ميل من جهة الباب الشرقي . ونزل أبو عبيدة على باب الجابية ونزل يزيد بن أبي سفيان على جانب آخر من دمشق ، وأحاطوا بها وكثروا حولها وحصروا أهلها حصارا شديدا . ولا نجد هنا أي ذكر لشرحبيل وجيشه ونذهب إلى أنه ترك بأسفل الشام من جهات الاردن مؤخرة لجيوش المسلمين وحماية لها أن تؤتى من خلفها .

وعاد عبد الرحمن بن حنبل الجمحي من عند أبي بكر رضي الله عنه بكتاب منه إلى خالد بن الوليد . وكان الجمحي من جند يزيد بن أبي سفيان ، فسأله يزيد :

ـ هل لقيت أبا سفيان ؟

قال نعم

قال فهل سألك عني ؟

قال نعم

قال فما قلت له ؟

قال قلت له إن يزيد حازم متواضع في ولايته، شديد البأس ، مُحَبٌّ في الإخوان ، كريم الصحبة لمن صحبه ، ويبذل ما قدر عليه من فضله في إسلامه ودينه وحسن خلقه . وقال ابوسفيان « كذلك ينبغي لمثله أن يكون » . وطلب إليّ أن اكتب إليه بما يكون من أمرنا وأن أعلمه حالنا فوعدته ذلك .

(١) الازدي ٩٧ قال وحدثني يزيد بن يزيد بن جابر عن أبي أمامة .

(٢) البلاذري ١٤١ عن ابي مخنف .

وكان هرقل ما زال يحشد قواته فاجتمع[1] له جمع كبير . وخرج خالد بن الوليد ذات يوم فأحاطوا بمدينة دمشق[2] واقتربوا من بابها ، ورماهم المدافعون عنها بالحجارة ورشقوهم من فوق بيوتها بالنشاب فقال عبد الرحمن بن حنبل :

أَبْلِـغْ أبـا سفيان عنـا فإننا ... على خـير حال كان جيش يكونها
وأنـا على بَابَـيْ دِمَشْقَـةَ نرتمي ... وقـد حان من بَابَـيْ دِمَشْقَـةَ حينها

فإن المسلمين كذلك يقاتلونهم ويرجون فتح مدينتهم إذا أتاهم آت فقال لهم « هذا جيش قد أتاكم من قبل ملك الروم وقد أظلكم » . كانت استخبارات المسلمين يقظة لا تغفل .

ترك خالد ما كان من مناهضة أسوار دمشق وأبوابها ونهض بقواته على صفوفه وهيئته فأبعد الأثقال والنساء ، وخرج معهم يزيد بن أبي سفيان في جنده فالتقوا بجيش الروم في[3] مرج الصُّفَّر .

مرج الصُّفَّر سهل واسع جنوبي دمشق يبعد عنها حوالي ٣٨ كيلومترا بين قرية الكسوة وغباغب[4] يحده شمالا قريتا الطيبة وزاكية وغربا مزرعة المازنية وقرية شقحب وجنوبا أركيس والزريقة وشرقا عالقين . حدث هذا اللقاء إلى الجنوب من دمشق مع قوات الروم التي جاءت من حمص في الشمال . إنه نفس الأسلوب مرة أخرى ، ذلك الذي كان في أجنادين وفي بيسان ... أن تجيء قوات الروم على الطرق الداخلية من الشمال فتلتف لتقابل المسلمين من الجنوب ! وهي لا بد جاءت أيضا عن طريق بعلبك فوادي البقاع فوادي الأردن الأعلى ثم إلى قنيطرة إلى سعسعة

(١) البلاذري ١٤١

(٢) الازدي ٩٥ بنفس الاسناد السابق .

(٣) يذهب البلاذري ص ١٤١ إلى أن موقعة مرج الصفر وقعت والمسلمون متجهون إلى دمشق بعد أجنادين إذ التقوا في المرج بهذا المدد من الروم ، والأرجح عندنا ما ذكرنا .

(٤) ابن عساكر ٤٧٨/١ الهامش .

إلى مرج الصفر ابتغاء أن تصل إلى دمشق من جنوبها .

وقف خالد ومعه أبو عبيدة وراء الصفوف وسار بهم نحو جيش الروم الذي بعثه هرقل خمسة آلاف يقودهم درنجار[(١)] ، كانوا من أهل القوة والشدة ليغيث حامية دمشق فاضطر المسلمون أن يخفضوا قبضتهم عن دمشق ويسيروا نحوهم فلم يبق حول أسوار دمشق سوى جيش عمرو بن العاص . كذلك خرج إلى المعركة أصحاب القوة والشدة من حامية دمشق وانضم إليهم عدد كبيرمن حامية حمص فهم جميعا اكثر من عشرة آلاف اجتمعوا في مرج الصفر . ونظر إليهم خالد ثم أسرع يعبىء جيشه كتعبئة يوم أجنادين ... يقول الرواة « وكان من أبصر الناس بالحرب مع وقار وسكينة وشفقة على المسلمين وحسن النظر لهم والتدبير لأمورهم » .

فجعل على ميمنته معاذ بن جبل وعلى ميسرته هاشم[(٢)] بن عتبة وعلى الفرسان سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وعلى المشاة أبا عبيدة . ثم سار خالد فوقف في أول الصف يريد أن يحرض المسلمين ويحمسهم ، ونظر إلى الصف من أوله إلى آخره فبادره الروم بالهجوم .

كان سعيد بن زيد بن عمرو واقفا في جماعة من فرسانه في الميمنة يدعون الله وهو يخطب فيهم ويقص عليهم ، فحملت الروم تجاهه بثقلهم فصمد لهم سعيد ونازلهم في فرسانه ، وتحركت صفوف المسلمين فاقتتلوا قتالا شديدا على شاطىء نهر عليه طاحونة حتى جرت الدماء في ماء النهر وطحنت[(٣)] بها الطاحونة ، وعبد الله بن

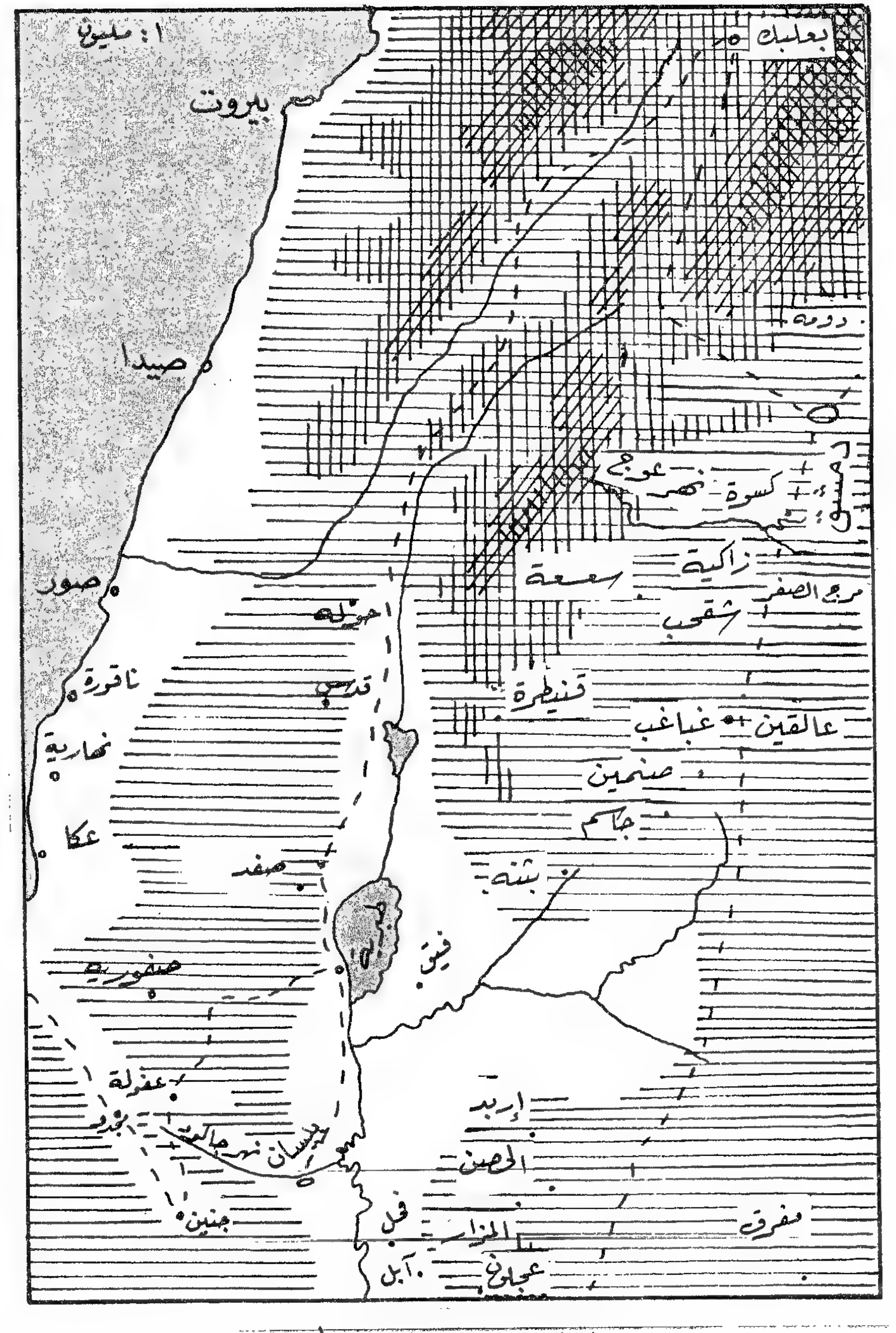
---

(١) درنجار رتبة لقائد ٥٠٠٠ وليست اسم شخص ـ الازدي ١٠٦ . وذكر خليفة بن خياط في تاريخه ١٠٤/١ أن اسمه كان فلقط .

(٢) يوم أجنادين كان على الميسرة سعيد بن عامر بن حذيم .

(٣) البلاذري ١٤١

ابن عساكر ٤٨٢/١ أخبرنا أبو علي الحسين بن علي بن الحسين بن احمد بن اشليها المصري وابنه أبو الحسن علي بن الحسين ، قالا أنا أبو الفضل أحمد بن علي بن الفضل بن طاهر بن الفرات ، أنبا أبو محمد بعد الرحمن بن عثمان بن أبي نصر ، أنا أبو القاسم علي بن يعقوب بن أبي العقب ، أنبا احمد بن ابراهيم القرشي ، نا الوليد عن سعيد وابن جابر .



الخريطة رقم (١٣) ـ مرج الصفر ـ ١/مليون .

كامل(1) يقول

شَهِدَتْ قبائل مالك وتَغَيَّبَتْ عني عُمَيْرَةُ يوم مرج الصُّفَّرِ

ولعل خالد بن سعيد بن العاص قد تذكر هزيمته الأولى في مرج الصفر فأنشد يقول في حماسة

مَنْ فارسٌ كره الطِّعان يعيرُني رُمحاً إذا نزلوا بمرج الصُّفَّرِ

ويذهب البلاذري إلى أن خالد بن سعيد قد استشهد في هذا اليوم وفي عنقه سيفه المشهور الصمصامة(2) ، وكان قد أعرس ليلتها بأم حكيم بنت الحارث بن هشام المخزومي [امرأة عكرمة بن أبي جهل] فلما بلغها مصابه انتزعت عمود الفسطاط وخرجت تقاتل به حتى قتلت أربعة من الروم وقيل سبعة وإن بها لَرَدْع(3) الخَلُوق .

وانهزم الروم وأصاب المسلمون عسكرهم وقتلوا منهم كثيرا وتبددت فلولهم شراذم فمنهم من دخل دمشق مع أهلها ومنهم من رجع إلى حمص ومنهم من لحق بهرقل ومنهم من فر إلى بيت المقدس . وجرح من المسلمين أكثر من أربعة(4) آلاف ، وقتل من الروم خمسمائة(5) في المعركة ووقع في أسر المسلمين نحو من خمسمائة آخرين .

وعاد المسلمون يحاصرون دمشق مرة أخرى ويضيقون عليها .. خالد على(6)

(1) بن حبيب بن عميرة بن خفاف بن امرىء القيس بن بهثة بن سُلَيم ، وقوله مالك يعني مالك بن خفاف بنو عمومته ، وكانت سليم قد توجته في الجاهلية ، وغاب عن المعركة قومه من بني عميرة بن خفاف بن امرىء القيس .

(2) البلاذري ١٤٢ عن هشام بن محمد الكلبي .

(3) ردع الخلوق = أثر الطِّيب ، الذي تطيبت به ليلة عرسها .

(4) البلاذري ١٤٢ .

(5) الأزدي ٩٦ حدثني يزيد بن يزيد بن جابر عن عمرو بن محض .

(6) الأزدي ٩٧ وحدثني يزيد بن يزيد بن جابر عن أبي أمامة .

الباب الشرقي وأبو عبيدة على باب الجابية ويزيد على بعض أبوابها وعمرو بن العاص على باب آخر . وكانوا يغيرون على من كان خارج أسوار دمشق فكل ما أصاب رجل شيئاً جاء به فيلقيه في الأقباض ولا يستحل أن يأخذ منه قليلاً ولا كثيرا حتى أن الرجل ليجيء بالكبة(1) الغزل أو بالكبة الصوف والشعر وبالمسلة فيلقيه في القبض .

وفاة أبي بكر

مرض ووفاة

وفي يوم الاثنين التالي ٧ جمادي الآخرة ١٣ هـ ٨ أغسطس آب ٦٣٤ اغتسل أبو بكر رضي الله عنه وكان يوما باردا بالمدينة(2) . وحُمَّ أبو بكر وارتفعت حرارته خمسة عشر يوما لازم فراشه فلم يخرج إلى الصلاة ، وكان يأمر عمر بن الخطاب أن يصلي بالناس بدلا منه ، وكان المسلمون يعودونه في داره وهو يثقل كل يوم . وأحس أبو بكر أنه مرض الموت فتمثل ببيتين من شعر عبيد بن الأبرص :

وكل ذي إبل موروث وكل ذي سلب مسلوب

وكل ذي غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب

واستخلف من بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأوصى بكفنه الذي يكفن فيه وبمن يغسله. وجاءته رسالة خالد وهو على ذلك فبشر بها وهو بآخر رمق ، وكان آخر ما تكلم به «رب توفني مسلما وألحقني بالصالحين» . ثم توفى رضي الله عنه

(1) الكبة شلة الخيط .

(2) الطبري ٤١٩/٣ حدثني الحارث قال حدثنا بن سعد قال أخبرنا محمد بن عمر [الواقدي] قال حدثني أسامة بن زيد الليثي عن محمد بن حمزة عن عمرو عن أبيه ، قال وأخبرنا محمد بن عبد الله عن الزهري عن عروة عن عائشة ، قال وأخبرنا عمر بن عمران بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق عن عمر بن الحسين مولى آل مظعون ، عن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر .

مساء الثلاثاء ٢١ جمادي الآخرة ١٣ هـ ٢٣ اغسطس آب ٦٣٤ بين المغرب والعشاء ودفن ليلا من نفس المساء .

عمر بن الخطاب خليفة

ومع مولاه يرفأ بعث الخليفة الجديد عمر بن الخطاب[1] برسالته الاولى إلى أبي عبيدة بن الجراح

« سلام عليك . فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد .

فإن أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، خليفة رسول الله ﷺ قد توفي ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ورحمة الله على أبي بكر القائل [أو العامل] بالحق والآمر بالقسط والآخذ بالمعروف اللينّ الستّير والبرّ الشيّم [حميد السجايا] والسهل القريب الحليم . ونحتسب مصيبتنا فيه ومصيبتكم ومصيبة المسلمين عامة عند الله .

« وإنا نرغب إلى الله في العصمة بالتقى برحمته من كل معصية، ونسأله العمل بطاعته ما أحيانا والحلول في جنته إذا توفانا إنه على كل شيء قدير .

« وقد بلغنا حصاركم لأهل دمشق . وقد وليتك جماعة الناس فابثث سراياك في نواحي أرض حمص ودمشق وما سواها من أرض الشام ، وانظر في ذلك برأيك ورأي من حضرك من المسلمين . ولا يحملنك قولي هذا على ان تعرّي عسكرك فيطمع فيك عدوك ، ولكن من استغنيت عنه فسيرّه ومن احتجت إليه في حصارك فاحتبسه ، وليكن فيمن تحتبس خالد بن الوليد فإنه لا غنى بك عنه .

« والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته »

---

(١) الأزدي ٩٨ حدثني يزيد بن يزيد بن جابر عن أبي أمامة .

ابن عساكر ٥١١/١ أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، أنا أبو علي بن المسلمة ، نا أبو الحسن الحمامي ، انا ابو علي بن الصواف ، أنا الحسن بن على القطان ، نا اسماعيل بن عيسى العطار ، نا أبو حذيفة اسحق بن بشر ، قال : قال هؤلاء باسنادهم يعني منسوخة .

دخل بعضه في بعض .

أن يجيء يرفأ مولى عمر برسالة من المدينة شيء لا بد يهتز له المسلمون ، ولا شك أن دفعهم الفضول جميعا أن يعرفوا ما وراءه خاصة وقد جاء إلى أبي عبيدة فأسلمه الرسالة ولم يسلمها إلى خالد . ولكن أبا عبيدة سكت ولم يسمع منه أحد شيئا ينتفع به . ثم دعا أبو عبيدة معاذ بن جبل فأقرأه كتاب عمر . والتفت معاذ إلى يرفأ وقال له : رحمة الله ورضوانه على أبي بكر ، وَيْح غيرك ، ما فعل المسلمون ؟

قال : استخلف أبو بكر رحمة الله عليه عمر بن الخطاب .

فقال معاذ : الحمد لله ، وُفِّقُوا وأصابوا .

وقال أبو عبيدة : ما منعني عن مسألته منذ قرأت الكتاب إلا مخافة أن يستقبلني فيخبرني أن الوالي غير عمر .

فقال يرفأ : يا أبا عبيدة إن عمر يقول لك أخبرني عن حال الناس وعن خالد بن الوليد أي رجل هو ؟ وأخبرني عن يزيد بن أبي سفيان ، وعن عمرو بن العاص ، وكيف هما في حالهما وهيأتهما ونصحهما للمسلمين .

قال أبو عبيدة : أما خالد فخير أمير ، أنصحه لأهل الإسلام وأشده شفقة عليهم ، وأحسنه نظرا لهم ، وأشده على عدوهم من الكفار ، فجزاه الله عنهم خيرا . ويزيد وعمرو في نصحهما وجدّهما ونظرهما للمسلمين وشفقتهما عليهم كما يحب عمر أن يكونا عليه وكما أحب .

قال : فأخبرني عن أخويك سعيد بن زيد ومعاذ بن جبل .

فقال : هما كما عهدت إلا أن يكون السن زادهما في الدنيا زهدا وفي الآخرة رغبة .

ثم قام يرفأ لينصرف ، فقال أبو عبيدة : سبحان الله ، انتظر نكتب معك .

من أبي عبيدة ومعاذ الى عمر

« بسم الله الرحمن الرحيم .

من أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب .

سلام عليكم ، فإنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد .

فإنا عهدناك وأمر نفسك لك مهم، وإنك يا عمر أصبحت وقد وليت أمر أمة محمد أحمرها وأسودها ، يقعد بين يديك العدو والصديق ، والشريف والوضيع ، والشديد والضعيف ، ولكل عليك حق وحصة من العدل ، فانظر كيف تكون يا عمر .

وإنا نذكرك يوما تبلى فيه السرائر وتكشف فيه العورات وتظهر فيه المخبآت ، وتعنو فيه الوجوه لملك قاهر قهرهم بجبروته والناس له داخرون ، ينتظرون قضاءه ويخافون عقابه ويرجون رحمته ، وإنه بلغنا أنه يكون في هذه الأمة رجال إخوان العلانية أعداء السريرة ، وإنا نعوذ بالله من ذلك ، فلا ينزل كتابنا من قلبك بغير المنزلة التي أنزلناها من أنفسنا والسلام عليك ورحمة الله » .

ومضى يرفأ بالكتاب إلى عمر .

قال أبو عبيدة لمعاذ : والله ما أمرنا عمر أن نظهر وفاة أبي بكر رضي الله عنه للناس وأن ننعاه إليهم ، وما أريد أن أذكر من ذلك شيئا دون أن يكون هو يذكره .

قال معاذ : إنك نعم ما رأيت .

وسكتا فلم يذكرا للمسلمين بالشام شيئا . ولبثا مقدار أن بلغ يرفأ المدينة ثم بعث إليهما عمر جواب كتابهما إليه ، وبعهده إلى أبي عبيدة بتولي أمر الشام . وبعث بالكتابين مع شداد بن أوس بن ثابت ، ابن أخي حسان بن ثابت الأنصاري

من عمر الى أبي عبيدة ومعاذ

« بسم الله الرحمن الرحيم ،

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل .

سلام الله عليكما . فإني أحمد إليكما الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد .

فإني أوصيكما بتقوى الله فإنه رضاء ربكما وحظ أنفسكما وغنيمة الأكياس لأنفسهم عند تفريط العجزة . وقد بلغني كتابكما تذكران أنكما عهدتماني وأمر نفسي لي مهم ، فما يدريكما ؟ وهذه تزكية منكما لي . وتذكران أني وليت أمر هذه الأمة يقعد بين يدي الشريف والوضيع والعدو والصديق والقوي والضعيف ، ولكل حصته من العدل ، وتسألانني كيف أنا عند ذلك ، وإنه لا حول ولا قوة إلا بالله .

« وكتبتما تخوفاني يوما هو آت ، وذلك باختلاف الليل والنهار فإنهما يبليان كل جديد ويقربان كل بعيد ويأتيان بكل موعود حتى يأتيا بيوم القيامة ، يوم تبلى السرائر وتكشف العورات وتعنو فيه الوجوه لعزة ملك قهرهم بجبروته فالناس له داخرون ، يخافون عقابه وينتظرون قضاءه ويرجون رحمته .

« وذكرتما أنه بلغكما أنه يكون في هذه الأمة رجال يكونون إخوان العلانية أعداء السريرة ، فليس هذا بزمان ذلك ، فإن ذلك يكون في آخر الزمان إذا كانت الرغبة والرهبة رغبة الناس ورهبتهم ، بعضهم إلى بعض .

« والله عز وجل ولاني أمركم وإني أسأل الله أن يعينني عليه وأن يحرسني عنه كما حرسني عن غيره ، وإني امرؤ مسلم وعبد ضعيف إلا ما أعان الله عز وجل ، ولن يغير الذي وليت من خلافتكم من خلقي شيئا إن شاء الله ، وإنما العظة لله عز وجل وليس للعباد منها شيء ، فلا يقولن أحد منكم إن عمر قد تغير منذ ولي ، وإني أعقل الحق من نفسي وأتقدم وأبين لكم أمري ، فأيما رجل كانت له حاجة أو ظلم مظلمة أو عتب علينا في خلق فليؤذني ، فإنما أنا رجل منكم ليس بيني وبين أحد

من المسلمين هوادة ، وأنا حبيب إليّ صلاحكم عزيز عليّ عتبكم ، وأنا مسئول عن أمانتي وما أنا فيه ومطلع على ما يضيرني بنفسي إن شاء الله ، لا أكله إلى أحد ولا أستطيع ما بعد ذلك إلا بالأمناء وأهل النصح منكم للعامة ، ولست أجعل أمانتي إلى أحد سواهم إن شاء الله .

« وما سلطان الدنيا وإمارتها ؟! فإن كل ما تريان يصير إلى زوال ، وإنما نحن إخوان ، فأينا أمّ أخاه أو كان عليه أميرا لم يضره ذلك في دينه ولا في دنياه ، بل لعل الوالي أن يكون أقربهما إلى الفتنة وأوقعهما بالخطيئة إلا من عصم الله وقليل ما هم » . أ . هـ .

عزل خالد

متى وأين جاء عزل خالد بن الوليد عن إمارة الأمراء بالشام ؟

سؤال هام من الناحية التاريخية ... اختلف الرواة بشأنه تبعا لاختلافهم في مسائل أخرى . فلقد كان خالد بن الوليد هو القائد العام من قبل أبي بكر ، فلما توفي أبو بكر وتولى عمر الخلافة عزل خالد بن الوليد عن ولاية فتح الشام وجعل أبا عبيدة عامر بن الجراح بدلا منه .

ـ قال المدائني(١) : كانوا بالياقوصة يقاتلون عدوهم من الروم وذلك في رجب .

ـ وذهب ابن اسحق(٢) أن فحلا كانت في ذي القعدة ١٣ هـ ثم سار المسلمون إلى دمشق فحاصروها حتى فتحت ، وأن كتاب عمر بعزل خالد قد جاء إلى أبي عبيدة وهم محاصرو دمشق فاستحيا أن يقرىء خالدا الكتاب حتى تم فتح

---

(١) الطبري ٣/٤٣٤ حدثني عمر عن علي بن محمد بإسناده عن النفر الذين ذكرت روايتهم عنهم .
(٢) الطبري ٣/٤٣٥ حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن ابن اسحق .
ابن عساكر ١/٤٩٥ عن محمد بن اسحق .

دمشق في رجب ١٤ هـ فأظهر إمرته وعزل خالد وشتا بدمشق . وأضاف ابن اسحق(١) أن عمر كان ساخطا على خالد كارها لأمره في زمان أبي بكر كله فلما استخلف كان أول ما تكلم به عزل خالد وقال : لا يلي لي عملا أبدا .

ـ وقال سيف(٢) بن عمر أن البريد قدم من المدينة بموت أبي بكر وتأمير أبي عبيدة وهم باليرموك وقد التحم القتال بينهم وبين الروم .

ـ وقال الأزدي(٣) أن أبا بكر توفي وولي عمر فعزل خالد بن الوليد عن الشام واستعمل أبا عبيدة . وكذلك قال خليفة بن خياط .

فالمدائني وسيف يجعلان عزل خالد باليرموك تبعا لترتيبهما لوقائع فتح الشام من أن اليرموك كانت قبل فتح دمشق . أما وقد فرغنا من أمر ترتيب الأحداث على غير ذلك واطمأن بنا البحث إلى ما انتهينا إليه من مواضعه في هذا الكتاب فإن المنطق يقتضي أن يكون العزل على أثر وفاة أبي بكر واستخلاف عمر كما ذهب المدائني وسيف أيضاً ـ ولكن في الموقع الذي استصوبناه طبقاً لروايات غيرهما .

ولقد أصاب ابن اسحق حيث وضع هذا العزل أثناء حصار دمشق ، ولكننا نصحح من روايته بأن نجعل ذلك العزل قد حدث أثناء الحصار الذي لم يتم فتح دمشق فيه . ولسنا نشك في أن الأمر قد التبس على ابن اسحق أو رواته ، فإن الأخذ بروايته على علاتها يقتضي أن خالدا ـ والمسلمون معه ـ قد جهلوا وفاة أبي بكر رضي الله عنه منذ كان في ٢١ جمادي الآخرة ١٣ هـ حتى تم فتح دمشق في ١٥ رجب ١٤ هـ ... سنة كاملة أو يزيد يجهل خالد بن الوليد وثلاثون ألفا من المسلمين معه خبر وفاة خليفتهم .. وخالد يزاول قيادته ، والبريد يروح ويجيء بين عمر

---

(١) الطبري ٣/٤٣٦ عن ابن اسحق
(٢) الطبري ٣/٤٣٥ س ش س عن أبي عثمان عن خالد وعبادة .
(٣) الأزدي ٩٨ حدثني يزيد بن يزيد بن جابر عن أبي أمامة .
تاريخ خليفة بن خياط ١/١٠٦ عن علي وموسى عن حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن ابيه .

بالمدينة وبين أبي عبيدة في الشام ، دون أن يفطن أحد من الجيش ولا خالد نفسه ولا الخليفة عمر أن أمره لم ينفذ !! هذا ما لا نعقله أبدا . فإن قيل لعل عمر قد ترك خالد ا أميرا حتى قبيل فتح دمشق ، أجبنا بأن أحدا من الرواة لم يقل بذلك ولو أنه كان لاقتضى مراسلات مذكورة بين الخليفة عمر والقائد خالد وهو ما لا ذكر له ولا أثر عنه في أي مصدر .

بناء على ما تقدم وتأسيسا على ما انتهينا إليه من ترتيب أحداث عملية فتح الشام وطبقا للدراسة والأدلة التي أوردناها في مواضعها فقد انتهينا إلى أن تسلسل الوقائع كان كالآتي :

١ ـ ٢٧ جمادي الاولى ١٣ هـ ـ ٦٣٤/٧/٣٠ ـ معركة أجنادين .

ثم توجه المسلمون لحصار دمشق والقيادة لخالد .

٢ ـ ١٧ جمادي الآخرة ١٣ هـ ـ ٦٣٤/٨/١٨ ـ معركة مرج الصُفَّر .

٣ ـ ٢١ جمادي الآخرة ١٣ هـ ـ ٦٣٤/٨/٢٣ ـ وفاة أبي بكر .

٤ ـ ٢٨ ذي القعدة ١٣ هـ ـ ٦٣٥/١/٢٣ ـ معركة فحل ـ بيسان .

والقيادة لأبي عبيدة وكان خالد على المقدمة .

٥ ـ حوالي ١٥ ربيع الاول ١٤ هـ ـ ٨ مايو آيار ٦٣٥ ـ العودة إلى حصار دمشق .

٦ ـ ١٥ رجب ١٤ هـ ـ ٣ سبتمبر أيلول ٦٣٥ فتح دمشق .

وعلى ذلك نضع تاريخ عزل خالد بن الوليد عن إمارة فتح الشام بين الحدثين رقمي ٣ و ٤ ونقدر أن عمر كتب إلى أبي عبيدة حوالي اليوم الخامس لوفاة أبي بكر بعد أن فرغ من تولية أبي عبيد بن مسعود الثقفي حرب العراق ، يعني كتب في حوالي ٢٦ جمادي الآخرة ١٣ هـ ٢٨ أغسطس ٦٣٤ م ، وعليه نذهب إلى أنه بلغ الشام في حوالي ٦ رجب ١٣ هـ ٥ سبتمبر أيلول ٦٣٤ م . وفي النص التالي للرسالة التي بعث بها عمر إلى أبي عبيدة ما يحملنا على أن نذهب إلى أن عمر قد علم من

يرفأ أن أبا عبيدة قد تباطأ في تنفيذ عزل خالد وأنه لم ينفذ الأمر حتى خرج يرفأ من عنده راجعا إلى المدينة فعاد يكتب إليه ألا يستحي من إنفاذ أمره .

« بسم الله الرحمن الرحيم .

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة عامر[1] بن الجراح .

سلام عليك ، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو ، وأصلي على نبيه محمد ﷺ وبعد .

فقد وليتك أمور المسلمين فلا تستحي فإن الله لا يستحي من الحق . وإني أوصيك بتقوى الله الذي أخرجك من الكفر إلى الايمان ومن الضلال إلى الهدى . وقد استعملتك على جند خالد فاقبض جنده واعزله عن إمارته . ولا تنفذ المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تنفذ سرية إلى جمع كثير . وغض عن الدنيا عينيك وألْهِ عنها قلبك ، وإياك أن تهلك كما هلك من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم وخبرت سرائرهم ، وإن بينك وبين الآخرة ستر الخمار ، وكأني بك منتظر سفرا من دار قد مضت نضارتها وذهبت زهرتها وأحزم الناس من يكون زاده التقوى » .

عزل خالد وهو محمود محبب في المسلمين ، قد وليهم فأحسن الولاية عليهم وعظم بلاؤه وجزاؤه وغناؤه عنهم . وعلم خالد بأمر عزله فأقبل حتى دخل على أبي عبيدة فقال « يغفر الله لك ، أتاك كتاب أمير المؤمنين بالولاية فلم تعلمني وأنت تصلي خلفي والسلطان سلطانك ؟! » فقال أبو عبيدة « وأنت يغفر الله لك ، ما كنت لأعلمك ذلك حتى تعلمه من عند غيري ، وما كنت لأكسر عليك حربك حتى ينقضي ذلك كله ثم قد كنت أُعلمك إن شاء الله . وما سلطان الدنيا أريد وما للدنيا أعمل ، وإن ما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع ، وإنما نحن إخوان وقوّام بأمر الله عز وجل ، وما يضر الرجل أن يلي عليه أخوه في دينه ولا دنياه . بل يعلم الوالي أنه

(1) الأزدي ١٠٢ حدثني يزيد بن يزيد بن جابر عن أبي أمامة .

يكاد أن يكون أدناها إلى الفتنة وأوقعها في الخطيئة لما يعرض من الهلكة إلا من عصم الله عز وجل وقليل ما هم ». ودفع ابو عبيدة كتاب عمر[1] إلى خالد. وتقديرنا أن ذلك كان في حوالي ٢٦ رجب ١٣ هـ ٢٥ سبتمبر ٦٣٤ م. قال خالد[2] « الحمد لله الذي قضى على أبي بكر بالموت وكان أحب إليّ من عمر والحمد لله الذي ولىّ عمر وكان أبغض إليّ من أبي بكر ثم ألزمني حبه ».

أما عن السبب في عزل خالد فقد تناولناه[3] سابقا بما يغنينا عن إعادة ذكره هنا.

الميدان الشرقي

المعارك دائرة في الشام والحرب هناك في العراق. وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يجمع القبائل من أنحاء شبه الجزيرة ليوجهها إلى ميادين القتال. في ٢٣ شعبان ١٣ هـ ٢٢ اكتوبر تشرين الأول ٦٣٤ وقعت معركة الجسر بالعراق، قتل ٤٠٠٠ شهيد من المسلمين واستشهد قائدهم أبو عبيد بن مسعود الثقفي وتبدد شمل ٤٠٠٠ آخرين وانسحب المثنى بن حارثة بأربعة آلاف آخر مثخنين بالجراح، وهي المعركة الوحيدة التي خسرها المسلمون على أرض العراق. وخلال شهر رمضان ١٣ هـ نوفمبر تشرين ثان ٦٣٤ استطاع المثني بن حارثة أن يثأر لهزيمة يوم الجسر فأحرز نصرا باهرا على الفرس في معركة البويب. بين هذين اليومين تم جمع قبيلة بجيلة واجتمع عمر بهم فسألهم « أي الوجوه أحب إليكم ؟ »

(١) ذكر ابن عساكر ٥١٢/١ بعد أن أورد نص الكتاب الاول من عمر إلى أبي عبيدة أنه دفع ذلك الكتاب إلى خالد بعد فتح دمشق بنحو من عشرين ليلة. والذي أخذنا به أن دمشق لم تفتح في ذلك الحصار وإنما تأخر فتحها حتى شهر رجب ١٤ هـ وعليه وجب الفصل والمباعدة تاريخيا بين فتح دمشق وبين عزل خالد. ولكننا نجد عشرين يوماً مدة مناسبة لذهاب رسالة أبي عبيدة إلى المدينة وعودة الجواب عليها وهو ما أخذنا به هنا.

(٢) الطبري ٤٠٢/٣ س ش س عن المستنير بن يزيد عن أرطاة بن جهيش.

(٣) الطريق الى المدائن ٣٥٩ ـ ٣٦٢.

قالوا: الشام أسلافنا بها.

قال عمر: بل العراق فإن أهل الشام قد قووا على عدوهم وإن الشام في كفاية ».

ولم يزل بهم وهم يأبون عليه حتى أكرههم على ما أراد وعوضهم عن إكراههم واسترضاء لهم بربع خمس ما أفاء الله عليهم[1].

وقدم سبعمائة من كنانة والأزد فسألهم عمر « أي الوجوه أحب إليكم ؟! »

قالوا: الشام، أسلافنا أسلافنا.

قال عمر: ذلك قد كفيتموه. العراق العراق ... ذروا بلدة قد قلل الله شوكتها وعددها واستقبلوا جهاد قوم قد حووا فنون العيش، لعل الله أن يورثكم بقسطكم من ذلك فتعيشوا مع من عاش من الناس ».

وبعثهم إلى العراق[2].

توجيه الجنود في هذه المرحلة إلى العراق يعني اطمئنان عمر الى ما كان يجري على أرض الشام ويعكس ما كان في نفسه تجاه أحداث العراق، ومن مثل الخليفة عمر يستطيع أن يضعنا اليوم في تلك الصورة المقارنة بين الوضع في الميدان الشرقي بالعراق والميدان الغربي بالشام.

بعلبك

وجاء جيش للروم من أنطاكية مددا لأهل دمشق[3] حتى قدموا بعلبك، فأتاهم الخبر بهزيمة من سبقهم في مرج[2] الصفر وكبر عليهم ذلك وأعظموه، فأقاموا

(١) الطريق إلى المدائن ٤١٩ عن الطبري ٧٠/٤ س ش س عن محمد بن نويرة وطلحة بن الأعلم وزياد وعطية. وعن أسد الغابة ٧٣٠. وعن فتوح البلدان ٦٢٨ عن أبي مخنف وغيره.

(٢) الطريق الى المدائن ٤٢١ عن الطبرى ٧٢/٤ ـ ٧٣ س ش س عن عطية والمجالد بإسنادهما.

(٣) الازدي ١٠٥ وحدثني عمرو بن مالك القيني عن أدهم بن محرز عن أبيه محرز بن أسد الباهلي.

(٤) في الأصل « اتاهم الخبر أن دمشق افتتحت وصالح أهلها ».

في بعلبك وكتبوا إلى هرقل وكان عليهم درنجاران [قائدان] كل درنجار على خمسة آلاف . فكانوا جميعا عشرة آلاف . لقد كانت هزيمة مرج الصفر لقوة تزيد عن العشرة آلاف ، وإن هم ساروا إلى دمشق فإن أغلب الظن أن يلقوا نفس المصير ، فليقيموا في بعلبك حتى يرى هرقل رأيه .

وفي رواية الأزدي أن أبا عبيدة أمر عمرو بن العاص بأن يسير إلى ارض الاردن وفلسطين فيكون بينها وأن يغير على أطراف الرساتيق [القرى] بالخيل ويصالح من يصالح ونهاه عن أن يقدم على المدن والحصون والجموع ، وأن عمرو بن العاص قد خرج من نواحي دمشق حتى بلغ ارض الاردن وفلسطين فأقام على أهلها القيامة وضيق عليهم أشد التضييق فرعب الروم وأشفقوا على مدائنهم أن تسقط في أيدي المسلمين فاجتمع من كان بها من الروم ونزلوا من حصونهم وانضم إليهم كثير من الأهالي ومن نصارى العرب فكثر جمعهم ، وكتبوا إلى هرقل وهو بأنطاكية يطلبون منه المدد ، فبعث إلى ذلك الجيش العشرة آلاف الذين ببعلبك أن يسيروا إليهم .

هذه الرواية أقيمت أساسا على أن دمشق فتحت قبل معركة فحل ، وتضيف إلى ما ذكرنا أن عمرو بن العاص كتب إلى أبي عبيدة .

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإن الروم قد اعظمت فتح دمشق واجتمعوا من نواحي الاردن وفلسطين فتكاتبوا وتواثقوا وتعاقدوا ألا يرجعوا إلى النساء والأولاد حتى يخرجوا العرب من بلادهم ، والله مكذب قولهم وأملهم ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . فاكتب إليّ برأيك في هذا الحدث ، أرشد الله أمرك وسددك وأدام رشدك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

والذي نرجحه أخذا بأن دمشق لم يتم فتحها أنه كان شرحبيل بن حسنة وليس عمرو بن العاص . نفتقد رواية بهذا ، ولكنه الذي يستقيم به الأخذ بروايات جمهور الرواة ، فإن شرحبيل لم يرد له أي ذكر حول دمشق ، في حين أفادت الأخبار

وقوف عمرو أمام أحد أبوابها .

فلما قرأ أبو عبيدة الخطاب ألقاه إلى خالد وقال « قد حدث أمر غير ما كنا فيه » . وسأل أبو عبيدة خالدا رأيه فأجاب بأن رأيه مراقبة الجيش الذي نزل بعلبك ، فإن هم خرجوا وساروا إلى قوات المسلمين بالجنوب سار المسلمون من قطاع دمشق إليهم للقائهم بجيوش المسلمين وجماعتهم ، أما إن أقاموا في بعلبك فقد أشار على أبي عبيدة أن يرسل إليهم من يقاتلهم مع إقامة جيوش المسلمين مكانها وارسال مدد إلى جيش المسلمين في فلسطين والاردن . قال أبو عبيدة « نعم ما رأيت » وأرسل مددا من ٢٨٠٠ رجل إلى جيش المسلمين بفلسطين الذي كان ٢٥٠٠ فصاروا جميعا ٥٣٠٠ عليهم شرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص وجعل قيادتهم إلى عمرو .

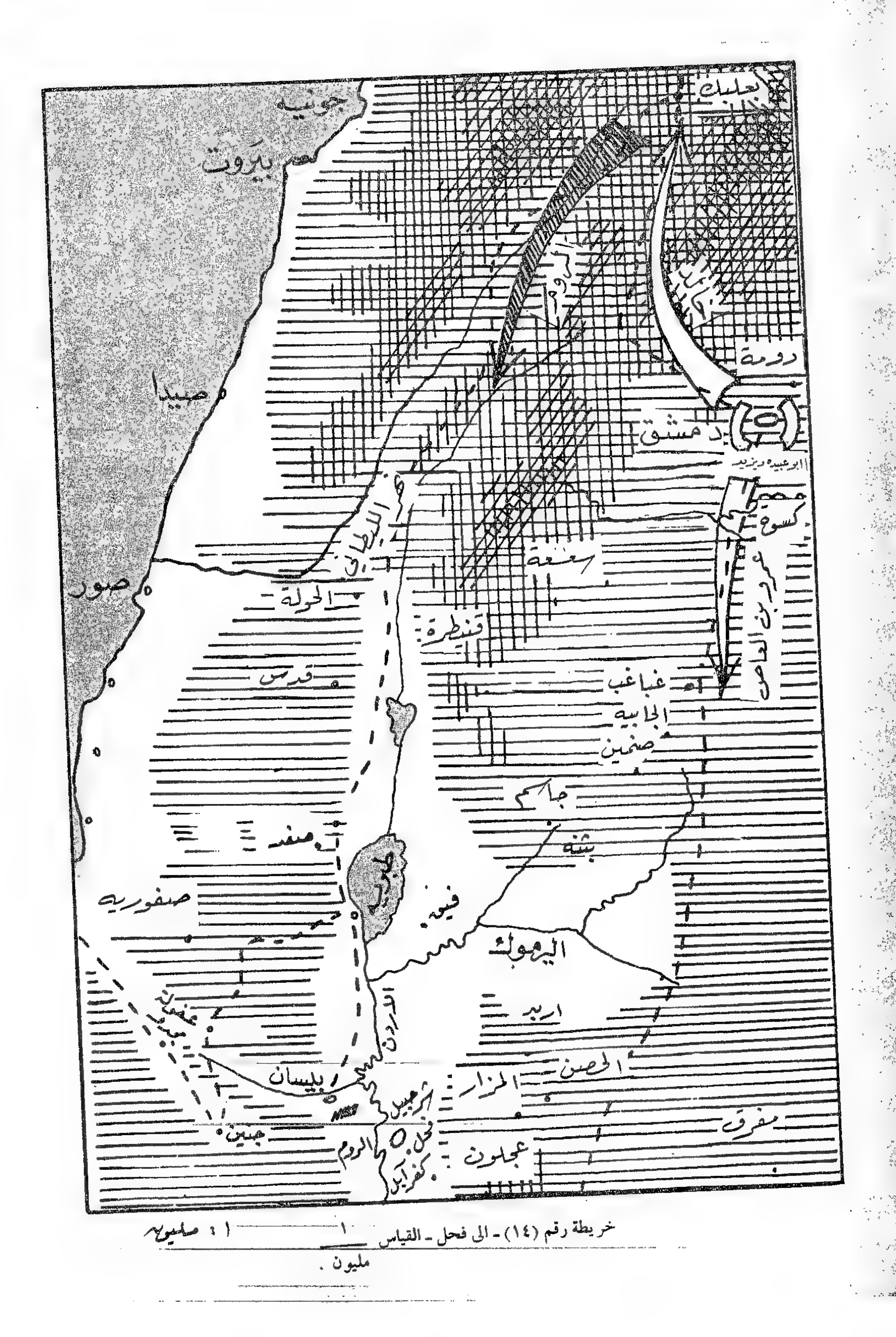
وقال أبوعبيدة لخالد « ما لهذا الجيش النازل ببعلبك إلا أنا أو أنت أو يزيد » . قال خالد « لا بل أنا أسير إليهم » . قال ابو عبيدة « أنت لها » . وبعثه أبو عبيدة في خمسة آلاف فارس وخرج معه يشيعه فسار معه قليلا .

قال له خالد « ارجع رحمك الله إلى عسكرك » .

فقال ابو عبيدة « يا خالد إني اوصيك بتقوى الله . وإذا أنت لقيت القوم فلا تناظرهم [تؤجلهم] ولا تطاولهم في حصونهم ، ولا تذرهم [تتركهم] يأكلون ويشربون وينتظرون أن تأتيهم أمدادهم . فإذا لقيتهم فقاتلهم ، فإنك إن هزمتهم انقطع رجاؤهم وسقط في خلدهم وساء ظنهم ، وإن احتجت إلى مدد فأعلمني حتى يأتيك من المدد حاجتك ، وإن احتجت أن آتيك بنفسي أتيتك إن شاء الله » .

ثم أخذ بيده وودعه وسلم عليه وانصرف وسار خالد إلى بعلبك على مسافة ٨٠ كيلومترا .

كانت جيوش المسلمين بالشام ٣٣٠٠٠ استشهد منهم ٥٠٠ بمرج الصفر ولا بد أن يكون قد استشهد عدد آخر في الاشتباكات الأخرى لم يذكره أي مصدر



خريطة رقم (١٤) - الى فحل - القياس ١ : مليون .

ونقدره بأنه نحو من ذلك وعلى ذلك يكون عددهم قد صار ٣٢٠٠٠ بيانهم الآن كالآتي :

٥٣٠٠ في فلسطين عليهم عمرو وشرحبيل .

٥٠٠٠ إلى بعلبك عليهم خالد جميعهم من الفرسان .

٢١٧٠٠ حول دمشق عليهم أبو عبيدة ومعه يزيد .

وبعث هرقل جوابه على رسالة جيش بعلبك إليه يأمرهم باللحاق بأولئك الذين اجتمعوا في بيسان ، وسار ذلك الجيش امتثالا لأمر هرقل وقد حشدوا معهم كثيرا من أهل بعلبك ممن هم على دينهم وانضم إليهم كثير من أهل حمص غضباً لبني دينهم وشفقة أن تفتح مدائنهم الواحدة تلو الأخرى .

موقعة فحل بيسان

الاثنين ٢٨ من ذي القعدة ١٣ هـ .
٢٣ يناير ٦٣٥ م .

كانوا اكثر من ٢٠٠٠٠ ساروا من بعلبك إلى بيسان . وأقبل خالد حتى انتهى إلى[1] بعلبك فلم يجد ذلك الجيش ، وأخبروه أنهم توجهوا إلى عمرو والمسلمين بالأردن . كيف لم يعلم خالد بسير جيش الروم من بعلبك حتى بلغها هذه المرة ، وهو الذي اعتدنا أن يعرف أخبارهم بمخابراته التي نظمها جيدا والتي كان اكثر اعتماده فيها إن لم يكن كله على من يدسهم أو يشتريهم من بين العرب الموالين للروم ؟ لعلنا نجد الجواب في نظرة إلى الخريطة ... لقد سار الروم على الطرق الداخلية ، فإن موقع بعلبك في البقاع بين سلسلتي جبال لبنان يجعل انتقال الأخبار أمرا صعبا ، فإن الطريق إلى وادي نهر الأردن تستره الجبال الشاهقة ولا يتيسر أن يبلغ أي مراقب لذلك الطريق إلى خالد إلا بعد مرور الوقت الكافي لابتعاده ، لذلك أغار خالد على نواحي بعلبك فقتل مَن أدرك من الرجال وسبى من وجد من الذرية واستاق معه من الأغنام والبقر والمتاع شيئا كثيرا ، وأقبل راجعا إلى أبي عبيدة أمام دمشق فأخبره الخبر وتشاوروا في الأمر فأجمع رأي المسلمين أن يسير أبو عبيدة بجموع المسلمين إلى ذلك التجمع للروم .

وأمر أبو عبيدة خالدا فتقدم في ١٥٠٠ من الفرسان كمقدمة أمامه وأمره أن

(١) من دمشق إلى بعلبك يومان [معجم البلدان ٤٦٩/٢] وكان معروفا عن خالد أنه يستطيع أن يضاعف سرعته بحيث نفترض أنه بلغها في يوم .

يسرع إلى عمرو وأصحابه ليشد ظهورهم وليعلم الروم أن مدد المسلمين قد أتوهم . وجد خالد في آثار الروم فلحق آخرهم وقد دخل أوائلهم عسكرهم ، فحمل على أخرياتهم وقتل منهم كثيرين وأصاب أنفالا كثيرة من أنفالهم وأفلت من أفلت منهم فارين منهزمين حتى دخلوا عسكرهم .

وأقبل خالد حتى نزل في فرسانه قريبا من عمرو وفرح المسلمون بقدومهم عليهم ، فكانوا معسكرين ، عمرو يصلي بأصحابه الذين كانوا معه وخالد يصلي بفرسانه التي أقبل فيها .

حتى نتصور ذلك لا بد أن يكون خالد قد عبر نهر الاردن إلى ضفته الغربية جنوبي بحيرة طبرية حيث لحق أخريات جيش الروم القادم من بعلبك وهو يقترب من بيسان ، ثم عاد وعبر نهر الاردن إلى ضفته الشرقية جنوبي نهر اليرموك لينضم إلى معسكري شرحبيل وعمرو.

فحل ــ بيسان

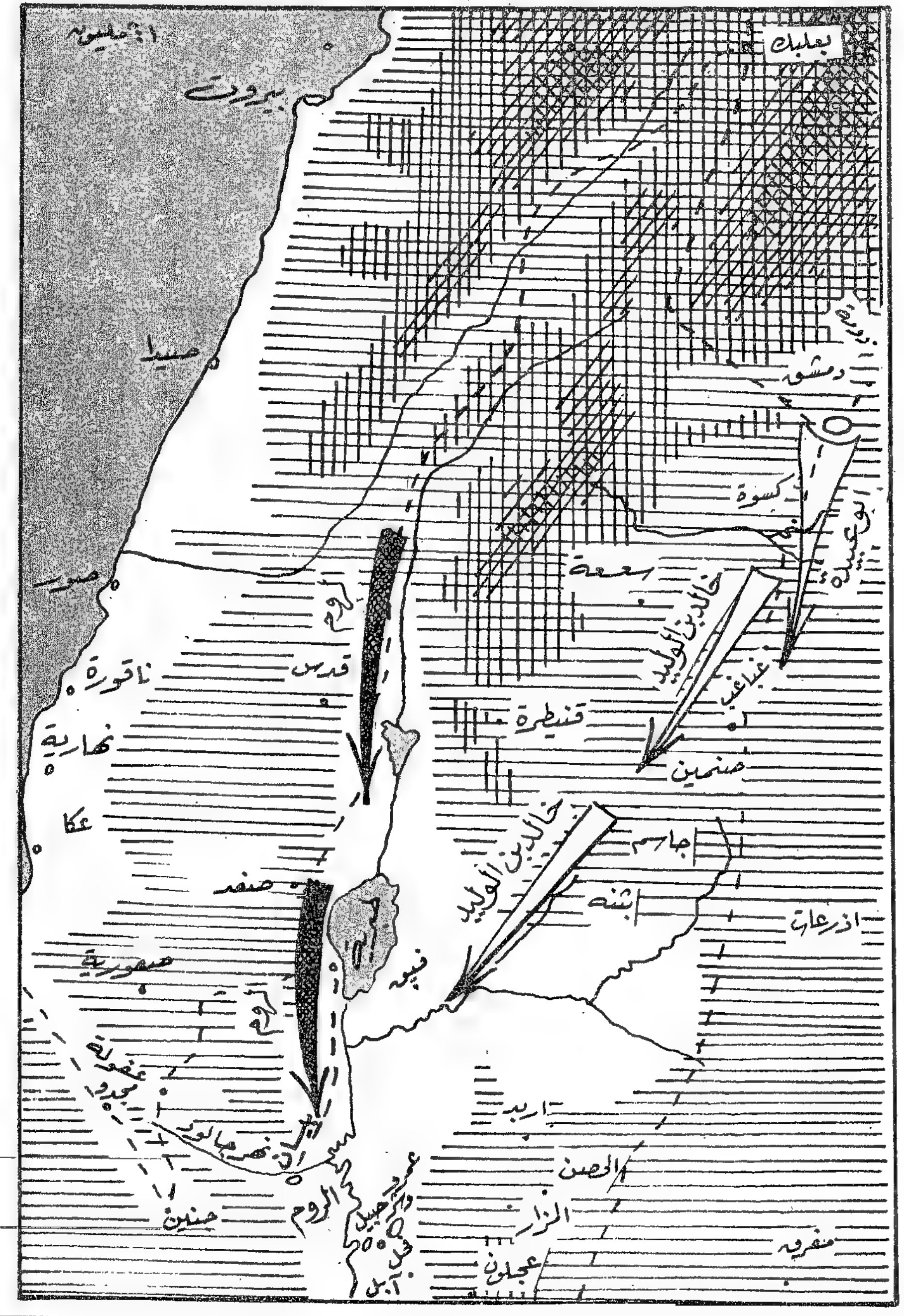
الاثنين ٢٨ من ذي القعدة ١٣ هـ ٢٣ يناير ٦٣٥ .

كانت فحل تعرف عند الروم باسم بِلاّ[١] Pella وهي اليوم أطلال تقع إلى الشرق من نهر الأردن بين نهر الزرقا جنوبا ونهر اليرموك شمالا ، وبين آبل إلى جنوبها الشرقي وبيسان إلى شمالها الغربي عبر نهر الأردن . وقد ذكرها ابن خرداذبه من كور الأردن . أنشأها المكدونيون عام ٣١٠ ق م واستولى عليها السلوقيون عام ٢١٨ ق م ثم الرومان عام ٦٨ ق م . وهي هنا تشهد هذه المعركة الهامة بين المسلمين والجيش البيزنطي ضمن عمليات فتح الشام .

كانت القيادة[٢] لأبي عبيدة بن الجراح .

(١) المنجد ٥٢٠ .

(٢) هذا على أرجح الروايات عن الأزدي ١٣٠ قال حدثني أبو جهضم عن عبد الرحمن بن السليك عن عبد الله بن قرط الثمالي . =



خريطة رقم (١٥) ـ إلى فحل (٢) ـ المقياس ١/مليون .

وكان خالد بن الوليد[1] على المقدمة وكانت كلهامن الفرسان ، وعلى الميمنة معاذ بن جبل ، وعلى الميسرة هاشم بن عتبة وعلى المشاة سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل .

دفاع من الوحل

بقي يزيد بن أبي سفيان حول دمشق وتوافد المسلمون إلى فحل ، وجمع الروم قواتهم في بيسان . ورأت بطون من لخم وجذام وغسان وعاملة والقين وقبائل من قضاعة أن الأيام تقبل لهم المسلمين فانحازوا إليهم وكثر بهم عددهم ، في حين مكث نصارى فحل على ترددهم يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى ويراسلون المسلمين ويقولون « يا معشر المسلمين ، أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا . أنتم

= وهناك من قال ان القيادة كانت لشرحبيل بن حسنة ، ابن عساكر ٤٨٥/١ أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، انبا أبو الحسين احمد بن محمد بن النقور ، انبا أبو طاهر محمد بن عبد الرحمن بن العباس المخلص ، أنبا ابو بكر بن سيف ، ثنا السري بن يحيى ، نا شعيب بن ابراهيم ، نا سيف بن عمر عن ابي عثمان يزيد بن أسيد الغساني ، وأبي حارثة العتبي .

وكذا من قال أن القيادة كانت لعمرو بن العاص ، ابن عساكر ٤٨٢/١ أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الباقي الفرضي ، أنا أبو محمد الجوهري ، أنا ابو عمر بن حيوية ، أنا أبو الحسن بن معروف الخشاب ، نا الحسين بن الفهم ، نا محمد بن سعد ، أنا محمد بن عمر ـ الواقدي ـ حدثني سعيد بن راشد ، عن عطية بن قيس ، عن أبي العوام مؤذن بيت المقدس ، قال سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يحدث في بيت المقدس . كما قال : أخبرنا أبو علي الحسين بن علي بن الحسين بن أحمد بن أشليها المصري وابنه ابو الحسن علي، قالا : أنا أبو الفضل احمد بن علي بن الفرات ، أنبا أبو محمد بن أبي نصر ، أنا أبو القاسم بن أبي العقب ، أنا أبو عبد الملك احمد بن ابراهيم ، نا ابن عائذ ، نا محمد بن عمر ـ الواقدي ـ عن بقية رجال السند السابق .

ولكن ما دام أبو عبيدة قد شهدها ، ومن الثابت أن عمر قد ولاه حرب الشام كلها بعد عزل خالد بن الوليد فإن هذا يدعم رواية الازدي ، ولم يعد مجال لقول آخر .

(١) كان خالد على المقدمة بإجماع الروايات . وقد اختلف بعد ذلك حول قادة القطاعات ، وقد اعتمدنا رواية الأزدي التي أخذت بأن أبا عبيدة كان القائد العام . وذكر سيف بن عمر أن أبا عبيدة كان على الميمنة وعمرو بن العاص كان على الميسرة وعياض بن غنم على المشاة وضرار بن الأزور على الفرسان [الطبري ٤٤٢/٣ وابن عساكر ٤٨٥/١] ولو أننا رجحنا رواية الأزدي إلا أن ترجيح إحدى الروايتين لا يترتب عليه أي نتائج خلافية .

أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا ولكنهم قد غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا » . يريدون بذلك أن يتألفوا المسلمين دون أن يتخذوا موقفا . وكانوا يتربصون بالمسلمين وينتظرون ما يكون من أمر هرقل وقد بلغهم أنه بعث إلى أقاصي بلاده وإلى كل أركان ملكه ممن قرب أو بعد ممن هم على دينه فهم يهرعون إليه ويسقطون إلى بيسان في كل يوم ويزداد جمعهم مع من كان منهم مقيما بالبلد ومن تابعهم من نصارى العرب حتى صاروا بين الثلاثين والأربعين ألفا[1] . فأجابهم المسلمون « إن هذا ليس بنافع لكم عندنا ما لم تعتقدوا منا الذمة ، وأما إن ظهرنا عليكم كان لنا أن نقتلكم وأن نسبي ذراريكم وأن نستعبدكم . وإن اعتقدتم منا الذمة سلمتم من ذلك عندنا بالذمة وأقمنا لكم على الصلح » .

كان الروم في الجانب الخصب من الأردن ولم يكن المسلمون في مثل ما فيه الروم من الخصب والكفاية ، ولذلك لم يكن شيء أحب إلى المسلمين من معاجلتهم وكانت الروم ليس شيء أحب إليهم من مطاولة المسلمين رجاء أن يمدهم هرقل بمزيد من المدد، وكانوا يخافون أن يعاجلهم المسلمون فيقعون في شدة شديدة أو ينهزمون هزيمة قبيحة ، إذ ذاك بثق الروم جسور نهر جالود وفجروا مياهه في الساحة التي بينهم وبين جيوش المسلمين فوحلت الأرض وأردغت ـ وكانت أرضا[2] سَبْخَة ـ لذلك سميت بيسان ذات الردغة يعني الوحل الشديد . ووطن الروم أنفسهم على القتال وهم في كل يوم يزدادون عددا بما يأتيهم من القرى والرساتيق من المدد ومن كان على دينهم . جاء عن هذه القوات أنهم كانوا ثمانين[3] ألفا هم جُنَّة الروم وجيش الدفاع

(١) الازدي ١١١ وحدثني عمرو بن مالك القيني عن أدهم بن محرز عن أبيه محرز بن أسد [أو أسيد] الباهلي .

(٢) الطبري ٤٣٥/٣ حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن ابن اسحق .

(٣) الطبري ٤٣٨/٣ س ش س عن أبي عثمان عن خالد وعبادة .

الطبري ٤٣٨/٣ س ش س عن أبي عثمان يزيد بن أسيد الغساني وأبي حارثة العبشمي .

ابن عساكر ٤٨٥/١ أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، أنبا أبو الحسين أحمد بن محمد بن النقور ، أنبا أبو طاهر محمد بن عبد الرحمن بن العباس المخلص ، أنا ابو بكر بن سيف ، س ش س عن أبي عثمان يزيد بن أسيد الغساني ، وأبي حارثة العتبي [هو العبشمي] قالا .

وإليهم ينظرون والشام بعدهم سِلْم .

ومشى المسلمون إليهم حتى ساروا في الوحل ووضح لهم أن الاستمرار مستحيل . فأمرهم أبو عبيدة أن يغيروا على أهل القرى والرساتيق والزروع ، فلما فعلوا ذلك قطعوا عنهم المدد والتموين ، وهذا يعني أن غاراتهم شملت وادي نهر الأردن ومرج ابن عامر من وراء بيسان ووادي نهر جالود ، ولا يتأتى ذلك إلا أن تكون إغارات سريعة وخاطفة .

وأراد عرب الأردن أن يحموا أنفسهم فجاء زعيمهم ابن الجعيد إلى أبي عبيدة فصالحه على سواد الأردن وكتب له كتاب صلح .

مفاوضات

وخرج صفوان بن المعطل الخزاعي السُلَمِي ومعن بن يزيد بن الأخنس السلمي يوما في خيل من بني سليم وكانوا نحوا من مائة فأغاروا فغنموا غنائم كثيرة فلما انصرفوا بها عرضت لهم الروم فقاتلوهم قتالاً شديدا . كان الروم خمسة آلاف فارس يقودهم الدرنجار [القائد] وصبر لهم المسلمون واحتسبوا الله في قتالهم ، واستطاع الروم أن يغلبوهم على غنيمتهم وأن يستخلصوها من بين أيديهم . ثم جاء حابس بن سعد الطائي في نحو مائة من طيء فحمل عليهم فأزالهم عن صفوان ومعن ومن معهما غير بعيد ، ثم كروا عليه فردوه وأصحابه حتى ألحقوهم ببني سليم ثم انصرفوا وهم مسرورين يظنون أنهم ظافرين بما استرجعوا من غنيمة ولكنهم لم يقتلوا من المسلمين أحدا . فلما بلغوا إلى معسكرهم ورحالهم أرسلوا إلى أبي عبيدة يقولون :

« أخرج أنت ومن معك من أصحابك وأهل دينك من بلادنا التي تنبت الحنطة والشعير والفواكه والأعناب والثمار ، فلستم لها بأهل ، وارجعوا إلى بلادكم بلاد البؤس والشقاء وإلا أتيناكم فيما لا قبل لكم به ، ثم لم ننصرف عنكم وفيكم عين تطرف » .

وسألوا أبا عبيدة أن يبعث إليهم رجلا . وأجابه أبو عبيدة .

« أما قولكم اخرجوا من بلادنا ، فلستم لها ولما تنبت بأهل ، فلعمري ما كنا لنخرج منها وقد أذلكم الله بنا فيها وأورثناها ونزعها من أيديكم وصيرها لنا ، وإنما البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله ، والله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء . وأما قولكم في بلادنا أنها بلاد البؤس والشقاء فصدقتم ، وما نجهل ما قلتم . إنها لكذلك ، وقد أبدلنا الله بها بلاد العيش الرفيع والسعر الرخيص والأنهار الجارية والثمار الكثيرة ، فلا تحسبونا تاركيها ولا منصرفين عنها حتى نفنيكم ونخرجكم عنها . فأقيموا ، فوالله لا نجشمكم إن أنتم لم تأتونا أن نأتيكم ، وإن أنتم أقمتم لنا فلا نبرح حتى نبيد خضراكم ونستأصل شأفتكم إن شاء الله » .

وعاد الروم يرسلون إلى أبي عبيدة « أرسل إلينا من صلحائكم نسأله عما تريدون وما تسألون وما تدعون إليه ، ونخبره بذات أنفسنا وندعوكم إلى حظكم إن قبلتم » .

فأرسل إليهم معاذ بن جبل فجاءهم على فرس له . فلما دنا منهم نزل عن فرسه وأقبل إليهم يسحبه ، فقال الروم لأحد غلمانهم « انطلق إليه فامسك له فرسه » .

وجاء الغلام ليمسك الفرس فقال معاذ « أنا أمسك فرسي ، لا أريد أن يمسكه أحد غيري » .

ثم أقبل يمشي إليهم ، فإذا هم على فُرُش وبُسُط ووسائد في أبهة وفخامة تغشى الأبصار . فظل معاذ قائما ، وقال له رجل منهم « أعطني دابتك أمسكها لك وادن انت فاجلس مع هؤلاء الملوك في مجالسهم ، فإنه ليس كل أحد يقدر أن يجلس معهم وقد بلغهم صلاح وفضل عند من أنت منهم فهم يكرهون أن يكلموك جلوسا وأنت قائم ، فاجلس معهم » .

وكان بينهما ترجمان فقال له معاذ « إن نبينا ﷺ أمرنا ألا نقوم لأحد من خلق

الله ، ولا يكون قيامنا إلا لله في الصلاة والعبادة والرغبة إليه ، فليس قيامي هذا لكم ولكني قمت إعظاما للمشي على هذه البسط والجلوس على هذه النمارق التي استأثرتم بها على ضعفائكم وأصل ملتكم ، وإنما هي من زينة الدنيا وغرورها وقد زهّد الله في الدنيا وذمها ونهى عن البغي والسرف فيها ، فأنا جالس ها هنا على الارض وكلموني أنتم بحاجتكم من ثَمَّ ، وأقيموا الترجمان بيني وبينكم فليفهمني ما تقولون وليفهمكم ما أقول » .

وأمسك رضي الله عنه برأس فرسه وجلس على تراب الأرض عند طرف البساط . وكأنهم لم يفهموا ما قال فعادوا يقولون له

« لو دنوت فجلست معنا كان أكرم لك ، إن جلوسك مع هذه الملوك على هذه المجالس مكرمة لك ، وإن جلوسك على الارض منتحيا صنيع العبد بنفسه فلا نراك إلا قد أزريت بنفسك » .

وترجم له الترجمان ما قالوا ، فجثا معاذ على ركبتيه واستقبلهم بوجهه وقال للترجمان « قل لهم ، إن كانت هذه المكرمة التي يدعونني إليها استأثرتم بها على من هو مثلكم إنما هي للدنيا التي زهد الله فيها ، فهي عندكم مكرمة في الدنيا فهذه المكرمة لكم ولا حاجة لنا في شرف الدنيا ولا في فخرها ولا في شيء يباعدنا من ربنا . وإن زعمتم أن هذه المجالس والدنيا التي في أيدي عظمائكم فأنتم بها مستأثرون على ضعفائكم مكرمة لمن كانت في يديه منكم عند الله ، فهذا خطأ من قولكم وجَوْر من فعلكم ، وأنه لا يدرك ما عند الله بالخطأ ولا بخلاف ما جاءت به الأنبياء صلوات الله عليهم عن الله من الزهادة في الدنيا . وأما قولهم إن جلوسي على الأرض منتحيا صنيع العبد بنفسه؛ ألاَ فصنيع العبد بنفسه صنَعْتُ وأنا عبد من عبيد الله جلست على بساط الله ولا أستأثر بشيء من مال الله على إخواني من أولياء الله .. وأما قولكم أني أزريت من مجلس ، فإن كان ذلك فإنما هو عندكم وليس ذلك عند الله كذلك . فلست أبالي كيف كانت منزلتي عندكم إذا كانت عند الله على غير

ذلك . وإن قلتم إنما دخل على ذلك عباد الله فقد أخطأتم خطأ بيّناً لأن أحب عباد الله إليه المتواضعون لله القريبون من عباد الله الذين لا يشغلون أنفسهم بالدنيا ولا يدعون التماس نصيبهم من الآخرة » .

فنظر بعضهم إلى بعض وتعجبوا مما سمعوا منه وسألوه « هل أنت أفضل أصحابك ؟ »

فقال معاذ « عند الله معاذ الله أن أقول ذلك ، وليتني لا أكون شرهم . » فراحوا يتكلمون فيما بينهم وسكتوا عنه ساعة لا يكلمونه . فقال لترجمانهم « قل لهم إن كانت لهم حاجة في كلامي وإلا انصرفت عنهم » فلما ترجمها لهم أقبلوا عليه فقالوا « اخبرونا ما تطلبون وإلى ما تدعون إليه ؟ وما أدخلكم بلادنا وتركتم أرض الحبشة وليسوا منكم ببعيد ، وتركتم أرض فارس وقد هلك ملك فارس وهلك ابنه وإنما تملكهم اليوم النساء[١] ونحن ملكنا حيّ وجنودنا عظيمة كثيرة ، وإن افتتحتم من مدائننا مدينة أو من قرانا قرية أو من حصوننا حصنا أو هزمتم لنا عسكراً أظننتم انكم قد ظفرتم بجماعتنا وأنكم قد قطعتم حربنا عنكم أو فرغتم مما وراءنا منا ونحن عدد نجوم السماء وحصى الأرض ؟ وأخبرونا ، لم تستحلون قتالنا وأنتم تؤمنون بنبينا وكتابنا ؟ ! »

قال معاذ للترجمان « قد فرغوا ؟ » قال « نعم » .

قال « فأفهمهم عني أن أول ما أنا ذاكر حمد الله الذي لا إله إلا هو ، والصلاة على محمد نبيه ﷺ ، وأن أول ما أدعوكم إلى الله أن تؤمنوا بالله وحده وبمحمد ﷺ وأن تصلوا صلاتنا وتستقبلوا قبلتنا وأن تستنوا بسنة نبينا ﷺ ، وتكسروا الصليب وتجتنبوا شرب الخمر وأكل لحم الخنزير ، ثم أنتم منا ونحن منكم ، وأنتم إخواننا في ديننا لكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وإن أبيتم فأدوا الجزية إلينا في

(١) كانت تملك فارس حينذاك بوران بنت كسرى برويز وقد فوضت رستم بن فرخذاذ وفيرزان في إدارة شئون الدولة .

كل عام وأنتم صاغرون ونكف عنكم . وإن أنتم أبيتم هاتين الخصلتين فليس شيء مما خلق الله عز وجل نحن قابلوه منكم ، فابرزوا إلينا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . فهذا ما نأمركم به وما ندعوكم إليه .

« وأما قولكم ما أدخلكم بلادنا وتركتم أرض الحبشة وليسوا منكم ببعيد ، وتركتم أرض فارس وقد هلك ملكهم ، فإني أخبركم عن ذلك . ما بدأنا بقتالكم إلا أنكم أقرب إلينا منهم ، وأنكم عندنا جميعا بالسواء ، وما جاءنا كتابنا بالكف عنهم ، ولكن الله عز وجل أنزل في كتابه على نبينا ﷺ فقال « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة » وكنتم أقرب إلينا منهم ، فبدأنا بكم لذلك ، وقد أتاهم طائفة منا وهم يقاتلونهم وأرجو أن يظفرهم الله ويفتح عليهم وينصرهم .

« وأما قولكم إن ملكنا حي وان جنودنا عظيمة وانا عدد نجوم السماء وحصى الأرض ، وتؤيسوننا من الظهور عليكم فإن الأمر في ذلك ليس إليكم وإنما الأمور كلها إلى الله وكل شيء في قبضته ، فإذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، وإن يكن ملككم هرقل فإن ملكنا الله عز وجل الذي خلقنا . وأميرنا رجل منا ، إن عمل فينا بكتاب ديننا وسنة نبينا ﷺ أقررناه علينا وإن عمل بغير ذلك عزلناه عنا وإن هو سرق قطعنا يده وإن زنا جلدناه وإن شتم رجلا منا شتمه كما شتمه ، وإن جرحه أقاده من نفسه ، ولا يحتجب منا ولا يتكبر علينا ولا يستأثر علينا في فيئنا الذي أفاء الله علينا وهو كرجل منا .

«وأما قولكم جنودنا كثيرة فإنها ان عظمت وكثرت حتى تكون أكثر من نجوم السماء وحصى الأرض ، فإنا لا نثق بها ولا نتكل عليها ولا نرجو النصر على عدونا بها ، ولكنا نتبرأ من الحول والقوة ، ونتوكل على الله عز وجل ونثق بربنا ، فكم من فئة قليلة قد أعزها الله ونصرها وأغناها وغلبت فئة كثيرة بإذن الله ، وكم من فئة كثيرة قد أذلها الله وأهانها ، وقال تبارك وتعالى « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة

بإذن الله والله مع الصابرين » .

« وأما قولكم كيف تستحلون قتالنا وأنتم تؤمنون بنبينا وكتابنا فأنا أخبركم عن ذلك . نحن نؤمن بنبيكم ونشهد أنه عبد من عبيد الله وأنه رسول من رسل الله وأن مثله عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، ولا نقول إنه الله ، ولا نقول إنه ثاني اثنين ولا ثالث ثلاثة ، ولا أن لله ولدا ، ولا أن له صاحبة ولا ولدا ولا أرى معه آلهة اخرى،لا إله إلا هو تعالى عما يقولون علوا كبيرا وأنتم تقولون في عيسى قولا عظيما ، فلو أنكم قلتم في عيسى كما نقول وآمنتم بنبوة نبينا ﷺ كما تجدونه في كتابكم وكما نؤمن نحن بنبيكم وأقررتم بما جاء به من عند الله ووحدتم الله ما قاتلناكم بل كنا نسالمكم ونواليكم ونقاتل معكم عدوكم » .

قالوا « ما نرى بيننا وبينكم إلا متباعدا وقد بقيت خصلة نحن نعرضها عليكم فإن قبلتموها منا فهو خير لكم وإن أبيتم فهو شر لكم ، نعطيكم البلقاء وما والَى أرضكم من سواد الأردن وتنحوا عن بقية أرضنا وعن مدائننا ، ونكتب عليكم كتابا نسمي فيه خياركم وصلحاءكم ونأخذ عهودكم ومواثيقكم على ألا تطلبوا من أرضنا غير ما صالحناكم عليه ، وعليكم بأهل فارس فقاتلوهم ونحن معكم نعينكم عليهم حتى تقتلوهم وتظهروا عليهم » .

فقال معاذ «هذا الذي عرضتم علينا وتعطونا كله في أيدينا ولو أعطيتمونا جميع ما في أيديكم مما لم نظهر عليه ، ومنعتمونا خصلة من الخصال الثلاثة التي وصفت لكم ما فعلنا » .

فغضبوا عند ذلك وقالوا نتقرب إليك وتتباعد عنا ! اذهب إلى أصحابك فوالله إنا لنرجو أن نفركم في الجبال غدا .

قال معاذ أما الجبال فلا، ولكن والله لتقتلنا عن آخرنا أولنخرجنكم من أرضكم أذلة وأنتم صاغرون .

وانصرف معاذ إلى أبي عبيدة فأخبره بما قالوا وبما رد عليهم ، فإنهم لكذلك إذ

بعثوا إلى أبي عبيدة رجلا يقول « إنك بعثت إلينا رجلا لا يقبل النَّصف ولا يريد الصلح،ولا ندري أعن رأيك ذلك أم لا . وإنا نريد أن نبعث إليك رجلا منا يعرض عليك النَّصَف ويدعوك إلى الصلح ، فإن قبلت ذلك منه فلعل ذلك يكون خير لك ولنا وإن أبيت فلا نراه إلا شرا لك » .

قال أبو عبيدة « فابعثوا من شئتم » . فبعثوا رجلا طويلا أحمر الوجه أزرق العينين فأقبل حتى دنا من المسلمين وصار لا يدري أبا عبيدة من أصحابه ولا يعرف أفيهم هو أم لا ، فسألهم « يا معشر العرب أين أميركم ؟ » فقالوا « هوذا » وأشاروا إليه .

ونظر إليه فإذا بأبي عبيدة جالس على الأرض وهو متنكب قوسه وفي يده أسهم وهو يقلبها كأنه يفحصها . فقال له رسول الروم « أنت أمير هؤلاء القوم ؟ » قال « نعم »

قال « فما يجلسك على الأرض ؟ أرأيت لو كنت جالسا على وسادة أو كان تحتك بساط ، أَوَ كان ذلك واضعك عند الله أو مانعك من الإحسان ؟ » قال أبو عبيدة « إن الله لا يستحي من الحق ولأصْدُقَنَّك عما قلت . ما أصبحت أملك دينارا ولا درهما وما أملك إلا فرسي وسلاحي وسيفي ، ولقد احتجت أمس إلى نفقة فلم يكن عندي حتى استقرضت من أخي هذا نفقة كانت عنده - يعني معاذا - فأقرضنيها . ولو كان عندي أيضا بساط أو وسادة ما كنت لأجلس عليه دون إخواني وأصحابي ، وأجلس أخي المسلم الذي لا أدري لعله عند الله خير مني على الأرض ، ونحن عباد الله نمشي على الأرض ونجلس على الأرض ونأكل على الأرض ونضطجع على الأرض وليس ذلك بناقصنا عند الله شيئا ، بل يعظم الله به أجورنا ويرفع درجاتنا ونتواضع بذلك لربنا . هات حاجتك التي جئت بها » .

قال الرومي « إنه ليس شيء أحب إلى الله من الإصلاح ولا شيء أبغض إليه من البغي والفساد . وإنكم قد دخلتم بلادنا فظهر منكم فيها الفساد والبغي ، ويقال

ما بغى قوم وأفسدوا في الأرض إلا أهمهم الله بهلاك ، وأنا أعرض عليكم أمرا لكم فيه حظ إن قبلتموه . نحن نعطيكم دينارين وثوبا ونعطيك أنت ألف دينار ونعطي الأمير الذي فوقك [يعني عمر] ألفي دينار وتنصرفون عنا ، وإن شئتم أعطيناكم أرض البلقاء وما والى أرضكم من سواد الاردن وخرجتم من مدائننا وأرضنا وبلادنا وكتبنا فيما بيننا وبينكم كتابا يستوثق فيه بعضنا من بعض بالأيمان المغلظة ليقومن به وليفين بما عاهد الله عليه » .

فحمد أبو عبيدة الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على النبي ﷺ ثم قال « إن الله بعث فينا رسولا تنبأ وأنزل عليه كتابا حكيما وأمره أن يدعو الناس إلى عبادة ربهم رحمة منه للعالمين ، وقال لهم : فإن الله إله واحد عزيز حكيم عليّ مجيد وهو خالق كل شيء وليس كمثله شيء ، وأمرهم أن يوحدوا الله الذي لا إله إلا هو ولا تتخذوا له صاحبة ولا ولدا ولا تتخذوا معه آلهة أخرى ، وأن كل شيء يعبده الناس دونه فهو خَلَقَه . وأَمَرَنا ﷺ فقال : إذا أتيتم المشركين فادعوهم إلى الايمان بالله وبرسوله وبالإقرار بما جاء من عند الله عز وجل ، فمن آمن وصدّق فهو أخوكم في دينكم له ما لكم وعليه ما عليكم ، ومن أبى فأعرضوا عليه الجزية حتى يؤدوها عن يد وهم صاغرون ، فإن أبوا أن يؤمنوا أو يؤدوا الجزية فاقتلوهم وقاتلوهم فإن قتيلكم المحتسب بنفسه شهيد عند الله ، وهو في جنات النعيم ، وقتيل عدوكم في النار ، فإن قبلتم ما سمعتم مني فهو لكم وإن أبيتم ذلك فابرزوا إلينا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » .

قال الرومي « قد أبيتم إلا هذا ؟ »
قال ابو عبيدة « نعم » .

قال الرومي « أما والله على ذلك ، إني لأراكم تتمنون أنكم قبلتم منا دون ما عرضنا عليكم » . ثم انصرف وهو رافع يديه إلى السماء يقول « اللهم إنا قد أنصفناهم فأبوا علينا ، اللهم فانصرنا عليهم » .

وقف أبو عبيدة من مكانه الذي كان يجلس فيه فسار في المسلمين وهو يقول « أصبحوا أيها الناس وأنتم تحت راياتكم وعلى مصافكم » .

وهكذا جاءت هذه المفاوضات إلى نهايتها .

وبالنظر في مضمونها سواء ما قالوه لمعاذ أو ما قاله رسولهم لأبي عبيدة فلسنا نشك في أنها كانت بأمر من هرقل ، فما كان لقائد جيش الروم في بيسان أن يتفاوض على تسليم البلقاء وجزء من الأردن فضلا عن تلك الدنانير التي عرضوها والتي كانت تبلغ نحوا من سبعين ألف دينار ، ما كان لقائد محلي مهما علا شأنه أن يتفاوض على ذلك وهو لا يملكه ، ما كان له أن يفعل ذلك إلا أن يكون أمرا وتكليفا من هرقل ذاته ، ولقد رأينا بادىء ذي بدء أن ذلك كان اتجاه هرقل لولا خوفه من قواته المسلحة وضعفه أمام قادته . وهو في هذا العرض إنما كان يحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، وكان من شأن مثل هذه المفاوضات أن تؤتي ثمارها للروم لولا أن أبا عبيدة كان يمثل العقيدة التي خرج بها إن الأمر لم يكن أمر الغنائم والثياب والبسط والنمارق والدنانير ... ولا حتى كان أمر الأرض حتى يفتح باب المساومة لاقتسامها ورسم الحدود بين الطرفين !

لم يكن الأمر كذلك ، إنما كان المطلوب هو فتح الباب أمام الدعوة لتبليغها إلى الناس وكفالة حرية العقيدة لهم ، وقد كانت السلطة البيزنطية على أرض الشام عقبة في سبيل ذلك . كيف كان ينتظر منهم السماح بالدعوة إلى الإسلام وهم يسومون أصحاب المذاهب المخالفة من النصرانية ذاتها الخسف والجور والظلم ؟!

ولئن رفض بطارقة الروم رأي هرقل بادىء الأمر فهم الآن وبعد أن تجرعوا هذه الهزائم وذاقت أعناقهم طعم سيوف المسلمين وأحست أبدانهم بوخز رماحهم ونفاذها فيها لا بد أن مالوا شيئاً ما إلى رأي هرقل فكان هذا الموقف الوسط من وجهة نظرهم .. أن يعطوا العرب شيئاً لينصرفوا !!

والمفاوضات كانت تحمل معنى فهم المسلمين أن الرفاهية والبذخ شيء قاتل .
عندما كان[1] الاسبرطيون في أوج مجدهم العسكري وقد خربوا مدينة دلفي ، أرسلوا وفدا إلى كاهن المدينة يسأله بأسلوب متغطرس « هل تعتقد أن هناك ما يمكن أن يلحق الأذى بأسبرطة ؟

قال : نعم .

قالوا : فما ذاك ؟

قال : الرفاهية .

إن القتال يجري من عصر إلى عصر .. وفي الحروب يمكن رؤية العدو بوضوح ، أما في السلم فإن المجتمع يواجه عدوا خفيا يأتي من داخله ، والرفاهية من أولئك الأعداء . فإذا لفظها المسلمون بادىء ذي بدء وأغلقوا بابها إنما كانوا يهدفون إلى تأمين أنفسهم وأجيالهم التالية . كانوا يدركون ذلك وهم يتلون في القرآن الكريم قوله تبارك وتعالى[2] « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » . وكانوا يقرأون[3] « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلُوًّا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين . من جاء بالحسنة فله خير منها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون . إن الذي فرض عليك القرآن لرادُّك إلى معاد ، قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين » .

ولكن الروم ما زالوا لا يفهمون !!

وأصبح الصباح وقد صف المسلمون صفوفهم للقتال .

---

(٣) الحرب عبر التاريخ ٣٦ .

(٢) الإسراء ١٦

(٣) القصص ٨٣ ـ ٨٥

من أبي عبيدة الى عمر

« بسم الله الرحمن الرحيم .

لعبد الله عمر أمير المؤمنين[1] من أبي عبيدة بن الجراح ، سلام عليك . فإني أحمد الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد .

فإن الروم قد أقبلت فنزلت فحلا[2] طائفة منهم مع أهلها وقد سارع إليهم أهل البلد ومن كان على دينهم من العرب، وقد أرسلوا إليّ أن أخرج من بلادنا التي تنبت الحنطة والشعير والفواكه والأعناب ، وأنكم لستم لها بأهل ، والحقوا ببلادكم بلاد الشقاء والبؤس ، فإن أنتم لم تفعلوا سرنا إليكم بما لا قبل لكم به ثم أعطينا لله عهدا ألا ننصرف عنكم وفيكم عين تطرف. فأرسلت إليهم ، اما قولكم إخرجوا من بلادنا فلستم لها بأهل ، فلعمري ما كنا لنخرج منها وقد دخلناها وَوَرَّثَنَاها الله منكم ونزعناها من أيديكم، وإنما البلاد بلاد الله والعباد عباده وهو ملك الملوك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء . وأما ما ذكرتم عن بلادنا وزعمتم أنها بلاد البؤس والشقاء فقد صدقتم ، وقد أبدلنا الله بها بلادكم بلاد العيش الرفيع والسعر الرخيص والفواكه الكثيرة ، فلا تحسبونا بتاركيها ولا منصرفين عنها ، ولكن أقيموا لنا فوالله لا نجشمكم إتياننا ولنأتينكم إن أقمتم لنا .

فكتبت إليك حين نهضت إليهم متوكلا على الله راضيا بقضاء الله ، واثقا بنصر الله ، كفانا الله وإياكم والمؤمنين مكيدة كل كائد وحسد كل حاسد ، ونصر الله دينه نصرا عزيزا وفتح لهم فتحا يسيرا وجعل لهم من لدنه سلطانا نصيرا » .

ودفع الكتاب إلى نبطي من أنباط الشام وفيج منهم [عدّاء سريع الجري] أول النهار وقال له « انطلق بهذا الكتاب إلى أمير المؤمنين » .

(١) لا بد أنه سهو من الرواة فإن عمر بن الخطاب لم يلقب أمير المؤمنين إلا بعد ذلك ، ولم يكن يعرف بهذا اللقب في ذي القعدة ١٣ هـ .

(٢) إنما كانت بيسان ، ولعل المقصود منطقة فحل .

تحرش

ونهض أبو عبيدة بجموع المسلمين من فحل نحو بيسان ودنا منهم وتقدمت خيل المسلمين إلى الروم تتعرض لهم فلم يخرجوا يومئذ وانصرف المسلمون عنهم عشاء دون أن يقع بينهم قتال . ومضى النبطي بكتاب أبي عبيدة نحو عمر حتى قدم إليه وعرف عمر ما بالكتاب فقال له « ويحك ، هل علمت أو بلغك ما كان من المسلمين ؟ فإن أبا عبيدة كتب إليّ يذكر أنه كتب حين نهض إلى المشركين » . فقال « إني لم أبرح يومئذ حتى رجع المسلمون وكانوا قد زحفوا إليهم وتعرضت خيلهم لهم ودنوا منهم ،ولم يخرجوا إليهم ولم يتعرضوا لهم فانصرف المسلمون ودخلوا عسكرهم وهم أطيب شيء نفسا وأحسن شيء حالا وأجرؤهم على عدوهم » .

قال عمر « فأنت ما أجلسك يومئذ إلى العشى ثم تقبل بالكتاب إليّ وقد دفعه إليك أبو عبيدة أول النهار ؟

قال ظننت أنك سائلي عما سألتني عنه فأحببت أن يكون عندي علم بما تسألني عنه .

فقال عمر : ما دينك ؟

قال: نصراني .

وأعجب به عمر ورآه عاقلا فدعاه إلى الإسلام ثم قال له « ويحك أسلم فهو خير لك » فأسلم الرجل على يدي عمر وحسن إسلامه . فقال عمر عند ذلك « الحمد لله الذي يهدي من يشاء إذا شاء إلى الإسلام ويجعل معرفة الاسلام في قلوبهم » . وكتب عمر رسالة دفعها إلى النبطي ليسلمها إلى أبي عبيدة .

من عمر الى أبي عبيدة

« بسم الله الرحمن الرحيم .

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح .

سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد .

فإن كتابك جاءني بنفير الروم إليك ومنزلهم الذي نزلوا به ورسالتهم التي أرسلوا ، وبالذي رجعت إليهم فيما سألوك . وقد سُدِّدت بحجتك وأوتيت رشدك . فإن أتاك كتابي هذا وأنتم الغالبون فكثيرا ما نذكر ربنا بالإحسان إلينا وإليكم . وإن أتاكم وقد أصابكم نكب أو قرح فلا تهنوا ولا تحرجوا ولا تستكينوا فأنتم الأعلون ، وإنها دار الله وهو فاتحها عليكم تصديق منا لقول نبينا ﷺ فاصبروا إن الله مع الصابرين .

« واعلم انك متى ما لقيت عدوك فاستعنت بالله عليهم وعلم منك الصدق نصرك عليهم ، فقل إذا أنت لقيتهم اللهم إنك الناصر لدينك والمعز لأوليائك قديما وحديثا ، اللهم فترل نصرهم وأظهر فَلَجَهم ولا تكلهم إلى أنفسهم فيتعجزوا عنها ، وكن الصانع لهم والدافع عنهم برحمتك ، إنك الولي الحميد » .

اشتباك الفرسان

وفي اليوم التالي لزحف أبي عبيدة ـ الذي لم يشتبك فيه مع الروم ـ أخرج إليهم خالد بن الوليد في الفرسان وبقي أبو عبيدة في فحل بالمشاة . وتقدم خالد بالخيل نحو بيسان فأخرج الروم إليه فرسانا كثيرة لم يذكر الرواة عددها . وكان قيس بن هبيرة المرادي من أشد الناس بأسا ونكاية في العدو ومباشرة لهم فقال له خالد أن يخرج إليهم، فحمل عليهم مرارا وحملوا عليه فقاتلهم قتالا شديدا .

ثم أقبلت خيل أخرى عظيمة للروم ، فقال خالد « اخرج إليهم يا ميسرة بن مسروق » ، فخرج ميسرة فقاتلهم قتالا شديدا وحمل عليهم وحملوا عليه . ثم خرجت إليهم جموع أخرى من فرسان الروم أعظم من الجمعين السابقين يقودهم بطريق عظيم من عظماء بطارقتهم ، فقسم فرسانه قسمين وأمر أحد القسمين فحملوا على خالد وأصحابه ، فصمد لهم خالد ولم يتزحزح ، ثم أمر البطريق الشطر الثاني فحملوا أيضاً على خالد فصمدوا لهم . فلما رأى الروم أن هجومهم لم يثمر شيئاً

تراجعوا وانصرفوا . فقال خالد لفرسانه « إنه لم يبق من جد القوم ولا حدهم ولا قوتهم إلا ما قد رأيتم ، فأحملوا معي بأهل الاسلام حملة واحدة واتبعوهم ولا تغفلوا عنهم رحمكم الله » .

وحمل خالد بمن معه فاكتسح من أمامه منهم . ثم حمل قيس بن هبيرة على الذين أمامه منهم فكشفهم ، وحمل ميسرة بن مسروق العبسي على الذين أمامه من فرسانهم فهزمهم . واتبعهم المسلمون يقتلون منهم ويقصفون بعضهم على بعض وقد اختل نظامهم حتى اضطروهم إلى الانسحاب إلى عسكرهم وجماعتهم . وعادت فرسان المسلمين يومئذ ولها الظفر . ورأى الروم ما أصابهم من الوهن والهزيمة فانكسرت نفوسهم ووهنت أُصرُهم وهابوا المسلمين هيبة شديدة . بينما انصرف المسلمون إلى عسكرهم وقد قرت عيونهم واجتمعوا إلى أبي عبيدة وهم مسرورون .

ماذا يعني صمود المسلمين أمام هجمات الروم ثم انهزام الروم أمام كر المسلمين رغم أن التفوق العددي كان في جانب الروم ؟ إنه يعني تميز الفارس المسلم على خصمه الرومي من حيث لياقته البدنية والتدريبية والمعنوية ، كما يعني فضل الخيل العربية الأصيلة على خيل الروم .

وأراد خالد أن يلتقط الفرصة فقال لأبي عبيدة « إن هزيمتنا خيل المشركين قد دخل رعبها قلوب جماعتهم ، فكلهم قلبه مرعوب متخوف لمثلها منا مرة أخرى . فناهض هؤلاء القوم غدا بالغداة ما دام رعب الهزيمة في قلوبهم ، فإنك إن أخرت قتالهم أياما ذهب رعب هذه الهزيمة من قلوبهم ونسوها واجترأوا علينا » .

لم يكن خالد عملاقا في الاستراتيجية والتكتيك فحسب ، ولم يكن قمة في القوة العضلية واللياقة القتالية فقط ، ولم يضف إلى هذا وذاك كفاءته الادارية والقيادية وكفى ، وإنما اكتسب مع ذلك كله تلك البصيرة اللماحة في علم النفس العسكري ! إنه اشتباك غير حاسم ولكنه ترك انطباعا نفسيا انهزاميا عند الروم وترك انطباعا عكسه عند المسلمين ، فلماذا لا تبتهل هذا الوضع النفسي غير المتوازن لاستمرار المعركة ؟!

قال ابو عبيدة رضي الله عنه « فانهضوا على بركة الله غدا بالغداة » .

السير الى المعركة

ولما مضى من الليل ثلثاه قام أبو عبيدة في الثلث الأخير فلم يزل يعبىء المسلمين ويصف صفوفهم[1] ويحمسهم ويحرضهم حتى أصبح . كان ذلك في ليل ٢٣/٢٢ يناير ٦٣٥ م يعني في زمهرير الشتاء . فلما وجب الفجر صلى بالمسلمين وكان إلى الصلاة بالغَلَس [الإظلام] أقرب منه إلى التنوير . وجعل على ميمنته معاذ بن جبل وعلى ميسرته هاشم بن عتبة وعلى المشاة سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وعلى الخيل [الفرسان] القائد المبارك خالد بن الوليد . ثم زحف أبو عبيدة بجيشه على هذه الصورة يزفون زفا رويدا على مهل .

وركب أبو عبيدة بن الجراح واستعرض الصف من أوله إلى آخره ، يقف على كل راية وكل قبيلة يقول « عباد الله استوجبوا من الله النصر بالصبر فإن الله مع الصابرين . عباد الله أنا أبشركم ، من قُتِل منكم بالشهادة ومن بقي منكم بالنصر والغنيمة ، ولكن وطنوا أنفسكم على القتال والطعن بالرماح والضرب بالسيوف والرمي بالنبل ومعانقة الأقران ، فإنه والله ما يدرك ما عند الله إلا بطاعته والصبر في المواطن المكروهة والتماس رضوانه ولن تبلغوا ذلك إلا بالله » .

وكان المسلمون مستبشرين نُشَّاطا إلى لقاء عدوهم سراع إليهم . قال مالك القيني[2] عن رجل من بني القين الذين شهدوها مع المسلمين « كان رجل منا له فينا منزلة وحالة حسنة ، فقلت في نفسي قد بلغني أن صاحب العرب هذا ـ يعني أبا عبيدة ـ رجل صدق ، فوالله لآتينه لأصحبنه ولأتعلمن منه . فكنت آتيه وأخرج معه إذا خرج إلى عسكره . فلما كان ذلك اليوم أقبل إلى جنب أبي عبيدة فألظَّ به لا يفارقه [لازمه] ، قال فوالله لرأيته يقص علينا ويقول : كونوا عباد الله أولياء لله ،

(١) الازدي ١٣٠ وحدثني أبو جهضم عن عبد الرحمن بن السليك عن عبد الله بن قَرْط الثمالي .

(٢) الازدي ١٣٤ وحدثني عمرو بن مالك عن أبيه .

وارغبوا فيما عند الله أشد من رغبتكم في الدنيا ولا تواكلوا . فتخاذلوا ، وليُغْن كل رجل منكم قِرْنه [زميله] وأقدموا إقدام من يريد بإقدامه ثواب الله . ولا يكون من لقيكم من عدوكم أصبر على باطلهم منكم على حقكم . ثم نهض بهم إليهم يمشي ونهض المسلمون معه تحت راياتهم بسكينة وبصيرة ودعة وحسن رِعَة » .

كان قائد الروم سَقِلاَّر بن مخراق Sakellarius[1] قدر أن المسلمين في فحل لا يتوقعون عبور الروم إليهم ، وأنه إذا جاءهم وجدهم نياما على غير مصافهم فيفاجئهم وينال منهم[2] غرة ، وعلى ذلك سار بجيشه نحو فحل حتى جاوز منطقة الأوحال .

هذا في حين كان خالد بن الوليد يتقدم في فرسانه ومن ورائه تسير وحدات المسلمين حتى عبر نهر الأردن وأطل على الروم[3] . إن متوسط عرض النهر[4] ٢٩ مترا وفي تقديرنا أن ارتفاع المياه فيه في تلك الليلة كان يتراوح بين ثلث ونصف متر ، فهو لم يكن عائقا فعالا . وكان الروم قد لاحظوا أن المسلمين أشد مهارة وحذقا في القتال على الخيل منهم وأن خيل الروم لا تكاد تثبت أمام خيل المسلمين ، فكان

(١) وفق تقدير دي غويه ـ هامش تاريخ مدينة دمشق ٤٨٦/١ .

(٢) الطبري ٤٤٢/٣ س ش س عن أبي عثمان يزيد بن أسيد الغساني وأبي حارثة العبشمي .
ابن عساكر ٤٨٦/١ أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، انبا ابو الحسين احمد بن محمد بن النقور ، أنبا أبو طاهر محمد بن عبد الرحمن بن العباس المخلص ، انا ابو بكر بن سيف ، ثنا س ش س عن السند السابق الذي ساقه الطبري .

(٣) الأزدي ١٣٠ وحدثني أبو جهضم عن عبد الرحمن بن السليك عن عبد الله بن قَرْط الثمالي .

(٤) وفق بيانات محطة قياس جسر الشيخ حسين التي تقع ٦ كيلومترات شرقي بيسان فإن أعلى تصريف للنهر بين ١٩٣٨ و ١٩٦٣ كان في ١١ شباط ١٩٥٤ قد بلغ ٦٦٠ م٣ في الثانية [= ٥٧,٠٢٤,٠٠٠ م٣ في اليوم] وكان عمق النهر ٦,٢ مترا. وأن متوسط عمق النهر=٤,٢ مترا وان معدل التصريف اليومي بين ١٩٥٥ و ١٩٦٣ كان ٣,٢ مليون م٣ في اليوم ، وأخذا في الاعتبار أن بثق الروم لنهر الجالود قد أضاع مياهه عن التدفق في نهر الاردن . أعلى درجة حرارة في شهر يناير كانون الثاني ١٩° والدنيا ٣,٦° والمعدل ١٢,٧° . معدل سرعة الرياح ٤,٨ كيلومتر ساعة واتجاهها ٥ درجات من الشمال الشرقي ومعدل الايام الماطرة ٧ أيام خلال ذلك الشهر .

خروجهم في ذلك اليوم بالخيل والمشاة جميعا ، خرجوا وهم خمسة صفوف لا يرى طرفاهم وهم نحو من خمسين ألفا على ما ذكر رواة الأزدي أو ثمانين ألفا على ما ذكر سيف بن عمر . وقد جعلوا فرسانهم في الصف الأول من القلب ، كل فارس بين راجلين أحدهما يرمي بالنشاب والآخر يحمل رمحا . ثم جعلوا مجنبتين ثلاثة صفوف أخرى جميعهم من المشاة ، وأقبل هذا الجيش نحو المسلمين ، واقترب منهم خالد في خيله وهم يزحفون إليه ويرمونه بالنشاب ، فأخذ يتراجع بظهره حتى انتهى بفرسانه إلى صفوف المسلمين ودافعت أعجاز الخيل صدور الرجال وكانوا قد أخذوا مصافهم في مواجهة جيش سكلاريوس .

معركة فحل بيسان

قسم خالد فرسانه ثلاثة أقسام وجعل قيس بن هبيرة المرادي على ثلثهم في الميمنة ، وجعل الثلث الثاني في القلب وعليهم ميسرة بن مسروق العبسي ، وبقي في ثلث بالميسرة . ثم بعث خالد إلى قيس « اخرج في خيلك حتى تأتي ميسرتهم [وهي من المشاة] فتحمل عليها » . وقال لميسرة « صفف مقابل صفهم في خيلك وضمها إليك كتيبة واحدة ، فإذا رأيتنا قد حملنا وقد انتقض صفهم فاحمل على من يليك منهم » .

كان خالد وهو يتراجع بفرسانه أمام رشق سهامهم ينظر إلى ما فعلوا في صفوفهم وكيف صفوها ، وكان يبحث بنظرته في الحرب عن ثغرة ، وهداه فكره أن تدعيم فرسان الروم بمشاتهم ورماتهم في القلب قوة لهم ، وأن أجنابهم من المشاة المجردة من الفرسان أو الرماة نقاط ضعف لديهم ، فخرج خالد بميسرة فرسانه حتى انتهى إلى ميمنتهم ، حتى إذا علاها وارتفع عليهم وخاف الروم أن يلتف من ورائهم بعثوا إليه فرسانا لتشغله عن ذلك ، كذلك ارتفع قيس بن هبيرة إلى ميسرتهم فأخرجوا إليه خيلا كثيفة كما صنعوا أمام خالد .

وكان ذلك ما أراد خالد ، إنما أراد أن يستدرج فرسانهم بعيدا عن مشاتهم

ليفقدهم عنصر التعاون بينهما ، وتركهم يتقدمون حتى إذا دنوا منه قال « الله أكبر ، أخرجهم الله لكم من رجّالتهم ، شدوا عليهم » . ثم استعرضهم خالد فشد عليهم وشد معه أصحابه فهزمهم ووضعوا الرماح والسيوف فيهم حيث شاؤوا وصرعوا منهم خلقا كثيرا قبل أن ينتهوا إلى ميمنتهم ، وهكذا تم لخالد تصفية هذا الجناح من فرسان سكلاريوس ، وكذلك كان الحال في قطاع قيس بن هبيرة . وكان واثلة بن الأسقع في خيل ابن هبيرة فعرض له بطريق من كبارهم فبرز له واثلة وهو يقول

ليثٌ وليث في مجالِ ضَنْكِ كلاهما ذو أنفٍ ومَعْكِ
أجول جول صارم في العرك أو يكشف الله قناع الشك
مع ظفري بحاجتي وتركي

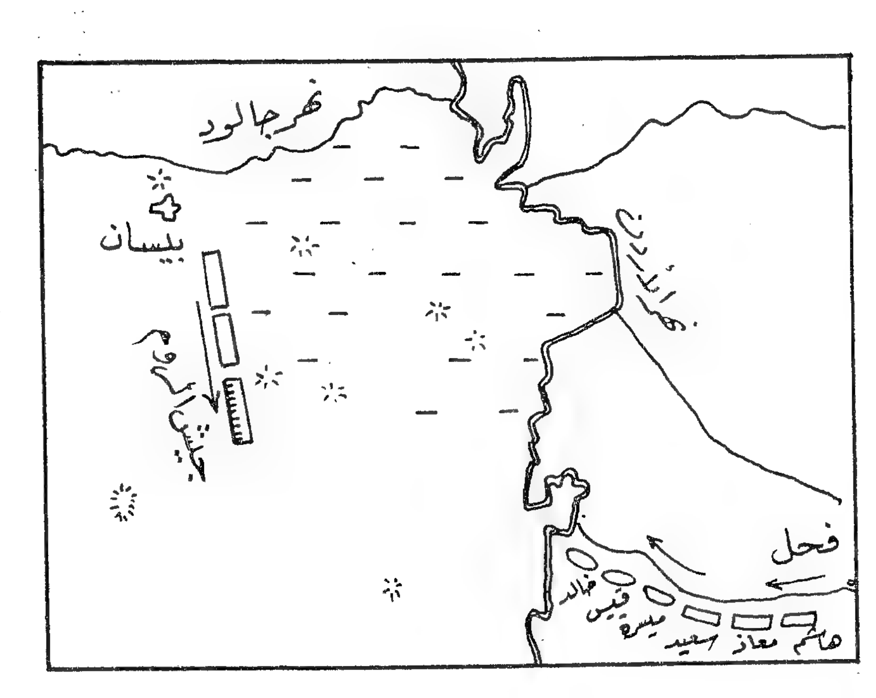
ثم حمل على البطريق فضربه ضربة فقتله وحملوا بأجمعهم حتى اضطروهم إلى عسكرهم ثم وقفوا تجاههم . قال[١] الرواة وحمل عليهم قيس بن هبيرة من قبل ميسرتهم فقصف بعضهم على بعض » . وقد تكسرت[٢] في يد قيس يومئذ ثلاثة أسياف وبضعة عشر رمحا وكان يقاتل وهو يقول:

لا يَبْعُدَنَّ كلُّ فتى كرار ماضي الجنان خشن صبار
حبوتهم بالخيل والإدبار تَقَدُّمُ إقدام الشجاع الضاري

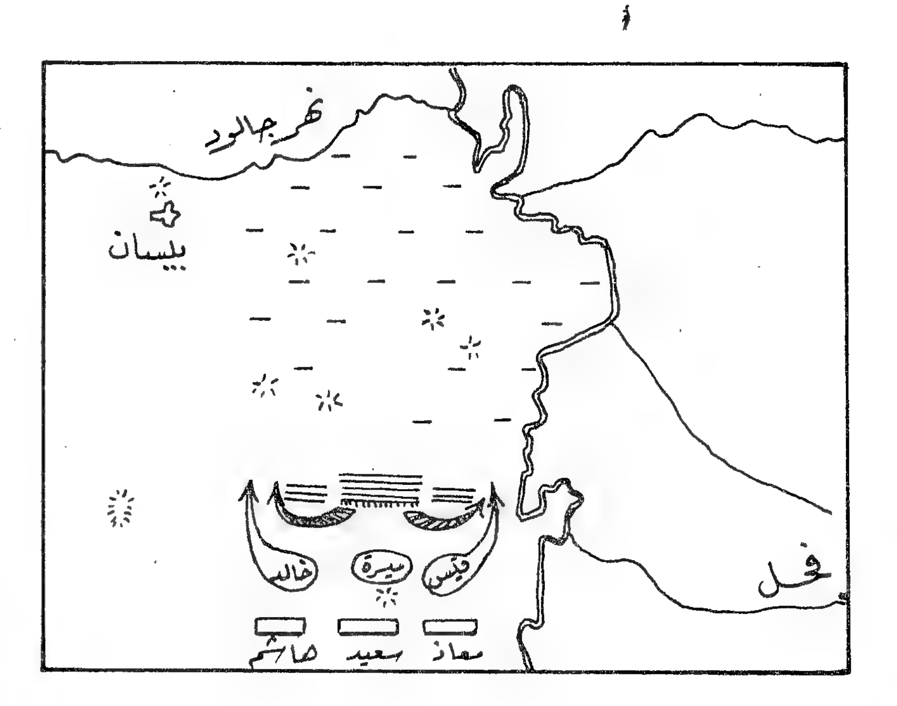
يروي هاشم[٣] بن عتبة بن أبي وقاص قائد ميسرة المسلمين فيقول « والله لقد كنا يومئذ أشفقنا على خيلنا أول النهار ، ثم إن الله نصرنا عليهم ، فما هو إلا أن رأينا خيلنا قد نصرها الله على خيلهم . فدعوت الناس إليّ ، وأمرتهم بتقوى الله ، ونزلت فهززت رايتي ثم قلت والله لا أردها حتى أركزها في صفهم فمن شاء فليتبعني ومن شاء فليتخلف عني . فوالذي لا إله إلا هو ما أعلم أن أحدا من

(١) الازدي ١٣٥ وحدثني عمرو بن مالك [القيني] عن أبيه .
(٢) الازدي ١٣٥ وحدثني يحيى بن هانيء بن عروة المرادي [ثقة يحتج به] .
(٣) الازدي ١٣٣ حدثني عبد الملك بن نوفل عن ربيعةالعنزي عن هاشم بن عتبة .

الخريطة رقم (١٦) - فحل بيسان ١ - المقياس $\frac{1}{50000}$



الخريطة رقم ١٧ - فحل بيسان ٢ - المقياس $\frac{1}{100000}$



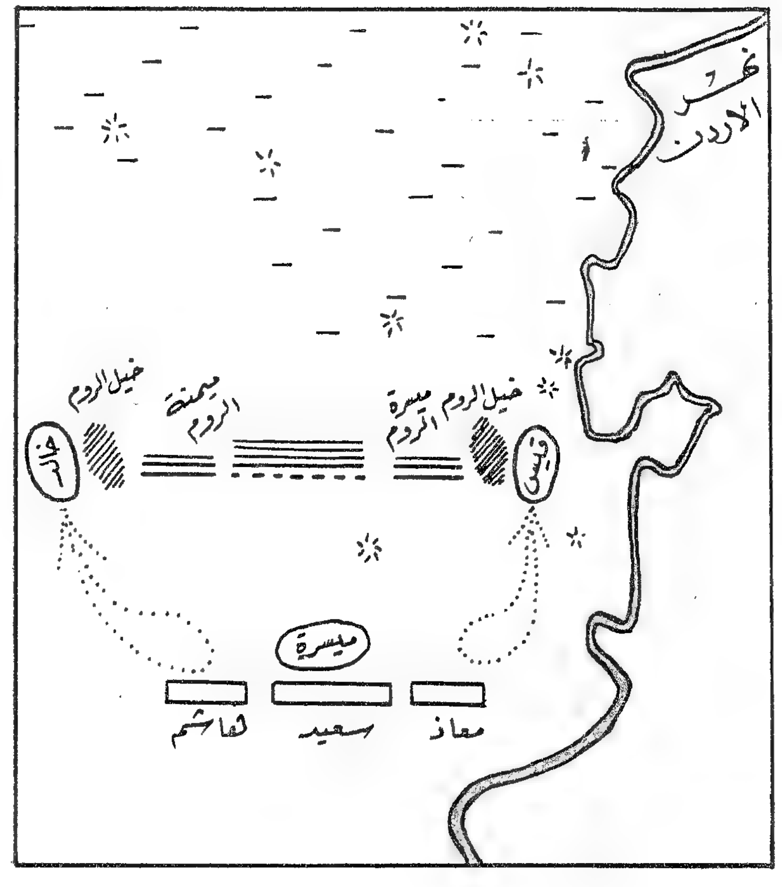
الخريطة رقم (١٨) ـ فحل بيسان ٣ ـ القياس ١/١٠٠٠٠٠

أصحاب رايتي تخلف عني حتى انتهيت إلى صفهم فنضحونا بالنشاب فجثونا على الرُّكب واتقيناهم بالدرق . ثم دنوت بلوائي وقلت لأصحابي شُدُّوا عليهم أنا فداؤكم فإنها غنيمة الدنيا والآخرة .

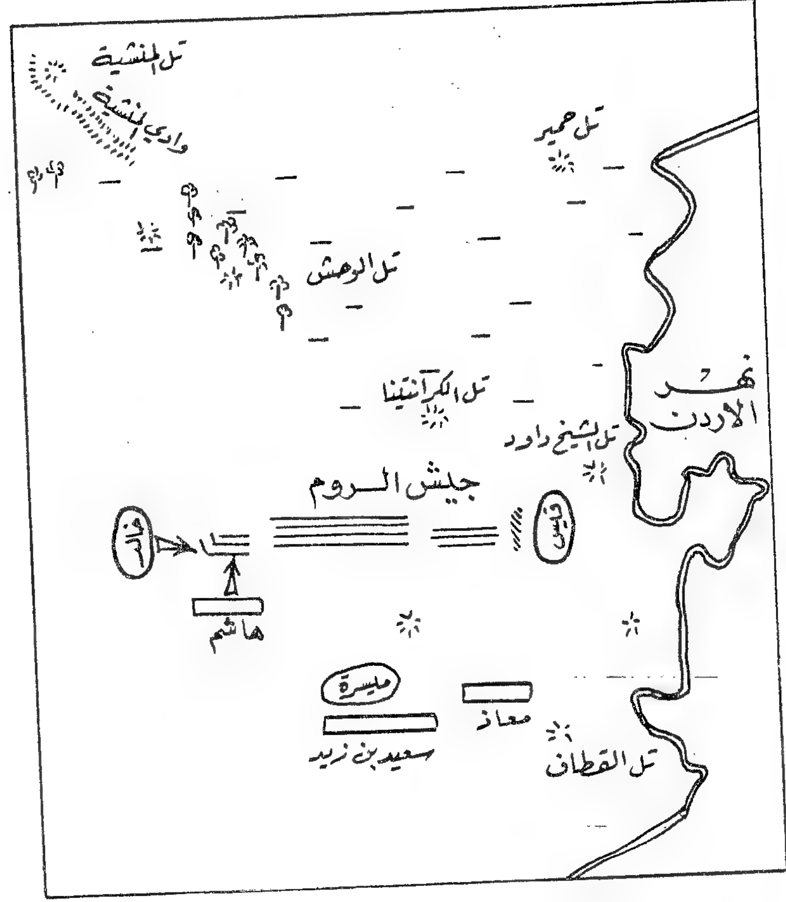
« فشددت وشدوا معي فاستقبلت عظيا منهم وقد أقبل نحوي فأوجزته الرمح فخر ميتا . وضاربناهم بالسيوف ساعة في صفهم ، وحمل عليهم خالد بن الوليد من قبل ميسرتهم[١] فقاتلهم قتالا شديدا سريعا ذريعا ، وانتقضت صفوف الروم من قبل خالد ومن قبلي ، ونهد إليهم أبو عبيدة بالرَّجّالة [المشاة] والناس ، وأمر الخيل التي كانت قِبَلَه من خيل خالد [الذين عليهم ميسرة بن مسروق] فحملت على المشركين وكانت هزيمتهم » .

وقال سالم بن[٢] ربيعة العبسي « حمل ميسرة بن مسروق [العبسي] يومئذ ونحن معه في الخيل فحملنا على القلب وقد أخذ صف الروم ينتقض من قبل ميسرتهم وميمنتهم ولم ينته الانتقاض إلى القلب بعد ، فثبتوا لنا [ثباتا اضطراريا بطبيعة الحال حيث لم يكن لهم مفر] وقاتلونا قتالا شديدا . فصرُع ميسرة عن فرسه [يعني سقط] وصرُعت معه ، وخرج فرسي فعاد [إلى الخلف] ، ويعتنق ميسرة رجلا من الروم فاعتركا ساعة فصرعه ميسرة فقتله . ثم شد آخر على ميسرة فعانقه واعتركا ساعة فصرُع ميسرة وجلس على صدره ، وأشد عليه فضربت وجه الرومي بالسيف فأطرت قحف رأسه ووقع ميتا ووثب ميسرة . وأقبل رجل منهم فضربني ضربة أدارني منها وبصر به ميسرة فضربه فقتله ، وركبَنا منهم عدد كثير فأحاطوا بنا وظننا والله أنه الهلاك إذ نظرنا فإذا نحن نسمع نداء المسلمين وتكبيرهم ، وإذا صفوفهم [مشاة سعيد بن زيد] قد قربت منا ، وإذا الرايات [رايات المسلمين] قد غشيتنا فشد الله ظهورنا بإخواننا فانقشعوا عنا . وحمل خالد بن الوليد على ميمنتهم فدق بعضهم على بعض حتى دخلوا عسكرهم » .

(١) الصواب أن يكون « من قبل ميمنتهم » أو « من قبل ميسرتنا » .
(٢) الأزدي ١٣٥ حدثني النضر بن صالح عن سالم بن ربيعة .



الخريطة رقم (١٩) - فحل بيسان ٤ - المقياس $\frac{1}{50,000}$



الخريطة رقم (٢٠) - فحل بيسان ٥ - المقياس $\frac{1}{50,000}$

حملة خالد بن الوليد على ميمنة الروم وحملة قيس بن هبيرة على ميسرتهم دون إتمام ذلك بحركة التفاف إلى ما وراء صفوفهم من الجهتين يجعلنا نعتقد أن الروم قد أسندوا ظهورهم إلى مستنقع الوحل الذي أحدثوه ، وهذا ما جعلنا نرسم وضعهم بالخرائط على هذا الأساس[1] .

وقاتل خالد بن الوليد يومئذ قتالا شديدا ما قاتل مثله أحد من المسلمين فكان حديثا ومثلا لمن حضره ، كان يستعرض صفوفهم وجماعتهم فيحمل عليهم حتى يخالطهم ثم يجالدهم حتى يفرقهم ويهزمهم ويكثر القتل فيهم . قتل في ذلك اليوم أحد عشر رجلا من بطارقة الروم وأشدائهم[2] وأهل الشجاعة منهم وكان يقول

أضربهم بصارم مهنّد ضرب صليب الدين هادٍ مهتد

لا واهن القول ولا مفنّد

ويبدو أن الروم حاولوا القيام بهجوم مضاد . قال ثابت بن سهل بن[3] سعد « كان معاذ بن جبل يومئذ من أشد الناس علينا حرصا وأمضاهم في رقاب الروم سيفا ، فبينا هو يحارب في ميمنة المسلمين إذ أقبلت جنود الروم تحوط عسكر المسلمين ، فبرز إليهم معاذ بن جبل في رجاله ونادى فقال : ايها الناس اعلموا رحمكم الله أن الله قد وعدكم بالنصر وأيدكم بالإيمان فانصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم واعلموا أن الله معكم وناصركم على عبدة الأوثان »

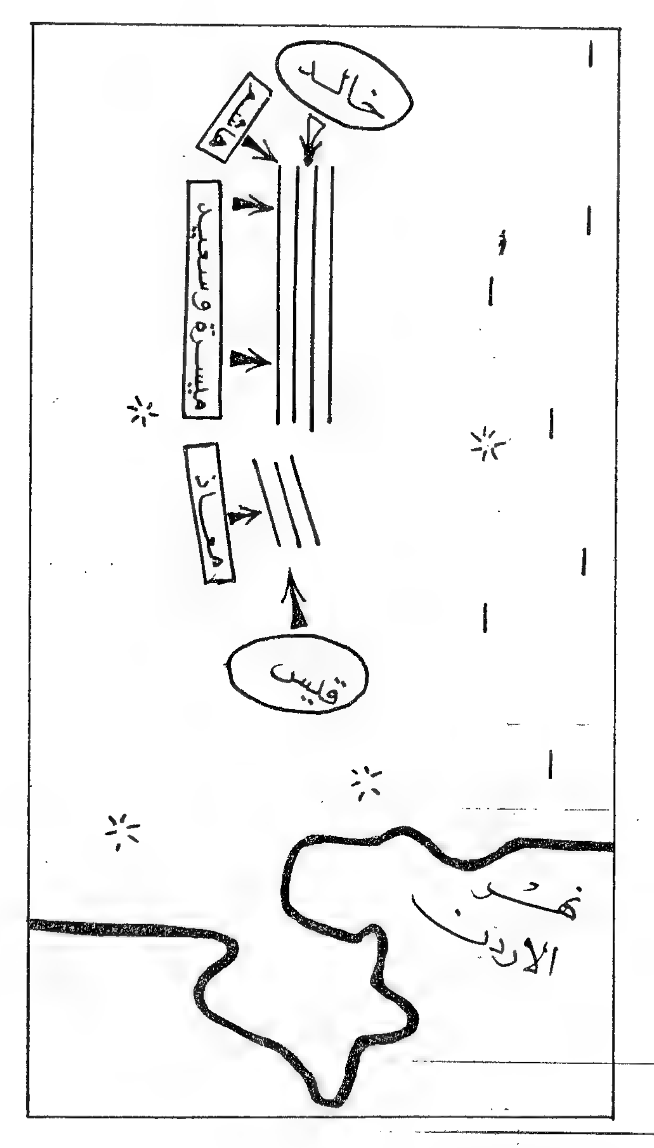
كان القتال في تلك المعركة أشد قتال اقتتلوه قط[4] ، وقد طوى المسلمون جناحي جيش الروم ثم انفردوا بعدهما بالقلب حتى تضعضع وقد أظلم الليل . وانهزم

(١) وقد حددنا إطار المستنقع ذاته بانخفاضات الارض رجوعا إلى الخرائط الجغرافية للمكان . Fiq-Haifa , Damas , Israel With Jordan وبعضها يظهر به مستنقعات في بعض الأجزاء ، وهي خرائط حديثة .

(٢) الازدي ١٣٦ حدثني عبد الملك بن نوفل بن مساحق عن أبيه .

(٣) الازدي ١٣٧ حدثني محمد بن يوسف عن ثابت بن سهل بن سعد .

(٤) الطبري ٤٤٢/٣ س ش س عن أبي عثمان يزيد بن أسيد الغساني وأبي حارثة العبشمي . ابن عساكر ٤٨٦/١ عن سند يتصل بسند الطبري المذكور .



الروم وهم حيارى ، وقد قتل في المعركة قائدهم سقلار [سكلاريوس] والذي يليه نسطورس Nestouros أو Anastasius وظفر المسلمون أحسن ظفر وأهنأه وركبوهم وهم يظنون أن لديهم خطة سوف يتبعونها للانسحاب والتراجع إلى بيسان ولكن استبان للمسلمين أن الروم حيارى لا يعرفون ما يعملون ولا يتبينون مسالكهم ثم أسلمتهم هزيمتهم وحيرتهم إلى الوحل فتورطوا فيه ، ولحق أوائل المسلمين بهم وقد وَحِلوا وهم لا يستطيعون دفعا عن أنفسهم فتصيدهم المسلمون بالرماح وكانت مصارعهم في الطين ، وأصيب الثمانون ألفا لم يفلت منهم إلا الشريد : قال الرواة : وكان الله يؤيد المسلمين بما كانوا يكرهون ، كرهوا البثوق فكانت عوناً لهم على عدوهم . وذهب البلاذري[1] إلى أن قتلى الروم كانوا زهاء عشرة آلاف وأن الباقين قد تفرقوا في مدن الشام ولحق بعضهم بهرقل في أنطاكية . وقال الأزدي[2] « ذهبت منهزمة الروم من فحل حتى قدموا على ملك الروم بأنطاكية ، وخرجت فرسان من فرسان الروم ورجال من عظمائهم وذوي الأموال والغناء والقوة ممن كان واطن الشام فدخلوا قيسارية وتحصن أهل فلسطين بايلياء » .

شهداء

واستشهد في المعركة عمرو بن سعيد بن العاص ، رؤي وهو مضروب على حاجبه بالسيف وقد ملأ الدم عينيه وهو لا يستطيع أن يطرف ولا أن يفتح جفنه من الدم . وكان الروم قد حنقوا عليه لما رأوا من شدة قتاله فجردوا له فريقا فمشى إليهم بسيفه فضاربهم به ساعة وثار بينهم الغبار فشد عليهم المسلمون وإذا الروم قد قطعوه بسيوفهم ووجد به أكثر من ثلاثين ضربة . واستشهد سعيد بن الحارث بن قيس السهمي والحارث بن الحارث السهمي .

---

(١) البلاذري ١٣٧ بدون إسناد .

(٢) الأزدي ٤٩ حدثني أبو جهضم عن عبد الملك بن السليك عن عبد الله بن قرط الثمالي .

وشعراء

وانطلقت ألسنة الشعراء قال القعقاع[1] بن عمرو :

كم من أب لي قد ورثت فعاله ... جَمٍّ المكارم بحره تيار
ورث المكارم عن أبيه وجده ... فبنى بناءهم له استبصار
فبنيت مجدهم وما هدمته ... وبَنِيٍّ بعدي إن بقوا عُمَّار
ما زال منافي الحروب مُرَوَّسٌ ... ملك يغير وخلفه جرار
بطل اللقاء إذا الثغور توكلت ... عند الثغور مُجَرَّبٌ مِظْفار
وغداة فحل قد رأوني مُعْلَماً[2] ... والخيل تنحط[3] والبلا أطوار
يفدي بلائي عندها مُتَكَلِّفٌ ... سلس المياسر عوده خوار
سلس المياسر ما تسامى ماقطاً[4] ... عند الرهان معيرٍ عيار
ما زالت الخيل العراب تدوسهم ... في حوم فحل والهبا[5] مَوَّار
حتى رمين سراتهم عن أسرهم ... في ردغة ما بعدها استمرار
يوم الرداغ بُعَيْد فحل ساعة ... وَخْز الرماح عليهم مدرار
ولقد أَبَرْنا[6] في الرداغ جموعهم ... طُرًّا ونحوي تشخص الأبصار

كما قال :

وغداة فحل قد شهدنا مَأقِطاً ... ينسى الكَمِيَّ سلاحه في الدارِ
ما زلت أرميهم بقرحة كاملٍ[7] ... كر المنيح[8] ربابة الأيسارِ

---

(١) ابن عساكر ٤٨٧/١ بإسناده السابق .

(٢) ذو علامة شأن الفرسان الصناديد ـ انظر الطريق إلى المدائن ٥٣ .

(٣) النحط صوت الخيل من الثقل والإعياء .

(٤) المأقط المضيق في الحرب .

(٥) الهبا الغبار يشبه الدخان ، ودقاق التراب ساطعة ومنثورة على وجه الأرض .

(٦) أبرنا قتلنا .

(٧) الكامل اسم الفرس ، والقرحة ما دون الغرة .

(٨) المنيح قِدْح بلا نصيب ، فإذا وصف بالكر فكأنما يعني المنيح الذي لاحظ له .

حتى فضضنا جمعهم بمُرَدَّسٍ [1] ... ينفـي العـدو إذا سما جرار
نحن الأُلىَ جسنا العراق بخيلنا ... والشـام جسنـا في ذرى الأشفار
كم من قمامسة[2] أبرْنا جمعهم ... بعد العـراق وبعـد ذي الأوتار .

وقال رجل من المسلمين[3]

ونحـن قتلنـا كل واف سَبَالَه ... من الروم معروف النِّجارِ[4] مُطَلَّق
فطلّق القنـا فالرمـاح نساءهم ... وإنـا إلى ازواجنـا لم نُطلّقِ
نصرعهـم في كل فج وغائط ... كأنهم بالبقاع معزى المحلقِ[5]
فكم من قتيل أوهطتـه سيوفنا ... كفاحا وكَفٌّ قد أميطت وأسْوُقِ

نظرة الى المعركة

انتهت المعركة ويحق علينا أن نقف أمامها لنتأملها حتى نتبين كيف هزم ٢٦٠٠٠ من المسلمين ، إن زادوا فلا يصلون إلى ٣٠ ٠٠٠ ، كيف هزموا الروم وهم بين خمسين ألفا إلى ثمانين ألفا فأبادوهم إلا الشريد .

أول هذه الأسباب ما ظهر في مناسبات سابقة أن فرسان المسلمين كانوا أكثر كفاءة من فرسان الروم . إن خفة الحصان العربي وتضميره للقتال منحت سلاح الفرسان العربي خفة في الحركة كرا وفرا لم تتوفر لفرسان الفرس أو الروم . إننا نرى في جيوش اليوم لو أن جيشا تسلح بدبابات أو مركبات أسرع وأخف حركة من

(١) مُرَدَّس ، في هامش تاريخ دمشق أنه لم يهتد إلى صوابها . ولا نحن . ولعلها مُرَوَّس بمعنى رئيس .
(٢) القمامسة البطارقة وهم كبار الضباط في جيش الروم .
(٣) الأزدي ١٤٢ حدثني محمد بن يوسف عن ثابت بن سهل بن سعد .
(٤) النَّجَار الحسب
(٥) ذهب الشارح في الهامش إلى أن معزى المحلق هو عبد العزي بن خنتم الملقب بالمحلق .
ونذهب إلى أن المقصود تشبيه الروم بالماعز التي جمعت بمنخفض من الارض للمحلق يحلق شعرها .

الجيش الذي ينازله فإنه يكون قد اكتسب ميزة مرموقة لها وزنها . ولقد أدرك الروم ذلك ـ كما كان يدركه المسلمون ـ ولذلك نظموا جيشهم في فحل بحيث يحيط بكل فارس رامح من جهة ورام من الجهة الأخرى وأن تكون وراءهم مباشرة صفوف المشاة حتى يوفروا لفرسانهم اكبر فرص الحماية وهم يقومون بمهامهم في المعركة . غير أن خالدا استطاع أن يستدرج فرسانهم خارج هذه الوقاية التي أعدوها ، وفي سهوة من قيادتهم استجابت في غفلة لهذا الاستدراج ففقدت فرسانها وبقيت مشاتهم تواجه وحدها مشاة المسلمين وفرسانهم الذين راحوا يهاجمون الروم في حرية من الأجناب . ودفع الهجوم عن الأجناب أصعب من دفعه عن المواجهة .

ولقد كان السبب الثاني ولعله القاتل أن الروم في تحركهم من بيسان قد بنوا خطتهم على أساس أنهم سوف يجدون المسلمين في غفلة على غير استعداد لمواجهة هجمتهم المفاجئة ، وأن هذه المفاجأة سوف تفعل فعلها في القضاء على ذلك الجيش النائم في جوف الليل . ولكن مفاجأة الروم قد انقلبت عليهم ، فأين كان الخطأ في خطة سكلاريوس ؟ لقد كان خطأه الجسيم أنه لم يتأكد من الافتراض الذي وضع خطته على أساسه . كان عليه أن يجري الاستخبارات اللازمة في الميدان وأن تصل عيونه إلى معسكر المسلمين لتؤكد له نومهم حتى يعطي أمر الحركة والضرب ، ولكنه ذهب ليدهم قوماً نوّماً فوجدهم صفوفاً متراصة من المشاة والفرسان وأخذته المفاجأة حتى أسلمته إلى الخطأ الثالث .

والخطأ الثالث أن سكلاريوس لم يضع ابتداء مخططات بديلة ، ولم يكن ذهنه من الخصوبة في الحرب بحيث يتصرف في حينها بالمخطط المناسب . لقد أسند ظهر جيشه إلى مستنقعات الوحل التي أحدثها ببثق المياه ولم يضع بتاتا في اعتباره ماذا سيكون فيما لو دارت عليه الدائرة ؟ إنه لو فكر هكذا لربما استطاع أن يرتد إلى بيسان فيتحصن بها مستفيدا من أوحاله مرة أخرى ، ولكنه حفر حفرة لعدوه فوقع فيها ، وفقد خط الرجعة إلى بيسان فغرز رجاله أنفسهم حتى لحق بهم المسلمون وراحوا يصطادونهم من الطين بالرماح في مسلاة دونها اصطياد البط في البِرَك . إن عمر

الأراضي الواطئة بالمياه لإنشاء مستنقع صناعي أسلوب دفاعي جيد يقيم صعوبة بالغة للهجوم التكتيكي ، وفي حالة عدم وجود وسائل هندسية للعبور فإن مقاومة الاراضي المغمورة بالمياه تزداد إلى أن تبلغ الحد المطلق وكل هجوم ضدها ينتهي بفشل محقق كامل ، هكذا قال كلاوزفتـز(١) . ولهذا لم يهاجم المسلمون من خلال تلك الأراضي وإنما راحوا يغيرون على أنحاء الأردن . ولكن مجريات الأمور أدت في نهاية المطاف بالروم إلى أن يفقدوا ذلك الدفاع الممتاز بأن يخرجوا من ورائه ليقفوا أمامه !!

وبعد . فلم تكن سلبيات الروم وحدهـا هي صاحبـة المسؤوليـة عن نصر المسلمين ، فما لم تكن تلك الرؤية والبصيرة لدى خالد ليدرك أن مهاجمة الأرض المغمورة عمل فاشل فيتجنبه ويدرك أن خيله تمتاز على خيل الروم وأن تنظيم الروم لصفوفهم يكفل الحماية لهذه الفرسان والتعاون بينها وبـين مشاتهـم وأن صالـح المسلمين في التفريق بين فرسان الروم ومشاتهم ثم يصل من فوره إلى ابتكار الفعل الذي يكون رد فعله هو ذاته ما يهدف إليه . ولا يغيب أبدا في جميع مراحل العملية امتياز المقاتل المسلم بدنيا وتدريبيا ومعنويا وعقائديا .

كتب مونتجمري(٢) يجب على القائد أن يكون واضـح التفـكير قادرا على استخلاص العوامل الهامة في المشكلة التي تحيط به ثم يتمسك بها على ألا تغيب عن بصره ، ولا يسمح للتفاصيل الكثيرة أن تغرق ما حصل عليه لأنها هي أسس النجاح . والمشـاكل الحـربية في جوهرهـا بسيطـة ولـكن القـدرة على تبسيطهـا واستخلاص الهام منها هو الصعب ، ويجب على القائد أن يتميز بهذه القدرة مع تحلّيه بصفة بُعد النظر . وقد يتعرض القائد للفشل إذا لم يكن عقله منظما وتفكيره نقيا في جميع الأوقات » . كما قال « يجب على القائد أن يضع خطة العمليات بنفسه ولا تفرض عليه .. تحت أي ظروف أو بواسطة العدو ، لأن اقصى ما يطمع فيه العدو أن

(١) في الحرب ٣/٣٥ .
(٢) الحرب عبر التاريخ ٢٩ .

تتاح له الفرصة ليملي إرادته على المعركة . ولكن يمكن للقائد إحباط ذلك بافقاد العدو توازنه باستخدام خفة الحركة وإجباره على الأذعان لتحركاته وتهديده مع استخدام عامل المفاجأة . وهنا تظهر حنكة وبراعة القائد في المناورة والخداع مما يجعل العدو يتصرف ويتحرك طبقاً للضغط القوي المتواصل لهذا القائد » .

ترى ماذا يكون رأي مونتجمري في خالد بن الوليد إذا قرأ معركة فحـل بيسان ؟

النتيجة .. غلب المسلمون على أرض الأردن فاحتووها وأصابـوا من ريفـه أفضل ما ترك فيه الروم ، وصاروا مادتهم موفورة وخصبهم رغد ، وصار من بقي من الروم إلى الحصون يعتصمون بها ، وأقام المسلمون عليهم يلحون على حصونهم بفتحها فسألهم الروم بالمنطقة أن ينزلوا عن حصونهم مقابل الأمان .

من أبي عبيدة الى عمر

« بسم الله الرحمن الرحيم

لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبي عبيدة بن الجراح ، سلام عليك . فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد .

فالحمد لله الذي أنزل على المسلمين نصره وعلى الكافرين رجزه . أُخْبر أمير المؤمنين أصلحه الله أنا التقينا نحن والروم وقد جمعوا لنا الجموع العظام فجاؤونا من رؤوس الجبال وأطراف البحار وظنوا أنه لا غالب لهم من الناس فبرزوا لنا وبغوا علينا . وتوكلنا على الله ورفعنا رغبتنا إليه وقلنا حسبنا الله ونعم الوكيل ، ونهضنا إليهم بخيلنا ورجَّالتنا وكان القتال مَلِيَّان النهار ، أهدى الله فيه الشهادة لرجال من المسلمين منهم عمرو بن سعيد بن العاص ، وضرب الله وجوه المشركين واتبعهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم حتى اعتصموا بحصونهم فأصاب المسلمون عسكرهم وغلبوا على بلدهم وأنزلهم الله من صياصيهم وقد قذف في قلوبهم الرعب .

« فاحمد الله يا أمير المؤمنين أنت ومن قِبَلك من المسلمين على إعزاز دينـه

وإظهار الفُلْج [الفوز والظفر] على المشركين . فادعوا الله لنا بتمام النعمة والسلام عليك » . أ . هـ .

قال أبو عبيدة لسعيد بن[١] عامر بن حذيم ، إني قد كتبت إلى أمير المؤمنين كتابا أعلمه فيه بحسن صنع الله إلينا وبفتحه علينا ، وإني لا أريد أن أبعث بهذا الكتاب إلا مع رجل صدوق أمين فيخبر أمير المؤمنين بالأمر على وجهه ، وأحب أن يكون الرجل ممن يصدقه أمير المؤمنين ويعرف صلاحه .

فقال له سعيد بن عامر : فقد وجدته ؟

قال أبو عبيدة : فمن هو ؟

قال : أنا ، وقد عرفني أمير المؤمنين ، وقد كان في نفسي حيث رزقنا الله جهاد هؤلاء المشركين ونصرنا عليهم أن أستأذنك في الحج ، فأما إذ قد بدت هذه الحاجة فادفع إليّ كتابك فأكون أنا مبلغه عنك ثم أمضي إلى الحج وأرجو أن آتيك عاجلا إن شاء الله .

قال أبو عبيدة : أنت لعمري الثقة الصدوق عندنا .

فبعثه بالكتاب إلى أمير المؤمنين عمر .

وصالح المسلمون من كان بالحصون من بيسان وسائر الأردن على الأمان وأن يؤدوا الجزية ، ومن كان منهم من الروم أن يلحق بالروم ويخلي بلاد الأردن ، وأن يقيم منهم من أحب المقام على أن يؤدي الجزية ، وكتبوا بذلك كتابا ، فأقام قوم من الروم واتخذوا الضياع وتزوجوا وصارت لهم ذرية وكانوا يؤدون الجزية . وصالح أهل طبرية أبا الأعور السلمي على أن يشاطروا المسلمين المنازل في المدن وضواحيها فيدعون لهم نصفا ويجتمعون في النصف الآخر ، وعن كل رأس دينار كل سنة وعن كل جريب أرض جريب بر أو شعير أي ذلك حرث . ونزل قواد المسلمين وخيولهم فيها

(١) الازدي ١٨٥ حدثني أبو خداش عن سفيان بن سليم الازدي عن عبد الله بن قرط .

وتفرقت الأمداد في مدائن الأردن وقراها .

أما أهل الارض والقرى الذين فتحت أرضهم عنوة بغير صلح فقد اختلف المسلمون فيهم فقالت طائفة أن يغنموا أرضهم ويقسّموهم وقالت طائفة نتركهم .

من أبي عبيدة الى عمر

« بسم الله الرحمن الرحيم .

أما بعد . فإن الله ذا المن والفضل والنعم العظام فتح على المسلمين من أرض الروم ، فرأت طائفة من المسلمين أن يقروا أهلها على أن يؤدوا الجزية إليهم ويكونوا عمار الأرض ، ورأت طائفة منهم أن يقتسموهم . فليكتب إلينا أمير المؤمنين برأيه في ذلك أدام الله لك التوفيق وجميع الأمور » .

من عمر الى أبي عبيدة

« بسم الله الرحمن الرحيم .

من عبد الله عمر[١] أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح .

سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد .

فإنه بلغني كتابك تذكر إعزاز الله لأهل دينه وخذلان أهل عداوته وكفايته إيانا مؤونة من عادانا ، فالحمد لله على إحسانه إلينا فيما مضى وحسن صنيعه لنا فيما غبر الذي عافى جماعة المسلمين وأكرم بالشهادة فريقا من المؤمنين ، فهنيئا لهم برضاء ربهم وكرامته إياهم ، ونسأله ألا يحرمنا أجرهم ولا يفتنا بعدهم فقد نصحوا لله وقضوا ما عليهم ، ولربهم كانوا يعملون ولأنفسهم كانوا يهتدون .

« وقد فهمت ما ذكرت من أن الأرض التي ظهر عليها وعلى أهلها المسلمون

(١) الازدي ١٤١ حدثني محمد بن يوسف عن ثابت بن سهل بن سعد .

قالت طائفة تقر أهلها على أن يؤدوا الجزية إلى المسلمين ويكونوا عمار الأرض ، وقالت طائفة نقتسمهم .

« وإني نظرت فيما كتبت إليّ من هذا ففرق رأيي فيما سألتني عنه ، إلا أني قد رأيت أن نقرهم وأن نحمل الجزية عليهم وتقسمها بين المسلمين ، ويكونوا عمار الأرض فهم أعلم بها وأقوى عليها من غيرهم .

« أرأيتم لو أنا أخذنا أهلها واقتسمناهم ، من كان يكون لمن يأتي بعدنا من المسلمين ؟ والله ما كانوا إذن ليجدوا إنسانا يكلمونه ولا يكلمهم ولا ينتفعون بشيء من ذات يده ، وأن هؤلاء يأكلهم المسلمون ما داموا أحياء ، فإذا أُهلكنا وهلكوا أكل أبناؤنا أبناءهم أبدا ما بقوا ، وكانوا عبيدا لأهل الإسلام أبدا ما دام دين الاسلام ظاهرا . فضع عليهم[2] الجزية ، وكف عنهم السبايا وامنع المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم وأكل أموالهم إلا بحقها » .

فعمل أبو عبيدة بذلك وكان رأيه من رأي عمر .

انتهت عملية فحل ـ بيسان التي سحبت جيوش المسلمين من حول دمشق ، فعاد بهم أبو عبيدة مرة أخرى إليها . وإذ يذكر الرواة أن حصار دمشق الذي فتحت فيه امتد أربعة أشهر فإن ذلك يعني أنهم عادوا إليها في أواخر الثلث الأول من شهر ربيع الأول ١٤ هـ ـ أوائل مايو آيار ٦٣٥ م ، حيث كان فتح دمشق في النصف من رجب ١٤ هـ بعد حصار أربعة أشهر . بعبارة أخرى أن المسلمين قضوا ثلاثة أشهر في استلام الاردن وعقد الصلح مع أهله . وإذا كان مفهوم الأردن حينذاك قد امتد من الداخل حتى[2] البحر بحيث كان يشمل صور وعكا وحيفا فلا شك أن استسلام الأردن لم يشمل تلك المدن الثلاث فإن فتح مدن السواحل جميعا قد تأخر إلى زمن لاحق .

(١) في الأصل « فضع عنهم » ونرى الصواب كما أثبتنا .

(٢) لتحديد المفهوم القديم للأردن انظر الخريطة رقم ٧ .

في مجلس هرقل

ولما قدمت أخبار الهزيمة على هرقل بأنطاكية عقد اجتماعا ضم عددا من فرسانهم وأشدائهم وشهده رجل من عظمائهم ، وحدثهم[1] هرقل فقال: « أخبروني ويلكم ، من هؤلاء القوم الذين تلقونهم ! أليسوا بشرا مثلكم ؟

قالوا : بلى .

قال : فأنتم أكثر أم هم ؟

قالوا : نحن أكثر منهم أضعافا ، وما لقيناهم في موطن إلا ونحن اكثر منهم .

قال : ويلكم ، فما بالكم تنهزمون إذا لقيتموهم ؟

فساد الصمت على الحاضرين حتى قام شيخ منهم فقال : أنا أخبرك أيها الملك من أين يُأتَوْن .

قال : فأخبرني .

قال : إنا إذا حملنا عليهم صبروا ، وإذا حملوا علينا لم يكذبوا ، ومن حيث أنا نحمل عليهم فنكذب ويحملون علينا فلا نصبر .

قال : ويلكم ، فما بالكم كما تصنعون وهم كما تزعمون ؟

قال الشيخ : ما أراه إلا وقد علمت من أين هذا ؟

قال هرقل : ومن أين هذا ؟

قال الرجل : من أجل ان القوم يقومون الليل ويصومون النهار ويوفون بالعهد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا يظلمون أحدا ويتناصفون فيما بينهم ، ومن أجل أنا نشرب الخمور ونركب الحرام وننقض العهد ونغصب ونظلم ونأمر بسخط الله وننهى عما يرضي الرب ونفسد في الأرض .

(١) الأزدي ١٥٠ حدثني أبو جهضم [موسى بن سالم ، صالح الحديث] عن عبد الملك بن السليك [نجهله] عن عبد الله بن قرط الثمالي [صحابي من أعلام الفتح] .

قال هرقل : صدقتني والله . والله لأخرجن من هذه القرية ، ولأدعَنّ هذه البلدة ومالي في صحبتكم من خير وأنتم هكذا .

قال له الشيخ : أنشدك الله أيها الملك أن تترك سورية وهي جنة الدنيا للعرب ، ونخرج منها ولم نقاتل ونجهد .

قال : قد قاتلتموهم غير مرة بأجنادين وفحل[1] ودمشق والاردن وفلسطين وحمص وفي غير موطن من المواطن ، كل ذلك تنهزمون وتفرون وتُغْلبون .

قال الرجل : أنشدك الله أيها الملك أن تخرج وحولك من الروم عدد الحصى والتراب والذر لم يلقهم منهم إنسان ثم تريد أن تخرج منها وترجع بهؤلاء جميعاً من قبل أن تقاتلوا .

وهم كذلك في نقاشهم قدم على هرقل وفد أهل قيسارية ووفد أهل إيلياء [القدس] يخبرونه[2] بتمسكهم بأمره وبإقامتهم على طاعته وبخلافهم العرب وكراهيتهم لهم ، ويسألونه المدد ويستنصرونه وإلا أمكنوا المسلمين من أنفسهم . فرأى هرقل حينئذ أن يستمر في الحرب وأن يبعث الجنود وأن يقيم هو بأنطاكية .

مرج الروم [3]

بعث هرقل بطريقا يدعى توذرا حتى نزل بمرج دمشق وغربها . وكان هناك

(١) وفق ترتيب الأزدي لمعارك فتوح الشام جعل فتح دمشق قبل معركة فحل ، ثم حمص بعد دمشق وقد وضع هذه الحكاية بعد سقوط حمص. ولكن من حيث خالفنا الأزدي وأخذنا بأن فحل كانت قبل فتح دمشق ثم سقطت حمص بعد ذلك دون دفاع جاد من الروم فقد رأينا أن هذا ـ بعد فحل ـ هو موضع هذا الاجتماع .

(٢) الازدي ١٥٢ بنفس الإسناد السابق .

(٣) الطبري ٥٩٨/٣ ولم يسندها إلى أي راو ، والظاهر أنه أخذها عن سيف ، فقد ذكر في الفصل التالي عن سيف قوله « ... ولما بلغ هرقل الخبر بمقتل أهل المرج ، امر أمير حمص بالسير .. » ولم يذكر هذه الموقعة أي مصدر آخر . وفي الخبر من الاضطراب مآخذ متعددة تجعلنا نتشكك في صحته ، فقد أدرجه الطبري في أحداث عام ١٥ هـ وقال أن أبا عبيدة خرج بخالد بن الوليد من فحل إلى حمص

بطريق رومي آخر اسمه شنس نزل بمرج الروم في خيل مثل خيل توذرا إمدادا له ودعما لحامية حمص . وكان كل من توذرا وشنس في معسكر مستقل .

وبدأ أبو عبيدة بالذين في مرج الروم[1] وقد هجم عليهم الشتاء والجراح فيهم فاشية ، فنازله شنس يوم نزل عليه . وقد كان خالد تجاه توذرا وكان أبو عبيدة تجاه شنس . وباتوا ليلتهم ، فلما أصبحوا وجدوا الأرض بلاقع [يعني خاوية] من توذرا ، وعلم خالد أنه قد رحل نحو دمشق ، فتبعه خالد من ليلته في قوة سريعة من الفرسان .

كان يزيد بن أبي سفيان مرابطا حول دمشق ، فبلغه مسير توذرا إليه فاستقبله فاقتتلوا ، ولحق بهم خالد وهم يقتتلون فأخذهم من خلفهم بين قواته وقوات يزيد وقُتل الروم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وقتل خالد توذرا فلم يفلت منهم إلا الشريد ، واستولى المسلمون على دوابهم وركائبهم وأدواتهم وثيابهم .

ثم عاد يزيد تجاه دمشق وعاد خالد إلى أبي عبيدة وهو يقول :

نحن قتلنا تَوْذَراً وشَوْذَراً ... وقبلَه ما قد قتلنا حيدرا

نحن أزرنا الغيضة الأكيدرا .

هذا في حين قاتل أبو عبيدة شنس بمرج الروم بعد خروج خالد وقتلهم حتى امتلأ المرج من قتلاهم وأنتنت الأرض من جيفهم وهرب منهم من استطاع الهرب فلم يدعهم يفلتوا وإنما تتبعهم المسلمون وركبوا أكساءهم[2] إلى حمص .

وانصرف بمن أضيف إليهم من اليرموك ، ولم تكن فحل من أحداث عام ١٥ هـ ولا اليرموك . ولم تكن حمص هي التالية لفحل وإنما كانت دمشق قبلها وفي الطريق إليها .

(١) لم تحدد الرواية موقع مرج الروم ولم نقف له على أي ذكر آخر ولم نجده في أي مصدر من مصادر البلدانيين . ويبدو أنه ليس اسما للمكان وإنما صفة له بمعنى أن المقصود المرج الذي كان به هؤلاء الروم .

(٢) أدبارهم .

دمشق وحمص

فتح دمشق

قال زكريا بن محمد القزويني عن دمشق : قصبة بلاد الشام وجنة الأرض لما فيها من النضارة[1] وحسن العمارة ونزاهة الرقعة وسعة البقعة وكثرة المياه والأشجار ورخص الفواكه والثمار . قال أبو بكر الخوارزمي « جنان الدنيا أربع ، غوطة دمشق وصُغْد سمرقند وشِعْب بَوّان وجزيرة الأُبُلَّة ، وقد رأيتها كلها فأفضلها غوطة دمشق » . وهو بلد[2] قد خرقته الأنهار وأحدقت به الأشجار وكثرت به الثمار . وهي أجل مدينة بالشام[3] كلها ، في أرض واسعة بين جبال تحيط بها مياه كثيرة وأشجار وزروع متصلة ، وتسمى تلك البقعة الغوطة ، عرضها مرحلة في مرحلتين ، ليس بالمغرب[4] مكان أنزه منه .

كانت دمشق تتربع الغوطة أسفل جبل قاسيون الذي يقع إلى الشمال منها . وكانت محصنة بأسوار سميكة عالية تحيط بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم في حيز طوله حوالي ١٦٠٠ مترا وعرضه نحو من كيلومتر واحد . وكان يحيط بالسور خندق مملوء بالماء ، يقترب منه حتى يكاد يلاصقه في بعض المواضع أو يبتعد مسافة قد تصل إلى عشرين مترا في مواضع أخرى .

---

(١) آثار البلاد وأخبار العباد ١٨٩ .

(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ١٥٧ .

(٣) الاصطخري ٤٥ .

(٤) لما كان الاصطخري من مدينة إصطخر بإيران اعتبر ما كان بالشام ومصر مغربا . وكذلك ابن خرداذبه والبلدانيون المشرقيون .

وقد استعنا في هذا الفصل بخريطة لمدينة دمشق تفضل بوضعها وألحقها بالجزء الثاني من كتاب تاريخ مدينة دمشق الاستاذ المحقق د . صلاح الدين المنجد أرجعها إلى القرن السادس ، وقد ظهر بها عشرة أبواب ، فما جاء ذكره في فتح دمشق ستة منها هي الباب الشرقي وباب[1] توما وباب الفراديس وباب الجابية والباب الصغير وباب كيسان . وغير هذه الأبواب لم يرد لها ذكر باب السلامة سمي بذلك تفاؤلا لأنه لا يتهيأ القتال من ناحيته لما تجاهه من الأنهار والأشجار ، وهذا يبرر عدم ذكره فوجوده أو عدمه من الناحية التكتيكية سواء ، ولكن وضعه بالنسبة إلى السور في الخريطة المشار إليها يدلنا على أنه جزء منه لم يستحدث . أما باب الجينيق فلم نعثر له على ذكر في الفتح ولا في المصادر التي رجعنا إليها في عصور لاحقة الأمر الذي يدعونا إلى افتراض عدم وجوده في عصر الفتح . وأما باب الجنان وهو باب النصر فهو مستحدث وكذلك باب الفرج أحدثه الملك العادل نور الدين حذفناها جميعا من الخريطة رجوعا بها إلى العصر الذي ندرسه .

وسور دمشق بناه الرومان فيما بين عام ١٠٥ و ٢٩٥ م . كان[2] ارتفاعه نحوا من عشرين قدما [حوالي ٦ متر] وسمكه خمسة عشر قدما ، وتوازي جوانبه شوارع المدينة المستقيمة عدا جانبه الشمالي الذي كان يحاذي نهر بردى . وكان على سور دمشق أبراج بارزة مربعة الشكل يبعد كل منها عن الذي يليه خمسين قدما تقريبا . وكان يوجد في عدة مواضع من السور بعض الأبنية الصغيرة وبيوت للسكنى لإقامة أفراد الحامية الموكول إليهم حراسة السور . وكان السور مبنيا بالحجارة الضخمة وكانت أبوابها مصفحة بالحديد .

كان اليوم الحاسم لمعركة فحل - بيسان هو يوم الاثنين ٢٨ من ذي القعدة ١٣ هـ ٢٣ يناير كانون الثاني ٦٣٥ م . وكان فتح دمشق يوم الأحد ١٥ رجب

(١) أبواب الشرقي وتوما والفراديس والجابية والصغير وكيسان جميعها كانت أبوابا رومانية . الصغير كان أصغرها جميعاً وباب الجابية كان الباب الغربي الذي يخرج منه الذاهب إلى الجابية .

(٢) الحواضر الاسلامية الكبرى ٣١ عن Kremer : Orient Under the Caliphs 141

١٤ هـ ٣ سبتمبر أيلول ٦٣٥ م ، فبين اليومين سبعة أشهر وعشرة أيام . وقد استمر حصار دمشق أربعة[1] أشهر على ما نختاره .

والرواة يجمعون أو يكادون على أن فتح دمشق قد تم عام ١٤ هـ . وقفنا على اثنتين وعشرين رواية بهذا في المصادر التي بين أيدينا ، تسع منها تضيف أنه كان في شهر رجب ١٤ وتخصص رواية للأزدي وروايتان عن ابن اسحق أنه كان في النصف من رجب ، خلافا لرواية سيف ابن عمر وحده أنه كان في شوال ورواية أخرى أنه كان في شهر ذي القعدة . ونترك تفصيل ذلك[2] للهامش .

(١) ابن عساكر ٤٩٩/١ قال ابن عائذ قال الوليد عن يحيى بن حمزة ، أخبرني راشد بن داود[الصنعاني] ، عن شراحيل بن مرثد [قال فحاصروها أربعة أشهر] .

البلاذري ١٤٧ حدثني القاسم ، قال حدثنا أبو مسهر ، عن يحيى بن حمزة ، عن أبي المهلب الصنعاني [محمود بن غيلان] ، عن أبي الأشعث الصنعاني أو أبي عثمان الصنعاني [أن أبا عبيدة حاصرهم أربعة أشهر] .

ابن عساكر ٤٩٧/١ ذكر أبو عثمان سعيد بن كثير بن عفير المصري في تاريخ فتح دمشق فقال [حاصروها أربعة أشهر ، ومنهم من قال حاصروها أربعة عشر شهرا] .

البلاذري ١٤٤ [رجع المسلمون لحصار دمشق لأربع عشرة ليلة بقيت من المحرم ١٤ هـ] وهذه الرواية تعني أن الحصار استمر ستة أشهر .

الطبري ٤٤١/٣ زعم الواقدي أن حصار المسلمين لها كان ستة أشهر .

الطبري ٤٣٥/٣ س ش س عن أبي عثمان عن خالد وعبادة [أن حصار دمشق كان نحوا من سبعين ليلة] .

وربما كان سبب الخلاف بين الرواة حول فترة حصار دمشق أن جيوش المسلمين عادت إلى حصارها تباعا بحيث لم يكن هناك يوما محددا لاعتباره ابتداء الحصار . والذي نراه أن تصفية الوضع في الاردن بعد معركة فحل بيسان استغرق حوالي ٣ أشهر وأن حصار دمشق دام ٤ أشهر بعدها .

(٢) لأهمية هذه الروايات من حيث بيان الترتيب التاريخي لعمليات فتح الشام فإننا نضعها هنا استكمالا لتلك التي سبق أن أوردناها تحت عنوان « بعد أجنادين » .

الأزدي ١٠٦ حدثني يزيد بن يزيد بن جابر عن أبي أمامة [افتتحنا دمشق لسنة أربع عشرة يوم الأحد لثلاثة عشر شهراً من امارة عمر رضي الله عنه إلا سبعة أيام = ١٥ رجب ١٤ هـ] تاريخ خليفة بن خياط ١١٢/١ قال ابن الكلبي « يوم الأحد للنصف من رجب سنة أربع عشرة » .

ابن عساكر ٤٩٣/١ أخبرنا أبو محمد هبة الله بن احمد بن محمد الأكفاني ، نا أبو محمد عبد العزيز

بن احمد الكتاني ، انا ابو محمد بن أبي نصر ، انبا أبو الميمون بن راشد ، انبا ابو زرعة عبد الرحمن بن عمرو ، حدثني عبد الرحمن بن ابراهيم ، نا الوليد بن مسلم ، قال حدثني الأموي [قال ١٤ هـ] .

قال ابو زرعة وحدثني محمود بن خالد ، قال عن محمد بن عائذ ، عن الوليد بن مسلم ، عن عثمان بن حصن بن علاق ، عن يزيد بن عبيدة [قال ١٤ هـ] .

قال أبو زرعة فتحت دمشق سنة أربع عشرة في رجب .

أخبرنا أبو الحسين بن علي بن أشليها المصري ، وابنه أبو الحسن علي بن الحسين قالا ، أنا ابو الفضل بن الفرات ، أنا ابو محمد بن أبي نصر ، أنا ابو القاسم علي بن يعقوب بن أبي العقب ، أنا أبوعبد الملك أحمد بن ابراهيم القرشي، نا محمد بن عائذ القرشي، نا الوليد، عن عثمان بن الحصن ، عن يزيد بن عبيدة [قال ١٤ هـ] .

ابن عساكر ٤٩٤/١ أخبرنا أبو محمد بن الأكفاني ، وأبو محمد عبد الكريم بن حمزة السلمي ، قالا نا ابومحمد عبد العزيز بن احمد التميمي ، أنا ابوالقاسم تمام بن محمد الرازي وعبد الوهاب بن جعفر الميداني ، قالا انا ابو الحارث احمد بن محمد بن عمارة بن أبي الخطاب يحيى بن عمرو بن عمارة الليثي ح .

قال تمام وأخبرني أبو اسحق بن سفيان إجازة ، قالوا ثنا احمد بن المعلي ، ثنا عبد الرحمن بن ابراهيم ، حدثنا الوليد بن مسلم ، قال سمعت أشياخنا يقولون [١٤ هـ] .

أخبرنا أبو محمد بن عبد الرحمن بن أبي الحسن بن ابراهيم الداراني ، أنا أبو الفرج سهل بن بشر الاسفرايني ، انا ابو بكر الخليل بن هبة الله بن الخليل ، انا عبد الوهاب بن الحسن الكلابي ، أنا أبو الجهم احمد بن الحسين بن طلاب ، نا العباس بن الوليد ، ثنا صالح ، أخبرنا أبو مسهر قال ، سمعت سعيد بن عبد العزيز يقول .. [دمشق ١٤ هـ واليرموك ١٥ هـ] .

ابن عساكر ٤٩٥/١ أخبرنا ابو القاسم بن السمرقندي ، انبا عمر بن عبيد الله بن عمر ، أنا أبو الحسين بن بشران ، انبا عثمان بن احمد بن عبد الله ، نا حنبل ، ثنا عاصم بن علي ، اخبرنا أبو معشر [قال رجب ١٤ هـ] .

قال ونا حنبل بن اسحق ، ثنا هلال بن العلاء ، ثنا عبد الله بن جعفر الرقي ، نا مطرف بن مازن اليماني ، عن معمر .. [قال رجب ١٤ هـ] .

أخبرنا ابو محمد عبد الكريم بن حمزة السلمي ، أنا أبو بكر احمد بن علي بن ثابت ح .

أخبرنا أبوالقاسم بن السمرقندي ، انا ابو بكر بن الطبري ، قالا أنا ابو الحسين بن الفضل ، انبا عبد الله بن جعفر ، نا يعقوب ، نا حامد بن يحيى ، نا صدقة بن سابق ، عن محمد بن اسحق [وقال رجب ١٤ ثم شتا أبو عبيدة بدمشق] .

قال وثنا يعقوب ، حدثني سلمة ، عن احمد بن حنبل ، عن اسحق بن عيسى ، عن أبي معشر

[قال فتحت دمشق رجب ١٤ هـ واليرموك رجب ١٥] .

أخبرتنا أم البهاء فاطمة بنت محمد بن احمد بن البغدادي ، قالت أخبرنا أبو طاهر أحمد بن محمود بن احمد بن محمود الثقفي ، انا أبو بكر بن المقرىء ، نا محمد بن جعفر الزراد المنيحي ، حدثنا عبيد الله بن سعد ، نا عمي ، نا أبي ، عن ابن اسحق [قال رجب ١٤ هـ] .

ابن عساكر ٤٩٦/١ أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، أنا ابو الحسين بن النقور ، أنا أبو طاهر المخلص ، أنا أحمد بن عبد الله بن سعيد بن سيف ، نا السري بن يحيى ، نا شعيب بن ابراهيم ، أخبرنا سيف بن عمر [قال شوال ١٤ هـ]

أخبرنا أبو غالب الماوردي ، أنا أبو الحسن محمد بن علي السيرافي ، ثنا أبو عبد الله أحمد بن اسحق القاضي ، نا أحمد بن عمران ، نا موسى بن زكريا أخبرنا خليفة بن خياط [قال ١٤ هـ] .

وقال به ابن الكلبي . قال وحدثنا خليفة ، ثنا بكر بن سليمان عن ابن اسحق [قال الأحد النصف من رجب ١٤] .

قال وحدثنا خليفة ، قال وحدثني بكر بن عطية [قال حاصرهم من رجب حتى شوال ١٤ هـ]

أخبرنا أبو القاسم اسماعيل بن احمد السمرقندي ، أنا أبو القاسم علي بن أحمد بن محمد بن البسري ، أنا أبو طاهر المخلص ، إجازة ، أن أبا محمد عبيد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن خلف السكري ، حدثهم قال دفع إليّ أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المغيرة الصيرفي كتابه وأخبرني عن أبيه أنه قرأ بخط أبي عبيد القاسم بن سلام الثقة ، وأنه سمعه من أبيه محمد بن المغيرة ، وأن أباه قرأه على أبي عبيد ، قال أبو محمد فنسخته وقرأته ، حدثني عبيد [قال ١٤ هـ] .

ابن عساكر ٤٩٧/١ أخبرنا أبو محمد الأكفاني ، ثنا عبد العزيز الكتاني ، انبا أبو محمد بن أبي نصر ، انبا ابو القاسم بن أبي العقب ، أنا أبو عبد الملك احمد بن ابراهيم القرشي ، نا محمد بن عائذ ، نا الوليد بن مسلم ، قال حدثني الشيخ الأموي عن أبيه [قال نزلوا على دمشق رجب ١٣ هـ وفتحت ١٤ هـ]

ابن عساكر ٤٩٩/١ قال فأخبرني عبد الرحمن بن ابراهيم ، أخبرنا الوليد بن مسلم حدثني الأموي [قال نزلوا عليها في رجب ١٣ هـ] .

ابن عساكر ٥٠٢/١ عن سعيد بن عبد العزيز قال ، ونا ابن عائذ ، حدثني عبد الأعلى بن مسهر ، حدثني غير واحد عن الأوزاعي [قال رجب ١٤ هـ] .

ابن عساكر ٥١٣/١ قالوا : وكان فتح دمشق سنة أربع عشرة في رجب ولخمس عشرة مضت من رجب يوم الأحد لثلاث عشرة شهرا من خلافة عمر إلا سبعة أيام .

البلاذري ١٤٦ ذكر الواقدي أن فتح دمشق كان سنة أربع عشرة .

الطبري ٤٤١/٣ زعم الواقدي أن فتح دمشق كان في سنة أربع عشرة .

وقال محمد بن اسحق كان فتح دمشق في سنة أربع عشرة في رجب

حصار دمشق

عاد أبو عبيدة بن الجراح بجيوش المسلمين من الأردن إلى دمشق فحاصرها من جميع جهاتها أربعة أشهر. حين يعتصم المدافعون بالأسوار يكون هدفهم انتظار الأمداد وكسر حدة اندفاعة المهاجمين، ويعمد الأخيرون إلى التضييق على المدينة ومداومة مهاجمتها وشن الغارات على ما هو كائن خارج الأسوار. فاستولى المسلمون على[1] غوطة دمشق وما حوت عنوة.

حين جاء خالد بن الوليد بجيشه من العراق نزل أمام الباب الشرقي، ثم سار حتى اجتمع بجيوش المسلمين في بصرى، وبعد أن فرغ من فتحها عاد إلى دمشق فنزل أمام نفس الباب حتى ساروا من دمشق إلى أجنادين، ثم عاد إلى مكانه أمام الباب الشرقي من دمشق. ثم سار منها إلى فحل، والآن يعود مرة أخرى إلى نفس[2] المكان. كان هناك أمام الباب الشرقي دير للنصارى على مسافة ميل منه يعرف بدير صليبا[3]، وكان نزول خالد في كل مرة تجاهه بينه وبين أسوار مدينة دمشق حتى عرف بدير خالد !!

كذلك كان أبو عبيدة ينزل على باب الجابية غربي المدينة فنزل تجاهه. ونزل يزيد على الباب الصغير إلى باب كيسان جنوبي المدينة [نسبة إلى كيسان مولى معاوية بن أبي سفيان وكان يسمى باب[4] يونس قبل الفتح]. أما شمالي السور

(١) البلاذري ١٤٤

(٢) الأزدي ١٠٤ حدثني يزيد بن يزيد بن جابر عن أبي أمامة.
ابن عساكر ١/٥٠٢، ٥٠٣ أخبرنا أبو الحسين عبد الرحمن بن عبد الله الخطيب، أنا جدي ابو عبد الله الحسن، أنا أبو الحسن الربعي، أنا ابو الفرج العباس بن محمد بن حبان، أنا ابو العباس بن الزفتي [أو الرقي]، أنا محمد بن محمد بن مصعب، أنا محمد بن مبارك، نا الوليد، عن يحيى بن حمزة، عن راشد بن داود.

(٣) معجم البلدان، ولكنه ذكر أنه كان تجاه باب الفراديس، ودير خالد كان تجاه الباب الشرقي باتفاق من روى.

(٤) الحواضر الاسلامية الكبرى ٣٤ عن ابن عساكر. التاريخ الكبير ١/٢٦٣.

رواة أن دمشق فتحت عام ١٤ هـ

فقد نزل عمرو بن العاص على باب توما ونزل شرحبيل بن حسنة على باب الفراديس .

وكان الباب الشرقي وباب الجابية هما اكبر[١] وأهم هذه الأبواب جميعا ، وقد جاء في صفتيهما أن باب الجابية كان ثلاثة أبواب الأوسط منها كبير ومن جانبيه بابان صغيران على مثال ما كان بالباب الشرقي . وكان من الأبواب الثلاثة ثلاثة أسواق ممتدة من باب الجابية إلى الباب الشرقي . ثم سد الباب الكبير والباب الشمالي منهما بعد ذلك وبقي الباب القبلي . وكان الجند وقوافل الجمال[٢] ودواب الحمل تمر من الباب الأوسط ، أما البابان الجانبيان فكانا لمرور الناس أحدهما للدخول والآخر للخروج .

قال الواقدي[٣] وغيره : بينا المسلمون على ابواب مدينة دمشق إذا أقبلت خيل للعدو كثيفة فخرجت إليهم جماعة من المسلمين فلقوهم بين بيت لهيا والثنيّة فولوا منهزمين نحو حمص على طريق[٤] قارا - وهو الطريق الشرقي المتاخم للصحراء - وتبعهم فرسان المسلمين حتى بلغوا حمص فوجدوا الروم قد عدلوا عنها ، لم يتوقفوا بها استمروا في فرارهم . ورآهم أهل حمص ففزعت قلوبهم لهروب هرقل عنهم ولما كان يبلغهم عن المسلمين من قوة الشكيمة وبأسهم وظفرهم فهتف الحمصيون يطلبون الأمان فأمّنهم المسلمون وكفوا أيديهم عنهم ، وقدم لهم أهل

(١) ابن عساكر ١٨٧/٢ .

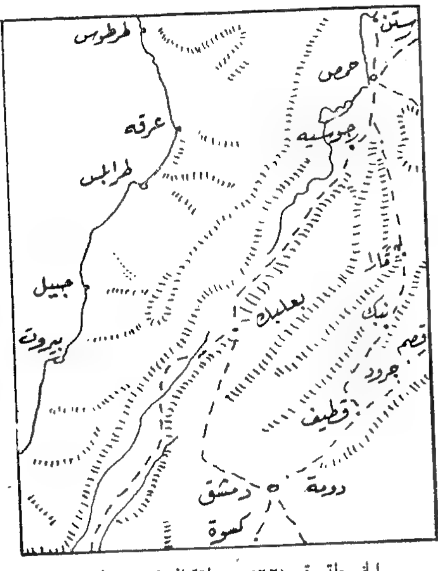
(٢) الحواضر الاسلامية الكبرى ٣٣ عن ابن عساكر ، التاريخ الكبير ٢٦٢/١ .

(٣) البلاذري ١٥٥

(٤) من حمص إلى جوسية ١٦ ميلا، إلى قارا ٣٠ ميلا، إلى النبك ١٢ ميلا، إلى القُطَيْفَة ٢٠ ميلاً، إلى دمشق ٢٤ ميلا [ابن خرداذبه ٧٦] وقارا قرية كبيرة على قارعة الطريق ، وهي المنزل الأول من حمص للقاصد إلى دمشق .. وهي على رأس قارة [القارة جبيل مستدق ململم في السماء لا يقود في الأرض كأنه جثوة وهو عظيم مستدير ، والقارة أصغر من الجبل] وبها عيون جارية يزرعون عليها [معجم البلدان ٢٩٥/٤] .

وحاليا فيها كنيسة للسيدة ومخطوطات مسيحية قديمة [المنجد ٥٤١] .

حمص الطعام لهم والعلف لخيلهم وأقاموا على نهر الأرند [العاصي] ، وكان المسلمون في مطاردتهم تلك يقودهم السمط بن الأسود الكندي .



الخريطة رقم (٢٢) - منطقة الشام الوسطى .

وأقام أبو الدرداء في قوة على مسافة خمسة كيلومترات الى الشمال من دمشق بسفح جبل قاسيون عند قرية برزة ، وتقدم ذو الكلاع[١] الحميري بقوة أخرى على رأس ليلة من دمشق [حوالي ٤٥ كيلومترا] نحو حمص وذلك حتى يقطعا على أي قوة للروم أن تحاول مرة أخرى الوصول إلى دمشق . وطال الحصار على أهل دمشق وازداد التوتر بينهم ، فبعث بطريق الروم[٢] رجلين يندسان بين المسلمين ليتجسسا

(١) الطبري ٤٣٩/٣ س ش س عن أبي عثمان عن خالد وعبادة .
البلاذري ١٤٤ .

(٢) ابن عساكر ٥٠٢/١ بالإسناد السابق .
و ٥١٠/١ أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، أنا أبو علي بن المسلمة ، نا أبو الحسن الحمّامي ، أنا أبو علي بن الصواف ، أنا الحسن بن علي القطان ، أنا اسماعيل بن عيسى العطار ، نا أبو حذيفة اسحق بن بشر ، قال : قال هؤلاء بإسنادهم .

على جنودهم وأمرائهم ويريا أحوالهم . كانا رجلين من غسان دخلا دمشق يتسوقان منها قبل حصارها ، فبعث إليهما البطريق فأمر أحدهما بالذهاب إلى معسكر المسلمين ليأتيه بخبرهم ثم رجع [وقيل كانوا عيونا ثم عادوا] فسألهم عما رأوا . فقالوا : أما الليل فطول قيام [بالصلاة] وأما النهار فالخير الظاهر والحرص على

خريطة رقم (٢٣) - حصار دمشق - المقياس ١ / ٥٠،٠٠٠

الجهاد ، وإن وجد أحدهم نعلاً أو كبّة شعر أو غزلاً دفعها إلى صاحب المقسم ، فإذا قال صاحب المقسم ما هذا ؟ قالوا : لا نستحله إلا بحله . فلما سمع بطريق الروم ذلك قال : ما لنا بهؤلاء طاقة ولا لنا في قتالهم خير ، فبدأ يفكر في الصلح ويعرضه .

البندقة في المكسرة[١]

وليَ أبو عبيدة حصار دمشق. وبالإضافة إلى مسئولية خالد تجاه الباب الشرقي ولاه أبو عبيدة قيادة الفرسان إذا وقع اشتباك مع الروم . وطال الحصار على أهل دمشق وبطريقهم نسطاس بن نسطورس ينتظر المدد والنجدة أن يبعث بها هرقل ، ولكنه كان يرى أن المسلمين يزدادون قوة وكثرة وأنهم لا يفارقونه حتى يظفروا به . فبدأ القائد الرومي يبعث إلى أبي عبيدة في طلب الصلح .

كان أبو عبيدة أحب إلى الروم[٢] من خالد بن الوليد ، وكان خالد أفظهما وأغلظهما عليهم ، وكان أبو عبيدة ألينهما وأقربه منهما استماعا إليهم وأقربهما منهم قربى وكانـوا يعرفون عنه أنه أقدم من خالد هجرة وإسلاما ، فكان أحب إليهم أن يكون كتاب صلحهم من أبي عبيدة ، ولذلك كانت رسلهم تأتي أبا عبيدة .

كما نذكر ما مر بنا حيث نزل خالد تجاه الباب الشرقي أول مرة حين قدم من العراق أن أسقف دمشق قدم إليه تحية وطلب منه أن يحفظ له عهدا فوعده خالد بذلك قبل أن يمضي إلى أبي عبيدة ويلتقي بالمسلمين . نستطيع القول إذاً أن الروم كانوا يكرهون خالدا لغلظته عليهم في الحرب ، أما شعب الشام المسالمون فقد توددوا

(١) شأن كثير من جوانب عملية فتح الشام ، كان الخلاف حول فتح دمشق . مَنْ مِنْ قادة المسلمين . اقتحمها عنوة ومن أي أبوابها ومن منهم دخلها صلحا ومن أي الأبواب ومن الذي عقد الصلح مع أهل دمشق ومن الذي كتب لهم كتابه وماذا كان فحواه وعلى منهجنا في هذه الدراسة ألا ندع جيوباً دون أن نبحثها ونصفيها وندعها على المحجة البيضاء ، فقد انتهينا إلى رأي قاطع هو الذي نقدمه للقارىء . وبعد ذلك نعقب بحيثياتنا فى هذا الشأن نقدمها للدارس والباحث .

(٢) الأزدي ١٠٤ حدثني يزيد بن يزيد بن جابر عن أبي أمامة .

إليه وتودد إليهم . لا تذكر الروايات التي بين أيدينا اسم [1] أسقف دمشق ولا تفصح إن كان روميا أو عربياً أو غير ذلك . وأيًّا ما كان فقد كان من رجال الدين المسيحي الذي دان به أهل دمشق ولم يكن من رجال الحرب الروم ، وعلى ذلك فقد كان يصلح لأن يكون ممثلا شعبيا لأهل دمشق . هذا الأسقف ـ صديق خالد ـ كان يقف على سور دمشق فيدعو إليه خالدا ، فإذا أتى سلم عليه وحادثه ، ونشأ بينهما نوع من المودة ، فقال الأسقف ذات يوم « يا أبا سليمان إن أمركم مقبل ولي عليك عدة [وعد] فصالحني [2] عن هذه المدينة ، فدعى خالد بدواة وقرطاس فكتب « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها . أعطاهم أمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم، ولا يُسكن شيء من دورهم . لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله ﷺ والخلفاء والمؤمنين ، لا يُعْرَضُ لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية » .

وعن الأوزاعي [3] قال : كنت عند ابي سراقة حين أتاه أهل دمشق النصارى بعهدهم فإذا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من خالد بن الوليد لأهل دمشق . أني أمنتهم على دمائهم وأموالهم وكنائسهم ألا تُسكن ولا تهدم. شهد يزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وقضاعي بن عامر . وكتب في رجب سنة أربع عشرة » .

---

(١) يقول فيليب حتي « سلمت المدينة على أثر خيانة ، وكان المفاوضون أسقف المدينة ، ومنصور بن سرجون جد القديس يوحنا الدمشقي ، وأحد كبار الموظفين في دائرة المال في الدولة » . [تاريخ سورية ١٠/٢] ولم يذكر مصدره . ولا نوافقه في ادعاء الخيانة فقد كان سقوط المدينة أمرا مؤكدا واقعا لا محالة وما فعله الأسقف قد أنقذ أهل دمشق من نكبة محققة وحقن دماءهم .

(٢) البلاذري ١٤٤ .

(٣) ابن عساكر ٥٠٢/١ أخبرنا أبو علي الحسين بن علي بن الحسين بن أشليها المصري ، وابنه أبو الحسن علي بن الحسين ، قالا أنا أبو الفضل بن الفرات ، أنا أبو محمد بن أبي نصر ، أنبا أبو القاسم بن أبي العقب ، أنبا أبو عبد الملك القرشي ، نا محمد بن عائذ القرشي ، حدثني عبد الأعلى بن مسهر ، حدثني غير واحد عن الأوزاعي.

هذا الاتصال الرومي بأبي عبيدة ، والشعبي بخالد ، ماذا كانت نتيجته ؟ نستطيع أن نجد ذلك في نص رسالة بعث بها أهل دمشق إلى هراكليوس وهو بأنطاكية « إن العرب [1] قد حاصرتنا وضيقت علينا وليس لنا بهم طاقة ، وقد قاتلناهم مرارا فعجزنا عنهم . فإن كان لك فينا وفي السلطان حاجة فامددنا وأغثنا وعَجِّل علينا فإنا في ضيق وجَهْد. وإلا فإنا قد أعذرنا واجتهدنا والقوم قد أعطونا الأمان ورضوا منا من الجزية باليسير » .

وجاء جواب هرقل « تمسكوا بحصنكم وقاتلوا عدوكم ، فإنكم إن صالحتموهم وفتحتم لم يفوا لكم وأجبروكم على ترك دينكم وقتلوكم بينهم وسَبَوْكم واقتسموكم . وأنا مُسَرِّح لكم الجيوش في أثر الرسول » .

كان قيصر الروم هرقل يلعب بسلاح الدعاية ... تشكيك في وفاء المسلمين وتخويف لأهل دمشق ووعد بتسيير جيوش النجدة . لا ندري إن كان الدمشقيون قد صدقوا ما قال لهم ولكنهم كانوا محكومين بحامية رومية تحكم تصرفاتهم فانتظروا المدد ، والمسلمون يلحون على أبواب المدينة كل قائد يحاول دخولها من الباب الذي تجاهه .

حصروا دمشق أربعة أشهر حصارا شديدا بالزحوف والترامي والمجانيق وأهلها معتصمون بأسوارها يرجون الغياث ، وهرقل بحمص ، ومدينة حمص بينه وبينهم [2] ، وذو الكلاع الحميري على رأس ليلة من دمشق [حوالي ٤٥ كيلومترا] تجاه حمص كأنه يريدها ، وجاءت خيول هرقل فتصدى لها ذو الكلاع فنزلوا تجاهه وأهل دمشق وحاميتها على حالهم . كانوا في بادىء الأمر يظنون الأمر كالغارات والحصارات السابقة ، فلما أيقنوا أن الأمداد لا تصل إليهم أدركهم الفشل واليأس

---

(١) الأزدي ١٠٥ حدثني عمرو بن مالك القيني عن أدهم بن محرز عن أبيه محرز بن أسد الباهلي .

(٢) الطبري ٤٣٨/٣ س ش س عن أبي عثمان ، عن خالد وعبادة .

ابن عساكر ٥١٥/١ أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، نا أبو الحسين بن النقور ، أنا أبو طاهر المخلص ، أنا أبو بكر بن سيف ، نا س ش س عن أبي عثمان ، عن خالد وعبادة .

وندموا على دخولهم ، وانحصارهم في دمشق ، وازداد رجاء المسلمين وأملهم في فتحها .

اقتحام دمشق

وولد لبطريق الروم نسطاس[١] بن نسطورس الذي دخل على أهل دمشق مولود فاحتفل بذلك وأولم وليمة لحامية المدينة فأكلوا وشربوا وغفلوا عن مواقفهم من الحراسة والدفاع ولا يشعر بذلك أحد من المسلمين إلا ما كان من خالد فإنه كان لا يغمض له جفن ولا ينام ولا ينيم وكان يتابع أخبارهم ولا يخفى عليه من أمورهم شيء ، عيونه ذاكية وهو معنى بما تجاهه . أي عيون تأتيه بما وراء الأسوار والأبواب مغلقة ؟ يقول البلاذري[٢] إن بعض أصحاب الأسقف ـ صديق خالد ـ أتى خالدا في تلك الليلة فأعلمه أنها ليلة عيد لأهل المدينة وأنهم في شغل وأن الباب الشرقي قد ردم بالحجارة وترك ، وأشار عليه أن يلتمس سلما ، فأتاه قوم من أهل الدير الذي عنده عسكره بسلمين استعان بهما ، وذلك مقابل شرط شرطه خالد لأهل الدير بالتخفيف عنهم في خراجهم وأنفذ أبو عبيدة لهم[٣] شرطهم .

وكان خالد قد أعد سلالم من الحبال تنتهي[٣] بأوهاق [جمع وَهَق] وهي الحبال في أطرافها أنشوطة [حلقة]. فلما أمسى من ذلك اليوم الأحد الخامس عشر من شهر رجب ١٤ هـ ـ ٣ سبتمبر أيلول ٦٣٥ م وكان يوما مناسبا لذلك الاحتفال من حيث أنه يوم أحد فلا غرابة أن يحتفل البطريق فيه ومن حيث وقوعه في سبتمبر حيث يعتدل الجو ويطيب الاحتفال ، فأعلن خالد الاستعداد والطوارىء في جيشه الذي كان معه وهو الذي جاء به من العراق، واقترب بهم من السور ثم تقدم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي العجلي وأمثالهم من أبطاله الأشداء . وكانت تعلياته لسائر قواته « إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا إلينا [اصعدوا] وانهدوا

(١) يسميه دي جويه Nestouros أو Nestons أي Anastasius . هامش تاريخ مدينة دمشق ٤٨٦/١ عن Memoire Sur la Conquete de la Syrie

(٢) فتوح البلدان ١٤٤ .

(٣) الطبري ٤٣٩/٣ س ش س عن أبي عثمان عن خالد وعبادة .

للباب » . وكان خالد قد أعد أيضا القِرَب المنفوخة بالهواء ، حملوها على ظهورهم وعبروا بها خندقهم سباحة .

وقذفوا بأوهاق الحبال حتى اشتبك منها وهقان بأعلى السور وثبتا فيه ، فتسلق عليهما القعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي ومعهما باقي السلالم الحبال فأثبتاها جميعا بأعلى السور . كان هذا المكان الذي اقتحموا منه أحصن موقع بدمشق كلها ، أكثره ماء وأعرضه خندقا وأشده مدخلا ، فلم يبق من قوته كلها أحد إلا تسلق السلالم أو اقترب من الباب ، حتى إذا استقروا بأعلى السور حَدَر أكثرهم داخله وانحدر معهم وترك من جنده من يحمي ذلك المعبر ، هذا وحامية دمشق مشغولة بالطعام والشراب والاحتفال بالمولود لا يشعرون بشيء . وأمر خالد من على السور بالتكبير فكبروا ، وانقض من كان ما زال خارجاً على الباب وتكاثر المسلمون على سلالم الحبال يتسلقونها من الخارج ويهبطون إلى الداخل . وهاجم خالد بسرعة أول قوة وجدها ففرغ منها وانصب إلى الباب فقتل حراسه ـ وكانوا[١] رجلاً أو رجلين ـ وثار أهل المدينة وفزع الناس وتسارع كل منهم إلى مواقفه ولا يدرون ما الشأن . وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم ، واستغل خالد أثر المفاجأة فقطع ومن معه أغلاق الباب الشرقي بالسيوف وفتحوه فتدفقت قواته من خلاله ، ودارت معركة دمشق داخل دمشق تجاه ذلك الباب . ولا بد أن كان القتال شديداً مستميتاً فهو يدور الآن في الشوارع . ومع ذلك لم تبق من الروم قوة في ذلك القطاع إلا فرغ منها خالد ـ وذلك مع طلوع الشمس .

وكما ذكرنا قبل أن مدينة دمشق كانت حوالي كيلومتر عرضا من الشمال إلى الجنوب وحوالي ١٦٠٠ مترا طولا من الشرق إلى الغرب ، فلم تكن بالتي تخفى أخبارها داخلها . وبلغ خبر اقتحام الباب الشرقي إلى حاميات سائر الأبواب . واتخذ الروم قرارهم فورا بالصلح مع قواد المسلمين ، وفوجىء هؤلاء القواد بحامية دمشق تفتح أبوابها ويقبلون شروطهم في حين كان جيش خالد يدخل غازيا يعمل

(١) البلاذري ١٤٥ .

السيف في جند الروم وهم يدافعون ما أمكنهم حتى يدخل الآخرون صلحا فينقذ الصلح الموقف ويحفظ عليهم حياتهم وحريتهم . وتدفق جنود المسلمين من كل باب إلى داخل دمشق حتى التقوا جميعا بوسط المدينة .

كان الأسقف يسير مع خالد ناشرا[١] كتابه الذي كتب له ، فقال بعض المسلمين : والله ما خالد بأمير فكيف يجوز صلحه؟ قال أبو عبيدة : إنه يجيز على المسلمين أدناهم . وأجاز صلحه وأمضاه ولم يلتفت إلى ما فتح عنوة فصارت دمشق صلحا كلها وفتحت أبواب المدينة . وكتب أبو عبيدة بذلك كله إلى عمر فأنفذه . وفي رواية البلاذري[١] عن أبي مخنف أن خالدا دخل دمشق بقتال وأن أبا عبيدة دخلها بصلح فالتقيا بالزياتين .

وذكر يزيد بن مرثد قال حدثني عصابة من قومي شهدوا فتح دمشق قالوا : دخلها أبو عبيدة بن الجراح من باب الجابية بالأمان ، ودخل خالد بن الوليد من باب الشرقي عنوة بالسيف يَقْتُل ،فالتقيا عند سوق الزيت، فلم يدروا أيهما كان أول العنوة أو الأمان فاجتمعوا فقالوا : والله إن أخذنا ما ليس لنا فسفكنا الدماء وأخذنا الأموال لنأثَمَنّ[٢] ، ولئن تركنا بعض ما لنا لا نأثم . فاجتمعوا على أن أمضوه صلحا .

هذه الرواية تذكر أن لقاء المسلمين كان عند سوق الزيت ، وفي روايات أخرى قالت عند المَقْسِلاَّط ـ قال البلاذري[٣] وهو موضع النحاسين بدمشق ـ

---

(١) البلاذري ١٤٥ .

(٢) ابن عساكر ٥٠٣/١ قرأت على أبي محمد عبد الكريم بن حمزة السلمي ، عن عبد العزيز بن احمد الكتاني ، أنبا تمام الرازي ، أنبا أبو بكر أحمد بن عبد الله بن الفرج القرشي ، انا ابو بكر محمد بن خريم بن مروان بن عبد الملك ، ثنا المسلم بن يحيى، نا سويد بن عبد العزيز ، حدثني الوضين بن عطاء ، عن يزيد بن مرثد .

(٣) فتوح البلدان ١٤٥.

وأضاف د. صلاح الدين[1] المنجد قوله : أصلها من كلمة Maccella والمكان كانت تلتقي فيه دون شك الأسواق المسقوفة وكان أمام مدخلها قوس عال يرفع تمثال رجل واقفا رافعا يده . ثم ذكر أن المرجح عنده أن المقسلاط كان بعد رأس البزورية بقرب

(١)ابن عساكر ٥٠١/١ ـ الهامش .

أكثر من تسع روايات ـ يؤمن تواطؤها على الكذب ـ أن المسلمين اقتحموا أحد أبواب دمشق فصالح الروم المسلمين على باب آخر . ثم وقع الخلاف بعد ذلك في التفاصيل ، وما ذكرنا هو ما أخذنا به ، أن خالد بن الوليد قد دخل دمشق من بابها الشرقي اقتحاما وعنوة . جاء ذلك في بعض روايات غير مسندة في فتوح البلدان ، وفي تاريخ مدينة دمشق ، كما جاء في أربع روايات مسندة نوردها فيما يلي الأخيرة منها هي التي عولنا عليها .

ابن عساكر ٤٩٦/١ أخبرنا أبو غالب الماوردي [نجهله] ، أنا أبو الحسن محمد بن علي السيرافي [نجهله] ، ثنا أبو عبد الله احمد بن اسحق القاضي [ثقة] ، نا احمد بن عمران [كان يضع الحديث ويركب الأسانيد على المتون] ، نا موسى بن زكريا [متروك] ، أخبرنا خليفة بن خياط [حافظ عالم ثقة] .

ابن عساكر ٥٠٣/١ قرأت على أبي محمد عبد الكريم بن حمزة السلمي ، عن عبد العزيز بن احمد الكتاني [ثقة] ، أنبا تمام الرازي [ثقة] ، أنا ابو بكر أحمد بن عبد الله بن الفرج القرشي [نجهله] ، أنا أبو بكر محمد بن خريم بن مروان عبد الملك [ثقة] ، ثنا المسلم بن يحيى [نجهله] ، نا سويد بن عبد العزيز [ليس بثقة] ، حدثني الوضين بن عطاء [وثقه قوم وضعفه آخرون] ، عن يزيد بن مرثد [خرج له أبو داود في مراسيله] ، حدثني عصابة من قومي شهدوا فتح دمشق .

ابن عساكر ٥٠٣/١ قرأت على ابن القاسم الخضر بن حسين بن عبدان [مسند دمشق وثّقه الذهبي] ، عن القاضي أبي عبد الله الحسن بن أحمد بن عبد الواحد [نجهله] ، أنا ابو المعمر المسدد بن علي بن عبد الله الأملوكي [فيه تساهل] ، أنبا أبي [نجهله] ، أنا أبو القاسم عبد الصمد بن سعيد القاضي [نجهله] ، نا عبد السلام بن العباس بن الزبير [نجهله] ، نا أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عفير [نجهله] عن عمه زرعه بن السفر [نجهله] ، عن أبي مخنف [ضعيف] ، حدثني محمد بن يوسف بن ثابت [نجهله] ، عن عباس بن سهل بن سعد [نجهله] .

ابن عساكر ٥١٦/١ أخبرنا ابو القاسم بن السمرقندي [ثقة توفى ٥٣٦] نا أبو الحسين بن النقور [صدوق مات ٤٧٠] ، أنا أبو طاهر المخلص [صالح ثقة مات ٣٩٣] ، أنا أبو بكر بن سيف نا السري بن يحيى [ثقة ثقة توفى ١٦٧] ، نا شعيب بن ابراهيم [صالح ثقة] ، نا سيف بن عمر [نقبل روايته] ، عن أبي عثمان [يزيد بن أسيد ، نجهله] ، عن خالد [بن معدان ـ ثقة توفى ١٠٣] وعبادة [بن نسي ـ ثقة مات ١١٨ هـ] .

مئذنة الشحم في الطريق المستقيم Lavia recta . ولقد رجعنا إلى قواميس اللغة الايطالية فوجدنا Maccella تعني المذبح إلا أن هذا لم يزد الأمر إيضاحا عندنا في شأن تحديد الموقع ، هذا ونشارك الدكتور المنجد الرأي فيما ذهب إليه ونذهب إلى أن المقسلاط كان بجهة مئذنة الشحم بينها وبين الباب الصغير جنوبي الطريق المستقيم العريض الواصل بين الباب الشرقي وباب الجابية ، فمن المنطقي أن يكون ذلك الطريق هو محور تقدم خالد بن الوليد داخل دمشق وذلك لاستقامته واتساعه ، وطبقاً

= الطبري ٤٤٠/٣ س ش س عن أبي عثمان عن خالد وعبادة [هم رجال السند السابق]

حكاية ثانية أن أبا عبيدة دخل دمشق من باب الجابية ويزيد بن أبي سفيان من الباب الصغير ، كلاهما دخلها عنوة في آن واحد وأن خالد بن الوليد هو الذي دخل صلحا من الباب الشرقي .

ابن عساكر ٥٠٧/١ أخبرنا أبو الحسين عبد الرحمن بن أبي الحديد ، أنا جدي أبو عبد الله ، أنبا أبو الحسن الربعي ، انا العباس بن محمد بن حبان ، أنا أبو العباس بن الزفتي ، أنبا وحشي وهو محمد بن محمد بن مصعب ، ثنا محمد بن المبارك الصوري ، نا الوليد ، قال وأخبرني صفوان بن عمرو ، عن عبد الرحمن بن جبير . [والسند امتزجت فيه حلقات الثقات بحلقات المجهولين] .

حكاية ثالثة أن يزيد بن أبي سفيان وحده هو الذي اقتحم قسرا من الباب الصغير حتى ركب دمشق فصالح راهبها خالدا وفتح له الباب الشرقي . رويت من ثلاثة أوجه :

ابن عساكر ٥٠١/١ أخبرنا أبو علي الحسين بن علي بن الحسين بن أشليها المصري وابنه أبو الحسن علي بن الحسين ، قالا : أنا أبو الفضل بن الفرات [رافضي مقيت ليس بثقة ، وثقه بعضهم] أنبا أبو القاسم بن أبي العقب [نجهله] ، أنبا أبو عبد الملك القرشي [نجهله] ، نا محمد بن عائذ القرشي [ثقة توفى ٢٣٣] ، نا أبو بكر مروان بن محمد [ثقة ضعفه ابن حزم] ، عن يحيى بن حمزة [ثقة] ، عن راشد بن داود الصنعاني [اختلفوا فيه] ، عن أبي عثمان الصنعاني .

ابن عساكر ٥٠٦/١ أخبرنا أبو البركات ، أنبا طراد بن محمد بن علي الزينبي ، أنا أحمد بن علي بن الحسن بن البادا ، أنا حامد بن محمد بن عبد الله الرفا ، قالا أنا علي بن عبد العزيز ، نا أبو عبيد ، حدثني أبو مسهر ، حدثنا سعيد بن عبد العزيز .

ابن عساكر ٥٠٩/١ أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، نا أبو بكر بن الطبري ، قالا : أنا أبو الحسين بن الفضل القطان ، انبا عبد الله بن جعفر بن درستويه ، نا يعقوب بن سفيان ، هشام بن عمار ، نا عبد الملك بن محمد ، نا راشد بن داود الصنعاني ، حدثني أبو عثمان الصنعاني شراحيل بن مرثد .

حكاية رابعة أن أبا عبيدة دخل دمشق عنوة ودخلها خالد صلحا .

لمقياس الرسم الذي استخدمه د . المنجد فإن الطريق يكون باتساع عشرة أمتار وبطول كيلومتر ونصف كيلو تقريباً وهو الطريق الوحيد الذي كان بدمشق على ذلك الاتساع والاستقامة .

هذا التحديد يعني أن خالدا قد اقتحم المدينة عنوة واستولى على ١٠٠٠ متر طولا منها بالقتال في حين دخلها أبو عبيدة من غربيها وتقدمت جنوده صلحا مسافة حوالي ٥٠٠ ـ ٥٦٠ مترا ـ بالإضافة إلى المسافة بين معسكرهم وباب الجابية ـ حتى التقوا بخالد وجنده ، ونرى أن قطع هذه المسافة بواسطة جند أبي عبيدة بعد الاتصال السريع والمفاوضات القصيرة التي تمت بين الروم وبينه تتناسب والزمن الذي يحتاجه جند خالد لقطع كيلومتر قتالا في شوارع المدينة [قتال المناطق المبنية] . كم من الزمن يلزم لذلك ؟ إذا قلنا ساعتين كان معناها أن جند خالد تقدموا بمعدل ٨ أمتار في الدقيقة . وإذا قلنا ثلاث ساعات كان معناها أنهم كانوا يتقدمون حوالي ٥ أمتار في الدقيقة ! ونرى أن تقدير ثلاث ساعات أو أكثر هو الأقرب إلى المعقول ، فإذا كان ذلك قد تم مع طلوع الشمس كما ذكر البلاذري ـ يعني حوالي الساعة الخامسة والنصف صباحا ـ فإن هذا يعني أن القتال داخل دمشق قد بدأ فيما بين الساعة الواحدة والساعة الثانية صباحا وأن تسلق السنور قد بدأ حوالي منتصف الليل ، وهو تقدير معقول إذ تكون الخمر قد عملت عملها برؤوس الجنود الروم في احتفالهم بمولودهم المشئوم .

= ابن عساكر ٥١٠/١ أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، أنا أبو علي بن المسلمة ، نا أبو الحسن الحمّامي ، أنا أبو علي بن الصواف ، أنا الحسن بن علي القطان ، نا اسماعيل بن عيسى العطار ، نا أبو حذيفة اسحق بن بشر ، قال : قال هؤلاء باسنادهم يعني منسوخة . ثم قال : ومنهم من قال أبو عبيدة هو الذي صالح وخالد الذي دخلها .
البلاذري ١٤٥ .

الثابت في اكثر من[١] رواية أن كتاب الأمان كتبه خالد بن الوليد لأسقف دمشق عن شعبها ، وأن القائد العام أبا عبيدة بن الجراح قد أقر ذلك الكتاب الذي تضمن النص لأهل دمشق على :

١ ـ الأمان على الدماء .

٢ ـ الأمان على الأموال .

٣ ـ الأمان على الكنائس من أن يسكنها المسلمون أو أن يهدموها . وهذا يعني الأمان على الدين .

وقد كتب هذا الأمان الذي أوردنا نصه إبان فتح دمشق في شهر رجب عام ١٤ هـ . قال الواقدي[٢] : كان فتح مدينة دمشق في رجب سنة أربع عشرة. وتاريخ كتاب خالد بصلحها في شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة ، وذلك أن خالدا كتب الكتاب بغير تاريخ [حيث كتبه قبل الفتح] فلما اجتمع المسلمون للنهوض إلى من تجمع لهم باليرموك أتى الأسقف خالدا فسأله أن يجدد له كتابا ويشهد عليه أبا عبيدة والمسلمين ففعل ، وأثبت في الكتاب شهادة أبي عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وغيرهم ، فأرخه بالوقت الذي جدده .

وشرط خالد بن[٣] الوليد لأهل الدير الذي يعرف بدير خالد شرطا في خراجهم بالتخفيف عنهم حين أعطوه سُلَّماً صعد عليه ، فأنفذه لهم أبو عبيدة .

وبذلك يكون الأمان قد شمل شعب دمشق كله . ولكن الروايات تذكر شيئا

(١) ابن عساكر ٤٩٦/١ أخبرنا أبو غالب الماوردي رنا أبو الحسن محمد بن علي السيرافي، ثنا أبو عبد الله احمد بن اسحق القاضي ، نا احمد بن عمران ، نا موسى بن زكريا ، أخبرنا خليفة بن خياط ، ثنا بكر بن سليمان عن ابن اسحق .
(٢) البلاذري ١٤٦ .
(٣) البلاذري ١٤٤ .

يحتاج إلى إيضاح ، من ذلك رواية تقول أن[1] خالد بن الوليد قال « أَقْتُلْهُم وأَسْبِهِم فإني فتحتها عنوة » فقال أبو عبيدة « لا . إني قد أمنتهم » . ورواية[2] تقول « فلم يدروا أيها كان أول العنوة أو الأمان ، فاجتمعوا فقالوا : والله إن أخذنا ما ليس لنا فسفكنا الدماء وأخذنا الأموال لَنَأْثَمَنّ ، ولئن تركنا بعض مالنا لا نأثم ، فاجتمعوا على أن أمضوه صلحاً » . هذا وأمثاله من الروايات ينصرف إلى قوات الروم التي كانت بدمشق فهم الذين لم يكونوا صالحوا من بادىء الأمر وهم الذين قاوموا المسلمين وقاتلوهم حتى كان الفتح عنوة رغما عنهم .

أما الصلح مع الروم فقد تم مع أبي عبيدة ، وجاء في ذلك نص واحد لم يتأيد من أي مصدر آخر ، ولم يكن على صيغة كتاب من أبي عبيدة للروم بل جاء في شكل كتاب من الروم إلى أبي عبيدة يشرطون فيه شروطا على أنفسهم . وهو نص غير مقبول عندنا وننقضه لأكثر من سبب . وتقول الرواية أن صاحب الرحى [هكذا مبهما] أرسل إلى أبي عبيدة فصالحه وأن أبا عبيدة تم لهم الصلح وكتب لهم كتابا :[3]

---

(1) الأزدي ١٠٤ حدثني يزيد بن يزيد بن جابر عن أبي أمامة .

(2) ابن عساكر ٥٠٣/١ قرأت على عبد الكريم بن حمزة السلمي عن عبد العزيز بن احمد الكتاني ، أنبا تمام الرازي ، أنا أحمد بن عبد الله القرشي ، أنا محمد بن خريم بن مروان ، ثنا المسلم بن يحيى ، نا سويد بن عبد العزيز ، حدثني الوضين بن عطاء ، عن يزيد بن مرثد ، حدثني عصابة من قومي شهدوا فتح دمشق .

(3) ابن عساكر ٥٠٤/١ قرأت على أبي القاسم الخضر بن الحسين بن عبدان ، عن القاضي أبي عبد الله الحسن بن أحمد بن عبد الواحد [نجهله] ، أنا أبو المعمر المسدد بن علي بن عبد الله الأملوكي [فيه تساهل] ، أنبا أبي [نجهله] ، أنا أبو القاسم عبد الصمد بن سعيد القاضي [نجهله] ، نا عبد السلام بن العباس بن الزبير [نجهله] . نا أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز عفير [نجهله] عن عمه زرعة بن السفْر [نجهله] ، عن أبي مخنف [ضعيف] ، حدثني محمد بن يوسف بن ثابت [نجهله] ، عن عباس بن سهل بن سعد [نجهله] .

« بسم الله الرحمن الرحيم .

« هذا كتاب لأبي عبيدة بن الجراح ممن أقام بدمشق وأرضها وأرض الشام من الأعاجم .

«إنك حين قدمت بلادنا سألناك الأمان على أنفسنا وأهل ملتنا . إنا شرطنا لك على أنفسنا أن لا نحدث في مدينة دمشق ولا فيما حولها كنيسة ولا ديرا ولا قَلاَّية [بناء مرتفع كالمنارة تكون لراهب ينفرد فيها] ولا صومعة راهب ، ولا نجدد ما خرب من كنائسنا ولا شيئا منها ما كان في خطط المسلمين ، ولا نمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها في الليل والنهار ، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل ، ولا نأوي فيها ولا في منازلنا جاسوسا ، ولا نكتم على من غَشّ المسلمين ، وعلى أن لا نضرب بنواقيسنا إلا ضربا خفيا في جوف كنائسنا ، ولا نظهر الصليب عليها ، ولا نرفع أصواتنا في صلاتنا وقراءتنا في كنائسنا ، ولا نخرج صليبنا ولا كتابنا في طريق المسلمين ، ولا نخرج باعوثا [الابتهال والتضرع ، والكلمة سريانية وقد تكون بمعنى كلمة قُدَّاس] ولا شعانين [عيد دخول المسيح بيت المقدس] ، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ، ولا نظهر النيران معهم في أسواق المسلمين ، ولا نجاورهم بالخنازير ، ولا نبيع الخمور ، ولا نظهر شركا في نادي المسلمين ، ولا نرغّب مسلما في ديننا ولا ندعو إليه أحدا ، وعلى أن لا نتخذ شيئا من الرقيق الذين جرت عليهم سهام المسلمين ، ولا نمنع أحدا من قرابتنا إن أرادوا الدخول في الإسلام ، وأن نلزم ديننا حيثما كنا ، ولا نتشبه بالمسلمين في لبس قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا في مراكبهم ، ولا نتكلم بكلامهم ، ولا نتسمى بأسمائهم ، وأن نجز مقادم رؤوسنا ، ونفرق نواصينا ، ونشد الزنانير على أوساطنا ، ولا ننقش في خواتيمنا بالعربية ، ولا نركب السروج ، ولا نتخذ شيئا من السلاح ولا نجعله في بيوتنا ، ولا نتقلد السيوف ، وأن نوقر المسلمين في مجالسهم ، ونرشدهم الطريق ، ونقوم لهم من المجالس إذا أرادوا المجالس ، ولا نطلع عليهم في منازلهم ، ولا نعلّم أولادنا القرآن ، ولا نشارك أحدا من المسلمين إلا لمن يكون للمسلم أمر التجارة ، وأن نَضِيف كل مسلم عابر سبيل من

أوسط ما نجد ونطعمه فيها ثلاثة أيام ، وعلى أن لا نشتم مسلما . ومن ضرب مسلما فقد خلع عهده .

« ضمناً ذلك لك على أنفسنا وذرارينا وأزواجنا ومساكننا ، وإن نحن غيرنا أو خالفنا عما اشترطنا لك على أنفسنا وقبلنا الأمان عليه فلا ذمة لنا . وقد حل لك منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق .

« على ذلك أعطينا الأمان لأنفسنا وأهل ملتنا وأقرّونا في بلادكم التي أورثكم الله عز وجل . نشهد الله على ما شرطنا لكم على أنفسنا وكفى بالله شهيدا » .

وأول ما يستلفت نظرنا في هذه الرواية أن سندها متهافت ـ كما بينا بالهامش ـ وأنه الأوحد في هذا الشأن فلم يتأيد بروايات أخرى ، ثم اشتمال النص على أمور غير مقبولة ولا معقولة مثل « ونقوم لهم من المجالس إذا أرادوا المجالس » ، هل يعقل أحد أن يكون ذلك من شروط الصلح وبندا من بنود معاهدته! ومثل « ولا نعلم أولادنا القرآن » فإنه يناقض ما خرجت جيوش المسلمين من أجله ويناقض قوله تعالى « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » ، فهل كان إبلاغ كلام الله هو الرسالة أو منعه وكتمانه ؟ وأين هذا من قوله[1] تعالى « إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار» ، وقوله[2] « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » ، ومثل قوله « ولا نظهر شركا في نادي المسلمين » وما نحسب الروم كانوا يقرون على أنفسهم بالشرك ، ومثل قوله « ولا نمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها » إذ من المعلوم أن النصارى لا يمنعون

(١) سورة البقرة ١٧٤ ـ ١٧٥

(٢) سورة البقرة ١٥٩ .

أحدا من دخول كنائسهم ... الخ . هذا الكتاب ما أوردناه هنا لإثباته ولكن للتحذير من الأخذ به . ولنقارن بنود هذه المعاهدة بنصوص المعاهدة التالية مباشرة وهي معاهدة بعلبك لتأكيد عدم صحة هذه البنود .

وفي رواية[1] سيف « ... وقد كان المسلمون دعوهم إلى المشاطرة فأبوا وأبعدوا ، فلم يفجأهم إلا وهم يبوحون لهم بالصلح ، فأجابوهم وقبلوا منهم ، وفتحوا لهم الأبواب وقالوا : ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب ... هذا استعراضاً وانتهابا وهذا صلحا وتسكينا ، فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح فصار صلحا . وكان صلح دمشق على المقاسمة ، الدينار والعقار ، ودينار عن كل رأس فاقتسموا الأسلاب ، فكان أصحاب خالد فيها كأصحاب سائر القواد ، وجرى على الديار ومن بقي في الصلح[2] جريب من كل جريب أرض ، ووقف ما كان للملوك ومن صوّب معهم فيئا وقسموا لذي الكلاع ومن معه ، ولأبي الأعور ومن معه ، ولبشير ومن معه » .

ويبدو أنه وقع خلط عند الرواة بين الصلحين ، يقول البلاذري[3] « وزعم الهيثم بن عدي أن أهل دمشق صولحوا على أنصاف منازلهم وكنائسهم . وقال محمد بن سعد : قال أبو عبد الله الواقدي : قرأت كتاب خالد بن الوليد لأهل دمشق فلم أر فيه أنصاف المنازل والكنائس ، وقد رُوي ذلك ولا أدري من أين جاء به من رواه . ولكن دمشق لما فتحت لحق بشر كثير من أهلها بهرقل وهو بأنطاكية فكثرت فضول منازلها [منازلها الخالية] فنزلها المسلمون » . ونرى أن تعليل الواقدي تعليل سليم وصحيح .

(١) الطبري ٣/٤٤٠ س ش س عن أبي عثمان عن خالد وعبادة .

(٢) في معنى الجريب انظر الطريق الى المدائن ص ١٤٤ و ١٤٥ .

(٣) فتوح البلدان ١٤٦ .

جاءت إلى عمر بالمدينة جموع ثمانية آلاف للخروج جهادا في سبيل الله ، فيهم ألفان وخمسمائة من النخع ، وجاءهم عمر في معسكرهم فقال : « إن الشرف فيكم يا معشر النخع لُمتَرَبَّع ، سيروا مع سعد [بن أبي وقاص] إلى إخوانكم من أهل العراق » وأرادهم أن يتجهوا إلى العراق فأبوا إلا الشام ، وأصر عمر على ذهابهم إلى العراق ، ثم قسمهم فأمضى نصفهم إلى العراق فكانوا أربعة آلاف وأمضى النصف الآخر إلى الشام[٣] . خرجوا إلى مقصدهم في حوالي ١٣ شعبان ١٤ هـ ١ اكتوبر تشرين الأول ٦٣٥ م وتقديرنا أنهم وصلوا دمشق بنسائهم وأثقالهم في حوالي ٢٨ شعبان ١٤ هـ ١٦ اكتوبر تشرين الأول ٦٣٥ م . قال جرير بن عبد[٤] الله البجلي : كان أهل اليمن ينزعون إلى الشام وكانت مضر تنزع إلى العراق ، فقال عمر « أرحامكم أرسخ من أرحامنا ، ما بال مضر لا تذكر أسلافها من أهل الشام » .

أمسيات الشعر

وكعادتهم دائما يسجلون مناسباتهم شعرا ، فقد كان فتح دمشق يستحق ذلك التسجيل بالرغم من ندرة الشعر في فتح الشام إذا ما قورن بوفرته في فتوح العراق وفارس والمشرق ، يعزون ذلك إلى أن الغالب على جيوش الشام العنصر اليمني من بني قحطان وأن الغالب على جيوش العراق كان شعب بني عدنان من ربيعة ومضر وأنهم كانوا أشعر من بني قحطان . ولذلك أيضا نجد أن هذا الشعر يجري على ألسنة الشعراء من بني تميم من مضر من فرسان جيش خالد بن الوليد الذين شهدوا

(١) القادسية ٢٤ عن الطبري ٤٨٤/٣ س ش س عن حنش بن الحارث النخعي عن أبيه ـ الاصابة ٧٢ مادة حنش .

(٢) القادسية ٢٤ عن الطبري ٤٨٧/٣ س ش س عن عبد الملك بن عمير عن زياد عن جرير .

(٣) ابن عساكر ٥١٨/١ بإسناده عن س ش س عن ابي عثمان عن خالد وعبادة .

معه حروب الردة وفتح العراق .

قال القعقاع بن عمرو التميمي

أقمنا على دارَيْ[١] سليمان أشهرا … نجالد روما قد حُموا بالصوارم

فضضنا بها الباب العراقي[٢] عنوة … فدان لنا مستسلما كل قائم

أقول وقد دارت رحانا بدارهم … أقيموا لهم جز الذرى[٣] بالغلاصم

فلما زأدنا[٤] في دمشق نحورَهم … وتدمر عضوّا منهما بالأباهم

وقال أبو نجيد نافع بن الأسود

لا تحسبَنّي وابن أمي صلصلا … كهامسة الباكين من كُبة الحرب

تركنا دمشقا منهلا بطريقنا … نجر إليها ما نجر من الكرب

كأنك لم تشهد دمشقا وحائلا … ويوما ببصرى حيث فاظ بنو لهْب

كأنا وإياهم سحاب بقفرة … تلقحها الأرواح بالصيب السَّكْبِ

منعناكمُ منهم وقد زعرعوا القنا … وكنا قديما نمنع الجار ذا الذنب

هنالك إذ لا يمنع الناس وسمة … وإذ أنت محروب بمدرجة الترب

وقد علمت أفنا تميم بأننا … لنا العز قدما عند ذائدة النهب

وأن موالينا تعز بعزنا … ومولاكم المأكول إن كان ذا سهب

وقال أيضا

من ذا على الأحداث عز كعزنا … إذا الحرب قامت بالجموع على قفر

فسائل بنا نسطاس والروم حوله … غداة دمشق والحتوف بها تجري

ينبّوك أنا في الحروب مصالتٌ … نسيل إذا جاش الأعاجم بالثغر

(١) يقصد دمشق وتدمر حيث قيل إن الجن بنتها لسليمان .

(٢) هو الباب الشرقي .

(٣) ذَرّي الشاة جز صوفها وترك فوق ظهرها منه لتعرف به . والغلصمة سادة القوم .

(٤) أفزعنا .

بقوم تراهم في الدهور أعزة ... لهم عرض ما بين الفرائض والوتر
أبى الله إلا أن عمرا تناهمو ... قوادم حرب لا تلين ولا تحرى

شتاء في دمشق

تم فتح دمشق في ٣ سبتمبر أيلول ، يعني قبل هجوم الشتاء ، وبعد وقوف أربعة أشهر في العراء أمام أسوارها ، وعليه وربما عملا بأوامر عمر ألا يشق على المسلمين فقد سبق أن كتب إليه في خطابه بعزل خالد وتوليته « ولا تنفذ المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ولا تُنفِذْ سرية إلى جمع كثير » فقد رأى أبو عبيدة أن يقضي المسلمون الشتاء بدمشق قبل أن يتحركوا إلى خطوتهم التالية ، فالشتاء بارد وتهطل الأمطار من منتصف[1] نوفمبر حتى نهاية مارس آذار ولم يشأ أن يتورط في عمليات يدركه خلالها هذا المناخ الذي يصل إلى سقوط الصقيع . لقد كان أمل حامية دمشق أن يحل الشتاء وهي صامدة حتى يضطر المسلمون إلى الانصراف عنها هرباً من قسوة البرد ، أمَا وقد سقطت دمشق في يد أبي عبيدة فقد أشفق على إخوانه أن يسير بهم إلى ملحمة جديدة .

فإذا كان عليه أن ينتظر بدمشق فإلى متى ؟ ما دام سوف ينتظر فقد كان من المحتم أن يقضي الشتاء بدمشق ... لقد خلت بعض بيوت المدينة التي نزح عنها الروم وذهبوا لحاقا بهرقل فأسكنها أبو عبيدة بالمسلمين . وفي تقديرنا أن المسلمين قد أقاموا بدمشق اكثر من سبعة أشهر قبل أن يواصلوا مسيرة فتوحهم ، وقد كانت خطوتهم التالية نحو حمص[2] .

---

(١) يرجع إلى الفصل الأول عن بلاد الشام ـ المناخ .

(٢) لم تذكر المصادر مقدار ما أقام المسلمون بدمشق وتوقيت فتح حمص فيما عدا ابن عساكر عن ابن اسحق

قال : في سنة أربع عشرة دخل أبو عبيدة دمشق فشتا بها .

ابن عساكر ٥٣١/١ أخبرنا أبو محمد بن عبد الكريم بن حمزة السلمي [نجهله] ، نا أبو بكر الخطيب [ثقة] ح . وأخبرنا ابو القاسم بن السمرقندي [مكثر ثقة ٤٥٤ ـ ٥٣٦ هـ] ، انا ابو بكر بن

الطبري [نجهله] ، قالا : انا ابو الحسين بن الفضل [هو محمد بن الحسين بن محمد بن الفضل القطان ـ ثقة ٣٥٥ ـ ٤١٥] ، أنا عبد الله بن جعفر [عالم متقن ضعفه بعضهم ورد عليهم آخرون ، ٢٥٨ ـ ٣٤٧] ، نا يعقوب [بن سفيان ، ثقة ورع توفى ٢٨٠ هـ] ، حدثني عمار [بن خالد بن يزيد ، صدوق مات ٢٦٠ هـ] عن سلمة [بن الفضل ، صاحب خشوع لا بأس به توفى ١٩١] ، عن محمد بن اسحق .

كما قال : فتحت دمشق في سنة أربع عشرة في رجب ثم شتا أبو عبيدة شتيته بدمشق .

ابن عساكر ٤٩٥/١ أخبرنا ابو محمد عبد الكريم بن حمزة السلمي ، نا أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت ح . أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، أنا ابو بكر بن الطبري ، قالا : أنا أبو الحسين بن الفضل ، أنبا عبد الله بن جعفر ، نا يعقوب ، نا حامد بن يحيى [صدوق توفي ٢٤٢] ، نا صدقة بن سابق [نجهله] ، عن محمد بن اسحق .

هاتان الروايتان تعنيان أن تحرك المسلمين من دمشق جاء بعد أن مضى شهر مارس . لقد عاصر ذلك بقاء سعد بن أبي وقاص أيضا في شراف بشمال شرقي نجد مع حشوده لمعركة القادسية انتظارا لانتهاء الشتاء . [انظر كتابنا القادسية] هناك قدرنا خروج سعد من شراف في ١٣ صفر ١٥ هـ ـ ٢٦ مارس ٦٣٦ م ، ونقدر توقيتا قريبا من ذلك لخروج المسلمين من دمشق إلى حمص مع الأخذ في الاعتبار انتهاء موسم الأمطار بالشام الذي يمتد حتى آخر شهر مارس وإضافة فرصة أخرى لجفاف الطرق ، وقد قدرنا لذلك حوالي ٤ ربيع الاول ١٥ هـ ـ ١٥ ابريل نيسان ٦٣٦ م ، مستندين إلى هاتين الروايتين ببقاء جيوش المسلمين بدمشق ذلك الشتاء ورجحناها باتفاقهما وبالنظر في إسنادهما على رواية أخرى تقول : في ذي القعدة سنة أربع عشرة فتحت حمص وبعلبك صلحا على أيدي أبي عبيدة جاءت في تاريخ مدينة دمشق :

ابن عساكر ٥٢٦/١ أخبرنا أبو غالب محمد بن الحسن البصري [الماوردي ، نجهله]، انبا محمد بن علي السيرافي [نجهله] ، انا احمد بن اسحق النهاوندي [ثقة ٤١٠ هـ] ، نا احمد بن عمران [روى مناكير عن مجاهيل فكذّبوه وكان يضع الحديث ويركب الأسانيد على المتون] ، نا موسى بن زكريا [متروك] ، نا خليفة بن خياط العصفري [حافظ عارف توفى ٢٤٠] وقال ابن اسحق وغيره .

قال شباب [خليفة بن خياط العصفري] ويقال في سنة خمس عشرة .

فتح حمص

بعلبك والبقاع

بعد أن انقضى الشتاء أراد أبو عبيدة أن يفتح حمص ، فأمر خالد بن الوليد فسار إليها . بين دمشق وحمص طريقان أحدهما الخارجي الشرقي المتاخم لصحراء السماوة والذي يمر بدومة ثم قطيف ثم نبك ثم قارا ثم شمسين إلى حمص ، والثاني الغربي الذي يسلك سهل البقاع مارا ببعلبك ثم جوسيه إلى حمص . قال الاصطخري[1] : من حمص إلى دمشق ٥ أيام [حوالي ٢٢٥ كيلومترا] هذا الطريق الثاني هو الذي[2] سلكه خالد بقواته .

والبقاع اسم يطلق على السهل الممتد على ارتفاع قدره ١٠٠٠ متر منخفض نسبيا بين جبال لبنان في غربه وجبال لبنان الشرقية إلى شرقه وقد أطلق عليه القدماء اسم Coele Syria أي سوريا الغائرة ، وهو غور التوائي امتلأ بالرواسب امتدادا لأخدود الأردن يسير على طول المحور الشمالي الجنوبي الذي هو من السمات الرئيسية لتكوين الشرق الأدنى والذي يعتبر امتداداً طبيعياً للبحر الأحمر وخليج العقبة والغور والبحر الميت فوادي الأردن .

وسهل البقاع طوله حوالي ١٢٠ كيلومترا[3] ويتراوح عرضه بين ٨ ـ ١٤ كيلومترا ينحدر نحو الجنوب ، ويرويه ريا غير كاف نهر الليطاني ونهر العاصي [الأرند] اللذان ينبعان على جانبي خط تقسيم المياه عند بعلبك فينحدر نهر الليطاني خلال هضاب الجنوب الوعرة حتى يصب في البحر الأبيض المتوسط شمالي صور، بينما ينحدر نهر العاصي شمالاً في الخوانق التي تنفذ إلى هضبة حمص البازلتية وللبقاع جو قاري يجعله سهبا شبه قاحل تتخلله واحات وأغوار ظلت مدة طويلة مستنقعات ،

(١) المسالك والممالك ٤٨ .
(٢) الأزدي ١٤٤ .
(٣) الموسوعة الثقافية .

ولذلك فالبقاع[1] قليلة السكان حتى يومنا . وجل سكانها اليوم من المسلمين ويغلب الشيعة في الشمال ، وتنتج الحبوب .

هذا الطريق الذي سلكه خالد وأبو عبيدة ذكره البلدانيون المسلمون ، قال ابن[2] خرداذبه المتوفى ٣٠٠ هـ « الطريق من حمص إلى دمشق على بعلبك وهو طريق البريد : من حمص إلى جوسية اربع سكك [يعني محطات] ثم إلى بعلبك ست سكك ثم إلى دمشق تسع سكك » . فوصفه الطريق بأنه طريق البريد يعني أنه كان الطريق الأكثر استعمالا ويبدو أنه كان الأكثر إيناسا . وقد ذكره قدامة بن[3] جعفر (المتوفى ٣٢٠ هـ) أيضا فقال : على طريق البقاع ، من حمص إلى جوسية ثلاثة عشر ميلا ، ثم إلى إيعاث عشرون ميلا ، ثم إلى بعلبك ثلاثة أميال ، ومن بعلبك يسرة على جبل يسمى رمي خمسون ميلا . في حين سلك ابن جبير في رحلته طريق[4] نبك ـ قارا ويبدو أن طريق البقاع لم يكن آمنا في وقته بسبب الحروب الصليبية .

هذا هو الطريق الذي اختاره خالد ... لماذا أختاره وترك الطريق الشرقي ؟ لقد لاحظنا دائما أن الروم كانوا يسيرون على الطريق الداخلية للشام التي بين الجبال وأن المسلمين كانوا يتحركون على الطرق الخارجية التي تتاخم الصحراء . أما هنا فلأول مرة نجد المسلمين يسلكون طريقا داخليا مع توفر الطريق الخارجي .. فما السبب ؟ في رأينا أن أبا عبيدة وخالدا أرادا أن يطمئنا إلى تطهير ذلك الطريق في مسار جيوش المسلمين إلى حمص ، فإنهم لو سلكوا الطريق الشرقي إلى حمص لتركوا طريق بعلبك بمدنه وقراه تحت سلطان الروم حتى إذا بلغ المسلمون حمصا كانوا في خطر من أن يجدوا الروم أمامهم بحمص وخلف ظهورهم بالبقاع ومسالحه . لذلك

(١) دائرة المعارف الاسلامية ٤٤٨/٧ .
(٢) المسالك والممالك ٩٨ .
(٣) الخراج وصنعة الكتابة ٢١٩ .
(٤) الرحلة ١٨٢ ـ ١٨٣ .

آثر المسلمون أن يسلكوا هذا الطريق حتى يفضوا أي تجمع عليه ويطهروه من أي قوات معادية .

استخلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن[1] أبي سفيان ، وعلى فلسطين عمرو بن العاص[2] ، وعلى الأردن شرحبيل بن حسنة ، وسار إلى سهل البقاع يتقدمه خالد بن الوليد بالمقدمة . وغلب خالد على البقاع[3] حتى نزل على بعلبك فتصدت له قوة منهم - لم يذكر الرواة عددها ويبدو أنها كانت صغيرة ولعلها كانت طليعة تأتيهم بالأخبار - فأرسل إليهم خالد نحوا من خمسين فارسا من فرسان المسلمين منهم ملحان بن زياد الطائي وبُنان بن حازم القيسي فحملوا عليهم حتى أقحموهم حصنهم . ورأى أهل بعلبك ألا أمل لهم في معركة فبعثوا في طلب الصلح فأعطاهم أبو عبيدة[4] ذلك وكتب لهم كتابا أمّنهم على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، وأجّلهم

(١) البلاذري ١٥٥ عن الواقدي وغيره .

١٥٦ حدثني أبو حفص الدمشقي [هو احمد بن محمد بن علي الصفار ، كان ثقة مستقيم الأمر وقيل تغير آخر عمره] عن سعيد بن عبد العزيز [ثقة ثبت حجة توفي ١٦٧] . ابن عساكر ٥١٧/١ أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي [مكثر ثقة ، محدث بغداد ٤٥٤ - ٥٣٦] ، نا أبو الحسين بن النقور [محدث بغداد ، صدوق ٣٨١ - ٤٧٠] ، انا ابو طاهر المخلص [محدث بغداد صالح ثقة ٣٠٥ - ٣٩٣] ، أنا ابو بكر بن سيف [نجهله ولكن رواية ثلاثة من المحدثين الثقات عنه يوثقه] ، نا السري بن يحيى [ثقة ثقة ١٦٧] ، نا شعيب بن ابراهيم [ثقة صالح] ، نا سيف بن عمر ، عن أبي عثمان [نجهله] ، عن خالد [بن معدان الكلاعي ثقة توفي ١٠٣] وعبادة [بن نسي الكندي ثقة ١١٨] .

الطبري ٤٤٢/٣ س ش س عن أبي عثمان بن يزيد بن أسيد الغساني وأبي حارثة العبشمي [نجهله] .

(٢) البلاذري ١٥٦ حدثني أبو حفص الدمشقي عن سعيد بن عبد العزيز .

(٣) ابن عساكر ٥٢٦/١ أخبرنا أبو غالب محمد بن الحسن البصري ، أنبا محمد بن علي السيرافي ، أنا أحمد بن اسحق النهاوندي ، نا أحمد بن عمران ، نا موسى بن زكريا ، نا خليفة بن خياط العصفري ، حدثني عبد الله بن المغيرة عن أبيه . وقال ابن الكلبي .

(٤) الأزدي ١٤٤ حدثني فروة أو قرة بن لفيط عن ادهم بن محرز الباهلي عن أبيه .

إلى شهر ربيع الآخر[1] وجمادي الأولى ، فمن أراد الجلاء سار إلى حيث شاء ومن أقام فعليه الجزية .

« بسم الله الرحمن الرحيم[2] .

هذا كتاب أمان لفلان بن فلان وأهل بعلبك رومها وفرسها وعربها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ودورهم داخل المدينة وخارجها ، وعلى أرحائهم . وللروم أن يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلا ولا ينزلوا قرية عامرة . فإذا مضى شهر ربيع وجمادي الأولى ساروا إلى حيث شاءوا ، ومن أسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا . ولتجارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها ، وعلى من أقام منهم الجزية والخراج . شهد الله وكفى بالله شهيدا » .

نص صريح جليّ في مقدار السماحة التي أعطى بها هذا الصلح ، يسمح المسلمون لرعايا عدوهم الذي ما زال في حالة حرب معهم أن يرعى سرحه [ذوابه وماشيته] إلى مسافة خمسة عشر ميلا ! [حوالي ٢٧ كيلومترا يعني قريبا من موقع الزبداني وزحلة] وأن يمهل من أراد الجلاء منهم شهرين ليجلو ، ويسمح لتجارهم بالتجول في البلاد التي تم فتحها . هو نص في غير حاجة إلى تعليق .

بعلبك في منتصف المسافة بين دمشق وحمص وهي إلى دمشق أقرب ، وكان من دمشق إلى بعلبك ثلاثة[3] أيام أو يومان[4] أو يوم[5] للمجد ، وقد قامت على جبل على[6] ارتفاع ٣٧٠٠ قدم فوق حافة هضبة البقاع . قال الاصطخري عامة أبنيتها

(١) معجم البلدان ٤٥٤/١ .

(٢) البلاذري ١٥٤ حدثني عباس بن هشام [نجهله] عن أبيه [هشام بن عمار محدث دمشق وعالمها ، صدوق مكثر ثقة ، خرّج له البخاري في صحيحه وأصحاب السنن ١٥٣ - ٢٤٥] قال سمعت الوليد بن مسلم .

(٣) معجم البلدان ٤٥٣/١ .

(٤) الاصطخري ٤٩ .

(٥) ابن بطوطة ٦٧ .

(٦) دائرة المعارف الاسلامية .

من الحجارة ، وكان بها قصور من حجارة بنيت على أساطين شاهقة من الرخام[1] ليس بأرض الشام أبنية حجارة أعجب[2] ولا أكبر منها ، وهي من الآثار التي اشتهرت بها بعلبك . وتتحكم بعلبك في النواحي المحيطة بها وفي الطريق الرئيسي بين دمشق وحمص ، وكانت مدينة حسنة قديمة من أطيب مدن الشام تحدق بها البساتين والجنات وتخترق أرضها الأنهار[3] الجارية ، وبها قبر ينسب[1] إلى النبي إلياس عليه السلام ، ويقال ان إلياس[4] بعثه الله إلى أهل بعلبك وكانوا يعبدون الصنم بعل . ويدل اسمها على نسبتها إلى بعل وعلى أصلها الفينيقي . وقد عرفت في العهد السلوقي باسم هليوبوليس ومعناها مدينة الشمس . استعمرها الرومان في عهد الامبراطور أوغسطس ٦٣ ـ ١٤ ق . م . وشيدوا فيها ما بين سنة ١٣٨ ـ ٢١٧ م هياكل رائعة على أنقاض المعبد لا تزال تعد من الآيات[5] في دنيا الآثار. وقد اشتهرت بعلبك وما تزال بأطلال معبد جوبيتر الذي شيده الامبراطور انطونيوس ١٣٨ ـ ١٦١ م فوق منبسط مرتفع وبالساحات والأبهاء التي زادها الامبراطور كرّاكالا وبمعبد باخوس ، والمعبدان يتميزان بأبعادهما الهائلة وساحتيهما اللتين تتصدرهما أبواب واسعة وسورها ذي الأساسات الضخمة . وتحيط ببعلبك واحة من البساتين يرويها نبع رأس العين الكبير الذي يتدفق عند سطح سلسلة جبال لبنان الشرقية .

ومن حيث أن صلح بعلبك مع أبي عبيدة قد منح أهلها مهلة شهري ربيع الآخر وجمادي الأولى لجلاء من شاء منهم ، فإننا نقدر أن صلح[6] بعلبك قد حدث

(١) معجم البدان ١/٤٥٣ .

(٢) الاصطخري ٤٦ .

(٣) ابن بطوطة ٦٧ .

(٤) المعارف لابن قتيبة ٥١ .

(٥) المنجد ١٣٦ .

(٦) في تاريخ خليفة بن خياط ١/١١٣ أن صلح حمص وبعلبك كان في ذي القعدة ١٥ هـ .

في أواخر شهر ربيع الأول ولنقل حوالي ٢٥ ربيع الاول ١٥ هـ ٦ مايو آيار ٦٣٦ م ويكون أمام الراغبين في النزوح فرصة الصيف حتى الأسبوع الاول من شهر يوليه تموز ، ومن شاء منهم البقاء بقي على شرط الصلح وهو أداء الجزية وعلى المسلمين الحماية والمنعة لهم .

من هذه البساطة التي تم بها صلح بعلبك نرى أن الروم لم يقفوا بها وقفة جادة للدفاع ، وأغلب الظن أن ذلك الصلح قد تم مع الأهالي من شعب بعلبك ، هذا بالرغم من أن بعلبك كانت تصلح موقعا للدفاع بارتفاعها عن سهل البقاع وتحكمها في ذلك الطريق . فإذا كان أمام الروم احتمال أن يتقدم أبو عبيدة على الطريق الشرقي فإن التقدير المنطقي يقضي بأن وضع قوات لهم في بعلبك كان من شأنه أن يلزم المسلمين بسلوك طريقها ، فما كان لهم حينذاك أن يتركوا حامية في بعلبك ويتقدمون على الطريق الآخر إلى حمص . كما وأنه كان أمام الروم فرصة زادت عن ستة أشهر كان بوسعهم ابتهالها لحفر الخنادق وإعداد الاستحكامات عند بعلبك .

أيًا ما كان ... بعد أن استتب أمر بعلبك للمسلمين سار أبو عبيدة بجيشه نحو حمص .

هذا في حين لم يمكث يزيد بن أبي سفيان خاملا في دمشق ، لقد استبقى معه عددا من قواد أهل اليمن منهم عمرو بن شمر بن غزية ، وسهم بن مسافر بن هزمة ، ومشافع بن عبد الله بن شافع[1] ، وبعث دحية بن خليفة الكلبي في خيل إلى تدمر ، وأبا الزهراء القشيري إلى بثنية وحوران فصالحوا أهلها على مثل صلح دمشق ، ووليا القيام على فتح ما بعثا إليه .

(١) ابن عساكر ١/٥١٧ أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، نا الحسين بن النقور ، أنا أبو طاهر المخلص ، أنا ابو بكر بن سيف ، س ش س عن أبي عثمان عن خالد وعبادة .

قال الاصطخري[١] : حمص في مستوى خصبة جدا ، من أصح بلدان الشام تربة ، في أهلها جمال مفرط ، وليس بها عقارب ولا حيات ، ولها مياه وأشجار وزروع كثيرة ، وبها كنيسة ... وهي من أعظم كنائس الشام . وقال ابن[٢] بطوطة : مدينة مليحة أرجاؤها مونقة وأشجارها مورقة وأنهارها متدفقة وأسواقها فسيحة الشوارع ، وأهل حمص عرب لهم فضل وكرم ، وبخارج هذه المدينة قبر خالد بن الوليد وعليه زاوية ومسجد وعلى القبر كسوة سوداء [هذا في عصر ابن بطوطة في القرن الثامن] .

وقال ياقوت[٣] : بلد مشهور قديم مسوّر وفي طرفه القبلي قلعة حصينة على تل عالٍ ، كبيرة وهي بين دمشق وحلب في نصف الطريق .

وقال المقدّسي[٤] : حمص ليس بالشام بلد أكبر منها وفيه قلعة متعالية عن البلد ترى من خارج ، اكثر شربهم من ماء المطر ولهم أيضا نهر.

وقال القزويني[٥] : مدينة بأرض الشام حصينة ، أصح بلاد الشام هواء وتربة وهي كثيرة المياه والأشجار ... ومن عجائبها الصورة التي على باب المسجد الذي إلى جانب البيعة وهي صورة إنسان نصفها الأعلى ، ونصفها الأسفل صورة عقرب ... وأهلها موصوفون بالجمال المفرط والبلاهة ... وبها قبر خالد بن الوليد .

وحمص مدينة[٦] قديمة جدا ، دعاها الرومان إيميزيا ، بالقرب منها هزم

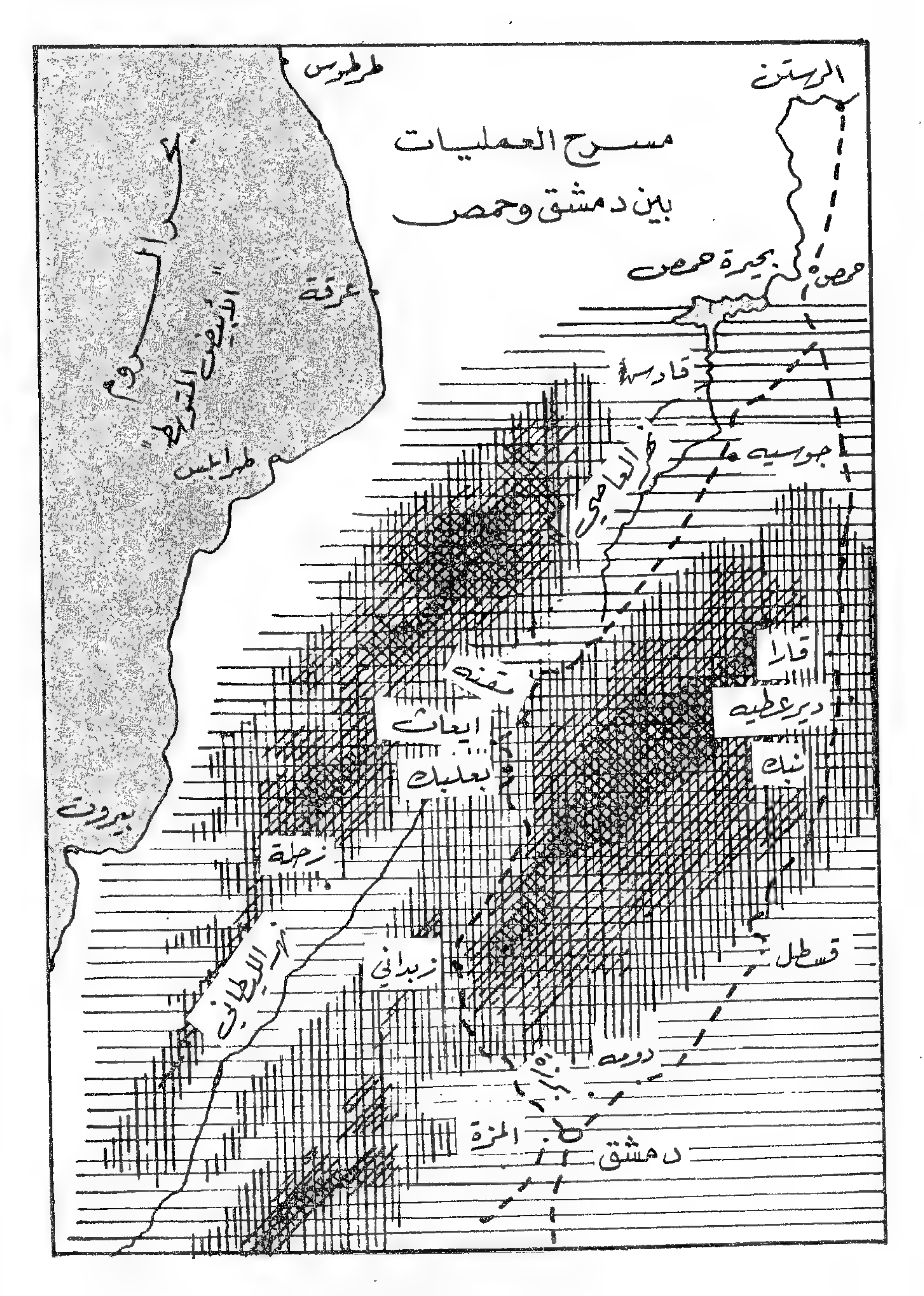
(١) المسالك والممالك .
(٢) تحفة النظار .
(٣) معجم البلدان ٣٠٢/٢ .
(٤) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ١٥٦ .
(٥) آثار البلاد وأخبار العباد ص ١٨٤ . عاش القزويني ١٢٠٣ ـ ١٢٨٣ م .
(٦) المنجد ٢٥٩ ، الموسوعة الثقافية ٤١١ ، الحرب عبر التاريخ .

الامبراطور أورليانس جيوش الملكة العربية زنوبيا عام ٢٧٢ م ، وبالقرب منها أيضا وقعت معركة قادش بين رمسيس الثاني والحيثيين .

أخرجت حمص لأبي عبيدة قوة كبيرة[١] [لم تذكر المصادر عددها] تقدمت حتى جوسيه[٢] ، وهي قرية على ستة فراسخ من حمص [حوالي ٣٠ كيلومترا] بين جبل لبنان وجبل سنير فيها عيون تسيح بالماء فتسقي اكثر ضياعها سيحا ، عرفت قديما باسم دير[٣] باعنتل وكانت كرسيا أسقفيا تابعا لمطران حمص. استقبلت الروم أبا عبيدة بذلك الجمع الكبير في جوسيه فوجه أبو عبيدة إليهم خالد بن الوليد . فلما نظر إليهم خالد نادى في أصحابه « يا أهل الإسلام ، الشَّدَّة الشدة » ثم حمل عليهم وحمل المسلمون معه ، وكان للحالة المعنوية من أثر اللقاءات السابقة أثرها فولى الروم الأدبار منهزمين حتى دخلوا حمص . وبعث خالد ميسرة بن مسروق العبسي في آثارهم حتى التقى بقوة كبيرة من فرسانهم عند نهر صغير قريبا من حمص، فطاردهم قليلا ثم حمل عليهم فهزمهم . وشَرَدَ فارس من المسلمين يدعى شرحبيل من حِمْيَرَ من أهل اليمن فعرض له بعض فرسانهم فحمل عليهم بمفرده فقتل منهم سبعة في حملاته ، ثم جاء إلى نهر قبل حمص عند دير[٤] مِسْحَل [لم نهتد إلى موقعه] فنزل عن فرسه وسقاه، وجاءه نحو من ثلاثين فارسا من أهل حمص فلما رأوه واحدا أقبلوا نحوه وراء النهر فأقحم فرسه الماء وعبر إليهم ثم ضرب فرسه وحمل عليهم في كل حملة يقتل رجلا حتى قتل أحد عشر رجلا وانتهوا إلى دير مسحل فاقتحموا جوف الدير واقتحم شرحبيل معهم فرماه أهل الدير بالحجارة حتى قتلوه .

وجاء ملحان بن زياد الطائـي وعبد الله بن قرط الثمالي وصفوان بن المعطل

(١) الأزدي ١٤٥ بنفس الإسناد السابق .
(٢) من حمص إلى جوسيه مرحلة ، ثم إلى يعاث مرحلة ، ثم إلى بعلبك نصف مرحلة ، ثم الى الزبداني مرحلة ، ثم إلى دمشق مرحلة . [أحسن التقاسيم ١٩٠] .
(٣) المنجد ٢٢١ .
(٤) الأزدي ١٤٥ بنفس الإسناد .



الخريطة رقم (٢٥) - مسرح العمليات بين دمشق وحمص . المقياس ١ مليون .

الخزاعي وحابس بن سعد الطائي، كل واحد منهم صاحب راية ، وقد انتهى إلى حمص أول يوم نزل حولها المسلمون تسع رايات كان لطيء فيها[١] رايتان وكان لهم عدة وجَلَد وقوة إذا لقوا المشركين وقد كانوا في المقدمة من فرسان خالد بن الوليد . بلغوا مدينة حمص وراحوا يطيفون بها استفزازا لحاميتها أن تخرج إليهم فلم يفعلوا . قال أدهمُ بن محرز[٢] الباهلي : أول راية دخلت أرض حمص ودارت حول مدينتها راية ميسرة بن مسروق العبسي ، ولقد كانت لأبي أمامة راية ، ولأبي [محرز] راية . وإن أول رجل من المسلمين قتل رجلا من المشركين لأبي ، إلا أن يكون رجلا من حِمْيَرَ ، فإنه حمل هو وأبي جميعا فكل واحد منهما في حملته قتل رجلا من المشركين ، وكان أبي يقول : « أنا أول رجل من المسلمين قتل رجلا من المشركين بحمص ، لا أدري ما الحميري ، فإني حملت أنا وهو وقتلنا في حملتنا كل واحد منا رجلا منهم » .

وجاء من بعد المقدمة جيش المسلمين حتى نزلوا باب الرستن . ومن حيث تقع مدينة الرستن شمالي حمص فإننا نذهب الى أن ذلك الباب كان جهة الشمال ولعل التركيز على جهة الشمال قصد به قطع السبيل على أي قوات رومية أن تجيء من الشمال . ويبدو أن قوات المسلمين بدأت تصل وما زالت أبواب حمص مفتوحة لم تقفل ، ففي رواية أن فارسا من آل ذي الكلاع [الحميري] دخل من باب الرستن فلم يعترضه أحد فإذا هو في جوف المدينة حتى خرج من بابها الشرقي . فلما رأى ذلك ضرب فرسه فعاد خلال المدينة حتى خرج مرة أخرى من باب الرستن ولحق بعسكر المسلمين .

وأحاط المسلمون بحمص فحاصروها حصارا شديدا . قال عبد الله بن قرط

(١) الازدي ١٤٨ حدثني سعيد أبو مجاهد عن المحل بن خليفة عن ملحان بن زياد الطائي وحابس بن سعد الطائي .

(٢) الأزدي ١٤٩ حدثني قرة بن لقيط عن أدهم بن محرز الباهلي . وقال أدهم : إني لأول مولود بحمص وأول مولود فرض له بها وبيدي كتف [لوح] وأنا اختلف إلى الكُتَّاب أتعلم ، ولقد شهدت صفين . الإصابة ٧٧٤٥

الثمالي[1] : عسكر أبو عبيدة بن الجراح ونحن معه حول حمص نحوا من ثماني عشرة ليلة وقد وجه عماله في نواحي أرض حمص واطمأن عسكره وذهبت منهزمة الروم من فحل حتى قدموا على ملك الروم بأنطاكية وخرجت فرسان من فرسان الروم ورجال من عظمائهم وذوي الأموال والغناء والقوة ممن كان واطن الشام فدخلوا قيسارية وتحصن أهل فلسطين بإيلياء .

يفهم من الروايات أن الروم قد تخلوا عن مدينة حمص كما تخلوا عن بعلبك ، فلم يقفوا للدفاع عنها . إنه موقف يستلفت النظر ، فإن المنطقة من المناطق الدفاعية التي انتبه إلى صفاتها ومزاياها القادة من أقدم العصور إلى العصر الحديث . كتب مونتجومري[2] « ... قام ملك قادش[3] بثورة ضد تحتمس الثالث ، وكان ملك مصر يعلم أن الإمبراطورية المصرية لن تؤمّن إلا بالسيطرة الكاملة على مدينة قادش لأنها تقع بالقرب من بحيرة حمص في سوريا وتتحكم في الوادي الأعلى لنهر العاصي [الأرند] وتسيطر على المرتفعات اللبنانية التي تتحكم بدورها في الطرق إلى نهر الفرات وآشور [بالعراق] ، ولذلك كانت هذه المدينة هي المفتاح الرئيسي للتجارة مع آسيا .. لذلك قرر تحتمس الثالث فرض سيطرته عليها فقاد جيشا مكونا من ٣٠٠٠٠ مقاتل في دلتا النيل في ١٩ إبريل نيسان ١٤٦٨ ق . م حتى وصل الى المنحدرات الجنوبية لجبل الكرمل في ١٠ مايو ، أي بمعدل ١٦ ميلا يومياً ، بينما كانت القوات الآسيوية بقيادة ملك قادش تحتل قلعة مجدو التي تقع على المنحدر الشمالي لجبل الكرمل ، وقد أحسن القائد اختياره لأرض المعركة لأنها أنسب الأماكن لمواجهة القوات الآتية من مصر الى الشمال ، فكانت قلعة مجدو يمتد أمامها سهل كبير علاوة على تحكمها في الطريق الرئيسي للتجارة إلى الأناضول وسوريا والفرات ، وهذه القلعة لها أهمية كبيرة في تاريخ الشرق الأدنى فكانت ميدانا لعديد من المعارك الهامة ...

(١) الأزدي ١٤٩ حدثني أبو جهضم عن عبد الملك بن السليك عن عبد الله بن قرط الثمالي .

(٢) الحرب عبر التاريخ ٥٥ .

(٣) أثبتنا مكان قادش على الخريطة رقم ٢٥ حتى يتسنى للقارىء متابعة الموضوع .

« وقد تقدم تحوتمس الثالث عبر مدينة مجدو وفعل مثله في العصر الحديث كل من نابليون واللنبي ، وفي عام ١٩٣١ أثناء وجودي في فلسطين قمت بتفقد ميدان معركة مجدو ...

« وكانت قادش تعد بمثابة القلعة الحصينة لسوريا لوقوعها بين نهر العاصي وروافده وهي موانع طبيعية ، وقد استكملت هذه الموانع بشق قناة أخرى بين النهر وروافده ، وكان هذا الحصن طويلا ومنيعا ولكن تحوتمس تمكن أخيرا من احتلاله وهكذا انتهت آخر عهود الهكسوس ...

« وفي عام ١٢٩٢ ق . م . أصبح رمسيس الثاني الشاب ذو الطاقة والموهبة العظيمة فرعون مصر ، وقد عقد العزم على إحياء وإعادة الامبراطورية المصرية السابقة ، فقد تسببت فترة السلم في مصر أن استطاع الحيثيون تقوية أنفسهم في سوريا مع جعل قادش حصنا منيعا لحدودهم الجنوبية ، وعلى هذه النقطة ـ قادش ـ قرر رمسيس الهجوم ... »

ويمضي مونتجومري في وصف دقيق ومفصل لمعركة قادش بين رمسيس الثاني وموتاللو[1] بما لا يعوزنا نقله هنا ، حتى قال « ... ولكن المصريون انسحبوا دون احتلال قادش وبذلك انتهت المعركة نهاية غير حاسمة أو محددة . وفي الحقيقة لقد تفوق موتاللو على رمسيس استراتيجيا ولكن قيادته الخاطئة وسوء تنظيم جيشه وافتقاره للأسلوب الفني في الحرب أفقدته المعركة ، بينما استطاع رمسيس قيادة رجاله بحكمة وبراعة فاستطاع تجنب كارثة محققة[2] » .

مع هذه الأهمية البالغة لمواقع المنطقة ـ كانت قادش تقع جنوبي بحيرة حمص ـ لم يحاول الروم الاستفادة بمزاياها ، وإنما انسحبوا عنها انسحابا شاملا مع

(١) لم يذكر مونتجومري مصادره ولا مراجعه .

(٢) لا بد أن هذه الصورة المشرقة لقيادة رمسيس قد استقاها مونتجمري مما سجله رمسيس نفسه على آثاره ، ولا يلزم أن يكون ذلك التسجيل صادقا ، إذ أنه لو صح لاحتل رمسيس قادش ولحقق هدفه من حملته بدلا من انسحابه مدعيا النصر .

ما مر ذكره من مناوشات سطحية لا ترقى إلى صفة الدفاع الجاد . وكانوا يسحبون قواتهم نحو حلب . ولعل الباحث يتساءل عن سر السلوك الرومي في هذا الشأن ، وبدورنا نؤثر أن نؤجل كشف النقاب عن ذلك إلى فصل قادم حيث كان تصرف الروم يرتبط ارتباطا مباشرا باستراتيجيتهم النابعة من فكرهم للحرب بناء على تجربتهم وتاريخهم القريب السابق في الحرب .

وجد أهل حمص أنفسهم محصورين داخل أسوار مدينتهم وقد ذهب عنهم هرقل وجنوده فأرادوا أن يلعبوا لعبة وأخذوا يقولون للمسلمين[1] : اذهبوا نحو الملك [هراكليوس] فإن ظفرتم به فنحن كلنا لكم عبيد !! ولكن أبا عبيدة وقد لمس ضعف الدفاع عن المدينة لم يبرح ، وأقام على باب الرستن بجيشه وهو الباب الشمالي الذي تتعلق آمال أهل حمص أن يأتيهم الفرج من تجاهه ، وبث المسلمون فرسانهم في نواحي أرضهم فأصابوا منهم غنائم كثيرة وقطعوا عن حمص المدد والتموين وشددوا حصارهم عليها . وخاف أهل حمص على أنفسهم السبي إن فتحت مدينتهم عنوة فأرسلوا إلى المسلمين يطلبون الصلح ، وقبل المسلمون منهم وكتبوا لهم كتابا بالأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وأرحائهم [طواحينهم] وعلى أن يضيفوا المسلمين يوما وليلة وعلى ألا يعمروا بِيَعَهم . وشمل الصلح أرض حمص كلها ، واشترط الخراج على من أقام منهم وعلى أن عليها مائة وسبعين[2] ألف دينار . تراضى الطرفان على ذلك وفرغوا منه وفتحوا باب المدينة ودخلها المسلمون وأمن بعضهم بعضا .

وبعث أبو عبيدة طلائعه في أثر قوات الروم نحو حلب ، كذلك بعث بقوات إلى جهة الجزيرة فعبرت صحراء السماوة إلى الشرق ، قال أبو عثمان[3] الصنعاني « ثم

(١) الأزدي ١٤٦ حدثني قرة بن لقيط عن ادهم بن محرز الباهلي عن أبيه .

(٢) نفس المصدر .

البلاذري ١٥٥ حدثني عباس بن هشام عن أبيه عن أبي مخنف .

(٣) ابن عساكر ١/٥٠٠ أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد بن احمد المشكاني الخطيب بها ، أنا القاضي أبو

تقدمنا مع أبي عبيدة بن الجراح ففتح بنا حمص ثم تقدمنا مع شرحبيل بن السمط فأوطأ الله بنا ما دون النهر - يعني الفرات - وحاصرنا عانات فأصابنا لأواء [شدة] وقدم علينا سلمان الخير في مدد لنا » .

وكتب ابو عبيدة بذلك إلى عمر مخبرا ومهنئا وشاكرا لله . ولكن عمر كان له رأي آخر .

من أبي عبيدة الى عمر

« بسم الله الرحمن الرحيم .

لعبد الله أمير المؤمنين من أبي عبيدة بن الجراح . سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد .

فالحمد لله الذي أفاء علينا وعليك يا أمير المؤمنين أفضل كورة في الشام أهلا وقلاعا ، وأكثرهم عددا وجمعا وخراجا ، وأكبتهم للمشركين كبتا وأيسرهم على المسلمين فتحا .

أخبرك يا أمير المؤمنين أصلحك الله أنا قدمنا بلاد حمص وبها من المشركين عدد كثير ، والمسلمون يزفونهم ببأس شديد ، فلما دخلنا بلادهم ألقى الله الرعب في

منصور محمد بن الحسن بن محمد النهاوندي ، أنا القاضي أبو العباس احمد بن الحسين بن زنبيل النهاوندي ، أنا ابو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن القاضي ، نا أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري ، حدثني محمد بن عثمان الدمشقي ، نا الهيثم بن حميد ، أخبرني محمد بن يزيد الرحبي ، سمعت أبا الأشعث ، عن أبي عثمان الصنعاني .

أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، أنا أبو بكر الطبري ح .

أخبرنا أبو محمد عبد الكريم بن حمزة ، نا أبو بكر الخطيب ، قالا : أنا أبو الحسين بن الفضل ، أنا عبد الله بن جعفر ، نا يعقوب ، أخبرنا أبو الجماهر محمد بن عثمان الصنعاني .

أخبرنا أبو محمد الأكفاني ، نا عبد العزيز الكتاني ، أنا أبو محمد أبي نصر ، أنا أبو الميمون بن راشد ، نا أبو زرعة ، حدثني محمد بن عثمان ، نا الهيثم بن حميد ، عن محمد بن يزيد الرحبي ، عن أبي الأشعث الصنعاني ، عن أبي عثمان الصنعاني .

قلوبهم ووهن كيدهم وقلم أظفارهم وسألوا الصلح وأذعنوا بأداء الجزية ، فقبلنا منهم وكففنا عنهم وفتحوا لنا الحصون واكتتبوا منا الأمان ، وقد وجهنا الخيول إلى الناحية التي فيها ملكهم وجنوده ، فنسأل الله ملك الملوك وناصر الجنود أن يعز المسلمين بنصره وأن يسلم المشرك الخاطىء بذنبه . والسلام عليك » . أ . هـ .

من عمر الى ابي عبيدة

« أما بعد . فقد بلغني كتابك تأمرني فيه بحمد الله على ما أفاء الله علينا من الأرض وفتح علينا من البلاد ، ومكن لنا في القتال وصنع لنا ولكم ، وأبلانا وإياكم من حسن البلاء ، فالحمد لله حمدا كثيرا ليس له نفاد ولا يحصى له تعداد .

وذكرت أنك وجهت الخيول نحو البلاد التي فيها ملك الروم وجموعهم فلا تفعل ، وابعث إلى خيلك فاضممها إليك ، وأقم حتى يمضي هذا الحول ونرى من رأينا ونستعين بالله ذي الجلال والإكرام على جميع أمورنا . والسلام » .

هكذا أمر عمر أن تتوقف حركة الفتح في الشام ذلك العام . لماذا ؟ ذلك أمر لا بد كانت له أسبابه وخلفياته ، فإذا أردنا استكناه ذلك وجب أن ننظر إلى أحوال الدولة عامة وحركة الفتوح خاصة .

استطرادا لتقديرنا لتوقيتات عملية فتح الشام ، ومن حيث قدرنا صلح بعلبك في حوالي ٢٥ ربيع الأول ١٥ هـ ٦ مايو آيار ٦٣٦ م ، فإننا نقدر صلح حمص بعده بنحو من شهر في حوالي ٢١ ربيع الآخر ١٥ هـ أول يونية ٦٣٦ م . حينذاك كان سعد بن أبي وقاص قد قضى شهر ذي الحجة ١٤ هـ حتى ١٣ صفر ينظم جيشه في شراف استعدادا لمعركة القادسية مع الفرس ، ثم خرج من شراف بعد انحسار الشتاء فبلغ القادسية في حوالي ١٦ من صفر ١٥ هـ ٢٩ مارس ٦٣٦ ، تماما كما خرج ابو عبيدة من دمشق بعد أن شتا بها وقريبا زمنيا لخروجه أيضا ونقدر أن خروج خالد من دمشق الى بعلبك كان في حوالي ٤ ربيع الاول ١٥ هـ ١٥ ابريل نيسان ٦٣٦ م . والآن فإن سعد يقيم بالقادسية في انتظار قدوم جيش فارس الكبير ليخوض واحدة من المعارك الحاسمة بل من أكثرها حسما وأبعدها أثرا في تاريخ الأرض

لقد ولىَّ يزدجردا الثالث امبراطور فارس رستم بن فرخزاذ أعظم قواده في حوالي ٢٣ ربيع الأول ١٥ هـ قيادة جيوشه لملاقاة سعد بن أبي وقاص ، ووضع بين يديه جميع إمكانيات دولته ، وكان ذلك قبل رد عمر بن الخطاب على خطاب أبي عبيدة إليه بفتح حمص وبتوجيه قواته في أعقاب جيوش هرقل ، ونرى ذلك تعليلا معقولا للأمر بالتوقف عن استطراد الفتح في الشام سائر الحول حتى يرى رأيه .

قرأ أبو عبيدة خطاب عمر وتقديرنا أن ذلك كان في حوالي ١٥ جمادي الأولى ١٥ هـ ٢٤ يونية ٦٣٦ ، فدعا رؤوس المسلمين وقال لهم « إني قد كنت قدمت ميسرة بن مسروق إلى ناحية حلب وأنا أريد الإقدام والغارة على ما دون الدرب من أرض الروم ، وكتبت بذلك إلى أمير المؤمنين ، فكتب إليّ أن أصرف خيلي وأن أتربص بهم هذا الحول حتى يرى من رأيه » .

قالوا له : لم يَأْلُكَ أمير المؤمنين والمسلمون نظرا وخيرا .

فبعث أبو عبيدة رسولا إلى ميسرة بن[1] مسروق « أما بعد ، فإذا لقيك رسولي فأقبل معه ودع ما كنت وجهتك فيه حتى نرى من رأينا وننظر فيما يأمرنا به خليفتنا ، والسلام عليك » .

رجع ميسرة إلى أبي عبيدة فنزل معه حمص ، وخرج أبو عبيدة فعسكر بجيشه ثم دعا خالد بن الوليد فبعثه إلى دمشق ليقيم بها في ألف رجل من المسلمين ، كما كلف عمرو بن العاص أن يقيم بجيشه في فلسطين فيكون لكل جانب من الشام طائفة من المسلمين فهو أقوى للمسلمين عليهم وأحرى أن يضبطوها . هكذا تقيم جيوش المسلمين أمام أهالي الشام في غير قتال ولا حرب فيألفوا وجودهم ويروا الوجه الجديد للسلطة الجديدة . كان في دمشق سويد[2] بن كلثوم بن قيس بن خالد

(١) الازدي ١٤٨ بالاسناد السابق + الإصابة ٣٦٠٨ .

(٢) مر بنا أن أبا عبيدة حين خرج من دمشق ترك عليها يزيد بن أبي سفيان وقد روى ذلك البلاذري والطبري وابن عساكر بأسانيدهم وهي أوثق من إسناد الأزدي في هذا الشأن عن ترك دمشق في حراسة سويد بن كلثوم [يرجع إلى الاسناد في الهامش في موضعه] .

القرشي وجماعة من بني محارب بن فهر قد خلفهم أبو عبيدة في خمسمائة رجل يوم خرج من دمشق إلى بعلبك ، وقدم خالد عليهم فصاروا ألفا وخمسمائة ، فعسكر خالد على باب من أبوابها ـ لعله كان الباب الشرقي الذي اعتاد ان يعسكر تجاهه في حين نزل سويد بن كلثوم في جوف دمشق . وتقديرنا لذلك أنه كان في حوالي ٢٦ من شهر جمادي الأولى ١٥ هـ ٥ يولية ٦٣٦ م .

معركة اليرموك

اليرموك

Hieromax

جموع الروم

لم يصمد الروم في بعلبك ، ولم يدافعوا دفاعا جادا عن حمص ... لماذا ؟ هل كانت تنقصهم القوات ؟ بل كان الأمر عكس ذلك . فبعد الهزائم المتكررة التي مني بها الروم ، كان هرقل ما زال مقيما بعيدا في انطاكية يحشد قواته ويبعث بها إلى القتال ، وفي سبيل ذلك كانت الأخبار تذكر أنه يذهب إلى الجزيرة أو يظهر في حمص . لذلك نذهب إلى أنه بعد سقوط دمشق ـ وربما من قبلها أيضا ـ أراد ألا يقذف بما لديه من جنود حتى يتم حشد أكبر قوة يستطيعها ليدخل بها معركة كبيرة فاصلة تعيد إليه هيبته ومكانته .. تماما كما فعل امبراطور فارس يزدجرد الثالث في القادسية .

أرسل هراكليوس إلى بيزنطة عاصمة دولته وإلى كل من كان على دينه من جنوده ومن الأهالي في الجزيرة وفي أرمينية وكان استردهما من فارس قبل ذلك ـ وفي رواية أنه ذهب بنفسه إلى الجزيرة لإعداد هذا الحشد ، وكتب إلى عماله أن يحشدوا إليه كل من أدرك الحلم من أهل امبراطوريته فما فوق ذلك إلى الشيخ الفاني في تجنيد إجباري . كذلك كتب إلى روما عاصمة الامبراطورية الرومانية الغربية وهي لم تكن تحت سلطانه ، ولكن هذا يعني أنه استعان بها في موقفه العصيب وفي أكبر محاولة له

وهو يرمي بآخر سهم في جعبته لدفع هذا الخطر الداهم . يقول الرواة[1] : فأقبل إليه من الجموع ما لا تحمله الأرض !

كم كانوا ؟ من المهم في معركة حاسمة كبرى مثل اليرموك وقبل أن نتطرق إلى تفاصيلها أن نقف على القوة العددية لكل طرف من طرفي المعركة . فعن الجانب الرومي اختلفت روايات الرواة إلى ستة تقديرات .

الأول أنهم كانوا ١٠٠٠٠٠ يقودهم صقلارخصي هرقل .

الثاني أنهم كانوا ١٢٠٠٠٠ يقودهم باهان وسقلار .

الثالث أنهم كانوا ٢٠٠٠٠٠ يقودهم باهان[2] .

الرابع أنهم كانوا ٢٤٠٠٠٠ يقودهم باهان[2] .

الخامس أنهم كانوا ٣٠٠٠٠٠ يقودهم باهان .

السادس أنهم كانوا ٤٠٠٠٠٠ يقودهم باهان .

القول الأول[3] جاء به إسناد جيد لا بأس به عن ابن اسحق .

---

(١) الأزدي ١٥٢ حدثني ابو جهضم عن عبد الملك بن السليك عن عبد الله بن قرط .

(٢) في رواية باهان الأرمني وفي رواية باهان الرومي .

(٣) ابن عساكر ٥٣١/١ أخبرنا أبو محمد عبد الكريم بن حمزة السلمي [نجهله] ، نا أبو بكر الخطيب [حافظ ثقة ٣٩٢ ـ ٤٦٢] ح .]وأخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي [محدث بغداد زار القدس ودمشق ، مكثر ثقة ٤٥٤ ـ ٥٣٦] ،أنا أبو بكر بن الطبري [نجهله] ، قالا :

أنا أبو الحسين بن الفضل [محمد بن الحسين بن محمد بن الفضل القطان ، ثقة ولد ٣٣٥ وتوفى ٤١٥ هـ] ، أنا عبد الله بن جعفر [ابن درستويه ، ضعفوه وأنكروا عليه روايته عن يعقوب بن سفيان وقالوا إنما حدث يعقوب بالكتاب قديما فمتى سمع منه ، ودفع الخطيب البغدادي بأن جعفر بن درستويه من كبار المحدثين وفقهائهم فلا يستنكر أن يكون بكّر بابنه في السماع من يعقوب بن سفيان وغيره ، وعبد الله عالم فاضل خرج له البخاري ـ ٢٥٨ ـ ٣٤٧] ، نا يعقوب [ابن سفيان ، حافظ ورع ثقة مات حوالي٢٨٠هـ]،حدثني عمار [بن خالد بن يزيدالتمار، صدوق مات٢٦٠هـ]،عن سلمة [ابن الفضل بن الأبرش ، ضعفه بعضهم ، رازي يتشيع وليس به بأس ، كان يحفظ من مرة وكان صاحب صلاة وخشوع مات ١٩١ هـ] ، عن محمد بن اسحق .

والإسناد يقف عند ابن اسحق المتوفي ١٥٢ هـ وله حكم المتصل حيث أن لابن اسحق رواته

والقول[1] الثاني جاء به إسناد متهافت .

والقول[2] الثالث جاءت به ثلاث روايات عن سيف والوليد والبلاذري ، كل منها منفردة لا ترقى إلى مستوى رواية القول الأول ، ولكن اجتماعها معاً اجتماعاً يؤمن تواطؤه يرتفع بها .

والقول[3] الرابع يرويه سيف بن عمر وحده عن ثلاثة مجهولين وعن عمرو

الكثيرون المذكورون في غير هذا الموضع ، إلا أن عدم بيانهم هنا يحرمنا النظر فيهم ، ومن زاوية أخرى كأن ابن اسحق قد أخذ تعديل شيوخه على مسؤوليته .

(١) ابن عساكر ٥٢٩/١ أخبرنا أبو علي الحسين بن علي المصري [ثقة ٤٥٠ ـ ٥٣٢ هـ] وابنه أبو الحسن [نجهله] قالا : أنا أبو الفضل بن الفرات [رافضي ليس بثقة وقيل ثقة ٤١١ ـ ٤٩٤] ، أنا أبو محمد بن أبي نصر [اختلفوا فيه] ، أنا أبو القاسم بن أبي العقب [نجهله] ، أنا أبو عبد الملك احمد بن ابراهيم [نجهله] ، نا ابن عائذ [ثقة ٢٣٣] ، قال وحدثني عبد الأعلى بن مسهر [ثقة ٢١٨] ، عن سعيد بن عبد العزيز [ثقة ١٦٧] .

(٢) الطبري ٣٩٥/٣ س ش س عن أبي عثمان يزيد بن أسيد الغساني [نجهله] ، عن خالد [بن معدان ، ثقة مات ١٠٣ ، وعبادة [بن نسي ، ثقة مات ١١٨ هـ] .

ابن عساكر ٥٣١/١ أخبرنا أبو الحسين الخطيب [نجهله] ، ناجدي أبو عبد الله [نجهله] ، نا أبو الحسين [علي بن الحسن] الربعي [ثقة ٤٣٦ هـ] ، انا ابو الفرج العباسي بن محمد بن حبان [نجهله] ، أنا أبو العباس الزفتي [نجهله] ، انا محمد بن محمد بن مصعب [ثقة ٢٦٠ هـ] ، نا محمد بن المبارك [ثقة] ، نا الوليد [ابن مسلم ، ثقة] ، أخبرني صفوان [ابن عمرو ، ثقة] ، عن عبد الرحمن بن جبير [ثقة ١١٨ هـ] .

البلاذري ١٦٠ دون إسناد . ولم يذكر اسم باهان قائدا للروم .

(٣) الطبري ٣٩٣/٣ س ش س عن محمد [ابن عبد الله ، نجهله] وطلحة [ابن الأعلم ، نجهله] وعمرو [ابن محمد ، ثقة توفي ١٩٩ هـ] والمهلب بن عقبة [نجهله] .

ابن عساكر ٥٤٩/١ بنفس رواة الطبري المذكورين .

قالوا : كان الروم ٢٤٠٠٠٠ منهم ٨٠٠٠٠ مقيد و ٤٠٠٠٠ مسلسل للموت و ٤٠٠٠٠ مربطون بالعمائم و ٨٠٠٠٠ فارس و ٨٠٠٠٠ راجل .

وفي رواية أخرى لسيف أيضا أنه كان على الروم تذارق وعلى المقدمة جرجه وعلى الميمنة باهان وعلى الميسرة دُراقص وعلى الحرب قيقار . [الطبري ٣٩٣/٣ س ش س عن مبشر ـ بن فضيل ، مجهول في الضعفاء ـ وسهل ـ بن يوسف السلمي ، نجهله ـ وأبي عثمان ـ يزيد بن أسيد الغساني ، نجهله ـ عن خالد وعبادة ـ في الثقات ـ وأبي حارثة ـ محرز العبشمي ، نجهله .]

بن محمد ، ثقة توفي عام ١٩٩ هـ انقطع عنده السند .

والقول[1] الخامس جاء به الأزدي بإسنادين قصيرين توسط كل منهما مجهول .

والقول[2] السادس ذكره الأزدي على لسان باهان وهو يخاطب جنوده ، فكأنه كان يشجعهم ويبث الاطمئنان في نفوسهم وهو أكثر الأقوال مبالغة .

وقد أخذنا بالقول الثالث من بين هذه الأقوال .

عدد المسلمين

أما عن عدد المسلمين فقد جاء على أقوال أيضا .

الأول[3] أنهم كانوا ٠٠٠ ٤٦

(١) الأزدي ١٥٢ حدثني أبو جهضم [موسى بن سالم ، ثقة صدوق صالح الحديث] ، عن عبد الملك بن البسليك [نجهله] ، عن عبد الله بن قرط [صحابي من أعلام الفتح] .

الأزدي ١٦٧ حدثني ابو خداش [حبان بن زيد ، ثقة] عن سفيان بن سليم [نجهله] عن عبد الله بن قرط .

(٢) الأزدي ١٧٤ حدثني مخنف بن عبد الله [نجهله] ، عن عبد الرحمن بن السليك ، عن عبد الله بن قرط .

الأزدي ٢٠٨ حدثني أبو جهضم الأزدي ، عن رجل من الروم .

وقد اتجهنا إلى استبعاد الأقوال الثاني والرابع والخامس والسادس وترجيح الأول والثالث عليها لقوة الأول نسبيا واجتماع روايات الثالث . وبالنظر فيهما فإننا نرجح الفول الثالث لمعاضدته بالأقوال الرابع والخامس والسادس من حيث أن القائد كان باهان ، فضلا عن أن هذا العدد ٠٠٠ ٢٠٠ الذي ذهب إليه القول الثالث يتواءم مع الأثر النفسي الذي أحدثه لدى المسلمين خلافا لما لو كان ٠٠٠ ١٠٠ .

(٣) الطبري ٣٩٤/٣ س ش س عن أبي عثمان يزيد بن أسيد الغساني [نجهله] ، عن خالد [ثقة] وعبادة [ثقة] .

ابن عساكر ٥٤٦/١ أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي [ثقة] ، انا أبو الحسين [احمد بن محمد بن النقور [محدث بغداد ، صدوق ٣٨١ ـ ٤٧٠] ، أنا أبو طاهر المخلص [محمد بن عبد الرحمن بن العباس ، صالح ثقة ٣٠٥ ـ ٣٩٣] ، نا أبو بكر بن سيف ، نا س ش س ، عن نفس إسناد الطبري السابق

والثاني[1] أنهم كانوا ٠٠٠ ٢٤

والثالث[2] انهم كانوا ٠٠٠ ٣٦ منهم ٠٠٠ ٢٧ مع الأمراء الأربعة وعكرمة بن أبي جهل بالإضافة إلى ٩٠٠٠ جيش خالد بن الوليد فهم جميعا٣٦٠٠٠وبه أخذنا .

وقد شهد[3] اليرموك ألف رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فيهم نحو مائة من أصحاب بدر . [وجميع أهل بدر كانوا ٣١٣] .

(١) ابن عساكر ٥٢٩/١ أخبرنا أبو علي الحسين بن علي المصري وابنه ابو الحسن قالا:أنا ابو الفضل بن الفرات،أنا ابو محمد بن ابي نصر، انا ابو القاسم بن ابي العقب، انا ابو عبد الملك احمد بن ابراهيم ، نا ابن عائذ ، قال وحدثني عبد الأعلى بن مسهر ، عن سعيد بن عبد العزيز .

ابن عساكر ٥٣١/١ أخبرنا أبو محمد عبد الكريم بن حمزة السلمي ، نا أبو بكر بن الخطيب [الحافظ الثقة] ح .

وأخبرنا ابو القاسم بن السمرقندي ، أنا أبو بكر بن الطبري ، قالا : أنا أبو الحسين بن الفضل ، أنا عبد الله بن جعفر ، نا يعقوب ، حدثني عمار ، عن سلمة ، عن محمد بن اسحق .

البلاذري ١٦٠ دون إسناد .

(٢) الطبري ٣٩٤/٣ س ش س عن محمد وطلحة وعمرو والمهلب .

الطبري ٣٩٢/٣ س ش س عن مبشر [ضعيف] ، وسهل [نجهله] ، وأبي عثمان [نجهله] ، عن خالد [ثقة] ، وعبادة [ثقة] ، وأبي حارثة [نجهله] .

القول الأول يتجاوز الأعداد التي بعث بها أبو بكر وعمر إلى الشام . لقد انتهينا من قبل إلى أن جيوش المسلمين بالشام بلغت ٢٤٠٠٠ حين وفد إليهم خالد في ٩٠٠٠ فصاروا جميعا ٠٠٠ ٣٣ في ربيع الأول ١٣ هـ مايو ٦٣٤ في عهد أبي بكر، ثم أمدهم عمر بـ ٤٠٠٠ من النخع وسائر أهل اليمن في شعبان ١٤ هـ اكتوبر ٦٣٥ ثم بـ ١٠٠٠ مع سعيد بن عامر في رجب ١٥ هـ ليصير مجموع من توجه إلى الشام ٣٨٠٠٠ . ليس بين أيدينا بيان واضح عن أعداد الشهداء ولكن معارك المسلمين كانت جميعاً مظفرة . فإذا افترضنا أنهم قدموا ألفي شهيد في عربة وداثنة وأجنادين ومرج الصفر وفحل وبيسان ومرج الروم فإن ذلك يطابق القول الثالث . ننتهي إذاً إلى أن جيش المسلمين في معركة اليرموك كان ٣٦٠٠٠ وأن جيش الروم كان ٢٠٠٠٠٠ .

(٣) ابن عساكر ٥٢٩/١ أخبرنا ابو القاسم بن السمرقندي ، انا ابو الحسين بن النقور ، انا ابو طاهر ، نا احمد بن عبد الله ، س ش س عن أبي عثمان يزيد بن أسيد الغساني عن عبادة وخالد .

كان هرقل وصلب جيشه في أنطاكية يريد الانسحاب من سوريا إلى بلاده وتأبى عليه بطارقته من الروم[1] وأهل قنسرين وأهل الجزيرة وكانوا يطالبونه أن يسير بهم إلى قتال المسلمين وهو يأبى . وأخيرا قالوا له : فاعقد لرجل وسيرنا معه . فعزم على محاربة المسلمين ، فإن ظهروا وإلا عاد إلى بلاد[2] الروم فأقام بالقسطنطينية .

وكما فعل يزدجرد الثالث هناك في فارس حيث ولّى رستم بن فرخزاد قيادة جيشه بالقادسية ، دعا هرقل قائده باهان وكان من عظماء الروم وأشرافهم فولاه قيادة هذا الجيش اللجب ووجه معه القواد والجنود وسخا عليهم فأمر لهم بالجوائز[3] وأعطى باهان ٢٠٠ ٠٠٠ درهم كما أعطى كل أمير ١٠٠ ٠٠٠ درهم ثم خطب فيهم فقال :

« يا معشر الروم . إن العرب قد ظهروا على سورية ولم يرضوا بها حتى تعاطوا أقاصي بلادكم . وهم لا يرضون بالأرض والمدائن والبُر والشعير والذهب والفضة حتى يَسْبُوا الأخوات والأمهات والبنات والأزواج ويتخذوا الأحرار وأبناء الملوك عبيدا . فامنعوا حريمكم وسلطانكم ودار مملكتكم » .

ثم سيرهم إلى المسلمين .

أبو عبيدة [3] يستشير

قدمت عيون أبي عبيدة فأخبروه بجمع الروم وخطاب هرقل فيهم وسيرهم

(١) ابن عساكر ٥٣١/١ أخبرنا أبو الحسين الخطيب ، أنا جدي ابو عبد الله ، أنا أبو الحسين الربعي ، أنا ابو الفرج العباسي بن محمد بن حبان ، انا ابو العباس بن الزفتي [أو الرقي] ، أنا محمد بن محمد بن مصعب ، نا محمد بن المبارك ، نا الوليد ، قال وأخبرني صفوان عن عبد الرحمن بن جبير .

(٢) البلاذري ١٦٠ .

(٣) الازدي ١٥٣ حدثني أبو جهضم [موسى بن سالم ، ثقة صدوق وصالح الحديث] ، عن عبد الملك بن السليك [الزارى ، نجهل] ، عن عبد الله بن فرط [الثمالي صحابي من أعلام الفتح] .

إليه . ورأى أبو عبيدة ألا يكتم جنوده الخبر ، فدعا رؤوس المسلمين وذوي الهيئة والصلاح منهم ليستشيرهم ويسمع رأي جماعتهم ، وقال :

« أما بعد ، فإن الله عز وجل وله الحمد قد أبلاكم أيها المؤمنون فأحسن البلاء عندكم ، وصدقكم الوعد ، وأعزكم بالنصر ، وأراكم في كل موطن ما تسرون به .

« وقد سار إليكم عدوكم من المشركين بعدد كثير ونفروا إليكم فيما حدثني عيوني نفير الروم الأعظم ، فجاءوكم برا وبحرا حتى خرجوا إلى صاحبهم بأنطاكية .

« ثم قد وجه إليكم ثلاثة عساكر في كل عسكر منها ما لا يحصيه إلا الله من البشر . وقد أحببت ألا أغركم من أنفسكم وألا أطوي عنكم خبر عدوكم ، ثم تشيرون علي برأيكم وأشير عليكم برأيي فإنما أنا كأحدكم » .

وتمضي الرواية في ذكر حوار طويل بين أبي عبيدة وأمراء المسلمين لن نذكره بطوله لعدم تسليمنا بصحته .

وتذهب الرواية إلى أن يزيد بن أبي سفيان رأى ادخال نساء المسلمين وأولادهم داخل مدينة حمص وأن يقاتلوا الروم خارجها . فرد شرحبيل رأيه بأنه يخشى إذا وقعت المعركة أن يتقرب أهل حمص إلى الروم بالفتك بأولاد المسلمين ونسائهم ، وأجاب أبو عبيدة بأنه يخرج أهل حمص منها وينزل بها عيال المسلمين ، ولكن شرحبيل يعترض بمخالفة ذلك لشروط الصلح . ثم اقترح ميسرة بن مسروق الانسحاب من أرض الشام إلى بلاد المسلمين مع طلب المدد من أمير المؤمنين فوافق المجتمعون على هذا الرأي وكره أبو عبيدة خلافهم .

أما عدم تسليمنا بصحة هذه الرواية فلأسباب :

أولها أن يزيد كان بدمشق ولم يكن بحمص طبقا لرواية أوثق أوردناها في موضعها وثانيها ما نسبته الرواية إلى أبي عبيدة من رأي بإخراج أهل حمص منها ،

فقد كان أبو عبيدة أمين هذه الأمة وما كان لأمين أن ينقض صلحا صالح عليه .

وثالثها جهالة عبد الملك بن السليك عندنا من رواة هذا الخبر .

رد الجزية

كان أبو عبيدة قد استعمل حبيب بن مسلمة على الخراج فبعث إليه وقال له : انظر ما كنت جبيته من الخراج من حمص فاحتفظ به حتى آمرك فيه بأمري ، ولا تجبين أحداً ممن بقي من الناس حتى أحدث إليك في ذلك .

فلما أراد أبو عبيدة أن يمضي بجيش المسلمين دعا حبيب بن مسلمة وقال له : اردد على القوم الذين كنا صالحناهم من أهل البلد ما كنا أخذنا منهم ، فإنه لا ينبغي لنا إذ لم نمنعهم أن نأخذ منهم شيئا ، وقل لهم نحن على ما كنا عليه فيما بيننا وبينكم من الصلح لا نرجع فيه إلا أن ترجعوا عنه ، وإنما ردُّنا عليكم أموالكم أنا كرهنا أن نأخذ أموالكم ولا نمنع بلادكم ، ولكنا نتنحى إلى بعض الأرض ونبعث إلى إخواننا فيقدموا علينا ثم نلقى عدونا فنقاتلهم فإن أظفرنا الله بهم وفينا لكم بعهدكم إلا أن لا تطلبوا ذلك .

وأصبح الصباح فأمر أبو عبيدة برحيل جيش المسلمين إلى دمشق . واستدعى حبيب بن مسلمة القوم الذين كانوا أخذ منهم الجزية فرد عليهم مالهم وأخبرهم بما قال أبو عبيدة[1] . وأخذ أهل حمص يقولون : ردكم الله إلينا ولعن الله الذين كانوا يملكوننا من الروم ، ولكن والله لو كانوا هم ما ردوا علينا بل غصبونا وأخذوا ما قدروا عليه من أموالنا ، لوَلَايتكم وعدلكم أحب[2] إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ،

(١) الازدي ١٥٥ بإسناده السابق .

(٢) البلاذري ١٦٢ حدثني أبو حفص الدمشقي [احمد بن محمد بن علي الصفار ، مستقيم الأمر] ، عن سعيد بن عبد العزيز [ثقة ثبت حجة ، توفى ١٦٧ هـ] . وإذ يقف الاسناد عند سعيد بن عبد العزيز فإننا نضيف أنه كان يروى عن نافع ومحمد بن مسلم بن شهاب وعن مكحول الذي روى بدوره عن كثير من الصحابة .

ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم . ونهض اليهود فقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نُغْلَب ونُجْهَد . وتمضي الرواية فتقول : فأغلقوا الأبواب وحرسوها ، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود . وقالوا : إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه ، وإلا فإنا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد . ونحن نرى في هذه الإضافة قدرا من المبالغة فما نحسب أهل حمص كانوا بهذه الجرأة ، وما كان موقفهم يحتاج إلى هذه الشجاعة فقد كان يكفيهم أن يقفوا متفرجين وهم أضعف من أن يرجحوا كفة على كفة أو أن يعرضوا أنفسهم لسخط الروم وانتقامهم ، ولكن من شأن المواقف العالية أن تضاف إليها الإضافات .

رسالة الى عمر

قال سفيان بن عوف[1] : بعثني أبو عبيدة بن الجراح ليلة غدا من حمص إلى دمشق ، وقال ائت أمير المؤمنين فأبلغه عني السلام ، وأخبره بما قد رأيت وعاينت وبما قد جاءتنا به العيون ، وبما استقر عندك من كثرة العدو ، وبالذي رأى المسلمون من التنحي عنهم ، وكتب معه :

« أما بعد . فإن عيوني قدمت عليّ من أرض عدونا ، من القرية التي فيها ملك الروم ، فحدثوني بأن الروم قد توجهوا إلينا وجمعوا لنا من الجموع ما لم يجمعوه لأمة قط كانت قبلنا . وقد دعوت المسلمين وأخبرتهم الخبر واستشرتهم في الرأي ، فأجمع رأيهم على أن يتنحوا عنهم حتى يأتينا رأيك ، وقد بعثت إليك رجلا عنده علم ما قبلنا فسله عما بدا لك فإنه بذلك عليم وهو عندنا أمين . ونستعين بالله العزيز العليم وهو حسبنا ونعم الوكيل والسلام عليك » .

(١) الأزدي ١٥٦ حدثني أبو خُداش [حبان بن زيد الشرعبي الحمصي ، ثقة] عن سفيان بن سليم الأزدي [نجهله] ، عن سفيان بن عوف بن معقل [أو بن المغفل بن عوف بن عمرو بن كلب بن ذهل بن يسار بن والبة بن الدئل بن سعد مناة بن غامد بن الازد ، مات ٥٣ هـ ـ الاصابة]

قال سفيان : فلما قدمت على أمير المؤمنين سلمت عليه ، فقال : أخبرني عن الناس . فأخبرته بصلاحهم ودفاع الله عنهم . ثم أخذ الكتاب فقرأه .

فقال لي : ويحك ، ما فعل المسلمون ؟

فقلت : أصلحك الله ، خرجت من عندهم ليلا من حمص وتركتهم وهم يقولون نصلي الغداة ثم نرحل الى دمشق ، وقد أجمع رأيهم على ذلك .

فكأنه كرهه حتى عرفت الكراهية في وجهه .

ثم قال: لله أبوك، ما رجوعهم عن عدوهم وقد أظفرهم الله بهم في غير موطن من مواطنهم ، وما تركهم أرضا قد احتووها وفتحها الله عليهم وصارت في أيديهم ! وإني أخاف أن يكونوا أساؤوا الرأي وجاؤوا بالعجز وجرّأوا عليهم عدوهم .

قلت : أصلحك الله ، إن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وإن صاحب الروم قد جمع لنا جموعا لم يجمعها هو ولا أحد كان قبله لأحد كان قبلنا . ولقد أخبرنا بعض عيوننا أن عسكرا واحدا من عساكرهم مروا بالعسكر في أصل جبل ، فهبطوا من الثنية نصف النهار إلى عسكرهم ، فما ظنك أصلحك الله بمن بقي منهم ؟ فقال عمر : لولا أني ربما كرهت الرأي من رأيهم ، والشيء من أمرهم فأرى الله يخير لهم في عاقبة ذلك لكان هذا الرأي منهم أنا له كاره .

ثم قال له : أخبرني ، أَجْمَعَ رأي جميعهم إلى التحويل ؟ [يعني الانسحاب] . قال : فالحمد لله على ذلك ، فإني أرجو أن يكون الله جمع رأيهم على الخير إن شاء الله .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، اشدد أعضاد المسلمين بمدد يأتيهم من قبلك قبل الواقعة ، فإن هذه الوقعة هي الفيصل فيما بيننا وبينهم ، فإن أظفرنا الله بهم وأظهرنا عليهم هذه المرة هلكت الروم هلاك عاد وثمود .

فقال لي : أبشر ، وبشر المسلمين إذا قدمت عليهم ، واحمل كتابي هذا إلى

أبي عبيدة وإلى المسلمين وأعلمهم أن سعيد بن عامر بن حذيم قادم عليهم بالمدد إن شاء الله .

كان أبو بكر رضي الله عنه قد بعث سعيد بن عامر على سبعمائة رجل فيهم بلال بن أبي رباح مؤذن رسول الله ﷺ إلى الشام فلحق بيزيد بن أبي سفيان وشهد معه عربة وداثنة ، وبقي مع جيوش المسلمين بالشام حتى بعثه أبو عبيدة إلى عمر بفتح بيسان . كانت بيسان في ٢٨ من ذي القعدة ١٣ هـ ونفترض أن أبا عبيدة قد بعث سعيد بن عامر في اليوم التالي ، ويكون معنى هذا أنه قد بلغ المدينة فأسلم الرسالة إلى عمر ثم استأذن للحج فواصل رحلته إلى عرفات كل هذا في ١١ يوما . هذا يعطينا صورة عن سعيد بن عامر أي نوع من الرجال كان ومقدار صلابته وجلده واحتماله فإن قياس المسافة مع الزمن يعني أنه كان يقطع نحوا من ١٥٠ كيلومترا في اليوم ولا بد أن يكون قد اعتمد على الخيل في ذلك . اختار عمر هذا الرجل ليبعثه على المدد الجديد إلى الشام . عاد سعيد من حجه فبقي عند عمر[1] حتى قدم عليه سفيان بن عوف من حمص .

غير واضح لنا إن كان المدد كان جاهزاً عند عمر أو أنه شرع في جمعه ولكن مقتضى الحال يفيد أن العمل تم بسرعة ، واختلفت الروايات في عدد هذا المدد بين ألف وألفين ، والألف أرجح . وكتب عمر :

من عمر [2] الى أبي عبيدة

« بسم الله الرحمن الرحيم .

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح والى الذين معه من المهاجرين والانصار والتابعين بإحسان والمجاهدين في سبيل الله ، سلام عليكم .

(١) الأزدي ١٨٥ حدثني أبو خداش عن سفيان بن سليم الازدي عن عبد الله بن قرط .

(٢) الازدي ١٥٦ حدثني أبو خداش عن سفيان بن سليم الأزدي عن سفيان بن عوف بن معقل .

فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد .

فإنه بلغني توجهكم من أرض حمص إلى أرض دمشق وترككم بلادا قد فتحها الله عليكم وخليتموها لعدوكم وخرجتم منها طائعين ، فكرهت هذا من رأيكم وفعلكم، وسألت رسولكم عن رأيٍ مِنْ جميعكم؟ فزعم أنه ذلك كان من رأي خياركم وأولي النُّهَى منكم وجماعتكم ، فعلمت أن الله عز وجل لم يكن ليجمع رأيكم إلا على توفيق وصواب ورشد في العاجلة والعاقبة ، فهوَّن ذلك عليّ ما كان دخلني من الكراهية قبل ذلك لتحويلكم .

« وقد سألني رسولكم المدد لكم ، وانا ممدكم قبل أن يقرأ عليكم كتابي هذا وأُشخص لكم المدد من قِبَلي إن شاء الله . واعلموا أنه ليس بالجمع الكثير كنا نهزم الجمع الكثير ولا بالجمع الكثير كان الله ينزل النصر عليهم . ولربما خذل الله الجموع الكثيرة فوهنت ، وقلّت وفشلت ولم تغن عنهم فئتهم شيئا ، ولربما نصر الله العصابة القليلة عددها على الكثير عددها من أعداء الله فأنزل الله عليهم نصره ، وعلى المشركين من أعداء الله وأعداء المسلمين بأسه ورجزه . والسلام عليكم » .

سار الرسول بالرسالة وقال عمر[1] لسعيد بن عامر : يا سعيد بن عامر إني قد وليتك على هذا الجيش ولست بخير من رجل منهم إلا أن تكون أتقى لله منه ، فلا تشتم أعراضهم ولا تضرب أبشارهم ولا تحقر ضعيفهم ولا تؤثر قويهم وكن للحق تابعا ولا تتبع هوى شاذا ، فإنه إن بلغني عنك ما أحب فإنه لا يعدمك حتى ما تحب .

قال سعيد : يا أمير المؤمنين إنك قد أوصيتني فاستمعت منك ، فاستمع مني أوصيك .

(1) الازدي ١٨٦ حدثني عبد الملك بن نوفل بن مساحق القرشي عن أبي سعيد المقبري . و١٨٧ حدثني الأجلح بن عبد الله عن الشعبي .

قال : هات .

قال : يا أمير المؤمنين خف الله في الناس ولا تخف الناس في الله . وأحبب لقريب المسلمين وبعيدهم ما تحب لنفسك وأهل بيتك ، واكره لقريب المسلمين وبعيدهم ما تكره لنفسك وأهل بيتك ، والزم الأمر ذا الحجة يكفك الله ما همك ويعينك على أمرك وعلى ما ولاّك ، ولا تقضين في أمر واحد بقضائين مختلفين فيختلف عليك قومك ورأيك ويلتبس الحق بالباطل ويشتبه عليك الأمر ، وخض الغمرات إلى الحق حيث علمته ولا تأخذك في الله لومة لائم .

فأكب عمر طويلا وفي يده عصا له وهو واضع جبهته عليها ، ثم رفع رأسه ودموعه تسيل على خديه .

فقال : لله أبوك يا سعيد ، ومن يستطيع هذا العمل الذي تذكر ؟

قال : من قطع الله في عنقه مثل الذي قطع في عنقك فهو جدير عليك ألا تفعل ، إنما عليك أن تأمر فيطاع أو يعصى ، فتبوء بالحجة ويبوء القوم بالمعصية .

وذهب سعيد بجنده حتى دخل بهم معسكر أبي عبيدة باليرموك بعد أن نزله أبو عبيدة .

الرحيل الى دمشق

في الصباح التالي لخروج سفيان بن عوف من حمص إلى عمر سار أبو عبيدة بجيوش المسلمين . لم نقف في المصادر على ذكر طريق السير ولكننا نرجح سلوكهم طريق البقاع ، فهو واد ضيق مؤمن الأجناب وقد سلكه الروم في أعقابهم وكانوا يتعقبونهم . روى عبد الله بن قرط[1] خبر ذلك فقال :

« لما صلينا الغداة [الفجر] بحمص ، خرجنا نسير مع أبي عبيدة حتى قدمنا دمشق وبها خالد بن الوليد وقد تركنا أرض حمص وليس فيها منا ديَّار بعدما كنا افتتحناها وأمّنّا أهلها وكتبنا بيننا وبينهم كتابا وصالحناهم عليها .

(1) الازدي ١٦٠ حدثني ابو خداش ، عن سفيان بن سليم عن عبد الله بن قرط .

« فلما دخلنا دمشق أتانا خالد بن الوليد وضممنا عسكره وعسكرنا فكان واحدا ، فخلا أبو عبيدة بخالد فأخبره الخبر وبمشورة الناس عليه ، وبالرحلة ، وبمقالة العبسي في ذلك . فقال خالد : أما إنه لم يكن الرأي إلا الإقامة بحمص حتى نناجزهم فيها ، فأما إذا اجتمع رأيكم على أمر واحد فإني لأرجو ألا يكون الله جمع رأيكم إلا على ما هو خير لكم .

« وأقام أبو عبيدة بدمشق يومين وأمر سويد بن كلثوم القرشي أن يرد على أهل دمشق ما كان اجتبى منهم ، الذين كانوا أومنوا وصولحوا. فرد عليهم ما كان أخذ منهم . وقال لهم المسلمون : نحن على العهد الذي كان بيننا وبينكم ، ونحن معيدون لكم أمانا ومتمون ما كنا صالحناكم عليه » .

كان المسلمون يرقبون ما يفعل الروم لا يغفلون عن تحريكهم . وسار الروم إلى حمص إلى بعلبك ثم على البقاع ثم[1] على حُولة[2] دمشق . فأشفق المسلمون أن يحول الروم بينهم وبين سائر جيوش المسلمين الذين بسواد الأردن ونواحيها .

ويستمر عبد الله بن قرط في روايته « ثم إن أبا عبيدة جمع أصحابه فقال لهم : ماذا ترون ؟ أشيروا عليّ .

قال يزيد بن أبي سفيان : أرى أن تخرج حتى تنزل الجابية ، ثم تبعث إلى عمرو بن العاص فيقدم عليك بمن معه من المسلمين ، ثم نقيم للقوم حتى يقوموا علينا فنقاتلهم ونستعين الله عليهم .

فقال شرحبيل بن حسنة : ولكني أرى إذ خلينا لهم عما خلينا من أرضهم أن ندعها كلها في أيديهم ونخرج لهم عنها ونترك التخوم بيننا وبين أرضهم ، فندنو من

---

(١) ابن عساكر ٥٣٢/١ أخبرنا أبو الحسين الخطيب ، أنا جدي أبو عبد الله ، انا ابو الحسين الربعي ، أنا ابو الفرج العباس بن محمد بن حبان ، أنا أبو العباس بن الزفتي [الرقي] ، انا محمد بن محمد بن مصعب ، نا محمد بن المبارك ، نا الوليد ، أخبرني صفوان ، عن عبد الرحمن بن جبير .

(٢) الحولة كورة بين بانياس وصورذات قرى كثيرة [معجم البلدان] وتظهر على الخريطة اليوم في لبنان .

خليفتنا ومن مددنا ، فإذا أتانا من المدد ما نرجو أن نقوى به على عدونا قاتلناهم إن هم أتونا وإلا أقدمنا عليهم إن هم أمسكوا عنا .

قال رجل من المسلمين : هذا أصلحك الله رأي حسن فاقبله وارجع إليه فإن عاقبته ان شاء الله راجعة إلى خير .

قال معاذ بن جبل : أصلحك الله ، وهل يلتمس هؤلاء من عدوهم أمرا أضر عليهم ولا أشد مما تريدون بأنفسكم ؟ تخلون لهم عن أرض قد افتتحها الله عليكم وقتل فيها ملوكا من ملوك الروم وصناديدهم ، وأهلك الله فيها جنودهم العظام ، فإذا خرج المسلمون منها وتركوها لهم وكانوا فيها على مثل حالتهم الأولى التي كانوا عليها فما أشد على المسلمين دخولها بعد الخروج منها ، وهل يصلح لكم أن تخرجوا منها وتدعوها وتدعوا البلقاء والأردن وقد اجتبيتم خراجها إلا أن تدفعوا عنهم ! أما والله لئن خرجتم منها ثم أردتم دخولها بعد الخروج منها لتكابدن من ذلك مشقة .

فقال أبو عبيدة : صدق وبرّ ، ما ينبغي لنا أن نترك قوما قد اجتبيناهم خراجهم وعقدنا لهم العهد حتى نعذر إلى الله في الدفع عنهم ، فإن شئتم نزلنا الجابية ، وبعثنا إلى عمرو بن العاص يقدم علينا ، ثم أقمنا للقوم حتى نلقاهم بها .

قال خالد بن الوليد مدللا على عدم رضاه : كأنك إذ كنت بالجابية كنت على أكثر مما أنت عليه مكانك هذا الذي أنت به ؟!

محاولة التفاف

الوضع الآن أن المسلمين قاموا بإخلاء حمص ومنطقتها إلى دمشق ، وجاءت جحافل الروم فدخلت حمص ثم تحركت جنوبا خلال وادي البقاع إلى بعلبك ، ولم يتجهوا بعد ذلك الى دمشق حيث انسحب المسلمون وإنما اتجهوا إلى الحولة في اتجاه نحو الجنوب . وإذ كان المسلمون يرقبون سير الروم فقد رأوا في مسارهم حركة التفاف يستهدفون بها قطع خط الرجعة على جيش المسلمين وحصره بين جيشهم وبين أرض ليست في يد المسلمين ، ومع التفوق العددي الكبير لجيش الروم يصير

هذا الوضع بالغ الخطورة ويضع جيش المسلمين في مصيدة .

واجتمع المسلمون يتدارسون وضعهم .

١ ـ رأى يزيد الانسحاب جنوبا إلى الجابية على مسيرة يوم من دمشق ، وهي من ناحية الجولان قرب مرج الصفر شمالي حوران، وهناك ينضم إليهم جيش عمرو بن العاص الرابض بفلسطين ويقيمون لقتال الروم .

٢ ـ ورأى شرحبيل ـ أنما داموا قد انسحبوا هذا القدر ـ أن يتم انسحابهم تماما حتى حدود بلادهم ، وبذلك تقصر خطوط مواصلاتهم بقاعدتهم وتصل إليهم الأمداد ، فإذا جاءهم الروم هناك قاتلوهم وإذا لم يجيئوا عاد المسلمون يتقدمون إليهم .

٣ ـ واعترض معاذ على ذلك باعتراضين :

أ ـ صعوبة استرداد الأرض بعد الخروج منها وبذل الضحايا لذلك .

ب ـ أن جباية الجزية كان مقرونا بشرط الدفاع عن الأهالي ، فلا يحق الآن الانسحاب وتركهم .

٤ ـ أيد أبو عبيدة رأي معاذ وانضم إلى يزيد في رأيه بنزول الجابية .

٥ ـ اعترض خالد على أي انسحاب آخر وكأنه بذلك كان يرى البقاء في دمشق .

الموقف في فلسطين

وإنهم لكذلك يقلبون الرأي إذ قدم على أبي عبيدة كتاب من عمرو بن العاص يحمله ابنه عبد الله بن عمرو

« بسم الله الرحمن الرحيم .

أما بعد . فإن أهل إيلياء وكثيرا ممن كنا صالحناهم من أهل الأردن قد نقضوا العهد فيما بيننا وبينهم وذكروا أن الروم قد أقبلت إلى الشام بقضها وقضيضها، وأنكم قد خليتم لهم عن الأرض وخرجتم منها وأقبلتم منصرفين عنها ، وقد جرأهم ذلك

عليّ وعلى من قبلي من المسلمين ، وقد تراسلوا وتواثقوا ، وتعاقدوا ليسيرن إليّ ، فاكتب إلي برأيك ، فإن كنت ترى القدوم عليّ أقمت لك حتى تقدم ، وإن كنت تريد منزلاً من الشام أو من غيرها وأن أقدم إليك فأعلمني برأيك أوافك فيه ، فإني صائر إليك أينا كنت ، فابعث إليّ مددا أقوى بهم على عدوي وعلى ضبط ما قِبَلي فإنهم قد أرجفوا بنا واغتمزوا فينا واستعدوا لنا ، ولو يجدون فينا ضعفا أو يرون فينا فرصة ما ناظرونا . والسلام عليك » .

فكتب إليه أبو عبيدة بن الجراح

« بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فقد قدم عليّ عبد الله بن عمرو بكتابك تذكر فيه إرجاف المرجفين واستعدادهم لك وجرأتهم عليك . للذي بلغهم من انصرافنا عن الروم وما خلينا لهم من الأرض ، وإن ذلك والحمد لله لم يكن من المسلمين عن ضعف من بصائرهم ولا عن وهن من عدوهم ولكنه كان رأيا من جماعتهم كادوا به عدوهم من المشركين ليخرجوهم من مدائنهم وحصونهم وقلاعهم ، وليجتمع بعض من المسلمين الى بعض ويجتمعوا من أطرافهم ، وينضم إليهم من كان قربهم وينتظرون قدوم أمدادهم عليهم ثم يناهضوهم إن شاء الله .

وقد اجتمعت خيلهم وتتامت فرسانهم ووثقنا بنصر الله أولياءه وإنجاز موعده وإعزاز دينه وإذلال المشركين حتى لا يمنع أحد أمَّه ولا خليلته ولا نفسه حتى يتوغلوا في رؤوس الجبال ويعجزوا عن منع الحصون ويجنحوا للسلم ويلتمسوا الصلح وسنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ثم أَعْلِم من قبلك من المسلمين أني قادم عليهم بجماعة أهل الاسلام إن شاء الله ، فليحسنوا بالله الظن، ولا يجدَن أهل حربكم وعدوكم فيكم ضعفا ولا وهنا ولا فشلا فيغتمزوا فيكم ، ويتجرأوا عليكم . أعزنا الله وإياكم بنصره وألبسنا وإياكم عافيته وعفوه والسلام عليك » . أ . هـ .

وقال أبو عبيدة لعبد الله بن عمرو : أقرئ أباك السلام وأخبره أني في أثرك وأعْلِم ذلك المسلمين ، وكن يا عبد الله بن عمرو ممن يشدد الله به ظهور المسلمين ويحسن به ظنهم ويستأنسون به ، فإنك رجل من الصحابة وقد جعل الله للصحابة بصحبتهم رسول الله فضلا على غيرهم من المسلمين . ولا تتكل في ذلك على أبيك ، وكن أنت في جانب تحرض الناس وتعدهم بالنصر وتأمرهم بالصبر ، ويكون أبوك يفعل ذلك في جانب آخر .

قال عبد الله : إني أرجو أن يبلغك من ذلك إن شاء الله ما يسرك .

ففعل ذلك هو وأبوه فكان لهما أجر وغناء ونكاية في الروم وشدة وقوة على عدو المسلمين[1] .

ذهب عبد الله بن عمرو بكتاب أبي عبيدة حتى قدم به على أبيه ، فأعلنه في المسلمين وقرأه عليهم ، ثم جمع من كان قِبَلَه من المسلمين فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ثم قال :

« أما بعد ، فقد برئت ذمة الله عز وجل من أهل عهدنا من أهل الأردن ، قدم عليّ رجل من أهل إيلياء وكان[2] عنده [ ] ولم يأتنا به ولم يرفعه إلينا . ألا ولا يبقين رجل من أهل عهدنا إلا تهيأ و استعد حتى يسير معي إلى أهل إيلياء فإني أريد المسير إليهم والنزول بساحتهم ثم لا أزايلهم [أفارقهم] حتى أقتل مقاتلتهم وأسبي ذراريهم أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

ثم نادى في المسلمين ان ارتحلوا إلى إيلياء [وهي بيت المقدس] . وسار عمرو نحوا من ميلين[3] في اتجاه بيت المقدس ثم نزل وعسكر ، وقال لأهل الأردن :

---

(١) في رواية سيف بن عمر أن عمرو بن العاص كتب إلى أبي عبيدة « إن الرأي الاجتماع ، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يُغلب من قلَّة ، وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا في عدد يُقْرِن فيه لأحد ممن استقبلنا وأعد لنا لكل طائفة منا » . [الطبري ٣٩٢/٣ س ش س عن مبشر وسهل وأبي عثمان عن خالد وأبي عبادة وأبي حارثة] .

(٢) هكذا النص ، فيه غموض ويبدو أن هناك كلمة ساقطة في مكان بين القوسين .

(٣) لم يتبين لنا أين كان عمرو من أرض الأردن .

أخرجوا إلينا الأسواق . وأرسل فيهم مناديه ينادي: ألا برئت الذمة من رجل من أهل الصلح لم يخرج بسلاحه حتى يحضر معنا عسكرنا وينظر ما نأمره به .

واجتمع إليه أهل الصلح بعدتهم وسلاحهم فوضع معهم ابنه عبد الله في خمسمائة رجل من المسلمين فعسكروا معا .

ما الذي كان يريده عمرو بكل ما فعل ؟ إنما أراد أن يشغل أهل الأردن عن الإرجاف والفتنة ، وأراد أن يبلغ أهل بيت المقدس أنه يريد المسير إليهم والنزول عليهم فيرعب قلوبهم ويشغلهم في أنفسهم ويلزمهم حصونهم فلا يفكرون في الغارة عليه أو أن يستردوا شيئا مما في يده . كان يتحرك في نطاق الحرب النفسية ، فقد خشي ـ محقا في خشيته ـ من انتقاض أهل الاردن وفلسطين حين تتقدم جيوش هرقل إليهم . وقد كان التجار من أهل الاردن يرحلون إلى إيلياء [بيت المقدس] وكذلك أهل إيلياء الذين كانوا في الاردن عند ذوي قرابة أو أصدقاء عادوا جميعا إلى القدس وأنذروا أهلها : هذا عمرو بن العاص قد أقبل نحوكم وصار إليكم بالناس . فاجتمعوا من كل مكان وتراسلوا وتأكدت لديهم أخبار أن عمرو بن العاص يريدهم فكانوا من ذلك في هول شديد وزادهم خوفا ووجلا .

إنذار من عمرو

« بسم الله الرحمن الرحيم[1] .

من عمرو بن العاص إلى بطارقة إيلياء . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله العظيم الذي لا إله إلا هو ، ومحمد ﷺ . أما بعد .

فإنا نثني على ربنا خيرا ونحمده حمدا كثيرا كما رحمنا بنبيه وشرفنا برسالته وأكرمنا بدينه وأعزنا بطاعته وأكرمنا بتوحيده والإخلاص بمعرفته ، فلسنا والحمد لله نجعل له ندا ولا نتخذ من دونه إلها ، لقد قلنا إذن شططا . سبحانه وبحمده جل

---

(١) الازدي ١٦٥ حدثني أبو خداش عن سفيان بن سليم [نجهله] عن عبد الله بن قرط .

ثناؤه . والحمد لله الذي جعلكم شيعا وجعلكم في دينكم أحزابا بكفركم بربكم فكل حزب بما لديهم فرحون ، فمنكم من يزعم أن لله ولدا ومنكم من يزعم أن الله ثاني اثنين ومنكم من يزعم أن الله ثالث ثلاثة فبعدا لمن أشرك بالله وسحقا ، وتعالى الله عما يقولون علوا كبيرا . والحمد لله الذي قتل بطارقتكم وسلب عزكم وطرد من هذه البلاد ملوككم وأورثنا أرضكم ودياركم وأموالكم وأذلكم بكفركم بالله وتركككم ما دعوناكم إليه من الإيمان بالله ورسوله ، فأعقبكم الله الجوع والخوف والذل بما كنتم تصنعون . فإذا أتاكم كتابي هذا فاسلموا تسلموا ، وإلا فأقبلوا إلينا حتى أكتب لكم كتابا أمانا على دمائكم وأموالكم وأعقد لكم عقدا تؤدون إليّ الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإلا فوالله الذي لا إله إلا هو لأرمينكم بالخيل بعد الخيل وبالرجال بعد الرجال ، ثم لا أقلع عنكم حتى أقتل المقاتلة وأسبي الذرية وتكونون كأمّة كانت فأصبحت كأنها لم تكن » . أ . هـ .

هذه الرسالة كتبت بصيغة شديدة ولهجة عنيفة بصورة لم نعهدها في رسالة سابقة ، ولنقارنها برسالة النبي ﷺ إلى هرقل . ولكن لا يغيب عن الذهن أن عمرو بن العاص ما زال يواصل حربه النفسية مع قوم نقضوا عهودهم أو هم على وشك الانتقاض ، وعلى الطريق إليه جيش لم تجمع الروم مثله من قبل ، بعد قليل سوف يواجهه . والهدف الذي يستهدفه عمرو هو تحييد الأهالي في المعركة المرتقبة .

وأعطى عمرو الكتاب إلى رجل نصراني على دينهم وقال له : عجّل عليّ فإني إنما أنتظرك . وقدم عليهم الرجل فقالوا له : ويحك ما وراءك ؟

قال : لا أدري إلا أن الرجل قد بعثني إليكم بهذا الكتاب ، وقد وجه عسكره نحوكم ، وقال ما يمنعني من المسير إليهم إلا انتظاري رجوعك .

قالوا له : أنظرنا [أجلنا] ساعة من النهار فإنا ننتظر عيونا لنا تقدم علينا من قبل أمير العرب الذي بدمشق ، ومن قبل جند الملك الذي قد أقبل إلينا فننظر ما تأتينا به ، فإن ظننا أن لنا بالعرب قوة لم نصالحهم وإن خشينا ألا نقوى عليهم

صنعنا ما صنع أهل الأردن وغيرهم ، فما نحن إلا كغيرنا من أهل الشام .

فأقام الرجل حتى أمسى ، ثم جاءهم رسولهم الذي كانوا ينتظرون،فأخبرهم ان باهان قد أقبل من عند هرقل في ثلاث عساكر كل عسكر منها أكثر من مائة ألف مقاتل ، كما أخبرهم أن العرب لما بلغهم ماسار إليهم من تلك الجموع علموا أنه لا قبل لهم بما جاءهم فانصرفوا راجعين ، وأن أوائل العرب كانوا قد دخلوا أرض قِنَّسْرين فأخرجوهم منها ثم أتوا أرض حمص فأخرجوهم منها ثم أتوا أرض دمشق فأخرجوهم منها ثم أقبلت العرب نحو الأردن نحو صاحبهم الذي كتب إليهم [عمرو] والروم في آثارهم يسوقونهم سوقا عنيفا سريعا إلى ما قبلهم من البلاد .

فتباشر أهل إيلياء بذلك وسروا به ، ودعوا العلج الذي بعث به عمرو بن العاص فبعثوا معه برسالة إلى عمرو

« أما بعد ، فإنك كتبت إلينا كتابا تزكي فيه نفسك وتعيب ما نحن عليه ، والقول بالباطل لا ينفع به أحد نفسه ولا يضر به عدوه.وقد فهمنا ما دعوتنا اليه، وهؤلاء ملوكنا وأهل ديننا قد جاءوكم ، فإن أظهرهم الله عليكم فذلك بلاؤه عندنا في القديم ، وإن ابتلانا بظهوركم علينا فلعمري لنقرّن لكم بالصَّغار ، وما نحن إلا كمن ظهرتم عليهم من إخواننا ثم دانوا لكم فأعطوكم ما سألتم » .

وقدم الرجل بهذا الكتاب إلى عمرو وكان قد استبطأه فقال له : ما حبسك؟ فأخبره الرسول بالخبر ، وبذلك أحدثت مناورة عمرو أثرها في تثبيط هؤلاء عن التجمع له والغارة عليه . فلم يكن إلا يومه ذلك حتى قدم خالد بن الوليد في مقدمة أبي عبيدة ، وكان أبو عبيدة في أثره قد خرج من دمشق بجيش المسلمين إلى بلاد الأردن وأمر عبد الرحمن بن حنبل فنادى في الناس أن يسيروا إلى الأردن ، وأمر خالد بن الوليد فتقدم في مقدمته حتى نزل اليرموك وأقبل عمرو حتى نزل معه .

يروي(1) رجل رومي يدعى جُرْجَة [جورج] أسلم وحسن إسلامه قال : « كنت

(١) الأزدي ١٦٨ حدثني مالك بن قسامة بن زهير عن رجل من الروم وكان يدعى جرجة .

في ذلك الجيش الذي بعثنا ملك الروم من أنطاكية مع باهان . فأقبلنا ونحن لا يحصى عددنا إلا الله ، ولا يرى أن لنا غالبا من الناس ، فأخرجنا أوائل العرب من أرض قنسرين ثم أقبلنا في آثارهم حتى أخرجناهم من حمص ، ثم أقبلنا في آثارهم حتى أخرجناهم من دمشق . ولحق بنا كل من كان على ديننا من النصارى حتى إن الراهب لينزل عن صومعته وقد كان فيها دهرا طويلا من دهره ، فيتركها وينزل إلينا ثم يأتينا فيقاتل معنا غضبا لدينه ومحاماة عليه . وكان من كان من العرب بالشام ممن كان مشركا على طاعة قيصر على ثلاثة أصناف ، فأما صنف فكانوا على دين العرب وكانوا معهم ، وأما صنف فكانوا نصارى وكانت له نيّة في النصرانية وكانوا معه ، وأما صنف فكانوا نصارى وليس لهم في النصرانية تلك النية ، فقالوا نكره أن نقاتل أهل ديننا ونكره أن ننصر العجم على قومنا . وأقبلت الروم تتبع أهل الإسلام وقد كانوا هابوهم هيبة شديدة ، ورعبوا منهم رعبا شديدا ولكنهم لما رأوهم قد خلوا لهم البلاد وتركوا لهم ما كانوا افتتحوا جرّأهم ذلك عليهم ، مع عددهم الذي لم يجتمع لأحد قط قبلهم » . أ . هـ .

وقال عبد الله بن قرط[1] « لما أقبلت الروم في آثارنا أخذوا لا يمرون بأرض كنا فتحناها ثم خليناها إلا شتموهم ووقعوا بهم و عاقبوهم ، فيقول لهم أهل البلد : أنتم أولى باللائمة منا ، أنتم وهّنتم أمرنا وعجزتم وتركتمونا وذهبتم وأتانا قوم لم تكن لنا بهم طاقة . فكانوا يعرفون صدقهم فيكفون عنهم » .

من أبي عبيدة الى عمر

قال معاذ بن[2] بن جبل لأبي عبيدة بن الجراح « ألا تكتب إلى أمير المؤمنين تعلمه علم هذه الجيوش التي قد جاءتنا وتسأله المدد ؟ » فكتب إليه

« أما بعد . أخبر أمير المؤمنين اكرمه الله أن الروم نفرت إلى المسلمين برا وبحرا ولم يخلفوا وراءهم رجلا يطيق حمل السلاح إلا جاشوا به علينا وخرجوا معهم

(١) الازدي ١٧٢ حدثني الحارث بن كعب عن عبد الرحمن بن السليك الفزاري عن عبد الله بن قرط .
(٢) الأزدي ١٨٠ حدثني أبو جهضم عن عبد الرحمن بن السليك عن عبد الله بن قرط .

بالقسيسين والأساقفة ونزلت إليهم الرهبان من الصوامع ، واستجاشوا بأهل أرمينية وأهل الجزيرة . وجاءونا وهم نحو من أربعمائة ألف رجل . وأنه لما بلغني ذلك من أمرهم كرهت أن أغر المسلمين من أنفسهم أو أكتمهم ما بلغني عنهم فكشفت لهم عن الخبر وشرحت لهم من الأمر وسألتهم عن الرأي ، فرأى المسلمون أن يتنحوا إلى أرض من أرض الشام ثم نضم إلينا أطرافنا وقواصينا ونكون بذلك المكان جماعتنا حتى يقدم علينا من قبل أمير المؤمنين المدد لنا . فالعجل العجل يا أمير المؤمنين بالرجال بعد الرجال ، وإلا فاحتسب أنفس المؤمنين إن هم أقاموا ، ودينهم منهم إن هم تفرقوا ، فقد جاءهم ما لا قبل لهم به إلا أن يمدهم الله بملائكته أو يأتيهم بغياث من قبله ، والسلام عليك » .

فلما أتاه الكتاب دعا عمر المهاجرين والأنصار فقرأه عليهم ، فبكى المسلمون بكاء شديدا ورفعوا أيديهم يضرعون إلى الله أن ينصرهم ويعافيهم وأن يدفع عنهم ، واشتدت شفقتهم عليهم ، وقالوا « يا أمير المؤمنين ابعثنا إلى إخواننا وأقر علينا أميرا ترضاه لنا ، أو سر بنا أنت فوالله إن أصيبوا فما في العيش خير بعدهم » .

قال عبد الله[1] بن قرط « كنت أنا القادم على عمر بكتاب أبي عبيدة ، فكل من قدمت عليه من المهاجرين والأنصار ظهر منهم الجزع والشفقة على المسلمين مخافة الهلاك عليهم ، ولم أر أحدا كان أشد جزعا ولا أظهر شفقة من عبد الرحمن بن عوف ولا أكثر مقالة : سر بنا يا أمير المؤمنين فإنك لو قدمت الشام لقد شدد الله قلوب المؤمنين وأرعب قلوب الكافرين » . فاجتمع رأي أصحاب رسول الله ﷺ على أن يقيم عمر ويبعث المدد ويكون ردءا للمسلمين » .

قال عمر : كم بين المسلمين وبين الروم يوم خرجت إليّ ؟

فأجاب عبد الله بن قرط : ما بين أدناهم وبين المسلمين ثلاث أو أربع ليال ، وبين جماعتهم وجماعة المسلمين خمس ليال .

(١) الأزدي ١٨١ حدثني مخنف بن عبد الله عن عبد الرحمن بن السليك عن عبد الله بن قرط .

قال عمر : هيهات مني يأتي هؤلاء غياثنا .

من عمر الى أبي عبيدة

« أما بعد . فقد قدم عليّ أخو ثمالة بكتابك تخبرني فيه بنفير الروم إلى المسلمين برا وبحرا ، وبما جاشوا عليكم من أساقفتهم وقسسهم ورهبانهم . وإن ربنا المحمود عندنا والصانع لنا والعظيم ذو المن والنعمة الدائمة علينا قد رأى مكان هؤلاء الأساقفة والرهبان حيث بعث محمدا ﷺ بالحق وأعزه بالنصرة ونصره بالرعب على عدوه وقال وهو لا يخلف الميعاد « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » فلا تهولنك كثرة ما جاء منهم فإن الله منهم بَرِيءٌ ، ومن بَرِيءَ الله منه كان قَمِناً [جديرا] ألا تنفعه كثرة ، وأن يكله الله إلى نفسه ويخذله ، ولا توحشك قلة المسلمين فإن الله معك وليس قليلا من كان الله معه . فأقم بمكانك الذي أنت به حتى تلقى عدوك وتناجزهم وتستظهر بالله عليهم وكفى به ظهيرا ووليا ونصيرا .

« وقد فهمت مقالتك ، احتسب أنفس المسلمين إن هم أقاموا ودينهم إن هم تفرقوا فقد جاءهم ما لا قبل لهم به إلا أن يمدهم الله بملائكته أو يأتيهم بغياث من قبله ، وأيم الله لولا استثناؤك بهذا لكنتَ أسأتَ . ولعمري إن أقام لهم المسلمون وصبروا فأصيبوا لما عند الله خير للأبرار ولقد قال الله عز وجل « فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » فطوبى للشهداء ولمن عقل عن الله ممن معك من المسلمين لأسوة بالمصرعين حول رسول الله ﷺ في مواطنه ، فما عجز الذين قاتلوا في سبيل الله ولا هابوا الموت في جنب الله ولا وهن الذين بقوا من بعده ولا استكانوا لمصيبتهم ، ولكنهم تأسَّوْا بهم وجاهدوا في الله من خالفهم منهم وفارق دينهم .

« ولقد أثنى الله على قوم بصبرهم فقال « وكأين من نبي قاتل معه ربِّيُّون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ، وما

كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين » فأما ثواب الدنيا فالغنيمة والفتح وأما ثواب الآخرة فالمغفرة والجنة .

« واقرأ كتابي هذا على الناس ومرهم فليقاتلوا في سبيل الله وليصبروا كيما يؤتيهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة . فأما قولك إنه قد جاءهم ما لا قبل لهم به فإن لا يكن لكم بهم قِبَل فإن لله بهم قبلا ، ولم يزل ربنا عليهم مقتدرا . ولو كنا والله إنما نقاتل الناس بحولنا وقوتنا وكثرتنا لهيهات ما قد أبادونا وأهلكونا ، ولكن نتوكل على الله ربنا ونبرأ إليه من الحول والقوة ونسأله النصر والرحمة ، وأنكم منصورون إن شاء الله على كل حال ، فأخلصوا لله نياتكم وارفعوا إليه رغبتكم واصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

قال عبد الله بن قرط « دفع إليّ عمر هذا الكتاب وأمرني أن أعجل المسير وقال : إذا قدمت على المسلمين فسِرْ في صفوفهم وقف على أهل كل راية منهم وأخبرهم أنك رسولي إليهم وقل لهم : عمر يقرئكم السلام ويقول لكم يا أهل الإسلام أصدقوا اللقاء وشدوا عليهم شد الليوث واضربوا هامتهم بالسيوف ، وليكونوا أهون عليكم من الذر فإنا قد كنا علمنا أنكم عليهم منصورون . فلا تهولنكم كثرة عدوكم ولا تستوحشوا لمن لم يلحق بكم منكم .

قال فركبت راحلتي وأقبلت مسرعا أتخوف أن أدرك الناس وأن تفوتني الوقعة ، فانتهيت إلى أبي عبيدة يوم دخل سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي في ألف رجل من المسلمين من قبل عمر على أبي عبيدة في عسكره [باليرموك] فشجع ذلك المسلمين وسروا بمددهم ، وقرأ أبو عبيدة كتاب عمر على الناس فسروا برأيه لهم وبما أمرهم به من الصبر وبما بشرهم به من الفتح وبما رجا لهم في ذلك من الأجر » .

في الجابية

اجتمعت جيوش المسلمين في الجابية ومنها اتجهت إلى اليرموك . جاءت

الأخبار باجتماع في الجابية شهده يزيد بن أبي سفيان وأبو سفيان ورد بها أنهم ساروا حتى نزلوا الجابية وانضم إليهم[1] إخوانهم فكانوا جميعا . كما جاءت أخبار باجتماع شهده يزيد وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وأبو عبيدة ، ونرى أن الخبرين كانا عن اجتماع واحد ، فقد دعا أبو عبيدة رؤساء المسلمين[2] فاستشارهم .

قال يزيد : أرى أن تعتزل بالمسلمين فتنزل بهم أيلة[3] فتقيم بها وتبعث إلى أمير المؤمنين فتعلمه بالمدد الذي جاءنا من عدونا وتنتظر قدوم المدد علينا . قال عمرو بن العاص : ما أيلة عندي إلا كقرية من قرى الشام ، ولكن أرى أن تنزل قُرْحاً[4] فتكون في أرضنا قريبا من مددنا ، فإذا جاء المدد نهضنا إلى القوم .

هذا وخالد بن الوليد ساكت يسمع ما يقولون ، وكان إذا كانت شديدة أو نائبة فإليه وإلى رأيه يفزعون ، وكان لا يهوله شيء من أمر الروم وكأنه كان لا يزداد بما يبلغه عن الروم إلا جرأة عليهم وحرصا على الإقدام عليهم . فقال له أبو عبيدة : يا خالد ماذا ترى أنت ؟

قال خالد : أرى والله إن كنا إنما نقاتل بالكثرة والقوة ، هم أكثر منا وأقوى علينا وما لنا بهم إذن طاقة . وإن كنا إنما نقاتلهم بالله ولله ، فما أن جماعتهم ولو كانوا أهل الأرض جميعا أنها تغني عنهم شيئا .

---

(1) ابن عساكر ١/٥٣٢ أخبرنا أبو الحسين الخطيب ، أنا جدي أبو عبد الله ، أنا ابو الحسين الربعي ، أنا أبو الفرج العباس بن محمد بن حبان ، أنا ابو العباس بن الزفتي ، أنا محمد بن محمد بن مصعب ، نا محمد بن المبارك ، نا الوليد ، أخبرني صفوان ، عن عبد الرحمن بن جبير .

(2) الأزدي ١٦٩ أخبرني أبو جعفر .

(3) أيلة مدينة على ساحل بحر القلزم [الأحمر] وهي آخر الحجاز وأول الشام . كانت مدينة صغيرة بها زرع يسير وهي التي حرم الله على يهودها صيد السمك يوم السبت فخالفوا فمسخهم قردة وخنازير . ومنها قدم يوحنة بن رؤبة على النبي ﷺ وهو بتبوك فصالحه على الجزية . [معجم البلدان] .

(4) قُرْح سوق وادي القرى من أسواق العرب بالجاهلية وبها كان هلاك عاد قوم هود . [معجم البلدان ٣٢١/٤] .

ثم غضب وقال لأبي عبيدة : أتطيعني أنت فيما آمرك به ؟
وكله ثقة في خالد قال له أبو عبيدة : نعم
قال خالد : فولني ما وراء بابك وخلِّني والقوم فإني لأرجو أن ينصرني الله عليهم .
قال : قد فعلت .

وهكذا ولاه أبو عبيدة سلطاته في القيادة العامة على جيوش المسلمين بالشام . يقول الرواة . وكان خالد رضي الله عنه من أعظم الناس بلاء وأحسنهم غناء وأعظمهم بركة وأيمنهم نقيبة وكانوا أهون عليه من الذباب .

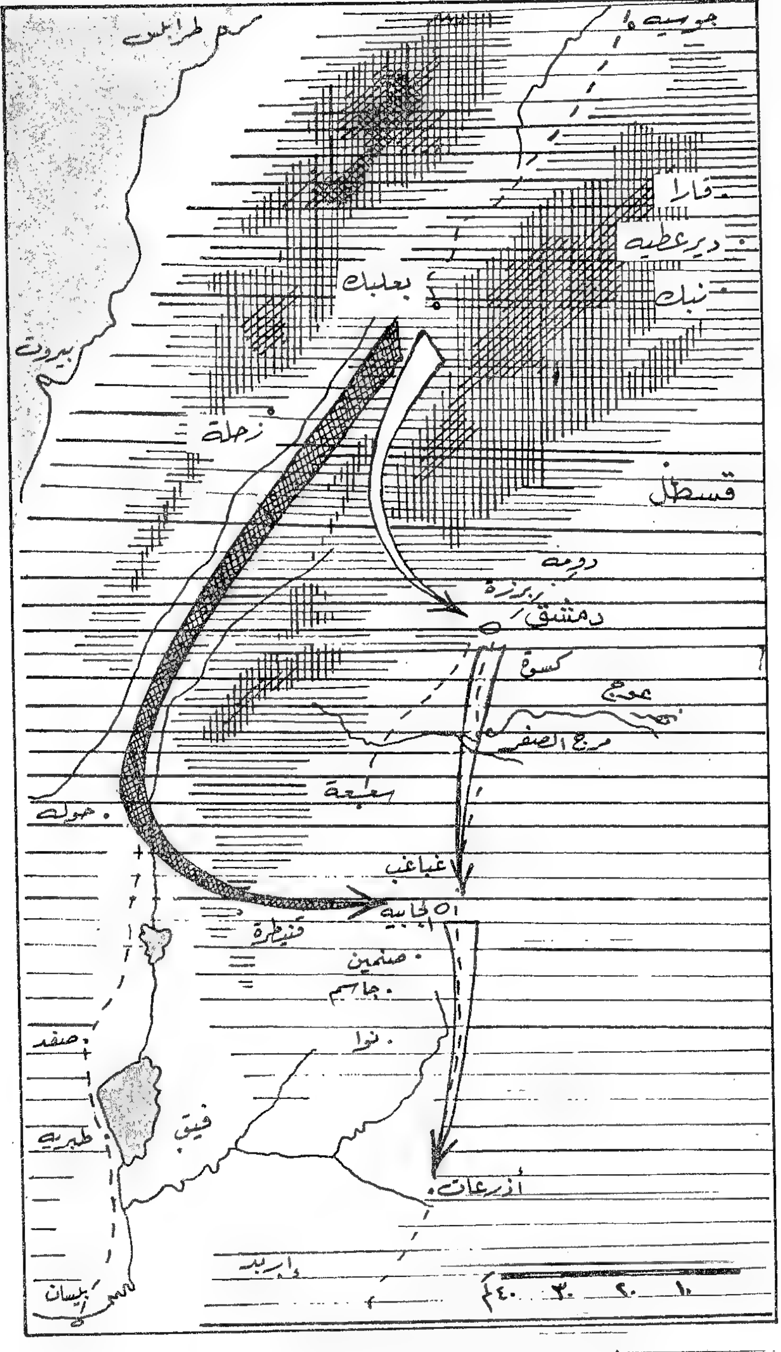
وفي رواية أخرى[1] أن قائلا قال لأبي عبيدة ـ لم يسمّه ولعله كان عمرو بن العاص ـ أما إنك لو خرجت حتى تنزل قرحا والحِجْر[2] وانتظرنا مددنا هناك لكان منزلا . قرح والحجر إلى الوراء كثيرا قريب من المدينة ، وبطبيعة الحال كان هذا الرأي يهدف إلى الابتعاد عن متناول جيش الروم الكبير حتى يتزود المسلمون بأمداد جديدة . فقال قيس بن هبيرة : لا ردنا الله إذن إليها إن خرجنا لهم عن الشام اكثر مما خرجنا لهم عنه . أتدعون هذه العيون المتفجرة والأنهار المطردة والزروع والأعناب والخُمُر والذهب والفضة والحرير وترجعون إلى أكل الضباب ولباس العناء والبؤس والشقاء ، وتزعمون أن قتيلنا يدخل الجنة ويصيب نعيما لا يشاكله نعيم ! فأين تدعون الجنة وتهربون منها وتزهدون فيها ، وتأتون قرحا والحجر ؟! لا صحب الله من سار إليها ولا حفظه .

قال أبو عبيدة : الحق ما قلت يا قيس ، أتريدون أن ترجعوا إلى بلادكم وتدعوا هؤلاء القوم حصونا وديارا وأموالا قد فتحها الله عليكم ونزعها من أيديهم ثم تدعونها وتخرجون منها وترجعون إليها ثانية تقاتلونهم عليها وقد كفاكم الله مؤونة

---

(1) الأزدي ١٧١ حدثني يحيى بن هانيء بن عروة [المرادى ـ ثقة يحتج به] .

(2) الحِجْر ديار ثمود بوادي القرى على يوم منه بين الجبال ، بين المدينة والشام .



الخريطة رقم (٢٦) - محاولة تطويق المسلمين - المقياس ١/مليون .

نزعها من أيديهم ، هذا والله رأيٌ مضلل .

قال خالد : جزاك الله خيرا يا قيس ، فإن رأيك موافق لرأيي ولسنا والله برتحلين ولا زائلين من هذه البلاد حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين .

وقام ميسرة بن مسروق العبسي فقال لأبي عبيدة : أصلحك الله ، لا تبرح مكانك الذي أنت فيه وتوكل على الله وقاتل عدوك ، فوالله إني لأرجو أن ينصرك الله عليهم ، وإن أنت خرجت منها إني لخائف ألا ترجع إليها أبدا . علام تدع لهم البلاد وقد قاتلناهم عليها حتى نفيناهم عنها وقتلنا بطارقتهم وفرسانهم فيها يوم أجنادين ويوم فحل !

قال أبو عبيدة : لست بارحا وقد وليت خالد بن الوليد ما خلف بابي وأنا معكم لا أبرح الأرض حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين .

كان أمراء الجيش مجتمعين في خباء يزيد بن أبي سفيان بالجابية يسمعون الخبر من عين لهم من قضاعة يخبرهم بكثرة الروم ونزولهم على نهر الرقاد [من روافد نهر اليرموك] ومرج الجولان . وطاف بهم أبو سفيان فقال : ما كنت أظن أني أبقى حتى أرى غِلْمَةً من قريش يذكرون أمر حربهم ويكيدون عدوهم بحضرتي لا يحضرونيه .

فقالوا : هل لكم إلى رأي شيخكم ؟

قالوا : ادخل أبا سفيان .

فدخل . قال : ما عندكم ؟

فاخبروه بخبر العين القضاعي

قال أبو سفيان : إن معسكركم هذا ليس بمعسكر إني أخاف أن يأتيكم أهل فلسطين والأردن فيحولوا بينكم وبين مددكم من المدينة فتكونوا بين عسكرهم ، فارتحلوا حتى تجعلوا أذرعات[1] خلف ظهوركم يأتكم المدد والخير .

هذا الرأي من أبي سفيان لم يكن وسطا بين الذين قالوا بالانسحاب حتى

(١) اسمها القديم Edrey وهي مدينة البثنية وهي اليوم ، درعا [ابن عساكر ١/٥٣٢ - الهامش]

الحجاز وبين الذين قالوا بلقاء الروم في حمص من باديء الأمر أو بلقائهم في دمشق أو بالوقوف لهم حيث هم ، بل هو يؤيد الرأي القائل بالصمود لهم ومصادمتهم على أرض الشام ... فقط أراد أن يختار لهم بقعة الوقوف . لقد سار المسلمون من حمص إلى دمشق إلى الجابية حيث انضم إليهم عمرو بن لعاص ، والروم يسيرون بحذائهم على الطريق الداخلي خلال وادي البقاع ثم وادي الاردن وما زالوا يجدون السير كأنما يسابقونهم ليسبقوهم فيحصروهم ، فإلى متى وحتى أين ؟ هل إلى أيلة ؟ هل إلى وادي القرى ؟ لا . لقد انتهى الرأي إلى الوقوف على أرض الشام وملاقاة الروم به . فأين على أرض الشام ؟

لقد كان من براعة الفكر الحربي عند المسلمين أنهم كانوا يختارون أرض المعركة حين يتاح لهم ذلك خاصة إذا كانت المعركة هامة حاسمة . ولقد رأينا عند دراستنا معركة القادسية كيف اختار المسلمون ساحة القتال وأصروا إصرارا أن تدور المعركة عليها لا تدور على سواها ، وكيف انتظروا الفرس بها طويلاً وهم لا يريدون الإقدام حتى أكرهوهم إكراها على القدوم إليهم . والآن يريد المسلمون بالشام أن يختاروا ساحة المعركة والجيشان في حالة حركة . كان هذا هو محور الحديث ، وقبل المجتمعون رأي أبي سفيان .

قال أبوسفيان[1] : إذ قبلتم هذا من رأيي فأمّروا خالد بن الوليد على الخيول ومروه بالوقوف بها مما يلي [نهر] الرقاد ، وأمّروا رجلا على المرامية [الرماة] وأخرجوا إليه كل نابض بوتر ومروه بالوقوف فيما بين العسكرين وبين الخيول فإنه ستكون لرحيل العسكر من السحر أصوات عالية تحُدث لعدوكم فيكم طمعا ، فإن أقبلوا يريدون ذلك لقيتهم الخيول فكفّتها ـ وهذا من قول أبي سفيان في هذه الرواية يعني أن جيش الروم قد اقترب من جيش المسلمين حتى أوشك أن يدركه وأن المسافة

(١) ابن عساكر ٥٣٢/١ أخبرنا أبو الحسين الخطيب ، أنا جدي أبو عبد الله ، أنا أبو الحسين الربعي ، أنا أبو الفرج العباس بن محمد بن حبان ، انا ابو العباس بن الزفتي ، انا محمد بن محمد بن مصعب ، نا محمد بن المبارك ، نا الوليد ، أخبرني صفوان ، عن عبد الرحمن بن جبير .

بينهما صارت تتيح سماع أصوات الرحيل . وهذا أيضا بالإضافة إلى رواية سابقة بوصول الروم إلى حولة دمشق يرسم لنا خطا واضحا ومفصلا لمسار جيوش هرقل وهي تتعقب جيش المسلمين حينا وتحاول تطويقه حينا آخر ، أوضحناها على الخريطة ـ ويمضي أبو سفيان في شرح خطته فيقول : وإن كانت للخيول جولة وَزَعَت عنها [كفّت عنها] المرامية [الرماة] .

فقبلوا ذلك من رأيه ونادوا من السحر بالرحيل ، ونادت الروم أن العرب قد هربت فأقبلت في آثارهم ، واستقبلت فرسان المسلمين جيوش الروم حتى سار المشاة ومن ورائها الرماة ثم كانت الفرسان مؤخرة لهم تحمي مسيرهم من الروم الذين يجدون في آثارهم ولم ترد أي أخبار عن أي اشتباك في هذه المسيرة ، حتى نزل المسلمون خلف اليرموك وقد جعلوا أذرعات خلف ظهورهم ونزل الروم فيما بين دير أيوب[1] إلى نهر اليرموك والنهر بين الفريقين فعسكروا على ذلك أياما . وتقديرنا أن نزول الجيشين في هذه المواقع كان حوالي الثلاثاء ٢١ جمادي الآخرة ١٥ هـ ٣٠ يولية ٦٣٦ م .

في معسكر الروم

قال عبد الله[2] بن قرط : لما نزلت الروم منزلهم الذي نزلوا به دسسنا إليهم رجالا من أهل البلد كانوا نصارى فأسلموا وحسن إسلامهم ، وأمرناهم أن يدخلوا عسكرهم ويكتموا إسلامهم ويأتوا بأخبارهم ، فكانوا يعملون ذلك .

فمكثوا أياما مقابلنا ، ثلاثة أو أربعة ، لا يسألوننا عن شيء ولا نسألهم عن شيء ولا يتعرضون لنا ولا نتعرض لهم ، فبينا نحن كذلك إذ سمعنا صوتا عاليا وجلبة

(١) يقول بدكر : على كيلومتر من جنوب الشيخ سعد يوجد المركز وهو مجموع أبنية للحكومة ودار متصرف حوران ، وفي الزاوية الشمالية الغربية تقوم أطلال دير أيوب القديم ، وفي غرب المركز بناء يسمى مقام أيوب ، فيه قبر أيوب وزوجه [ابن عساكر ٥٣٣/١ ـ الهامش للدكتور صلاح الدين المنجد] . وفي رواية الأزدي ص ١٨٨ قال رواته « دير الجبل »] .

(٢) الازدي ١٧٤ حدثني مخنف بن عبد الله عن عبد الرحمن بن السليك عن عبد الله بن قرط .

الخريطة رقم (٢٧) - من الجابية الى اليرموك -

شديدة وأصواتا رفيعة فظننا أن القوم يريدون النهوض إلينا فتهيأنا وتيسرنا ، ثم إنا دسسنا عيونا لنا إليهم ليأتونا بالخبر . فما لبثنا إلا قليلا حتى رجعوا إلينا فأخبرونا أن بريدا جاءهم من قبل ملك الروم [هرقل] فبشرهم بمال يقسم بينهم وبمدد يأتيهم ففرحوا بذلك ورفعوا له أصواتهم .

وقام فيهم باهان فاجتمعوا حوله ، فقال لهم :

« إن الله لم يزل لدينكم ناصرا ومُعِزًّا ومُظْهِرا على كل من ناوأكم . وقد جاءكم قوم يريدون أن يفسدوا عليكم دينكم ويغلبوا على بلادكم ودياركم وأموالكم ، وأنتم عدد الحصى والثرى والذر . والله إن في هذا الوادي منكم لنحوا من أربعمائة ألف مقاتل مع أتباعكم وأعوانكم ومن اجتمع إليكم من سكان بلادكم وممن هو معكم على دينكم . فلا يهولنكم أمرها ولا القوم فإن عددهم قليل ، وهم أهل الشقاء والبؤس وجلهم حاسر جائع وأنتم من الملوك وأبناء الملوك وأهل الحصون والقلاع والعدة والقوة والسلاح والكراع . فلا تبرحوا الميدان وفيكم عين تَطْرِف حتى تهلكوهم أو تهلكوا أنتم » .

فقام إليه بطارقته فقالوا : مرنا بأمرك ثم انظر ما نصنع .

قال : تيسروا حتى آمركم .

على اليرموك

وبعث باهان إلى خالد[(١)] يقول : إن رأيت أن تخرج إليّ في فوارس وأخرج إليك في مثلهم أذاكرك أمرا لنا ولكم فيه صلاح .

ووافق خالد ، فوقفا معا وتحادثا طويلا ، فكان مما قال باهان : قد علمنا أن الذي أخرجكم من بلادكم غلاء السعر وضيق الأمر بكم ، وإني قد رأيت أن أعطي كل رجل منكم عشرة دنانير وراحلة تحمل حملها من الطعام والكسوة والأدم ،

(١) ابن عساكر ١/٥٣٣ بالاسناد السابق .

فترجعون إلى بلادكم وتُعيشون بها أهاليكم سنتكم هذه . فإذا كان قابل [العام التالي] بعثتم إلينا فبعثنا إليكم بمثله ، فإنا قد جئناكم من الجيوش والعدد بما لا قبل لكم به .

ورفض خالد ذلك العرض من باهان .

وقال ابو بشير[1] التنوخي · كنت نصرانيا فنصرت النصرانية على العرب وأقبلت مع الروم فجعلنا لا نمر بأحد من أهل البلد إلا وجدناهم أحسن شيء ثناء على العرب في كل شيء من أمرهم وفي سيرتهم .

عدوان واغتصاب

وأقبلت الروم فجعلوا يفسدون في الأرض ويسيئون السيرة ويعصون أميرهم حتى ضج منهم الناس وشكاهم أهل القرى ، وجعلوا لا يفيقون من شرب الخمور والزنا ، ولا تزال جماعة من أهل الذمة يجيئون إلى مَلِكِهم ومعهم الجارية قد افتُضَّت ، وجماعة يشكون أن أغنامهم قد ذبحت وجماعة يشكون أنهم خُربوا وسُلِبوا . فلما رأى باهان ذلك وما يصنعون قام فيهم خطيبا فقال :

« يا معشر أهل هذا الدين ، إن حجة الله عليكم عظيمة . إنه قد بعث إليكم رسولا وأنزل عليكم كتابا ، وكان رسولكم لا يريد الدنيا وزهدكم فيها وأمركم ألا ترغبوا فيها ولا تظلموا أحدا فإن الله لا يحب الظالمين . وأنتم الآن تظلمون فما عذركم غدا عند الله وقد تركتم أمره وأمر نبيكم وما أتاكم به من كتاب ربكم ؟ وهذا عدوكم قد نزل بكم يقتلون مقاتلتكم ويَسْبُون ذراريكم وأنتم تعملون بالمعاصي فلا تنزعون منها خشية العقاب ، فإن نزع الله سلطانكم من أيديكم وأظهر عليكم عدوكم فمن الظالم إلا أنتم ؟ فاتقوا الله وانصرفوا عن ظلم الناس » .

فقام إليه رجل من أهل البلد فشكا إليه مظلمة . يقول ابو بشير التنوخي :

(١) الازدي ١٧٥ حدثني أبو الجهم الازدي عن رجل من تنوخ كان مع باهان يكنى أبا بشير .
الأزدي ٢١٦ حدثني أبو جهضم عن رجل من الروم ، وروى رواية تطابق هذه في اكثر اجزائها .

فتكلم بلسانهم وأنا أفقه كلامهم . فقال : أيها الملك ، عشتَ الدهر ووقيناك بأنفسنا مكروه الأحداث . إني امروٌ من أهل البلد من أهل الذمة[1] ، وكانت لي غنم أظنها مائة شاة أو تنقص قليلا ، وكان فيها ابن لي يرعاها ، فمر بها عظيم من عظماء أصحابك فضرب خباءه إلى جنبها ثم أخذ حاجته منها ثم أنهب بقيتها أصحابه ، فجاءته إمرأتي وابنتي فشكت إليه انتهاب أصحابه غنمي ، وقالت أما ما أخذت لنفسك فهو لك ، وأما ما أخذ أصحابك فابعث إليهم فليردوا علينا غنمنا . فلما رآها أمر بها فأدخلت خباءه فطال مكثها عنده ، فلما رأى ذلك ابنها دنا من باب الخباء فطالع فإذا هو بصاحبه ينكح أمه أو أخته وهي تبكي فصاح الغلام ، فأمر به فقتل . فأخبروني ذلك فأقبلت إلى ابني فأمر بعض أصحابه فشدوا عليّ بالسيف ليضربوني فاتقيتهم بيدي فقطعوها .

قال له باهان : أفتعرفه ؟

قال : نعم

قال : وأين هو ؟

قال : هو هذا العظيم من عظمائكم .

قال باهان للعظيم الرومي : أحق ما يزعم هذا ؟

قال : نعم .

قال : وما حملك على ما صنعت ؟

قال : إنما هي أَمَتِي وإنما زوجها عبدي ، أتمنعني أن أقضي لذتي من أمتي وتريد أن تقتلني بعبدي ؟

وغضب ذلك العظيم الذي فعل بالرجل ما فعل ، وغضب له ناس من أصحابه وكان فيهم ذا شأن وشرف ، فأقبل ناس من أصحابه أكثر من مائتي رجل فشدوا على المستعدي [هجموا على الشاكي] فضربوه بأسيافهم حتى مات .

(١) نذهب إلى أن الرجل كان يعني انه من أهل ذمة الروم وليست ذمة المسلمين .

قال باهان : الحق أن أقتلك به وأن أمنع نساءهم من أشباهك . فقام رجال كثيرون من سفهاء الروم وشرارهم فقالوا : أتقتل رجلا من عظمائنا وأشرافنا بعبد من عبيده ؟

فمنعوه من ذلك ثم رجعوا وباهان ينظر ما صنعوا .

قال باهان : أما أنتم فقد أتيتم أمرا عظيما وعصيتم ربكم وأغضبتموه عليكم ، وإذا غضب على قوم فهو ينتقم منهم . العجب كل العجب كيف لا تهد الجبال وتتفجر البحار وتزول الأرض وترعد السماء لهذه الخطيئة التي عملتموها وأنا أنظر لأعمالكم العظام التي تعملونها وأنا أرى وأسمع . إن كنتم تؤمنون بأن لهؤلاء المستضعفين المظلومين إلها ينتصر لهم وينصف المظلوم من الظالم فأيقنوا بالقصاص ومن الآن يُعَجَّل لكم بالهلاك ، وإن كنتم لا تؤمنون بذلك فأنتم والله عندي شر من الكلاب وشر من الحمير ، ولعمري إنكم لتعملون أعمال قوم لا يؤمنون ، ولقد سخط الله أعمالكم وليكلنكم إلى انفسكم، وأما أنا فإنني أشهد أني بريء من أعمالكم ، وسوف ترون عاقبة الظلم وإلى أي مصير تصيرون .

ثم نزل وكف عنهم !

قال أخو القتيل المظلوم لباهان : أنا إذا لم تنصفني منهم فإني استعدي عليهم ملك السماء .

نفس الشيء كان يفعله جنود جيش فارس بأهل العراق وفي زمن معاصر [رجب ١٥ هـ] ، كانوا يغتصبون النساء ويعتدون على الحرمات والأموال حتى لنستطيع محقين القول أن جيوش المسلمين في الشرق وفي الغرب إنما كانت تقاتل لتحرير العباد من استعباد الأسياد ، فإن الإنسان إذا لم يردعه وازع من دين واطمأن إلى ضعف الآخرين أمام قوته وسلطته صار جبارا في الأرض ، إن الإنسان لظلوم كفار . فهذا العظيم عند الروم وحاشيته وغيرهم وأمثالهم من الفرس المجوس حين كانوا يجدون أنفسهم في قوة من جمعهم وسلاحهم ولا قوة لدى العزّل من النساء والرجال ظنوا أنهم يستطيعون أن يفعلوا ما شاءوا ففعلوا ، ثم كانوا يزعمون أنهم حماة

المسيحية الذائدون عنها ! أين كانوا من تعاليم المسيح عليه السلام وأين تعاليمه منهم ؟ وصدق رسول الله ﷺ حين قال « ليس الإيمان بالتمني ، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل » .

أين هذا مما كتبه عمر لسعد بن أبي وقاص وهو أمير على العراق حين استشاره في بعض أمره فأجابه عمر في حسم لا شبهة فيه يقول[1] « لا رخصة في العدل » . مأمورون بالعدل وإقامة العدل بين الناس فلا رخصة أبدا تبيح الظلم . ربما تراءى لبعض المستشرقين أن منهج المسلمين كان متعسفا ... أن تزحف جيوشهم إلى جيرانهم فيخيرونهم بين الدخول في دينهم أو أداء الجزية ، فإن لم يفعلوا فهي الحرب والقتل والسبي وسفك الدماء . ربما كان كذلك لو قيست على أوضاع عالمنا المعاصر .. لو طالبت دولة من الدول جاراتها أن تدين بمذهبها أو تؤدي لها ضرائبها وتذعن بالولاء أو تشن عليها حربا ! ولكن حركة الفتح لم تكن على تلك الصورة . لقد كان دينا منزلا من الله يفرض على المؤمنين تبليغه للناس ويأبى المتألهون ذلك ، وهو ليس دينا لاهوتيا كهنوتيا يحبس الناس في الصوامع ويدع الجبابرة والأكاسرة والقياصرة وشأنهم مع العباد ، وإنما هو دين ودولة ، كما يفرض العبادات والمناسك يفرض الزكاة حقا للفقير على الغني ويفرض العدل حقا للمحكوم على الحاكم ويفرض الحاجة لكل ذي حاجة على من بيده حاجته ، وحسبنا ونحن نعرض لمسيرة الفتح أن تعرض لنا هذه النماذج حتى لا يدعى أحد أنها كانت حربا بين الاسلام والمسيحية أو عدوانا من المسلمين على النصارى !!

ويلفت النظر هنا مسلك القادة الروم . فكما مر بنا حين استلم هرقل رسالة النبي ﷺ وكان يعلم وجه الحق ، خذل ما كان يعلم أنه حقا ونصر ما كان يعلم في نفسه أنه الباطل . كذلك باهان ، ظهر له من الحق ما لا يحتمل تأويلا ولكنه لعزوة ذلك المعتدي وقف مكتوفا يخطب ويتأسف وهو قائد الجيش ، إنها صورة لما كان عليه

(١) القادسية ٨٤ .

أمر الدولة وأمر النظام فيها . وإذا كان هذا هو حال جيوش الروم ومعاملتها لمن كان على دينها من أهل الشام ، فما نحسبنا بحاجة إلى أن نذكر القارىء ولو بأدنى إشارة إلى ما كانت عليه جيوش المسلمين وما كان عليه جنودها من الصحابة والتابعين !!

التموين للجيشين

ويستطرد أبو بشير التنوخي في حكايته فيقول :

وقد نزلنا بالمسلمين وهم لنا هائبون ، وقد كان بلغنا أن نبيهم قال لهم إنكم ستظهرون على الروم ، وقد كانوا واقعونا غير مرة كل ذلك يكون لهم الظفر علينا ، إلا أنا إذا نظرنا إلى عددنا وجموعنا طابت أنفسنا أن مثل جمعنا ذلك لا يُفَل .

وأقام باهان أياما يراسل من حوله من الروم ويأمرهم أن يحملوا إلى أصحابه الأسواق ، وكانوا يفعلون ، ولم يكن ذلك يضر المسلمين لأن الأردن في أيديهم فهم مخصبون بخير . فلما رأى باهان صاحب الروم أن ذلك لا يضرهم ولا ينقصهم وأنهم يكتفون بالأردن بعث خيلا عظيمة ليأتيهم من ورائهم عليها بطريق عظيم من عظمائهم وبطارقتهم وأراد أن يكفيهم بجنوده من كل جانب .

وعلم المسلمون ما يريدون فدعا أبو عبيدة خالد بن الوليد فبعثه في ألفي فارس . فخرج خالد حتى اعترض العلج [غير العربي والمقصود هنا قائد خيل الروم] فلما استقبله نزل خالد في الرَّجَّالة [المشاة] وبعث قيس بن هبيرة في الخيل ، فحمل عليهم قيس فاقتتلوا قتالا شديدا ، وحمل قيس في خيل المسلمين على خيلهم فهزمها حتى اضطرها إلى الرَّجَّالة الذين مع خالد ، ومشى خالد في الرجالة حتى إذا دنا من البطريق شد عليه رايته وشد معه المسلمون ، فضربوهم بالسيوف حتى تبددوا وانهزموا وقتل منهم مقتلة عظيمة .

وقال قيس لرجل من بني نمير مرّ به البطريق يركض منهزما : يا أخا بني نمير لا يفوتنك البطريق فإني والله قد كددت فرسي على هذا العدو من هذا اليوم حتى ما

عند فرسي من جري . فحمل عليه النميري فركض في أثره ساعة ثم إنه أدركه . فلما رأى البطريق أنه قد غشيه وأحرجه عطف عليه البطريق ، فاضطربا بسيفيهما فلم يصنع السيفان شيئا ، واعتنق كل واحد منهما صاحبه ووقعا على الأرض فاعتركا ساعة ، ثم صرعه النميري ووقع النميري على صدر البطريق فضمه البطريق إليه وكان مثل الأسد فجعل النميري لا يستطيع أن يتحرك . وبصر بهما قيس فجاء حتى وقف عليهما فقال يا أخا بني نمير قتلتَ الرجلَ إن شاء الله ؟

قال : لا والله ما أستطيع أن أتحرك ولا أضربه بشيء ، ولقد ضَمَّني بفخذه وأمسك يدي بيديه .

فنزل إليه قيس فضربه فقطع إحدى يديه ثم تركه وانطلق وقال للنميري :

شأنك به . وقام النميري فضربه بسيفه حتى قتله . ومر به خالد بن الوليد فقال له : ما هذا يا قيس ، ومن قتله ؟ فقال له قيس : قتله هذا النميري . ولم يخبره بما صنع هو . » أ . هـ .

هذا نموذج من روايات كثيرة تملأ صفحات هذا التاريخ .. لا تعني بتبيان ما يحتاج إليه الجانب الحربي . أين كان هذا اللقاء ، وعلى أي نوع من الأرض ، وكيف اضطر قيس الروم إلى الاتجاه إلى مشاة المسلمين ، وما عدد فرسان الروم ، وفرسان المسلمين وعدد مشاتهم ، وفي أي تاريخ كان ذلك ، هذا فضلا عن الأسلوب القديم الذي ابتعد عنه قارىء اليوم ، وخروجه عن أصل الموضوع إلى حكاية النميري ... الخ .

خالد يؤمر نفسه

قال الحارث بن عبد[1] الله الأزدي :

لما نزل أبو عبيدة بن الجراح اليرموك وضم إليه قواصيه ، وجاءتنا جموع الروم وهم يجرون الشوك والشجر [ليصنعوا منها دفاعات] ومعهم صُلُبُهم ومعهم القسيسون والرهبان والأساقفة والبطارقة ، ورهبانهم يقصون عليهم وبطارقتهم يحرضونهم ، فجاءوا حتى نزلوا دير الجبل [دير أيوب] فلما أقبلوا إلى المسلمين بتلك الجموع خافهم المسلمون فما كان شيء أحب إليهم من أن يخرجوا لهم ويتنحوا عن بلادهم حتى يأتيهم مدد يرون أنهم يقوون به على من جاءهم من الروم . فدعا أبو عبيدة الناسَ فاستشارهم ، فكل من استشار من الناس أشار عليه بالخروج من الشام إلا خالد بن الوليد فإنه أشار عليه بالمقام وقال لأبي عبيدة « خلّني والناس ودعني والأمر وولني ما وراء بابك فأنا أكفك بإذن الله أمر هذا العدو » . فقال له أبو عبيدة : شأنك بالناس فخلاه وإياهم . وكان قيس بن هبيرة المرادي على مثل رأي خالد بن الوليد في المقام بأرض الشام ولم يكن في المسلمين أحد يعدلهما في الحرب وشدة البأس .

فخرج خالد بالناس وهم بأحسن شيء رعة ودعة وهيئة وأشدهم في لقاء عدوهم بصيرة وأطيبهم أنفسا بقتالهم . فصفهم خالد ثلاثة صفوف وجعل ميمنة وميسرة .

وتوضح هذه الرواية أدب خالد مع أبي عبيدة بعد أن استلم خالد قيادة المعركة . يقول الحارث : ثم إن خالدا أتى أبا عبيدة فقال : من كنت تجعل على ميمنتك ؟

قال : معاذ بن جبل .

(١) الازدي ١٨٨ حدثني أبو جهضم عن سفيان بن سليم الازدي عن الحارث بن عبد الله الازدي ثم النمري .

قال خالد : أهل ذلك هو الرضا والثقة ، فولِّها إياه .

فأمر أبو عبيدة معاذا فوقف في الميمنة .

ثم قال خالد : من كنت تولي الميسرة ؟

قال أبو عبيدة : غير واحد .

قال خالد : فولِّها قَبَّاث بن أشْيَم إن رأيت ؟

فأمره أبو عبيدة فوقف في الميسرة ، وكان فيها كنانة وقيس وكان قباث كنانيا وكان شجاعاً .

قال خالد : وأنا على الخيل ولِّ على الرجَّالة من شئت .

قال أبو عبيدة : أوليها إن شاء الله من لا يخاف نكوله ولا صدوره عند البأس ، أوليها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص .

قال : وُفِّقت ورشدت .

فقال أبو عبيدة : إنزل يا هاشم فأنت على الرجالة وأنا معك .

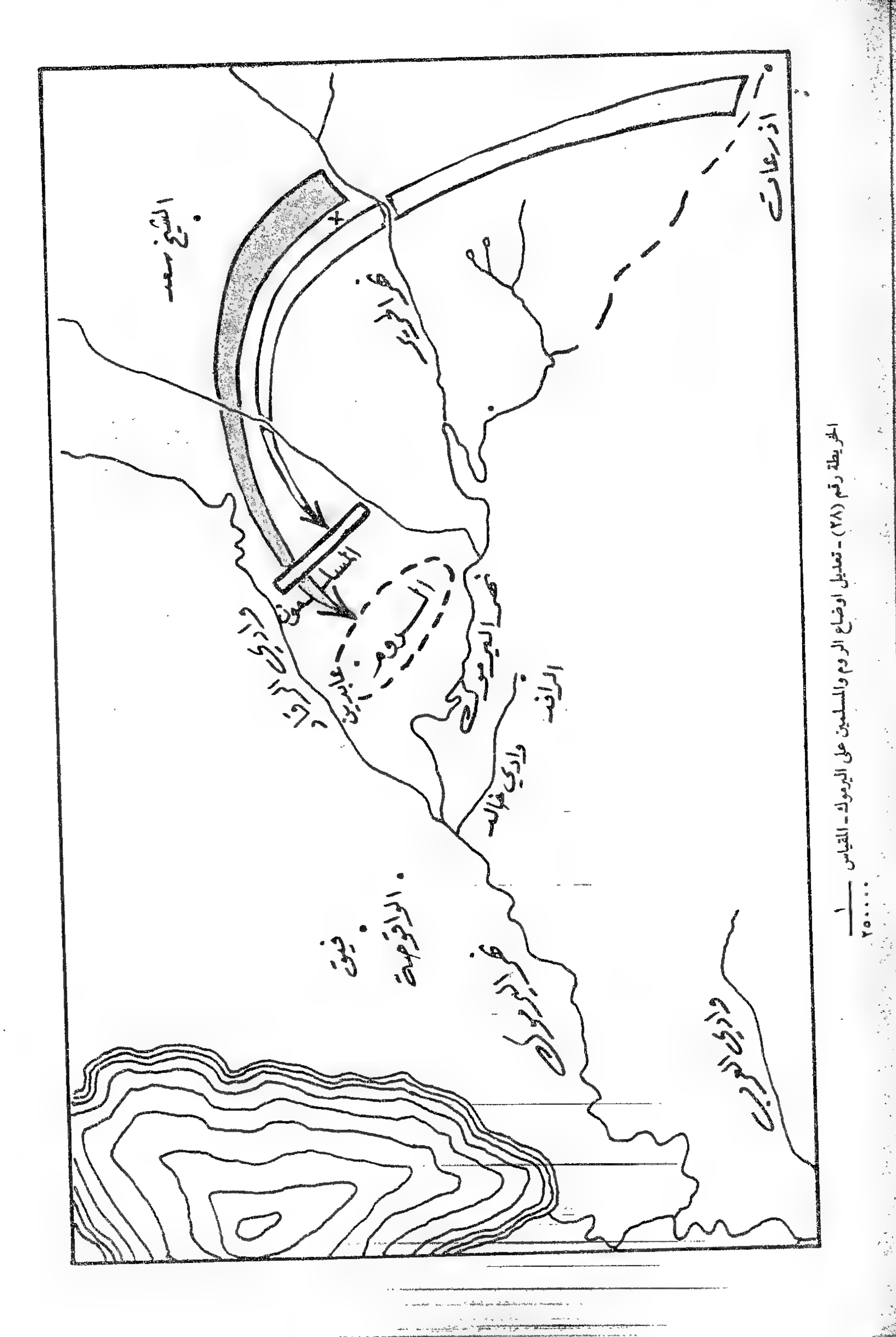
قال خالد لأبي عبيدة : ابعث إلى أهل كل راية فمرهم أن يطيعوني .

فدعا أبو عبيدة الضحاك بن قيس فأمره بذلك ، فخرج الضحاك يسير في الناس ويقول لهم : إن أميركم أبا عبيدة يأمركم بطاعة خالد بن الوليد فيما أمركم به .

قال الناس : سمعنا وأطعنا .

ومر الضحاك بمعاذ بن جبل فأمره بطاعة خالد بن الوليد ، فقال معاذ : سمعنا وأطعنا . ثم نظر إلى الناس فقال : أما والله إن أطعتموه لتطيعُنّ مبارك الآمر ميمون النقيبة عظيم الغناء حسن الحسبة والنية .

قال الضحاك: فحدثت خالداً بمقالة معاذ بن جبل فقال لي: رحم الله أخي معاذا أما والله إن أحبني إني لأحبه في الله ، لقد سبقت له ولأصحابه سوابق لا ندركها ولا نبلغها ولا ننالها فهنيئا لهم بما خصهم الله به من ذلك . قال الضحاك : فلقيت معاذا فأخبرته بما قلت لخالد وما ردّ به عليّ خالد . فقال معاذ : أما إني لأرجو



الخريطة رقم (٢٨) - تعديل اوضاع الروم والمسلمين على اليرموك - المقياس ١/٢٥٠٠٠٠

أن يكون الله قد أعطاه بصيرة على جهاد المشركين وشدته عليهم وجهاده إياهم مع بصيرته وحسن نيته وإعزاز دينه أحسن الثواب وأن يكون من أفضلنا بذلك عملا .

فلقيت خالد بذلك فقال : ما شيء على الله بعزيز .

وكان هرقل قد كتب إلى[1] بطارقته [قادة جيشه] « اجتمعوا لهم ، وانزلوا بالروم منزلا واسع العَطَن[2] ، واسع المطَّرَد ، ضيق المهرب » . ففعلوا فنزلوا الواقوصة وهي على ضفة اليرموك وصار الوادي خندقا لهم وهو لِهْب[3] عميق لا يُدْرَك ، وإنما أراد باهان أن تستفيق الروم ويأنسوا بالمسلمين وتزول عنهم رهبتهم منهم وأن ترجع إليهم أفئدتهم عن طيرتها وتشاؤمها .

وانتقل المسلمون مرة أخرى عن عسكرهم الذي اجتمعوا به تجاه أذرعات فنزلوا على الروم بحذائهم على طريقهم[1] وليس للروم طريق إلا عليهم ، ونظر عمرو بن العاص إلى الوضع الجديد وقدّره حق قدره ثم قال لأصحابه « أيها الناس أبشروا ، حُصِرَت والله الروم وقلما جاء محصور بخير ! » فأقاموا عليهم ، اللِّهْب وهو الواقوصة [نهر الرقاد] من وراء الروم والخندق من أمامهم [انظر خريطة رقم ٢٨] ونقدر نزول الجيشين هذا الموقع الجديد حوالي يوم السبت ٢٥ جمادي الآخرة ١٥ هـ ٣ أغسطس ٦٣٦ م .

توحيد جيوش المسلمين

كان المسلمون حتى حينذاك يقاتلون متساندين ، يعني كل جيش كان وحدة قائمة بذاتها تتساند وتتعاون مع الجيوش الأخرى ، فقال خالد لإخوانه[4] « هل

---

(١) الطبري ٣٩٣/٣ س ش س عن مبشرّ وسهل وأبي عثمان ، عن خالد وعبادة وأبي حارثة . ابن عساكر ٥٤٨/١ أخبرنا أبو القاسم ، أنا أبو الحسين ، انا ابو طاهر ، أنا ابو بكر بن سيف ، نا س ش س عن سائر اسناد الطبري .

(٢) العطن مبرك الإبل ومربض الغنم حول الماء ، والمقصود هنا مكان واسع لنزول الجيش

(٣) اللِّهْب الفرجة بين الجبلين .

(٤) الطبري ٣٩٤/٣ س ش س عن أبي عثمان يزيد بن أسيد الغساني عن خالد وعبادة . ٣٩٧ س ش س عن محمد وطلحة

لكم يا معشر الرؤساء في أمر يعز الله به الدين ولا يدخل عليكم معه ولا منه نقيصه ولا مكروه ؟ إن هذا يوم من أيام الله ، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي . أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم فان هذا يوم له ما بعده. ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية ـ وأنتم ـ على تساند وانتشار ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي . وإن مَن وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبّته » .

قالوا « فهات ، فما الرأي ؟ »

قال : إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر ، ولو علم بالذي كان ويكون ـ قد جمعكم. إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم وأنفع للمشركين من أمدادهم . ولقد عَلِمْتُ أن الدنيا فرقت بينكم فالله الله ، فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه إن دان لأحد من أمراء الجنود ولا يزيده عليه أن دانوا له . إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ﷺ ، هلموا فإن هؤلاء تهيأوا وهذا يوم له ما بعده ، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها » .

تعبية المسلمين

وخرجت الروم في تعبية لم ير الراءون مثلها قط. وخرج خالد بن الوليد في تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك أبدا . فقد مزج الجيوش الخمسة مزجا تاما حتى صار جيشا واحدا لا يمت إلى التقسيم الأول بصلة حتى أننا حين نتأمل قطاعات الجيش الموحد نجد أن كل قطاع منه يشتمل على عناصر من الجيوش الخمسة الأولى ـ كما سنبين فيما بعد ـ بما يعني أنه يوم اليرموك لم يكن أمير من الأمراء الذين بعثهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه قائدا لجيشه وإنما كان كل أمير من الأمراء الأربعة قائد ربع من الجيش الموحد تحت إمارة خالد بن الوليد ، ونرى أنهم كانوا هيئة ادارة عليا للميدان بدليل وجود اسماء أخرى لقيادات الميمنة والميسرة والمشاة . وترك خالد

طريقة الصفوف وقسم الجيش إلى كراديس ، وقد جاء في معنى الكردوس أنه القطعة العظيمة من الخيل [يقال كردس القائد خيله إذا جعلها كتيبة منه] . فكانوا بين ستة وثلاثين كردوسا إلى الأربعين . وقال خالد : « إن عدوكم قد كثر وطغى وليس من التعبية تعبية أكثر في رأي العين من الكراديس » وجعلهم ميمنة وقلبا وميسرة . وجعل الجيش أربع قيادات .

فكان على الربع الأيمن عمرو بن العاص يليه عن يساره شرحبيل بن حسنة على ربع آخر ثم أبو عبيدة على ربع ثم يزيد بن أبي سفيان على الربع الأيسر . وكان ـ كما مر بنا ـ على الميمنة معاذ بن جبل مع عمرو أو تحته ، وكان على المشاة ـ في الوسط ـ هاشم بن عتبة مع أبي عبيدة أو تحته ، وكان على الميسرة قَبَّاث بن أشْيَم مع يزيد أو تحته . وقد ذكر سيف بن عمر ٣٨ كردوسا بيانها كالآتي :

الميمنة

(١) عُمارة بن مخشّي بن خويلد الضمري

(٢) شرحبيل ومعه خالد بن سعيد [كان من جيش أبي عبيدة]

(٣) عبد الله بن قيس الهمذاني .

(٤) عمرو بن عبسة السلمي [أبو نجيح]

(٥) السمط بن الأسود الكندي [كان من جيش أبي عبيدة]

(٦) ذو الكلاع الحميري [كان من جيش يزيد] .

(٧) معاوية بن حُدَيْج الكندي السكوني [يعد في أهل مصر ، يعني من جيش عمرو] .

(٨) جُنْدب بن عمرو بن حُمَمَة الدوسي [كان في جيش أبي عبيدة] .

(٩) عمرو بن فلان العذري [من قضاعة ، كان في جيش عمرو] .

(١٠) لقيط بن عبد القيس بن بجرة حليف لبني ظفر من فزارة .

القلب

(١١) القعقاع بن عمرو [على كردوس من كراديس أهل العراق من جيش خالد] .

(١٢) مذعور بن عدي العجلي [مثله] .

(١٣) عياض بن غنم الفهري [مثله] .

(١٤) هاشم بن عتبة [كان من جيش أبي عبيدة]

(١٥) زياد بن حنظلة .

(١٦) خالد بن الوليد

(١٧) دحية بن خليفة الكلبي [على فلول خالد بن سعيد] .

(١٨) امرؤ القيس بن عدي الكلبي [مع قضاعة ، كان من جيش عمرو] .

(١٩) يزيد بن يُحَنِّس [الكوفي ، يعني كان من جيش خالد]

(٢٠) ابو عبيدة بن الجراح .

(٢١) عكرمة بن أبي جهل .

(٢٢) سهيل بن عمرو القرشي [كان من جيش عمرو] .

(٢٣) عبد الرحمن بن خالد بن الوليد [وكان ابن ثماني عشرة سنة] .

(٢٤) حبيب بن مسلمة الفهري .

(٢٥) صفوان بن أمية القرشي الجمحي .

(٢٦) سعيد بن خالد القرشي الأموي .

(٢٧) أبو الأعور [عمرو] بن سفيان السلمي [كان من جيش أبي عبيدة] .

(٢٨) ابن ذي الخمار .

الميسرة

(٢٩) يزيد بن أبي سفيان .

(٣٠) الزبير

(٣١) حوشب ذي ظليم الحميري .

(٣٢) قيس بن عمرو بن زيد ، من هوازن ، حليف بني النجار من الأنصار .

(٣٣) عصمة بن عبد الله ، حليف لبني النجار من بني أسد [كان من جيش خالد] .

(٣٤) ضرار بن الأزور الاسدي [كان من جيش خالد] .

(٣٥) مسروق بن فلان العكي من الأزد .

(٣٦) عتبة بن ربيعة بن بهز ، حليف بني عصمة وممن شهدوا بدرا .

(٣٧) جارية بن عبد الله الأشجعي ، حليف بني سلمة .

(٣٨) قباث بن أشيم الكناني الليثي [كان من جيش أبي عبيدة ، وكان على الطلائع باليرموك] .

وكان القاضي أبو الدرداء ، والقاصّ الذي يتولى تحميس المسلمين أبو سفيان بن حرب ، وكان على الطلائع قبَّاث بن أشْيَم ، وعلى الأقباض وهي الغنائم عبد الله بن مسعود . وكان القارىء المقداد ومن السنة التي أخذ بها المسلمون عن رسول الله ﷺ بعد بدر أن تقرأ سورة الجهاد وهي سورة الأنفال عند لقاء العدو ولم يزالوا بعد ذلك على ذلك ، فقرئت يوم اليرموك كما قرئت يوم القادسية .

اشتباك الفرسان

وسار خالد بن[1] الوليد في صفوف جنوده يقف على أصحاب كل راية ويقول « يا أهل الإسلام إن الصبر عز وإن الفشل عجز وإن مع الصبر تنصرون ، فإن الصابرين هم الأعلون ، وإنه إلى الفشل ما يجور المبطل الضعيف ، وأن المُحِقّ لا يفشل ، يعلم أن الله معه وأنه عن حرم الله يَذُبّ وعنه يقاتل ، وأنه وإن قدم على الله أكرم منزلته وشكر سعيه ، إنه شاكر يحب الشاكرين » .

---

(١) الازدي ١٩٠ حدثني أبو جهضم [موسى بن سالم ، ثقة صدوق صالح الحديث] عن سفيان بن سليم الازدي [نجهله] عن الحارث بن عبد الله الازدي ثم النمري ، [من أعلام الفتح] .

فما زال يقف على كل راية يعظهم ويحضهم ويرغبهم حتى مر بجماعة جنوده .

وجمع خالد فرسان المسلمين فقسمها أربع فرق ، ودعا قيس بن هبيرة بن مكشوح المرادي وكان يساعده ويوافقه ويشبهه في جلده وشدته وشجاعته وبأسه وإقدامه على الأعداء ، فقال له خالد « أنت فارس العرب ، وقلَّ من حضرها اليوم يعدلك عندي فاخرج معي في هذه الخيل » . كما بعث إلى ميسرة بن مسروق العبسي وكان من أشراف العرب وفرسانهم ، ودعا عمرو بن الطفيل بن عمرو ذي النور الأزدي الدوسي فخرج معه وجعل كل رجل منهم على ربع ، وخرج خالد في ربع منها في خيل المسلمين حتى دنا من معسكر الروم الأعظم الذي فيه باهان .

لقد سار جيش الروم من أنطاكية حتى اقترب من حمص فبدأ المسلمون ينسحبون أمامه وهو يتعقبهم حينا ويسابقهم حينا حتى استقر في أذهان الروم أن المسلمين يريدون الانصراف عن الشام ويخلوها للروم ، فكان ذلك قد وقع في نفوسهم وطمعوا فيه ورجوا ألا يكون بينهم وبين المسلمين قتال . فلما رأوا خالدا قد أقبل عليهم في الخيل أفزعهم ذلك وصدمهم خروجه إليهم . فصفوا صفوفهم ورفعوا راياتهم وخرجوا بالصلبان ومعهم القسيسون والرهبان والبطارقة فصفوا عشرين صفا لا يرى طرفاها من طولها. ثم أخرجوا إلى المسلمين خيلا أضعاف خيل المسلمين مضاعفة فلما تدانت خيلهم من خيل خالد خرج بطريق من بطارقتهم وشجعانهم يتعرض لخيل المسلمين ويطلب المبارزة .

فقال خالد «أما لهذا رجل يخرج إليه؟ ليخرجن إليه بعضكم أو لأخرجن إليه » . فانبرى عدد من المسلمين ليخرجوا اليه . أراد ميسرة بن مسروق أن يخرج إليه فقال له خالد « أنت شيخ كبير وهذا الرومي شاب ولا أحب أن تخرج إليه » ، فإنه لا يكاد الشيخ الكبير يقوى على الشاب الحديث السن ، فقف لنا رحمك الله في كتيبتك فإنك ما علمت حسن البلاء عظيم الغناء » .

وأراد عمرو بن الطفيل أن يخرج إليه فقال له خالد « يا ابن أخي أنت غلام حديث السن وأخاف ألا تقوى عليه » .

وكان راوينا الحارث بن عبد الله الأزدي في خيل خالد التي خرجت معه ، قال « فأنا أخرج إليه » فقال له خالد « ما شئت » . فلما همّ بالخروج إليه عنّ لخالد أن يسأله « هل بارزت رجلا قط قبله ؟ » قال « لا » . قال « فلا تخرج إليه » .

قال قيس بن هبيرة « يا خالد كأنك عليَّ تحوّط ؟ »

قال له « أجل ، فإني أرجو إن أنت خرجت إليه أن تقتله ، فإن أنت لم تخرج إليه لأخرجن إليه أنا » .

فقال قيس « بل أنا أخرج إليه » .

وخرج قيس وهو يقول

سَائِلْ نساء الحي في حِجَالِها ألستُ يوم الحربِ من أبطالها
ومُقَعِّصَ الأقران من رجالها(1)

فلما دنا منه ضرب الرومي فرسه وحمل عليه قيس فما لبث أن ضربه بالسيف على هامته فقطع ما عليه من السلاح [المغفر] وفلق هامته وسقط الرومي أمام فرسه قتيلا ، وكبّر المسلمون .

لنا أن ندرك من حوار خالد مع إخوانه في شأن من يبارز ذلك الرومي أنه كان ذا خطر ولعله كان عملاقا جسيما ذا منظر ومهابة ، فإذا فلق قيس هامته ومغفره بضربة واحدة أمام مائتي ألف من الروم فلا ريب أن كان لذلك أثره النفسي على كل فرد فيهم ، وهذا ما قصد إليه خالد من بادىء الأمر، أرادها بداية نفسية ، فمنع ميسرة ومنع عمرو بن الطفيل ومنع الحارث بن عبد الله ثم أخرج له قيس بن هبيرة ليكسب ذلك الأثر النفسي .

صاح خالد : ما بعد ما ترون إلا الفتح ، احمل عليهم يا قيس !

نعم قيس نفسه الذي قتل بطلهم بضربة واحدة ، هو الآن صاحب الرهبة في نفوس الروم . ثم أقبل خالد على أصحابه [الربع الذي معه] فقال : احملوا عليهم

(1) الحجال الستور ، مقعص مُقتِّل .

فوالله لا يفلحون وأولهم فارس متعفر في التراب .

فحملوا عليهم على من تجاههم منهم ومن خيلهم التي تقدمت أمام صفوفهم كأنها أعراض الجبال . قال قيس « فحملنا عليهم فكشفنا خيلهم حتى لحقت بالصفوف ، وحمل عليهم خالد وأصحابه على من يليهم فكشفوهم حتى ألحقوهم بالصفوف ، وحمل عمرو بن الطفيل الأزدي وميسرة بن مسروق العبسي في أصحابهما حتى ألحقوهم بالصفوف صفوف المشركين » .

ماذا حدث ؟

لقد رأى خالد شيئا من الإجتراء عند الروم بعد أن انسحب المسلمون أمامهم من حمص إلى اليرموك ، فأراد أن يعيد الرهبة إلى قلوبهم حتى يعودوا كثرة من الخوف وانعدام الثقة في النفس . وقد حدث . وهنا أمر خالد خيله فانصرفت عنهم ورجع بهم إلى جيش المسلمين وقد أراهم الله السرور في الروم . بينما راح بطارقة الروم يتلاومون ويقول بعضهم لبعض : جاءتكم خيل لعدوكم ليست بالكثيرة فكشفت خيولكم من كل جانب .

فأخرجوا كتائبهم فأقبلت كتائب في إثر كتائب حتى طبقوا الأرض مثل الليل والسيل كأنها الجراد السود ، واقتربوا حتى ظن المسلمون أنهم سيخالطونهم ، والمسلمون جرءاء عليهم سراع إليهم ، فأقبلوا حتى إذا دنوا من جماعة المسلمين واقتربوا منهم ومن خيلهم وقفوا ساعة وقد هابوهم وامتلأت صدورهم من المسلمين خوفا . وأدرك خالد ما في نفوس الروم من خوف فقال للمسلمين : قد رجعنا عنهم ولنا الظفر وعليهم الدَّبْرة ، فاثبتوا لهم ساعة فإن أقدموا علينا قاتلناهم ، وإن رجعوا عنا كان لنا الظفر والفضل عليهم .

هذا والمسلمون في مصافهم تحت راياتهم سكوت لا يتكلم رجل منهم إلا أن يذكر الله ويدعوه في نفسه ويستنصره على عدوه . ونظر الروم إليهم وإلى خيلهم ورجالهم ومصافهم وحدّهم وجدّهم وصبرهم وسكوتهم فألقى الله الرعب في قلوبهم

وبعد أن وقفوا ساعة حدث شيء مضحك .. انصرفوا راجعين عنهم إلى عسكرهم !

إسلام جرجة

وفي معسكرهم اجتمعت بطارقتهم وأمراؤهم وعظماؤهم وفرسانهم إلى باهان . فقال لهم باهان : إني قد رأيت رأيا وأنا ذاكره لكم . إن هؤلاء القوم قد نزلوا بلادكم وركبوا مراكبكم وطعموا من طعامكم ولبسوا من لباسكم ، فمثل الموت عندهم أن يفارقوا ما قد تطعموه من عيشكم الرفيع ودنياكم التي لم يروا مثلها قط . وقد رأيت إن رأيتم ذلك أن أسألهم أن يبعثوا إلينا رجلا منهم له عقل فنفاوضه ونطمعهم في شيء يرجعون به إلى أهليهم، لعل ذلك يسخى بأنفسهم عن بلادنا. فإن هم فعلوا ذلك كان الذي يريدون منا قليلا فيما نخاف ، وندفع به خطر الوقعة التي لا تدرون تكون علينا أم لنا .

قالوا : قد أَصَبْتَ وأَحْسَنْتَ النظر لجماعتنا فاعمل برأيك .

فبعث رجلا من خيارهم وعظمائهم اسمه جُرْجَة حتى أتى أبا عبيدة فقال له : إني رسول باهان عامل ملك الروم على الشام وعلى هذه الجنود ، وهو يقول لك أرسل إليّ الرجل منكم الذي كان قبلك أميرا فإنه قد ذكر لي أن ذلك الرجل له عقل وله فيكم حسب ، وقد سمعنا أن عقول ذوي الأحساب أفضل من عقول غيرهم ، فنخبره بما نريد ونسأله عما تريدون ، فإن وقع فيما بيننا وبينكم أمر لنا ولكم فيه صلاح أو رضى أخذنا به وحمدنا الله عليه ، وإن لم يتفق ذلك فيما بيننا وبينكم كان القتال من وراء ما هناك .

فدعا أبو عبيدة خالدا فأخبره الذي جاء فيه جرجة وقال لخالد :

إلقهم فادعهم إلى الاسلام فان قبلوا فهو حظهم وكانوا قوماً لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، وإن أبوا فاعرض عليهم الجزية بأن يؤدوها عن يد وهم صاغرون ، فإن أبوا فأعلمهم أننا نناجزهم ونستعين الله عليهم حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين .

كان جرجه قد جاء معسكر المسلمين عند غروب الشمس فلم يمكث إلا يسيرا حتى حضرت صلاة المغرب فقام المسلمون يصلون صلاتهم ، فلما قضيت الصلاة قال خالد للرومي « هذا الليل قد غشينا ولكن إذا أصبحتُ غدوتُ إلى صاحبك إن شاء الله ، فارجع إليه فأعلمه ذلك » .

وانتظر المسلمون أن يقوم جرجه فيرجع إلى معسكر الروم ولكنه لبث ولم يبرح وصار ينظر إلى رجال من المسلمين يصلون وهم يدعون الله ويتضرعون إليه .

قال عمرو بن العاص : إن رسولكم هذا الذي أرسل إليكم لمجنون .

فقال أبو عبيدة : كلا ، أو ما تفطن إلىٰ نَظَره إلى المسلمين ؟

وكان جرجه الرومي يتأملهم ما يفيق ولا يطرف بصره عنهم .

واستمر أبو عبيدة يقول : والله إني لأرجو أن يكون الله قد قذف في قلبه الإيمان وحببه إليه وعرّفه فضله !

ولبث الرومي على ذلك قليلا ثم أقبل على أبي عبيدة فقال : أيها الرجل ، متى دخلتم في هذا الدين ومتى دعوتم إليه الناس ؟

قال أبو عبيدة : دعونا إليه منذ بضع وعشرين سنة فمنا من أسلم حين أتاه الرسول ومنا من أسلم بعد ذلك .

فقال : هل كان رسولكم أخبركم أنه يأتي من بعده رسول ؟

قال : لا ولكنه أخبرنا أنه لا نبي بعده وأخبرنا أن عيسى بن مريم قد بشرّ به قومه .

قال جرجه : أنا على ذلك من الشاهدين ، إن عيسى بن مريم قد بشرنا براكب الجمل وما أظنه إلا صاحبكم .. أخبروني عن قول صاحبكم في عيسى بن مريم ما كان ، وما قولكم أنتم فيه ؟

قال أبو عبيدة : قول صاحبنا قول الله وهو أصدق القول وأبرّه ، قال الله في عيسى بن مريم « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن

فيكون » وقال الله « يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ... الخ الآية حتى قال : لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » .

فلما فسر له الترجمان هذا بالرومية قال : أشهد أن هذه صفة عيسى نفسه وأشهد أن نبيكم صادق وأنه الذي بشّرَنا به عيسى وأنكم قوم صدق .

ثم قال لأبي عبيدة : ادع لي رجلين من أول أصحابك إسلاما وهما فيما ترى أفضل من معك .

فدعا أبو عبيدة معاذ بن جبل وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل فقال : هذان من أفضل المسلمين فضلا ومن أول المسلمين إسلاما .

فقال لهما جرجه ولأبي عبيدة : أتضمنون لي الجنة إن أنا أسلمت وجاهدت معكم ؟

قالوا : نعم إن أنت أسلمت ولم تغير حتى تموت وأنت على ذلك فإنك من أهل الجنة .

قال : فإني أشهدكم أني من المسلمين .

أسلم جرجه وفرح المسلمون بإسلامه وراحوا يصافحونه ويدعون له بالخير وقالوا له :

« إنا إن أرسلنا رسولنا غدا إلى صاحبكم وأنت عندنا ظنوا أنا حبسناك عنهم فنتخوف أن يحبسوا صاحبنا ، فإن شئت أن تأتيهم الليلة وتكتم إسلامك حتى نبعث رسولنا إليهم غدا وينصرف وننظر على ما ينصرم الأمر فيما بيننا وبينهم ، فإذا رجع رسولنا إلينا أتيتنا عند ذلك ، فما أعزك علينا وأرغبنا فيك وأكرمك علينا ، وما أنت عند كل امرىء منا إلا بمنزلة أخيه لأمه وأبيه » .

قال : فإنكم نعم ما رأيت .

ثم خرج جرجه من معسكر المسلمين فبات في معسكر الروم وأتى باهان فقال له « غدا يجيئكم رسول القوم الذي سألتم » .

يقول الرواة : فلما أصبح الرومي وانصرف خالد راجعا إلى أصحابه من قبل باهان أقبل الرومي حتى لحق بالمسلمين فأسلم وحسن إسلامه وكان له نجدة ونكاية في المشركين ـ رحمه الله .

هذا ما كان أورده الأزدي عن قصة إسلام جرجه ، وقبل أن نمضي مع الرواية لنتابع ما كان من أمر تلك المقابلة بين خالد بن الوليد وباهان ، نذكر رواية أخرى لقصة إسلام جرجه أوردها سيف[1] بن عمر فهو وكالة أنباء أخرى ساق روايته بصورة مغايرة ، فقد جعل الواقعة يوم اللقاء الأكبر بين الروم والمسلمين ، قال :

ـ وخرج جَرَجَه حتى كان بين الصفين ونادى : ليخرج إليّ خالد . فخرج إليه خالد وأقام أبا عبيدة مكانه فواقفه بين الصفين حتى اختلفت أعناق دابتيهما وقد أمّن أحدهما صاحبه . فقال جَرَجَة : يا خالد أصدقني ولا تكذبني فإن الحر لا يكذب ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله . هل أنزل الله على نبيكم سيفا من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم ؟ قال : لا . قال : فبِمَ سُمِّيت سيف الله ؟ قال : إن الله عز وجل بعث فينا نبيه ﷺ فدعانا فنفرنا عنه ونأينا منه جميعا ، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه وبعضنا باعده وكذبه ، فكنت فيمن كذّبه وباعده وقاتله . ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه . فقال : أنت سيف من سيوف الله سلّه على المشركين ، ودعا لي بالنصر ، فسُمِّيت سيف الله بذلك . فأنا من أشد المسلمين على المشركين قال : صدقتني . ثم أعاد عليه جرجة : يا خالد أخبرني إلامَ تدعوني ؟ قال : إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن

(1) الطبري ٣/٣٩٨ س ش س عن أبي عثمان يزيد بن أسيد الغساني ، عن عبادة وخالد . ابن عساكر ١/٥٤٧ أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، أنا أبو الحسين بن النقور ، أنا أبو طاهر المخلص ، أنا أبو بكر بن سيف ، نا س ش س . وذكر جزءا من رواية الطبري .

محمدا عبده ورسوله ، والإقرار بما جاء به من عند الله . قال : فمن لم يجبْكم ؟ قال : فالجزية ونمنعهم . قال : فإن لم يُعطِها ؟ قال : نؤذنه بحرب ثم نقاتله . قال : فما منزلة الذي يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم ؟ قال : منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا شريفنا ووضيعنا وأولنا وآخرنا. ثم أعاد عليه جرجة [السؤال] : هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل مالكم من الأجر والذُّخْر ؟ قال : نعم وأفضل . قال : وكيف يساويكم وقد سبقتموه ؟ قال : إنا دخلنا في هذا الأمر وبايعنا نبينا ﷺ وهو حي بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء ويخبرنا بالكتب ويرينا الآيات ، وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع . وإنكم أنتم لم تَرَوْا ما رأينا ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج ، فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونيَّة كان أفضل منا . قال جرجة : بالله لقد صَدَقْتني ولم تخادعني ولم تألّفني ! قال : بالله لقد صدقتك وما بي إليك ولا إلى أحد منكم وحشة ، وإن الله لوليُّ ما سألت عنه . فقال : صدقتني . وقلب الترس ومال مع خالد وقال : علمني الإسلام . فمال به خالد إلى فسطاطه فشَنّ عليه قربة من ماء ثم صلى ركعتين . وحملت الروم مع انقلابه إلى خالد ... وركب خالد ومعه جرجة ، والروم خلال المسلمين ... فضرب فيهم خالد وجرجة من لدن ارتفاع النهار إلى جنوح الشمس للغروب ، ثم أصيب جرجة ولم يصلِّ صلاة سجد فيها إلا الركعتين اللتين أسلم عليهما ... »

مفاوضات خالد وباهان

نعود إلى رواية الأزدي لنتابع أخبار المفاوضات بين القائدين باهان وخالد . لعلنا نذكر المفاوضات التي جرت بين الروم وبين معاذ بن جبل في بيسان وكيف أن معاذ وجدهم ينتظرونه في الحرير والديباج والطنافس فرفض أن يجلس معهم . ولعل خالد بن الوليد قد ذكر ذلك وهو ذاهب لمقابلة باهان ، فلما أصبحوا بعث خالد بقبة [خيمة] له حمراء من الجلد كان قد اشتراها من امرأة ميسرة بن مسروق العبسي بثلاثمائة دينار فضربت له في عسكر الروم ، ثم خرج خالد حتى أتاها وأقام فيها

ساعة ، وكان خالد رجلا طويلا جميلا جليدا مهيبا لا ينظر إليه رجل إلا ملأ صدره وعرف أنه من فرسان الرجال وشجعانهم وأشدائهم . وبعث باهان إلى خالد يدعوه إلى لقائه وقد صف له في طريقه عشرة صفوف عن يمينه ومثلها عن شماله مقنعين بالحديد عليهم البيض [الخوذات] والدروع والسواعد والجواشن والسيوف لا يرى فيهم إلا الحَدَق [العيون] ، وصف من وراء تلك الصفوف خيلا عظيمة لا يرى طرفاها .

هل كان ذلك حرس شرف لاستقبال القائد المسلم؟ لا. يقول الرواة «إنما أراد ـ باهان ـ بذلك أن يريه حدة الروم وعددهم ليرعبه بذلك وليكون ذلك أسرع إلى ما يريد أن يعرض عليه. فأقبل خالد غير مكترث لما رأى من هيئتهم وجماعتهم وكأنها أهون عليه من الكلاب . فلما دنا من باهان رحب به ثم قال بلسانه : ها هنا عندي ، اجلس معي فإنك من ذوي أحساب العرب فيما ذكر لي ، ومن شجعانهم ونحن نحب الشجاع ذا الحسب ، وقد ذُكِرَ لي أن لك عقلا ووفاء والعاقل ينفعك كلامه وذو الوفاء يصدق قوله ويوثق بعهده » .

وأجلس فيما بينه وبين خالد ترجمانا فهو يفسر لخالد ما يقول وخالد جالس إلى جانبه والتفت باهان إلى قومه وقال بلسانه «إنه رجل عاقل يتكلم بالحكمة». فقال خالد « إن كنت أوتيتُ العقل فالله تعالى المحمود على ذلك ، وقد قال لنا نبينا ﷺ « إن الله لما خلق العقل فقدره وصوره وفرغ من خلقه قال له : أَقْبِل ، فأقبل. ثم قال له: أدْبر ، فأدبر. ثم قال له : وعزتي ما خلقت من خلقي شيئا هو أحب إليّ منك ، بك أُحمد وبك أُعبد وبك أُعرف وبك تُنال طاعتي وبك تُدخل جنتي » . والوفاء لا يكون إلا من العقل ، فمن لم يكن له عقل فلا وفاء له ، ومن لا وفاء له فلا عقل له .

قال باهان : أنت أعقل أهل الأرض وما يتكلم بكلامك ولا يبصره ولا يفطن له إلا الفائق من الرجال . أخبرني عنك وأنت هكذا ، أتحتاج إلى مشورة هذا الرجل معك ؟ [وكان الذي معه الحارث بن عبد الله الازدي راوي الرواية] .

قال خالد وقد تعجب من ذلك : إن في عسكرنا هذا لأكثر من ألفي رجل كلهم لا يستغنى عن رأيه وعن مشورته !

فقال باهان : ما كنا نظن ذلك عندكم ولا نراكم به .

قال خالد : ما كل ما تظنون ونظن يكون صوابا .

قال باهان : صدقت .

ثم قال باهان لخالد : إن أول ما أكلمك به أن أدعوك إلى خلّتي ومصافاتي .

لا ريب أن يكون باهان قد أعجب بخالد ، برأيه وصورته ومعاركه السابقة ضدهم وربما بصوته !

قال خالد : فكيف لي ولك أن يتم هذا فيما بيني وبينك وقد جمعتني وإياك بلدة لا أريد أنا ولا تريد أنت أن نفترق حتى تصير البلدة لأحدنا .

فقال له باهان : فلعل الله يصلح بيننا وبينكم ولا يهُرق دم ولا يُقتل قتيل .

قال خالد : إن شاء الله فعل .

فقال باهان : فإني أريد أن ألقي الحشمة فيما بيني وبينك [أرفع التكليف] وأكلمك كلام الأخ لأخيه ، وإن قبتك هذه الحمراء قد أعجبتني وأنا أحب أن تهبها لي فإني لم أر قبة من القباب أحسن منها وأفضل ، فخذ ما بدا لك فيها وسلني ما أحببت فهو في يديك وهب لي هذه القبة فهي أطرف مما عندنا .

فقال له خالد : هي لك فخذها ولست أريد من متاعك شيئا .

يقول الحارث بن عبد الله : والله لظننت إنما سألها لينظر إليها فإذا هو قد أخذها .

بعد هذه المجاملات المتبادلة قال باهان : إن شئت بدأناك بالكلام وإن شئت أنت فتكلم .

فقال خالد : ما أبالي أي ذلك كان . أما أنا فلا اخالك إلا وقد علمت وبلغك ما أسأل وما أطلب وما أدعو إليه وقد جاءك بذلك أصحابك ومن لقينا منكم

بأجنادين ومرج الصفر وفحل ومدائنكم وحصونكم ، وأما أنت فلست أدرى ما تريد أن تقول فإن شئت فتكلم وإن شئت بدأتك فتكلمت .

قال باهان : الحمد لله الذي جعل نبينا أفضل الأنبياء وملكنا أفضل الملوك وأمتنا خير الأمم ...

فقاطعه خالد بقوله : والحمد لله الذي جعلنا نؤمن بنبينا ونبيكم وجميع الأنبياء ، وجعل الأمير الذي وليناه أمورنا رجلا كبعضنا ، فلو زعم أنه ملك علينا لعزلناه عنا ، ولسنا نرى أن له على رجل من المسلمين فضلا إلا أن يكون أتقى منه عند الله وأبَرّ ، والحمد لله الذى جعل أمتنا تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتقر بالذنب وتستغفر الله منه ، وتعبد الله وحده لا تشرك به شيئا . قل الآن ما بدا لك .

اصفر وجه باهان ومكث قليلا ثم قال : الحمد لله الذي أبلانا فأحسن البلاء عندنا وأغنانا من الفقر ونصرنا على الأمم وأعزنا فلا نذل ومنعنا من الضيم فلا يباح حريمنا ولسنا فيما أعزنا الله به وأعطانا من ديننا ببطرين ولا مرحين ولا باغين على الناس ، وقد كانت لنا منكم يا معشر العرب جيران كنا نحسن جوارهم ونعظم قدرهم ونَفْضُلُ عليهم ونفي لهم بالعهد ، وخيّرناهم بلادنا ينزلون منها حيث شاءوا فينزلون آمنين ويرحلون آمنين ، وكنا نرى أن جميع العرب ممن لا يجاورنا سيشكر لنا ذلك الذي أتينا إلى إخوانهم وما اصطنعنا عندهم ، فلم يَرُعْنَا منكم إلا وقد فجأتمونا بالخيل والرجال تقاتلوننا على حصوننا وتريدون أن تغلبونا على بلادنا ، وقد طلب هذا منا قبلكم من كان أكثر منكم عددا وأعظم مكيدة وأوفى جندا ، ثم رددناهم عنها فلم يرجعوا عنا إلا وهم بين قتيل وأسير . وأراد منا ذلك فارس ، فقد بلغكم كيف صنع الله عز وجل بهم ، وأراد ذلك منا الترك فلقيناهم بأشد مما لقينا به فارس ، وأرادنا غيركم من أهل المشرق والمغرب من ذوي المنعة والعز والجنود العظيمة فكلهم أظفرنا الله بهم وصنع لنا عليهم ، ولم تكن أمة من الأمم بأرق عندنا منكم شأنا ولا أصغر أخطارا ، إنما جلّكم رعاء الشاء والإبل وأهل الصخر والحجر والبؤس والشقاء ،

فأنتم تطمعون أن نجلي لكم عن بلادنا ؟! بئس ما طمعتم فيه منا . وقد ظننا أنه لم يأت بكم إلى بلادنا ـ ونحن يتقي كل من حولنا من الأمم العظيمة الشأن الكثيرة العدد كثرتنا وشدة شوكتنا ـ إلا جَهْد نزل بكم من جدوبة الأرض وقحط المطر ، فعثيتم في بلادنا وأفسدتم كل الفساد ، وقد ركبتم مراكبنا وليست كمراكبكم ، ولبستم ثيابنا وليست كثيابكم وثياب الروم كأنها صفائح الفضة ، وطعمتم من طعامنا وليس كطعامكم ، وأصبتم منا وملأتم أيديكم من الذهب الأحمر والفضة البيضاء والمتاع الفاخر . ولقد لقيناكم الآن وذلك كله لنا وهو في أيديكم ، فنحن نسلمه لكم واخرجوا به وانصرفوا عن بلادنا .

فإن أبت أنفسكم إلا أن تحرصوا وتشرهوا ، وأردتم أن نزيدكم من بيوت أموالنا ما يقوى به الضعيف منكم ويرى الغائب أن قد رجع إلى أهله بخير فعلنا ، ونأمر للأمير منكم بعشرة آلاف دينار ونأمر لك بمثلها ونأمر لرؤسائكم بألف دينار ونأمر لجميع أصحابك بمائة دينار ، على أن توثقوا لنا بالأيمان المغلظة ألا تعودوا إلى بلادنا .

ثم سكت باهان ينتظر ما يجيب به خالد .

قال خالد : الحمد لله الذي لا إله إلا هو .

فلما فسرّ الترجمان ذلك رفع باهان يده إلى السماء وقال لخالد : نعم ما قلت .

قال خالد : وأشهد أن محمدا رسول الله ﷺ .

فلما فسر الترجمان ذلك قال باهان : الله أعلم ، ما أدري لعله كما تقول .

قال خالد : أما بعد فإن كل ما ذكرت به قومك من الغناء والعز ومنع الحريم والظهور على الأعداء والتمكن في البلاد فنحن به عارفون ، وكل ما ذكرت من إنعامكم على جيرانكم منا فقد عرفناه ، وذلك لأمر كنتم تصلحون به دنياكم وإصلاحكم كان إليهم وإحسانكم إليهم كان ذلك زيادة في ملككم وعزًّا لكم ، ألا ترون أن ثلثيهم أو شطرهم دخلوا معكم في دينكم فهم يقاتلوننا معكم ؟

وأما ما ذكرتنا به من رعي الإبل والغنم فما أقل من رأيت واحدا منا يكرهه وما

لمن يكرهه منا فضل على ما يفعله . وأما قولكم إنا أهل الصخر والحجر والبؤس والشقاء فحالنا والله كما وصفت ، ما ننتفي من ذلك ولا نتبرأ منه ، وكنا على أسوأ وأشد مما ذكرت ، وسأقص عليك قصتنا وأعرض عليك أمرنا وأدعوك إلى حظك إن قبلت .

ألا إنا كنا معشر العرب أمة من هذه الأمم ، أنزلنا الله له الحمد منزلا من الأرض ليست به أنهار جارية ولا يكون به من الزرع إلا القليل وكل أرضنا المَهَامِه والقفار ، فكنا أهل حجر ومَدَر وشاء وبعير وعيش شديد وبلاء دائم لازم ، نقطع أرحامنا ونقتل خشيه الإملاق أولادنا ويأكل قوينا ضعيفنا وكثيرنا قليلنا ولا تأمن قبيلة منا قبيلة إلا أربعة أشهر من السنة [يقصد الأشهر الحرم] نعبد من دون الله أربابا وأصناما ننحتها بأيدينا من الحجارة التي نختارها على أعيننا ، وهي لا تضر ولا تنفع ونحن عليها مكبون .

فبينا نحن كذلك على شفا حفرة من النار من مات منا مات مشركاً وصار إلى النار ومن بقي منا بقيَ كافراً مشركاً بربه قاطعا لرحمه، إذ بعث الله فينا رسولاً من صميمنا وشرفائنا وخيارنا وكرمائنا وأفضلنا ، دعانا إلى الله وحده أن نعبده ولا نشرك به شيئا ، وأن نخلع الأنداد التي يعبدها المشركون دونه ، وقال لنا لا تتخذوا من دون الله ربكم إلها ولا وليا ولا نصيرا ، ولا تجعلوا معه صاحبة ولا ولدا ولا تعبدوا من دونه نارا ولا حجرا ولا شمسا ولا قمرا ، واكتفوا به ربا وإلها من كل شيء دونه ، وكونوا أولياءه وإليه فادعوا وإليه فارغبوا .

وقال لنا قاتلوا من اتخذ مع الله آلهة أخرى وكل من زعم أن لله ولدا وأنه ثاني اثنين أو ثالث ثلاثة حتى يقولوا لا إله إلا الله وحده ولا شريك له ، ويدخلوا في الإسلام ، فإن فعلوا حرمت عليكم دماؤهم وأموالهم وأعراضهم إلا بحقها وهم إخوانكم في الدين لهم ما لكم وعليهم ما عليكم . فإن هم أبوا أن يدخلوا في دينكم فاعرضوا عليهم الجزية أن يؤدوها عن يد وهم صاغرون ، فإن هم فعلوا فاقبلوا منهم

وكفوا عنهم ، وإن أبوا قاتلوهم ، فإنه من قتل منكم كان شهيدا عند الله مرزوقا وأدخله الله الجنة ، ومن قتل من عدوكم قتل كافرا وصار إلى النار مخلدا فيها أبدا .

وهذا والله الذي لا إله إلا هو أمَرَ الله به نبيه ﷺ فَعَلَّمَنَاهُ وأمرنا به أن ندعو الناس إليه ، ونحن ندعوكم إلى ما دعا إليه نبينا ﷺ وإلى ما أمرنا به أن ندعو الناس إليه فندعوكم إلى الإسلام وإلى أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وإلى أن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتُقِرُّوا بما جاء به من عند الله عز وجل ، فإن فعلتم فأنتم إخواننا في الإسلام لكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وإنَ أبيتم فإنا نعرض عليكم أن تعطوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون فإن فعلتم قبلنا منكم وكففنا عنكم ، وإن أبيتم أن تفعلوا فقد والله جاءكم قوم وهم أحرص على الموت منكم على الحياة ، فاخرجوا بنا على اسم الله حتى نحاكمكم إلى الله فإنما الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

قال باهان : أما أن ندخل في دينكم فما أبعد من ترى من الناس من يترك دينه ويدخل في دينكم . وأما أن تؤدي الجزية ـ وتنفس صعدا وثقلت عليه وعظمت عنده ، فقال ـ سيموت من ترى جميعا قبل أن يؤدوا الجزية إلى أحد من الناس ، وهم يأخذون الجزية ولا يعطونها . وأما قولك فاخرجوا حتى يحكم الله بيننا ، فلعمري ما جاءك هؤلاء القوم وهذه الجموع إلا ليحاكموك الله . وأما قولك إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ـ فَصَدَقْتَ ـ، والله ما كانت هذه الأرض التي نقاتلكم عليها وتقاتلوننا فيها إلا لأمة من الأمم كانوا قبلنا فيها فقاتلناهم عليها فأخرجناهم منها ، وقد كانت قبل ذلك لقوم آخرين فأخرجهم منها هؤلاء الذين كنا قاتلناهم فيها . فابرزوا على اسم الله فإنا خارجون إليكم .

قال الحارث بن عبد الله الأزدي : فلما فرغ باهان من كلامه وثب خالد فقام وقمت معه ، فمر بقبته فتركها له ومضينا حتى خرجنا من عسكرهم ، وبعث معنا صاحب الروم [باهان] رجالا أخرجونا من عسكرهم وحتى مأمننا . فرجعنا إلى أبي

عبيدة فقص عليهم خالد الخبر وأخبرهم بأن القتال سيقع بينهم وقال للناس : استعدوا أيها الناس استعداد قوم يرون أنهم على ساعة مقاتلون .

مؤتمر في معسكر الروم

قال[1] رجل من الروم كان قد أسلم فيما بعد وحسن إسلامه : كان باهان قد جمع أصحابه يوم انصرف خالد عنهم فقال : « أشيروا عليّ برأيكم في أمر هؤلاء القوم ، فإني قد هيّبتهم ولا أراهم يهابون وأطمعتهم فليسوا يطمعون وأردتهم على الرجوع والخروج من بلدنا بكل وجه فليسوا براجعين ، والقوم ليسوا يريدون إلا هلاككم واستئصالكم وسلب سلطانكم وأكل بلادكم وسبي أولادكم ونسائكم وأخذ أموالكم . فإن كنتم أحرارا فقاتلوا عن سلطانكم وامنعوا حريمكم ونساءكم وأولادكم وبلادكم وأموالكم » .

فقامت البطارقة رجل من بعد رجل ، كلهم يخبره أنه طيب النفس بالموت دون بلاده وسلطانه ، وقالوا له : إذا شئت فانهض بنا .

قال باهان : فكيف ترون بقتالهم ، فإنا أكثر من عشرة أضعافهم ، نحن نحو من أربعمائة ألف وهم نحو من ثلاثين ألفا أو أقل أو أكثر قليلا .

قال بعضهم : أخرج إليهم في كل يوم مائة ألف يقاتلونهم وتستريح البقية ، وتبعث بعيالنا وأثقالنا إلى البحر فلا يكون معنا شيء يهمنا ولا يشغلنا ، ويقاتلهم في كل يوم منا مائة ألف ، فهم في كل يوم في قتل وجراحات وعناء ومشقة وشدة ونحن لا نقاتل إلا كل أربعة أيام يوما ، فإن هزموا منا في كل يوم مائة ألف بقي لهم أكثر من مائتي ألف لم ينهزموا .

---

(١) الأزدي ٢٠٧ حدثني أبو جهضم الأزدي عن رجل من الروم قال : كنت مع باهان في عسكرهم ذلك ...

قال آخرون : لا ، ولكنا نرى إذا هم خرجوا إلينا أن تبعث إلى كل رجل منهم عشرة من أصحابك ، فلا والله لا تبعث عشرة على واحد إلا غلبوه .

قال باهان : هذا ما لا يكون ، وكيف أقدر على عددهم حتى أبعث إلى كل رجل منهم عشرة من أصحابي ؟ وكيف أقدر على أن ينفرد الرجل منهم من صاحبه حتى أبعث إليه عشرة من قبلي ؟ وهذا ما لا يكون .

فأجمع رأيهم جميعا على أن يخرجوا بأجمعهم خرجة واحدة فيناجزوهم فيها ثم لا يرجعون عنهم حتى يحكم الله بينهم .

من باهان الى هرقل

أما بعد .

فإنا نسأل الله لك أيها الملك ولجندك ولأهل مملكتك النصر ولدينك وأهل سلطانك العزّ . فإنك قد بعثتني فيما لا يحصيه من العدد إلا الله ، فقدمت على قوم ، فأرسلت إليهم فهيبتهم فلم يهابوا وأطمعتهم فلم يطمعوا وخوفتهم فلم يخافوا وسألتهم الصلح فلم يقبلوا وجعلت لهم الجُعْل على أن ينصرفوا فلم يفعلوا . وقد ذعر منهم جندك ذعراً شديداً ، وقد خشيت أن يكون الفشل قد عَمَّهم والرعب قد دخل في قلوبهم ، إلا ان منهم رجالاً قد عرفتهم ليسوا بفرار من عدوهم ولا شكاك في دينهم ولو قد لقوهم لم يفروا حتى يظهروا أو يقتلوا . وقد جمعت أهل الرأي من أصحابي وأهل النصيحة لملكنا وديننا فاجتمع رأيهم على النهوض إليهم جميعاً في يوم واحد ثم لا نزايلهم حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

وقد أتاني آت في منامي فقال لي : لا تقاتل هؤلاء القوم فإنهم إذاً يهلكونك . فلما انتبهت من منامي عبرت أنه من الشيطان أراد أن يحزنني فخسأته ، فإن يكن الشيطان فقد خسأته وإلا يكن الشيطان فقد تبين لي الأمر .

فابعث أنت أيها الملك بثقلك وخدمك ومالك فألحقهم بأقصى بلادك وانتظر وقعتنا هذه ، فإن أظهرنا الله عليهم حمدتَ الله الذي أعز دينك ومنع سلطانك . وإن هم ظهروا علينا فارض بقضاء الله واعلم أن الدنيا زائلة عنك كما زالت عمن كان قبلنا ولا تأسف منها على ما فاتك، ولا تغتبط منها بشيء مما في يديك ، والحق بمعاقلك وبدار مملكتك وأحسن إلى رعيتك وإلى الناس يحسن الله إليك ، وارحم الضعفاء والمساكين تُرْحم وتواضع لله يرفعك فإن الله لا يحب المتكبرين » .

صفوف بغير قتال

وخرج باهان إلى المسلمين في يوم ذي ضباب ورذاذ فصف له عشرين صفاً لا يرى طرفاهم ، وجعل على ميمنته ابن قناطر وجعل معه جرجير في جند أرمينية[1] ، وجعل الدرنجار على الميسرة وكان من خيار الروم ونساكهم . وكان جبلة بن الأيهم الغساني[2] على مقدمة الروم في ١٢٠٠٠ من قبائل لخم وجذام وبلقين وعاملة من قضاعة وغسان من الاعراب الموالين للروم . واقبلوا نحو المسلمين .

فلما نظر إليهم المسلمون وقد أقبلوا كأنهم الجراد قد ملأوا الأرض نهضوا إلى راياتهم على تعبيتهم التي ذكرنا . وجاء خالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة إلى أبي عبيدة وكان معه معاذ بن جبل لا يفارقه ، فقالوا له : إن هؤلاء قد زحفوا إلينا في مثل هذا اليوم المطير ، وإنا لا نرى أن نخرج إليهم فيه إلا أن يأتونا حتى يُلِطّوا [يلتصقوا] بعسكرنا أو يضطرونا إلى ذلك .

قال أبو عبيدة : فإنكم قد أصبتم .

(١) الأزدي ٢١٠ حدثني أبو جهضم الأزدي عن رجل من الروم .
الأزدي ٢١٧ حدثني الصقعب بن زهير عن المهاجر بن صيفي عن راشد بن عبد الرحمن الازدي .

(٢) ابن عساكر ٥٣١/١ أخبرنا أبو محمد عبد الكريم بن حمزة السلمي ، نا أبو بكر الخطيب ح ، وأخبرنا ابو القاسم السمرقندي ، انا ابو بكر بن الطبري ، قالا : أنا أبو الحسين بن الفضل ، انا عبد الله بن جعفر ، نا يعقوب ، حدثني عمار ، عن سلمة ، عن محمد بن اسحق .
البلاذري ١٦٠ .

وخرج أبو عبيدة ومعه معاذ بن جبل فصفوا الناس وعبّوهم ووقفوا على مراكزهم . واقترب الروم في المطر ثم وقفوا ساعة وتصبّروا عليه ، فلما رأوا أن المطر لا ينقطع عادوا منصرفين إلى معسكرهم .

جاسوس في معسكر المسلمين

ودعا الدرنجار رجلا من نصارى العرب فقال له : ادخل في عسكر هذا القوم فانظر ما هديهم وما حالهم وما أعمالهم وما يصنعون وكيف سيرتهم ثم القني بها .

وخرج ذلك الجاسوس من عسكر الروم حتى دخل عسكر المسلمين فلم يستنكروه لأنه كان رجلا من العرب ، لسانه عربي ووجهه عربي ، فمكث في عسكرهم ليلة حتى أصبح فأقام عامة يومه ثم عاد إلى الدرنجار فقال له : جئتك من عند قوم يقومون الليل كله يصلّون ويصومون النهار ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، رهبان بالليل أُسْد بالنهار ، لو يسرق ملكهم لقطعوا يده ولو زنا لرجموه لايثارهم الحق واتباعهم إياه على الهوى .

قال الدرنجار : لئن كان هؤلاء القوم كما تزعم وكما ذكرت لبطن الأرض خير لمن يريد قتالهم ولقاءهم من ظهرها .

وعيون المسلمين

وجاء إلى المسلمين رجال من العرب كانوا نصارى فأسلموا ، فقال لهم أبو عبيدة وخالد بن الوليد : ادخلوا في عسكر الروم فاكتموهم إسلامكم والقونا بأخبارهم فإن في هذا لكم أجرا والله حاسبه لكم جهادا فإنكم تدفعون بذلك حرمة الإسلام وتدلون على عورة أهل الشرك .

فذهبوا فدخلوا عسكر الروم . لقد كان في وجود عرب من النصارى في صفوف جيش الروم ما يسمح لمثل هؤلاء أن يندسوا بينهم كما كان يتيح للروم أن يبعثوا منهم

جواسيس إلى معسكر المسلمين . فلما مضى من الليل نصفه عادوا إلى أبي عبيدة فقالوا له : إن القوم قد أوقدوا النيران وهم يتعبّون لكم ويتهيأون لقتالكم وهم مصبحوكم بالغداة، فما كنتم صانعين فاصنعوا الآن .

ومن فورهم قام أبو عبيدة ومعاذ بن جبل وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص فعبوا الجنود وصففوهم ولم يزالوا في ذلك حتى طلع الصبح .

صلاة الفجر

قال راشد بن عبد[1] الرحمن الأزدي :

صلى بنا أبو عبيدة بن الجراح يومئذ صلاة الغداة [الفجر] في عسكره ، في الغداة التي لقينا فيها الروم باليرموك ، فقرأ في أول ركعة « والفجر وليال عشر » فلما مر بقول الله عز وجل « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد » إلى قوله « إن ربك لبالمرصاد » قلت في نفسي ظهرنا والله على القوم للذي أجرى على لسانه وسررت بذلك سرورا عظيما وقلت ، عدونا والله هذا نظير هذه الأمة في الكفر والكثرة والمعاصي . ثم قرأ في الركعة الثانية « والشمس وضحاها » فلما مر بقول الله عز وجل « كذبت ثمود بطغواها إذ انبعث أشقاها » إلى خاتمة السورة ، قلت في نفسي ، وهذه أخرى ، ليصبّن الله عليهم سوط عذاب وليدمد من عليهم كما دمدم على هذه القرون من قبله .

فلما قضى أبو عبيدة صلاته أقبل على الناس بوجهه فقال : أيها الناس أبشروا فإني رأيت في ليلتي هذه فيما يرى النائم كأن رجالا أتوني فحفوا بي وعليّ ثياب بيض ، ثم دعوا لي رجالاً منكم أعرفهم ثم قالوا لنا ، أقدموا على عدوكم ولا

(١) الأزدي ٢١٢ حدثني الصقعب بن زهير عن المهاجر بن صيفي العذري عن راشد بن عبد الرحمن الأزدي .

تهابوهم فإنكم الأعلون ، وكأن مضينا إلى عسكر عدونا فما رأونا قاصدين إليهم انفرجوا لنا انفراج الرأس وجئنا حتى دخلنا عسكرهم وولوا مدبرين .

فقال الناس : أصلحك الله نامت عينك ، هذه بشرى من الله بشرك الله بخير .

فقال أبو مرثد الخولاني : وأنا أصلحك الله قد رأيت رؤيا إنها لبشرى من الله ، وإني رأيت في هذه الليلة فيما يرى النائم كأنا خرجنا إلى عدونا فلما توقفنا صب الله عليهم من السماء طيرا بيضا عظاما لها مخالب كمخالب الأسد ، وهي تنقض من السماء انقضاض العقبان فإذا حازت بالرجل من المشركين ضربته ضربة يخر منها منقطعا ، وكأن الناس يقولون أبشروا معاشر المسلمين فقد أيدكم الله عليهم بالملائكة .

فتباشر المسلمون بهذه الرؤيا وسروا بها ،وقال ابو عبيدة:وهذه والله بشرى من الله ، فحدثوا بهذه الرؤيا الناس فإن مثلها من الرؤيا يشجع المسلم ويحسّن ظنه وينشطه للقاء عدوه .

وانتشرت الرؤيتان في المسلمين ففرحوا واستبشروا بهما .

ورؤيا عند الروم

وجاء رجل من عظماء[1] الروم إلى باهان في صبيحة الليلة التي خرج إلى المسلمين باليرموك فقال : إني رأيت رؤيا وأريد أن أحدثك بها .

قال هاتها .

قال : رأيت كأن رجالا نزلوا إلينا من السماء طوالا أحدهم أبعد من مد بصره فنزعوا سيوفنا من أغمادها وأسنةرماحنا من أطرافها، ثم لم يدعوا منا رجلا إلا كتفوه

(١) الأزدي ٢١٤ حدثني أبو جهضم الأزدي عن رجل من الروم وحدثني في خلافة عبد الملك بن مروان .

ثم قالوا لنا اهربوا فأكثرهم هالك، فأخذنا نهرب فمنا من يسقط على وجهه ومنا من يتبلد لا يستطيع أن يبرح من مكانه ومنا من يحلّ كتافه ثم يسعى حتى لا نراه .

قال باهان : أما من رأيت يسقط على وجهه ومن رأيته يتبلد ولا يطيق أن يسعى ولا يتنحى من مكانه فهؤلاء الذين يهلكون ، وأما الذين رأيت يحلّون كتافهم ويسعون فلا تراهم فأولئك الذين ينجون. أما إذ رأيت فوالله لا تسلم منى أبدا ، فوجهك الوجه الذي بشر بالشر وقنط من الخير . ألست أنت الذي كنت أشد الناس عليّ في أمر الرجل الذي قتل من أهل الذمة رجلا فأردت أن أقتله به ، فكنت أنت أشد الناس عليّ في أمره حتى عطلت حدا من حدود الله، وتركته وكان من الحق عليّ أن أقيمه فحلت بيني وبينه في جماعة من السفهاء ، وتركته كراهية أن أفرق جماعتكم أو أن أفرق بينكم أو أن يضرب بعضكم بعضا ، فأما الآن فقد حدثت نفسي بالموت وإنما ألقى القوم من ساعة ، فإن شئتم الآن فتفرقوا وإن شئتم فاجتمعوا ، فأنا أتوب إلى الله تعالى من ترك ذلك الحد يومئذ فإنه لم يكن يسعني ولا ينبغي لي إلا قتله ولو قتلتموني معه .

ثم أمر به فضربت عنقه . وطلب العظيم الرومي الذي كان قتل الذمي فهرب منه ولم يقدر عليه .

يوم المعركة[1]

الاثنين ٥ رجب ١٥ هـ ١٢ أغسطس [آب] ٦٣٦ م

أخرج باهان جيشه في عشرين[2] صفا في يوم ذي ضباب ، وكما سبق أن ذكرنا ابن قناطر في ميمنته ومعه جرجير في جند أرمينية وجبلة بين الأيهم في الأعراب العملاء ، والدرنجار في ميسرته . يقول الرواة « ثم زحف إلى المسلمين مثل الليل والسيل » ولا شك أن الوصف كان صحيحا لا مبالغة فيه فقد كان جيش الروم مائتي ألف ، في بعض الروايات أن ثمانين ألفا منهم كانوا فرسانا فإذا تصورنا ١٢٠٠٠٠ من المشاة على عشرين صفا لكان معنى هذا أن المواجهة ٦٠٠٠ رجل × عمق ٢٠ وهو ما يغطي في تقديرنا ٩ كيلومترا طولا [وهو ما تسمح به ارض المعركة وفقا لخريطة المنطقة] وحوالي ٥٠ مترا عرضا وذلك قبل بدء القتال .

---

(١) ليس في مصدر من المصادر رواية أو روايات متكاملة عن هذه المعركة الحاسمة الفاصلة التي انفتحت على آثارها بلاد الشام أمام جيوش المسلمين. ولكي نخرج بالصورة الموضحة هنا كان علينا أن نجمع شتاتها من مرويات الطبري عن سَيف بن عمر وعن ابن اسحق ومرويات ابن عساكر عن سيف وغيره ومرويات الازدي عن شيوخه . وقد انفرد سيف بروايات لم يذكرها سواه . وقد لاحظنا أن رواية طويلة لابن عساكر تشغل عشر صفحات من القطع الكبير عن سعيد بن عبد العزيز تتطابق تماما مع عدد متتال من روايات الأزدي تشغل خمس عشرة صفحة بأسانيد أخرى لا تلتقي برواة ابن عساكر . [ابن عساكر ١/٥٣٥ ـ ٥٤٥ ، الازدي ٢١٧ ـ]

وبتأمل هذه الظاهرة وجدنا سعيد بن عبد العزيز قد نسب روايته إلى « قدماء أهل الشام » في حين اتصلت روايات الأزدي المطابقة لها برواة باشروا المعركة بأنفسهم . توفى سعيد بن عبد العزيز عام ١٦٧ هـ ، وتوفى الأزدي عام ٢٣١ هـ وقد روى عنه كتابه تاريخ فتوح الشام الحسين بن زياد ، ومن هنا يمكن أن نجد الطريق مفتوحا بين ما أخرجه ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز موقوفا وبين ما رواه محمد بن عبد الله الازدي مرفوعا عن شيوخه الذين عناهم سعيد بن عبد العزيز بصفة « قدماء أهل الشام » ولم يذكرهم بأسمائهم ، ولكن يؤكد لنا أنهم أنفسهم وبأشخاصهم تطابق ما أخرجه على رواياتهم كلمة بكلمة وحرفا بحرف ، كما يؤكد هذا التطابق سلامة ما نقل المتأخرون عن الرواة المتقدمين .

(٢) الازدي ٢٢٧ حدثني الصقعب بن زهير عن المهاجر بن صيفي عن راشد بن عبد الرحمن الأزدي .

وأصبح المسلمون طيبة نفوسهم بقتال الروم وقد شرح الله لهم صدورهم وشجع قلوبهم على لقاء عدوهم ، فهم أشد شيء بصيرة وأحسنهم نية على باهان وأعظمهم حسبة وأحرصهم على لقائه . وخرجوا على تعبيتهم التي ذكرنا وهم على راياتهم .

وسار أبو عبيدة في المسلمين[1] فقال : يا عباد الله انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم فإن وعد الله حق ، يا معشر المسلمين اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب ومدحضة للعار فلا تبرحوا مصافكم ولا تخطوا إليهم خطوة ولا تبدءوهم بقتال ، وأشرعوا الرماح واستتروا بالدرق والزموا الصمت إلا من ذكر الله حتى آمركم إن شاء الله .

وخرج معاذ بن جبل يقول للناس : يا قراء القرآن ومستحفظي الكتاب وأنصار الهدى وأولياء الحق ، إن رحمة الله والله لا تنال وجنته لا تُدْخل بالأماني ، ولا يؤتي الله المغفرة ، والرحمة الواسعة إلا الصادقين المصدقين بما وعدهم الله عز وجل . ألم تسمعوا قول الله عز وجل « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ... » الآية ، أنتم إن شاء الله منصورون فأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ، واستحيوا من ربكم أن يراكم فرارا من عدوكم وأنتم في قبضته ورحمته ، وليس لأحد منكم ملجأ من دونه ، ولا متعزز بغير الله.

وكان معاذ يمشي في الصفوف بهذا القول ثم عاد إلى موقفه .

ومر عمرو بن العاص على الناس يعظهم ويعطيهم تعلياته ويقول[2] : أيها

(١) الازدي ٢١٨ بإسناده السابق .
ابن عساكر ٥٣٥/١ أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، أنا أبو علي بن المسلمة ، أنا ابو الحسن الحمامي . أنا ابو علي بن الصواف ، نا الحسن بن علي القطان ، نا اسماعيل بن عيسى العطار ، قال أبو حذيفة اسحق بن بشر ، عن سعيد بن عبد العزيز ، عن قدماء أهل الشام وغيرهم .
(٢) الأزدي ٢١٩ حدثني محمد بن يوسف عن ثابت بن سهل بن سعد الأنصاري .
ابن عساكر ٥٢٦/١ بإسناده السابق .

الناس غضوا أبصاركم واجثوا على الركب وأشرعوا الرماح والزموا مراكزكم ومصافكم ، فإذا حمل عليكم عدوكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنَّة فثبوا في وجوههم وثوب الأسد فوالذي يرضى الصدق ويثيب عليه ويمقت الكذب ويعاقب عليه ويجزى بالاحسان لقد بلغني أن المسلمين سيفتحونها كفراً كفرا وقصرا قصرا ، فلا يهولنكم جموعهم ولا عددهم ، فإنكم لو صدقتموهم الشدة لقد انذعروا انذعار أولاد الحجل . [أو تطايروا تطاير أولاد الحجل] ثم رجع فوقف موقفه .

كان أبو سفيان بن حرب[1] قد استأذن عمر بن الخطاب في جهاد الروم بالشام فأذن له فهو مع جيوش المسلمين ومع ولديه يزيد ومعاوية وحمل معه زوجه هند بنت عتبة ، فخرج يومئذ يسير في المسلمين ويقف على أهل كل راية وعلى كل جماعة يحضهم ويعظهم ويقول : إنكم يا معشر المسلمين أصبحتم في دار العجم منقطعين عن الإبل ، نائين عن أمير المؤمنين وأمداد المسلمين ، وقد والله أصبحتم بإزاء عدو كثير عددهم شديد عليكم حنقهم ، وقد وترتموهم في أنفسهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم وبلادهم ، فلا والله لا ينجيكم منهم اليوم وتبلغون رضوان الله إلا بصدق اللقاء والصبر في المواطن المكروهة ، ألا إنها سُنَّة لازمة ، وإن الأرض وراءكم بينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المسلمين صحاري وبراري ، ليس لأحد فيها معقل ولا معقول إلا الصبر ورجاء ما وعد الله فهو خير معول ، فامتنعوا بسيوفكم وتقربوا بها إلى خالقكم ولتكن هي الحصون التي تلجأون إليها وبها تمتنعون .

وكان يسير فيقف على الكراديس[2] فيقول : الله الله ، إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك . اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك .

وجاءت نساء المسلمين[3] فوقفن على مرتفع خلف الصفوف ينظرن ما يكون

(١) المصادر السابقة البلاذري ١٦٠
(٢) الطبري ٣٩٧/٣ س ش س عن أبي عثمان يزيد بن أسيد الغساني ، عن عبادة وخالد .
(٣) ابن عساكر ٥٣٧/١ بإسناده السابق ، الازدي ٢٢٠ بإسناده السابق ،

من أمر المعركة المرتقبة ، فرجع إليهن أبو سفيان وأمر بالحجارة فألقيت بين أيديهن ثم قال لهن : لا يرجع إليكن أحد من المسلمين إلا رميتموه بهذه الحجارة وقلتن : من يرجوكم بعد الفرار عن الاسلام وأهله وعن النساء بأرض العدو ؟ فالله الله . ثم رجع إلى موقفه من صفوف المسلمين ونادى : يا معشر أهل الإسلام حضر ما ترون ، فهذا رسول الله والجنة أمامكم والشيطان والنار خلفكم . ثم وقف موقفه .

زحف الروم

وزحفت صفوف الروم من مكانها إلى المسلمين [١] يدفّون دفيفاً [وفي قول، يزفون زفا] قد رفعوا الصلبان وأقبل معهم الأساقفة والقسيسون والرهبان والبطارقة بما يعني أن الروم قد عبأوا للمعركة تعبئة دينية صوروا فيها الأمر أنه حرب ضد المسيحية ، وكان للروم وهم يتقدمون دوي كدوي الرعد وقد تبايع عظماؤهم على الموت ، ودخل منهم ثلاثون ألفا كل عشرة في سلسلة حتى لا يفروا .

خطة خالد

ونظر خالد إلى صفوف الروم وهي تقترب فأقبل يركض حتى اجتاز صفوف المسلمين إلى النساء وهن على التل المرتفع الذي وضعهن عليه أبو سفيان فقال لهن : يا نساء المسلمين ايما رجل أقبل إليكن منهزما فاقتلنه .

ثم انصرف إلى عمله ، وأخذ النساء الخناجر فهبطن نحو المسلمين يقلن لهن : لستم ببعولتنا إن لم تمنعونا اليوم .

وجاء خالد إلى أبي عبيدة فقال له : إن هؤلاء قد أقبلوا بعدد وجدٍ وحَدٍّ وزجل [الزجل هو التطريب ورفع الصوت] ، وإن لهم لَشَدَّة لا يردها شيء ، وليست خيلي بالكثيرة ، ولا والله لا قامت خيلي لشدة خيلهم ورجالهم أبدا .

تلك كانت نظرة خالد للموقف ، ومن صفات القائد الناجح أن يرى الأمور

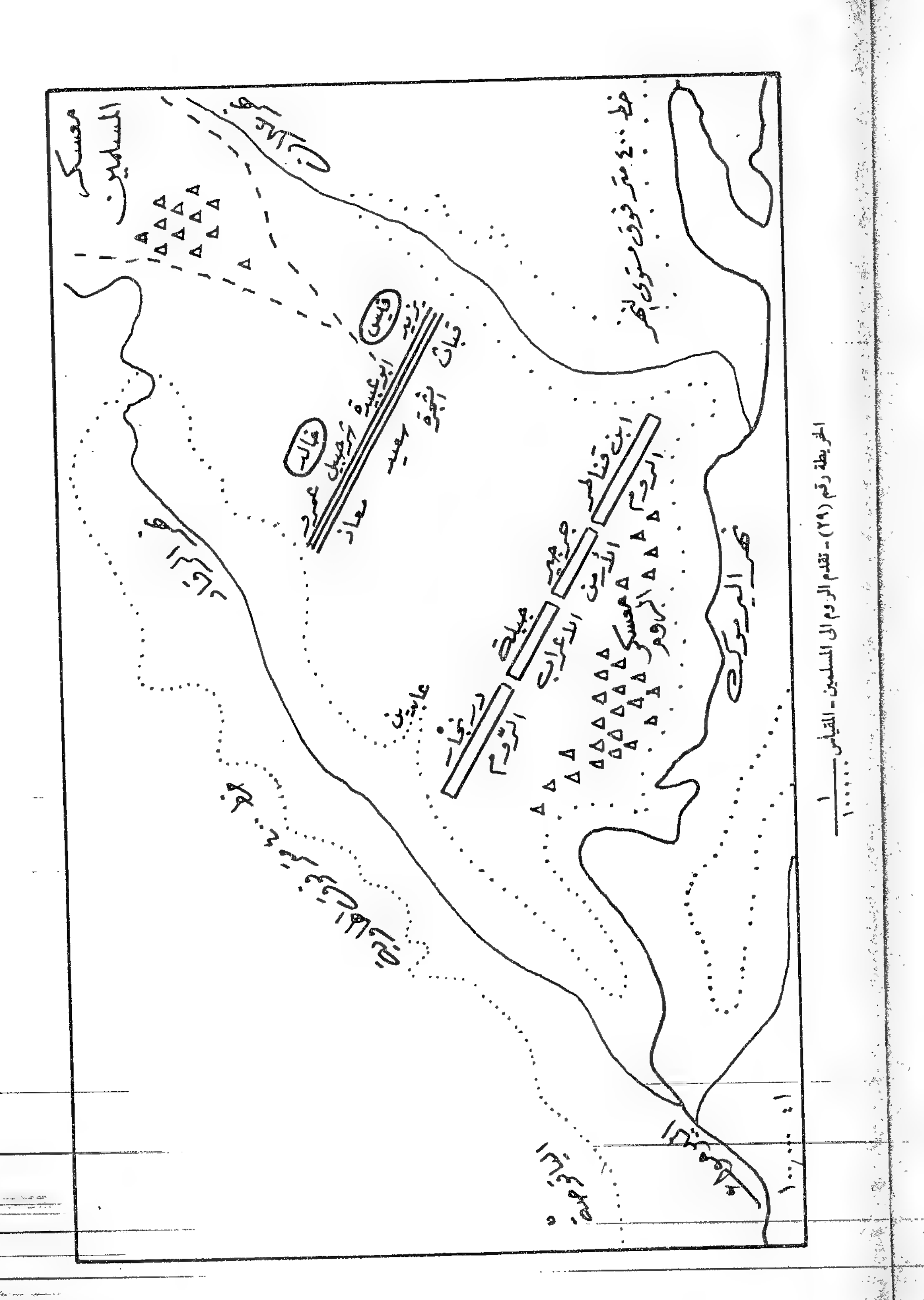
(١) نفس المصدر .

على حقيقتها وقد كانت خيله أمام صفوف المسلمين والمسلمون ثلاثة صفوف وقد كان خالد يتميز بخصوبة الذهن وحضور البديهة والقدرة السريعة على التصرف السليم في الوقت المناسب فقال: قد رأيت أن أفرق خيلي ، فأكون في إحدى الخيلين وقيس بن هبيرة في الخيل الأخرى ، ثم تقف خيلنا من وراء الميمنة والميسرة ، فإذا حملوا على الناس فإن ثبت المسلمون فالله ثبتهم وثبت أقدامهم ، وإن كانت الأخرى حملنا عليهم بخيولنا وهي جامَّة على ميمنتهم وميسرتهم وقد انتهت شدة خيلهم وقوتها وتفرقت جماعتهم ونقضوا صفوفهم وصاروا نشرا ، ثم نحمل عليهم وهم على تلك الحال ، فأرجو عندها أن يظفرنا الله بهم ويجعل دائرة السوء عليهم . وقد رأيت لك أن توقف سعيد بن زيد موقفك هذا وتقف أنت من ورائه بحذائه في جماعة حسنة في مائتين أو ثلاثمائة فتكونوا ردءاً للمسلمين .

وقبل منه أبو عبيدة وقال له : افعل ما أراك الله وأنا فاعل ما أردت . وأمر أبو عبيدة سعيد بن زيد فوقف مكانه وركب أبو عبيدة فرسه وأقبل يسير في الناس يحرضهم ويوصيهم بتقوى الله ـ حيث الفرار عند الزحف من كبائر الذنوب ـ ويوصيهم بالصبر ، ثم انصرف فوقف بمن معه من وراء صفوف المسلمين ردءا لهم .

وضع خالد خطته أن يثبت المسلمون أمام هجمة الروم حتى تتضعضع هذه الهجمة وتتصدع صفوف الروم ، وكان في حسبانه أيضا أن المسلمين ربما عجزوا عن الثبات المطلوب ، ولكن سوف يختل النظام في صفوف الروم على أي حال ، وهنا يكون الوقت المناسب لهجومه المضاد بفرسانه المستجمة والتي لم تتعرض لهذه الهجمة ، على صفوف أصابها الاضطراب والخلل ، وهنا يكون هجومه هجوما على الأجناب .

إن الذي يحلل أسلوب خالد في معاركه الحاسمة يجده دائما ينتظر هذه اللحظة ، لحظة حدوث الخلل في صفوف عدوه المتفوق ، الخلل من أثر الهجوم فينتهز الفرصة لالتقاط الموقف، ولنراجع ما كان من أمره يوم أحد ويوم عقرباء ضد مسيلمة الكذاب . وهو هنا يصنع للروم بهذا التصرف البسيط ، هذا الموقف الذي يريد به أن



الخريطة رقم (٢٩) - تقدم الروم الى المسلمين - القياس

يتسلم موازين المعركة فيصرفها كيف شاء . له الله خالد بن الوليد رضي الله عنه ، فِكْر في الحرب ونظر عميق وأعصاب هادئة وثقة في النفس وفيمن يقود .

وهو كذلك جاءه رجل ـ لعله كان مضطربا ـ يقول : ما أكثر الروم وأقل المسلمين[١] .

فقال خالد : ما أقل الروم وأكثر المسلمين ! إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال . أبالروم تخوفني ! والله لوددت أن الأشقر [فرسه] بَرَاء من توجيه [التوجي أن يشتكي الفرس من باطن حافره] وأنهم ـ يعني الروم ـ أضعفوا في العدد ـ وكان فرسه الأشقر قد حفى في مسيره . هذا مقياس خالد بن الوليد في نظره للأمر خلافاً لنظرة محدثه .

هجوم على ميمنة المسلمين

كانت صفوف الروم ما زالت تتقدم وأقبلت كقطع الليل ووضح أن أقرب قطعاتهم توشك أن تنقض على ميمنة المسلمين[٢] حتى إذا حاذوا الميمنة صاح معاذ بن جبل « يا عباد الله المسلمين ، إن هؤلاء قد تيسروا للشّدة عليكم ، ولا والله لا يردهم إلا صدق اللقاء والصبر في البأساء » . ثم نزل عن فرسه وقال « من أراد أنه يأخذ فرسي ويقاتل عليه فليأخذه » وآثر بذلك أن يقاتل راجلاً مع المشاة ، فوثب إليه ابنه عبد الرحمن بن معاذ بن جبل وهو غلام قد احتلم فقال « يا أبت إني لأرجو أن أكون أنا فارسا أعظم غناء عن المسلمين مني راجلا ، وأنت يا أبت راجل أعظم غناء منك فارسا وُعظم المسلمين رَجَّالة وإذا رأوك صابرا محافظا صبروا إن شاء الله وحافظوا » . فقال معاذ « وفقني الله وإياك يا بُنَيَّ » .

---

(١) الطبري ٣٩٧/٣ س ش س عن أبي عثمان يزيد بن أسيد الغساني ، عن عبادة وخالد .
ابن عساكر ٥٥٠/١ أخبرنا ابو القاسم انا ابو الحسين ، نا ابوطاهر ، انا ابو بكر بن سيف .
انا ابو عبيدة السري بن يحيى س ش س عن عمرو بن ميمون عن أبيه .

(٢) الازدي ٢٢٢ بإسناده السابق .
ابن عساكر ٥٣٨/١ بإسناده الأسبق .

قمم من الصحابة رضوان الله عليهم ومعنويات تطاول نجوم السماء علوا ! كان أبو عبيدة يوصي المسلمين إذ جاءه رجل لم يذكر الرواة اسمه وكأنما يقصدون ذلك ويتعمدونه عملا بنظرية الجندي المجهول فجهَّلوه على التاريخ فقال لأبي عبيدة « إني قد أردت أن أقضي شأني [يعني الشهادة] فهل لك إلى رسول الله ﷺ حاجة؟» فقال أبو عبيدة «نعم، تقرئه مني السلام وتخبره أنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا » . ثم تقدم الرجل . فكان أول من إستشهد رحمة الله عليه .

واقتربت صفوف الروم حتى سمع المسلمون أساقفتهم ورهبانهم يخطبون فيهم ويحرضونهم ، فكان معاذ يقول « اللهم زلزل أقدامهم وأرعب قلوبهم وأنزل السكينة علينا وألْزِمْنا كلمة التقوى وحبب إلينا اللقاء ورضّنا بالقضاء » .

وجال باهان في جيشه ثم وقف بين جنوده وأمرهم بالصبر والقتال دون ذراريهم وأموالهم وسلطانهم ، ثم بعث إلى الدرنيجار قائد ميسرته أن يحمل على ميمنة المسلمين . كان الدرنيجار متنسكا ، ونقل الأمر إلى من يليه فقال للبطارقة ورؤوس الروم الذين معه « قد أمركم أميركم أن تحملوا » . وتهيأ البطارقة ثم شدوا على ميمنة المسلمين عليها معاذ بن جبل وفيها الأزد ومذحج وحضرموت وحِمْيَرَ وخولان وثبت المسلمون في مواقفهم ثباتا صادقاً وقاتلوهم قتالا شديداً وطويلاً حتى تكاثر الروم عليهم وركبهم من الروم أمثال الجبال ، فزال المسلمون عن مواقفهم من الميمنة إلى ناحية القلب وانكشف طائفة منهم في اتجاه المعسكر خلف الصفوف وثبت صدر عظيم من المسلمين يقاتلون تحت راياتهم لا يتزحزحون ، وقد انكشفت[1] زبيد يومئذ وهي في أقصى الميمنة وفيهم ابو عمرو الحجاج بن عبد يغوث بن الحجاج ثم تنادوا ونادى الحجاج يا خيفان[2] يا خَيْفان » فرجعوا جميعا فاجتمعوا وهم ٥٠٠ رجل فشدوا شدة شديدة نهنهوا من تجاههم من الروم وشغلوهم عن تعقب من انكشف

(١) في رواية الازدي أن زبيد لم تنكشف وأنما ثبتت في وجه الهجمة .
(٢) الخيفان الكثرة من الناس .

الخريطة رقم (٣٠) - هجوم الروم على المسلمين - المقياس ١ / ٥٠,٠٠٠

من الميمنة ، ورجعت جماعات أخرى من الميمنة التي زالت عن مواقفها فشدَّت حمير وحضرموت وخولان بعد أن كانوا قد تزعزعوا حتى استردوا مواقفهم من الصف .

أما أولئك الذين انكشفوا نحو المعسكر فقد استقبلتهم نساء المسلمين اللائي أقعدهن أبو سفيان في الخلف معهن عُمُد الخيام يضربن بها وجوههم ويرمينهم بالحجارة . قال العباس بن سهل بن سعد الساعدي وكانت زوجته خولة بنت ثعلبة الانصارية في هؤلاء النساء ، فمر بها عمرو بن بحر وهي تقول :

يا هاربا عن نُسوة تَقيَّات رُميتَ بالسهم وبالمَنِيَّاتِ
فعن قليل ما ترى سبيّات غير حظِيَّات وَلاَ رَضِيّات

فتراد الناس وثبتت النساء على مواقفهن .

واشتد القتال في الأزد فأصيب منهم ما لم يقتل من غيرهم من القبائل وقتل يومئذ عمرو بن الطفيل الدوسي وحقق بذلك رؤيا كان أبوه قد رآها يوم لقاء مسيلمة الكذاب وأولها حينذاك أنه يستشهد ثم يلحقه ابنه فيما بعد وقد استشهد الطفيل يوم مسيلمة واستشهد ابنه عمرو يوم اليرموك وهو ثابت ويقول « يا معشر الأزد لا يؤتين المسلمون من قبلكم » وأخذ يضرب بسيفه قُدُماً وهو يقول(١) :

قد علمت دوْس ويشكر تعلم أني أخو البيض ليوم مظلم
وأعزل الشكيم شد الأيهم كنت عزيزا في الوغا ضيغم

وقد قتل من أشدائهم تسعة قبل أن يُقتل .

وثبت جندب بن عمرو بن حُمَمَة ورفع رايته وهو يقول«يا معشر الأزد،إنه لا يبقى منكم ولا ينجو من القتل والعدو والإثم والعار إلا من قاتل . ألا وإن المقتول

(١) أوردها الازدي ٢٢٤

قد علمت أوس ويشكر تعلم أني إذا الأبيض يوما مُظلم
وعرَّد النَّكْسُ وفر الأيهم أني غُفَر في الوِقاع ضيغم

شهيد والخائب من تولى . يا معشر الأزد إنه لا يمنع الراية إلا الأبطال ،

يا معشر الأزد احتذاذ الأفيال هيهات هيهات ووقوف للحال
لا يمنع الراية إلا الأبطال

وقاتل قتالا شديدا حتى قتل يرحمه الله

وكان أبو هريرة صاحب رسول الله ﷺ من رؤوس الأزد فصاح يقول « يا مبرور يا مبرور » فأطافت به الأزد ، يقول عبد الأعلى بن سراقة(١) : انتهيت إلى أبي هريرة يومئذ وهو يقول : « تزينوا للحور العين وارغبوا في جوار ربكم عز وجل في جنات النعيم ، فما أنتم إلى ربكم في موطن من مواطن الخير أحب إليه منكم في هذا الموطن ، ألا وان للصابرين فضلهم » .

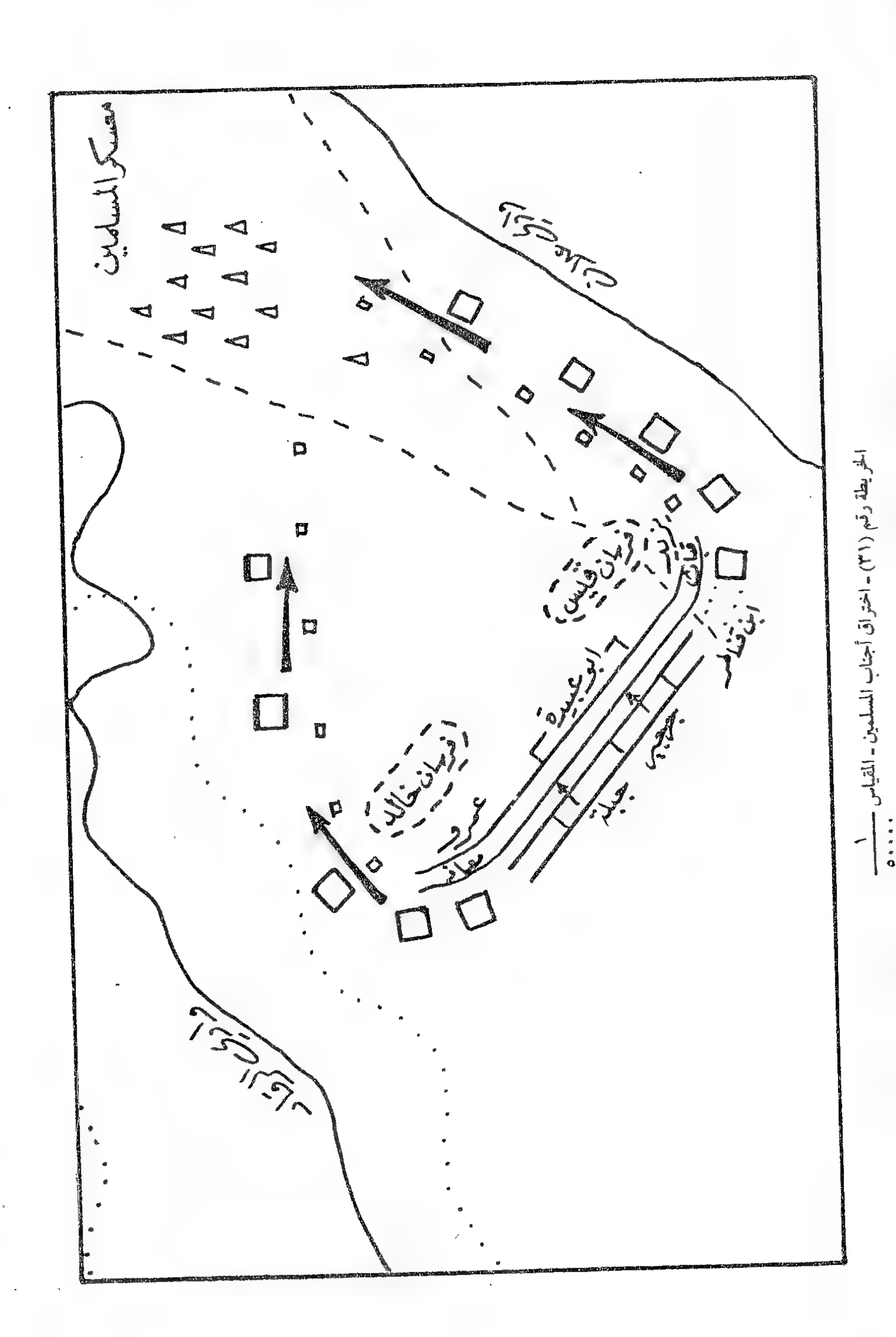
ثم اضطربوا الأزد والروم ، فوالذي لا إله إلا هو لرأينا الروم وإنها لتدور بهم الأرض وهم في مجال واحد كما تدور الرحا ـ يعني يدورون حول أنفسهم ـ فما برحوا ولا زالوا ـ يعني الأزد ـ وركبهم من الروم أمثال الجبال ـ يعني تكاثروا عليهم ـ فما رأيت موطنا قط أكثر قُحْفاً(٣) ساقطا أو مِعْصَماً نادرا(٤) أو كفًّا طائحة من ذلك الموطن ، والناس يضطربون تحت القسطل [التراب] ، وقد والله أوحلناهم شرا وأوحلونا ، فنحن في ذلك ، وكان جل القتال في الميمنة وإن القلب ليلقون مثل ما نلقى ولكن حَمَّة القوم وحدهم وحردهم [غضبهم] وحنقهم علينا،وكنا في آخر الميمنة فقد لقينا من قتالهم ما لم يلق مثله أحد ، فوالله إنا لكذلك نقاتلهم وقد دخل عسكرنا منهم نحو من عشرين ألفا من ورائنا فعصمنا الله من أن نزول .

وأضطربت ميمنة المسلمين إلى القلب فصارت الميمنة والقلب شيئا واحدا ،

(١) الازدي ٢٢٥ حدثني مخنف بن عبد الله بن يزيد بن المغفل عن عبد الأعلى بن سراقة .
ابن عساكر ٥٤٠/١ بذات إسناده الأسبق .

(٢) القِحفة العظم الذي فوق الدماغ ، والقحفة ما انفصل من الجمجمة من عظم .

(٣) نادرا زائلا عن موضعه .



الخريطة رقم (٣١) - اختراق أجناب المسلمين - القياس ١ : ٥٠٠٠٠

فحمل خالد بن الوليد عليهم [على الروم] فقصف بعضهم على بعض ، وشدخ [قتل] منهم في المعسكر نحوا من عشرة آلاف ، ودخل سائرهم بيوت المسلمين في المعسكر مجرحين وغير مجرحين ، وخرج خالد بن الوليد في خيله يطرد الروم الذين دخلوا المعسكر . يقول عبد الأعلى بن سراقة : حتى إذا حاذى بنا ألَّف خالد خيله بعضها إلى بعض ثم قال«يا أهل الإسلام، لم يبق عند القوم من الجلد والقتال والقوة إلا ما قد رأيتم ، فالشدَّة الشدة فوالذي نفسي بيده ليعطينكم الله الظفر عليهم الساعة ، إني لأرجوا أن يمنحكم الله أكتافهم » . فجعل لا يسمع هذا القول من خالد أحد من المسلمين إلا شجعه عليهم .

وهجوم على الميسرة

وقبل أن نمضي مع ما يجري في ميمنة المسلمين ـ وحتى نساير ما يجري على طول الجبهة في توقيت واحد ـ نمد بصرنا على سائر القطاعات ، فنجد هناك عند ميسرة المسلمين وميمنة الروم ، قال ابن قناطر Boccinator وهو على ميمنتهم لجرجير قائد الأرمن « احمل عليهم » .

فأجابه جرجير : أنت تأمرني أن أحمل عليهم وأنا أمير مثلك !؟

فقال ابن قناطر : أنت أمير وأنا أمير فوقك ، وقد أُمِرتَ بطاعتي.

فاختلفا . ثم حمل ابن قناطر على ميسرة المسلمين حملة شديدة وفيها كنانة وقيس ولخم وجذام وخثعم وغسان وقضاعة وعاملة يشغلون ميسرة المسلمين إلى القلب ، فانكشف المسلمون وزالت الميسرة عن مصافها ، وثبت أهل الرايات والمحافظون على مواقفهم فقاتلوا قتالا شديدا في بسالة ، وركبت الروم أكتاف من انهزم من المسلمين وتعقبوهم حتى دخلوا معهم المعسكر ، فاستقبلهم نساء المسلمين يضربن وجوه المنهزمين من المسلمين ووجوه الروم بعواميد الفساطيط ويرمينهم بالحجارة ويقلن : أين أين عز الإسلام والأمهات والأزواج ؟ فعاد من كان انهزم من المسلمين إلى صفوفهم وتنادوا بالحفائظ ونواصوا بالصبر.

قال حنظلة[١] بن جُوَيّة : والله إني لفي الميسرة إذ مر بنا رجال من الروم على خيل العرب لا يشبهون الروم وهم أشبه شيء بنا[لعلهم كانوا من الأعراب الموالين للروم تحت قيادة جبلة بن الأيهم] فما انسى قول قائل منهم يا معشر العرب الحقوا بوادي القرى ويثرب .

في كل حين فئة تغير ... نحن لنا البلقاء والسدير
هيهات يأبى ذلك الأمير ... والملك المتوَّج المخبور

وأحمل عليه وحمل عليّ واضطربنا بسيفينا فلم يغنيا شيئا . ثم اعتنقته فخررنا جميعا، فاعتركنا ساعة، ثم تحاجزنا ساعة. فنظرت إلى عنقه وقد بدا منه مثل شراك النعل [يعني من بين دروعه] فمشيت إليه واجتهدت ذلك الموضع بسيفي فوالله ما أخطأته فقطعته وصرِع ، فضربته حتى قتلته وأقبلت إلى فرسي وقد كان عار[يعني عرى من سرجه] وإذا قومي قد حبسوه عليّ فأقبلت حتى ركبته .

وقاتل قباث بن أشيم يومئذ قتالا شديداً وأخذ يقول :

إن تفقدوني تفقدوا خير فارس ... لدى الغمرات والرئيس المحاميا
وذا فخر لا يملأ الهول قلبَه ... ضروبا بنصل السيف أروع ماضيا

وكسر في الروم ثلاث رماح وقطع سيفين ، وكان كلما كسر رمحا أو سيفا يقول « من يعير سيفا أو رمحا في سبيل الله رجلا قد حبس نفسه مع أولياء الله وقد عاهد الله لا يفر ولا يبرح ، يقاتل المشركين حتى يظهر المسلمون أو يموت » . فكان من أحسن الناس بلاء في ذلك اليوم .

ونزل أبو الأعور السلمي فقال : يا معشر قيس خذوا نصيبكم من الأجر والصبر فإن الصبر في الدنيا عز ومكرمة وفي الآخرة رحمة وفضيلة ، فاصبروا وصابروا .

(١) الأزدي ٢٢٧ حدثني أبي عن كبكبة بن حنظلة بن جوية عن أبيه حنظلة بن جوية .

قال حبيب بن[١] سلمة [لعله بن مسلمة] : وكان يزيد بن أبي سفيان من أعظم الناس غناء وأحسنهم بلاء هو وأبوه جميعا ، وقد كان أبوه مر به وهو يحرض الناس ويعظهم فقال «يا بني إنك تلي من أمر المسلمين طرفا ـ ويزيد حينئذ على ربع الناس ـ وأنه ليس بهذا الوادي رجل من المسلمين إلا وهو محقوق بالقتال ، فكيف بأشباهك الذين وُلُّوا أمور المسلمين ؟ أولئك أحق الناس بالجهاد والنصيحة والصبر والتضحية فاتق الله يا بني وأكرمه في أمرك ، ولا يكونن أحد من أصحابك أرغب في الآخرة ولا أصبر في الحرب ولا أشد نكاية في المشركين ولا أجهد على عدو الإسلام ولا أحسن بلاء عندهم منك .

فقال : أفعل والله يا أبت .

فقاتل يزيد في الجانب الذي كان فيه قتالا شديدا وكان [في الميسرة] مما يلي القلب .

وهجم طرف من الروم على عمرو بن العاص [بالميمنة] فانكشف عنه أصحابه وثبت عمرو فجالدهم طويلا وقاتلهم قتالا شديدا وتراجع أصحابه حتى دخلوا أول المعسكر وهم في ذلك يقاتلون ويشدون ولم ينهزموا هزيمة ولوا فيها الظهر ، ثم إنهم تراجعوا إليه وسُمِعت أم حبيبة ابنة العاص ـ اخت عمرو ـ حينئذ تقول : قبّح الله رجلا يفر عن حليلته وقبّح الله رجلاً يفر عن كريمته . وصاحت نسوة من المسلمين يقلن :قاتلوا أيها المسلمون فلستم ببعولتنا إن لم تمنعونا . وصارت هند بنت عتبة زوج أبي[٢] سفيان تقول: عضّدوا الغلفان بسيوفكم .

صمود في القلب

قال حبيب بن مسلمة : وقاتل شرحبيل بن حسنة في ربعه الذي كان فيه

(١) الأزدي ٢٢٨ حدثني الحكم بن جراس بن الحكم بن المغفل عن عمرو بن محض عن حبيب بن سلمة .
ابن عساكر ٥٤٢ بالإسناد السابق .
(٢) البلاذري ١٦٠ .

قتالا شديدا، وكان وسطاً من الناس إلى جانب سعيد بن زيد ، فكان ينادي ويقول : إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقا.. إلى آخر الآية . ثم يقول : أين الشارون أنفسهم ابتغاء مرضاته ؟ أين المشتاقون إلى جوار الله في داره ؟ .

فاجتمع إليه ناس كثير وبقي القلب لم ينكشف فيه أهله الذين كانوا فيه مع سعيد بن زيد . وكان أبو عبيدة من وراء ظهورهم ردءا لهم ويشد أزرهم . وكان أبو سفيان وأشياخ المسلمين لا يجولون ولا يقاتلون وإنما يفيء المسلمون إليهم [1] ، فإذا دارت على الروم وقفوا يدعون ويقولون : هلك بنو الأصفر ، فإذا كانت على المسلمين قالوا : أين أين ؟ اللهم اردد لهم الكرة ، فإذا حملوا قالوا : اللهم أعنهم وانصرهم .

إلى هنا وقد حدث اختراق لصفوف المسلمين من كلا الجناحين ، في الميمنة وفي الميسرة ، وقد تدفقت قوات الروم نحو معسكر المسلمين بالخلف ، ولكن كان ما زال خلال هذين الاختراقين جزر وصفوف تقاوم للمسلمين ويعود إليها من جديد من كانت جحافل الروم قد اجتاحته . كما كانت هناك مقاومة خلف الصفوف لقوات الروم التي استطاعت النفاذ إلى الخلف . قال عكرمة بن أبي جهل : قاتلت رسول الله ﷺ في كل موطن وأفر منكم اليوم؟! من يبايع على الموت ؟ فبايعه أربعمائة من[2] وجوه المسلمين وفرسانهم فيهم الحارث بن هشام وضرار بن الأزور فاستبسلوا أمام فسطاط خالد بن الوليد حتى أصيبوا جميعا بجراح خطيرة فمنهم من قضى نحبه ومنهم من برىء مثل ضرار بن الأزور . وقاتل النساء في جولة فخرجت جويرية[3] ابنة أبي سفيان وكانت مع زوجها وأصيبت بعد قتال شديد . وجاء سهم فاستقر في عين أبي سفيان ففقأها وأخرجه منها أبو حثمة . يقول الرواة: ثم إن الناس حيزوا

(١) ابن عساكر ١/٥٥٠ أخبرنا أبو القاسم ، أنا أبو الحسين ، أنا أبو طاهر ، أنا أبو بكر بن سيف ، نا س ش س عن أبي عثمان وأبي حارثة عن خالد وعبادة .

(٢) الطبري ٣/٤٠١ س ش س عن أبي عثمان الغساني .

(٣) الطبري ٣/٤٠١ س ش س عن أبي عميس عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة .

إلى القلب . قال حبيب[1] بن سلمة اضطرنا يوم اليرموك إلى سعيد بن زيد فلله در سعيد ، ما سعيد يومئذ إلا مثل الأسد . لما نظر إلى الروم وخافها اقتحم إلى الأرض وجثا على ركبتيه حتى إذا دنوا منه وثب في وجوههم مثل الليث فطعن برايته أول رجل من القوم فقتله وأخذ والله يقاتل راجلا قتال الرجل الشجاع البأس فارسا ويعطف الناس إليه .

الهجوم المضاد

ذكرنا أن خالد بن الوليد ضم خيله بعضها إلى بعض وصاح قائلا « يا أهل الإسلام ، لم يبق عند القوم من الجلد والقتال والقوة إلا ما قد رأيتم ، فالشَّدَّة الشَّدَّة ، فوالذي نفسي بيده ليعطينكم الله الظفر عليهم الساعة ، إني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم » .

كان خالد في نصف فرسان المسلمين خلف جناحهم الأيمن في حين كان قيس بن هبيرة المرادي في نصفهم الآخر خلف جناح المسلمين الأيسر ، هذا وقد بلغت هجمة الروم ذروتها وتدفقوا من وراء الجناحين نحو معسكر المسلمين وفيه نساؤهم . إلى هنا وخالد وقيس وفرسان المسلمين لم يقاتلوا ، كانوا يرقبون ما يجري وينتظرون اللحظة الحاسمة التي تتضعضع فيها صفوف الروم كما تتكسر الموجة على رمال الشاطىء وصخوره . حينئذ زحف خالد في فرسانه إلى الروم حتى تصافحوا بالسيوف وكان جرجة يصاحبه ويضرب معه من ارتفاع النهار إلى جنوح الشمس للغروب ، واعترض خالد الروم وإلى جنبه منهم أكثر من مائة ألف [قد يكون في هذا التقدير مبالغة] فحمل عليهم[2] وما هو إلا في نحو من ألف فارس ، فما بلغتهم الحملة حتى فض الله جمعهم ذلك . وفي تقديرنا أن الرواية معقولة فلما بلغ الروم مكان

(١) الازدي ٢٢٨ بإسناده السابق .
ابن عساكر ١/٥٤٢ بإسناده .

(٢) الأزدي ٢٢٦ حدثني مخنف بن عبد الله بن يزيد بن المغفل ، عن عبد الأعلى بن سراقة .
ابن عساكر ١/٥٤١ باسناده السابق .

خالد إلا وقد أنهكهم التعب واختلت صفوفهم وخالد في فرسانه لم يقاتلوا منذ البداية وصفوفه منتظمة ، وهنا تكمن روعة التخطيط وحسن التقدير في اختيار اللحظة التي ينقلب فيها من الدفاع إلى الهجوم . يقول عبد الأعلى بن سراقة « وشددنا على من يلينا من رجالتهم فانكشفوا وأتبعناهم نقتلهم كيف شئنا ما يمتنعون من قبل ميمنتنا بميسرتهم » .

وذهل درنجار وقد رأى مصير هجومه الكاسح كيف صار أمره ، لقد كان هجومه بالمشاة والفرسان ، أما الفرسان فكانت في تقدمها أسرع من المشاة فتوغلت نحو معسكر المسلمين في الخلف ولعله أن يكون قد انقطعت عنه أخبارهم ، أما المشاة فقد اكتسحتهم فرسان خالد وقتلت منهم ٦٠٠٠ في رواية أو ١٠٠٠٠ على قول آخر وارتد من استطاع منهم في حالة من الذعر والفوضى ما يمتنعون من القتل . كيف ذهبت فرسان الروم في الصحراء ولم تعد إلى المعركة ؟ لعلهم كانوا تحت ضغط نفسي بشعورهم أن جيشهم في مواقعه التي كان بها كان جيشا محصورا يعاني من هذا الإحساس ، فما أن انفرج لهم سبيل خلال جيش المسلمين مع استمرار تماسكه وعدم انهياره حتى انهارت عزائمهم هم وآثروا الفرار على العودة إلى الانحصار .

فقال الدرنجار لأصحابه « لفوني بالثياب فليت أني لم أقاتل هؤلاء القوم اليوم » فلفوه بالثياب وهو يقول « لوددت أن الله عافاني من حرب هؤلاء القوم ولم أرهم ولم يروني ، ولم أنصر عليهم ولم ينصروا عليّ وهذا يوم سوء » كان موقفا استسلاميا نتيجة لشدة الصدمة التي مني بها ، وبقي ملفوفا في ثيابه وهو يردد ما يقول فما شعر حتى انتهى إليه خالد وغشيه المسلمون فقتلوه ! قال خالد « إني كنت لأحب[1] أن أراه » . ولعله كان يريد استحياءه ، فقد كان كارها لقتال المسلمين .

كذلك فعل قيس بن هبيرة بخيله في الميسرة[1] ، اعترض الروم وقصف

(١) الأزدي ٢٣٠ حدثني الحكم بن جراس بن الحكم بن المغفل عن عمرو بن محصن ، عن حبيب بن سلمة .

ابن عساكر ٥٤٣/١ بإسناده السابق .

بعضهم على بعض وتعقبهم المسلمون يقاتلونهم فكان الحال في الميسرة كما كان في الميمنة في تناسق مطرد وانقلاب في ذات الوقت من الدفاع إلى الهجوم والحصول على نتائج مماثلة .

صلى المسلمون ذلك اليوم الظهر والعصر إيماء أثناء القتال ، ومع تضعضع الروم نهد خالد بالقلب حتى حال بين خيلهم الذين نفذوا إلى الخلف وبين مشاتهم[1] ، وكان الميدان كما ذكرنا من قبل ضيق المهرب ، فلما وجدت خيلهم مذهبا ذهبت وتركت مشاتهم في مصافهم وخرجت خيلهم تشتد بهم في الصحراء . ولما رأى المسلمون خيل الروم توجهت للهرب أفرجوا لها ودعوها تهرب ولم يحرّجوها فذهبت في حالة من الفوضى وتفرقت في البلاد. وأخّر المسلمون صلاة المغرب إلى ما بعد الفتح . وأمر خالد ، عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو ـ وكانا على مجنبتي القلب فبدءا الهجوم المضاد الشامل وارتجز القعقاع يقول :

يا ليتني ألقاك في الطِّراد ... قبل اعترام الجَحْفَلِ الوَرَّاد
وأنت في حَلْبتك الوراد

وقال عكرمة :

قد عَلِمَتْ بَهْكَنَةُ[2] الجواري ... أني من مَكْرُمَةٍ أحامي

انهيار الروم

هجم خالد وهاجم قيس بن هبيرة ، وزحف المسلمون إلى الروم ، رويدا رويدا ، حتى إذا دنوا منهم إذا هم ينتفضون من الرعب ، فإن الجندي في الميدان

(١) الطبري ٤٠٠/٣ س ش س عن أبي عثمان يزيد بن أسيد الغساني ، عن عبادة وخالد .

ابن عساكر ٥٤٧/١ أخبرنا ابو القاسم بن السمرقندي ، انا ابو الحسين بن النقور ، انا ابو طاهر المخلص ، انا ابو بكر بن سيف ، نا س ش س .

(٢) البهكنة الجارية خفيفة الروح طيبة الرائحة ، المليحة الحلوة .

يصاب بالذعر إذا وقع عليه هجوم من الجنب أو من الخلف ، ولذلك فإن الأجناب والمؤخرة هما أفضل الاتجاهات لتوجيه الهجوم . وبعث أبو عبيدة عند ذلك إلى سعيد بن زيد ليشد عليهم ، وشد المسلمون بأجمعهم شدة واحدة وكبّروا ثم صكوهم صكة[١] واحدة طعنا بالرماح وضربا بالسيوف حتى ولّوا ظهورهم وأكتافهم . قال سعيد بن المسيب عن أبيه . لما جلنا هذه الجولة سمعنا صوتا قد كاد يملأ العسكر يقول « يا نصر الله اقترب، الثبات الثبات يا معشر المسلمين » فتعطفنا عليه فإذا هو أبو سفيان بن حرب تحت راية ابنه . كان الروم مشاة أخرجت فرسانها من المعركة وأقبل خالد والمسلمون عليهم ففضوهم فكأنما هدم بهم[٢] حائط ، وتراجعوا فاقتحموا في خندقهم فاقتحمه عليهم ودفعهم إلى الواقوصة ـ وهو نهر الرقاد جهة التقائه باليرموك ـ قالوا : والواقوصة أحد حدوده والواقوصة لِهْبٌ لاَجٌّ في الأرض[٣] . حتى هوى فيها المقترنون بالسلاسل وغيرهم ، فمن صبر من المقترنين للقتال هوى به من خشعت نفسه وطارت من الخوف فيهوي الواحد بالعشرة لا يطيقونه ، وكيف يطيقونه بعد جهد يوم كامل في القتال وبعد تقدم وتقهقر كيلومترات عدة وبعد هزيمة ساحقة ذهبت بروحهم المعنوية ومع القيد في السلاسل والانحصار في مزنق ليس له مخرج ، وكلما هوى اثنان كانت البقية أضعف ، فتهافت في الواقوصة ١٢٠٠٠٠ منهم ٨٠٠٠٠ مقترن بالسلاسل و ٤٠٠٠٠ مطلق ، سوى من قتل بالمعركة من الخيل والرجال .

كان ميدان القتال هضبة مستوية يحيط بها اللِّهْب [الهاوية] من جهات ثلاث هي وادي الرقاد ووادي اليرموك ووادي علان ، والمخرج الوحيد هو الذي سده المسلمون على الروم ، الخرائط التي نقدمها هنا توضح طبيعة أرض المعركة ، وهي

(١) ابن عساكر ٥٤٣/١ بإسناده السابق .

(٢) الطبري ٤٠٠/٣ س ش س عن أبي عثمان يزيد بن أسيد الغساني ، عن عبادة وخالد .

(٣) ابن عساكر ٥٤٦/١ أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، أنا ابو الحسين بن النقور ، أنا أبو طاهر المخلص ، نا أبو بكر بن سيف ، نا س ش س ، عن أبي عثمان يزيد بن أسيد الغساني عن خالد وعبادة .

الخريطة رقم (٣٢) - الهجوم المضاد للمسلمين

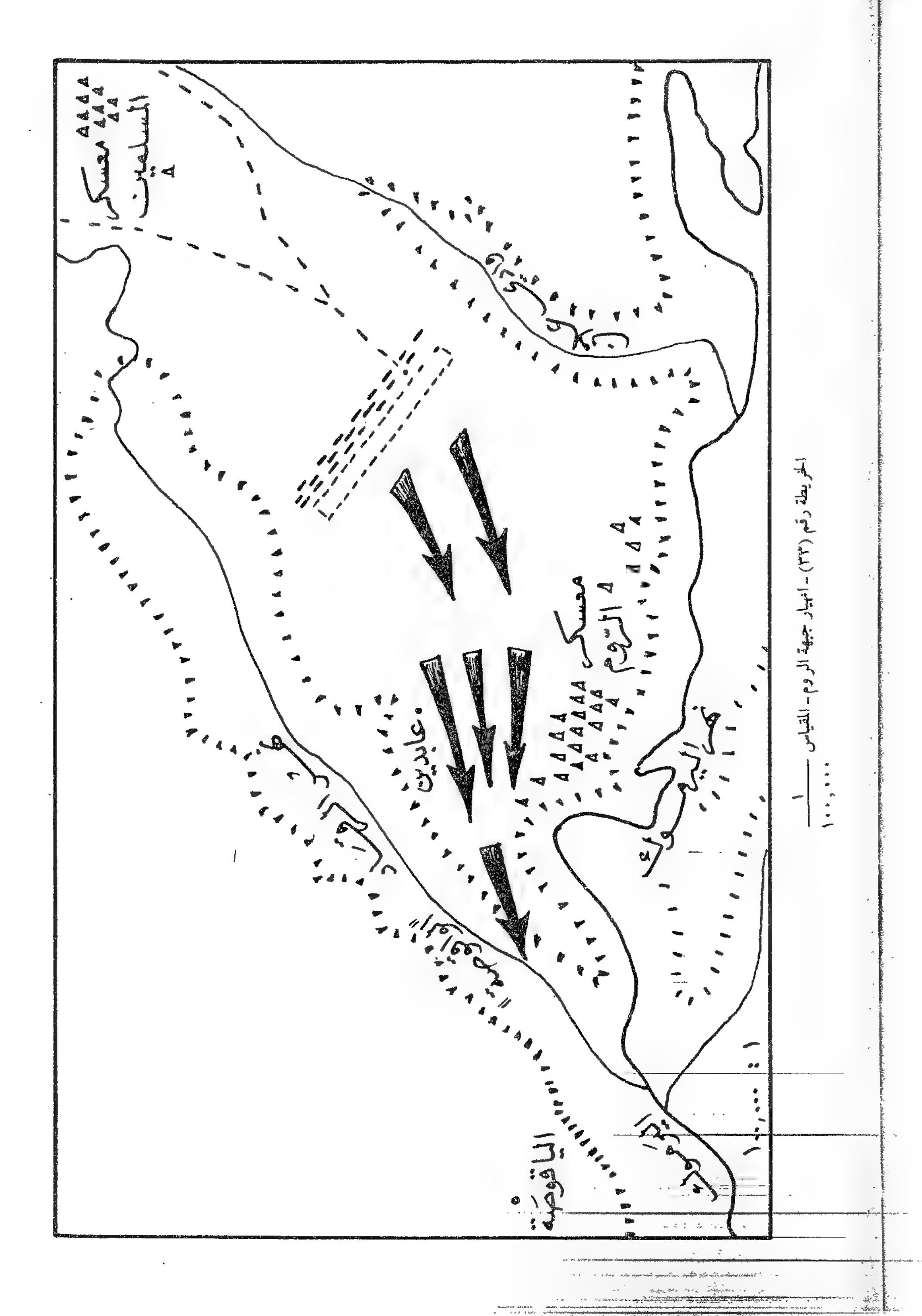
تتطابق تماما مع أمر هرقل الذي نفذه باهان « انزلوا بالروم منزلا واسع العطن واسع المطَّرَد ضَيِّق المهرب » وهو الذي إذ رآه عمرو بن العاص قال « أبشروا ، حُصِرَت والله الروم وقلما جاء محصور بخير » . وإذ انتهت هجمة الروم إلى لا شيء ولم تحدث أثرها الذي كانوا يرجون في اكتساح المسلمين وبدءوا يتراجعون بعد أن فقدوا فرسانهم ، فأي أَمل بقي ؟ وما الذي كان يمكن عمله لتدارك الموقف ؟ لقد كان تراجعهم بغير نظام ولا تماسك وما أبلغ تعبير الرواة « وأقبل خالد والمسلمون عليهم ففضوهم فكأنما هُدِمَ بهِم حائط!!»

انهار الروم تماما واتبعهم المسلمون يقتلونهم كل قتلة ، وتزاحموا فركب[1] بعضهم بعضا حتى انتهوا إلى مكان مشرف على هاوية تحتهم فأخذوا يتساقطون فيها ولا يبصرون وهو يوم ذو ضباب وقال بعض الرواة كان ذلك في الليل وهو الذي نرجحه ، فكان آخرهم لا يعلم ما يلقي أولهم وكان الساقطون فيها عشرات الألوف اختلف الرواة في عددهم . رواية سيف أنهم كانوا ١٢٠ ٠٠٠ ورواية الأزدي أنهم كانوا ١٠٠ ٠٠٠ وذكر ابن عساكر أنهم كانوا ٨٠ ٠٠٠ . وقالوا أن أبا عبيدة بعث شداد بن أوس بن ثابت ابن أخي حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ فعدهم من الغد بعد الوقعة بيوم فوجد من سقط من تلك الأهوية أكثر من ثمانين ألفا فسميت تلك الأهوية الواقوصة حتى اليوم لأنهم وُقِصوا فيها ، وما زالت القرية التي تواجه ذلك الموقع تحمل اسم «الياقوصة». وقتل المسلمون منهم في المعركة بعدما أدبروا نحوا من خمسين ألفا خلاف من سقط في الواقوصة . وتطابق خريطة المكان روايات الرواة فإن دفع جموع الروم إلى تجاه الياقوصة من شأنه أن يزحمهم في ذلك اللسان الممتد بين نهر اليرموك ورافده الرقاد ـ والذي يشبه القمع ـ قبل أن يتساقطوا في الهاوية ومن شأنهم حينذاك أن يتزاحموا حتى يركب بعضهم بعضا كما ذكر الرواة .

وغلبهم الليل فأظلمت الدنيا، فقد كان الهلال في ليلته السادسة . وبات

(١) الأزدي ٢٣٠ بإسناده السابق .

ابن عساكر ٥٤٤/١ بإسناده السابق .



الخريطة رقم (٣٣) - انهيار جبهة الروم - القياس ١ / ١٠٠,٠٠٠

المسلمون فلما أصبحوا نظروا فإذا هم لا يرون في الوادي أحدا من الروم ، فظنوا أن الروم قد أعدوا لهم كمينا ، فبعثوا خيولا في الوادي تنظر هل من كمين أو نزلوا بواطيء من الأرض ، فإذا الرعاة يخبرونهم أنهم قد سقطوا في الواقوصة . فسألوا عن سائرهم فأجاب الرعاة بأنه قد رحل منهم البارحة نحو من أربعين ألفا .

هذا مصير أكبر جيش استطاع هرقل الروم أن يجمعه ، كان عدده ٢٠٠٠٠٠ ، قتل في المعركة ٥٠٠٠٠ وتردى في الهاوية ٨٠٠٠٠ واستطاع الفرار تحت جنح الليل ٤٠٠٠٠ ومعنى هذا أن الفرسان الذين أفسح لهم خالد طريق الهروب أثناء المعركة كانوا نحوا من ٣٠٠٠٠ . وأصبح خالد من تلك الليلة وهو[1] في رواق قائد الروم وأصاب المسلمون ما في معسكر الروم وقد قتل صناديدهم[2] ورؤوسهم وفرسانهم وقتل أخ لهرقل ـ اسمه تيودوروس ـ[3] كيف هرب ٤٠٠٠٠ من الروم ومن أي طريق ؟ نستنتج أنهم لا بد عبروا وادي الرقاد هبوطا من جانب ميدان القتال وتسلقا من الجانب الآخر على غير طريق وهي عملية خطرة وشاقة ، ولكنه الموت الزؤام الذي رأوه بأعينهم ، إنهم في مزنق لا مخرجَ منه ، فهذا أو الموت ، ولعل بعضهم أن يكون فقد حياته في هذه المحاولة المستميتة التي لم يكن منها بد .

المطاردة

فلما أصبحوا يوم الثلاثاء ٦ رجب ١٥ هـ ١٣ أغسطس آب ٦٣٦ م أتى خالد بعكرمة جريحا فوضع رأسه على فخذه[4] ، وبعمرو بن عكرمة فوضع رأسه على ساقه وجعل يمسح عن وجهيهما ويقطر الماء في حلقيهما . ثم خرج خالد في الخيل

(١) الطبري ٤٠١/٣ س ش س عن أبي عثمان ، عن خالد وعبادة . قالا : أصبح خالد في رواق تذارق ، وقد أخذنا بأن قائد الروم كان باهان ولم يكن تذارق .

(٢) الطبري ٤٠٣/٣ س ش س عن مطَّرح ، عن القاسم ، عن أبي أمامة وأبي عثمان ، عن زيد بن سنان ، عن رجال من أهل الشام ومن أشياخهم .

(٣) الطبري ٤٠١/٣ س ش س عن أبي عثمان الغساني عن أبيه .

(٤) تاريخ سورية ١١/٢ ، وفي الطبري تذارق .

يتعقب الفلول الهاربة ويقتلهم في كل واد[1] وكل شِعْب وفي كل جبل وفي كل ناحية في مطاردة عميقة حتى انتهى إلى دمشق، فخرج إليه أهلها فاستقبلوه وقالوا له: نحن على العهد الذي كان بيننا وبينكم . فقال لهم خالد : أنتم على العهد . أرادوا أن يستوثقوا منه فوثق لهم سابق العهد . ثم انطلق خالد في آثار الروم الذين كانوا يجدون في الهرب . ومضى يتعقب أكثرهم حتى أدركهم بثنية العقاب وهي تهبط منحدرة إلى الغرب . منها إلى الغوطة فأدركهم بغوطة دمشق فأقبلوا يرمونهم بالحجارة من فوقهم وتقدم إليهم الأشتر النخعي في رجال من المسلمين فإذا أمامهم رجل من الروم عظيم جسيم ، واتجه إليه الاشتر فوثب عليه واستوى هو والرومي على صخرة مستوية فتبادلا الضرب بالسيف فقطع الاشتر كف الرومي وضرب الرومي الأشتر بسيفه فلم يضره . واعتنق كل واحد منهما صاحبه فوقعا على الصخرة ثم انحدرا والاشتر يردد « قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين » ولم يزل يرددها حتى انتهى إلى مستوى في الجبل ، فلما استقر وثب على الرومي فقتله . وصاح في المسلمين أن يجتازوا . فلما رأت الروم أن صاحبهم قد قتل انسحبوا من الثنية وانهزموا ، وكان الاشتر ذا بلاء حسن في اليرموك ، قتل ثلاثة عشر .

وصعد خالد والمسلمون الثنية راكبين حتى هبطوا نحو الشرق وأشاعوا النكاية في الروم الفارين في سائر البلاد فعاد يقتلهم في القرى والأودية والجبال والشعاب والسهول وفي كل وجه حتى انتهى إلى حمص . وخرج إليه اهل حمص يستوثقون منه عهدهم السابق وحريتهم فقال لهم : نحن على ما كان بيننا وبينكم . ثم أقام خالد في حمص ينتظر رأي أبي عبيدة .

(١) الازدي ٢٣١ بإسناده السابق .
ابن عساكر ٥٤٥/١ بإسناده السابق .

الشهداء

أما هناك في اليرموك فما أن سار خالد في أثر الروم حتى شرع أبو عبيدة في دفن الشهداء ، وقد كان من عادة المسلمين بعد أن يدفنوا قتلاهم أن يقوموا بدفن أعدائهم ، ولكن الله كفاهم ذلك بالواقوصة التي وقعوا فيها . وقد استشهد باليرموك ثلاثة[1] آلاف من المسلمين ، فصلى كل أمير قوم على قتلاهم ، وأعاد خالد بن الوليد القيادة إلى أبي عبيدة قبل أن يخرج في المطاردة .

شعر النصر[2]

وقال شاعر من المسلمين :

دعــوا هرقلا ودعونــا الرحمن	والله قد أخزى جنـود باهان
بخالــد اللُّجِّ أبــي سليمـان	ليس بوهـواءٍ ولا بمتـوان

لا نزق فيه ولا إرنـان .

وقال عمرو بن العاص

القــوم لخــم وجذام في الحربْ	ونحــن والــروم بمـرج نضطربْ
فإن يعــودوا بعدهــا لا نصطحبْ	بل نعصب الفــرار بالضرب الكَلِبْ

وقال أبو مفزر الأسود بن قطبة

وكم قـد أغرنـا غارة بعــد غارةٍ	ويومـا ويومـا قد كشفنـا أهاوله
ولــولا رجــال كان حشــو غنيمة	لدى مأقــط رجت عليهــم أوائله

(١) الطبري ٤٠٢/٣ س ش س عن أبي عثمان وخالد .
ابن عساكر ٥٥٠/١ أخبرنا أبو القاسم ، أنا ابو الحسين ، انا ابو طاهر ، انا ابو بكر بن سيف ، بنفس إسناد الطبري .

(٢) ابن عساكر ٥٥١/١ أخبرنا أبو القاسم ، أنا ابو الحسين ، أنا أيو طاهر ، أنا ابو بكر بن سيف ، نا س ش س ، عن أبي المطرح ، عن القاسم ، عن أبي أمامة وأبي عثمان ، عن يزيد بن سنان .

كفيناهــم اليرمــوك لما تضايقت	بمــن حل باليرمــوك منــه حمائله
فلا يعــد من منــا هرقــل كتائبا	إذا رامهــا رام الــذي لا يحاوله

وقال القعقاع بن عمرو التميمي

ألــم ترنــا على اليرمــوك فزنا	كما فزنــا بأيام العــراق
فتحنــا قبلهــا بصرى وكانت	محرمــة الجنــاب لدى العناق
وعــذراء المدائــن قد فتحنا	ومرج الصُفّــرين على العتاق
قتلنــا من أقــام لنــا وفئنا	نهابهــم بأسيــاف رقــاق
قتلنــا الــروم حتــى ما تساوى	على اليرمــوك ثفــروق الوراق
فضضنــا جمعهــم لما استحالوا	على الواقــوص بالبتــر الرقاق
غداة تهافتــوا فيهــا فصاروا	إلى أمــر يعضّــل بالذواق

وكتب أبو عبيدة[1] بالفتح إلى عمر وبعث إليه بالأخماس ، فكان أبو جندل هو بشيره إلى عمر ، وبعث وفدا كان فيه قائد ميسرته قُبات بن أشيَم .

من أبي عبيدة[2] الى عمر

« بسم الله الرحمن الرحيم .

لعبد الله أمير المؤمنين من أبي عبيدة بن الجراح .

سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد . فالحمد لله الذي أهلك المشركين ونصر المسلمين ، وقديما ما تولى الله أمرهم وأظهر فُلجهم [نصرهم] وأعز دعوتهم . فتبارك الله رب العالمين .

« أخبر أمير المؤمنين أكرمه الله انا لقينا الروم وهم في جموع لم تلق العرب مثلها جموع قط ، فأتوا وهم يرون أن لا غالب لهم من الناس أحد ، فقاتلوا المسلمين

(١) ابن عساكر ٥٥٠/١ بنفس السند عن س ش س عن أبي عثمان وأبي حارثة ، عن خالد وعبادة عن عبد الرحمن بن غنم وشهدها .

(٢) الأزدي ٢٤٣ حدثني الحسن بن عبد الله

قتالا شديدا ما قوتل المسلمون مثله في موطن قط ، ورزق الله المسلمين الصبر وأنزل عليهم النصر فقتلهم الله في كل قرية وكل شِعب وكل واد وجبل وسهل وغنم المسلمون عسكرهم وما كان فيه من أموالهم ومتاعهم . ثم أني أتبعتهم بالمسلمين حتى بلغت أقاصي بلاد الشام، وقد بعثت إلى أهل الشام عمالي، وقد بعثت إلى أهل إيلياء أدعوهم إلى الإسلام ، فإن قبلوا وإلا فليؤدوا إلينا الجزية عن يد وهم صاغرون ، فإن أبوا سرت إليهم حتى أنزل بهم ، ثم لا أزايلهم حتى يفتح الله على المسلمين إن شاء الله . والسلام عليك » .

هرقل يتلقى النبأ (١)

أول رجل من روم اليرموك جاء إلى أنطاكية فقال له هرقل : ما وراءك ؟

قال : خير أيها الملك ، هزمهم الله وأهلكهم .

ففرح من حوله وسروا به ورفعوا أصواتهم .

قال هرقل : ويحكم ، هذا كاذب ، وهل ترون هيئته إلا هيئة منهزم ؟

سلوه ما جاء به فلعمري ما هو ببريد ، ولو لم يكن هذا منهزما كان ينبغي أن يكون مع أميره مقيما .

فما أسرع أن جاء آخر ، فقال له : ما وراءك ؟

قال : هزم الله العدو وأهلكهم .

فقال هرقل : فإن كان الله أهلكهم فما جاء بك ؟

وفرح أصحابه وقالوا : صدقك أيها الملك .

قال هرقل : ويحكم أتخادعون أنفسكم ! إن هؤلاء والله لو كانوا ظهروا ما جاءوكم على متون خيلهم يركضون ولسبقهم البريد والبشرى .

فإنهم لكذلك إذ طلع رجل من العرب من تنوخ على فرس له عربية اسمه

(١) الأزدي ٢٣٤ حدثني أبو جهضم الأزدي عن عبد الرحمن بن السليك الفزاري عن عبد الله بن قرط الثمالي .

حذيفة بن عمرو وكان نصرانيا .

قال هرقل : ما أظن خبر السوء إلا عند هذا .

فلما دنا منه قال له : ما عندك ؟

قال : الشر .

قال هرقل : وجهك الوجه بَشرٌّ بالشر .

ثم نظر إلى أصحابه وقال : خبر سوء جاء به رجل سوء من قوم سوء .

ثم جاء رجل من عظماء الروم فقال له هرقل : ما وراءك ؟

قال : هُزِمْنا .

قال : فما فَعل أميركم باهان

قال : قُتل .

قال : وفلان وفلان وفلان ؟

فسمى له عددا من أمرائه وبطارقته وفرسان الروم .

قال : قتلوا .

قال هرقل : ولكنك أنت والله أخبث وألأم وأكفر من أن تذب عن دين أو تقاتل عن دنيا .

ثم قال لشرطته : أنزلوه .

فأنزلوه فجاءوا به .

قال له هرقل: ألست أنت كنت أشد الناس عليّ في أمر محمد نبيّ العرب حين جاءني كتابه ورسوله ، وكنت أردت أن أجيبه إلى ما دعاني إليه وأدخل في دينه ؟ فكنت أنت من أشد الناس عليّ حتى تركت ما كنت أريد من ذلك، فهلاّ قاتلت الآن قوم محمد وأصحابه دون سلطاني وعلى قدر ما كنتُ لقيت منك إذ منعتني من الدخول في دينه ؟ اضربوا عنقه .

فقدموه فضربوا عنقه . ثم نادى في أصحابه بالرحيل إلى القسطنطينية راجعا

وفي رواية نرجحها أنه رحل إلى الرها بالجزيرة ومنهـا الى القسطنـطينية على ما سيأتي .

من عمر الى أبي[1] عبيدة

« من عبد الله أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح ، سلام عليك

فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد . فقد أتاني كتابك وفهمت ما ذكرت فيه من إهلاك الله المشركين ونصره المؤمنين وما صنع لأوليائه وأهل طاعته ، فأحمد الله على حسن صنيعه إلينا واستتم الله ذلك بشكره . ثم اعلموا أنكم لم تظهروا على عدوكم بعدد ولا عدة ولا حول ولا قوة ، ولكنه بعون الله ونصره ومنّه وفضله، فلله الطول والمنّ والفضل العظيم، فتبارك الله أحسن الخالقين والحمد لله رب العالمين ، والسلام » .

رحيل

أبقى أبو عبيدة باليرموك[2] بشير بن كعب بن أبي الحميري في خيل ونادى بالرحيل ، فارتحل المسلمون بزحفهم حتى ضربوا معسكرهم في مرج الصفر ، فأقام حتى أتـاه أمر عمر فرحلوا حتى نزلوا على دمشق .

هذه المعركة

لعل رأينا أن يكون قد امتزج بأحداث المعركة ونحن نسردها فلم يبق للتعليق الأخير إلا القليل .

كانوا ٢٠٠ ٠٠٠ من الروم أمام ٣٣ ٠٠٠ من المسلمين ، بنسبة تزيد عن

(١) الأزدي ٢٤٤ حدثني الحسن بن عبد الله .

(٢) ابن عساكر ٥٥١/١ أخبرنا أبو القاسم ، أنا أبو الحسين ، أنا أبو طاهر ، أنا أبو بكر بن سيف ، نا س ش س ، عن أبي المطَّرح ، عن القاسم ، عن أبي أمامة وأبي عثمان ، عن يزيد بن سنان ، عن رجال من أهل الشام من أشياخهم .

الطبري ٤٠٤/٣ س ش س بذات إسناد ابن عساكر .

١:٦ ، فكيف غلبت الفئة القليلة الفئة الكثيرة بإذن الله وكيف قتل داود جالوت ؟

من الواضح أن تخطيط الروم للمعركة قام على توجيه ضربتهم الأولى إلى جناحي المسلمين وبدأوا بالهجوم على الميمنة تلاه هجوم على الميسرة والقلب وكان ذلك بجيش الروم أجمعه . لقد عرضت في معسكر الروم فكرة لمقاتلة المسلمين كل يوم بثلث جيش الروم وتوفير الثلثين ، ولم يؤخذ بهذا الرأي ، ونزل جيش الروم برمته إلى الحلبة دون الاحتفاظ بأي احتياطي في الخلف استناداً الى الكثرة العددية الساحقة التي لم تأخذ في اعتبارها أن الأمور يمكن أن تنقلب .. أعجبتهم كثرتهم .

هذا في حين قدر خالد بن الوليد الأمور حق قدرها بعد أن أدرك مقدار الخطر الذي يواجهه ، إذ المطلوب من كل مسلم أن يواجه ستة من الروم ! وأول شيء فعله خالد أن وضع اليأس جانباً ورفض الانهزامية ورأى الخطأ في انسحاب المسلمين من حمص ، وأعلن في مواجهة جحافل الروم أنه ما أقل الروم وأكثر المسلمين ، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال !! وهو بذلك يستثمر علو الـروح المعنوية عند المسلمين إلى أقصى حد بل ويشحذها ويزكيها .

ثم نظر بهدوء أعصاب وصفاء فكر وعمق بصيرة فيما يمكن عمله ، وفي لحظات كان قد رسم خطته . البدء بالدفاع ، ليست الخطة التزام الدفاع فقد كان خالد هجوميا دائما ، إنما الغرض تكسير موجة هجوم الأعداء . أن تثبت صفوف المسلمين ثبات المستميت فلا تسمح لكثرة الروم أن تكتسحها . هذه هي الخطة المعلنة أو الجانب المعلن من الخطة والأمر المطلوب من كل جندي في موقعه . ولكن خالدا لم يكن ساذجا ! .. كان يدرك صعوبة هذا الثبات إن لم يكن استحالته ، ولقد أسرّ ذلك إلى أبي عبيدة ، واعمل خطته على الاعتماد على القوات الاحتياطية التي كوّنها في الحال رغم قلة عدد جنده نسبيا ، فجعل جميع فرسان المسلمين قوات احتياطية في الخلف تقف وراء الميمنة ووراء الميسرة . وقوة احتياطية من المشاة وضعها تحت قيادة أبي عبيدة شخصياً تقف وراء القلب . وأسند قيادة القلب إلى سعيد بن زيد ، ابن

عم عمر بن الخطاب وزوج شقيقته . عمر الذي عزل خالداً ، ولكننا الآن في جهاد في سبيل الله ، ولا مجال في سبيل الله للأحقاد . سعيد لها فليكن هو . ومن المتفق عليه في العمليات العسكرية أن يجري استعمال الوحدات العادية للاشتباك العام مع العدو ، وأن تستعمل الوحدات الاستثنائية والاحتياطية لتزيق قوى العدو تمهيداً للفتك النهائي به .

كان خالد يدرك نوعية جنوده ويثق في إيمانهم الذي يدفعهم إلى بذل ما فوق الاستطاعة . وفي تصورنا أنه لو كان خالد يقود جيشا آخر غير هذا الجيش الذي يمتلىء بالصحابة وتابعيهم بإحسان لما وثق أن يسند إليه خطة كهذه .

ووقف خالد ينظر في ثبات لا رهبة فيه ولا خوفا مما سوف يكون ، كان ينتظر شيئا معينا سوف يحدث . هذه الهجمة العاتية من جانب الروم سوف تؤدي بكراديسهم وقطعاتهم إلى حالة من الخلل والانتشار . إنه أمر يحدث في الحروب دائما ويعالجونه بإعادة التنظيم السريع وبدفع قوات الاحتياط لرأب الصدع وسد الثغرات . ولكن لا .. لن يحدث هذا هنا ، إنه سوف يتدخل في اللحظة المناسبة تماما لاقتناص الفرصة وحرمان الروم من هضم الثمرات الأولى لهذا الهجوم ، فالقائد الماهر هو الذي يجيد قوة الاندفاع ويحسن توقيتها .

يقول القائد الألماني والمحلل الحربي في القرن التاسع عشر كارل فون[1] كلاوزفيتز ـ وهذا هو محور نظريته في الحرب ـ « إن أروع لحظات الدفاع هي لحظة الانتقال السريع والقوي إلى الهجوم كضربة ثأر بسيف صارم بتار . والطرف الذي لا يفكر في هذه اللحظة منذ البداية ولا يدخلها عند نشوب العمليات في مفهوم دفاعه لا يمكن أن يفهم أبدا تفوق الدفاع » .

بعد ثلاثة عشر قرنا يكتشف كلاوزفيتز « نظرية » فعلها خالد على ضفاف اليرموك ! في اليرموك ؟ .. لا .. لقد وجدها خالد أول مرة يوم غزوة أحد حيث

(١) في الحرب ١٣٣

اكتسح المسلمون كفار قريش فلمح خالد ـ وكان يومها مشركا ـ لمح ذلك الخلل عند المسلمين واخلائهم مواقع حماية ظهرهم، فدار بفرسانه وعلا جبل الرماة وقلب ميزان المعركة ، يومذاك كانت قوات الطرفين جميعاً ٣٧٠٠ ومنذ يوم أحد وخالد يبحث عن ذلك الخلل كلما ادلهمت الأمور مع عدو متفوق . وهنا في اليرموك نجد خالدا يستدرج الروم إلى هذه الفوضى . يقول ليدل[1] هارت : حاول أن تخلق الفوضى في صفوف عدوك إذا كنت تنوي ضربه الضربة الساحقة ، ولا فرق إن كان نوع تلك الفوضى التي تخلقها سياسيا أم عسكريا أم نفسيا .. فالمهم هو وجودها في صفوفه .

اليوم ـ في القرن العشرين ـ ينقدون نظرية كلاوزفيتز ، فقد كانت أبرز إضافاته إلى نظرية الحرب هو ذلك الربط المنطقي بين الدفاع والهجوم، فالمُدافع في رأيه يستطيع باستمرار الصمود أن يصل إلى نقطة يحقق عندها الإجهاد الشامل للمهاجم، وعندئذ يتحول المُدافع إلى الهجوم ليحسم المعركة . وعلاقة الدفاع بالهجوم تكمن في قدرة المدافع وراء دفاعاته رغم سلبيته وضعف المهاجم أمام الدفاعات رغم إيجابيته . والشرط الأساسي المرتبط بهذا أن يتضمن الدفاع تحولا إلى الهجوم في الوقت المناسب .

ينقدون ذلك بنظرية ليدل هارت في القرن العشرين الخاصة بالاقتراب غير المباشر . ففي رأيه أنه للحصول على نتائج حاسمة زهيدة التكاليف في الحرب فنادرا ما يتحقق ذلك إلا بالعمل غير المباشر لضمان تحقيق المفاجأة الكاملة . ويقوم فكر ليدل هارت على أساسين أحدهما مادي والآخر نفسي ، فهو يرى أن الهدف من المعركة هو إحداث صدمة تربك تفكير العدو بتوجيه ضربة له في مكان غير متوقع ينتج عنه موقف نفسي سيء يجد العدو نفسه فيه قد خسر الحرب من قبل أن تبدأ الحرب .

(١) المناورات الحربية الدفاعية ١٥٥

ونحن إذا تأملنا خطة خالد يوم اليرموك نجده عمل بالنظرية التي قالوا عنها في القرن التاسع عشر نظرية كلاوزفيتز وذلك في الشق الأول من المعركة بدءا بالدفاع وانقلابا إلى الهجوم . ثم نجده عمل بالنظرية التي قالوا عنها في القرن العشرين نظرية ليدل هارت وذلك في الشق الثاني من المعركة ، النظرية القائمة على إحداث الصدمة . فحين تدفقت قوات الروم من أجناب جبهة المسلمين نحو نساء المسلمين في معسكرهن كان الروم يحسبون أنهم ظفروا بالمسلمين أخيرا ، وأي شيء أكثر من أن ينفد عشرات الألوف إلى مؤخرة الخصم لتحيط به من كل جوانبه ! ولكن تصدي خالد بن الوليد وقيس بن هبيرة بفرسانهما لهم خلف صفوف المسلمين كان مفاجأة تامة لم يكن الروم يتوقعونها حتى أن درنجار وآخرون مثله في شدة صدمتهم قد التفوا في ثيابهم ثم قعدوا وسط ميدان القتال ينتظرون من يجيء ليقتلهم !!

يقول ليدل هارت[1] : « هاجم العدو حيث لا يكون مستعداً للهجوم .. واضربه حيث لا ينتظر منك الهجوم » . أن نقول : هاجم عدوك .. فاجيء عدوك .. اضرب عدوك ... الخ فما أسهل هذا إنما العبقرية والمهارة الحقة أن نتمكن من تنفيذ ذلك في ظروف معقدة وفي ميدان لا نملك أطرافه ولا نتصرف فيه بمفردنا . وفي معركتنا هذه يقينا لم يكن الروم يتوقعون أن يضربهم خالد خلف صفوفه بعد أن طووا جناحيه . ومن المهارة أن يستطيع القائد أن يسلط أقوى وحداته على أضعف وحدات العدو .

قد يكون مسليا ومفيدا معا أن ننظر فيما كتب ليدل هارت الذي يعتبرونه نبي الاستراتيجية في القرن العشرين ، كتب[2] يقول :

إذا كانت قوتك في الرجال تعادل عشرة أضعاف قوة العدو فحاول أن تطوقه

(١) المناورات الحربية الدفاعية ١٥٨ .

(٢) نفس المصدر ١٦٩ ـ ١٧٠ .

من جميع نواحي معسكره لتأخذ منه بهذه الطريقة أكبر عدد ممكن من الأسرى والغنائم .

فإذا كان تحت إمرتك خمسة أضعاف ما عند العدو من قوة فاستفزه إلى الجبهة وفاجئه بضرب مؤخرته وافتعل ضجيجا في القطاع الشرقي من جبهة القتال لتضرب العدو من جهة الغرب .

أما إذا كانت نسبة القوة العسكرية اثنين لواحد لصالحك على العدو وكان هذا التفوق غير قادر على أن يعطيك السيطرة على الموقف فعليك أن تلجأ إلى المراوغة وتناوش العدو في طرف من قوته ليلحق بك فتنقسم قوته إلى طرفين ، ثم اضربه بعد أن تشطره .

وإذا تعادلت قوتك العسكرية مع قوة العدو فاشتبك معه إذا شئت ، ففي حالة تعادل القوى فإن أمهر القائدين سيقرر مصير المعركة .

ثم قال ـ وهنا بيت القصيد في مضاهاة رأي ليدل هارت بما فعل خالد في اليرموك « وإذا كان عدد الجنود في معسكرك يقل عن العدد في معسكر العدو ، فحاول مؤقتا أن تعطيه فرصة الهجوم المفاجيء على معسكرك .. وأكبر الظن أنك تواجه ناحية ضعيفة في معسكر العدو لتفاجئه أنت بالهجوم ... عندئذ استجمع كل قوتك واعزم على النصر ، وسيكون النصر حليفك ...

وفي مثل هذه الحالات فإن الذي يقرر النصر النهائي هو مهارة القيادة وثقافة الجند وتجاربهم في فن القتال وفي رواسخ المعنويات ... وإذا كان معسكرنا وقوانا في نظام معقول ومستوى جيد ، وكانت قوات العدو ينقصها النظام ورفعة المستوى .. وإذا كنت أنا نشيط الفكر والحركة وكان خصمي بليدا مشوش الفكر وفاقد الحركة الماهرة .. عندئذ سأشتبك معه في القتال على الفور » .

ولقد كان لكل من الفريقين أسلوبه في إذكاء معنوياته ، فالروم يزحفون في دوي عال وقسيسوهم يخطبون فيهم عسى أن تثبتهم الخطب ، ولكن جنودهم في

رعب ، جاءوا « مقبوضاً عليهم » قد تسلسل عشرات الألوف منهم بالسلاسل حتى لا يفروا والمسلمون ينشدون الشهادة حتى يسأل أحدهم أبا عبيدة إن كان له إلى رسول الله ﷺ حاجة فقد عزم على الاستشهاد وهو على وشك أن يلتقي بنبيه . يقابلون دوي الروم بالصمت وغض البصر حتى لقد أرعب صمتهم الروم ! كذلك كان لنساء المسلمين دورهن في رفع معنويات الرجال ومواقف مشهودة .

ثم كان اختيار الروم لموقعهم اختيارا سيئا جانبه التوفيق ، أرادوا به الحيلولة دون فرارهم فتعذر عليهم إنقاذ جيشهم الكبير الذي تكلف حشده أقصى جهود دولتهم بما كان يعني عجزهم عن إعادة حشد مثله بعد أن ألقى به خالد من شاهق .

ثم كان تنظيم خالد لقواته يتيح له أقصى درجات المرونة لمواجهة المواقف ، فقد جعل جيشه ستة قطاعات ، ميمنة وقلب وميسرة وفرسانا خلف الميمنة واحتياطيا خلف القلب وفرسانا خلف الميسرة. وترك نظام الصف وجعلهم كراديس ، لكل كردوس رئيس بلغ عددها في حدود الأربعين . ومرة أخرى ننصت إلى كلاوزفيتز فيما يقول : ليس هناك أصعب من قيادة جيش مقسم إلى ثلاثة أجزاء إلا قيادة جيش مؤلف من جزئين ، لأن مثل هذا الوضع يجعل القائد الأعلى في حالة تقارب[1] الشلل . وعندما يكون[2] عدد الأجزاء المكون للمجموع قليلا فإن المجموع يفقد بعض مرونته ، وإذا زاد عدد أجزاء المجموع زيادة كبيرة ضعفت قدرة السلطة العليا . وإذاً فمن الواجب وجود أكبر عدد ممكن من الأجزاء مع أقل عدد ممكن من القطاعات .

خريطة المعركة

اعتمدنا في تصوير المعركة على الروايات الواردة واستعنا بخريطة المنطقة لتوقيع الأحداث عليها . وقد يجد القارىء خرائط أخرى رسمت بصورة مغايرة في

(١) في الحرب ٢٨ .
(٢) في الحرب ٣١ .

كتب أخرى مثل تلك التي صورها جون باجوت جلوب في كتابه « الفتوحات العربية الكبرى » والتي صورها أغا ابراهيم أكرم في كتابه « خالد بن الوليد » . وإذ التزمنا من بادىء الأمر تدعيم كل معلومة بدليلها فمن حق القارىء علينا أن نوضح حيثيات مخالفتنا لسوانا .

١ ـ تفيد الأخبار أن الروم جعلوا نهر اليرموك خلف ظهورهم ، وأن ميدان القتال كان واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب . ولقد وجدنا روافد اليرموك تنفرج عنه بحيث يكون الضيق عند اليرموك والانفراج بعيداً عنه وذلك فيما بين أذرعات ووادي الحرير وبين وادي الحرير ووادي علان . أما الصفة التي نبحث عنها فلا توجد إلا بين وادي علان ووادي الرقاد ، فإن المثلث المحصور بينهما وبين نهر اليرموك ينفرج عند اليرموك ويضيق كلما ابتعدنا عنه ، فهو واسع المطرد ضيق المهرب .

٢ ـ انتهت المعركة بإلقاء الروم في الواقوصة ، وما زالت حتى اليوم قرية تحمل الاسم [الياقوصة] منذ ذلك الحين ، ولا ريب أنها تقع تجاه المكان الذي ألقى جيش الروم فيه من شاهق ، وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه أولا ويؤكده ، فوجود الياقوصة شاهد على المكان ويشير إليه .

٣ ـ رسم جلوب وأغا خرائطهما استنادا إلى الروايات التي اعتمدا عليها وهي في أكثرها مستقاة من ذلك الكتاب الساقط « فتوح الشام » المنسوب باطلا إلى الواقدي .

بعد اليرموك

مراجعة ونظر

الأعداد

ثلاثة وثلاثون ألفا من المسلمين خاضوا معركة اليرموك . استشهد منهم ثلاثة آلاف [بنسبة ٩٪ تقريبا] . لقد كان جيش خالد بن الوليد ٩٠٠٠ حين قدم من العراق ولكنه يعود الآن[1] ٦٠٠٠ ، وهذا يعني أن جيش المسلمين بالشام قد صار عدده ٢٤٠٠٠ مهمته الآن استلام الشام .

والمواقيت

أما عن التوقيتات فنستطيع بسهولة أن نراها كالآتي :

٥ رجب ١٥ هـ ١٢ أغسطس ٦٣٦ حسمت معركة اليرموك .

١٣ رجب ١٥ هـ ٢٠ أغسطس آب ٦٣٦ بلغ خبر اليرموك إلى عمر .

٢١ رجب ١٥ هـ ٢٨ أغسطس أب ٦٣٦ بلغ أبا عبيدة أمر عمر بإعادة جيش العراق .

٢٣ رجب ١٥ هـ ٣٠ أغسطس آب ٦٣٦ بدأ جيش العراق رحلة العودة .

١٤ شعبان ١٥ هـ ٢٠ سبتمبر أيلول ٦٣٦ وصل جيش خالد إلى القادسية .

ولقد حسمت معركة القادسية بعد معركة اليرموك بأربعين يوما .

(١) الطبري ٣/٥٤٣ س ش س عن عمر ومحمد .

لا وداع

لقد ذكر لنا الرواة وداع أبي بكر ليزيد ولشرحبيل ولأبي عبيدة ولهاشم بن عتبة ولعمرو بن العاص ، كما ذكروا وداع المثنى بن حارثة لخالد بن الوليد حين غادر العراق ، ولكن أحدا من رواتنا العديدين لم يذكر شيئا على الإطلاق عن وداع سيف الله المسلول خالد بن الوليد لجيشه حين خرج من الشام عائدا بدونه إلى العراق . في رأينا أنه لو كان حدث لما أسقطه جميع الرواة من ذاكرة التاريخ وقد سجلوا أشياء كثيرة أقل شأنا . ربما كان التعليل ما نجده في أنفسنا ، من منا يضع نفسه مكان خالد ثم يطيق ذلك الوداع القاسي لرفاق السلاح والجهاد في سبيل الله الذين خاض بهم معاركه الظافرة بالعراق وبالشام ومنهم من حارب معه حروب الردة وشهد معه بزاخة وحديقة الموت بعقرباء ، ومنهم من شهد معه أحد والأحزاب يوم كان كافرا ثم جمعهم الإسلام إخوانا . ويعلل أنه لم يكن هناك وداع أن خالدا كان قد انطلق حتى حمص ، وما دام أمر عمر قد جاء في التوقيت الذي استنتجناه فإن الذين عادوا إلى العراق لا بد قد خرجوا من مرج الصفر حيث مكث أبو عبيدة بعد اليرموك ، ويدعم هذا المذهب أن الذين عادوا كانوا ٦٠٠٠ بدلا من ٩٠٠٠ وما نحسب جيش خالد قد فقد ٣٠٠٠ شهيد ولكن يبدو أن بعضهم كان معه في تقدمه نحو حمص . الذي نخلص إليه إذاً أن خالدا كان في حمص في قوة من الفرسان حين خرج ستة آلاف من جيشه من مرج الصفر بعد اليرموك ليدركوا سعد بن أبي وقاص في معركة القادسية . لقد قطع خالد المسافة من الحيرة حتى مرج راهط في أحد عشر يوما اخترق فيها صحراء السماوة على غير الطريق في مغامرة جسورة وسار في اليوم مسيرة يومين ، ولكن هذا لم يحدث من جيشه في رحلة العودة ولذلك فإن المواقيت التي استنتجناها تقول إن رحلة العودة من مرج الصفر إلى القادسية قد استغرقت ٢١ يوما تقريبا . ليس بين أيدينا أي تفاصيل أو مجرد ذكر يميط اللثام عن رحلة العودة إلى العراق ولكن أغلب ظننا أنهم قد سلكوا طريق الجنوب مرورا بدومة الجندل ولم يسلكوا طريق الشمال مرورا بتدمر ، يدفعنا إلى هذا الظن أن طريق دومة

الجندل يخلص بهم إلى مواقف المسلمين بالقادسية في حين أن طريق الشمال ينتهي بهم إلى خلف صفوف الفرس هناك .

قطاعات أربعة

وفي دمشق قسم أبو عبيدة الشام على الأمراء ، فاستخلف[١] :

- يزيد بن أبي سفيان على دمشق .
- عمرو بن العاص على فلسطين .
- شرحبيل بن حسنة على الأردن .
- ومضى هو [أبو عبيدة] إلى حمص .

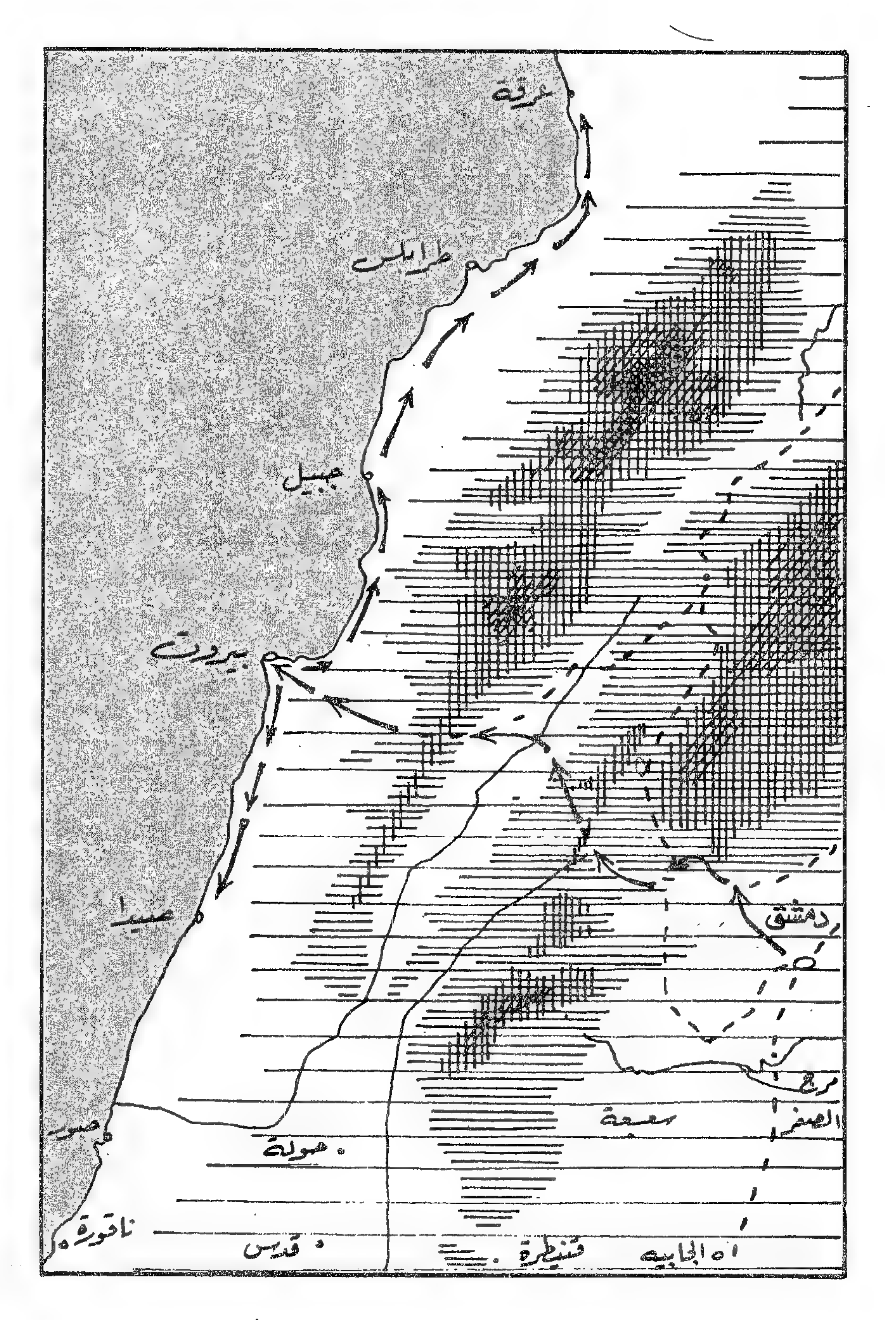
قطاع دمشق

من دمشق خرج يزيد بن أبي سفيان غربا إلى سواحلها ففتح صيدا Sidon وعِرْقة وجبيل [بيبلوس] وبيروت[٢]، وكان على مقدمته أخوه معاوية فكان فتحا يسيـــرا وجـــلا كثير من أهلها ، وأن معاوية هو الذي تولى فتح عِرْقة في ولاية يزيد. وفي رواية أخرى لنفس الرواة (!) أن يزيد كان يوجه معاوية إلى سواحل دمشق فكان يقيم على الحصن اليومين والأيام اليسيرة فربما قوتل قتالا غير شديد وربما رمى ففتحها ، ما عدا طرابلس فإنه لم يكن يطمع في فتحها ، ويبدو أن الروم قد ركزوا دفاعهم وتجمعهم في هذا القطاع من الساحل في مدينة طرابلس .

وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة على الساحل أو على الظهر وضعوا فيها

(١) البلاذري ١٥٦ حدثني أبو حفص الدمشقي عن سعيد بن عبد العزيز

(٢) البلاذري ١٥٠ حدثني أبو حفص الدمشقي عن سعيد بن عبد العزيز قال أخبرني الوضين . ولم توقت الرواية ميقات فتح هذه السواحل ، وقد رأينا أن المسلمين قد شتوا بدمشق بعد فتحها الأول حتى انقضى الشتاء فساروا إلى حمص ، فلم يكن فتح هذه السواحل يتأتى إلا بعد عودة المسلمين إلى دمشق أثر اليرموك ، لا سيما وأن هذه الفتوح مع فتوح القطاعات الثلاثة الأخرى هي التي يمكن أن تشغل النصف الثاني من عام ١٥ هـ .



الخريطة رقم (٣٤) ـ سواحل دمشق ـ المقياس ١/مليون

الحامية التي تكفيها ، فإن حدث في شيء منها حدث من قبل العدو سرَّبوا إليها الأمداد .

لم يذكر الرواة الطريق الذي سلكه المسلمون من دمشق إلى بيروت ، ولم نجد فيما رجعنا إليه من مراجع البلدانيين ذكرا لهذا الطريق إلا ما ذكر الاصطخري[١] أنه بين دمشق وبيروت يومان ـ يعني نحوا من ٩٠ كيلومترا ـ وهذا يجعلنا نذهب إلى أن الطريق بين المدينتين كان يتطابق مع الطريق الحالي الذي تجتازه السيارات مرورا بمنعطفات جبال لبنان ولم يكن طريقا يدور حول تلك الجبال الشاهقة الوعرة من جنوب أو من شمال من المسالك الطبيعية الميسرة . ولم يكن سلوك جيش يزيد هذا الطريق متاحا لو أن عليه أي قوة للروم وهذا يعني بالتالي أن الروم لم يفيقوا من ضربة اليرموك حتى أن أرض الشام قد انفتحت بعدها على مصاريعها ، فإن المسلمين لم يصلوا فقط إلى ما كان سبق فتحه من أرض دمشق وحمص وإنما تعدوا ذلك إلى إقليم الساحل دون مقاومة .

قطاع فلسطين

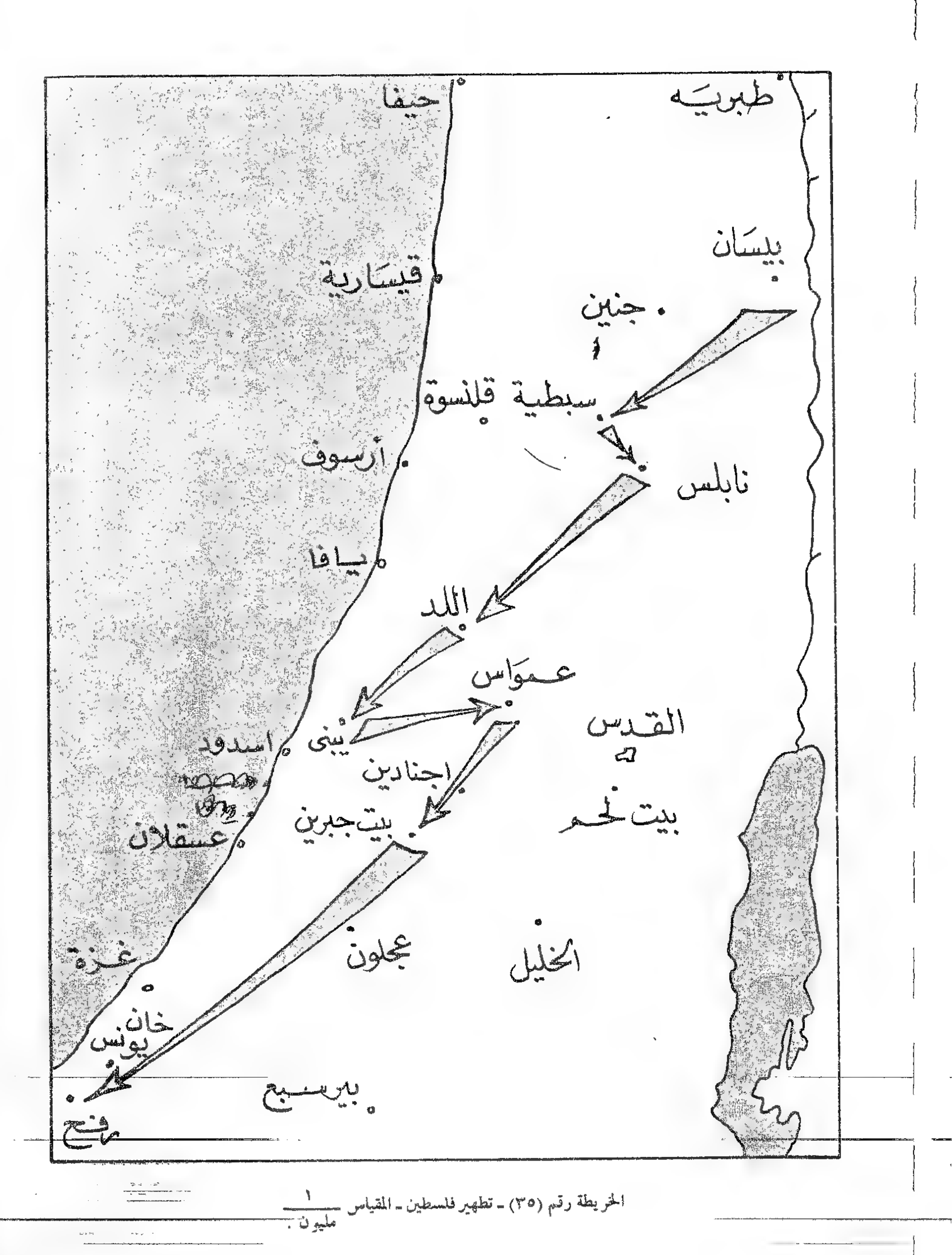
اتجه عمرو بن العاص إلى فلسطين ـ وربما كان ذلك عبر نهر الأردن ـ ففتح سبسطية إلى الشمال الغربي من نابلس بنحو من ١٢ كيلومترا . يقول ياقوت[١] إن بها قبر زكريا ويحيى وجماعة من الأنبياء والصديقين . كما فتح نابلس وأعطى أهلها الأمان على أنفسهم وأموالهم ومنازلهم على أداء الجزية والخراج .

ثم فتح مدينة اللد[٢] ونواحيها ثم يبنى وعمواس وبيت جبرين ، ثم هبط جنوبا بغرب حتى فتح رفح . وفي رواية أنه فتح يافا وفي قول آخر أن معاوية بن أبي سفيان هو الذي فتحها ، وهو قول جائز فقد كان معاوية يفتح سواحل لبنان فتحا

---

(١) معجم البلدان .

(٢) البلاذري ١٦٤ حدثني أبو حفص الدمشقي عن سعيد بن عبد العزيز عن أشياخه ، وعن بقية بن الوليد عن مشايخ من أهل العلم .



الخريطة رقم (٣٥) ـ تطهير فلسطين ـ المقياس ١/مليون .

يسيرا ، كما جاءت الأخبار أن عمر بن الخطاب قد بعث إليه بتتبع ما بقي من فلسطين .

وفتح عمرو عسقلان [ثم انتقض أهلها بعد ذلك وأمدهم الروم فأعاد[١] معاوية فتحها في عهده] . كذلك جاء في فتوح البلدان أن عمرو بن العاص قد فتح غزة في عهد[٢] أبي بكر دون أن يوضح ترتيب ذلك الفتح أو تاريخه . أما عن قيسارية فقد حوصرت من العام الثالث عشر حاصرها عمرو بن العاص وسوف تفتح بعد ذلك في العام التاسع عشر على يد معاوية بن أبي سفيان .

قطاع الأردن

فتح شرحبيل الأردن فتحا يسيرا ، وقد رأينا دخول أكثره في طاعة المسلمين أثر معركة فحل بيسان . وتجيء الأخبار أن شرحبيل فتح سوسية وفتح أفيق وجرش وبيت راس وقدس والجولان وغلب على سواد الأردن وجميع أرضها . ونذهب أن ذلك قد تم في ذات الوقت الذي كان يزيد يفتح فيه السواحل تجاه دمشق والذي كان عمرو بن العاص يطهر أرض فلسطين ـ يعني في النصف الثاني من العام الخامس عشر من هجرة الرسول ﷺ .

قطاع حمص

قنسرين

وصل أبو عبيدة في صلب جيشه إلى حمص ـ بعد اليرموك ـ فبعث خالد بن الوليد إلى قنسرين[٣] . كانت على الطريق بين[٤] حلب وأنطاكية كما كان يتصل بها الطريق الذاهب إلى شيزر ثم حماة ثم حمص . وقنسرين مدينة نزلتها تنوخ في

(١) الأزدي ٢٣٤ حدثني أبو عبد الله بن الحسين .الأزدي ٢٣٧ حدثني عمر بن عبد الرحمن .
(٢) ابن خرداذبه ٧٥ ، ٩٩ ، ١٧٧ ـ قدامة ٢٢٨ ، ٢٢٩ ـ المنجد .
(٣) الطبري ٦٠١/٣ عن سيف في كتابه عن أبي عثمان وجارية .
(٤) البلاذري ١٧٢ .

الخريطة رقم (٣٦) - قطاع حمص - القياس ١/مليون

خيام الشعر منذ نزلت الشام ثم ابتنوا بها المنازل فصارت حاضرة من الحواضر . فلما نزل خالد الحاضر قاتلوه[١] وزحف إليه الروم بقيادة ميناس وهو رأس الروم وأعظمهم بعد هرقل، فقُتل ميناس ومات الروم على دمه حتى أبيدوا جميعا لم يبق منهم احد ولجأ العرب من تنوخ الى حصنهم فتحصنوا منه،فقال لهم خالد:لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا.فنظروا في أمرهم وذكروا ما لقي أهل حمص فطلبوا صلحا مثل صلح أهل حمص . تقول رواية البلاذري أن أبا عبيدة صالحهم على مثل صلح حمص ، وتقول رواية سيف أن خالد بن الوليد أبى إلا أن يخرب المدينة فأخربها .

ودعاهم أبو عبيدة إلى الإسلام فأسلم بعضهم ، وأقام على النصرانية بنو سليح بن حلوان بن عمران بن إلحاف بن قضاعة . ثم سار أبو عبيدة إلى حلب فنقض أهل قنسرين عهدهم وغدروا ، فبعث إليهم السمط[٢] بن الأسود الكندي فلما فتحها أصاب فيها بقرا وغنما فقسم طائفة منها في أصحابه وجعل بقيتها في المغنم . وصالح من لم يسلم على الجزية ثم أسلموا بعد ذلك بيسير إلا من شذ عن جماعتهم . وكان بقرب مدينة حلب حاضر يدعى حاضر حلب يجمع أصنافا من العرب من تنوخ وغيرهم فصالحهم أبو عبيدة على الجزية ثم أسلموا بعد ذلك .

وبلغ عمر ما فعل خالد بقنسرين [٣] فقال : « أمّر خالد نفسه، يرحم الله أبا بكر،هو كان أعلم بالرجال مني ، إني لم أعزله عن ريبة ولكن الناس عظموه فخشيت أن يوكّلوا إليه » . فلما كان من أمره وأمر قنسرين ما كان رجع عمر عن رأيه .

---

(١) الطبري ٦٠١/٣ عن سيف في كتابه عن أبي عثمان وجارية .
البلاذري ١٧٢ .

(٢) البلاذري ١٧٢ حدثني هشام بن عمار الدمشقي قال حدثنا يحيى بن حمزة عن أبي عبد العزيز عن عبادة بن نُسّي عن عبد الرحمن بن غنم .

(٣) الطبري ٦٠١/٣ عن سيف في كتابه عن أبي عثمان وجارية .

حلب

رحل أبو عبيدة إلى حلب[١] فوجد أهلها قد تحصنوا فنزل عليها، فلم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم ومنازلهم والحصن الذي بها ، فأُعطوا ذلك واستثنى عليهم موضعا للمسجد . وتذهب هذه الرواية إلى أن عياض بن غنم الفهري كان على مقدمة أبي عبيدة ، ولكن الذي أخذنا به في كتابنا « سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية » أن عياضا انتقل إلى العراق مع جيش خالد وأنه تولى فتح الجزيرة من العراق .

أنطاكية

سار أبو عبيدة من حلب إلى أنطاكية التي ظلت طوال متابعتنا لعملية فتح الشام مقر هرقل ومأمنه . قال ياقوت[٢] عنها : بينها وبين حلب يوم وليلة ، والمسافة بينهما عامرة لا خراب فيها أصلا ولكنها أرض تزرع الحنطة والشعير تحت شجر الزيتون ، قراها متصلة ورياضها مزهرة ومياهها منفجرة ، يقطعها المسافرون في بال رضي وأمن وسكون. وبلد عظيم ذو سور عليه ثلاثمائة وستون برجاً [في عصر ياقوت] ... وشكل البلد كنصف دائرة قطرها يتصل بالجبل والسور يصعد مع الجبل إلى قلته فتتم الدائرة، وهذا الجبل يستر عنها الشمس فلا تطلع عليها إلا في الساعة الثانية ... وبين أنطاكية والبحر نحو فرسخين ولها مرسى في بليد يقال له السويدية اسسها[٣] سلوقس أنيكاتور ٣٠٧ ق م وصارت عاصمة السلوقيين حتى الفتح الروماني ٦٤ ق م ، ثم صارت مقرا للحضارة الهلنسية وازدهرت فيها الآداب والفنون ، وفيها اتخذ النصارى لأول مرة اسم المسيحيين فأضحت كرسيا رسوليا على رأسه بطرس الرسول حتى انتقاله إلى روما . دمرها الفرس عام ٥٤٠ م ثم أجهزت

(١) البلاذري ١٧٤ .

(٢) معجم البلدان .

(٣) المنجد .

عليها الزلازل في القرن السادس ، واحتلها الصليبيون عام ١٠٩٨ م ثم العثمانيون ١٥١٧ م .

تحصن بأنطاكية جمع من أهل جند قنسرين ، فلما صار أبو عبيدة بمهروبة على نحو من فرسخين من مدينة أنطاكية لقيه جمع من العدو ففضهم وألجأهم إلى المدينة وحاصر أهلها من جميع أبوابها وكان معظم الجيش على باب فارس ـ لعله كان جهة الشرق تجاه فارس ـ وباب البحر ـ لعله كان جهة الغرب تجاه البحر . ثم صالحوه على الجزية والجلاء ، فجلا بعضهم وأقام بعضهم فأمنهم وكانت جزية كل حالم دينارا وجريبا . ثم نقضوا العهد بعد ذلك فبعث إليهم حبيب بن مسلمة ففتحها على الصلح الأول . ولما فتحت أنطاكية كتب عمر إلى أبي عبيدة أن يرتب بها جماعة من المسلمين من أهل النيات والحسبة وأن يجعلهم مرابطين بها ولا يحبس عنهم العطاء .

تطهير شمال الشام

بعد ذلك راح أبو عبيدة يطهر شمال الشام من فلول الروم . بلغ أبا عبيدة[١] أن جمعا للروم بين معرة مصرين وحلب فلقيهم وقتل عددا من بطارقتهم وفض جمعهم وسبى منهم وغنم ، وفتح معرة مصرين على مثل صلح حلب ، وبعث فرسانه فبلغوا بوقا ، وفتحت قرى الجومة وسرمين ومرتحوان وتيزين . وصالحوا أهل دير طيايا ودير الفسيلة على أن يضيفوا من مر بهم من المسلمين . وأتاه نصارى خناصرة فصالحهم وفتح جميع ارض قنسرين وأنطاكية .

وسار أبو عبيدة يريد قورس فتلقاه راهب من رهبانها يسأل الصلح عن أهلها فبعثت به المقدمة إلى أبي عبيدة وهو بين جبرين وتل إعزاز فصالحه . ثم أتى قورس فعقد لأهلها عهدا وأعطاهم مثل الذي أعطى أهل أنطاكية ، وكتب للراهب كتابا في قرية له تدعى شرقينا وبث خيله فغلب على جميع أرض قورُس إلى آخر حد نِقابُلس . وكانت قورس كالمسلحة لأنطاكية يأتيها كل عام طالعة من جند انطاكية ومقاتلتها .

(١) البلاذري ١٧٦

ويقال ان سلمان بن ربيعة الباهلي كان في جيش أبي عبيدة مع أبي أمامة الصُدى بن عجلان صاحب رسول الله ﷺ فنزل حصنا بقورس فعرف بحصن سلمان ، وقيل إن ذلك كان حين غزا سلمان الروم بعد فتح العراق حيث كان مع سعد بن أبي وقاص ، وقبل خروجه إلى أرمينيا .

وأتى أبو عبيدة حلب الساجور وقدم قوة إلى منبج ثم لحقها وصالح أهلها على مثل صلح انطاكية [وتذهب الرواية أن القوة كانت بقيادة عياض بن غنم ، وأنه بعثه إلى ناحية دُلوك ورعيان] فعالجه أهلها على مثل صلح منبج واشترط عليهم أن يبحثوا عن أخبار الروم ويكاتبوا بها المسلمين ، وولى أبو عبيدة كل كورة فتحها عاملا وضم إليه جماعة من المسلمين وشحن النواحي التي يتخوف منها .

ثم سار أبو عبيدة حتى نزل عراجين وقدم مقدمته إلى بالس وبعث حبيب بن مسلمة في جيش إلى قاصرين ، فجلا أكثر أهلها إلى جسر منبج وبلاد الروم والجزيرة ، ورتب أبو عبيدة حامية في بالس وأسكنها قوما من عرب الشام أسلموا بعد قدوم المسلمين الشام ، كما أسكن قاصرين قوما ، وبلغ أبو عبيدة الفرات ثم رجع إلى فلسطين لجني الثمرة التي آن أوانها .. القدس .

ارتحال هرقل

اختلفوا في تاريخ خروج هرقل عن أرض الشام فقال ابن اسحق أنه كان سنة خمس عشرة[1] وقال سيف انه كان سنة ست عشرة ، ولم يذكر الأزدي توقيتا لخروج هرقل ولكنه ذكره في أعقاب معركة اليرموك فكأنما ذهب إلى أن خروجه كان سنة خمس عشرة .

والذي نراه متوسطا بين هذه الآراء أنه خرج من أنطاكية سنة خمس عشرة إلى الجزيرة - وليس إلى القسطنطينية - فقد اجتمعت جموع من أهل الجزيرة - وانضمت

(١) الطبري ٦٠٢/٣ .

إلى جيش هرقل لمؤازرته[1] وبعثوا إلى أهل هيث على نهر الفرات . ومن العراق كتب سعد بن أبي وقاص بذلك إلى عمر فكتب إليه عمر أن يبعث إليهم عمر بن مالك ، فخرج إليهم ففتح قرقيسياء ثم فتح هيث .

فلما توجه المسلمون نحو حمص - بعد نصرهم الأكبر باليرموك - خرج هرقل من أنطاكية فعبر الفرات حتى نزل الرها فبقي بها حتى طلع جند الكوفة مع عمر بن مالك إلى قرقيسياء ، هذا في الجزيرة ، وفتحت قنسرين وقتل ميناس ، عند ذلك خرج هرقل من الرها إلى شمشاط[2] فلما نزل المسلمون الرها خرج من شمشاط فسار على الدرب نحو القسطنطينية ، أراد أولا أن يتبعه أهل الجزيرة ولعله راود نفسه أن يدخل مع المسلمين معركة أخرى ولكن أهل الجزيرة أبوا أن يتبعوه وقالوا له : نحن ها هنا خير منا معك . كان هرقل يحب سورية فكان كلما حج بيت المقدس ثم عاد مخلفا سوريا ظاعنا في أرض الروم التفت إلى سورية وقال[3] « عليك السلام يا سورية تسليم مودع لم يقض منك وطره ، وهو عائد » . أما هذه المرة فقد كان يدرك أن الأمر يختلف ، فلما خرج من شمشاط وحاذى سورية وقف على مرتفع والتفت إلى سورية وقال « قد كنت سلمت عليك تسليم المسافر ، أما اليوم عليك السلام يا سورية تسليم المفارق ، سلام مودع لا يرى أنه يرجع إليك أبدا ، ولا يعود إليك رومي أبدا إلا خائفا حتى يولد المولود المشؤم وليته لم يولد ، عليك يا سورية السلام ونعم البلد هذا للعدو » .

بهذه العبارات الحزينة التي تفيض بالحسرة رثى هرقل الحكم البيزنطي

(١) فتوح الشرق ١٢٥ - ١٢٧

(٢) الطبري ٦٠٢/٣ عن سيف عن أبي الزهراء القشيري عن رجل من بني قشير .

(٣) الطبري ٦٠٣/٣ عن سيف عن عبادة وخالد .

البلاذري ١٦٢

الأزدي ٢٣٤ حدثني أبو جهضم الأزدي عن عبد الرحمن بن السليك الفزاري عن عبد الله بن قرط الثمالي .

للشام ، ولم يمض على استنقاذها من قبضة الفرس كثير وقت .

اللاذقية

استخلف أبو عبيدة على حمص عبادة بن الصامت قبل أن يمضي إلى بيت المقدس . فأتى عبادة اللاذقية[1] فقاتله أهلها وكان لها باب عظيم حصين لا يفتحه إلا جماعة من الناس . فلما رأى صعوبة فتحها عسكر على بعد من المدينة ثم أمر أن تحفر حفائر تستر الواحدة منها الرجل وفرسه . واجتهد المسلمون في حفرها حتى فرغوا منها ، ثم أظهروا الرجوع إلى حمص نهارا ، فلما جُنَّ عليهم الليل عادوا إلى حفرهم فاستتروا فيها وأهل اللاذقية يظنون أنهم قد انصرفوا عنهم . فلما أصبحوا فتحو بابها وأخرجوا سرحهم ، فصبّحهم المسلمون وكبسوهم فراعهم ذلك ودخل المسلمون من باب المدينة ففتحوها عنوة ودخل عبادة الحصن وعلا حائطه وكبّر من فوقه . وهرب قوم من نصارى اللاذقية الى اليُسيِّد ثم طلبوا الأمان على أن يرجعوا إلى أرضهم وقبل منهم عبادة على خراج يؤدونه ، وتركت لهم كنيستهم وبنى المسلمون باللاذقية مسجداً جامعاً بأمر عبادة .

ثم ورد عبادة السواحل[2] ففتح مدينة تعرف باسم بلدة على فرسخين من جبلة ، فتحها عنوة وكانت حصنا للروم جلوا عنه عند فتح المسلمين حمص فشحنها عبادة بن الصامت بالمسلمين . كما فتح عبادة أنطرطوس[3] وكان حصنا ، ثم جلا عنه أهله .

كان عبادة طويلا[4] جسيا جيلا ، توفي عام ٣٤ هـ بالرملة أو بالقدس وهو ابن اثنتين وسبعين سنة ، يعني أنه عام ١٦ هـ كان ابن أربعة وخمسين سنة .

(١) البلاذري ١٥٧ حدثني أبو حفص الدمشقي ، عن سعيد بن عبد العزيز ، وحدثني موسى بن ابراهيم التنوخي عن أبيه عن مشايخ من أهل حمص .

(٢) البلاذري ١٥٨ وحدثني أبو حفص الدمشقي قال حدثني سعيد بن عبد العزيز وسعيد بن سليمان الحمصي .

(٣) البلاذري ١٥٨ وحدثني سفيان بن محمد قال حدثني أبي وأشياخنا .

(٤) أسد الغابة ١٦١/٣

القدس

ربيع الآخر ١٦ هـ - مايو آيار ٦٣٧ م

بعد أن أتم عمرو بن العاص تطهير سائر فلسطين لم يبق سوى قيسارية وإيلياء أو بيت المقدس كما كانوا يطلقون عليها في المصادر القديمة وهي القدس . أما قيسارية فهي مدينة ساحلية سبيلها إلى بيزنطة موصول بحرا . وأما القدس فقد صارت جيبا معزولا محاصرا فوق جبال الجليل .

ولئن كانت لدمشق الأهمية الأولى من الناحية الحربية لحصانتها واعتصامها خلف أسوارها حتى غدت قلعة منيعة تخترقها الأنهار ، فلقد كان للقدس قداسَتها وأهميتها الدينية والروحية وما زالت حتى يومنا هذا وإلى أن تقوم الساعة وهي بالنسبة للمسلمين أولى القبلتين ومسرى خاتم النبيين ﷺ .

وكان فتح القدس سنة[1] ست عشرة ، وفيها أتى عمر بن الخطاب الجابية .

(١) الطبري ٦١٠/٣ ذكر سيف عن أبي عثمان وأبي حارثة قالا في ربيع الآخر ١٦ هـ = سبتمبر/اكتوبر ٦٤٠ م

ابن عساكر ٥٥٣/١ أخبرنا ابو محمد الأكفاني [هبة الله ، أمين ثقة حافظ شديد العناية] ، نا عبد العزيز الكتاني [إمام محدث مكثر متقن] ، أنا أبو محمد بن أبي نصر [عبد الرحمن بن عثمان ، اختلفوا فيه] ، أنا ابو الميمون بن راشد [نجهله] ، نا أبو زرعة [صدوق حافظ]، حدثني محمود بن خالد [ثقة أمين] ، قال عن محمد بن عائذ [ثقة] ، عن الوليد بن مسلم ، عن عثمان بن حصن بن علاق [ثقة] قال يزيد بن عبيدة [حافظ] .

ابن عساكر ٥٥٣/١ أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، أنا أبو بكر بن الطبري ، أنا أبو الحسين بن الفضل ، أنبا عبد الله بن جعفر ، أخبرنا يعقوب .

ابن عساكر ٥٥٤/١ أخبرنا أبو علي الحسين بن علي بن أشليها وابنه أبو الحسن علي ، قالا أنا أبو الفضل بن الفرات ، أنا أبو محمد بن أبي نصر ، أنا أبو القاسم بن أبي العقب ، أنا أحمد بن ابراهيم القرشي ، نا ابن عائذ ، نا الوليد بن مسلم ، حدثني عثمان بن حصن ، عن يزيد بن عبيدة .

ابن عساكر ٥٥٤/١ أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، أنبا عمر بن عبيد الله بن عمر ، أنا أبو الحسين بن بشران ، أنا عثمان بن أحمد ، نا حنبل ، نا عاصم بن علي ، أخبرنا أبو معشر .

أرطبون [1] الروم وأرطبون العرب

كان الروم في حصونهم وخنادقهم وعليهم أرطبون ، وكان أدهى الروم وأبعدهم غورا وأنكاهم فعلا . وأقام عمرو لا يقدر من أرطبون على سقطة ولا تشفيه الرسل ، فولى الأمر بنفسه ودخل على أرطبون كأنه رسول فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد .

وشعر أرطبون بألمعية عمرو وهو لا يعرفه فقال في نفسه: إن هذا لعمرو أو إنه الذي يأخذ عمرو برأيه ! وما كنت لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله . ثم دعا واحدا من حرسه وأسرّ اليه بقتله ، قال : اخرج فقم مكان كذا وكذا فإذا مر به فاقتله . وفطن عمرو لما يدبر له .

قال عمرو: قد سمعت مني وسمعتُ منك، فأما ما قلته فقد وقع مني موقعا ، وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكانفه [نعاونه] ويشهدنا أموره فأرجع فآتيك بهم الآن ، فإن رأوا في الذي عرضت مثل الذي أرى فقد رآه أهل العسكر والأمير ، وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم وكنتَ على رأس أمرك . فقال

ابن عساكر ٥٥٥/١ أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، نا أبو بكر بن الطبري ، أنا أبو الحسن بن الفضل ، أنا عبد الله بن جعفر ، نا يعقوب ، حدثني سلمة ، عن أحمد بن حنبل ، عن اسحق بن عيسى ، عن أبي معشر . وفي رواية أن كتاب صلح إيلياء كتب سنة خمس عشرة [الطبري ٦٠٩/٣ س ش س عن خالد وعبادة]

وفي رواية أن فتح إيلياء كان سنة سبع عشرة [البلاذري ١٦٤ حدثني أبو حفص الدمشقي عن سعيد بن عبد العزيز عن أشياخه وعن بقية بن الوليد عن مشايخ من أهل العلم . البلاذري ١٦٥ حدثني هشام بن عمار عن الوليد عن الأوزاعي].

(١) الطبري ٦٠٥/٣ ذكر سيف عن أبي عثمان وأبي حارثة عن خالد وعبادة .

ذكر الرواة أن هذه الواقعة كانت في أجنادين ، ومن حيث لم يكن عمرو وهو قائد المسلمين في أجنادين ومن حيث لم تكن أجنادين حصنا ، فإننا نرى أن موضعها في حصار عمرو القدس حيث كان عمرو على المسلمين الذين فتحوها وأرطبون على الروم الذين بها وهي التي قال عمر بن الخطاب فيها « رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عما تنفرج » .

أرطبون: نعم . ودعا رجلا فأسَرّ إليه وقال : اذهب إلى فلان فرده إلي. فرجع إليه الرجل ، وقال لعمرو : انطلق فجيء بأصحابك . فخرج عمرو وقال : لا أعود لمثلها أبدا . وعلم أرطبون أن عمرو بن العاص قد خدعه فقال : خدعني الرجل ! هذا أدهى الخلق . وبلغت عمر بن الخطاب فقال : غلبه عمرو ، لله عمرو !

عمر في الجابية

كان عمرو يحاصر القدس ، وفرغ أبو عبيدة بن الجراح من تطهير شمال الشام، فولىّ عبادة بن الصامت حمص وسار إلى عمرو. كان أهل بيت المقدس يدركون ما هم فيه ، فطلبوا من أبي عبيدة أن يصالحهم على مثل صلح أهل مدن الشام وأن يكون المتولي لعقد[1] الصلح عمر بن الخطاب ، فكتب أبو عبيدة بذلك إلى عمر .

استخلف عمر عليا على المدينة وخرج إلى الجابية[2] ، ومع خروجه من المدينة كتب إلى أمراء جيش الشام أن يوافوه بالجابية ليوم حدده لهم وأن يستخلفوا على أعمالهم . فكان أول من لقيه بالجابية يزيد بن أبي سفيان ثم أبو عبيدة ثم خالد بن الوليد ، ثم انضم عمرو وشرحبيل إلى عمر بالجابية فوافقاه راكبا فقبلا ركبتيه وضم عمر كل واحد منهما [3] محتضنهما .

ومع قدوم عمر الجابية انفلت أرطبون من القدس فلحق بمصر ، فكان الذي صالح عن فلسطين رجل يدعى العوّام[1] من أهل إيلياء والرملة . وقد صالح عمر أهل القدس وهو بالجابية وكتب لهم فيها الصلح .

(١) البلاذري ١٦٤ حدثني أبو حفص الدمشقي عن سعيد بن عبد العزيز عن أشياخه وعن بقية بن الوليد عن مشايخ من أهل العلم .

(٢) الطبري ٦٠٨/٣ سيف عن أبي عثمان وأبي حارثة عن عدي بن هسل .

(٣) الطبري ٦١٠/٣ سيف عن أبي عثمان وأبي حارثة عن سالم بن عبد الله .

« بسم الله الرحمن الرحيم[١] .

هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يُكرَهون على دينهم ، ولا يُضَار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من[٢] اليهود .

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت [اللصوص] ، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنوا على أنفسهم وعلى بيعهم وصُلُبهم حتى يبلغوا مأمنهم . ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان ، فمن شاء منهم قعدو عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم .

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية .

شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف

---

(١) الطبري ٦٠٩/٣ ذكر سيف ، عن أبي عثمان وأبي حارثة ، عن خالد وعبادة .
وقد أخذنا بأنه كتب سنة ست عشرة .

(٢) كان اليهود قد اغتنموا فرصة الغزو الفارسي لبلاد الشام فهاجموا النصارى وأثخنوا فيهم وكانوا يشترون من الفرس الاسرى النصارى ليذبحونهم ، فزاد العداء بينهم وبين النصارى ، فاشترط هؤلاء على عمر عدم سكنى اليهود معهم ـ تاريخ موجات الجنس العربي في بلاد الشام ص ٢٤٤ و ٣٢٥ .

ومعاوية بن أبي سفيان . وكتب وحضر سنة خمس عشرة » . أ . هـ .

وبعد أن بعث عمر بأمان أهل القدس وسكنها الجند سار إليها من الجابية ، فرأى فرسه يتوجع من حافره فنزل عنه[١] ، وأتوه ببرذون فركبه فهزه وتخلّج به فنزل عنه وضرب وجهه بردائه وقال : قبح الله من علمك هذا ، هذا من الخيلاء ! ثم دعا بفرسه بعد أن أجمّه أياما حتى صلب حافره فركبه ثم سار حتى انتهى إلى بيت المقدس . ثم مضى حتى دخل المسجد واتجه نحو محراب داود[٢] والمسلمون معه فدخله وقرأ سجدة داود فسجد وسجد المسلمون معه .

دخول القدس

عن رجاء[٣] بن حيوة عمن شهد قال : لما شخص عمر من الجابية إلى إيلياء ، فدنا من باب المسجد قال « ارقبوا لي كعبا » [كعب الأحبار] ، فلما انفرق به الباب قال « لبيك اللهم لبيك بما هو أحب إليك » ثم قصد المحراب ، محراب داود عليه السلام ، وذلك ليلا فصلى فيه ، ولم يلبث أن طلع الفجر ، فأمر المؤذن بالإقامة ، فتقدم فصلى بالناس وقرأ بهم «ص» وسجد فيها . ثم قام وقرأ بهم في الثانية صدر « بني إسرائيل » [يعني سورة الإسراء] ثم ركع ثم انصرف فقال « عليّ بكعب » فأتى به ، فقال « أين ترى أن نجعل المصلى ؟ » ... الخ

رأينا كتاب صلح أهل بيت المقدس الذي كتبه لهم عمر وما فيه من سماحة . ومن لم ير هذه السماحة من المغرضين فليقارن ما جاء به بمعاملة الروم لشعب الشام قبل الفتح وليقارن معاملتهم السابقة لليهود بها . وعلى ذلك يحق لنا أن نتوقع ترحيب أهل القدس وأهل الشام جميعا بالفتح الاسلامي . ولكن الكاتب فيليب حتّي كتب[٤] شيئا نضعه بنصه تحت نظر القارىء لينظر فيه بنفسه ، قال :

---

(١) الطبري ٦١٠/٣ سيف عن أبي عثمان وأبي حارثة عن عبادة وخالد .

(٢) الطبري ٦١٠/٣ عن أبي مريم مولى سلامة .

(٣) الطبري ٦١١/٣ .

(٤) تاريخ سورية ١٥/٢ .

على أن دخول الخليفة المُسِن[١] إلى القدس راكبا جملا لابسا رث الثياب لم يترك في الناس أثرا محمودا ، وكان في استقباله البطريرك صفرونيوس«حامي الكنيسة معسول اللسان » ـ يرجح أنه كان ماروني الأصل ـ قيل إنه التفت إلى أحد مرافقيه وكلمه باليونانية قائلا « حقا هذا رجس الخراب الذي تكلم عنه النبي دانيال ورآه قائما في المكان المقدس » . أ . هـ .

رواية تحتمل الصدق وعكسه ، فإن صدقت فهو بطر من صفرونيوس لا ينتقص من عمر مثقال ذرة . أما ما يشير إليه فقد جاء في سفر[٢] دانيال من العهد القديم ... وتقوم منه أذرع وتنجّس المَقْدِس الحصين وتنزع المحرقة الدائمة وتجعل الرجس المخرب . وجاء في انجيل[٣] متى عن نبوءة دانيال : « فمتى نظرتم رجسة الخراب التي قال عنها دانيال النبي قائمة في المكان المقدس ، ليفهم القارىء ، فحينئذ ليهرب الذين في اليهودية إلى الجبال ، والذي على السطح فلا ينزل ليأخذ من بيته شيئا ، والذي في الحقل فلا يرجع إلى ورائه ليأخذ ثيابه ، وويل للحبالى والمرضعات في تلك الأيام، وصلوا لكي لا يكون هربكم في شتاء ولا في سبت ، لأنه يكون حينئذ ضيق عظم لم يكن مثله منذ ابتداء العالم إلى الآن ولن يكون ... » وكذلك جاء في انجيل مرقس[٤] .

لقد جئنا بهذه النصوص لينظر القارىء هل ينطبق هذا الذي جاء على لسان دانيال على ما اتسم به الفتح الإسلامي من السماحة والتسامح ؟

(١) لم يكن عمر مسنا فقد قتل عام ٢٣ هـ وهو ابن ثلاث وستين سنة يعني أنه عام ١٦ هـ لم يكن قد تجاوز السادسة والخمسين .
(٢) دانيال ١١ : ٣١ .
(٣) انجيل متى ٢٤ : ١٥ ـ ٢١ .
(٤) انجيل مرقس ١٣ : ١٤ ـ ١٩ .

طاعون عمواس

Emmaus Plague

هكذا تم فتح الشام ما عدا قيسارية ، فهي ما زالت محاصرة برا ، مفتوحة سبلها بحرا . وفي العام الثامن[١] عشر للهجرة وقع شيء فظيع مروع ، هو ما تذكره المصادر باسم « طاعون عمواس » . وليس المقصود بكلمة طاعون في اللغة المرض المعروف الذي تنقله البراغيث ولكن الطاعون في لغة العرب هو الوباء أيا كان . كان موتا لم يُرَ مثله ، طمع له العدو في المسلمين وتخوفت له قلوب المسلمين ، كثر موته وطال مكثه ، مكث[٢] أشهرا . قيل مات فيه خمسة[٣] وعشرون ألفا ، وقيل كان المسلمون أربعة وعشرون ألفا فأطاح الطاعون[٤] بعشرين ألفا منهم وبقي أربعة آلاف وقيل أن أبا عبيدة كان في ستة وثلاثين ألفاً من الجند فلم يبق[٥] إلا ستة آلاف رجل . وقد بدأ الوباء من عمواس ثم انتشر حتى عم الشام وبلغ البصرة .

قال طارق بن[٦] شهاب : كنت مع أبي عبيدة بالشام عام طاعون عمواس ، فلما اشتعل الوجع وبلغ ذلك عمر كتب إلى أبي عبيدة ليستخرجه منه « أن سلام

(١) الطبري ٩٦/٤ حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن محمد بن اسحق .
البلاذري ١٦٥ حدثني هشام بن عمار قال حدثني الوليد بن مسلم عن تميم بن عطية عن عبد الله بن قيس .
ابن عساكر ٥٥٤/١ عن احمد بن حنبل .
٥٥٥ عن الليث بن سعد وعن أبي معشر .
(٢) الطبري ٦٣/٤ س ش س عن أبي عثمان وأبي حارثة والربيع بإسنادهم .
(٣) الطبري ١٠١/٤ عن الواقدي
(٤) ابن عساكر ٥٥٨/١ .
(٥) ابن عساكر في ترجمته لأبي عبيدة بن الجراح ص ٣١٥ .
(٦) الكامل في التاريخ ٥٥٨/٢ .
ابن عساكر في ترجمة أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح ص ٣١٣ ، ٣١٥ في إسنادين عن طارق بن شهاب .
دخل حديث بعضهم في بعض .

عليك ، أما بعد . فقد عرضت لي إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها ، فإذا أتاك كتابي هذا فإني أعزم عليك إن أتاك ليلا ألا تصبح حتى تركب وإن أتاك نهارا ألا تمسي حتى تركب إليّ فإذا أنت نظرت في كتابي هذا ألا تضعه من يدك حتى تُقْبل » . فعرف أبو عبيدة ما أراد عمر فكتب إليه « يا أمير المؤمنين قد عرفتُ حاجتك إليّ وأنك تستبقي ما ليس بباق وإني في جند من المسلمين لا أجد بنفسي رغبة عنهم ، فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله فيّ وفيهم أمره وقضاءه ، فحللني من عزيمتك » .

فلما قرأ عمر الكتاب بكى ، فقال الناس « يا أمير المؤمنين أمات ابو عبيدة ؟ » قال « لا ، وكأن قد » .

حين نعرض لخبر مزعج مثل هذا يتسارع إلى الذهن هذا التساؤل : مَنْ مِنَ الذين نعرف أسماءهم مات في هذا الطاعون ؟ نعم[1]

مات أمير أمراء فتح الشام أبو عبيدة بن الجراح وله ثمان وخمسون سنة ، واستخلف معاذ بن جبل الأنصاري ، قيل استخلفه حين حضرته الوفاة وقيل استخلفه حين خرج من الجابية إلى بيت المقدس[2] للصلاة فيه .

ومات معاذ بن جبل كما ماتت امرأتاه[3] وابنه . ومات الفضل بن العباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ . ومات شرحبيل بن حسنة وهو ابن تسع وستين سنة ، أصابه الطاعون هو وأبا عبيدة في يوم[4] واحد . ومات سهيل بن عمرو من أشراف قريش والحارث بن هشام أخو أبي جهل وكان خرج في[5] سبعين من أهل

(١) البلاذري ١٦٥ حدثني هشام بن عمار ، حدثني الوليد بن مسلم ، عن تميم بن عطية . عن عبد الله بن قيس .
الكامل في التاريخ ٥٥٨/٢ .
(٢) ابن عساكر في ترجمة أبي عبيدة ص ٣١٦ .
(٣) المعارف ٦٠١ ، ٢٨٢ .
(٤) أسد الغابة ٥/٣/٢ في ترجمة شرحبيل .
(٥) الكامل في التاريخ ٥٦٢/٢ .

بيته فلم يرجع منهم إلا أربعة . ومات عامر بن غيلان بن سلمة الثقفي،وكثير من أبناء[1] خالد بن الوليد .

انطلق ابو عبيدة من الجابية يريد الصلاة ببيت المقدس فأدركه أجله بفحل فلما حضرته[2] الوفاة قال « اقرئوا أمير المؤمنين السلام واعلموه انه لم يبق من أمانتي شيء إلا وقد قمت به وأديته إليه إلا ابنة خارجة نُكحت [تزوجت] في يوم بقي من عدّتها لم أكن قضيت فيه بحكومة . وقد كان بعث إليّ بمائة دينار فردوها إليه ، وادفنوني من غربي نهر الأردن إلى الأرض المقدسة » ثم عاد فقال « ادفنوني حيث قضيت فإني أتخوف أن تكون سُنّة » .

وكان معاذ بن جبل قد أرسل الحارث بن عميرة في أثر أبي عبيدة يسأله كيف هو ، فأراه أبو عبيدة طعنة خرجت في كفه فعظم شأنها في نفس الحارث وخاف منها حين رآها . ويبدو أن معاذا قد سار إلى أبي عبيدة ففي رواية أن أبا عبيدة دعا من حضره من المسلمين فقال لهم « إني موصيكم بوصية إن قبلتموها لن تزالوا بخير : أقيموا الصلاة وصوموا شهر رمضان وتصدقوا وحجوا واعتمروا وتواصوا وانصحوا لأمرائكم لا تغشوهم ، ولا تلهكم الدنيا فإن امرءا لو عمر ألف حول ما كان له بد من أن يصير إلى مصرعي هذا الذي ترون . إن الله كتب الموت على بني آدم فهم ميتون ، وأكيَسُهم أطوعهم لربه وأعملهم ليوم معاده والسلام عليكم ورحمة الله . يا معاذ بن جبل صلّ بالناس » .

ومات رحمه الله ، فقام معاذ فقال « يا أيها الناس توبوا إلى الله من ذنوبكم توبة نصوحا فإن عبدا لا يلقى الله تائبا من ذنبه إلا كان حقا على الله أن يغفر له ، من كان عليه دَيْن فليقضه فإن العبد يُرْتهن بدَيْنه ، ومن أصبح منكم مهاجرا أخاه فليصالحه ولا ينبغي لمسلم أن يهجر أخاه أكثر من ثلاث وهو الذنب العظيم . إنكم

(١) المعارف ٦٠١ ، ٢٨٢ .
(٢) ابن عساكر - ترجمة ابي عبيدة ٣١٦ .

أيها المسلمون قد فُجعتم برجل ما أزعم أني رأيت عبدا أبر صدرا ولا أبعد من الغائلة ولا أشد حبا للعامة ولا أنصح للعامة منه ، فترحموا عليه رحمه الله واحضروا الصلاة عليه » .

ولما أتى إلى عمر بن الخطاب خبر وفاة أبي عبيدة كتب إلى يزيد بن أبي سفيان بولاية الشام مكانه . ومرض يزيد وهو يحاصر قيسارية فانصرف إلى دمشق حيث توفي بها في آخر سنة ١٨ هـ ، فكتب عمر إلى معاوية بن أبي سفيان بتوليته ما كان يتولاه أخوه يزيد ، وشكر أبو سفيان ذلك لعمر وقال له : وَصَلَتْكَ يا أمير المؤمنين رَحِم .

الطاعون شهادة

ولما عم الوباء رأى فيه بعضُ المسلمين عذابا من الله فقالوا هذا طوفان هذا رجز ، وبلغ ذلك معاذ بن جبل فبعث بعض فرسانه يجمعون الناس عنده ، فلما اجتمعوا قام فيهم [1] فقال : « أيها الناس والله لو أعلم أني أقوم فيكم بعد مقامي هذا ما تكلفت اليوم القيام فيكم . وقد بلغني أنكم تقولون هذا الذي وقع فيكم طوفان ورجز . والله ما هو طوفان ولا رجز ، وإنما الطوفان والرجز كان عَذّب الله به الأمم ، ولكنها شهادة أهداها الله لكم واستجاب فيكم دعوة نبيكم ﷺ .

ألا فمن أدرك خمسا فاستطاع أن يموت فليمت ، أن يكفر الرجل بعد إيمانه ، وأن يسفك الدم بغير حقه ، وأن يُعْطى مال الله بأن يكذب أو يفجر ، وأن يظهر التلاعن بينكم ، أو يقول الرجل حين يصبح والله لئن حييت أومت ما أدري ما أنا عليه » .

وخطب عمرو بن العاص [2] الناس فقال « إن هذا الطاعون رجس فتفرقوا عنه في هذه الشعاب وفي هذه الأودية » .

---

(١) ابن عساكر ٥٥٨/١ بإسناده عن يونس بن ميسرة بن حَلْبَس .

(٢) أسد الغابة ٥١٣/٢ .

فبلغ ذلك شرحبيل بن حسنة فغضب فجاء وهو يجر ثوبه معلق نعله بيده فقال « صحبت رسول الله ﷺ ، وعمرو أضل من حمار أهله [يعني وهو ما زال كافرا] ، ولكنه رحمة ربكم ودعوة نبيكم ووفاة الصالحين قبلكم » .

وقد جاء في صفة هذا [1] الوباء أنه داء مثل غُدَّة الجمل وأنه جرب كالدمل . والغُدَد [2] طاعون الإبل وهو قطعة لحم صلبة تحدث عن داء بين الجلد واللحم . وفي عهد جستنيان [٥٢٧ ـ ٥٦٧ م] وقع طاعون مثل هذا وبمثل هذه الأعراض وإن جاءت في صفته تفاصيل أكثر [3] ، كان الناس يفاجأون بحمى خفيفة لا يصاحبها تغير في النبض أو اللون ، وفي نفس اليوم أو اليوم التالي تتورم الغدد وخاصة غدد أصل الفخذ وتحت الإبط وتحت الأذن وعندما تنتفخ هذه الأورام كان يوجد بها مادة سوداء في حجم حبة العدس تسمى فحما Coal فإذا انتفخت وتقيحت نجا المريض ، أما إذا بقيت صلبة انتهت حياته عادة في اليوم الخامس وكثيرا ما كانت أجسام المرضى تغطي بالبثور أو الدمامل السوداء وهي أعراض الموت المباشر .

والطاعون مرض وبائي معد [4] يصيب الحيوانات القارضة كالجرذان وينتقل منها إلى الإنسان عن طريق البراغيث ، والطاعون الدملي يتميز بالتهاب وتورم في العقد الليمفاوية ، والطاعون التسممي تتسرب الميكروبات من الغدد الملتهبة إلى الدم . من هذه الأعراض نستطيع القول أن طاعون عمواس لم يكن مجرد طاعون بالمعنى اللغوي الذي هو أي وباء ينتشر وإنما كان طاعونا بالمعنى المعروف طبيا والذي عرف أحيانا بالموت الأسود black death . وصف القس [5] ميخائيل الفرانسيسكاني طاعون صقلية ١٣٤٧ م فقال : لم يكن أي شخص يستطيع أن

---

(١) ابن عساكر ٥٥٨/١ ، ٥٥٩ بثلاثة أسانيد عن معاذ بن جبل .

(٢) المنجد .

(٣) اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ٤٦٦/٢ .

(٤) الموسوعة الثقافية ـ مؤسسة فرانكلين .

(٥) المعرفة المجلد السادس ص ١٠٣٤ .

يفلت من الموت بأي وسيلة ، وكانت العدوى تنتشر إلى كل شخص يلامس المرضى ، وكان الذين تصيبهم العدوى يشعرون بألم يخترق أجسادهم كلها ويطويها ، ثم كان يظهر على أفخاذهم وأذرعهم دمل في مثل حجم حبة العدس وكان هذا الدمل يعدي الجسم كله ويخترقه بحيث كان المريض يتقيأ دما بقوة وكان قيء الدم يستمر ثلاثة أيام بلا انقطاع ، ولم تكن توجد وسيلة لشفائه ثم يقضي المريض نحبه في النهاية .

قيسارية

بدأت العمليات تجاه قيسارية حين نزل عليها عمرو[1] بن العاص في جمادي الأولى ١٣ هـ يولية ٦٣٤ م ، فكان يقيم عليها ما أقام فإذا كان للمسلمين اجتماع في أمر عدوهم سار إليهم ، فشهد أجنادين وفحل بيسان ومرج الصفر ودمشق واليرموك ثم رجع إلى فلسطين فحاصر قيسارية بعد فتح القدس . وخرج عمرو بن العاص إلى مصر من قيسارية دون أن يفتحها . وتولى أمرها يزيد بن أبي سفيان بعد وفاة أبي عبيدة غير أنه أصيب بالطاعون ، فوكل أخاه معاوية بمحاصرتها وتوجه هو إلى دمشق حيث توفي بها ، وبقي معاوية في سبعة عشر ألفا يعالج فتحها فحاصرها حتى كان فتحها في شوال ١٩ هـ سبتمبر/اكتوبر ٦٣٧ م بعد أن كان يئس من فتحها .

كانت قيسارية مدينة كبيرة ، قالوا إن معاوية[2] وجد بها ٧٠٠ ٠٠٠ من المرتزقة ومن السامرة ٣٠ ٠٠٠ ومن اليهود ٢٠٠ ٠٠٠ ووجد بها ٣٠٠ سوق قائمة كلها وكان يحرسها في كل ليلة على سورها مائة ألف . وقد تكون في الأرقام مبالغة ولكنها تدل على أية حال على كبر حجم قيسارية .

وكان على الروم رجل اسمه أبنى فكان يزاحف معاوية ، ولا يزاحفه مرة إلا غلبه معاوية وأعاده إلى حصنه[3] . ثم كانت آخر مزاحفة فخرجوا من حصونهم

(١) البلاذري ١٦٦ حدثني محمد بن سعد قال حدثني الواقدي .

(٢) البلاذري ١٦٧ حدثني محمد بن سعد قال حدثني محمد بن عمر عن عبد الله بن عامر .

(٣) الطبري ٦٠٤/٣ ذكر سيف عن أبي عثمان وأبي حارثة ، عن خالد وعباده .

واقتتلوا في حفيظة واستماتة حتى بلغت قتلاهم في المعركة ٨٠ ٠٠٠ وأكملها في هزيمتهم ١٠٠ ٠٠٠ . يبدو أن الروم أرادوا الاحتفاظ بقيسارية موطىء قدم لهم على ساحل الشام الجنوبي في فلسطين .

وفي الليل أتى يهودي يدعى[1] يوسف إلى المسلمين فدلهم على طريق في سرب فيه الماء إلى حِقو الرجل على أن أمنوه على نفسه وأهله . ودخلها المسلمون ليلا وكبروا فيها ، وأراد الروم أن يهربوا من ذلك السرب فوجدوا المسلمين عليه ، وفتح الفريق الذي تسلل إلى داخل المدينة بابها فدخل معاوية ومن معه ، وكان فيها عدد من العرب . وقد بلغ سبي قيسارية ٤٠٠٠ رأس بعث بهم معاوية إلى عمر فأنزلهم الجرف .

وبعث معاوية بالفتح إلى عمر مع[2] رجلين من بني الضبيب من جذام ، ثم خاف ضعفهما عن المسير فبعث بعدهما رجلا من خثعم ، فكان الخثعمي يجهد نفسه في السير ليلا ونهارا وهو يقول :

أَرَّق عَيْنَيَّ أخَوَا جُذام   أُخَيَّ جُشْمٍ وأخو حرام
كيف أنام وهما أمامي   إذ يرحلان والهجير طامٍ

وفي رواية أنه بعث بعد الجذاميين عبد الله بن علقمة الفراسي وزهير بن الحِلاب الخثعمي ، فلحقاهما وطوياهما وهما نائمان .

دخل البشير على عمر فكبّر عمر وكبر المسلمون ونادى عمر أن قيسارية فتحت قسرا فأبات المسلمين بالمدينة على الفرح ليلا وحمد الله وقال للناس : لتحمدوا الله على فتح قيسارية .

(١) البلاذري ١٦٨ بإسناده السابق .

(٢) الطبري ٦٠٤/٣ بإسناده السابق .

البلاذري ١٦٨ بإسناده السابق .

عملية فتح الشام

الوقائع

بعد أن استعرضنا تفصيلا وقائع فتح الشام وما اعترضها من اختلاف بين الرواة والخلوص من ذلك إلى ما أسفر عنه البحث والتحقيق ، قد يكون مفيدا أن ننظر نظرة شاملة إلى تلك الأحداث نعيدها إلى الأذهان مركزة حتى يتسنى أن نتأملها استراتيجيا .

١ - سارت أربعة جيوش من شبه جزيرة العرب إلى الشمال فأحاطت ببلاد الشام من شرقيها وجنوبها ، وانضم إليها جيش خامس هبط إليها من العراق بقيادة خالد بن الوليد وتولى القيادة العامة .

٢ - وجه المسلمون قوتهم الرئيسية نحو دمشق مع بقاء معسكرات أخرى لهم إلى الجنوب في بصرى والبلقاء وفلسطين .

٣ - وجه الروم جيشاً كبيراً نحو بصرى في حين كانوا يحشدون جيشا أكبر في أجنادين في الجنوب .

٤ - انسحب المسلمون من جميع مراكزهم على الحدود أو حول دمشق ليتجمعوا في مقابلة الروم بأجنادين ، وهناك أوقعوا بالروم أول هزيمة كبرى بالشام .

٥ - اتجه المسلمون مرة أخرى إلى دمشق فحاصروها .

٦ - أرسل هرقل قواته إلى بيسان فرجع المسلمون إلى الجنوب وجعلوا معسكرهم في فحل حيث واجهوا الروم بين فحل وبيسان وأوقعوا بهم ثاني هزيمة كبرى .

٧ - عاد المسلمون بعد فحل يحاصرون دمشق حتى تم لهم فتحها .

٨ - وجه هرقل أقصى وأكبر ما استطاع جمعه من حشود حتى اليرموك وهناك كال المسلمون أقسى هزيمة بالروم البيزنطيين ولم يعد لهم بالشام جيش كبير يؤبه له .

تحليل الوقائع

نلاحظ مما تقدم أن المسلمين كانوا يوجهون رأس حربتهم نحو دمشق وأن هرقل لم يكن يقابل ذلك بهجوم مباشر ضدهم هناك ، وإنما كان يبعث قواته المرة تلو الأخرى إلى الجنوب من المواقع التي وصلوا إليها دائما ، إلى أجنادين وهم حول دمشق، ثم إلى بيسان وهم حول دمشق ، ثم إلى مرج الصفر وهم حول دمشق ، ثم حتى اليرموك وهم بحمص ودمشق والجابية .

ماذا كانت الاستراتيجية البيزنطية لهذه الحرب ؟

من الواضح أنها كانت تستهدف استنقاذ الأرض المفقودة وذلك بإجبار المسلمين على الانسحاب من الشمال إلى الجنوب .

وماذا كانت استراتيجية المسلمين ؟

كانت تستجيب لما يستهدفه هرقل من انسحاب إلى الجنوب ولكن بهدف آخر هو دحر الجيش البيزنطي حيثما وجد .

هرقل كان يخطط لاسترداد الأرض والمسلمون كانوا يهدفون إلى تدمير القوة الحربية للبيزنطيين ، فأي التخطيطين كان أصوب ؟

لقد أجابت الأحداث وقضي الأمر ! إن الأرض لمن غلب . فلن نخسر شيئا إذا تركنا الأرض مؤقتا لنعود إليها بعد ذلك .. أما فقدان الجيش فهو الكارثة . ولقد كانت كل استراتيجية من الأثنتين تعكس خلفية أصحابها ، فإن الدولة البيزنطية كانت دولة توسعية تسعى إلى إقامة امبراطورية مترامية الأطراف تتسع إلى أبعد ما تستطيع . وحروبها السابقة مع الدولة الساسانية الفارسية كانت داخل هذا النطاق ، إما لاستقطاع بعض اراضي تلك الدولة لضمها إلى سلطان بيزنطة وإما دفاعا أمام الهجمات الساسانية التي كانت تستهدف هي الأخرى ضم الارض وتوسيع رقعتها . وكلتاهما كانت تستذل الناس وتستعبد العباد الذين عاشوا على تلك الأرض التي كانت مسرحا للقتال بين الطرفين . وحين تقدم

المسلمون إلى الشام لم يأخذ الروم الأمر إلا على هذا النحو الذي اعتادوه .

أما المسلمون فإن الأمر بالنسبة إليهم يختلف . نعم لقد كانوا يتقدمون بقوات مسلحة لتفتح الأرض ، وعرفت حركتهم تاريخيا باسم الفتوح الاسلامية واشتهرت بذلك . ولكنها لم تكن فتوحا بقصد التوسع والاستيلاء على الأرض واستذلال أهلها وتسخيرهم لصالح الأسياد . لن نكرر هنا ما سبق أن ذكرنا في مناسبات سابقة عن بواعث حركة الفتح الاسلامي ولكن نضيف إليه ما كتب قائد انجليزي شهير غير مسلم هو الفيلد مارشال مونتجمري[1] حيث قال « وقد وصلت الفتوحات الإسلامية مدى لم تصله في أي عهد سابق ... لأنهم كانوا يستقبلون في كل مكان يصلون إليه كمحررين للشعوب من العبودية ، وذلك لما اتسموا به من تسامح وإنسانية وحضارة ، فزاد إيمان الشعوب بهم ، علاوة على تميزهم في نفس الوقت بالصلابة والشجاعة في القتال . وقد أدى كل هذا إلى اعتناق معظم الشعوب التي انتصر عليها العرب الدين الإسلامي . وقد ظلت جميع المناطق التي فتحها العرب في القرن السابع حتى يومنا هذا ما عدا اسبانيا تحتفظ بالدين الإسلامي وكذلك بالعادات والتقاليد والتراث الإسلامي » : وإذ لم تكن الأرض هي الهدف ، فلم يكن صعبا من الناحية النفسية على جيوش المسلمين أن تعود جنوبا تاركة من الأراضي ما كانت قد وضعت يدها عليه . وفي أحداث معاصرة لهذه كان المثنى بن حارثة الشيباني ينسحب أيضا بالمسلمين من جميع ما سبق فتحه من أرض العراق ليقف على تخوم الصحراء ـ أو حتى داخلها ـ انتظارا لحشد جديد هو الذي خاض غمار معركة القادسية .

كان هذا هو منطق الفكر الاسلامي من هذه الحرب وكان ذلك هو منطق الفكر البيزنطي . أما من ناحية الاستراتيجية الحربية فقد كان الصواب في جانب

(١) الحرب عبر التاريخ ١٨٨ .

التخطيط الإسلامي ، أما التخطيط البيزنطي فقد جانبه الصواب . هذه السوابق التاريخية وأمثالها هي التي جعلت المحللين الحربيين والمؤلفين والكتاب في هذا المجال يقررون أن الهدف الاستراتيجي الأول لأي حرب هو تدمير قوة العدو ، ... وبعد هذا يتسنى تحقيق أي أهداف أخرى .

حروب هرقل

لقد رأينا سابقا ونحن نقدم هرقل إلى القراء ماذا فعل في حربه ضد كسرى برويز حين انتزع كسرى منه الجزيرة وآسيا الصغرى والشام ومصر ووقفت جيوشه أمام أسوار بيزنطة ذاتها . رأيناه يحشد ما استطاع من جند ثم يعبر بهم البحر الأسود إلى سواحل أرمينيا حيث هبط وانصب مسرعا نحو مدائن كسرى يحطم في طريقه كل شيء . والآن وهرقل يواجه ذلك المأزق المتحرج من جيوش المسلمين ، هل غاب عنه ذلك الدرس ونسي تلك التجربة ؟ لماذا لم يفكر هرقل في إدارة الحرب على نفس الاستراتيجية ؟ لماذا لم يفكر أن يذهب بقوات أخرى كبيرة من طريق آخر ليغزو المدينة مثلا ؟ سواء فكر أو لم يفكر فإن الأمر يختلف . إن جزيرة العرب بصحرائها القاحلة ما كانت لتحمل جيشا كبيرا غريبا عن أرضها مثل جيش الروم وإن التفكير في ذلك هو حكم بإعدام ذلك الجيش حتى آخر رجل فيه، إن لم يقتل في المعارك فقد كان حريا به أن يموت جوعا وعطشا إلا الأسير . كما أن جيوش المسلمين بالشام قد أمسكت بالمنافذ والسبل إلى شبه الجزيرة ولم يكن لهرقل في البحر الأحمر [القلزم] الأسطول الذي كان يمكنه من نقل جيش مناسب إلى سواحل تهامة .

أما وقد استحال ذلك فلربما كان هذا هو الذي أوحى إلى هرقل بتنفيذ التخطيط على نطاق أضيق فكان دائما يرسل قواته لتطلع على المسلمين في مواقع جنوبي أماكنهم وكان يساعده على ذلك الطبيعة الجغرافية للبلاد فإن امتداد أقاليمها . من الشمال إلى الجنوب كان يسمح له بتحريك قواته على الطرق

الداخلية مع تمتعها بشيء من الأمن حال حركتها حتى تطلع إلى المسرح الذي اختاره للعمليات من المنافذ الطبيعية . عقلية هرقل في الحرب هي التي تفسر لنا اتجاه جيوش الروم دائما نحو جنوب مواقف المسلمين ، والطبيعة الجغرافية للأرض هي التي حددت مواقع أجنادين وبيسان ومرج الصفر ، فكلها تجاه منافذ طبيعية تخرج بجيوش هرقل إلى تلك المواقع ، وكانت جيوش المسلمين تبادر إلى لقائها حيث خرجت .

وصار الشام مسلما

تم فتح الشام واستقرت دولة الإسلام فيه ، وراح المسلمون يرتبون شئونه إداريا ومدنيا ، ويقومون كل عام بغارات صيفية داخل حدود الدولة البيزنطية . ولم تحاول هذه استرجاع الشام مرة أخرى .

في العراق وفارس أسقط المسلمون الدولة الساسانية وطاردوا ملكها يزدجرد الثالث حتى قتلته أيد غير مسلمة في آخر شبر من أرض دولته بعد أن صار وحيدا طريدا اعزل لا يملك قوت يومه ، فإذا لم يحاول الفرس استعادة ملكهم فإن سبب ذلك أن دولتهم الغابرة أضحت موقوذة ماتت من الضرب . أما هرقل فلماذا لم يحاول استرجاع سورية بدلا من قوله « عليك يا سورية السلام ونعم البلد هذا للعدو » ؟

نذهب إلى أن الدولة البيزنطية قد أجبرت على ذلك بسبب استنزاف مواردها في هذه الحرب ، فإن الحروب قديما كانت أو حديثا هي باهظة التكاليف . وإن جيشا تجهزه بيزنطة لاسترجاع الشام يتحتم أن يكون جيشا كبيرا لا يقل عن مائة ألف مقاتل ، ولقد حاقت بهم الهزائم المنكرة وكانوا أكثر من ذلك . حَسَبَ ليدل هارت[1] تكاليف حملة حربية من مائة ألف مقاتل للحروب القديمة وانتهى

(١) مناورات الحرب الدفاعية ١٦٠ .

إلى أنها كانت تتكلف ألف قطعة ذهبية في اليوم الواحد . وقد نخالفه في ذلك ونرى أنها تتكلف اكثر فإن القطعة الذهبية كانت تزن[1] $4\frac{1}{4}$ جراما وما نحسب هذا الوزن كان يكفي نفقات مائة في اليوم .

إن هرقل لم يدافع عن بعلبك ولا عن حمص دفاعا جادا بعد سقوط دمشق ، وقد عزونا ذلك إلى أنه لم يشأ أن يبدد قواته وأنه إنما كان يجمع حشوده ، تلك الحشود التي خاضت معركة اليرموك ، ورجوعا إلى التواريخ والتوقيتات المذكورة في مواضعها نرى أن ذلك الجيش صار حشده قبل يوم اليرموك بنحو ستة أشهر بما يعني ضخامة التكاليف المطلوبة . يقول ليدل هارت[2] « فعندما يسير الجيش إلى ميدان القتال تصبح خزينة الدولة خالية ... إن أفضل السياسات العسكرية هي التي تتوخى ضرب العدو بسرعة ساحقة وأتعس تلك السياسات هي التي تنزلق في حرب طويلة مرهقة ليست لها معالم واضحة ليوم النصر » وما نحسب هرقل إلا أن يكون قد وضع ذلك كله في اعتباره قبل أن يعلن يأسه .

حسن .. ألا يصح ما نذكره عن هذه التكاليف على الطرف الآخر ، المسلمين ؟ بالقطع لا . فلم يكن جيش المسلمين يكلف الخليفة شيئا !! كان يقتات مقاتلوه وإبله وخيوله .. بل ونساؤه أيضا الذين جاءوا معه مما كانوا يغنمون من أرض العدو ، وعلى ذلك لا نعدو الواقع إذا قلنا ان الدولة البيزنطية كانت تتحمل نفقات جيشها وأيضا نفقات جيوش المسلمين ! . وهذا هو الذي أوقع بعض المستشرقين في الزعم أن حركة الفتوح كان باعثها السلب والنهب والجوع ولقد كفانا ليدل هارت مؤونة الرد على ذلك ـ ولقد سبق أن تناولنا هذا الموضوع ـ فقال « إن على القيادة العسكرية الحكيمة أن تحاول ما استطاعت تحقيق النصر السريع أو سد حاجات الجيش من غنائم يظفر بها بنفسه فوق

(١) الطريق إلى المدائن .
(٢) مناورات الحرب الدفاعية ١٦٤ .

أرض العدو ويعيش على مواردها أبان زحفه ومعاركه لتحقيق النصر الكامل .

إن طنا واحدا من القمح يظفر به الجيش الزاحف من أرض العدو يعادل عشرين طنا من قمح الوطن في مجموع النفقات ، فقمح الوطن يحتاج إلى نفقات النقل والصيانة من أرض الوطن إلى معسكر الجيش ، أما القمح المأخوذ من أرض العدو فلا يحتاج إلى شيء من هذا على الإطلاق » . ويتساءل ثم يجيب[1] « لماذا يستولي الجند على الغنائم من أرض العدو ؟ والجواب هنا واضح جدا فالجندي يود النصر لنفسه والمجد القومي لأمته وهدم طاقات العدو وموارده لئلا يهدد مرة أخرى سلامة الوطن . ويجب ألا تكون الغنائم المادية هدف النصر أو الحرب ... إن على الجنود المنتصرين أن يأخذوا كل الأموال والكنوز التي في خزائن الدولة المهزومة والأرزاق التي في مستودعاتها وأن يوزعوها على جنود وضباط الجيش المنتصر » .

إذا قاله ليدل هارت قالوا عِلْماً وفعلوا به ، وإذا فعله المسلمون بكل زهد وعفة قالوا سلبا ونهبا ، وتناسوا أنها الحرب !!!

وهنا يحضرنا قول إدوارد جيبون[2] « تحمل عبقرية النبي العربي وعادات قومه وروح دينه بين طياتها اسباب اضمحلال الامبراطورية الشرقية وسقوطها . وهنا تتركز أنظارنا في لهف وشغف على واحدة من أجدر الثورات بالذكر وهي ثورة مست أمم الارض بأثر جديد خالد »

وبعد . فإن كثيرا مما يمكن ذكره في هذه الخاتمة قد وضعناه سابقا في المقدمة ،

(١) مناورات الحرب الدفاعية ١٦٤ .
(٢) اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها جـ ٣ ص ٧ .

وقد يكون من المناسب أن نختم كتابنا هذا بما قدمناه به ... فإلى المقدمة من جديد ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، والسلام على من اتبع الهدى .

أحمد عادل كمال
٩٩ شارع هارون الرشيد
مصر الجديدة القاهرة .

ذو الحجة ١٣٩٩
نوفمبر ١٩٧٩

مراجع الكتاب

القرآن الكريم

تاريخ الأمم والملوك ، محمد بن جرير الطبري المتوفي ٣١٠ هـ ، دار المعارف بمصر .

تاريخ فتوح الشام ، محمد بن عبد الله الازدي المتوفي ٢٣١هـ ، مؤسسة سجل العرب ١٩٧٠

تاريخ مدينة دمشق ، الحافظ ابن عساكر ، المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥١

تهذيب تاريخ مدينة دمشق ، تصحيح عبد القادر بن احمد بن بدران ، مطبعة روضة الشام ١٩١٤

فتوح البلدان ، البلاذري ـ أحمد بن يحيى المتوفي ٢٧٩ هـ ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦

فتوح الشام ، المنسوب خطأ إلى الواقدي ـ محمد بن عمر ، دار الجيل .

فتوح مصر وأخبارها ، عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، مؤسسة دار التعاون ١٩٧٤

تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، الذهبي ـ محمد بن أحمد بن عثمان المتوفي ٧٤٨ هـ ، مطبعة المدني بالقاهرة ١٩٧٤ .

تاريخ الدول ، الذهبي محمد بن أحمد بن عثمان المتوفي ٧٤٨ هـ ،

تاريخ خليفة بن خياط ، رواية بقي بن مخلد ، وزارة الثقافة والسياحة والارشاد .

الكامل في التاريخ ، عز الدين علي بن الأثير ، دار صادر ودار بيروت ١٩٦٥ .

السيرة النبوية ، ابن هشام ، الحلبي بمصر ١٩٥٥ .

زاد المعاد في هدي خير العباد ، ابن القيم الجوزية المتوفي ٧٥١ ،

فقه السيرة ، محمد الغزالي ، دار الكتاب العربي ١٩٥٣ .

المعارف ، ابن قتيبة الدينوري ـ المتوفي ٢٧٦ هـ ، دار المعارف بمصر .

عيون الأخبار ، ابن قتيبة الدينوري ـ المتوفي ٢٧٦ هـ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ .

الفتنة ووقعة الجمل ، سيف بن عمر ـ جمع وتصنيف أحمد عرموش ، دار النفائس ، بيروت ١٩٧٢ .

العواصم من القواصم ، القاضي أبو بكر بن العربي المتوفي ٥٤٣ هـ ، المطبعة السلفية ١٣٨٧ هـ .

الأغاني ، ابو الفرج الأصفهاني المتوفي ٣٥٦ هـ ، دار الشعب بمصر .

الكامل في الأدب ، المبرد ـ المتوفي ٢٨٦ هـ ،

مروج الذهب ، المسعودي ، المتوفي ٣٤٦ هـ ، دار الاندلس ، بيروت ١٩٧٣ .

الطريق الى المدائن ، أحمد عادل كمال ، دار النفائس ، بيروت ١٩٧٢ .

القادسية ، أحمد عادل كمال ، دار النفائس ، بيروت ١٩٧٣ .

سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية ، أحمد عادل كمال ، دار النفائس . بيروت ١٩٧٩

تاريخ موجات الجنس العربي ـ في بلاد الشام ، محمد عزة دروزة ، المكتبة العصرية ـ بيروت .

اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، ادوار جيبون ،

تاريخ الحضارة ، ول ديورانت ـ ترجمة د . زكي نجيب محمود ، جامعة الدول العربية .

تاريخ فلسطين ، ظفر الاسلام خان ، دار النفائس ، بيروت ١٩٧٣ .

تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، فيليب حِتّي ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٨ .

امبراطورية العرب ، جون باجوت جلوب ، تعريب خيري حماد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٦٦ .

الفتوحات الاسلامية الكبرى ، جون باجوت جلوب ،

جامع التواريخ ، رشيد الدين فضل الله الهمذاني ، وزارة الثقافة بمصر ١٩٦٠ .

شرح كتاب السِّيَر الكبير ، محمد بن أحمد السَّرَخْسي ، معهد المخطوطات لجامعة الدول العربية ١٩٧١ .

الخراج ، أبو يوسف ، المتوفي ١٨٢ ، المطبعة السلفية ١٣٩٢ هـ .

الجزية والخراج في الاسلام ، دانيل كنيث ،

أضواء على التاريخ الاسلامي ، فتحي عثمان ، دار العروبة ١٩٥٦ .

تاريخ التاريخ ، علي أدهم ، دار المعارف ـ سلسلة كتابك .

أسد الغابة ، عز الدين بن الأثير ، المتوفي ٦٣٠ هـ ، كتاب الشعب ١٩٧٠ .

الإصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر العسقلاني ـ أحمد بن علي المتوفي ٨٥٢ هـ ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٩٣٩ .

الاستيعاب في أسماء الأصحاب ، يوسف بن عبد الله القرطبي ـ ٤٧٣ هـ ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٩٣٩ .

جمهرة أنساب العرب ، ابن حزم الاندلسي ـ علي بن أحمد ٤٥٦ هـ ، دار المعارف ١٩٧١ .

الطبقات الكبرى ، محمد بن سعد المتوفي ٢٣٠ هـ ، مؤسسة النصر ، طهران ١٣٢٢ هـ .

أنساب الأشراف ، البلاذري ـ احمد بن يحي ٢٧٩ هـ ،

سير أعلام النبلاء ، الذهبي ـ محمد بن أحمد بن عثمان ، ٧٤٨ هـ ،

الوفيات ، ابن قنفذ القسنطيني ، احمد بن حسن ، المكتب التجاري بيروت ١٩٧١ .

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ابن خلكان ٦٨١ هـ ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ .

فوات الوفيات ، الكتبي ـ محمد بن شاكر بن احمد ٧٦٤ هـ ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ .

الوافي بالوفيات ، الصفدي ـ صلاح الدين خليل بن أبيك ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ١٩٥٣ .

ميزان الاعتدال ، الذهبي ـ محمد بن أحمد بن عثمان ٧٤٨ ، الحلبي بمصر ١٣٨٢ ـ ١٩٦٣ .

لسان الميزان ، ابن حجر العسقلاني ـ احمد بن علي ٨٥٢ هـ ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ١٩٧١ .

تذكرة الحفاظ ، الذهبي ـ محمد بن احمد بن عثمان ٧٤٨ هـ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، أحمد بن عبد الله الأصبهاني ، الخانجي بمصر .

معجم الأدباء ، ياقوت الرومي الحموي ،

تهذيب التهذيب ، ابن حجر العسقلاني ـ احمد بن علي ، دائرة المعرف النظامية ـ حيدر لآباد .

إنباه الرواة على أنباه النحاة ، علي بن يوسف القفطي ٦٢٤ هـ ،

كتاب الطبقات ، خليفة بن خياط ٢٤٠ هـ ، بغداد ١٩٦٧ .

خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، الخزرجي ـ صفي الدين احمد بن عبد الله ، بعد ٩٢٣ هـ ، ٩٧١ . مكتب المطبوعات الاسلامية ، حلب ـ بيروت .

تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي ـ احمد بن علي ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

تقريب التهذيب ، ابن حجر العسقلاني ،

كتاب الضعفاء الصغير ، البخاري ـ محمد بن اسماعيل ، دار الوعي بحلب .

كتاب الضعفاء والمتروكين ، النسائي ـ أحمد بن شعيب ، دار الوعي بحلب .

الكامل في ضعفاء الرجال ، عبد الله بن عدي ، مطبعة سلمان الأعظمي ـ بغداد .

ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد ، محمد بن السعيد ـ ابن الدبيثي ، مطبعة دار السلام ـ بغداد .

قاعدة في الجرح والتعديل وقاعدة في المؤرخين ، أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين علي السبكي ، مطابع دار الشعب ـ القاهرة .

الصديق أبو بكر ، محمد حسين هيكل ، مطبعة مصر ١٣٦١ هـ .

قادة فتح الشام ومصر ، محمود شيت خطاب ، دار الفكر ، بيروت .

الفاروق القائد ، محمود شيت خطاب ، دار الشعب بمصر ١٩٧٠ .

عبقرية خالد ، عباس محمود العقاد ، الهلال ١٩٥٢ .

عمرو بن العاص ، عباس محمود العقاد ، دار الهلال .

خالد بن الوليد ، محمد صادق عرجون ، مكتبة الكليات الازهرية ١٩٦٧ .

خالد بن الوليد ، اغا ابراهيم أكرم ، ترجمة اسماعيل كشميري ، المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ١٩٧٤ .

سيف الله خالد ، محمد فرج ، دار الفكر العربي ١٩٥٨ .

مقدمة في أصول التفسير ، ابن تيمية ٧٢٨ هـ ، دار القرآن الكريم ـ الكويت .

شعر الفتوح الاسلامية في صدر الاسلام ، النعمان عبد المتعال القاضي ، الدار القومية ١٩٦٥ .

الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ـ محمد بن احمد الأنصاري ، دار الكتب المصرية ١٩٣٦ .

تفسير القرآن العظيم ، الحافظ ابن كثير ٧٧٤ هـ ، كتاب الشعب .

الجامع الصحيح ، البخاري شرح الكرماني ، المطبعة المصرية ١٩٣٤ .

الحواضر الاسلامية الكبرى ، د . عصام الدين عبد الرؤوف ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٧٦ .

صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج القشيري ٢٦١ هـ ، كتاب التحرير ١٣٨٣ .

الفتح الرباني لترتيب مسند احمد بن حنبل الشيباني ، احمد عبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتي ، القاهرة ١٣٥٣ هـ .

المطالب العالية من الأسانيد الثمانية ، ابن حجر العسقلاني ، وزارة الاوقاف بالكويت ١٩٧١ .

رياض الصالحين ، النووي ،

الكنز الثمين ،

انجيل برنابا ، تحقيق سيف الله فاضل احمد فاضل ، دار القلم بالكويت ١٩٧٣ .

التقاويم ، محمد محمد فياض ، ادارة الثقافة بمصر . الألف كتاب ١٩٥٨ .

المسالك والممالك ، ابن خرداذبه ـ عبيد الله بن عبد الله ، ٣٠٠ هـ ، ليدن ١٨٨٩ م .

الخراج وصنعة الكتابة ، قدامة بن جعفر ، ٣٢٠ هـ ، مطبعة بريل ، ليدن ١٨٨٩ .

المالك والممالك ، الاصطخري ـ ابراهيم بن محمد الفارسي ، دار القلم ١٩٦١ .

آثار البلاد وأخبار العباد ، القزويني ـ زكريا بن محمد بن محمود ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٠ .

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، المقدسي البشاري ٣٨٠ هـ ، مطبعة بريل ، ليدن ١٩٠٦ .

الرحلة ، محمد بن جبير ، ٦١٤ هـ ،

تحفة النظار وعجائب الأسفار ، ابن بطوطة ،

معجم البلدان ، ياقوت الرومي الحموي ٦٢٦ هـ ، دار صادر ، بيروت .

دائرة المعارف الاسلامية ، دار الشعب بمصر .

الموسوعة الثقافية ، مؤسسة فرانكلين ،

المنجد في اللغة والاعلام ، دار المشرق ، بيروت ١٩٧٣ .

مختار الصحاح ،

في الحرب عند العرب ، ابراهيم مصطفى المحمود ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ دمشق ١٩٧٥ .

فصول في علم النفس العسكري ، محمد عاطف السعيد ـ رائد بحري ، الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٥٩ .

أضواء على الحرب النفسية ، جمال السيد ـ عقيد ، المكتبة الثقافية وهيئة الكتاب ١٩٧٢ .

تاريخ الجيوش ، جورج كاستلان ـ ترجمة كمال دسوقي ، النهضة المصرية ، الألف كتاب ١٩٥٦ .

تاريخ الاسطول العربي ، يس الحموي ،

حرب الصحراء ، فاروق الطويل ، إدارة التوجية المعنوي ١٩٦٧ .

في الحرب ، كارل فون كلاوزفيتز ـ تعريب ديري والايوبي ، دار الكاتب العربي بالقاهرة .

مدخل الى التاريخ العسكري ، ايريك موريز ـ تعريب اكرم ديري والهيثم الايوبي ، دار الارشاد ـ بيروت ١٩٧٠ .

الحرب عبر التاريخ ، مونتجومري ـ فيلد مارشال ـ تعريب فتحي غمرى ، الانجلو المصرية ١٩٧١ .

المناورات الحربية الدفاعية ، ب . هـ . ليدل هارت ، دار العلم للجميع ـ بيروت .

خريطة العالم العربي ١ : ١١,٥٠٠,٠٠٠ ، مصلحة المساحة المصرية ١٩٤٥ .

خريطة طرق المملكة العربية السعودية ، شركة الزيت العربية الامريكية ـ أرامكو ،

فلسطين بين الانتداب والانتهاب : ٢٥٠٠٠٠ ، د . محمد محمود الصياد .

لبنان ـ خريطة سياحية ،

خريطة لبنان السياحية ، بولس فارس بولس ، بيروت ،

2000000		Near East-Road Map	Freytag-Berndt U. Artaria-Wein. Naher Osten
1:350000	خريطة	Israel with Jordan	Bartholomew World travel Series
	خريطة	Abou Kemal	Le Service Geographiques des F. F. L. Août 1945
	خريطة	Palmyre	Le Service Geographimeus des P. D. R 1:500. 000
	خريطة	Damas	Le Service Geographiques des P. D. R 1:500. 000
	خريطة	Fiq-Haifa	1:200. 000
	خريطة	The Middle East	John Bartholomew tson Lid. Edinherg 1:4000. 000

فهارس الكتاب

دليل الخرائط

دليل الأعلام

المسلمون

الروم واعوانهم

دليل الأماكن

محتوى الكتاب

صدر عن دار النفائس للمؤلف

- استراتيجية الفتوحات الإسلامية
  - ١ ـ الطريق الى المدائن
  - ٢ ـ القادسية
  - ٣ ـ سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية
  - ٤ ـ الطريق إلى دمشق
- جداول التقويم الميلادي المقابل للتقويم الهجري في سني الفتوحات الاسلامية .

من منشورات «دار النفائس»